منير الريس

الكتاب الذهبي

للثورات الوطنية في المشرق العربي

الثورة السورية الكبرى





دار الطليعة - بيروت

الكتاب الذهبي

للثورات الوطنية في المشرق العربي

الثورة السورية الكبرى

الطبعة الأولى
آب ـ أغسطس ١٩٦٩

منير الريس

الكتاب الذهبي

للثورات الوطنية في المشرق العربي
الثورة السورية الكبرى

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت



منير الريّس صاحب المذكرات

الإهداء

إلى أرواح رفاق السلاح الذين تساقطوا في ساحات الشرف شهداء ، وضربوا في الثورات التي خضت معاركها معهم أروع الأمثلة على البطولة والفداء ، أهدي هذا الكتاب .

منير الريس

كتاب جديد

بقلم الكاتب العربي الأستاذ نزيه الحكيم

احتفل الوطن العربي يوم ٦ مايو من هذا العـــام ، بمرور نصف قرن على ذكرى أولى قوافـل الشهداء العرب ، تلك القافلة التي أعدمها جمال باشا السفاح عام ١٩١٦ في دمشـــق وبيروت بجريمة « التمرد على الدولة العثمانية » ، فكانت طليعة سلسلة لاتنتهي من الثورات ما يزال يتمخض عنها الوطن العربي حتى يستكمل السيادة على ترابه والحياة الحرة لمواطنيه .

وهذا ، بالطبع ، لا يعني أن تلك كانت أولى الثورات العربية ، فقد سبقتها ثورات عديدة شهدها القرن الماضي في كل بقعة من افريقيا العربية . ولكن ما تستحقه من تكريم خاص في ذكراها الخمسين إنما يصـــدر عن أنها — في هذه السلسلة الطويلة — كانت طليعة ثوراتنا ذات الطابع القومي، المستندة على وعي بوحدة الوطن . والاستعمار لا ينهزم حقاً إلا بضرب ما اصطنعه من تجزئة .

من أجل هذا ، ربما كان أفضل ما استطيع الإسهامَ به في هذه الذكرى هو

أن أحدّث القارىء عن كتاب في طريقه إلى النشر ، هو مجموعة مذكرات ثائرٍ من سورية تفتّحَ وعيُه الفتي على تلك الحادثة التاريخية ، ثم اشترك بعدها لا في الثورة السورية الكبرى فحسب ، بل أيضاً في ثورات فلسطين والعراق وفي كل « الثورات اليومية » التي يتألف منها العملُ العام في بلادٍ حديثة العهد بالاستقلال. ولقد كان هذا الكتاب ضرورياً جداً في هذه المرحلة ، لأننا نشهد الآن – ولا سيما في بيروت – موجةً من كتب المذكرات عن نصف القرن الماضي فيها الكثير من أنصاف الحقائق وأرباعها ، تبريراً وتزييفاً وادعاءات نضال ، يأتي هذا الكتاب بموضوعيته المطلقة تصحيحاً لها غير مباشر ، ووثيقةً تستحق أن تُعتمد في أية محاولةٍ لكتابة تاريخنا المعاصر .

أما صاحب هذه المذكرات فهو الأستاذ منير الريّس : رجل قضى ثلث القرن الأخير في الصحافة المناضلة ، فأغلقت صحيفته عشرات المرات ، وعرف السجون والمنافي دفاعاً عن مثله الأعلى وعناداً في تأييد الحق ، ولكنه قبل ذلك وخلاله وزّع حياته بين شعاب الثورة المسلحة ومفازاتها ، وبين أحكام الإعدام والمعتقلات الأبدية التي هي نصيب الثائرين . ولست أنسى حواراً شهدُته مرة بينه وبين وزير الداخلية في إحدى حكوماتنا الانفصالية : كان الوزير يهدده بإرساله إلى سجن (المزة) المشهور من أجل نشره في جريدته عن مظاهرة وحدوية هتفت فيها الجماهير لعبد الناصر ، فضحك منير الريس وقال له : من الأفضل أن تبحث عن تهديدٍ آخر ، لأنه ما من « زنزانة » في كل سجون سورية ولبنان إلا زرتها أيام الفرنسيين ...

ولقد كان هذا حقاً بالفعل ، لأن سورية لم تعرف أيام الانتداب الفرنسي إلا الثورات ، ولم يبقَ فيها بيت إلا قدَّم نصيبه من واجب الثورة قتلاً بالرصاص أو سجناً أو حريقاً ، حتى قال الجنرال « فيغان » في « الكتاب الذهبي لجيوش المشرق » ان عهده فيها – يوم كان مفوضاً سامياً في سورية ولبنان – شهد أكثر من ٣٠٠ ثورة مسلحة بين محلية وكبرى !

ولقد وضع المؤلف لمذكراته عنوان « طريق الحرية » . ولو كان الأمر بيدي لاقترحت أن يسميه : « الكتاب الذهبي للثورات العربية » ، رداً على ذلك الكتاب الاستعماري .

ذلك لأن القارىء ينتهي من هذا الكتاب وفي ذهنه صورة أساسية ، هي أن الثورة العربية كانت وما تزال كُلاً متصلاً متكاملَ الحلقات ، وكانت وما تزال على مدى الاقطار العربية ثورة واحدة ، وان هذه الثورة القومية قطعت من حياتها نصف قرن والشمالُ فيها يلتقي بالجنوب ، والمشرق يلتقي بالمغرب ، ومِصْرُ العربيةُ فيها ـ منذ البداية ـ نواةٌ للجمهورية العربية المتحدة .

ولعلَّ القارىء لم يكن يعلم قبل هذا الكتاب ـ مثلاً ـ أن « الضباط الأحرار » في مصر كانوا يريدون عام ١٩٤١ (قبل ١١عاماً من ثورتهم في القاهرة) أن يلتحقوا بثورة العراق ضد البريطانيين، وأن جمال عبد الناصر أرسل باسمهم كتاباً الى الدكتور محمد حسن سلمان ، وزير المعارف إذ ذاك في حكومة رشيد عالي الكيلاني ، يطلب منه أن يهديهم الى الطريقة التي يستطيعون بها الالتحاق بالجيش العراقي الثائر ، تدفعهم إلى ذلك عروبتهم على رغم ما يعرفونه من أنها كانت حرباً غير متكافئة . وهم بالفعل قد عجزوا عن تحقيق رغبتهم هذه لأن البريطانيين لم يلبثوا في الأسبوع نفسه ان ضربوا الثورة ، وأعادوا الأمير عبد الإله وصياً على عرش العراق ، فضرب كل العناصر القومية ، ثم علق أمام قصره مشانق الاعدام لقادة هذه الثورة ، يونس السبعاوي ، ومحمود سلمان ، وفهمي السعيد ، في يوم أسود كان ٤ مايو من هذا العام ـ موعد ذكراه الخامسة والعشرين ، وكان يوم ١٤ يوليه ١٩٥٨ يوم ثأر العراق منه .

فإذا أضفنا الى هذا ما هو معروفٌ من أن عبد الناصر ورفاقه حاولوا عام ١٩٤٧ أن يلتحقوا بقوى « جيش الانقاذ » السوري لمقاتلة اليهود في فلسطين ، فلم يمنعهم من ذلك إلا انحراف الحاج امين الحسيني مفتي القدس ، أدركنا لماذا

كانت ثورة ٢٣ يوليه ذروة التفتح القومي في الثورة العربية .

والكتاب الذي بين أيدينا يتناول تاريخ ستين عاماً تقريباً من حياة المشرق العربي ، من خلال الذكريات الشخصية لمؤلفه ، ولذلك كان كتاباً ضخماً ـ في ١٤٠٠ صفحة من القطع الكبير على الأقل ـ وسيظل ضخماً حتى إذا لم يكن الآن نشر القسم الأخير منه (لأنه يتناول مرحلة لما تلتئم جراحها بعد) .

على ان الطابع الشخصي لهذه المذكرات ليس أكثر من وسيلة للربط بين مختلف جوانب صور المرحلة وأحداثها ، تتيح للقارىء أن يصل من جزئياتها الى تركيب شامل ، وتتيح له موضوعيتُها الصارخة أن يفهم الكثير من أسباب الضعف وعوامل الانتكاس ، سواء خلال النضال الثوري نفسه أو بعد الاستقلال .

فتأريخه لثورة ١٩٢٥ في سورية – مثلاً – ليس مجرد حلقات متتابعة من المعارك التي اشترك فيها المؤلف في جبل الدروز وغوطة دمشق وضواحي حمص وشمال لبنان ، بل هو ايضاً صورة للمجتمع السوري في المدينة والريف والبادية ، ولتلاقي المصالح في كل مرة بين الاقطاعي والمستعمر ، ولاستغلال البورجوازية في استغلال دماء البُسَطاء ، ومناورات المتزعمين لاجتناب الأخطار واحتكار المكاسب ، ولدور التعليم الاستعماري والتبشيري في إضعاف الولاء القومي ، ولأساليب الحكم ـ استعمارياً و « وطنياً » ـ في تعميق التفرقة الطائفية . وهو أيضاً في الوقت نفسه ـ ومعه تاريخ ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، وثورة العراق عام ١٩٤١ ـ حلقات متكاملة من الدروس في « حرب الأنصار » وشروط نجاحها ومرتكزاتها الجغرافية والشعبية ، وهي دروس دفع العرب حتى الآن ثمناً باهظاً لعدم وعيهم لها والاستعداد لها بالتنظيم والتعبئة ودقة اختيار القيادات قبل امتشاق السلاح الثوري .

يضاف الى هذا أن الكتاب يتحدث ـ ربما لأول مرة ـ عن حياة عددٍ ضخم

من المناضلين العرب اضطرهم الاستعمار وعملاؤه أن يلجأوا الى أوروبا المحتلة خلال الحرب العالمية الثانية ، فكان منفاهم الاضطراري هذا ميداناً لتكشُّفِ ما في نفوس بعضهم من انتهازية ، وترك في الوقت نفسه فراغاً كبيراً في داخل الوطن ذاته ملأه الانتهازيون واحتلـّوا فيه السلطة التي كانت للمستعمر ، ثم تركوا المنفيين في منافيهم وتركوا في السجون نفسَ اولئك الذين سجنهم المستعمر عقاباً على نضالهم ضده ، واحتفظوا في مناصب الدولة العليا بنفس اولئك الذين كانوا فيها اعواناً للمستعمر وعبيداً له .

وأنا أكتفي بهذه العموميات لاستحالة الإحاطة ـ في كلمة صغيرة ـ بتفاصيل الصورة التي تقدمها لنا مذكرات منير الريس. ولكني حريصٌ هنا على أن أتابع جوانب أخرى من الفكرة الأساسية التي عرضت لها في البداية ، فكرة وحدة الثورة العربية ، مكانياً وزمنياً معا .

ان السمة الأولية لهذه الثورة — منذ يوم ٦ مايو ١٩١٦ — أنها قومية لا اقليمية ولا قطرية . وإذا كان الناس يتحدثون اليوم عن « تشي غيفارا » كبطل ثوري من نوع جديد ، هو في أمريكا اللاتينية تعبير عن وحدة الثورة على الفقر والتبعية ، فالكتاب الذهبي يقدم لنا أكثر من « غيفـــارا » واحد في تاريخ ثورات المشرق العربي . والقارىء ينتقل من سورية الى فلسطين ثم إلى العراق فيجد أمامه — من القائد فوزي القاوقجي مثلاً الى المؤلف نفسه — اسماء كثيرة تتكرر هي نفسها في الثورات الثلاث ، ما يكاد ينتهي اصحابها من معركة هنا حتى ينتقلوا بنفس اليُسر إلى معركةٍ أخرى يدعو اليها الواجب نفسه هناك ، وقد ازدادوا خبرةً بالنضال وبشروط نجاحه . بل إنه ليجد هنا وهنالك نفس الأسماء الانتهازية التي تُكلف نفسها دائماً بمهمة جمع المال للثورة ، وشراء الأسلحة للثوار ، فاذا أصحاب هذه الاسماء هم لصوص الثورة وأدعياء زعامتها الذين لا يهمهم أن يقلدوا « فاروق » ، فيقدموا لها الأسلحة الفاسدة . وهو يجد هذه

الانتهازية نفسها في مراحل المقاومة مع الاستعمار والحصول على الاستقلال الشكلي : ففي نفس الوقت الذي كان بعض الزعماء في مصر يسمي معاهدة١٩٣٦ « معاهدة الشرف والكرامة » ،كان بعضهم في دمشق يسمي معاهدة ١٩٣٦ مع فرنسا « معجزة القرن العشرين » .

وهذا الازدواج في النضج ـ نضج الثورة القومية ونضج الانتهازية المضادة لها ـ نجده أيضاً في صور التنظيم السياسي والمواقف السياسية . فلئن اشتهرت الأحزاب السياسية المحلية التي وصلت إلى السلطة على حساب دماء الآخرين ، وأصبحت أحزاباً بعد تسلم السلطة في الغالب ، فإن هناك حدثاً هاماً لا يعرفه إلا القليلون : هو أن تنظيماً سياسياً سرياً نشأ لأول مرة في العالم العربي عام ١٩٣٤ على أساس الوحدة العربية واستهداف الحركة العربية الواحدة ، يدعى « الحزب القومي العربي » . كانت مهمة هذا الحزب السري أن يخطط دائماً على أساس وحدة المعركة العربية ، وكانت له إلى جانب هذه « الاستراتيجية » العامة سياسات « تكتيكية » موقتة ، كثيراً ما نجح في تنفيذها ولو جزئياً ، لإن أعضاءه القياديين كانوا في نفس الوقت أعضاء في الأحزاب العلنية في مختلف الأقطار ، حتى ان واحداً منهم كان ـ بتكليف من الحزب السري ـ عضواً قيادياً في الحزب السوري القومي ، الذي أنشأه الإيطاليون تمهيداً لتحقيق حلم موسوليني بجعل البحر الأبيض المتوسط « بحيرة رومانية ».. ثم جاء الجانب الانتهازي لهذه « الحركة العربية الواحدة » حين اجتمع بضعة انتهازيين في حلب عام ١٩٤١ فسرقوا شعاراتها وأعلنوا إنشاء « الحزب العربي القومي » ثم ذهبوا يفاوضون المانيا النازية باسم الشعوب العربية !..

ولئن كانت « الثورة العربية الكبرى » عام ١٩١٦ ثورة عربية شعبية حقة ، وكان الجانب الانتهازي منها أن « الشريف حسين » ساوم الانكليز على ثمراتها ليضمن لنفسه مملكة ، بذريعة أنه حفيد الرسول وصاحب الحق الشرعي في

الخلافة ، فقد بلغ استغلال هذا النسب أقصى ذروته على يدي الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ، الذي ذهب بعد ربع قرن - وبوصفه أيضاً حفيد الرسول - يساوم الألمان والطليان على عرش سورية الطبيعية (بما فيها لبنان والاردن وفلسطين) ، فلم يفز منهم بأكثر من تصريح سري وقعه «شيانو» و«ريبنتروب»، كان بيان « مكماهون » أفضل منه ألف مرة ، لأن كل ما فيه كان إشارة الى « عطف دول المحور على أماني الأمة العربية » ، دون أي تعريف لأرض هذه الامة ، ولا تحديد لتلك الأماني ، ولا تفسير لذلك العطف ، الذي كانت أطماع هتلر وموسوليني أفصح تكذيب له .

وهذه المناسبة تجرّنا الى الحديث عن فصل طريف من فصول هذه المذكرات، فلقد كان اسم « يونس بحري » في أذهان الناس ، أيام الحرب ، رمزاً للحملة الصارخة من راديو برلين على الاستعمار البريطاني وعملائه في الوطن العربي ، وللحديث المستمر عن ذلك « العطف » النازي الفاشيستي على الأماني العربية . ولكن منير الريس ، في حديثه عن الأيام السبعين التي قضاها في سجن تونس ، يروي لنا كيف اكتشف أن يونس بحري لم يكن طوال الوقت إلا جاسوساً بريطانياً على الألمان ، تتألف « شيفرة » رسائله الى مصلحة الاستخبارات البريطانية من أوائل كلمات الخطب التي كان يلقيها من اذاعة برلين ، وكيف أن البريطانيين هم الذين أنقذوه من الاعتقال والإعدام ، وبرغم ارادة الفرنسيين ...

وكذلك تجرّنا الى فصل طريف آخر ، هو ذلك الذي يصف لنا فيه المؤلف كيف كان « حفيد الرسول » الحاج أمين الحسيني ، يستعيض عن الزعامة التي لم يستطع بلوغها في وطنه بزعامة كاذبة في الخارج ، فيقنع الألمان بانشاء فرقتين من مسلمي يوغوسلافيا ليحاربوا بها ثورة « تيتو » ، ليستطيع هو أن يستعرض الفرقتين ويضع يده على ما أمكن من نفقاتها ، مما أدى الى خلاف طائفي واقليمي في يوغوسلافيا استمرت عقابيله حقبة طويلة .

وتهدأ الثورة ، أو تتوقف الحرب ، فيعود منير الريس الى ميدان نضاله الآخر : في الصحافة ، حيث يستطيع بقلمه أن يؤكد مرة أخرى وحدة المصير العربي وأولوية هذه الوحدة .

ولئن كانت انتهازية الحكام في سورية وغيرها قد سرت عدواها بصورة طبيعية الى الصحافة ، وجعلت بعض أصحابها أدوات طيّعة للسلطة وللطامعين بالسلطة ، حتى كان يقال عن بعضها ان كل عمود منها مأجور لدولة ، وحتى اصبحت تتقلب تأييداً ومعارضة مع كل انقلاب جديد ، فقد كانت صحافة سورية أيام الفرنسيين مفخرة من مفاخر النضال الثوري ، وطليعة قيادية أقوى في سلطانها في القيادات الحزبية . ومنير الريس واحد من صحافيي تلك المرحلة المشرفة ، وهو دون ريب واحداً من القلائل الذين حافظوا بعد الاستقلال على ثوريتهم الصادقة قبله . ولذلك تراه ، حتى حين يخطىء ، يملأ صفحات مذكراته بالنقد الذاتي لنفسه ، وتراه يحكم على كل الناس بما لهم وبما عليهم ، وترى حديثه عن زعماء عهدالاستقلال ـ حكاماً ومعارضين ـ صريحاً غاية الصراحة ، ينتقد الاقطاع الذي أيدوه ، والرشوة التي فرضوها على الناس جنباً الى جنب مع الارهاب ، وشركات الأنصار والمحاسيب ، والمناصب المطروحة بالمزاودات ، والتسلط الرأسمالي الذي انطلق ذات يوم من صفقة طائرات أهديت الى بريطانيا « عرفاناً بجميلها » . ثم تقرأ في هذه المذكرات أسرار كل المناورات السياسية وكل صفقات الرشوة الخارجية وكل الانقلابات التي حاولت أن تقيم في سورية عرشاً لعبدالله او عبدالإله ، ثم حاولت ان تفرض عليها حكم النار والحديد لتقتل فيها التطلع القومي وتمنعها من استئناف عملها للوحدة ، في إرهاب شمل كل المواطنين ، حتى لتضحك أو تبكي وأنت تقرأ أن واحداً من رؤساء الجمهورية يضطر الى إسكات محدثيه إذا دخل عليه خادمه يحمل لهم القهوة ، فيقول لهم في ذعر : « هس ! مكتب ثان !... » .

على أنك برغم ذلك كله لا بد لك أن تخرج من قراءة هذا الكتاب بمثل ما

خرجت به أنا ، مؤمناً بأن « شعب الـ ٣٠٠ ثورة » ما يزال هو نفســـه الشعب العربي المؤمن ، الذي لا يحلم بالثورة إلا عربية وقومية . « ان الوحدة هي إرادة الأمة العربية ومصيرها المحتوم ، آتية ساعتها لا ريب فيها ، ولن تستطيع قوة مهما ساندها الاستعمار أن تقف في وجهها ، وليس على المؤمنين بحق أمتهم إلا أن ينظموا صفوفهم ويوحدوا كلمتهم تحت رايتها » .

« نزيه الحكيم »

القاهرة ١٩٦٧/٦/٥

المقـــدّمة

شغلتني شواغل الحياة طويلاً عن كتابة هـــذه المذكرات ، مع احتفاظي بمراجعها ومستنداتها . وكنت أمني النفس بأن تتبنى الحكومة السورية في عهد الاستقلال ، أو تتبنى جامعـــة الدول العربية يوماً تأريخ الكفاح العربي ، والثورات العربية المسلحة منذ فجر النهضة ، فأدلي بدلوي بين الذين عاشوا الأحداث العربية ، أو خاضوا المعارك في القرن العشرين ليكون ، للأجيال الصاعدة مرجع يرجعون اليه في معرفة ما قدم آباؤهم وأجدادهم من تضحيات ، أو ما بذلوا وأعطوا في سبيل الحريـــة التي تنعم بها بلادهم ، والاستقلال الذي تتفيأ اليوم ظلاله . ولكن انتظاري طال ، وتقدمت بي السنون ، ورأيت بقايا السيوف من إخواني ، تطويهم يد القدر ، وتتخاطفهم واحداً بعد الآخر ، دون أن يسجلوا الوقائع التي شهدوها ، والأحداث التي عاشوها ، بل رأيت ما هو أدهى وأعظم خطباً ، فقد أقدم أحد تجار طباعة الكتب ، وجني الربح من ورائها ، على تأليف وطبع كتاب عن الثورات السورية في عهد الاستعمار الفرنسي ، دون ان تكون له فيها ناقة أو جمل ، واعتمد في تسجيل أحداثها على ما يتناقله الناس عنهـا في المجالس ، أو على كتيبات ومذكرات طبعت من قبـــل ، لم يعش مؤلفوها أو واضعوها أحداث تلك الثورات بأنفسهم ، أو لم يكونوا أهلاً لتدوينها وتمحيصها ، ثم أضاف إليها بعامل الربح أقوال بعض الأحياء من المجاهدين عن المعارك التي

خاضوهـــا في الثورة السورية الكبرى التي نشبت في صيف عام ١٩٢٥ ، وعن دورهم فيها ، ودونها ، في كتابه ، كما هي ، إلى جانب صورهم الشمسية ، دون تدقيق أو تمحيص، وذلك لقاء ثمن نسخة من الكتاب أداه كل واحد منهم سلفاً، وقبل الطبع ، وأكثر هؤلاء من العامة والأميين ، ادعوا فيما كتبوه عن أنفسهم ، من البطولات ما كان بعضه ، وما لم يكن ، وبالغوا في الدعوى ، وأسرفوا في الارقام ، فأصبح الكتاب بجملته تاريخاً مشوهاً للثورات السوريـــة ، مشوباً بالأضاليل والمبالغات ، بل ان فيه أسمـــاء لعملاء كانوا حملوا السلاح ، وحاربوا الثورة في صفوف الفرنسيين ، وضعوا في هذا الكتاب بأنهم من المجاهدين الأبرار، وقيل فيهم إنهم من قادة الثورة وزعمائها . كذلك قيل في حاكم عميل نصبه الفرنسيون حاكماً لدولة حلب انه ممن عملوا سراً في الاعداد لثورة الشمال ، وانه ساعد سراً في دعم ثورة الزعيم الراحل ابراهيم هنـانو ، لا لسبب ، إلا لأن نسيباً لهذا الحاكم غدا ، بعد أربعين عاماً من ثورة الشمال ، رئيساً للجمهورية السورية ، شمل في دمشق تاجر طباعة الكتب بعطفه ونفوذه وجدواه ، فخص المؤلف نسيبه أو عمه حاكم دولة حلب بما ليس فيه تزلفاً واستغلالاً . كذلك لم أجد في جميع ما كتب إلى اليوم عن الثورة السورية الكبرى في عام ١٩٢٥ ، ما يستحق بأن يكون مصدراً صادقاً للمؤرخين ، ورأيت النشء الذي وعى الجلاء ، وعاش عهد الاستقلال في سورية ، ومن جاء بعده يجهل تاريخ النضال الوطني، ويحسب أكثره إنه منحة من الاجانب . وتاريخ نضـال سورية في سبيل الاستقلال ضار وضخم ، من العار ألا تسجل وقائعه بدقة ، وتبقى مدونة للأجيال ، فقد كتب الرئيس جواهر لال نهرو زعيم الهند في رسائله من السجن إلى ابنتـــه أنديرا صفحات مشرقة عن كفاح الشعب السوري الصغير، وثوراته المسلحة على الفرنسيين المستعمرين ، يوم كانوا أقوى دولة في اوروبا حتى ان السيد شكري القوتلي أول رئيس للجمهورية في عهد الاستقلال ، سمع في رحلته إلى الهند من رئيس جمهورية احدى المقاطعات، وهو يرحب به كضيف بلاده ـ سمع منه ، وهو يشيد بكفاح سورية وثوراتها المسلحة حتى أجلت الاستعمار عن أرضها ، وحققت استقلالهـا

قبل أمم كبرى كالهند ـ سمعه يطنب بتضال شعبا الصغير الذي يعد أربعين مليون نسمة فقط ، فقال له القوتلي : « ان شعب سورية الذي ذكرت لا يعدو الاربعة ملايين نسمة ! » . وفعلاً ان شراذم وعصابات خرجت من صفوف هذا الشعب الحي الصغير ، نازلت الجيوش الفرنسية المنتصرة في الحرب العالمية الاولى ، في معارك عديدة ، واستطاعت ، في إحداها ، أن تسحق جيش الجنرال «ميشو» بأكمله ، واستطاعت في بعضها ان تسحق حملات بكاملها ، وان تكبد الفرنسيين المليارات من المال ، وعشرات الوف القتلى ، حتى اعترف الجنرال «فيغان» الذي قلد ، بعـــد الجنرال « غورو » ، منصب المفوض السامي في سورية ولبنان ـ اعترف في مذكراته بأن عدد الثورات المسلحــة التي نشبت في عهده ـ وعهده على ما أذكر دام نيفاً وسنتين ـ بلغ أكثر من ثلاث مئة ثورة مسلحة بين محليـة وكبرى .

وإذا كنت في مذكراتي هذه لا استطيع أن أحيط بكل الثورات السورية التي نشبت ، ولا بجميع نضال الشعب السوري ، فلا أقل من أن أُسجل المعارك التي خضتها ، والاحداث التي عشتها ، معترفاً بأن في مذكراتي هـــذه وقائع لا تروق أناساً اشتركوا في الثورة ، لأنها تمسهم ، وتمس أفعالاً صدرت عنهم ، فهؤلاء الذين أساءوا الى الثورة ، رأيت من واجبي ان اكشفهم ، لانهم عاشوا ، بعـــد الثورة ، أدعياء بطولات لم يأتوها ، ولم يجابههم بكذب دعواهم أحـــد ، وذلك بسبب وضعهم الاجتماعي وأسرهم ، أو بحكم المناصب السامية التي تولوها ، او بحكم الأحزاب السياسية التي انخرطوا في صفوفها . وسيسلقني هؤلاء ، وذووهم بألسنة حداد ، ولكني عشت اربعين عاماً من عمري ، أعمل في الصحافـــة العربية ، أُحارب الاستعمار ، وأحارب معه عملاءه وادعياء الوطنية والقومية ، اذكرهم بأسمائهم ، واجابههم بأعمالهم ، ولن يضيرني أن يضاف هؤلاء إلى أولئك ، مهما زاد عددهم ، ولي بوعي الشعب العربي ثقة بأنه يميز بين الحق والباطل ، ويفرق بين الغث والسمين ، ويعرف الخبيث من الطيب .

على انني لم اقتصر في هذه المذكرات على وقائع الثورة السورية الكبرى ،

وثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، وثورة العراق عام ١٩٤١ ، بعد ان كتب لي شرف المساهمة فيها ، بل قدمت لها نبذة من تاريخ حياتي ، والأحداث التي رافقت نشأتي ، ثم اضفت اليها الحياة السياسية بين الثورات الثلاث ، وبعدها ، وخاصة منها ما كان لي به صلة مباشرة ، بحكم عملي في الصحافة ، فجاءت هذه المذكرات تؤرخ احداثاً تتابعت على الوطن العربي ، في مدى ستين عاما ، وإن كان أكثرها يخص الشرق العربي ، لان الثورات الثلاث كانت سورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ساحاتها ، فمن الطبيعي ان تكون أكثر الحياة السياسية العربية تخص هذه الاقاليم من الوطن العربي .

بعد هذا ، من الله استمد العون والتوفيق والسداد .

منير الريس

صاحب جريدة « بردى » في دمشق

الفصل الأول

- ١ -

مع فجر النهضة العربية

اتفقت كلمة أكثر الكتاب والمؤرخين المعاصرين الذين كتبوا ودوّنوا وقائع التاريخ العربي الحديث ، على أن مطلع القرن العشرين كان فجر اليقظة القومية الحقة في البلاد العربية التي كانت يومئذ جزءاً من الدولة العثمانية . هذا مع التسليم بأن تباشير ذلك الفجر بدت في أواخر القرن التاسع عشر . وإذا لم يكتب لي شرف المساهمة في هذه اليقظة منذ سنيها الأولى ، فقد خط لي في لوح القدر أن ترى عيناي النور ، لأول مرة ، في مدينة حماة من بلاد الشام ، وأن أولد في الساعة الثالثة غروبية قبيل ظهر يوم الجمعة من الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ١٣١٩ هجرية ، وفق الخامس عشر من شهر حزيران عام ١٣١٧ مالية ، أي في الثامن والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٠١ ميلادية . وحماة يومئذ مركز لواء (متصرفية) من ولاية الشام التي مركزها دمشق ، إحدى ولايات الدولة العثمانية التي عاصمتها « الآستانة » أو « فروق » كما يسميها العرب ، واستانبول كما

يسميها الأتراك ، والقسطنطينية كما يسميها الغرب . وهكذا يكون مولدي في السنة الأولى من القرن العشرين الذي اعتبرنا مطلعه فجر النهضة واليقظة للأمة العربية ، وكتب لي ان أنمو وأترعرع واشب في غمرة الأحداث العربية والعالمية ، فلا عجب إذن ، وانا طفل ، أبدأ أعي ما حولي ، ووالدي عبد الرحيم بن محمد الريس موظف مالي في دوائر حكومة حماة ، ان يزدان صدر غرفة الضيوف في دارنا الكائنة في حارة التل – تل صفرون – من حي الدباغة ، بصورة كبيرة للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، وان تحدثني والدتي صدّيقة الريس ، وهي ابنة عم والدي ، باحترام ورهبة عن ذلك السلطان الذي يلقبونه بخاقان البرين ، وملك البحرين ، وحامي الحرمين الشريفين ، خليفة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، حتى إذا ما أعلن الدستور العثماني في الرابع والعشرين من شهر تموز عام ١٩٠٨ ميلادية ، وتم خلع السلطان عبد الحميد في شهر نيسان من عام ١٩٠٩ ، وعمت الفرحة بإعلان الحرية والعدالة والمساواة والأخوة ، وزوال حكم الفرد ، كل دار ، وكل بلد في المملكة العثمانية ، لاحظت ان أمي كانت حزينة ، لا تكتم أمام من تثق بهم من الأهل والأقارب والأصدقاء أسفها الشديد لخلع السلطان ، مطرية عهده بأنه عهد استقرار وخير وبركة ، مبدية عدم ثقتها بالسلطان محمد رشاد الخامس الذي تبوأ العرش مكان أخيه السلطان المخلوع ، وبمن تسلم في عهده مقاليد الحكم من شباب الترك ، حتى انها كانت لا تتورع عن ان تغمز من قناتهم.
واذكر ، وانا في عام ١٩١٢ ، مسافر مع والدتي واخوتي الى بلدة الكرك مركز لواء البلقاء من ولاية الشام ، لنلتحق بوالدي الذي نقل اليها بحكم وظيفته ترفيعاً الى وظيفة رئيس كتاب المحاسبة في دائرة المالية – اذكر كم اطلقت والدتي من الدعوات الطيبات للسلطان المخلوع الذي مدّ الخط الحديدي الحجازي في عهده بين دمشق والمدينة المنورة ، وسهل للحجاج المسلمين الوصول الى الديار المقدسة ، وزيارة قبر الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، وانقذهم من ان يمتطوا من دمشق متون الخيل والجمال ، ليقطعوا المسافة الى « طيبة » على مراحل تستغرق شهراً كاملاً ، يتعرضون خلاله في الوديان الجافة الموحشة إلى اهوال وأخطار

ومشاق ، منها عدوان القبائل على الحجيج ان لم ترض شيوخهم صرر السلطان يحملها اليهم امير الحج . وزادت دعوات والدتي للطاغية المخلوع عندما اجتزنا على ظهور الدواب، من محطة « القطرانة » على الخط الحجازي ، الى بلدة الكرك ، طريقاً معبدة استغرق اجتيازها ساعات النهار كله ، لتشعرنا بفضل القطار ، وفضل السلطان عبدالحميد بانشاء هذا الخط في عهده ، بأموال المسلمين التي جمعت تبرعاً منهم ، وبادارة عثمانية ليس للشركات الأجنبية سلطان عليها. ولما بلغنا ، مع غروب الشمس ، بلدة الكرك ، وقطعنا بالعرض الوادي العميق الى ذروة الجبل الذي تقوم فوقها البلدة بقلعتها القديمة ، وجدنا أنفسنا في بلدة قديمة متخلفة ، ما تزال اكثر منازلها مهدمة من آثار ثورة عربية نشبت في تلك المنطقة على الحكم العثماني ، في عام ١٩٠٨ ، أي قبل اربع سنوات من حلولنا فيها .

بين أطلال الثورة وذكرياتها

قضيت مع اسرتي سنتين في بلدة الكرك ، اجتزت خلالها صفين من مدرستها الرشدية ، تجاوزتها الى الصف المنتهي ، فعلمني فيها بالتركية المدير محمود الشركسي ، والمعلم لطفي العربي الدمشقي ، مبادىء العلوم . وكانت الكتب المدرسية مؤلفة في ذلك العهد بأسلوب السؤال والجواب ، أي بأسلوب : « س. ج . » ، نحفظ الأجوبة بالتركية عن ظهر قلب ، فيسألنا المعلم مثلاً : « ما هو علم الجغرافيا ؟ » فنجيب بأن الجغرافيا علم يلم بأحوال الكرة الارضية التي نعيش عليها ، يعرفنا بقاراتها ودولها واقطارها وجبالها وانهارها وبحورها ومدنها وسكانها وحيواناتها ونباتاتها واقتصادها الى آخر ما قيل في هذا العلم . وكنا كعرب ، في سن المراهقة ، نلقى العنت من التعلم بغير لغتنا . وكنت كلما نموت وشبيت ألم بأسباب ثورة العشائر العربية ، عام ١٩٠٨ في البلقاء على الحكم العثماني ، وأعي ما تحدثني به والدتي ورفاق المدرسة عنها . ومن أسبابها ان المنطقة كانت تعيش حياة قبلية ليس للسلطان العثماني غير سيطرة اسمية على القبائل

والعشائر . ولما تولى حزب الاتحاد والترقي التركي الحكم في العاصمة « فروق »، وهم جماعة من شباب الترك القوميين ، حاولوا تنفيذ بعض القوانين على المناطق التي لانفوذ للدولة عليها، وأصدروا امرهم بتعداد وتسجيل نفوس العشائر القاطنة في المنطقة . وهي عشائر اعتادت ألا تخضع إلا لشيوخها وعاداتها وتقاليدها ، فانطلقت لجان تسجيل الأحوال المدنية من مراكز الحكومة في اللواء والأقضية والنواحي إلى منازل تلك العشائر . وكان للواء البلقاء ثلاثة أقضية هي : السلط ومعان، والطفيلة، واخذت اللجان تقوم بأعمالها مالم يكن للعشائر المبتدية عهد به. ورافق التسجيل إشاعات تقول إن الدولة تريــــد من وراء ذلك السيطرة على العشائر ، وإخضاعها للأنظمة المدنية ، وسوق رجالها إلى التجنيد والقتـــال في المناطق النائية من السلطنة ، كالروملي والأناضول وثلوج أرضروم وجبال القفقاس وغيرها ، حيث يموتون من الجوع والبرد ، أو صبراً في معتقلات الأسر في سيبيريا. وما لبثت الدعاية ان سرت بين العشائر سريان النار بالهشيم ، وزاد الطين بلة ان الدعاة تقولوا عن تسجيل اسماء الأناث انه مقدمة لتجنيد النساء . والاعرابي ، حسب عاداته وتقاليده ، يأنف من أن يعرف موظف الدولة اسم زوجته وأمه واخواته ، وهن عرضه ، فكيف يرضى ان يسجلهن في دفـــاتر رسمية ، ويسأل عن أعمارهن واحوالهن المدنيـــة ؟ وزار بعض شيوخ العشائر الطامعين بالتخلص من سيطرة الدولة التركية ، قوة الحامية التركية في قلعة الكرك مركز اللواء ، فإذا بها لا تعدو سرية أو سريتين من جنود الاحتياط ، قائدها برتبة نقيب « يوزباشي » ، وليس للدولة في تلك المنطقة عدا هذه الحامية ، غير مخافر وقوى من الدرك (جاندرمه) ، والشرطة (بوليس) ، لو جمعت كلها مع افراد الحامية ، لما زاد عددها على بضع مئات ، أسلحتها من البنادق التي لا تخلو منها عشيرة من العشائر العربية في المنطقة . وبدأ هؤلاء الشيوخ يتهامسون بالثورة ، ويتشـاورون حول ذبح رجال الدولة من موظفين وعساكر تخلصاً من سلطان الدولة عليهم ، واسفرت اجتماعاتهم عن ان تكون زعامة الثورة لعشيرة المجالي ، وان يكون شيخها قدر المجالي قائد الثورة العام ، فقام هو واخوتـــه

وابناء عمه دليوان ، ورفيفان ، وفريوان المجالي بالاتصال والدعوة الى الثورة ، وإعداد العدة لها ، ورسم الخطة ، لتنفيذها . وتسرب للدولة أنباء عما يدور من لغط بين العشائر ، وجاء الطراونة شيخ إحدى العشائر الى المتصرف التركي في الكرك ينذره بعزم العشائر على الثورة ، بقيادة شيوخ المجالي ، وفي عدادها عشيرته ايضاً . وتداول المتصرف الأمر مع الضابط قائد الحامية ، فاستبعدا أن تثور على الدولة العلية العثمانية عشائر بدوية متنابذة متحاربة ، ينقصها السلاح والعتاد ، وتنقصها الخبرة والدربة على القتال ، لذلك لم يتخذا أي تدبير وقائي لوقف الثورة أو عرقلتها . وكانت ليلة الزحف على بلدة الكرك قد تقررت ، باعتبارها مركز اللواء ومقر الحامية ، إن سقطت تهاوت المراكز الأخرى ، وزال نفوذ الدولة عن المنطقة كلها . وعاود الطراونة الانذار ليلة الزحف ، وطرق في ساعة متأخرة من الليل باب دار المتصرف التركي، وأبلغه زحف المسلمين من كل صوب على بلدة الكرك ، وانهم سيقتحمونها مع الفجر ، فلم يصدق المتصرف ايضاً الخبر ، وأوفد الطراونة الى قائد الحامية التركي الذي هزأ به ، وبأنبائه التي لا تصدق ، فطلب الطراونة صديق الدولة من القائد التركي ورقة بخطه تثبت أنه أبلغه نبأ الثورة ، فكتب له ما أراد ، وعاد المتصرف وقائد الحامية الى فراشيهما يغطان في النوم ، حتى ايقظتهما طلقات الرصاص، مع الفجر، ايذاناً بهجوم العشائر واقتحام البلدة من كل جوانبها، عدا الجانب الذي تشرف عليه القلعة الأثرية باسوارها الشامخة . وشغل الثائرون في البدء بنهب الحوانيت والدكاكين ، واكثرها للدماشقة أهل الميدان ، وللفلسطينيين من اهل الخليل ، عن الهجوم على دوائر الحكومة ومنازل الموظفين ، وبذلك استطاع اكثرهم الوصول بملابس النوم الى القلعة ، والاحتماء وراء أسوارها ، إلا أسر قليلة كانت تقطن في الاحياء البعيدة عن القلعة ، وقعت بيد المتمردين ، لم يسلم رجالها من القتل، ونساؤها من السبي ، سواء كانوا عرباً أو اتراكاً ، فهم في نظر الاعراب « دولانيون » هذا جزاؤهم. أما حامية المدينة فقد دافعت عن نفسها، وارسلت في بدء الهجوم شراذم من جنودها الى منازل كبار الموظفين تحميهم وتنقلهم مع

اسرهم إلى القلعة . وكان جلال الضابط التركي برتبة نقيب يسكن مع اسرته في حي المسيحيين بعيداً عن القلعة التي تطل ابراجها على الوديان الجنوبية والغربية لم تستطع شرذمة من الحامية الوصول الى منزله ، فأسرع بنقل زوجه وأطفاله من السطح الى منازل جيرانه من العرب المسيحيين ، وتحصن هو في نوافذ الدار يصد عنها ببندقيته المهاجمين ، حتى كفوا عن الهجوم ، واكتفوا بحصاره ، حتى كادت تنفد ذخيرته ، وأدرك ان مصيره القتل ، فتسلل في الليل من سطح داره الى منزل كانت تسكنه بعثة انكليزية تحت ستار العلم ، فيها أطباء تطوعوا لتداوي السكان دون أجر ، وعلماء يدرسون أحوال النبات والحشرات . وهذه البعثة كانت جاءت الى الكرك من فلسطين المفتوحة الى الأجانب يحجون اليها من كل حدب وصوب ، فوجد الضابط التركي أفراد البعثة يحملون اثقالهم ، وقد أزمعوا على السفر الى فلسطين ، بسبب الثورة ، بعد ان ساعدهم الأعراب والسكان على السفر ، فطلب منهم أن يخفوه في غيابة الجب ، وهي بئر في صحن الدار يتجمع فيها ماء المطر من الأسطحة ، لأن بلدة الكرك في ذروة الجبل ، تستقي من الينابيع في وديانها ، ينقل اليها الماء على ظهور الدواب ، وتستخدم مياه المطر المتجمعة في الآبار للغسل والتنظيف . سافرت البعثة ، وبقي الضابط جلال في قعر البئر من الدار المهجورة ، حتى أعياه الجوع والبرد والبلل ، والفصل شتاء ، فأدرك انه هالك في البئر لا محالة ، وأخذ يصيح ، ويستغيث ، حتى سمع صوته شاب من الأهلين ، انتشله من البئر ، وسلمه الى الثائرين الذين قتلوه ثأراً لقتلاهم وجرحاهم ، وحملوا رأسه على رمح إلى مضاربهم في الريف ، يستثيرون به الهمم ، ويستحثونها على الثورة .

الدولة تنجد حاميتها المحاصرة

لم تخل ثورة الكرك من دماء سفكت ، وأسر أصيبت ، وبيوت وحوانيت نهبت ، ولكن القلعة الحصينة ظلت بحاميتها صامدة للحصار الذي لم تكن

تتوقعه ، ولا مستعدة له . ويظهر ان هناك رجالاً من الدرك كانوا في رفقة الجباة ولجان تسجيل النفوس ، استطاع بعضهم النجاة من القتل ، واللحاق ببلدة « مأدبا » وهي مركز ناحية لم تنقطع بينها وبين مراكز الدولة الأخرى الاسباب والمواصلات ، فأبلغت نبأ الثورة لدمشق ، وحملته أسلاك البرق إلى العاصمة « استانبول » ، فصدرت الأوامر الى قيادة الجيش في الشام بإعداد حملة تزحف لتأديب المتمردين . وكان لا بد لاعداد الحملة وتجمعها ، وسوقها بالقطر إلى محطة القطرانة من وقت اشتد خلاله الحصار على الحامية في قلعة الكرك التي لعبت دوراً في تاريخ الحروب الصليبية . وخشي القائد أن ينفد القوت والماء المتجمع في البئر من المطر ، فأخذ يقننها على المحاصرين . واقتصد في اطلاق الرصاص على المناوشين من الأعراب ، وحل عيد الاضحى ، فجنح الجانبان إلى الهدنة ، وتوقفا عن اطلاق النار ، وجلس الجنود مكشوفين في الشمس على أسوار القلعة ، وسمحوا للثائرين بالتجول في الساحة أمام باب القلعة والسوق القريبة . وكان شتاء ذلك العام قارصاً من أقسى فصول الشتاء التي مرت على بلاد الشام ، يعرف إلى اليوم بشتاء الثلوج الغزيرة . وتعرف ثلوجه بثلوج الاربعين يوماً دون انقطاع. وأذكر في ذلك الشتاء أن ارتفاع الثلج بلغ في مدينة حماه أكثر من متر ، وتجمد الثلج ، وبقي متراكماً أكثر أيام الشتاء ، فتعطلت المواصلات والأعمال، وأغلقت المدارس أسابيع ، وكنا في صحن دارنا نمر في طرق ضيقة شقت في الثلج الى باب الدار وبين الغرف . ولما انقضت أيام العيد في الكرك عاد كل فريق الى سابق حاله ، واستؤنف اطلاق النار بينهما . وفي أمسية من ايام هذا الحصار الطويل ، سمع المحاصرون في القلعة صوت بوق ينفخ فيه من ذروة الجبل الشمالي المقابل لبلدة الكرك حيث الطريق الى محطة القطرانة ، فأدركت الحامية المحاصرة أن النجدة وصلت اليها ، وأن الحملة العسكرية باتت على مقربة منها ، فنفخ بالبوق من القلعة لحناً حزيناً يشعر أن الحامية ما زالت صامدة لم تستسلم ، وانها بانتظار النجدة ، وتبادل فريقا الدولة إشاراتها ، وأدرك الثائرون أنهم اصبحوا أمام جيش عرمرم ، فأخذوا يتسللون من البلدة الى الوديان المجاورة متسترين

بالظلام، وصعد شجعانهم عدوة الوادي للقاء الحملة ، ولكنها كانت كلها محاولات يائسة ، لان الجيش العثماني الزاحف بقيادة اللواء سامي باشا الفاروقي كان الوفاً مؤلفة لا قبل للثائرين من أبناء العشائر بلقائه . وفي الصباح الباكر انحدرت كتائب الجيش إلى الوادي على نسق الحرب ، وصعدت تتسلق سفوح الجبل الذي تقوم عليه البلدة حتى احتلتها خالية من الثائرين ، فاستقبلتها الحامية المحاصرة ، ووجه القائد العثماني سراياه الى أحياء العشائر الثائرة يطاردها ، ويدعو شيوخها الى الخضوع والاستسلام . وحدثنا سكان الكرك بأن احد الشيوخ استسلم أو قبض عليه فألقى به القائد العثماني من برج يعلو سور القلعة الى الوادي السحيق ، وتناثرت جثته أشلاء ومزقاً ، ولحق فوج من الجند في احد الشعاب ببعض النسوة من عشيرة المجالي كان يحميهن شاب من الشيوخ اسمه صخر المجالي ، فأمر النسوة بأن ينجين بأنفسهن ، وصمد مع قليل من رجاله ، وقيل وحده ، للفوج التركي يعيق تقدمه حتى نجا النسوة ، ولم يتزحزح من مكانه حتى خر صريعاً فداء نخوته وشجاعته . وكنت في طريقي الى المدرسة ارى أحياناً في مآتم اهل الكرك النسوة يتحلقن ، ويرقصن الدبكة ، وينشدن : « صخر ! يا صخر ! يا كاسر الطابور » . فأعلم أنهن يتمثلن فقيدهن بالبطل صخر الذي هزم «الطابور» التركي ، ويخلدن موقفه الرائع . كما كنت اسمع من رفاق المدرسة أحاديث جمة عن البطولات التي ظهرت في تلك الثورة التي أخمدتها القوة ، واستسلم تباعاً قادتها ، بعد ان ادركوا ان لا طاقة لعشائرهم بمحاربة جيش نظامي لجب ، جنوده كلهم من البلاد العربية ، وخاصة بلاد الشام . وكان في عداد من استسلم للسلطة العثمانية الشيخ قدر المجالي كبير شيوخ عشيرته ، فأبعدته السلطة الى دمشق حيث مات فيها ، وقيل انه مات مسموما ، اذ دس له أحد الحكام السم بالطعام ، للتخلص من نفوذه وعدائه للدولة ؛ كيف لا وقد ثار على السلطان خليفة المسلمين وحامي الحرمين الشريفين ، فلم ينجه من البطش استسلامه والعفو الملكي عنه ، فقتل غيلة ، وهو أسلوب كثير ما كان السلاطين الترك يلجأون اليه في التخلص من اصحاب النفوذ . لقد هدم الجيش أكثر منازل بلدة الكرك انتقاما من أهلها

الذين ثاروا مع العشائر ، واستخدم الجنود أخشاب السقوف في التدفئة من برد ذلك الشتاء القارص ، وظلت أكثر منازل المدينـــة خرائب وأطلالاً ، سنين عديدة ، يصلحها أصحابها النازحون عنها ، عند عودتهم ، ويبنونها بالحجارة غير المنحوتة والطين . وقد عشت سنتين بين اطلال هذه البلدة الثائرة ، حتى صدر في عام ١٩١٤ أمر بإعادة والدي الى مثل وظيفته في حماه .

خلقت ثائراً !...

لقد كانت تطربني أحاديث الثورة والثائرين ، وتستهويني اعمالهم الخارقة . ويرجع السبب الى أنني خلقت ثائراً ، فقد حملت بي امي ، ومنذ الشهر الخامس أو السادس للحمل ثقلت عليها ، دون أخوتي التسعة الآخرين ، فكانت تمشي على العكاز حتى وضعتني طفلاً قوي البنية خشن العظام ، وميزتني على اخوتي ، فلم تسقني الخشخاش المنوم ، وهو ثمر يجفف ويباع لدى العطارين ، يقال ان الأفيون يستخرج منه ، كانت الامهات يطبخنه مع السكر ، وملعقة صغيرة منه تنوم الطفل الساعات الطويلة . وهذا الاســـلوب الضار بصحة الاطفال كان مستساغاً لدى الامهات في عهد طفولتنا ، نجوت منه دون أخوتي واخواتي جميعاً. ولما كنت في السابعة من عمري ، وحل شتاء عام ١٩٠٨ ، عام ثورة العشـــائر العربية على الدولة العثمانية في البلقاء ، لزم الناس في حماة البيوت ، واغلقت المدارس ابوابها ، وقطعت المواصلات من الثلج ، وسدت المسالك ، وانهارت المنازل القديمة ، ولزمت مع اخوتي الغرف من كثرة الثلوج المتراكمة في صحن الدار ، وقد بلغ ارتفاعها المتر الواحد . وكنا نقضي اوقاتنا في الغرف الواسعة ، نلعب ، ونقفز من سقيفة خشبية كانت في جانب من الغرفة ، ننفس عن ارواحنا ضجر السجن الذي فرضته علينا الثلوج .

وفي أحد الايام خرج والدي مساء للسهر لدى أحد أصدقائه ، فوجدت مع اخوتي منفرجاً للعب والقفز والصراخ حتى ضجت بنا الغرفة ، وضاقت امي بنا

ذرعاً ، وهددتني بأنها ستنقل الى والدي ، عند عودته ، عدم هدوئي وانصياعي إلى نصائحها ، وما احدثت من أذى وضجيج ، فقلت لها ، وانا في غمرة اللعب ونشوته : « ابلغيه ما شئت ! فأنا لا أخاف احداً .. ولا أخشى والدي! ولن أخشاه ! انه مثلي قطعة من لحم وعظم ! فردت علي محذرة : « انتظر اذن ! سأريك الليلة ماذا ستفعل بك قطعة اللحم والعظم التي لا تهابها ؟!..» واستمر لعبنا ، حتى سمعنا صرير القفل بمفتاح باب الدار ، وانصفق الباب ، فأدركنا ان القادم هو الوالد ، واسرعنا الى فراشنا نندس فيه ونتظاهر بالنوم . وفتح باب الغرفة الدافئة ، وأطل منها والدي ، وسأل : « هل نام الاولاد ؟ » ، فابتسمت الوالدة ، وقالت : « ألم يبلغ مسامعك ضجيجهم الى الشارع ! ثم هناك محمد أقام الليلة البيت وأقعده .. ولما قلت له بأنني سأخبر والدك بما تصنع ، قال انه لا يخافك ، وانك قطعة من لحم وعظم !.. » ، قال الوالد « حسناً .. سأريه الآن ما تفعل به قطعة اللحم التي استهان بها ! » ، وتقدم نحو فراشي ، ومد يده تحت اللحاف حتى قبض على عضدي ، وانتشلني من الفراش الى عل ، أي الى فوق رأسه كالكرة ، وخرج بي الى باحة الدار ، وقذف بي من عل الى الثلج المتجمد ، وأعاد الكرة مرات ، حتى أخذت ابكي ، وأستغيث ، وهو يهدد بأنه سيدفنني حياً في الثلج ، لابقى فيه الى الصباح . ولما اشتد صراخي لحقت به الوالدة ، وشفعت لي عنده ، وانقذتني من بين يديه ، وتعهدت باسمي أن اكون ولداً باراً هادئاً اسمع نصيحة والدي ، وألا أكون مزعجاً في اثناء غياب والدي من البيت . لقد عادت صورة تلك الليلة ، وانا اطرح على الثلج في حماة ، الى مخيلتي في بلدة الكرك كلما شاهدت خرائب واطلال الثورة فيها ، ولما عدت مع والدي واسرتي الى حماة ظلت في مخيلتي صورة المآتم في الكرك . والنسوة في حلقة الدبكة ، مشعثات الشعور ، ملطخات الوجوه ، مشققات الجيوب ، يبكين ، وينشدن :

« صخر ! يا صخر ! يا كاسر الطابور ! » . ثم تجسمت بعدها هذه الصورة في

مخيلتي ، وذكرتني بالخنساء التي بكت أخاها صخراً ما تبقى من أيام حياتها ، تنشد مآثره :

وان صخراً لتأتم الهداة به　　　كأنه علم في رأسه نار

***

اراجيح الثوار !

- ٢ -

لا بد لي ، وانا استعرض بعض ذكرياتي في بلدة الكرك ، ان اسجل في مذكراتي انني عرفت في تلك البلدة السيد نايف تللو الشهيد العربي الذي علقه السفاح التركي احمد جمال قائد الجيش الرابع ، مع قافلة شهداء العرب ، على اعواد المشانق في دمشق وبيروت عام ١٩١٦ ، بسبب مطالبتهم الدولة العثمانية بحقوق امتهم العربية . عرفته موظفاً في حكومة الكرك ، يتردد على دارنا لزيارة والدي، وزيارة خالي محمود الريس والد الكاتب العربي الشهير ، والوطني المعروف المرحوم نجيب الريس صاحب جريدة « القبس » في دمشق . وكان خالي لحق بوالدي في الكرك ، وعين موظفاً في حكومتها ، وتمتنت أواصر الصداقة بينه وبين نايف تللو ، بل ربما تجاوز ما بينهما الصداقة ، وغدا ارتباطاً عربياً ، وتفاهماً على العمل من أجل امتهما العربية .

وليس لدي من دليل على ذلك اكثر من ان الحرب العالمية الأولى اوصلت نايف تللو الى الديوان العرفي في عاليه ،حيث صدر عليه الحكم بالموت، ونفذ به وبأخوانه شنقاً ، واوصلت خالي محمود الريس الى الحجاز ونجد ، ثم الى الثورة العربية ، اذ التحق بها ، وقاتل الجيش التركي في صفوفها كضابط عربي ، ودخل في خريف عام ١٩١٨ دمشق مع الجيش العربي بقيادة الامير فيصل الهاشمي ، ثم عين رئيساً للشرطة في لواء حمص . ولما اعتدى الفرنسيون

علىسورية الداخلية في شهر تموز عام ١٩٢٠ ، واجتاحتها جيوش الجنرال غورو ، التحق بثورة الشيخ صالح العلي في جبال اللاذقية ، ثم انتقل منها الى ثورةالزعيم ابراهيم هنانو في الشمال ولما قضي على الثورتين تسلل الى شرقي الاردن فالحجاز حيث استخدم في حكومة الملك حسين والد الامير فيصل ، ثم اصيب بالحمى ، وقصد القاهرة للتداوي ، ولكنــه مات غريباً في مستشفياتها ، مشرداً عن الاهل والوطن ، شأن الثائرين ، رحمه الله ، فإليــه ترجع نزعة الثورة في دمي حسب المثل الدارج : « الولد لو بار .. ثلثاه للخال ».

عرفت السفاح التركي

عدت كما اسلفت ، مع أسرتي في صيف عام ١٩١٤ الى بلدتي حماة ، وتيسر لي في خريف ذلك العام نفسه الانتساب الى المدرسة الثانوية في دمشق . وكانت تسمى « المكتب السلطاني الأول » ، وتعرف في أوساط دمشق بمكتب عنبر نسبة الى الدار التي اتخذت مدرسة ، فقد كانت الدار ملكاً ليهودي ثري اسمه عنبر ، حجزتها الدولة منه لقاء دين لها عليه من جراء عمله في التعهد والمقاولات ، واتخذتها لسعتها وباحاتها وابهائهــا مدرسة اعدادية ، انقلبت بعدئذ الى ثانوية أي تجهيزية ، ولزم اسم عنبر المدرسة الى يومنا هذا .

سجلت ، بعد المسابقة ، تلميذاً داخلياً بالمجان على حساب الدولة ، وانتسبت الى الصف الخامس . وكان لي اخوان سبقاني الى هــذه المدرسة ، وتخرج الاول ناظم الريس منها يوم كانت اعدادية ،والتحق بكلية الحقوق في جامعة استانبول . أما الثاني صبحي الريس ، فقد انتسب اليها اعدادية ، وانقلبت ثانوية وهو فيها ، وكان في الصف الحادي عشر يوم انتسابي الى هذه المدرسة ، وإليه يرجع الفضل في تسهيل انتسابي ، وفي رعايتي سنتين دراسيتين .

لم تمض اسابيع على سنتنا الدراسية الأولى حتى أعلنت الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء ، وخاضت غمــارها الى جانب الدول المركزية : المانية والنمسة

وبلغارية ، ودعيت شعوب الدولة العثمانية الى خدمة العلم وحمل السلاح ، وعين احمد جمال باشا وزير البحرية ، وهو من اقطاب الاتحاديين الحزب الحاكم ، قائداً عاماً مطلق الصلاحية للجيش الرابع الذي مركز قيادته دمشق ، وتشمل سلطة هذا القائد بلاد الشام والحجاز . وقد سبق ، كما قيل ، خَبَرُه خبرَه ، وتردد قبل وصوله انه ذو سلطة مطلقة في ادارة المنطقة التابعة لقيادته . ولما وصل الى دمشق استقبل فيها استقبالاً فخماً اشتركت فيه حكومة الولاية والجيش والشعب والمدارس . وكنت في عداد طلبة المدارس المستقبلين . فلما وصل القائد التركي عزفت له الموسيقى العسكرية النشيد الرسمي ، وتقدم يستعرض ثلة من الجيش ، فصفوف الطلبة ، ولما دنا رأيناه ضابطاً ربعاً مستدير الوجه الذي لوحته الشمس ، ذا عينين نجلاوين ، ونظر ثاقب نافذ . كان وهو يستعرض صفوفنا يحدق بعيني كل طالب بصرامة ، حتى يتجاوزه الى الآخر ، فيلقي الرهبة في القلوب ، تزيده مهابة لحية كثة مستديرة ، خمرية اللون ، تتناسب مع قلنسوته من الفرو « القلبق » التي كان يرتديها على رأسه . وبعد استقباله في حديقة المنشية مقابل تكية السلطان سليم ، وبعد القاء خطب الترحيب ، توجه الى فندق فيكتوريا قرب جسر « بردى » مقابل دار الولاية ، حيث اتخذه مقراً له ، واخذ يعد العدة لغزو قناة السويس ، فقد كان يحلم بفتح مصر التي يحتلها الانكليز . وقيل ان الآمال كانت تدغدغ احلامه ، بان يخلد اسمه التاريخ كفاتح ، كما خلد اسم السلطان سليم الأول « ياووز » الذي فتح الشام ومصر ، وانتزع الخلافة من آخر خليفة عباسي كان مقيماً في مصر . وقيل أن احمد جمال كان يحلم بان يفتح مصر ، ويلعب فيها دور محمد علي ، فلا يكتفي بان يكون خديوياً فيها ، بل ينادي بنفسه ملكاً على البلاد العربية ، أي على مصر والشام والحجاز واليمن من الاقطار العربية ، فيحقق للعرب العثمانيين مطلبهم بالاستقلال الذاتي ، ويحقق لنفسه ملكاً ضخماً يكفي الدولة العثمانية منه ان يكون مرتبطاً بالباب العالي (البلاط السلطاني) ارتباطاً اسمياً ، كما كان الحال من قبل باسرة محمد علي ، وبولاة ليبية وتونس والجزائر ، فقد كانوا في الواقع ملوكاً شبه مستقلين يتوارثون العرش

كأسرة مالكة . لقد اخذ المطلعون على دقائق الامور يهمسون بان القائد التركي الذي كان لا يضاهيه من رجال الترك الحاكمين في السيطرة على الدولة الا انور باشا وزير الحربية ، وطلعت باشا وزير الداخلية ، على خلاف مع زميليه على النفوذ ، وانه ابعد عنهما الى الشام، وانه بدأ يجاهر بحبه للعرب ، ويظهر العطف على مطالبهم القومية ، ويستقبل بعض احرارهم ، ويعقد معهم الاجتماعات ، حتى انه استدعى منهم عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي من فروق «استانبول» وجدد صلته به ، واخذ يذاكره بقضايا العرب ومطالبهم ، ويتودد اليه ويقبل وساطته في بعض الأمور . وكان بعض أحرار العرب الذين اخذوا يجتمعون بالفريق أحمد جمال ، يحاولون اقناعه بان العرب لا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية التي تربطهم بها روابط عديدة ، ولكنهم يريدون ، كشعب كبير من شعوب الدولة ، ان يتآزروا مع الجميع ، ويكونوا شركاء في الحكم ، شركاء في الحقوق والواجبات، وان تكون لبلادهم ادارة لا مركزية ، يستطيعون ان يبنوا بها وينهضوا ، ويحققوا ما يتوافق مع حاجاتهم ، وان اضرار المركزية في الحكم الحاضر ان تكون السلطة محصورة في عنصر واحد من عناصر الامة فيصبح موقف سائر العناصر منه موقف المغلوب من الغالب ، في حين ان الدولة يجب ان تكون للجميع ، وان يتآزر بنوها ، ويعمل جميع عناصرها لتقدمها وخيرها .

الاعداد لحملة القناة

بدأ احمد جمال قائد الجيش الرابع ، يعد العدة لغزو مصر واجتياحها عبر قناة السويس ، فركز جهوده على اعداد حملة كبرى لهذا الغرض ، كانت الدولة العثمانية بأمكاناتها المحدودة من الصعب ان تستطيع تجهيزها بالوسائل اللازمة . وكانت الاستعدادات تقوم على ساق وقدم ، واستدعي الامير فيصل احد انجال الشريف الحسين بن علي ليكون الى جانب احمد جمال قائد الجيش الرابع ،

ويسمى مساعداً له بقيادة الحملة ، لقاء تعهد والده الحسين شريف مكة بتجنيد فرقة من أهالي الحجاز وعشائره ، للاشتراك في حملة قناة السويس ، وعين في نفس الوقت الفريق فخري باشا قائداً لجيش سمي جيش اليمن ، مهمته الظاهرة ان يعد ويحشد في المدينة المنورة ، ثم يزحف منها الى اليمن ليجعل منها بلداً خاضعاً كلياً للدولة العثمانية .وكانت له مهمة اخرى سرية هي ان يوطد نفوذ الدولة في الحجاز ، ويقضي على الحسين بن علي شريف مكة الذي اخذت الحكومة في الآستانة تشك باخلاصه لها ، وتشعر باتصال بعض ابنائه بالحركة العربية ، وتخشى ، وهي عازمة على القضاء على هذه الحركة في مهدها ، ان ينقض مع بعض العشائر العربية عليها ، وهي منهمكة في الحرب ، وان تسبب ثورته لها المتاعب ، لاسيما وهنالك اعداؤها الحلفاء ، وعلى رأسهم بريطانية ، الدولة الملمة بأحوال البلاد العربية ، ذات الصلات والاتفاقات المبرمة بينها وبين بعض امراء وشيوخ الجزيرة العربية وسواحلها والخليج العربي . وحكومة استانبول من جماعة الاتحاد والترقي لا تجهل خطر التحالف الالماني ـ التركي على مصالح بريطانية ومستعمراتها في الشرق ، ولا سيما الهند درة التاج البريطاني . وكانت المانية ابتاعت من الدولة العثمانية في عام ١٨٨٨ خط حيدر باشا ـ ازميت الحديدي ، ثم صدرت إرادة سنية (فرمان) بمنحها امتياز مد الخط الحديدي بين مدينة ازميت ومدينة انقرة ، ثم تطور الامر ، ومنحت في سنة ١٨٩٣ امتياز مد الخط الحديدي من انقرة الى « اسكي شهر » و « قونية » ، ثم صدرت في ٣٠ تموز سنة ١٩٠٣ ارادة سلطانية اخرى بمنحها امتياز تمديد الخط الحديدي من قونية الى بغداد ، على ان تكون الأراضي لمسافة ستة كيلو مترات على جانبي الخط في الاراضي غير المأهولة ملكاً للشركة صاحبة الامتياز . وهكذا اخذت المانيا تبني المحطات الكبرى بين حلب ونصيبين ، وبين بغداد والموصل حيث تم تمديد الخط الحديدي فيها ، استعداداً لتسيير هذا الخط الذي يصل المانية براً بالخليج العربي ، ويجعلها على حدود ايران ، بل يجعلها تطل على المحيط الهندي وبحر العرب ، وتدنو من الهند ، فلا يفصلها عنها غير ايران ، وليس

اسهل على المانية من ان تجتاز هذا العائق ايضاً في طريق الوصول الى الهند، دون ما حاجة لان تبني وتعد الاساطيل الضخمة خلال مئات السنين لتتفوق بها على اساطيل بريطانية سيدة البحار والاستعمار . وكان اول جواب من بريطانية على هذا التحدي الالماني فرض حمايتها عام ١٩٠١ على الكويت ، و الاستعداد لخوض حرب وقائية للدفاع عن الهند وعن سائر مستعمراتها ومصالحها فيما وراء البحار .

العرب بين شقي الرحى !

– ٣ –

لقد فطن الانكليز منذ أن تسلطوا على الهند، والحقوها بالتاج البريطاني، الى سد جميع الثغراب التي يأتيهم منها الريح ، فعقدوا في عام ١٨٠٢ معاهدة مع عبد الكريم العبدلي سلطان عدن ولحج، واعترف لهم فيها بان تكون عدن ميناءً حراً ، ومنحهم ارضاً يتصرفون بها . وفي عام ١٨٣٩ احتلوا مدينة عدن ، واستأثروا بحكمها مباشرة ، وجعلوا منها محطة لاسطولهم في طريق الهند ، اي جعلوها مستعمرة تابعة للتاج البريطاني مباشرة . اما الاسباب التي تذرعت بها بريطانيا لاحتلال عدن ، فهي ان مركباً انكليزياً تحطم في عام ١٨٣٧ بالقرب من عدن ، ولجأ بحارته الى الشاطىء ، فزعم الانكليز ان العرب سكان تلك المنطقة أساءوا معاملتهم ، وحملوا حكومة بومباي الانكليزية على الاحتجاج لامام اليمن ، فوعد هذا بدفع تعويض عن المركب المحطم ، وان يبيع الانكليز عدن ومرفأها . ومات الامام قبل ان يبر بوعده ، وخلفه ابنه الذي ابى ان يفي بوعد ابيه ، فجند الانكليز قوى بحرية وبرية بقيادة الكابتن « جيمس هاينز » ، واحتلوا عدن في ١٦ كانون الثاني عام ١٨٣٩ وضموها الى ممتلكاتهم ، ثم توسعوا في الاحتلال والحماية حتى بلغت

مساحة المنطقة المحتلة (١١٢) الف ميل مربع . وقد جعلوا من مرفأ عدن والمدينة وضواحيها مستعمرة للتاج، ومن الاراضي اليمنية المحيطة بها محمية عدن، وهي ذات جزءين : غربي وشرقي ، فالغربي منه فيه تسع عشرة مشيخة برئاسة سلطان لحج، والجزء الشرقي سبع مشيخات برئاسة سلطان حضرموت. ثم امتدوا الى سائر سواحل بحر العرب والخليج العربي. وكانت عُمان انفصلت عن السلطنة العثمانية عام ١٧٩٣ . ولما طردت بريطانيا في القرن السابع عشر الهولنديين والبرتغاليين من الهند وطريقها، واستقرت فيها ،اخذت تحارب النفوذ التركي. وتتودد لسلطان عمان ، ثم اعترفت بسلطنته المتدة من زاوية الجزيرة العربية من بحر العرب الى الخليج العربي ،ثم سيطرت على المنطقة كلها ، عدا امامة عمان في الداخل ، وعاصمتها « نزوى » فقد ظلت محتفظـــة باستقلالها . وتعاقدت بريطانية مع شيخ الكويت ، فارتبط معها بمعاهدة صداقة وتجارة عام ١٨٩٩ ، كما ان مشيخة البحرين ارتبطت معها بمعاهدة حماية عام ١٨٨٠، بعد ان سبق لها عقد معاهدة تجارة وصداقة معها في عام ١٨١٤ ، ثم معاهدة ثانية للتعاون على مكافحة القرصنة ، وارتبطت مشيخة قطر ايضاً بمعاهدة حماية مع الانكليز ، عام ١٩١٦ . وامارة عمان مساحتها سبعة آلاف ميل تتألـــف من مشيخات عمان ومسقط ، وقطر ، وأم القوين ، والشارقة ، والكليلة ، ورأس الخيمة ، والعجمان ، ودبي ، وابي ظبي ، والفجيرة . ولما ألبت الحكومة العثمانية ابن الرشيد في نجد على الشيخ مبارك الصباح امير الكويت، وارسلت قوة لاعتقاله ، استنجد بالمعتمد البريطاني في الخليج العربي ، ومركزه البحرين ، فانجده بسفينة حربية استناداً الى معاهدة الصداقة ، ثم عقدت معه في سنة ١٩٠١ معاهـــدة حماية . وقد تمكن الانكليز في عدن وما حولها من المناطق ، فعقدوا في سنة ١٨٤٢ مع السلطان محسن بن فضل العبدلي سلطان لحج معاهدة تسمح لرعاياهم بدخول اراضي بلاده ، وسنحت لهم بذلـــك فرصة دس الدسائس ، وحوك المؤامرات . وفي عام ١٨٨١ ارغموا علي بن محسن سلطان لحج على عقد معاهدة يتعهد فيها بعدم التعاقد مع دولة اخرى ، وبعدم بيع أو رهن أو ايجار أو هبة

أي ارض من اراضي سلطنته لاجنبي الا بموافقتهم ، وبعدم ادخال السلاح والعتاد والسلع التجارية إلا برخصة من حاكم عدن البريطاني ، ثم تمكنوا في سنة ١٨٨٢ من عقد معاهدة اخرى مع خلفه الفضل بن السلطان علي محسن اعترف لهم فيها بأن سلطنته هي محمية انكليزية ، ثم عقدوا مع العديدين من المشايخ في اراضي اليمن الجنوبية معاهدات حماية تجعلها كلها تابعة لحاكم عدن البريطاني ، ثم مدوا نفوذهم في اواخر القرن الى حضرموت البحر وعاصمتها « المكلا » ، وعقدوا مع شيوخها آل القعيطي معاهدة حماية ، ثم عقدوا مع آل كثير شيوخ حضرموت البر وعاصمتها «سيون» معاهدة مماثلة . ولم يكتفوا بذلك ، بل عقدوا مع مشايخ ثانويين في حضرموت معاهدات اخرى ، رصدوا فيها رواتب لهؤلاء الشيوخ، لنجعلوا منهم قوى خارجة على سلطان آل القعيطي وآل كثير في حضرموت .

لقد افاد الانكليز من الخلاف بين الدولة العثمانية وبين آل سعود سلاطين نجد، فعقدوا في اوائل القرن التاسع عشر معاهدة صداقة مع متعب آل سعود امير الرياض ، إلا ان ابن الرشيد امير حائل تمكن ، بمعونة الدولة العثمانية ، من الاستيلاء على نجد كلها ، وطرد آل سعود منها ، فلجأ اميرها عبد الرحمن السعود إلى الكويت . ولما استعاد ابنه عبد العزيز السعود الرياض ، واخذ ينازل ابن الرشيد على زعامة نجد ، خشي بطش الدولة العثمانية ، فعقد في سنة ١٩١٥ مع الانكليز معاهدة اعترفوا له فيها بالسيادة على نجد والاحساء والقطيف وما إليها ، على ألا يتنازل عن أي جزء منها ، ولا يؤجر ارضاً لأجنبي الا بعد موافقتهم، وان يمتنع عن التدخل في شؤون الكويت والبحرين وقطر وعمان وسائر المحميات البريطانية ، ولقاء ذلك تساعده الحكومة البريطانية بالسلاح والمال ، وتعد كل اعتداء على الاقطار التابعة له اعتداء عليها . ولكن بعد ان انتزع الحجاز في عام ١٩٢٥ من ايدي الهاشميين ، وقويت شوكته ، حمل الانكليز على إلغاء معاهدة الحماية ، وعقد معهم في عام ١٩٢٧ معاهدة صداقة ، اعترفوا فيها باستقلال المملكة

العربية السعودية التي يجلس على عرشها .

سلطان العثمانيين على العرب

يتبين من هذا أن الدولة العثمانية خاضت الحرب الكونية الأولى إلى جانب الدول المركزية ، وليس لها سلطان على سواحل الخليج العربي ، وسواحل بحر العرب المعروفة اليوم بالجنوب المحتل. وكل ما لها سلطان اسمي على اليمن وعسير وجزء من نجد تخضع عشائره لحليفها عبد العزيز آل الرشيد امير حائل ، وسلطان أقوى على ولاية الحجاز التي فيها الاماكن المقدسة ، يحج إليها المسلمون من جميع انحاء الارض ، يشاركها فيه الشريف الحسين بن علي أمير مكة بنفوذه الديني والزمني على العشائر ، وادارة الاماكن المقدسة . وامارة مكة منصب تقليدي يشغله عادة احد الاشراف الهاشميين ، يعين بارادة سنية من السلطان العثماني ، وآخر من شغل هذا المنصب منهم الشريف الحسين بن علي . وكان السلطان عبد الحميد الثاني استدعاه مع اسرته للاقامة في فروق ، فاقام فيها ١٨ عاماً بعيداً عن الحجاز ، مدة امارة الشريف عون . وعقب خلع السلطان عبد الحميد عين الحسين أميراً لمكة ، ولبث ولداه عبد الله وفيصل في العاصمة استانبول ، ثم التحقا في شهر آب ١٩١٤ بوالدهما في مكة . أما ولايات حلب ، وبيروت ، ودمشق (الشام) ، والموصل ، وبغداد ، والبصرة من البلاد العربية في قارة آسيا ، فقد كانت تخضع مباشرة لسلطان الدولة العثمانية ، عدا العشائر ، فانها كانت تتمتع بادارة خاصة ، فلا يجند افرادها ، ولا يحاكمون في المحاكم المدنية عن الجرائم التي يرتكبونها ، ولا تسري عليهم احكام اكثر القوانين المدنية ، بل يساسون حسب العرف والعادة وتقاليد البداوة. وكانت العشائر العربية الكبرى التي تتنقل في الصحارى بين العراق والشام والحجاز ونجد تخضع لشيوخها الذين كانوا مرتبطين بالدولة العثمانية ارتباطاً اسمياً ، ضربنا عليه المثل بثورة عشائر البلقاء ، وهجومها على بلدة الكرك ، يوم حاولت السلطة احصاء نفوسها ، حتى

ولاية الشام التي كانت دمشق مركزها، ومقر قيادة الجيش الرابع، ثار الدروز ، في جبل حوران ، اكثر من مرة على الدولة العثمانيـــة . وكانت آخر ثورة لهم اخمدها قبل الحرب العالمية الأولى سامي باشا الفاروقي ، وهو من اصـل عربي ، ومن كبار قادة الجيش العثماني . كما ثارت عشائر النصيرية (العلويين) في الجبال من لواء حماه ، على الدولة العثمانية ، وأخمدت ثورتهم بالقوة. هذا عدا الثورات، وحركات التمرد في جبال لبنان ، فانها كثيرة لم يخل منها عهد . وكانت ثورات جبل الدروز تبدأ بخلاف بين الدروز سكان الجبل ، وبين جيرانهم سكان سهل حوران، على الاراضي، إذ كان الدروز يتجاوزون، كلما ازدادت نفوسهم، جبلهم الوعر نحو سهول حوران، ويتطور الخلاف إلى صدام بالسلاح، تلتزم فيه الدولة، جانب الحورانيـــين المعتدى عليهم ، والسنيين في نفس الوقت ، لأن الاتراك وملوكهم سنيون احناف ، يتعصبون في كل نزاع بين الطوائف من رعايا الدولة للسنيين ، حتى بلغ التفريق بين الطوائف العربية في عهدهم حداً أن الأم السنّية إذا شاءت شتم طفلها قالت له : « يا درزي ! » . وكانت الدولة العثمانية ، في كل ثورة عربية عليها ، تجند العرب من المدن والقرى في جيشها ، وتسوقهم لاخماد تلك الثورة ، فيقتل العرب بعضهم بعضاً في سبيل التسلط التركي على البـــلاد العربية . وكانت الدولة العثمانية ، في كل ثورة أو حركة عربية ، لا تحرم بين العرب من رجال للدين ، يسمون انفسهم علماء ، يسارعون بالفتوى حول شرعية قتل كل من يثور أو يخرج على السلطان التركي ، باعتباره خليفـــة للمسلمين . والخلافة ما خرجت من العرب ، بـــل من قريش عشيرة النبي العربي ، إلا لما اغتصبها سليم الأول (ياووز) السلطان العثماني من الخليفة العباسي المقيم في مصر واخذ بعده الملوك من آل عثمان يتوارثونها عنه

التعلق بحبل الخلافة المغتصبة !

لقد كان من الصعب على فتى مثلي نشأ في بيئة مسلمة ، وفي ظل والدين مسلمين،

وفي حكم سلطان مسلم يلقبونه بخليفة المسلمين ، ويحيطونه بهالة من القدسية ، ان يميزانه عربي يختلف عن الاتراك الا باللغة ، بل كيف اشعر باختلاف عن الاتراك ، وانا اسمع قصة من اعرابية يسمونها « ام عوض » من قبيلة الرطوب إحدى افخاذ بني خالد . كانت هذه الاعرابية زوجة بدوي ، شاركته اسرتي على قطيع من الغنم ، كعادة اهل حماة مع اعراب البادية. واعتادت « ام عوض » ان تبيت عندنا ، كلما زارتنا في المدينة ، قادمة من الريف حيث منازل القبيلة . لقد سألتها مرة : « ماذا تصنع قبيلتكم فيما اذا غزا الفرنجة هذا الاقليم من الدولة العثمانية ؟ » فاجابت بان رجالنا البدو يبادرون فوراً لقتال الفرنج ، وللدفاع عن حوزة الوطن . قلت : « وماذا يصنع رجالكم بالمدافع التي لا بد ان يكون الفرنجة مجهزين بها ؟ » . قالت : « ان رجالنا لا يهابون المدافع ، ويندفعون بجيادهم فرساناً ، ومن ورائهم المشاة ، ويقومون بهجوم صاعق على المدافع ، ولا يتوقفون حتى يبلغوها ، ويسدوا فوهاتها بعباءاتهم ، ويسددون سلاحهم إلى جنودها ! ، فيبطل مفعولها ، وتسقط غنائم بايديهم ، فيحطمونها ! » . وعندما سمعت هذا الجواب الحماسي ، خلت نفسي مقاتلاً في معركة بين المسلمين وأعدائهم ، اهاجم الاعداء ، حتى ابلغ مواقع المدفعية ، واسد بعباءتي فوهة المدفع ، ثم اطيح برؤوس الاعداء بسيفي ، واصرعهم ببندقيتي !.. وتمر الايام واغترب مع والدي واخوتي إلى بلدة الكرك في البلقاء ، واسمع من والدتي ، وأنا في القطار إليها ، الدعوات تتصاعد من فمها للسلطان عبد الحميد المخلوع جزاء انشائه الخط الحديدي بين دمشق والمدينة المنورة ، ثم اسمعها تقرأ الفاتحة ، وتهديها إلى روحه المرة بعد المرة ، ثم اسمع كيف كان الحجيج يقضي الاشهر على الرواحل في الذهاب والاياب بين يثرب ودمشق ، وكيف كان يتعرض الحجاج للسلب والقتل في الطريق بيد الاعراب الاجلاف الذين اعتادوا الغزو ، واستباحوا قتل الانفس ، لان رئيس عشيرتهم لم يتلق صرة مال من السلطان ، او لم تعجبه صرة السلطان ، لأن شيخاً آخر في صرته ذهب او فضة اكثر .. لقد كنت أجد والدتي على حق ، وهي تدعو لباني الخط الحديدي ، الذي وطد الامن في ربوع

كانت محرومة من الامن . وليس غريباً ان أكون بعواطفي ، في بلدة الكرك ، الى جانب الدولة العثمانية ، استنكر ثورة الأعراب عليهـــا ، مع انها ثورة عربية على دولة أجنبيـــة ، وان استنكر العدوان على الموظفين ، واستفظع تقتيلهم ، وسبي نسائهم وأطفـــالهم ، لا سيما ووالدي موظف في الدولة، وان اعجب ببطولة جلال الضابط التركي الذي صد بمفرده الاعراب المتمردين أياماً عن منزله ، حتى نفدت ذخيرته ، لأن المرء بطبيعته محب للبطولة ، معجب بالبطل اياً كانت قوميته .

الوعي القومي في صفوف الضباط

استمرت الحرب ، وبدأت تشغل مجهود الدولة العثمانية المتخلفـــة بالنسبة لدول الغرب ، ودعي العرب الى خدمة العلم العثماني ، والانخراط في الجندية ، والغيت تباعاً الاستثناءات التي كان قانون التجنيد العام يتضمنها للتهرب من اداء الواجب ، اللهم إلا الأغنياء وأصحاب الاملاك والنفوذ وكبار التجار ، فقد كان هؤلاء يشترون بالمال والرشوات الوثائق التي تستثنيهم وذويهم من خدمة العلم ، كدفعهم المال الى متعهدي الاحطاب الذين تعهـدوا للدولة بقطع الاحطاب من الاحراج والغابات ، ونقلها الى محطات الخطوط الحديدية ومستودعات الجيش، تستخدم وقوداً في تسيير القاطرات ، بدلاً من الفحم الحجري الذي انقطـــع وروده من الخـــارج بسبب الحصار البحري الذي ضربته اساطيل الحلفاء على الدولة العثمانية وحلفائها في الحرب . وكانت دوائر التجنيد تسمح لكل متعهد يقوم بتوريد الحطب ولوازم الجيش بان يستخدم في اعماله عدداً من الرجال في الجندية ، وتعطيه الوثائق بأستثنائهم من الخدمة ، فيبيع بعض هـــذه الوثائق للاغنياء بالمال ، دون ان يستخدمهم في اعماله ، ولا يعدم المتعهد في المناطق التي يعمل فيها اليد العاملة بين الفلاحـــين ونسائهم أو من كان دون سن الجندية او تجاوزها ، وكانت الرشوة تعمل عملها ، فليس بعيداً ان يتعامل المتعهدون مـــع

الضباط المسؤولين ، ويرشوهم بالمال لأخذ وثائق اكثر من حاجتهم ، يبيعونها للاغنياء بربح اكبر . وكانت قيادة الجيش الرابع افتتحت في قريـــة المزة من ضواحي دمشق ، وفي المرج الاخضر ، أي « المرجة » عند مدخل طريـــق بيروت في دمشق ، أماكن لتدريب الشبان المثقفين ، وتخريجهم ضباط صف ، فضباطاً للاحتياط . ودعي أخي الأكبر ناظم فيالعاصمة استانبول الى الجندية ، وتخرج ضابط احتياط قبل ان يحصل على شهادة كلية الحقوق من الجامعة التركية بقليل ، ووجهت قطعته الى ساحة القتال في الدردنيل حيث انزل الحلفاء قواتهم فيه ، بقصد احتلال العاصمة استانبول ، والقضاء على مقاومة الدولة العثمانية باكراً ، واحتدمت المعارك في « غليبولي » و « جناق قلعة » . ثم نقلت قيادة الجيش الرابع مكان تدريب ضباط الاحتياط من دمشق الى بعلبك، وأخذ احمد جمال باشا القائد العام يبعثر الضباط العرب ، ويسوقهم الى جبهات ، القتال ، ويستبدل الفرق العربية بفرق تركية من الجبهات الاخرى . ويذكرون انه لجأ الى هذا بعد فشله في حمله قناة السويس ، فقد صادف مرة سرية من الضبـاط الاحتياط تسير في شوارع دمشق، وتنشد : « نحن جند الله شبان البلاد ! » ، ولما ترجمت له عاد الى مقره ، وأمر ببعثرة افرادها ، وسوق اكثرهم الى جبهة القتال وتوزيعهم على قطعاتها . ولعل ذلك بادرة للتحول في سياسة جمـــال نحو العرب ،فقد كانت الخطة المرسومة بينه وبين زملائه اركان حزب الاتحاد والترقي الحاكم . ان يتحين الفرصة ، للقضاء على اليقظة العربية وخنقها في المهد. وكانت مدرستنا اسمها « برنجي مكتب سلطاني » اي المدرسة السلطانية الاولى، تمييزاً لها عن المدرسة السلطانية الثانية التي كانت تدرس باللغة العربية كنتيجة للاتفاق بين احرار العرب ، وبين حكومة الاتحاد والترقي ، قبل الحرب ، اذ سمحت الحكومة التركية بناء على حركة الاحزاب والجمعيات العربية ومطالبها ، بان تفتتـح الدولة الى جانب المدرسة الثانويـــة التركية في كل من مدينتي بيروت ودمشق مدرسة ثانوية أخرى تلقي دروسها بالعربية على الطلاب . وقـد الغيت هاتان المدرستان فيالسنة الثانية من الحرب الكونية، وجيء بطلابها الى المدرسة

الثانوية الأولى في كل من دمشق وبيروت ، وألغي التدريس بالعربية في المدرسة الاعدادية في حماة ، وهي مدرسة متوسطة ذات خمسة صفوف إعدادية ، وصف واحد احتياط . وتخرج اخي الثاني صبحي الريس من مدرستنا في دمشق ،وعين معلماً في الصفوف الابتدائية ، ومعيـــداً أي ناظراً في مدرستنا ، لمدة سنة واحدة، ثم دعي الى الجندية والتدرب في استانبول ، وتخرج ضابط صف استخدم في عمل غير مسلح بسبب ضعف في عينه ، من جرح اصابه قرب العين في طفولته .

الروح القبلية في حماة

– ٤ –

ولهذا الجرح قصة تروى ، فقد كانت مدينة حماة تعيش حتى ذلك الحين على شيء من العادات القبلية ، إذ كان المتعلمون فيهـــا قلة ، وكان اطفال كل حي يتجمعون في ساعات لعبهم ، ويغزون اطفال الحي المجاور لهم ، وينتظم الفريقان في ساحة أو شارع أو زقاق يتراجمان بالحجارة ، ويستخدمان المقاليع في تبادل الرجم . والمقلاع تجـدل عادة من خيوط قوية ويصبح كحبل رفيع في وسطه مكان عريض مقعر لوضع الحجر فيه . ويناط احد جانبي المقلاع بعروة تدخل في اصبع من اصابع اليد اليمنى ، والجانب الثاني بخيطان من الحرير تخرج صوتاً عند قذف الحجرة . ويمسك المقلاع من جانبيه باليد اليمنى ، بعـــد ان توضع الحجرة في مكانها من وسطه ، ويلوح الضارب بالمقلاع تلويحـاً دائرياً من فوق الرأس ، ثم يطلق الجانب بعزم ، فيخرج الحجر ، ويذهب بعيداً الى الهدف بقوة لا تستطيعها اليد المجردة مهما بلغت من القوة . وكان اخي صبحي انتظم مرةمع صبيان الحي فيما يسمون « الكون » ، أي القتال ، واصيب في المعركة بحجر في حاجبه سبب له جرحاً غشى العين الواحدة بماء اسود حجب عنها النور والرؤية ، او اضعفها ضعفاً ازداد مع الايام .

وقد انخرطت في طفولتي كثيراً في مثل هذه المعارك في مدينة حماة . ولما انتقلت مع الاسرة الى بلدة الكرك بحكم وظيفة والدي ، وجدت ان عادة النزال بالحجارة معروفة في الكرك . وفي مساء احد الأيام طلبت مني والدتي أن أذهب الى السوق ، وكان بعيداً عن دارنا ، مصطحباً معي اخي سعيد ، وهو أصغر مني بنحو عامين ، لشراء رطل من السكر ، لم تفطن لشرائه في النهار . وكان الليل عند عودتنا بدأ يرخي سدوله على البلدة ، فصادفنا بجانب ميدان السبق ومسجد عمر الذي لم يتم بناؤه ، جماعتين من الصبية تتراشقان بالحجارة ، جماعة ظافرة احتلت دمنة (مزبلة) عالية تشرف على الميدان ، وجماعة منهزمة إلى الميدان ، تتراجع بانحدار تحت وابل من حجارة الظافرين . وكنت مع أخي في الطريق أقرب إلى الفريق المهزوم ، فاسلمته السكر المشترى ، وطلبت منه أن يقف في مكانه متفرجاً بعيداً عن ساحة الرمي ، ثم تقدمت مندفعاً أصعد الدمية حاثاً الفريق المهزوم على العودة . وقد قدت بحركتي الهجوم ، وقلبته من هزيمة إلى ظفر ، إذ تقدم بعض الصبية ورائي ، وتردد آخرون ، والحجارة تئز من حولي ، وتتساقط حولي وعليّ . وقبل أن أبلغ القمة اصابتني رمية محكمة من يد في جبهتي بين الحاجبين ، ونفر الدم فوراً من جرحها ، وسال على وجهي ، ولكنني لم اشعر بالألم ، ولم اتوقف ولم يثنني الجرح والدم عن متابعة الهجوم حتى بلغت القمة ، واحتللتها ، وانهزم الصبية الظافرون الاول ، عندما رأوا الفريق المنهزم يصل ورائي إلى حصنهم الشاهق ، ويحتله . وأحاط بي الرفاق الذين نصرتهم يمسحون الدم عن وجهي ، ثم جاءوا بابريق ماء غسلت به وجهي ، وصبرت حتى انقطع النزف ، ثم ودعتهم ، وانصرفت منكساً طرف طربوشي على جبهتي حتى لا ترى والدتي الجرح . وقد سلمتها السكر وهي تهيىء الشاي للاسرة ، وانصرفت بسرعة ، وتسللت إلى فراشي في الغرفة الاخرى ، باكراً على غير عادتي . وكنت أوصيت أخي ان يكتم خبر جرحي . ولكن والدتي ، لما تساءلت عن سبب ذهابي مبكراً إلى النوم ، دون شرب الشاي ، وخافت ان تكون هناك وعكة ألمت بي ، همس اخي في اذنها ، وباح لها بالسر ، وسرعان ما

اقبلت الى فراشي تكشف عن الجرح ، وتمطرني بوابــل من اللوم والتقريـع ، والدعوات غير الصالحات بسبب شقاوتي ، ثم ضمدت جرحي . ولما ذهبت في الصباح الى المدرسة سخر رفاقي التلاميذ من الضماد ، وعدوه ميوعة لا تتناسب مع الموقف الذي سبب الجرح ، فنزعت الضماد عن الجرح في المدرسة ، واعدته عند عودتي الى البيت ، حتى شفي الجرح .

ويلات الحرب

عدت في مطلـع صيف عـام ١٩١٥ من المدرسة في دمشق الى حماة لقضاء العطلة السنوية ، فشعرت أنهم يشكون غلاء الحاجيات ، وفقدان الكثير منها بسبب الحصار البحري المضروب على الدولة ، وخاصة غلاء لقمة العيش ، والقمح من انتاج البلاد ، الا ان السلطات العسكرية كانت تتصرف به . لقد كانت الدولة العثمانية دولة متخلفة لا أثر للصناعة في بلادها ، عدا صناعة اليد ، لذلك قامت السلطة العسكرية بمصادرة كل ما في حوانيت التجار ومستودعاتهم من بترول واقمشة صالحة لملابس الضباط والجنود ، بل صادرت الأجواخ كلها ، بأنواعها ، وصادرت معها الكثير من السلع الاستهلاكية . ولعبت الرشوة دورها في هذه المصادرات التي كانت الحرب المبرر لها . وأذكر أن التاجر خالد الريس ابن عم والدي ، وداره مجاورة لدارنا ، اوقف طاحوناً بمحرك يدار بالبترول « زيت الكاز » ، كان اقامها في قرية « تل سنان » من اعمال قضاء سلمية شرقي حماة ، واخفى في بيته عدداً من صناديق الكاز التي كان استوردها قبيل الحرب لتشغيل الطاحون ، وفرها لما وجد اسعارها في السوق ترتفع ارتفاعاً جنونياً . وقد نقل هــذه الصناديق مرة في الليل الى منزلنا خشيــة التحري عنها في بيته كتاجر وصاحب مطحنة ، ولأن والدي موظف في الدولة بعيد عن شبهة الاحتكار ، يعجز ان يشتري صفيحة بترول ، بعد ان بلــغ ثمنها بضع ليرات ذهبية ، فقد لا يشتري راتب والدي كله صفيحــة كاز واحدة في تلك السنة من

الحرب . وكانت الدولة طرحت لاول مرة العملة بالورق ، بعد ان كانت تتعامل بالذهب والفضة والعملة المعدنية ، واخذ سعر « البنكنوت » ، كما يسمونه ، يهبط كلما تقدمت جيوش الحلفاء في جبهات القتال . والشعب العربي ، لم يألف من قبل التعامل بالعملة الورق ، وليس هو كثير الولاء للحكومة التركية التي كانت بدورها تضمر الشر والكره له ، لا سيما بعد ان أخذ يتحسس بقوميته ، ويطالب بحقوقه المهضومة . وهكذا اصبح لليرة الورقية سوق للبورصة بالنسبة للذهب ، تتراوح بين هبوط وصعود حسب أحداث الحرب ، والتنبؤ بعواقبها. إلا أن الهبوط أخذ مع كر السنين يزداد ، وارتفعت اسعار الحاجات ، واسباب العيش ، وساءت الأحوال ، وجاع الفقراء ، واخذت الحرب تنهك الدولة العثمانية. وكانت بلاد الشام لا تعرف الإنارة بالكهرباء ، إلا في دمشق وبيروت ، فقد سبق ان نالت شركة اجنبية امتياز تنوير دمشق بالكهرباء من شلال وخزان للماء اقامتها على نهر « بردى » في موقع بين التكية وسوق وادي بردى على خط بيروت ــ دمشق الحديدي .

وكانت مدينة حماة تستنير بالبترول ومصابيحه ، فعادت في سني الحرب تستنير بسرج زيت الزيتون والشمع وغيرهما من الوسائل البدائية الاولى ، ولولا الاتصال البري بين الدولة العثمانية وحليفاتها في الغرب لفقدت اسواق الدولة العثمانية كل انتاج غربي . وفعلاً كانت المواد المفقودة كثيرة لأن وسائل النقل بين تركيا والغرب مسخرة للنقل العسكري ، ومعامل الغرب لا تنتج إلا الضروري لآلة الحرب ، والبلاد العربية بعيدة كل البعد عن العاصمة استانبول المدينة التاريخية الموزعة بين قارتي آسيا واوربا على البوسفور . إلا ان مدينة حلب ، أصبحت بحكم موقعها ، مركزاً تجارياً مهماً للاستيراد والتصدير ، لأنها ترتبط بخطوط حديدية بالأناضول التركي ، وبالموصل والعراق العربي ، وبدمشق وبيروت والحجاز ، عدا الطرق الأخرى التي تربطها بالساحل السوري ومنطقة الفرات ، وتعمل عليها القوافل. وكانت منطقة الفرات لواءً مستقلاً اسمه « لواء دير الزور » مرتبط مباشرة بالعاصمة استانبول .

لقد استحكم الغلاء ، واحتكرت الدولة مواد الغذاء لجيوشها وجيوش حلفائها في الغرب . وخاصة منها الحبوب التي يقل انتاجها في المانيا والنمســـا ، حتى اصبحت أسعار الحاجات الضرورية خيالية ، ولولا ان الدولة كفلت في سنوات الحرب الاخيرة توزيع الخبز والدقيق بالبطاقات على الأهلين ، لقتلت المجاعـة اكثر سكان البلاد العربية التابعة يومئذ للدولة العثمانية . لقد بلغ الغلاء حداً ان الليرة الذهبية اصبحت لا تشتري أكثر من بضعة كيلوات من الخبز ، فقد بلغ سعر قنطار القمح، ويعادل القنطار ربع طن، ثلاثين ليرة ذهبية واكثر، واصبح راتب الموظف المتوسط المرتبة لا يساوي بسبب هبوط النقد ليرة أو ليرتـــين ذهبيتين ، وأخذت المجاعة تجتاح لبنان الذي كان له استقلال ذاتي بكفالة الدول الاجنبية ، وخاصة منها فرنسا ، فقد اتبعت الدولة العثمانية نحوه سياسة خاصة انتقامية ، خلال سنوات الحرب ، أخذ احمد جمال قائد الجيش الرابع ينفذها بلؤم ، فيحول دون وصول القمح والدقيق ومواد الغذاء اليه ، وهو بلد جبلي لا ينتج إلا القليل من الحبوب ومواد الغذاء ، فاستشرى فيه الغلاء ، وانقطع مـا بينه وبين ابنائه المغتربين في المهاجر ، حيث كانوا يمدونه بمساعداتهم لأسرهم واهليهم ، ثم عصفت المجاعة بابنائه ،وخاصة في المنطقة التي كانت تسمى متصرفية لبنان ، والتي ألغت الدولة العثمانية امتيازها في مطلع الحرب .وكان طبيعياً ان يهجر اللبنانيون قراهم بحثاً عن العمل والقوت ، وان تتدفق هجرتهم الى المدن الداخلية من بلاد الشام ، وخاصة الزراعية منها ، وان تعيش مدينة بيروت ايضا تحت وطأة الغلاء والمجاعة ، لان تدابير الحصار المفروضة على لبنان المحيط بالمدينة كانت تؤثر على تموينها ، وتعرقله ، لا سيما وهي ثغر سدت طرق البحار في وجهها من اليوم الذي أعلنت فيه الحرب، واصبحت مهددة باساطيل الحلفاء تغزوها او تقصفها. وكم شوهد النسوة والفتيات اللبنانيات هائمات على وجوههن في سهول حمص وحماة بحثاً عن العمل والقوت ، يتغذين بالحشائش ، لانهن كن من الفقر لا يجدن ثمن الرغيف . لقد اضطر الكثير منهن للزواج من الاعراب في

البادية ، وسكنى المضارب والرحيل اتقاء الموت جوعاً ، واضطر بعضهن للخدمة في المنازل. ولما قررت الدولة العثمانية تهجير الأرمن من ديارهم في الاناضول الشرقية الى البلاد العربية ؛ لتفتيت قوميتها بقوميات أخرى ، كانت الشام أقرب البلاد العربية اليهم ، فازدادت بهجرتهم الحال سوءاً في ديار الشام ، وبدأت المجاعة تجتاح المدن الداخلية الزراعية ايضاً ، وتفشت الأمراض الخبيثة والحميات ، ينقلها المهاجرون الارمن معهم ، أينما حلوا أو رحلوا . وكنت في أثناء العطلة الصيفية أشاهد قوافل الأرمن يسوقها رجال الدرك ، فتؤم حماة ، وينزل أفرادها الذين أنهكهم السير ، وفتك بهم المرض والجوع ، على ضفة نهر العاصي يشربون ، ويغتسلون ، ويغسلون ثيابهم وأقذارهم ، وقد تفشت بينهم الامراض والحميات ، فقتلت الكثيرين منهم في الطريق . وحماة تشرب ماء العاصي تنضحها النواعير ، وتنقلها المجاري الى الآبار ، دون تصفية فنية وتعقيم ، فوفدت اليها الحميات بأنواعها مع هؤلاء المنكوبين المنكودين ، وسرت الى سائر البلدان الشامية ، حتى لم ينج منها أحد ، ومات خلق كثير بالتيفوس ، والتيفوئيد ، والحمى النمشية ، والحمى الراجعة ، والحمى الصفراء ، الى آخر ماهنالك من حميات وامراض سارية . هذا الى جانب المجاعة التي كانت تقتل الفقراء والعاطلين عن العمل بسبب الحرب . وأذكر ان الجياع كانوا في فصل الربيع يقتاتون بالحشائش والاعشاب وبقشور الخضار يلتقطونها من بؤر القمامة في الازقة ، فلا تغذي أجسامهم وحدها ، ويدركهم الورم ، وتنتفخ البطون والوجوه الشاحبة ، ثم يتساقطون موتى في زوايا الازقة والشوارع ، حتى ضاقت بالموتى المقابر . لقد كان مشهد الصبية والاطفال الجياع مثيراً ، وهم يتسولون في الشوارع والاسواق ، ومنهم من كان يختطف من الباعة ومن أيدي الناس كل ما تقع عليه عينه من الغذاء ، هذا يغرف بيديه من ماعون اللبن الخاثر أو الرائب ، اذا رآه بيد تحمله من السوق ، وذاك يتلصص بتدميه الحافيين وراء حامل الوعاء يتحين الفرصة للغرف والخطف ، فاذا تلفت صاحب الماعون فر الجائع واللبن يقطر من يديه وفمه . حتى الجنود

كانوا جياعاً ، يخرجون من صفوفهم مشاة ، ويهجمون في أسواق المدن وشوارعها على الحوانيت وباعة الاطعمة ، يتخطفون ما تصل اليه ايديهم . وكلما مرت سرية من الجند في شوارع دمشق وأسواقها ، كنا نرى الباعة المتجولين يفرون بصوانيهم وعرباتهم التي تحمل المآكل الجاهزة والحلوى خشية أن يتخطفها الجنود الجياع من بين أيديهم .

القطر تسير بسرعة السلاحف !

لقد قلنا إن الدولة العثمانية خاضت الحرب العالمية الاولى، وهي غير مستعدة لها ، فالمواصلات في بلادها جد قليلة ، ووسائل النقل صودرت لتستخدم في آلة الحرب ، حتى اصبحت شبه معدومة ، وليس بين العاصمة وبين البلدان العربية غير خط حديدي واحد لم تكمل أجزاؤه ، والفحم الحجري كوقود للقاطرات انقطع استيراده بسبب الحرب والحصار البحري ، وكان لا بد لسير القطر من وقود ، لذلك طرحت الحكومة في المناقصات العامة قطع الاشجار من الاحراج والبساتين ، ونقلها الى المحطات ، وبذلك أصبح سير القطر بالاحطاب أشبه بسير السلاحف . وفي الليل كان الناس يسمعون في المدن التي تمر بها القطر اصواتاً مزعجة للقاطرات ، وهي تلهث ، وتنفث دخاناً اسود ، كأنها تعبة منهوكة مما تجر ، فلا تصل الى المحطة إلا وضجيجها يصك الآذان . وكان أي ارتفاع أو صعود في الطريق يعرض القطار الى التوقف مرات من الوهن . وكثيراً ما كان الركاب ينزلون من القطار ليسيروا على مهل في التلال والمرتفعات الى جانب القطار ، مطمئنين الى انه لا يسبقهم ، حتى إذا بلغ الذروة تعلقوا بأبوابه ، واجتازوا المنحدر والسهل ، ثم عادوا سيرتهم الاولى ! لأنهم كانوا يخشون ان يكرّ بهم القطار الى الخلف ، ويتدهور في المرتفع ، ويذهبوا ضحايا كارثة من كوارثه الكثيرة . وكان طبيعياً ان يقضي قطع الأشجار في سنوات الحرب على الأحراج والغابات وأكثر البساتين في ديار الشام ، فلا يسلم منها إلا ما كان

بعيداً عن المدن والخط الحديدي ، تبهظ تكاليف نقله المتعهدين والمقاولين . وقد سبب قطع الاشجار تبدل المناخ في ديار الشام ، واصبح يغلب عليه الجفاف ، وتضاءلت نسب الأمطار، وساءت المواسم الزراعية ، حتى ان حوران التي كانت اهراء دمشق ولبنان في الحبوب ، اصبحت شحيحة الأمطار ، لا تخصب أرضها سنة إلا لتمحل سنوات . ان بلاد الشام كلهـا تعاني الى اليوم عواقب قطع الأشجار من غاباتها وبساتينها ، فتمحل أرضها البعل في أكثر السنوات .

أحلام السفاح تتبدد !

- ٥ -

قلنا ان الفريق احمد جمال قائد الجيش الرابع أخذ يعد العدة لغزو مصر ، ويستثير حماسة الشعب العربي ليضع كل إمكانياته في تجهيز الحملة العسكرية إلى قناة السويس، ويتقرب الى رجال الحركة العربية الذين تجاوبوا معه ، وتخلوا عن مطالب أحزابهم وجمعياتهم من الدولة في الإصلاح المنشود لبلادهم العربية ، سعياً وراء وحدة الصف ، وضمان النصر للدولة العثمانية في الحرب التي زجت نفسها في غمراتها ، تدفعهم الى ذلك وطنيتهم، ومعرفتهم أن الدول الاستعمارية تتآمر منذ زمن بعيد على اقتسام تركة الدولة العثمانية ، حتى كانوا ينعتونها بالرجل المريض ، وعلمهم ان بلادالعرب ستصبح ، في حالة هزيمة الدولة العثمانية فريسة للاستعمار. ولكن احمد جمال باشا كان يضمر مطامع واحقاداً دفينة ، فهو يحلم ان نجح في عبور قناة السويس ، وفتح مصر ، ان يستغل يقظة الأمة العربية ، فيجعل من البلدان العربية ، وعلى رأسها مصر ، مملكة يجلس هو على عرشها ، ترتبط اسمياً بدولة الخلافة ، حتى قيل انه ، في لقاء تم له مع بعض رجال الحركة العربية ، في حانوت آل البكري ، في قرية القابون ، من قرى غوطة دمشق ، صرح بما يخامره ، ويدغدغ احلامه ، ووعد بأنه سيحقق هو بنفسه مطالب العرب ،بأن

يكون لهم كيان ، واستقلال ذاتي ، وذلك رهن بنجاح حملته على قناة السويس ، وغزو مصر . ولما فشل الهجوم التركي على قناة السويس ، وعجز الجيش العثماني عن عبورها ، بالقرب من مدينة الاسماعيلية ، وهزم ، وعاد ممزقـاً ، انزل الانكليز قواتهم في ثغر غزة ، بدلاً من الاسكندرونة ، حسب مخطط لهم قديم لفصل بلاد الشام أو البلاد العربية عن تركيا ، وأنزلوا أيضاً قواتهم في البصرة للزحف على العراق ، وبذلك طارت احلام الفريق احمد جمال ، وتبددت في الجلوس على عرش المملكة العربية ، ولم يبق أمامه إلا تنفيذ الخطة المرسومة في استانبول ، للقضاء على اليقظة العربية ، وضرب كل حركة قد يقوم بها الحسين شريف مكة بجيش فخري باشا المرابط في المدينة المنورة ، تحت ستار الزحف الى اليمن . وكان احمد جمال استحضر الامير فيصل نجل الحسين الى دمشق ، باسم تمثيل والده لديه . وأبقاه رهينة الى جانبه ، ثم أمر باعتقال رجال الحركة العربية ، من كان منهم في الاستانة ، ومن كان منهم في ديار الشام ، أو في الولايات الاخرى ، وساقهم الى السجن في بلدة « عاليه » حيث كان يصطاف كل سنة في لبنان . وعين لمحاكمتهم ديوان حرب ، أي محكمة عسكرية ، وجمع لاتهامهم بالتآمر على الدولة العثمانية دولة الخلافة كل ما عثرت عليه المخابرات التركية من وثائق وأوراق تتعلق بالقضية العربية ، وبأحزابهم وجمعياتهم ، في منـازلهم ومكاتبهم ، أو في دور السفارات والقنصليات للدول الأجنبية التي اشتبكت تركيا معها في الحرب . وكان الشبان العرب ورجالاتهم ألفوا وأسسوا جمعيات واحزاباً اشهرها المنتدى الأدبي في فروق العاصمة . أسسوه عام ١٩٠٩ ، وأسسوا جمعية العربية الفتاة عام ١٩١١ سرية في باريس ، وجمعية العهد الجديـد عام ١٩١٣ في فروق ، وتضم نخبة الضباط العرب في الجيش العثماني . وكان المؤتمر العربي عقد عام ١٩١٣ في باريس ، واتخذ مقررات أعلنها للملأ ، ودارت على أساسها مفاوضات بين الحكام الترك ورجال الحركة العربية في استانبول أسفرت عن القبول ببعض المطالب العربية ، كإنشاء مدارس في البـلاد العربية يجري التدريس فيها بالعربية ، وتعيين بعض رجالات العرب في بعض المناصب . كذلك

تأسست في عام ١٩٠٨ جمعية الإخاء العربي في استانبول ، ولكن حيـــاة هذه الجمعية لم تطل . وتأسس في مصر عام ١٩١٢ حزب اللامركزية العثماني .

الغدر بالرواد الأوائل



الشهيد أمين لطفي الحافظ

اثر اعتقال رجالات العرب في سجن عاليه ، سرعان ما أصدر ديوان الحرب العرفي احكامه على طائفة منهم ، ونفذ حكم الموت شنقاً في ٢١ آب ١٩١٥ في بيروت بالشهداء : عبد الكريم قـــاسم الخليل ، وصالح حيدر ، والأخوين محمد ومحمود المحمصـــاني ، ومسلم عابدين ، ونايف تللو ، وعبد القادر الخرسا ، وعلي الأرمنازي ، ومحمود العجم ، وسليم عبد الهادي ، ونور الدين القاضي ، كما نفذ حكم الاعدام في ٦ ايار عام ١٩١٦ بالشهداء : شكري العســلي ، وعبد الوهـــاب الانكليزي ، والامير عارف الشهابي ، وعبد الغني العريسي ، وعمر حمد ، وتوفيق البساط ، وسليم الجزائري ، وامين لطفي الحافظ ، وشفيق العظم ، والأمـــير عمر الجزائري ، ورفيق رزق سلوم ، ومحمد الشنطي ، وسيف الدين الخطيب ، والشيخ أحمد طبارة ، ورشدي الشمعة ، وجرجي حداد ، وسعيد عقل ، وباترو باولي ، وعبد الحميد الزهراوي ، وجلال البخاري ، وعلي الحـاج عمر . قافلة منهم أعدمت في دمشق شنقاً في ساحة المرجة التي سميت منذ يومهم بساحـــة الشهداء ، وقافلة أعدمت شنقاً في ساحـــة البرج التي سميت منذ يومهم بساحة الشهداء . وكنت يومئذ طالباً في المدرسة السلطانية الاولى في دمشق ، وشهدت بأم عيني الشهداء يتأرجحون على أعواد المشانق في ساحة المرجة . وكنت أعرف شخصياً من بين هؤلاء الشهداء علي الارمنازي صاحب جريـدة العاصي التي كان

يصدرها في حياة ، فقد كانت أسرته جيراناً لنا ، لذلك عرفته وعرفت والديه واخوته . لقد هز حادث إعدام هذه الباقة النضرة من رجالات العرب وشبابهم البلاد العربية من أقصاها الى أقصاها ، هزاً عنيفاً ، وكان أثره بالغاً في النفوس ، وخاصة في الاوساط النيرة ، وفي أوساط الطلبة العرب ، فقد أيقظنا هذا الحادث ، على صغرنا في السن ، على واقعنا المؤلم ، وعلى اننا عرب نختلف عن الاتراك الذين يحكمون بلادنا حكماً إرهابياً ، يذهب برجالاتنا النيرين ، وزهرات شبابنا المثقف الى أعواد المشانق ، لا لسبب ، إلا لأنهم طالبوا بحقوق مشروعة لأمتهم . وأدركنا ان « توران » الذى نتغنى به في الاناشيد التي يعلموننا إياها على مقاعد الدرس ، وفي الكتب ، ليس بجدّنا الاعلى ، بل هو جد الترك المغول المتسلطين على بلادنا .

لقد زاد الحادث كرهنا للترك ، وفتح هوة بيننا وبينهم ، واصبحنا في العابنا المدرسية نحاول الثأر لشهدائنا من زملائنا الطلاب الاتراك الذين اخذوا يتكتلون ضدنا ، وأخذنا بالمقابل نتكتل ضدهم ، فنتضارب بقسوة في العاب كرة اليد ، ونتصادم بحقد في العاب كرة القدم ، ونتعصب لقوميتنا عند كل خلاف ينشب بين عربي وتركي في نطاق المدرسة . وكنا كثرة يخشاها الطلاب الاتراك ، وكلهم من أبناء الموظفين ورجال الجيش وأبناء قتلى الحرب ، فقد كانت حكومة الآستانة توزع ابناء شهداء الجيش ، في مطلع كل عام دراسي ، على المدارس والمعاهد الحكومية في الولايات ، وتفرضهم بكثرة على المدارس في المدن العربية داخليين بالمجان على حساب الدولة ، ليتم بخلطهم بالعرب برنامج التتريك الذي رسمته للبلاد العربية ، فينشأ الطالب العربي ، وخاصة الداخلي ، في جو مدرسي يرطن بالتركية ، ويتلقى كل علومه ودروسه بالتركية ، ولا يقرأ من التاريخ غير أمجاد طوران ، وهولاكو ، وجنكيز وسلاطين آل عثمان .

لم يعد ، بعد فاجعة الشهداء يثيرنا نشيد : « توركز ياشارز بز كينمز له ! » ،

ومعناه : « نحن اتراك نعيش باحقادنا » ، بل أخذنا ننشد في مناسباتنا المدرسية النشيد الذي أنشده الشهداء ، وهم يسيرون الى اراجيح البطولة : « نحن أبناء الألى .. شادوا مجداً وعلا .. نسل قحطان الأبي .. جد كل العرب » . وقد ولد الخلاف المستمر بين الطلبة العرب والأتراك في مدرستنا تحزب المعلمين الاتراك للطلاب من بني قومهم ، وابداء كرههم للطلبة العرب ، دون ان يقابله تحزب من المعلمين العرب ، لأن اكثرهم كان من العرب اللاجئين الى الدولة العثمانية ، من أهالي تونس ، أو مصر أو المغرب الذين سقطت بلادهم فريسة للاستعمار الأجنبي.

مقابلة التحدي بالتحدي

وأذكر بهذه المناسبة الاستاذ بهاء الدين كتخدا مدرس الأدب التركي في مدرستنا ، فقد كان لايستطيع ان يضبط أعصابه، ويخفي كرهه للطلاب العرب، فينتحل الاسباب الواهية للتهجم عليهم في دروسه ، وخارج دروسه ، ويعلن دوماً تقديره للطلاب الاتراك ، تحت ستار انهم مبدعون في درس الادب التركي، كما أن الاستاذ موسى كاظم مدرس الطبيعيات ـ الفيزيا والكيمياء ـ في المدرسة كان من المدرسين الاتراك الذين ينهجون نهج زميله كتخدا ، يدعمهما في هذا الشعور ذ كائي قرنزابا المدير الثاني ومدرس التاريخ والجغرافيا في المدرسة، حتى أن موسى كاظم مدرس الطبيعيات وجّه إلي في احدى المناسبات شتيمة ، لأنني دخلت دكان البائع أثناء دق الجرس، والدعوة للانتظام في الصف ، قائلاً : « مسكين ! » ، وهي كلمة تعني بالتركية : « يا ذليل ! » أو « يا حقير ! » فاضطررت لان أرد الشتيمة نفسها اليه، وأقول له : «أنت الحقير ! » . وكادت هذه الحادثة أن تؤدي إلى إنزال عقوبة قاسية بي ، قد تبلغ حد الطرد الموقت من المدرسة ، لولا ان الاستاذ رأفت المدير الاول ومدرس الرياضيات في المدرسة، وهو من مدينة « أورفه » ، ومن الاتراك المعتدلين ، ومن المقدرين لاجتهادي في دروسه ، وقف إلى جانبي ، واعتبر بحضور المدير الثاني ، ومدرس الطبيعيات

انتهاء الحادث ، لانه كان البادىء بالشتم ، وكان موقفي منه رداً على تحـــديه ، وتجاوزه النظام. وتلافى المديران الحادث ، بأن طلبا مني الاعتذار للأستاذ ، وطوي أمر العقوبة التي كان يصر عليها معلم الطبيعيات ، وهو احد المـــدرسين الذين أوفدتهم العاصمة إلى البلدان العربية لينفذوا برنامج تتريك الطلاب العرب، ويناهضوا شعور القومية الذي اخذ يتحمس به المثقفون العرب ، قبـــل سواد الشعب المتشبع بالتعصب الديني الذي غذاه الاتراك ، وأسبغوا على حكمهم هالة من القدسية باسم الدين والمذهب والسلطان خليفة المسلمين .

لم يقف الحكام الترك عند حد تعيين خريجي جامعـــة الاستانة من الشبان الاتراك المشبعين بالروح الطورانية أساتذة ومعلمين في البلدان العربية ، بل عينوا إلى جانبهم اللاجئين من أحرار مصر وليبيا والمغرب العربي الذين ناهضوا الاستعمار البريطاني ، والفرنسي ، والطلياني ، والاسباني في بلادهم ، واضطر بعضهم ، عند الملاحقة للفرار من أوطانهم ، لاجئين إلى دولة الخلافـــة ، يحدوهم إلى ذلك شعورهم الديني ، حيث لم تكن في أقطارهم يقظة قومية عربية ، فقـــد عزل الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا أهلها عن سائر أجزاء الوطن العربي ، وأبعد شعوبها عن تيار القومية العربيـــة ، حتى أنه زيَّف التاريخ ، وزعم في الكتب المدرسية أن الجزائريين اصلهم من الغال ، والتونسيين من الوندال الذين جاءوا شمال افريقية من الغرب ، واستوطنوا فيها ، وزعم أنهم نسوا بعد الفتح الاسلامي لغتهم ، ودانوا بالاسلام . والانكليز الذين احتلوا مصر ، عزلوها أيضاً عن تيار القومية العربية ، وقالوا لاهلها انتم فراعنة ، وانتم مسلمون ، وانتم شرقيون ، ولكنهم لم يقولوا لهم أنتم عرب ، ومن صميم العرب . لذلك ظل سواد الشعب المصري يحن الى ماضيه قبل الاحتلال الاجنبي ، يوم كان مستقلاً في بلده ، يرتبط اسمياً بالدولة العثمانية ، باعتبارها دولة الخلافة للمسلمين . لذلك كان المصريون في الحرب الكونية يتمنون النصر للدولة العثمانية على الانكليز المحتلين ، في حين ان عرب المشرق ثاروا على الدولة العثمانيـــة التي قتلت أحرارهم ، وشردت ألوف

العائلات منهم إلى بر الاناضول ، وقررت صهرهم في بوتقـــة القومية التركية ، ورسمت الخطط لتهجير سبعين الف عائلة عربية ، قدر أنها مثقفـــة ، إلى بر الاناضول التركي ، إلى جانب تهجير الارمن والاكراد والشركس والأتراك الى البلدان العربية ، ليتم لها بذلك عملية المزج والصهر مع تنشئة النشء نشأة تركية ببرامج التعليم التي وضعت لهذا الغرض. لقد كان استاذ اللغة العربية في مدرستنا شيخاً مصرياً معمماً من اللاجئين إلى الدولة العثمانية ، واسمه عبد الله من خريجي الازهر . درسنا العربية في الصفوف المتوسطة أو الاعدادية حسب البرنامج الموضوع لهـــا . ساعتان في الاسبوع الواحد ، كان لا يخرج فيهما عن كتاب للقراءة أضعف من الكتب التي تدرس اليوم في الصفوف الابتدائيـة الاولى ، وعن تصريف الافعـــال متمثلا بفعل نصر نصرا إلى آخر تصريف هذا الفعل ماضياً ومضارعاً وأمراً . ويوم زوال الحكم التركي عن البلاد العربية في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لم يكن العربي خريج الثانوية أو الجامعة يعرف ضبط أي حركة من حركات الإعراب في لغته ، فيقرأ الكلمات مغلوطة ، ولا يحسن انشاء موضوع بلغته الفصحى . كذلك كان « مسيو » صالح استاذ اللغة الفرنسية من أحرار تونس اللاجئين إلى الدولة العثمانيـــة من ظلم الفرنسيين ، لا يتورع في دروسه ، عن الهزء بدعاة القومية العربيـــة ، وعن السخرية بالمتفننين منا نحن العرب بعدنان وقحطان ، مشيراً الى زميل لنـــا أشقر الشعر أبيض الوجه ، متسائلاً : « كيف يمت زميلكم توفيق هذا بشقرته الى قحطان أو عدنان ؟ ومن أين جاء بزرقة عينيه وبياض بشرته ، من جده عدنان ، أم جده قحطان ؟ .. وكان في أحاديثه التي كان يقصـــدها ينفي أن يكون الدم العربي في عروق أحد منا !

الولد إن بار .. ثلثاه للخال ...

كان أخي صبحي الريس دعي في أواخر عام ١٩١٦ الى الجندية ، ونقل الى

الاستانة للتدريب في معسكر تخريج ضباط الاحتياط . وكان الشيخ عبد القادر المباركاستاذ اللغة العربية في مدرستنا تعرف الىخالي محمود الريس والدالصحافي الوطني المعروف نجيب الريس ، خلال زياراته العديدة لمدرستنا ، ولتفقد شؤوني وشؤون أخي صبحي يوم كان طالباً معي في مدرسة « عنبر » ، وأعجب الاستاذ المبارك بخالي كشاعر وأديب في العربية . وبعد سفر أخي الى الجندية ، انقطع تردد خالي محمود على المدرسة لزيارتي وزيارة صديقه الشيخ المبارك ، وعرفت أنه نقل من وظيفته كشرطي للجيش في دمشق ، وسيق إلى جبهة القتال في فلسطين . وكان خالي يؤدي خدمة العلم كسائر رعايا الدولة . وفي مساء أحد الايام ، بينما كنت اذاكر دروسي مع سائر رفاقي الطلاب الداخليين ، اقترب من مقعدي الاستاذ المبارك الذي كان ليلتئذ مناوباً يشرف على شؤون الطلاب الداخليين ، وسألني عن حال أخي صبحي في معسكر التدريب ، وهل أتلقى منه رسائل ، ثم همس في أذني بأن خالي محمود الريس يقرئني السلام ، وانه في صحة جيدة .. ولما سألته عن مقامه اليوم ، وهل قابله بنفسه ، قال : « اطمئن !.. لقد فر خالك من الجيش ، والتحق بالثورة العربية .. » ، وعرفت من حديثه ان خالي لجأ اليه ، واختفى أياماً في مزرعة للشيخ المبارك قرب حوران ، وانه هيأ له السفر والوصول الى صديق له من أبناء جبل الدروز ، وان هذا الصديق ارفق معه من أوصله ، بطريق البادية ، إلى جيش الأمير فيصل نجل شريف مكة الذي كان يسمى بين جيوش الثورة بجيش الشمال ، وانه تلقى من الصديق في جبل الدروز ما يشعر بوصول خالي سالماً إلى جيش الثورة العربية . ولقد كانت جرأة من الشيخ المبارك ان يطلع مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره على سر فرار خاله من الجيش ، وما عمله هو نفسه في سبيل وصوله الى ميادين الثورة ، لأن افتضاح هذا السر ، يودي بالشيخ المبارك الى ديوان الحرب العرفي ، وربما الى المشنقة ، لأنه سهل وصول ثائر الى ميدان الثورة العربية ..ولكن كانت النعرة القومية بين الطلاب العرب والاتراك بلغت اقصاها ، وخاصة بعد نشوبالثورة العربية ، فكان الاستاذ المبارك يدرك بأنني

سأكتم سره بحكم حماستي لقوميتي ، وحرصي على سلامة أسرة خالي من بطش الاتراك ، وأنا من أقرب الناس اليه رحماً .

تراجع على جميع جبهات القتال

- ٦ -

استقبلنا عام ١٩١٧ الدراسي ، ووضع الدولة العثمانية يزداد سوءاً ، وأنباء الحرب في جبهات القتال تشير كلها الى التراجع المستمر ، والحال الاقتصادية تتدهور ، والمجاعة والامراض تفتك بالشعب . واذا استثنينا انسحاب جيوش الحلفاء من الدردنيل بعد أن عجزت عن اختراق حصونه إلى العاصمة التركية ، وإذا استثنينا أسر الجنرال « طاوسند » البريطاني في كوت العمارة من العراق ـ إذا استثنينا هذين الانتصارين ، فإن الجيوش التركية ، في مدى سنوات الحرب كلها ، لم تسجل في جميع المعارك ، نصراً ذا قيمة ، بل كانت معاركها تراجعاً وهزائم على طول جبهات القتال ، فالولايات الشرقية في بر الاناضول تسقط مدنها ، بل ولاياتها تباعاً بيد الجيش الروسي الزاحف من القفقاس ، وسوء حال الجيش التركي في تلك المناطق الباردة والثلوج يتحدث عنه الجميع ، والجيش البريطاني يزحف في العراق من البصرة نحو الشمال في اتجاه بغداد ، ومدينة القدس المقدسة في نظر أصحاب الاديان السماوية سقطت في ٩ /١٢/١٩١٧ بيد الحلفاء ، والجيش البريطاني يتغلغل في فلسطين ، ويهدد مدينة نابلس ، وجيش فخري باشا أصبح محاصراً في يثرب ، يحيط به جيش الامير عبد الله من أولاد الشريف الحسين ، والجيش العربي بقيادة الامير فيصل يتقدم بعناد نحو الشمال ، وينسف باستمرار القطر ، ويخرب الخط الحديدي بين يثرب ودمشق ليشدد الحصار على جيش فخري باشا ، ويحتل جيش فيصل أخيراً العقبة ، وهي مرفأ مهم بالنسبة لتموين الجيش ، ويهدد باحتلاله الجناح الايسر من الجيش التركي

الذي يتاتل في فلسطين ، بل يصبح على مقربة من معان وعمـان ودرعا ، والاخيرة عقدة لاتصال الخطوط الحديدية ، يتلاقى فيها خطوط دمشق ــ المدينة المنورة بخط درعا ــ حيفا ، وخط درعا بصرى الشام . وكان هناك خط آخر بين درعا والمزيريب! إلا ان الدولة التركية اقتلعت القضبان الحديدية لهذا الخط ، ونقلتها إلى فلسطين ، ومدت بها خطاً يخدم مصالحها الحربية هناك . لقد أصبح جيش فيصل باحتلال العقبة على صلة بجبل الدروز وعشائر بادية الشام . لذلك أثر هذا الوضع السيء على تموين مدرستنا ، وعلى حياتنا اليومية فيها ، فقـد اهترأت ملابس الطلاب الداخليين الذين تكسوهم الدولة عادة ، وخاصة منهم الطلاب الاتراك الذين لا أهـل لهم ولا معيل غير الدولة ، وأصبحنا لا نذوق اللحم أكثر من مرة في الاسبوع الواحد ، خلال برنامج طعامنا المدرسي ، واشتد الغلاء ، وهبطت قيمة الليرة التركية الورقية . وكانت الافران في المدن تزدحم كل يوم بالنساء والرجال للحصول على خبز البطاقة بالسعر المحدد والعملة الورقية ، ولولا ان الحكومة ضمنت للموظفين مؤونتهم من القمح بالسعر الرسمي والعملة الورقيـة التي يقبضون بها رواتبهم لماتوا مع أسرهم من الفقر والجوع ، وكيف لا يموتون والليرة الورقية اصبحت كل خمس منها بليرة ذهبية لا تشترى اكثر من ثلاثة ارطال خبز او دقيق . واخذت آثار الجوع والبؤس تظهر على وجوه الغرباء والاتراك من الطلبة الداخليين ، ونحلت اجسامهم التي لا تغطيها غير أسمال بالية ، وخلقان مهترأة ، فقررنا تأليف وفـد من هؤلاء الطلاب البائسين ، وايفاده إلى دار الحكومة لتقع عينا تحسين بك والي دمشق الاتحادي على نماذج من طلاب الثانوية الرسمية الوحيدة في دمشق . وفعلاً ، وبعد محاولات عديدة ، نجحت الخطة ، وأصبحنا ذات يوم لنرى فيـه الخدم منهمكين في تنظيف المدرسة ، وزجاج النوافذ والشبابيك ، ولنسمع من أفواه الخدم أن الوالي قادم اليوم لزيارة مدرستنا . وفعلاً لم تمض الساعة الأولى على الدروس حتى رأينا المديرين وعدداً من الأساتذة والموظفين يهرعون إلى الباب الخارجي ، فأدركنا ، ونحن في صفوفنا نتطلع من النوافذ ، ان الوالي قد وصـل . ولما

دخل الوالي صفنا الثامن ، وكان أقرب صف إلى الباحة والباب الخـــارجي ، يرافقه مساعده فـــؤاد بك ، وهاشم بك مدير المعارف ، وعدد من المرافقين ، والمدير الأول والثاني في مدرستنا . وكنت أجلس مع زميلي نصوح القادري في أول مقعدين على اليمين ، فوقفنا تحية للضيف ومرافقيه ، وأشـــار إلينا بالجلوس .وكان وسيماً مهيباً ، ثم طلب منا أن يقف الطلاب الداخليون بالمجان ، أي على حساب الدولة ، فوقفت مع عدد من زملائي ، ولما كنت وحدي في الصف الأول اقترب مني الوالي تحسين بك ، وسألني : « هل لباسك من عطاء المدرسة ؟ » ، فأجبته : « كلا يا سيدي ! انه من مال والدي ! » ، قال : « ماذا تأكلون كل يوم ؟ » ، قلت : « حساء الدقيق كل صباح ، ولون خضار أو صحن برغل في وجبتي الظهر والمساء . أما اللحم فلا يقـــدم إلينا إلا مرة واحدة في الاسبوع مع الحلوى ! » ، قال : « ألا يزور هاشم بك مدير المعارف مدرستكم ، ويرى بنفسه حالكم ؟ » . قلت « بصوت منخفض كصوته » : « بلى يا سيدي انه يزورنا في كل اسبوع ... يزورنا ظهر يوم الاثنين ليتناول على مائدة خاصة مع كبار المسؤولين في المدرسة وجبـــة اللحم والحلوى ! .. » فابتسم الوالي لهذا الجواب، ويظهر انه أعجب به ! ، فقد التفت إلى فؤاد بك مساعده، وسأله : « هل سمعت ؟ » ، فقال : « نعم يا مولاي ! » . وعندئذ التفت الوالي إلى المدير الأول ، وأملى عليه أرقاماً بكميات الغـــذاء والحاجات الاستهلاكية الاخرى لعيش الطلاب الداخليين سجلهـــا المدير فوراً . وانصرف الجميع إلى الصفوف الأخرى ، وما زال يطوف بها ويدقق ، ويحقق إلى قرب الظهيرة . ولما توجه نحو باب المدرسة الخارجي في انصرافه ، قابل صفاً من تلامذة الصفوف الابتدائية الداخليين، قادمين من مدرستهم في حي القصاع لتناول وجبة الغداء ، فقد نقلوا في السنوات الأخيرة من مدرستنا إلى بناء من المدارس الاجنبية التي صادرتها الدولة في مطلع الحرب كالفرير والفرنسيسكان وغيرهـــا من مدارس الارساليات التبشيرية التي تنتمي إلى دول الحلفاء . وكانت مدرستنا أصابت الكثير من وسائل الإيضاح التي كانت تلك المـــدارس غنية بها ، كالحيوانات

والطيور والزواحف المحنطة ، وأدوات الفيزياء والكيمياء والجغرافيا والفلك نجري عليها تجارب دروسنا العملية ، وقد ملأت البهو الكبير من المدرسة ، وبذلك أصبحت مدرستنا من أغنى المدارس بوسائل الايضاح ، لا تستطيع أي مدرسة ثانوية ، مهما بلغت ميزانيتها أن تمتلكها وحدها . وكانت إدارة المدرسة في يوم زيارة الوالي تحسين بك ، اختارت من التلامذة الداخليين من يناسب هندامهم ، فيما اذا وقعت عليهم عينا الوالي ، وخلفت البائسين ذوي الأسمال البالية في مدرسة القصاع يتضورون جوعاً كي لا تقع عليهم عينا الوالي ، ومع ذلك استوقف الوالي هؤلاء الطلاب ، وهم يدخلون من الباب الخارجي ، وكشف بيده عن أقدامهم العارية من الجوارب ، ولاحظ أحذيتهم المهترئة في فصل الشتاء ، والتفت الى مديرنا وقال له : « أنا آسف لعجزك عن إعالة بضع مئات من الطلاب أبناء الدولة ورجال المستقبل ، وإبقائك إياهم على هذه الحال من الجوع والعري ، دون أن تعلمني ، وتعلم مراجعك بحقيقة وضعهم ، في حين أنني أعيل في دمشق وحدها مئات الوف من السكان ؛ وأعيل في الولاية عدة ملايين نسمة ، في أزمة الحرب الخانقة ! » ، ثم خرج من المدرسة مغضباً ، الا أن غضبته الطورانية أفادتنا ، فقد فرجت أزمتنا في السنة الاخيرة من الحرب الكونية ، فانهالت على مدرستنا مواد الإعاشة والتموين من مستودعات الجيش ، اذ استطاع هذا الوالي ، وهو من أساطين حزب الاتحاد والترقي الحاكم ، أن يحمل قيادة الجيش على إعطائنا ما نحتاج اليه من مواد الإعاشة والتموين ، حتى اللحم عوضه علينا بقطيع من الاغنام سلمته إدارة المدرسة إلى المتعهد كي يتصرف به ، ويورد لها اللحم يومياً بقيمته . والوالي تحسين بك كان أوفد من استانبول في السنوات الأولى من الحرب ليحل محل الوالي عارف بك المارديني ، وهو من أهالي ماردين ، ومن أصل عربي ، نقل إلى ولاية تركية ، وخلفه تحسين بك ليكون على رأس الولاية حزبي يسهم مع جمال السفاح في القضاء على الروح العربية التي اخذت تقوى في هذا القطاع من المملكة العثمانية ، وخاصة منه ولاية الشام ، وولاية بيروت ، فقد كانت الدولة العثمانية تدرك أن النهضة العلمية

فيهما بلغت شأواً ، وأخذ الوعي القومي يتفتح في صفوف المثقفين ، ويسري الى ولايات حلب والموصل وبغداد والبصرة وغيرها من الأقاليم العربية .

الشعور بالخطر الداهم !

لم تكد أزاهير الربيع ، في عام ١٩١٨ ، تتفتح حتى صدرت الاوامر سراً الى إدارة المدرسة بأن تقدم مواعيد الفحوص النهائية للسنة الدراسية ، وتعجل في صرف الطلاب الغرباء الى بلدانهم ، لان الوضع الحربي في جبهات القتال يتطلب ذلك . ومعنى هذا أن الوضع الحربي أخذ يتدهور بالنسبة للدولة العثمانية ، فالجيش العربي أخذ ينطلق من العقبة ، ويهاجم بلدة معان ، ويهدد بلدة عمان ، ويبعث برسله الى جبل الدروز ، ويهاجم بشدة الحاميات التركية التي تحمي الجناح الأيمن من جيش فلسطين ، وتحمي محطات الخطوط الحديدية ، والمواقع الاستراتيجية في المنطقة . وكان الانكليز ، في ربيع تلك السنة ، وجهوا سرية من جيشهم في جبهة فلسطين ، قامت بدلالة نفر من الأعراب ، يعبور نهر الاردن والغور ، وتسللت عبر الجبال حتى باغتت بلدة عمان ومحطتها على الخط الحديدي بين دمشق والمدينة المنورة ، ولولا وقوف الشراكسة أهالي عمان مع حامية البلدة في وجه هذه القوة ، ووصول نجدة على عجل من محطة درعا لسقطت عمان يومئذ بيد الانكليز ، وهدد سقوطها موقع درعا ملتقى الخطوط الحديدية كلها . وبسقوط درعا يعزل الجيش التركي في جبهة قتال فلسطين وجنوب الشام ، وينقطع اتصاله بدمشق وبالتموين . وفعلاً تمت الفحوص في شهر نيسان من تلك السنة ، وغادر الطلبة الغرباء ، وخاصة الاتراك منهم ، دمشق الى بلدانهم ، وشعرنا ، ونحن نغادر المدرسة أن الوضع غير عادي ، فقد منع سفر المدنيين بالقطر منذ مطلع صيف ١٩١٧ ، ولكننا وجدنا ، في هذه المرة ، طريقنا بالقطار الى مدينة حماة ، مع العائلات التركية والطلبة الأتراك الذين خصصت قطر لنقلهم الى بلدانهم في تركيا ، مما يدل على ان قيادة الجيش كانت تتوقع تطورات مفاجئة في جبهة قتال فلسطين .

رحلة بالمركبات !

وبهذه المناسبة ما زلت اذكر في صيف عام ١٩١٧ ، أثر انتهاء الفحوص السنوية ، إننا أبلغنا منع سفر المدنيين على الخطوط الحديدية ، فاستأجرنا مع زملائنا الطلاب الحمويين مركبتين تجرهما الجياد من المركبات التي تعمل في نقل الركاب في شوارع دمشق ، وغادرنا ، وعددنا عشرة ، دمشق عصراً اتقاء للحر . ولما بلغنا موقع « قبة العصافير » والخان الذي بجانبها، في أول طلعة الثنايا المعروفة بثنية العقاب ، حيث نشر القائد العربي خالد بن الوليد رايته العقاب فيها، وهو يزحف لحصار دمشق – لما بلغنا هذا الخان مع غروب الشمس اعترض سبيلنا رجال مخفر للدرك « جاندرمه » اقيم في الخان ، ومنعونا من متابعة السفر واجتياز الثنايا ليلاً خشية قطاع الطرق ، وطلبوا منا ان نقضي الليلة في الخان ، ونتابع سفرنا في الصباح ، على ضوء النهار .وكان الخان قديماً اتخذ منه الجنود مربطاً لخيولهم ، مليء بالبراغيث . وبعد جدل طويل همس أحد زملائنا في اذن رئيس المخفر بأن الطلاب على استعداد لدفع اتعاب الجنديين اللذين يرافقان المركبتين عبر الثنايا ، فتقدم الرئيس مع احد جنوده للقيام بهذه المهمة ، واجتزنا الثنايا ليلاً، نصعد فيها ببطء ، والدركيان يمنيان النفس ببضعة ريالات ينقدهما الطلاب لقاء مرافقتها المركبتين بضعة كيلومترات. ولما تجاوزنا حنايا الثنية ، ووديانها ، وأشرفنا على مرتفع سهل تلألأت فيه اضواء بلدة « القطيفة »،وقف رئيس المخفر يتمنى لنا سفراً سعيداً ، بعد ان بلغنا الطريق السهل الامين ، ويودعنا منتظراً العطاء، فشكرناه وشكرنا رفيقه على أريحيتها ، ومرت بها المركبتان تنحدران بسرعة ، نحو القطيفة ، دون ان ننقدهما بارة الفرد !..ووقف الفارسان باهتين ينظران الى المركبتين تبتعدان عنهما في ظلمة الليل، ولو ان من فيهما ليسوا طلاباً لكان لهما معهم شأن آخر ، الا ان الطلاب قد يشكون للمراجع المختصة أي أذى يلحق بهم . ولم يجدا بداً من أن يلويا عناني جواديهما ، ويعودا إلى مخفرهما

بخفي حنين ، يلعنان الساعة التي تعاملا بها مع الطلاب ، ولم يقبضا الرشوة سلفاً قبل ان تتحرك المركبتان !

تابعنا سفرنا نجتاز القطيفة الى بلدة النبك مركز قضاء قلمون ، وحللنا فيها للراحة والقيلولة في فندق صغير يطل على ساحة الغفري ونبعها البارد الرقراق. وقبل نهوضنا عصراً للسفر ، جاءنا توفيق جانا صاحب جريدة « الحمارة » الهزلية في دمشق ، والتي غدا اسمها فيما بعد « حط بالخرج » ، ثم تطورت الى جريدة يومية باسم « الشعب » — جاءنا هذا الصحافي ، ورجا ان نسمح له بالسفر معنـــا ، وفي مركبة من مركبتينا الى بلدة « قارة » القريبة ، وهي في طريقنا الى الشمال ، وكان على ما يظهر يقوم في قلمون بجولة يجبي خلالها بدلات اشتراك جريدته ، وقال مازحاً : « هل تسمحون لي بالركوب معكم الى قارة .. وإلا أنزلتكم في الحمارة !.. » فقلنا له ان المقاعد في المركبتين مشغولة كلها ، وليس فيها مكان له ، ولو أنزلنا في جريدة الحمارة .. أي ولو كتب تهويشاً في جريدتـــه ضدنا ، فابتسم ، وانصرف !

تابعنا عصراً سفرنا الى حمص مارين بحسياء ، فبلغنا مدينة ابن الوليد قبيل الفجر ، وبذلك انتهت رحلتنا بالمركبتين ، واستأجرنا في الصباح مقـــاعد في مركبات اخرى تسير بين مدينتي حمص وحماة . وعدنا في بدء السنة الدراسية الى دمشق بالقطار . وغادرنا ، كما وصفت آنفاً ، دمشق لآخر مرة في الحرب الكونية ، أي في ربيع عام ١٩١٨ ، لنشهد الزحام في القطر اثناء جلاء العائلات التركية عن بلاد الشام ، بل عن البلاد العربية كلها ، استعداداً للهزيمة التي كانت تتوقعها قيادة الجيش التركي .

الثورة العربيـة

- ٧ -

كانت الثورة العربية التي أعلنها الحسين شريف مكة في ١٠ حزيران عام ١٩١٦ على الدولة العثمانية لعبت دورها في انهاك الجيش التركي ، واصبحت هزيمة الدولة التركية نتيجة حتمية لتلك الحرب غير المتكافئة من جـــانب ، ولأن الشعب العربي الذي يؤلف الاكثرية بين أقوام الدولة العثمانية استيقظ على واقعه ، وعرف ان سياسة فتيان الترك ، أو « جون ترك » كما يلقبهم الغربيون ، وخططهم ترمي الى تتريكه ، ومحو قوميته العربية ، وقد رآهم يقتلون ، دون جريرة ، احراره ، ويبعدون أسرهم الى مجاهل الأناضول . وكان تركيزهم على بلاد الشام ، لانها كانت السباقة في الوعي القومي ، فأكثر الشباب العرب الذين ألفوا الأحزاب والجمعيات قبيل الحرب كانوا منها . أما الانكليز فقد لمسوا قبل الحرب العالمية الاولى يقظة الشعب العربي ، واحاطوا بمطالبه ومطامحه ، وشعروا بخطر تيار القومية العربية على مصر والسودان ، فاتقوه ، واتخذوا الخطط الواقية عند حدود مصر . ولما خاضوا غمار الحرب حاولوا أن يفيدوا من هـــذا الوعي في حربهم ضد الدولة العثمانية . وكان الحسين بن علي أقام مع أولاده واسرته ١٨ عاماً في استانبول تحت رقابة الطاغية السلطان عبد الحميد الثاني ، فأتيح لأولاده علي وعبدالله وفيصل وزيد التعلم في مدارس العاصمة ومعاهدها . ولما خلع السلطان عبد الحميد عين الاتحاديون الحسين شريفاً على مكة ، ولبث ولداه عبدالله وفيصل في استانبول ، ثم التحقا في شهر آب عام ١٩١٤ بوالدهما في مكة مارين بالقاهرة . وعلم ممثل بريطانيا بوجودهما فيها ، والحرب قد نشبت ، وتردد أن تركيـــا ستخوضها الى جانب المانيا ، فأرسل بطلبهما ، وتحدث اليهما عن موقف والدهما

في حال اعلان تركيا الحرب على الحلفاء ، ثم حملها كتاباً الى والدهما الحسين ، جاء فيه ان بريطانيا تشكر أمير الحجاز على حسن ادارته لشؤون الديار المقدسة ، وجميل عنايته براحة الحجاج ، وان حكومة جلالته لا ترى أدنى اعتراض في إعادة الخلافة الى العرب ؛ فكان هذا الكتاب اول احتكاك بين بريطانيا وشريف مكة . وفي اواخر شهر ايلول عام ١٩١٤ وجه « مستر ستورس » السكرتير العام لشؤون الشرق في القاهرة كتاباً خاصاً الى عبدالله نجل الحسين في مكة ينبئه بأن اللورد « كتشنر » وزير الحربية البريطاني أمره بأن يسأل الأمير : هل لا يزال هو وسيادة والده على رأيهما المتعلق بالدفاع عن حقوق العرب ؟

وكان جرى بحث بين اللورد كتشنر وعبدالله في القاهرة حول موضوع حقوق العرب في الرحلة التي أشرنا اليها من قبل . وقال ستورس في كتابه : « ان اللورد كتشنر يريد منه ابلاغ عبدالله فيما اذا كان الجواب ايجابياً ، وانحازت الدولة التركية الى المانيا في الحرب ، يكون في استطاعة الحكومة البريطانية مساعدة الشريف الحسين وأولاده . . » ، وكان الجواب من عبدالله شفوياً للرسول الذي حمل الكتاب بأنه سيفكر بالأمر . ولما ابطأ الرد الخطي عاد مستر ستورس فكتب الى عبدالله نجل الحسين عن احتمال انحياز تركيا في الحرب الى المانيا ، وأن بريطانيا مهيأة لمد يد المساعدة الى الشريف وأولاده ، فأجاب عبدالله بعد المداولة مع والده الحسين بأن القضية تهم العرب ، وبأنه سيستشيرهم فيها ، ومتى استقروا على مطالب معلومة قدموها الى الحكومة البريطانية . وعلى الأثر ، أي في شهر ايلول عام ١٩١٤ ، وجه الحسين ابنه فيصلاً الى دمشق والآستانة لمشاورة أحرار العرب بالأمر ، ومطالبة الحكومة التركية بعزل وهيب باشا والي الحجاز او نقله ، فقام فيصل بالمهمتين ، ونقل وهيب باشا ، وعاد فيصل في نهاية عام ١٩١٤ الى مكة ، وأبلغ والده اجتماع رأي أحرار العرب على ابلاغ بريطانيا مطالب العرب. وكان فيصل انتمى في هذه الفترة الى جمعية « العربية الفتاة » إبان وجوده في دمشق ، وبدأت المفاوضات الجدية بين الحسين وسير هنري مكماهون المقيم العام

البريطاني في القاهرة ، في ١٤ تموز عام ١٩١٥ ، اثر اعتقال عدد كبير من أحرار العرب ، وزجهم في سجن « عاليه » ، وتأليف محكمة عرفية لمحاكمتهم ، فطلب الحسين الاعتراف باستقلال بلاد العرب الواقعة بين مرسين ، فاذنه (اضنه) ، فحدود فارس ، فخليج البصرة ، فالبحر الهندي ، فالبحر الأحمر ، فحدود مصر ، فالبحر الابيض المتوسط ، واستثنى مستعمرة عدن . وقد جاء في مذكرة سير مكماهون المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول عام ١٩١٥ أن مقاطعتي مرسين والاسكندرونة وبعض اجزاء سورية الواقعة غربي مقاطعات دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن اعتبارها عربية محضة ، ولهذا يجب إخراجها من الحدود المبحوث عنها ، فاذا أخرجت توافق بريطانيا على الحدود المعدلة شريطة عدم مس المعاهدات المعقودة بينها وبين زعماء العرب. أما الاراضي الداخلة ضمن هذه الحدود المعدلة ، وهي التي تستطيع بريطانيا ان تعمل فيها بملء الحرية ، دون الاضرار بحليفتها فرنسا ، فانكلترة مستعدة ان تعترف باستقلال العرب فيها ، وتقديم المساعدة لهم . واما ما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد فإن مركز انكلترة ومصالحها فيها يتطلب شكلاً ادارياً خاصاً .وتعترف انكلترة بوحدة الاراضي المقدسة ، وتتعهد بحمايتها من كل اعتداء خارجي ، وتقدم بريطانيا للعرب ، عند الحاجة ، كل مساعدة او نصيحة لازمة . ويوافق العرب على الاقتصار على استشارة ومعونة وادارة بريطانيا العظمى وحدها ، ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون اليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعية البريطانية.

وقد أجاب الحسين على هذه المذكرة بأنه لا يصر على ان تكون اذنة ومرسين ضمن حدود البلاد التي يطلب الاعتراف باستقلالها . أما حلب وبيروت وساحلها فكلها عربية . وأما العراق فهو عربي بحت ، ومن بداءة الأمور أن الموظفين الذين يحتاج اليهم العرب لا يكون لهم إلا صفة الإستشارة ، فكتب « مكماهون » في ١٣ /١٢/ ١٩١٥ مذكرة جوابية جاء فيها : « ان قضية ولايتي حلب وبيروت تحتاج إلى نظر دقيق لما لفرنسا من مصالح فيها ، وان مصالح

بريطانية في ولاية بغداد تتطلب ادارة ودية ثابتة ، وان انكلترة لا تنوي ابرام أي صلح كان ما لم يكن في جملة شروطه الأساسية حرية الشعوب العربيـــة ، وخلاصها من سلطة الأتراك والألمان ، فأرسل الحسين كتاباً مع رسالة شفوية ، أو رسالة خصوصية يقول فيه : « .. انه يكف أثناء الحرب عن المطالبة بلبنان حراً لإجتناب ما يكدر صفو التحـالف بين انكلترة وفرنسة ، ولكنه يعود بعد الحرب إلى المطالبة به ، فأجاب مكماهون بأن صداقـة فرنسا وانكلترا ستقوى وتشتد بعد الحرب .

مآخذ على موقف الحسين

هذه خلاصة المفاوضات بين انكلترة والحسين بن علي شريف مكة ، تتكشف مسبقاً عن نيات بريطانيا وفرنسا في استعمار أكثر اجزاء الوطن العربي الخاضعة لسلطان الدولة العثمانية ، باستثناء الحجاز . وقد قبل بها الحســين كتحفظات وردت في رسائل ومذكرات سيرمكماهون اليه ، منها استعمار مناطق مرسين وأذنة والاسكندرونة ، وهي مناطق ضمن حدود سوريا الطبيعية التي هي اقليم أو جزء من الوطن العربي ، واكثرية سكان هذه المنــاطق من العرب ، بل ان أكثريتهم الساحقة عربية ، مع وجود أقليات صغيرة تركية وكردية وارمنية بسبب الاختلاط على الحدود ، والهجرات التي تقصدتها تركيا لإضعاف العرب في وطنهم . أما المناطق الكائنة غربي مقاطعات دمشق وحمص وحمـاة وحلب ، فهي منطقة ساحل بلاد الشام بأسرها . وديار الشام عربية ، بل هي أكثر بلاد العروبة وعياً وتعلقاً بالقومية العربية ، بما فيها لبنان ، فكيف يقبـــل الحسين بالتحفظات التي وردت في رسائل ومذكرات سيرمكماهون ، ويوافق ضمناً على استعمار فرنسا تلك المناطق ، بل يوافق على إخراجها من حدود الوطن العربي ؟ لقد قبل الحسين بعدم مس المعاهدات المعقودة بين انكلترة وزعمــاء العرب ، فأخرج من الحدود العربية نجداً ومناطق الجنوب المحتل ، ومناطق الخليـــج العربي ، وجميع السواحل العربية على بحر العرب ، بالاضافـة الى انه وافق على

استعمار العراق تحت ستار مركز انكلترة ومصالحها فيه ، وفرض النفوذ البريطاني على ما تبقى من الأرض العربية ، وربطها ببريطانيا وحدها تحت ستار الاستشارة والمعونة والادارة البريطانية التي يجب على العرب ان يوافقوا عليها ، وقبل بها كنصوص صريحة في بعض المذكرات ، اذ وافق على إخراج اذنة ومرسين من حدود البلاد العربية التي طلب من بريطانيا وحليفاتها الاعتراف باستقلالها ، كما سكت عن مس المعاهدات المعقودة بين انكلترة وزعماء العرب ، والسكوت إقرار في هذا المجال ، وبذلك وافق على إخراج مناطق الخليج العربي ، ومناطق بحر العرب ، بما فيها عدن والجنوب المحتل ، ونجد ، من حدود البلاد التي طلب من بريطانيا وحليفاتها الاعتراف باستقلالها .

لقد سبق لبريطانيا ، كما أسلفنا ، ان عقدت معاهدات صداقة وحماية مع امراء وشيوخ من العرب في هذه المناطق ، أسمت بعضهم سلاطين ، لتسيطر على بلادهم سيطرة تامة ، وتضعها في خدمة أساطيلها من أجل حماية طرق امبراطوريتها إلى الهند والشرق الاقصى . ثم تكشفت لها تلك المناطق عن ثروات دفينة في أرضها وفي مقدمتها النفط ، اذ أن بريطانيا لم تكن تجهل يومئذ وجود النفط في أراضي العراق ، ولا في مناطق الخليج العربي ، وسواحل بحر العرب . كذلك كانت حريصة على ان تستعمر تلك المناطق وتخرجها من الحدود التي طالب الحسين بان تعترف بريطانيا باستقلالها . لقد وافق الحسين على إخراج لبنان من تلك الحدود لإجتناب ما يكدر صفو التحالف بين انكلترة وفرنسا ، وحتى حتى مطالبة العرب بلبنان بعد الحرب ، لم ترض به بريطانيا ، فقد ردت على هذا التحفظ بأن صداقة فرنسا وانكلترة قائمة ، وستقوى وتشتد بعد الحرب !... وليس للحسين عذر في ان الدولة العثمانية اخذت بالبطش وتقتيل أحرار العرب ، ولا بان اصراره سيفوت على العرب فرصة الثورة والمساعدات التي ستقدمها لهم بريطانيا ، فالحرية ليست نيراً يستبدل بنير ، والحلفاء في ازمة كانوا بحاجة قصوى لثورة العرب على الدولة العثمانية ، ولو انه أصر على مطالبه ، وتصلب لانتزع من بريطانيا اعترافاً باستقلال البلاد العربية الخاضعة للسلطان التركي

كلها في ذلك الحين .

لقد عزم الحسين وأولاده ، بعد تبادل المذكرات التي أشرنا إليها ، مع سير مكماهون ، على اعلان الثورة على الدولة العثمانية بشروط مجحفة بحقوق العرب ، لأن وراءها عروشاً لوحت بها بريطانيا للحسين وأولاده أثناء المفاوضات . لقد كان جلياً أن الحسين سيغدو منذ إعلان الثورة ونجاحها ملكاً على الحجاز . أما البلاد العربية الأخرى ،فقد كان جلياً أن الاستعمار سيجزئها ، ويجعل منها دويلات ، ويفرض سيطرته عليها . وكان من خططه ان يقيم فيها عروشاً لملوك غرباء ليسوا من شعوب البلد ، كي يعتمدوا عليه في الاحتفاظ بعروشهم لهم ولذراريهم من بعدهم . ومهما قيل في قسوة الظروف التي كانت تسود يومئذ البلاد العربية ، ومهما قيل في الإرهاب التركي والاضطهاد والتقتيل ، وقوافل الشهداء ، وفي خطط التريك ، وإبعاد الأحرار ، والنفي والتشريد ، فانها كلها لا تبرر الرضاء بالشروط المجحفة التي أملتها بريطانية على الحسين ، لان الثائرين الحقيقيين يقومون بثورتهم معتمدين على امكانياتهم وحدها ، يوم لا تتوفر المساعدات من الخارج ، فإذا نجحت ثورتهم استطاعوا أن يفرضوا شروطهم ، ويحققوا أهدافهم ، لا سيما ، وقد مرت بالدولة العثمانية ، بعد الثورة العربية ظروف قاسية ، لو لوّح الحسين لها خلالها بالمطالب التي كان أحرار العرب يطالبونها بها ، وبأكثر منها ، لرضيت بها ، ولفضلت أن يكون العرب الى جانبها في الحرب على أن تخرج بلادهم كلها من يدها ، لا سيما والعرب يؤلفون أكبر كتلة قومية في كيانها ، وبعد الثورة لم يبق من العرب من يقاتل إلى جانبها مختاراً ، اللهم إلا القلة القليلة ممن لم يتحسسوا بالشعور القومي من الجنود والضباط العرب . ولو أن الحسين قام بثورته في الحجاز ، دون الانكليز وشروطهم ، لأتاحت له الفرصة فرض شروطه عليهم ، وكان عليه ، وهو يعلم ما في الرسائل والمذكرات من مطامع استعمارية ، أن يحسب حساب الخديعة ، وأن يعزز جيشه ، ويعده لمقاومة كل غدر من حلفائه المعروفين في العالم بأن دولهم دول استعمارية ؛ غزت مصر

والسودان ، وغزت ليبية ، وغزت الجزائر وتونس ومراكش ، وهي كلها بلاد عربية ، فكيف يطمئن الى نياتهم ، وقـــد تبدت له واضحة في الرسائل والمذكرات ؟

ان الانكليز ، بعد جميع تخفظاتهم الواردة في الرسائل والمذكرات ، نكثوا باتفاقهم بعد عام واحد من توقيعـه مع الحسين ، فقد أصدر وزيرهم بلفور ، في الثاني من شهر تشرين الثاني عام١٩١٧ ، وعداً لليهود بان تكون فلسطين العربية وطناً قومياً لهم . وإذا كان له من عذر بأن الوعد كان سرياً ، فان روسيا الشيوعية أذاعت وثيقة سايكس – بيكو السرية بتقسيم البلاد العربية غنائم بين انكلترة وفرنسة ، واطلع عليها الحسين وأولاده ، ووجد بين القادة العرب من نصح الحسين باليقظة من غدر الانكليز ، وبالاتجاه بالثورة اتجاهاً جديداً ، وحتى اقترح بعضهم عليه مفاوضة الدولة العثمانية على حقوق العرب ومطالبهم ، وعقد صلح شريف معها . لذلك لا نجد عذراً للحسين وأولاده في عدم اليقظة ، وفي الاستعداد على الأقل ، وفي تقوية الجيش العربي ليكون ، عنـدما تضع الحرب أوزارها، قوة تقف مع الشعب في وجه المتآمرين على قضيته . وصفوة القول أن الحسين عزم على الثورة ، معتمداً على حلفائه الانكليز ، لذلك أرسل سراً يطلب من ولده فيصل المقيم في دمشق ، أن يفر إلى الحجاز ، بأي طريقة كانت ، حتى لا يقع بيد أحمد جمال السفاح . وفي نفس الوقت أرسل برقية إلى السفاح يبشره بأن جيش الحجاز بقيادة ولده الأمير علي وصل إلى المدينة المنورة لنجدة الجيش التركي في حربه مع الانكليز . وتلقى أحمد جمال باشا من فخري باشا في المدينة ما يؤيد برقيـــة الحسين ، فسر بذلك سروراً عظيماً ، وزالت هواجسه . وفي اجتماع عقد مساء في فندق فيكتوريا مقر القائد العام في دمشق ، اقترح فيصل أن يسافر وفد رسمي من دمشق إلى يثرب لإستقبال جيش الحجاز ، وشكر الحسين أمير مكة على حميته ، فوافق الفريق أحمد جمال ، واقترح أن يكون الوفد برئاسة الامير فيصل » وبذلك سنحت الفرصة ، وبأسهل الطرق ، لفيصل

بأن يغادر دمشق إلى الحجاز ، فلا يبقى رهينة لدى القائـــد التركي . وتألف الوفد برئاسته من المير الاي التركي وصاف بك المستشار الحقوقي لقائد الجيش الرابع ، ومن ضابط آخر بنفس الرتبة كان يشغل وظيفة مفتش المنزل ، أي مفتش المقر في دمشق ، ومن الشيخ عبد القادر الخطيب . وتم اجتماع سري بين فيصل وبعض آل البكري في دمشق اتفق فيه على أن يسافر فوزي البكري مع أفراد أسرة آل البكري من نساء وأطفال الى المدينة ، وطلب الأمير فيصل من القائد أحمد جمال السفاح لنسيب البكري بأن يرافقه في هذه الرحلة ، ويعود معه فوافق .

وسافر الوفد ، واستقرت اسرة آل البكري في العوالي قرب المدينـــة المنورة انتظاراً للأحداث . ولما بلغ الوفد المدينة ، وقابل فخري باشا ، عرف أن بضعة آلاف من الهجانة والفرسان والمشاة العرب وصلوا إلى المدينة قادمين من مكة وسائر مناطق الحجاز ، وانهم بعد الاستقبال الذي جرى لهم هنـــا اتخذوا مقراً لهم في ضواحي المدينة . وكان برنامج الوفد أن يتم مهمته ويعود في أيام قليلة إلى دمشق . وأبدى المير الاي وصاف عضو الوفد رغبة في أن تتاح له فرصة أداء ركعتين داخل الحجرة النبوية الى جانب قبر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان له ذلك ، ورافقه اليها نسيب البكري ، واجتازا الروضة الطاهرة الى الحجرة التي فتحت لهما خصيصاً . وبعد اداء الصلاة ، وفي الخشوع الذي اسبغه المكان الذي يضم رفات سيد المرسلين وصاحبيه الصديق والفاروق وابنته فاطمة الزهراء ، اقترب المير الاي وصاف التركي من نسيب البكري ، وأسر له بأن يرجو الامير فيصل حفيد هذا النبي الكريم ان لا يعود الى دمشق ، وان يكتم عن كل احد انه قدم له هذه النصيحة . ومن البداهـة ان المستشار القانوني لأحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع كان ادرى الناس بنيات جمال السفاح نحو رجالات العرب ، ومنهم الأمير فيصل نجل الحسين الذي كانت الدولة العثمانية تحسب له اكبر حساب ، وتخشى ان ينتقض عليهم ، لما ارتكبوه ضد امته العربية من جرائم .

النصيحة أكدت الخطة المرسومة للثورة

على ان الأمير فيصل لم يكن بحاجـة إلى هذه النصيحة ، فقد كان على علم بالمفاوضات بين والده وبين الانكليز ، وعلى علم باتفاقه معهم على الثورة . وكان يتحين الفرص في دمشق للإفلات من الاقامة الإجبارية المفروضة عليه ، ومن الرقابة المستمرة. وقد جاءت الفرصة التي لم يكن يترقبها يوم سمح له الفريق أحمد جمال بالسفر على رأس الوفد الرسمي الى المدينة ، وهي إحدى مدن الحجاز ، ووالده أمير على الحجاز كله. وفوراً وضع في المدينة مع اخيه علي الخطة على العمل ، وسافر نسيب البكري مع سائر اعضاء الوفد عائدين الى دمشق ، دون رئيسهم فيصل الذي بعث الى الفريق احمد جمال بأنه سيعود بعد بضعة ايام أخر . وكانت مهمة نسيب البكري في دمشق ان يرتب هرب حاشية الأمير فيصل وحرسه من الحجازيين الذين خلفهم في دمشق ، حتى اذا تلقى فيصل من البكري برقية فيها إشارة متفق عليها ، عرف ان الجماعة تحركوا من دمشق بطريق البادية ، واصبح هو ووالده واخوته طلقاء في تنفيذ خطة الثورة ، وإعلانها .

الهرب وإعلان الثورة

وصلت البرقية الى الامير فيصل ، بعد ان انطلق نسيب البكري والهجانة من حرس الأمير وحاشيته ليلاً من قرية القابون بجوار دمشق حيث مزرعة يملكها آل البكري فيها ، ضاربين في البادية باتجاه « الجوف » ، ومعهم دليل يرشدهم في مسيرهم ، وفوجئت السلطات التركية في دمشق بهرب حاشية الأمير فيصل وحرسه وآل البكري معهم ، وصدرت الأوامر بتعقبهم ، ودعي شيوخ العشائر ، وفي مقدمتهم نوري الشعلان أمير عشيرة الرولة الى دمشق ، وطلب منهم القبض على الفارين لقاء جائزة مالية كبرى. وكان احمد جمال السفاح يدعو ، بين آونة وأخرى ، شيوخ العشائر ، وبعض زعماء الدروز في دمشق ، ويوزع

عليهم الجبات والعباءات الثمينة ، كل حسب شأنه وشأن قومه . ولكن القافلة كانت بلغت دون عقبات بلدة الجوف في اراضي نجد المتاخمة لولايـــة الشام ، ولاذت بنواف الشعلان نجل النوري الذي يمارس عملياً رئاســة العشيرة ، لأن والده مقيم في دمشــق . وقد تلقى نواف من والده رسالة يطلب منه ان يقبض على جماعة الامير فيصل ، ويعيدهم الى الحكومة التركية ، ولكنه لم يأبه بطلب والده ، ومكث الجماعة شهراً في ضيافته ، ينتظرون اشارة من الامــير فيصل تهديهم الى المكان الذي يتوجهون اليه .

أطلق الحسين بيده رصاصة في مكة اشعاراً بإعلان الثورة ، في العاشر من شهر حزيران عام ١٩١٦، وفق ٩شعبان عام ١٣٣٤ . وكان هاجم الاميران علي وفيصل في اليوم الثامن من حزيران نفسه ، بالقوة التي معهما ، ضواحي المدينة المنورة التي يرابط فيها جيش فخري باشا ، ونشطت القيادة التركية في دمشق والمدينة المنورة لضرب الثورة في مهدها . وكان جيش فخري باشـــا حشد في المدينة لهذا الغرض تحت ستار الزحف لتأديب امام اليمن . ولكن انقضى نحو سنتين دون ان يزحف هذا الجيش نحو اليمن . واليوم وقف هذا الجيش امام مهمته الأصلية ، اذ داهمته الثورة ، فهب يتعقب ولدي الحسين الى بلدة ينبع التي كان انسحب اليها ذلك الجيش ، مستعيناً بابن مبيرك حاكم رابغ . وكان هــذا حليفاً للدولة العثمانية . وكادت خطة الجيش التركي تنجح ، ويقع الجيش العربي بين نارين ، ولكن قيادته عرفت بالخطة ، وتقـــدم الحسين من ينبع ، فخاف فخري باشا على جيشه من العشائر ومن القوات العربية ، وعاد الى المدينة مؤثراً الحصار فيها . وعندئذ انطلقت الثورة الى أهدافها ، فتخلف الامير عبدالله بقوة عربية رابطت قرب المدينة لفرض الحصار على الجيش التركي ، وتقدم الجيش العربي بقيادة فيصل نحو الشمال .

لقد هزت الثورة العربية الدولة العثمانية ، وأرهبتها ، فقدكان الرصاص يحصد

كل يوم عدداً من شباب العرب المحكوم عليهم بتهمة الفرار من الجندية . ولما كثر عدد الفارين من الجيش تقرر ان يعدم واحد من عشرة بالقرعة ، فلما نشبت الثورة العربية توقف حكم الإعدام بين العرب بسبب الفرار من الجندية. وبعد مدة سحب احمد جمال من قيادة الجيش الرابع ، وأسندت القيادة إلى الفريق جمال باشا الصغير ، وهو الذي تولى وزارة الحربية في استانبول المحتلة ، بعد الحرب العالمية الاولى ، وساعد سراً مصطفى كمال على الثورة في الأناضول ضد الحلفاء المنتصرين وشروطهم في توزيع تركة الدولة العثمانية المعروفة بينهم بالرجل المريض .

أثر الثورة على الدولة العثمانية

لسنا هنا في مجال الكتابة مطولاً عن الثورة العربية ، فقد كتب عنها الكثيرون ، ولكنا في مجال الاشارة الى الاحداث التي عشناها خلالها ، مع العلم ان الثورة العربية قدمت للانكليز وحلفائهم من العون ما عجل في انهيار الدولة العثمانية وطردها من جميع البلاد العربية ، مما لم ينكره الانكليز أنفسهم ، فقد ورد في تصريحات ومذكرات زعمائهم وقادتهم ما أيد فضل الثورة العربية وأثرها في النصر الذي أحرزه الحلفاء على الدولة المركزية في الحرب الكونية الاولى .

من ذكريات الحرب

- ٨ -

كان أخي الأكبر ناظم الريس دعي الى خدمة العلم ، وتخرج من التدريب في الآستانة ضابط صف برتبة مرشح « نامزد » ، ثم سيق مع فرقته الى حرب الدردنيل ، وخاض معاركها ، ورفع الى رتبة ملازم ، وعهد اليه في أواخر

حروب الدردنيل بقيادة سرية . ولما انسحب الحلفاء بغتة من الدردنيل بقواتهم واساطيلهم ، وجهت أكثر القوات التركية في الدردنيل الى الجبهات الأخرى . وكان نصيب الفرقة الرابعة والعشرين ، أي فرقة أخي الاتجاه الى حلب . ولما كانت الفرق التي توجه من الاناضول الى حلب توزع إما الى جبهة القتال في العراق ، وإما الى جبهة القتال في فلسطين ، توجهت في صيف عام ١٩١٦ الى حلب لمقابلة أخي ، وهناك اهتديت بطريق قيادة الموقع الى المكان الذي عسكرت فيه الفرقة ، وهو موقع « عين التل » ، واستطعت ان ألتقي بأخي ، وان أحل ضيفاً عليه في خيمته في المعسكر .

وكنا خلال الايام القليلة التي قضيناها معاً في حلب ، نغادر المعسكر في المساء فرساناً ، مع عدد من الضباط زملاء أخي ، لنقضي السهرة معاً في ملاهي حلب، ونعود بعد منتصف الليل الى المعسكر. وكان اخي بشوق لمعرفة تفاصيل عن الاحكام التي صدرت على احرار العرب في عاليه (لبنان) ، لأن اكثرهم كانوا معه في الآستانة ، اثناء دراسته في كلية الحقوق . وكان هو من رواد المنتدى الأدبي ، ومن اعضائه في العاصمة التركية ، يعمل في سني ما قبل الحرب مع أحرار العرب ، ويشترك في مظاهرات الطلاب العرب من أجل القضية العربية واحداثها. وكان على صلة وثقى بعبد الكريم قاسم الخليل رئيس المنتدى، وبعبد الحميد الزهراوي نائب حمص ، وبعزيز علي المصري رئيس حزب العهد ، وبسليم الجزائري ، وشكري العسلي ، وعبد الوهاب الانكليزي من الضباط والمدنيين العاملين في القضية العربية ، والذين قتلهم السفاح احمد جمال في دمشق وبيروت . وكان اخي ، وهو في جبهة القتال في الدردنيل ، يخشى أن يقبض عليه ، ويساق مع غيره من شباب العرب وطلابهم الى المحكمة العسكرية باعتباره من أعضاء النادي الذين كان لهم نشاط بارز في الحركات العربية التي حدثت في استانبول . ولكن من حسن حظ هؤلاء الشباب ان الاوراق التي تدل على انتمائهم للجمعيات والاحزاب العربية ، أتلفت ، ولم تقع بيد المخابرات

التركية . ودعي مرة ، وهو في جبهة الدردنيل ، للحضور الى استانبول للتحقيق معه ، ولكن قائده رفض السماح له بالسفر ، لضرورة وجوده على رأس السرية في خطوط النار ، ويعتقد بذلك انه نجا من السجن والمحاكمة . لذلك لما سافرنا معاً الى حماة ، زودته بنسخة من كتاب « الايضاحات » الذي طبعه احمد جمال السفاح بالتركية والعربية مبرراً فيه جرائمه في قتل النخبة المختارة من رجالات العرب . ولما تلقت الفرقة أمر القيادة بالتوجه الى جبهة فلسطين ، اتيحت لاخي الفرصة لقضاء ثلاثة ايام في حماة ، وسعد الوالدان والاخوة والاهل برؤيته بينهم. وبعد سفره اخذت رسائله تصل الينا من جبهة القتال في فلسطين، وكتب لنا مرة أنه وقع اسيراً بيد الانكليز ، ولكن المصادفات انقذته بعد ساعات من الأسر ، وعاد الى صفوف القوات التركية بعد ان فقد كل حوائجه ، وخاصة ملابسه ، فأصاب الوالدة هم وغم لبقاء ولدها بدون ملابس داخلية .

وكنا في صيف عام ١٩١٧ ، والحرب تنوء بكلكلها على الاسر الغنية ، فكيف باسرة موظف صغير تتألف من احد عشر نسمة ؟. وسارعت الوالدة الى تفصيل ما أدخرته من بقايا اقمشة في البيت ، وخاطته ملابس داخلية ، وزودتني ببضع ليرات ذهبية ، أي بكل ما تملك الاسرة ، وطلب مني الوالدان ان أسافر فوراً من حماة الى نابلس حيث عين أخي في شعبة الاستخبارات للجيش السابع ، جيش مصطفى كمال ، وأصرا علي ان أزوره ، لاطمئنها عن صحته ، لا سيما بعد الجرح الذي اصابه يوم وقع اسيراً بيد الانكليز ، فنظمت اوراق لسفري كطالب له تخفيض في اجور السفر بالقطار ، وغادرت حماة الى دمشق . وكان لا بد لي من العمل فيها للحصول على اجازة من الجيش تسمح لي بركوب قطار درعا-حيفا الى محطة قريبة من نابلس . وبينما كنت ناشطاً في مسعاي ، اقيم في دار عمي عبد المجيد الريس في سوق صاروجه ، فوجئت بوصول أخي ناظم اليها ، موفداً من قبل القيادة بمهمة ، عرفت بعدئذ انها لطبع نشرات بالانكليزية والهندية ، لتلقى من الطائرات على الخطوط البريطانية ، فيها صور شمسية عن حسن

معاملة الدولة التركية المسلمة ، دولة الخلافة للأسرى الهنود ، وخاصة المسلمين منهم ، وحث الجنود والضباط الهنود بالتمرد على الانكليز ، ودعوة للمسلمين منهم بعدم مساعدة المستعمرين الكفرة اعداء الاسلام في حربهم ضد دولة الخلافة الاسلامية ، والسلطان العثماني حامي الحرمين الشريفين إلى آخر ذلك من دعايات الحرب. ولما كانت وسائل طباعة النشرات مع الصور بالزنكوغراف غير متيسرة يومئذ في دمشق ، بسبب الحرب ، وفقدان المواد التي تستورد عادة من الخارج ، فقد قرر أخي السفر إلى بيروت لإنجاز مهمته . لذلك سافرت بدوري عائداً إلى حماة ، مطمئناً الاهل ناقلاً اليهم أن أخي يتمتع بتمام الصحة والعافية ، ويحمل معه الى بيروت كيساً من الليرات الذهبية للانفاق على المهمة التي أوفد من أجلها ، وانه يشكر الوالدين على هديتهما من الملابس والنقود ، مع اعتقادي بأن النقود لم يكن بحاجة اليها ، ما دام يتسلح بكيس مليء بالذهب ، ورحلة على حساب الدولة ! عاد أخي الى نابلس ، وظلت رسائله ترد الى الوالدين حتى خريف عام ١٩١٨ ، اذ استطاع الانكليز ان يخرقوا الجبهة التركية ، ويلتفوا على جناحي الجيش التركي ، ويرغموه على التقهقر والتراجع مشتتاً . وقد اضطر أخي ومن معه في دائرة المخابرات في نابلس أن يغادروا المدينة باتجاه درعا ، ولكن قوة من خيالة الانكليز طوقتهم في سهل بيسان ، وأسرتهم ، وساقتهم الى معسكرات الجيش البريطاني في فلسطين ، ومنها الى مصر ، حيث اعتقل في معسكر للأسرى في مدينة الزقازيق ، وأفرج عنه بسعي من والدي لدى الحكومة العربية ، وبجهد من الامير عادل ارسلان الذي كان أمين سر للفريق رضا الركابي رئيس الحكومة في دمشق ، لأن الامير كان يعرف أخي في المنتدى الادبي في استانبول . لقد أطلق سراح أخي من الاسر في عام ١٩١٩ ، وكان أول أسير عربي من الضباط أطلق سراحه بعد الحرب العالمية .

سلب المحاصيل الزراعية

قضيت صيف عام ١٩١٨ في مدينة حماة . وكانت أوضاع البلاد بلغت من

السوء حداً لا يوصف ، فالنقد التركي تدنت قيمته حتى بلغت الربع ، فالخمس بالنسبة للذهب ، والغلاء اشتد ، ولقمة العيش أصبحت قيمتها تزداد كل يوم بالذهب ، اذ بلغ ثمن طن القمح أكثر من مئة وعشرين ليرة عثمانية ذهباً ، لان الدولة فرضت في هذا العام نظام الامانة على المحاصيل ، أي نظام الاشراف المباشر على انتاج الحبوب ، وذلك بتعيين موظف لكل قرية او مزرعة يسمى « مأمور الاعشار » ، مهمته مع المختار وهيئته في القرية ايجاد مستودع لتسلم حصة الدولة من الانتاج . وحصة الدولة لا تقتصر على عشر الانتاج الذي اصبح واحداً من ثمانية ، فهناك اثنان من ثمانية يجب ان يسلمها المزارع والفلاح الى الدولة باسم المبايعة ، عيناً مع واحد من ثمانية هو العشر المعروف كضريبة على الحبوب . ان الدولة تطلب هذا العام ثلاثة اثمان الانتاج من الحبوب تتسلمها حبوباً ، وتدفع ثمن الثمنين بالعملة الورقية ، وبالسعر الذي تحدده هي ، وهو ثمن بخس ، لا يختلف عن النهب والسلب بالنسبة لاسعار الحبوب الغالية في الحرب . وقد عينت لجانا للتفتيش والمراقبة تطوف اثناء جني المحصول القرى ، وتسجل عمليات تسلم الحبوب ، ورشمها على البيادر ، ورشمها في المستودعات ، ثم نقلها الى المستودع العام ، والرشم اداة مستطيلة من خشب حفرت عليها الكتابة حفراً ، اذا ضغطت على كومة من الحبوب ظهر اثر الكتابة بجانب بعضها ، فإذا مست الكومة من قبل انسان او حيوان ظهر اثر المس ، وفرضت الغرامة الكبرى على الفلاحين المتسببين ، ونكبت القرية ، وعوقب المتسبب بسوقه الى المحكمة العسكرية . لقد كتبت لي في هذا الصيف مرافقة والدي الى القرى في اللجنة التي عينتها الدولة للمراقبة غربي مدينة حماة ، وشهدت بنفسي كيف كانت الرشوة تلعب دورها لينقذ اصحاب القرى المالكون حبوبهم من براثن الدولة ، وكيف كانت الوف الدنانير الذهبية تدخل جيب رئيس لجنة المراقبة لو انه غض الطرف عن رشوات مأموري الاعشار الذين وكلت دوائر المالية اليهم امر حفظ الحبوب ، واستيفاء ثلاثة اثمان منها للدولة ، بل شهدت بنفسي كيف يقصى الموظف النزيه النظيف اليد عن القرية ذات الانتاج الضخم ليعين مكانه

الموظف المرتشي الذي يعرف كيف يتقاسم مع رؤسائه الرشوة بالذهب الرنان ، واتيح لي في الصيف نفسه أن اعين بالمسابقة كاتباً لإحدى لجان تخمين المحاصيل الصيفية في قرى الجنوب الشرقي من حماة ، برأسها السيد احمد الحافظ من موظفي المالية . ولم تكد اللجنة تنتهي من أعمالها في خريف ذلك العام ، حتى وصلت إلى مسامع الناس أنباء انهيار الجبهة التركية في فلسطين ، وانسحاب الجيش التركي مشتتاً إلى بلاده في آسيا الصغرى .

إن بعد العسر يسرا

وأذكر اننا ، كموظفين في إدارة الأعشار ، سارعنا لقبض رواتبنا . وقد بلغ راتبي عن المدة التي قضيتها في لجنة التخمين عشرات الليرات التركية الورقية التي لا تغني ولا تسمن من جوع ، فاستطعنا في آخر لحظة قبل جلاء الموظفين الاتراك عن حماة ، أن نحصل على أمر باعطائنا ما يعادل رواتبنا قمحاً بالسعر الرسمي ، وعلمنا أن المحاسب التركي يحزم أمتعته في بيته استعداداً للجلاء ، فذهبنا إلى بيته بمظاهرة ، وكنت في عداد الوفد الذي دخل البيت لمقابلته ، فحملناه على توقيع أوامر صرف رواتبنا حبوباً بالسعر الرسمي ، وتسلمناها من المستودع العسكري ، فبلغ راتبي أكثر من نصف طن قمحاً ، بعته مع تدني أسعار الحبوب ، بسبب شعور الناس بقرب انتهاء الحرب ، بحفنة من الذهب ، اذكر أنها تجاوزت الخمسين ليرة ذهبية ، وأنا طالب ثانوية لما اتجاوز السابعة عشرة من عمري الا باربعة اشهر . وأفاد والدي أيضاً من صرف راتبه بنفس الشكل ، فانفرجت في تلك السنة أزمتنا الخانقة . وكان لوالدتي جزء صغير من راتب اخي ناظم الضابط بالجيش التركي تستوفي لقاءه مواد اعاشة من مستودعات الجيش بالسعر الرسمي ، ويسمى الراتب المرصود لاسرة الضابط « سبارش » بالتركية . وكانت هذه المواد من سمن ولحم وبقول وزيت تساوي في السوق السوداء عشرات امثال ثمنها الرسمي . وفي آخر شهر من حياة الدولة العثمانية في بلادنا ، وخلال انسحاب قواتها من الشام ، ذهبت بنفسي لأوقع شهادة معاملة

في شهر ايلول عام ١٩١٨ من الرائد (قولاغاسي) رئيس شعبة التجنيد بصفتـه المسؤول عن مستودعات الجيش في حماة ، فلم أجده في مكتبه ، وقيل لي انه في منزله ، فقصدت المنزل ، وخدع الحارس التركي بلباس المدرسة الرسمي ، فلم يعترض سبيلي على الباب ، ولما دخلت الغرفة التي كان يجلس فيها الضابط التركي، وجدته مع اثنين من تجار السمن الحمويين ، إلى جانبيها خرجان مليئان بالليرات الذهبية ، والخرج يوضع عادة على الدابة له جانبان لاستيعاب الاشياء ، وبينهما وبين الضابط التركي منصة من الرخام ذات أربع قوائم مغطاة بصفوف مـــن اكداس الليرات الذهبية ، كل كدسه مئة ليرة، فبغت الضابط والتاجران لدخولي المباغت عليهم ، وسألني الضابط بالتركية : « ماذا تريد يا بـني ؟ » ، فقدمت إليه اوراق المعاملة ، وقعها ، وخرجت مذهولاً من رؤية عشرات بـــل مئات الوف الليرات الذهبية تبرق فوق المنصة ، وفي الخرجين ، وفي ايدي التاجرين يعدان المئات منها ، ويرصفانها على المنصة بجانب بعضها بعضاً . وقد عرفت في اليوم نفسه بأن الاوامر صدرت من قيادة الجيش إلى هذا الضابط المشرف على المستودعات بإتلاف ما في مستودعاته من مواد التموين والاعاشة حتى لاتقع بيد جيش العدو الزاحف إلى الشمال ، والذي تجاوز دمشق ، بعد ان احتلها، واصبح في طريقه إلى حمص ، وآثر الضابط ان يبيع السمن من مستودعه ، بدلاً من ان يتلفه ، ويستأثر بثمنه ، بسبب فوضى انهيار الجبهة والانسحاب من البـــلاد العربية ، فدعا اثنين من تجار السمن ، ولعلهما من المقاولين الذين كانوا يوردون السمن لمستودعات الجيش ، وفاوضهما على ثمن فيه الربح الكثير لهما ، وباعهما مستودع السمن ، ونقلا ما فيه فوراً الى مستودع يخصهما . وقـــد خرج رئيس التجنيد هذا من حماة بقناطير من الذهب ، لا اعلم كيف استطاع نقلها وتهريبها. وكم نقل غيره من الضباط والموظفين الاتراك الذين كانت بأيديهم خزائن الجيش ومستودعاته وخزائن الدولة من صناديق الذهب والفضة ، ومنهم من نجـــا بالغنيمة ، ومنهم من فقدها اثناء هجمات القرويين على القطر التي كانت تقـــل المنسحبين من الجيش التركي ، وخاصة في مواقع دمر ، وسرغايا ، وبعلبك ،

على الخط الحديدي بعد دمشق ، حيث تألفت عصابات تسلحت بأسلحة الجيش التركي المهزوم ، وأخذت تهاجم القطر ، وتسلب ما فيها ، وتستأثر بالأسلحة والاموال . وقد خاضت هذه العصابات معـــارك مع شراذم الجيش التركي المنسحبة أفنوا فيها العديد منها ، وغنموا الكثير من الذهب والفضة والحـــلي والجوهرات ، لان الذهب التركي كان أكثره تدفق في الحرب الى البلاد العربية لشراء السمن واللحوم ومواد التموين الاخرى ، فقد كان الاعراب والفلاحون لا يقيمون وزناً للعملة الورقية ، اذ لم يألفوا التداول بها ، واضربوا عن التداول بها ، عندما أخذت تتدهور قيمتها ، لذلك كانت الدولة العثمانية مضطرة لشراء مواد التموين والإعـــاشة بالذهب والفضة ، فأرسلت المخزون والجديد الذي سكته كله الى البلاد العربية .

أساليب الاستيلاء على الحبوب

لقد نوعت الدولة التركية ، خلال سنوات الحرب، الاساليب في الاستيلاء على انتاج الحبوب من الفلاحين والمزارعين أصحاب الأرض ، اذ انها كانت قبـل الحرب تعتمد في ديار الشام على طرح الضريبة العشرية ، أو ضريبة الاعشار على الحبوب ، في المزايدة . تطرح اعشار كل قرية على حدة ، فيتقدم الملتزمون او المتعهدون القادرون على اداء سلفة أو كفالة مالية للمزايدة على ضريبة القرية ، وترسو على أحدهم الذي يوفد فوراً خفراء ووكلاء من جانبه الى القرية يتسلطون على زروع القرية وبيادرها وانتاجها أشهراً باسم استيفاء ثمـــن الانتاج ، اي استيفاء واحد من ثمانية اجزاء من الانتاج ، وعلى المتعهد لقـاء ذلك ان يسدد المبلغ الذي رسا عليه في المزايدة نقداً الى خزينة الدولة . وكان هؤلاء الملتزمون يرتكبون اعمالاً مخزية ،ويسومون الفلاحين سوء العذاب حتى يستوفوا نصيبهم واكثر من نصيبهم باسم ضريبة العشر . وكثيرون منهم لا يؤدون ما عليهم للخزينة ، واذا لاحقت الدولة كفلاءهم قبل ان تحصل على حقهـــا منهم ، فهم يتلاعبون بالكفالات ، ويغشون ، او ان تكون العقارات المرهونة للكفالـــة

ملكاً لاقطاعي في المنطقة لا يجرؤ أحد على شرائها ، في إذا حجزتهـا الدولة ، وطرحتها في السوق للبيع. لذلك لجأت الدولة في موسمي السنة الاولى والثانية من الحرب الكونية الاولى إلى تجربة جديدة هي الاتفاق مع متعهد أو ملتزم واحد في كل لواء ، أو مع بضعة ملتزمين يؤلفون شركة تتعهد بأن تقدم حصة الدولة ، أي ضريبة الدولة ، حبوباً بدلاً من المال ، وهي تطلق يدهم في استيفاء الضريبة من المزارعين والفلاحين . وأذكر في صيف السنة الثانية من الحرب ان المتعهدين من آل الاحدب التجار فرضوا حصاراً على مدينة حماة كي لا تتهرب الحبوب إلى أسواق المدينة وسكانها ، وان والدي كلفني بأن أذهب إلى قرية الخالدية التي تبعد خمسة أو ستة كيلومترات جنوب غربي المدينة ، واطلب من أحمد السلوم مختارها الذي يمت إلينا بصلة نسب أن يرسل لنا كيساً من القمح الذي زرعـــه لحسابنا في ذلك العام في قطعة أرض صغيرة ، كي نرسله الى الطاحون ، فقد نفد الدقيق من بيتنا . ولما وصلت الى القرية قبيـــل الغروب ، رأيت في العودة أن أرافق بنفسي الفلاح الذي سيوفده المختار مع الدابة وكيس القمح ، حتى نجتاز في الظلمة أماكن المراقبة التي أقامها المتعهدون من آل الاحدب ، في مداخـــل المدينة ، وشغلهم مصادرة كل ما يرد من الحبوب الى المدينة من الريف . ولمـــا انطلقت مع الفلاح مئات الامتار عن القرية ، شاهدنا بعض الفرسان يتجهون نحو الجنوب الغربي من القرية ، وتركض خيولهم خبباً في أراضي القرية . وكانت الشمس احتجبت وراء الافق الغربي ، وأخذ الليل يسدل ستوره على الارض ، فخاف الفلاح ، وتنبأ بأن الفرسان من البدو او قطاع الطرق المسلحين ، وطلب مني ان نرجع بحملنا إلى القرية ، ولما ابيت ، واصررت على المضي ، تركـــني وحدي ، وعاد ركضاً الى القرية . وكنت يافعا في الرابعة عشرة من عمري ، لم اعتد في حياتي السير ليلاً بمفردي على الدروب في الريف ، ولكنني استشعرت بالخزي ان لا أقوم بالمهمة التي انتدبني ابي اليها ، ورأيت الفرسان القلائـــل يبتعدون ، ويسيرون في اتجاه غير اتجاهي ، فتقـــدمت لوحدي اسوق الاتان مستعجلاً سيرها نحو حماة ، وكنت اخشى ان ينقلب الحمل عـــن ظهرها في

الطريق الخالي من المارة في الليل ، فلا أجد من استعين به في رفع الحمل الثقيل الى ظهر الدابة ، ويبلغ وزنه مئة وخمسين كيلو . ولفني الليل بظلمته الحالكة ، حتى أصبحت لا استبين من حولي وامامي غير معالم الطريق غير المعبدة ، والتي يحتاج اجتيازها الى ساعة ونصف الساعة على أقل تقدير . وكنت سمعت في صغري الكثير من حكايات الضباع والذئاب الكاسرة تتعرض لابناء السبيل في الليل ، وليس معي غير عود اسوق به الدابـــة . ثم ساورني الخوف حول منتصف الطريق ، لما طرق مسامعي وقع حوافر جواد يسير خبباً ورائي ، ويدنو مني ، ولكنني ثبت جناني ، وتوكلت على الله في أمري ، واستسلمت لقضائه ، وتابعت سيري غير ملتفت الى الوراء ، حتى حاذاني الفارس الملثم بلباســـه العربي ، وبندقيته بين يديه ، فحياني بلهجته المدنية ورددت التحية بمثلها ، وتبينني يافعاً اسير في ظلمة الليل لوحدي ، في طريق موحشة ليس يطرقها غيري ، وسألني : « الى أين يا ولد ؟ » ، قلت دون ان اتوقف عن السير : « الى حمـــاة ياعم ! » ، قال : « كيف تجرأت على السير في هذه الطريق وحدك ، وفي هذه الليلة المظلمة ؟ » قلت : « كان معي في بدء الطريق من الخالدية رفيق فلاح ، خاف خيلكم ، فعاد الى القرية ، وخلفني وحدي ، وابت نفسي ان اتخاذل ، وأهلي ينتظرون عودتي هذا المساء ! .. » قال : « اسرع في سوق دابتك ، ورافقني الى المدينة ، حتى لا يتعرض اليك أحد في الطريق ! » فشكرته واخذ يتمهل في سير جواده ، حتى بانت مصابيح المدينة ، وادرك اننا اشرفنا عليها ، عندئذ حياني ، وانطلق بجواده نحو المدينة ، وغاب عني في حلكة الظلام .

دخلت المدينة ، بعد أن سلكت طريق العربات والمركبات ، أي الطريق الرئيسية بين حمص وحماة ، وكان فرحي عظيماً عندمـــا تجاوزت بحملي نقطة الحراسة التي أقامها المتعهدون في مدخل خان إلى يسار الطريـــق من مدخل المدينة . وكنت لمحت أناساً يتراكضون نحو الخـــان ، وسمعت أصواتاً وضوضاء تصدر عن الخان ، فأسرعت في حث الدابة على السير ، حتى بلغت المنزل . وكم كانت دهشة ابي عظيمة ساعة رآني وحدي مع حمل القمـــح على باب المنزل ،

وقصصت على الاسرة قصتي . وفي اليوم الثاني عرف والدي أن الذي نجاني من خفراء المتعهدين بئر في الخان غمت على عامل كان يحاول إصلاح مضختها، تراكم في قعرها غاز الفحم ، فتراكض الخفراء والناس لانتشاله من البئر قبل موته ، وشغلوا بأمره عني ، اذ صادفت آنئذ لحظة مروري، فقلت في نفسي : « مصائب قوم عند قوم فوائد ! »

مع الاقطاع في القرى !

- ٩ -

ومن طرائف ماوقع صيف عام ١٩١٨ ، آخر اعوام الحرب ، عنـــد تنفيذ قانون ادارة الاعشار بطريق الامانة ، اي باستيفاء ثلاثة اجزاء من ثمانية اجزاء الانتاج ، عيناً ، وحبوباً ، ومن البيدر مباشرة ، ان شاكر السباعي من أهالي حمص ، كان يافعاً في مثل عمري ، يسكن مــــع أهله بلدة سلمية ، وهي مركز قضاء تابع الى لواء حماة ، كان والده فيها اميناً لصندوق المالية ،اي خازناً ، ثم توفي رجلاً لم يتقدم به العمر ،عن اسرة عدد أفرادها كبير ،واخوة اكبرهم شاكر ، فاستدعاه مدير المال الى مكتبه ، وقال له ان المرحوم والده توفاه الله قبل ان تكتمل سنوات احالته إلى المعاش، اي التقاعد، وترك للأسرة راتباً ضئيلاً، وانه كرفيق وزميل لوالده رأى ان يعينه مأمور أعشار الى قرية لثريا بك العظم من وجهاء حماه ، تابعة لسلمية ، واوصاه بان ينتبه للتعليمات ، وان يحـــافظ على حقوق الخزينة ، وقرأ له الاوامر باحالة المقصرين مــــن مأموري الاعشار والمتلاعبين الى المحاكم العسكريـة ، وزوده بالتعليمات والسجلات والاوراق ، وأداة « الرشم » لصون البيادر، وأكد عليه ان يهيء ، اول وصوله الى القرية ، المستودع الذي ستخزن فيه الحبوب حصة الدولة ، وان يكون له قفلان ، كل منها بمفتاحين ، يحتفظ هو بمفتاح ومختار القرية بمفتاح ، فلا يفتح المستودع الا بحضورهما معاً . وتوجه شاكر السباعي على قدميه الى القرية يحمل اوراقــــه

والوشم ، وسأل عند وصوله عن بيت المختار ليحل فيه ، وليشارك المختار مسؤولية العمل . ويظهر ان قرى الاقطاعيين في لواء حماة ، او متصرفيتها ، قبل ان تكون فيها هيئات اختيارية صحيحة ، فقد كانوا يكتفون باسماء نكرات من الفلاحين ، او باختام لاسماء في قريتهم لا تمارس عملاً ، يستخدمها الاقطاعي في تذييل الاوراق والمذكرات الرسمية التي ترد الى القرية . واستقبل الحواط ، أي خادم المضافة ، مأمور الأعشار ، وادخله غرفة الضيافة التي أعدها مالك القرية ، والتي يطرقها عادة رجال الدرك ورجال الدولة ، واخذ يهيء له القهوة تكريماً ، ويسأله ماذا يعد له من الطعام ، ولكن شاكر السباعي كان يريد المختار ليبلغه التعليمات ، وليهيىء معه المستودع لخزن الحبوب ، ويقوم بمهته خير قيام حتى لا يعد من المقصرين في اداء الواجب . ولم يمهل الحواط – بتشديد الواو – كي يطبخ القهوة ، واضطره الى ان يذهب الى قصر ثريا بك مالك القرية يستنجد به ، ويسأله حلاً لمشكلة المختار الذي يعرف الحواط ان لا وجود له في القرية ، الا ان اسمه محفور في الخاتم لدى المالك ، مع اسماء الامام والعضوين في الهيئة واختامهم . وعاد الحواط يبلغ مأمور الاعشار ترحيب ثريا العظم بقدمه ،ويرجوه ان يرتاح من عناء السفر ،وان يقيم ضيفاً معززاً مكرماً، فكل شيء سيكون حسب مشيئته واوامره ! ولم يجد السباعي الشاب الحريص على تنفيذ أوامر الدولة في هذا الكلام مادة ، فأعاد الحواط مثنى وثلاث ورباع .. واشتد بالطلب ، وعلا صوته في تقريع الحواط ، مما أزعج البيك مالك القرية ،وكان بطبيعته شاذاً ،يدمن الخمرة ،كثيراً ما يراه الفلاحون يمتطي ،بملابس النوم حافي القدمين، جواداً دون سرج ،وينطلق بسرعة الريح في اراضي القرية، حتى اعتادوا سماع هجر القول واقذع الشتائم منه . ولم ينل الحواط في ذلك اليوم غير الشتائم من سيده ، فقد افسد عليه بذهابه واياب قيلولته . واخيراً أفاق ثريابك في الاصيل ، وجلس كعادته الى مائدة الخمر في الشرفة التي تطل على اجمل مشهد في القرية ، بمباذله ،وبقميص النوم الابيض ، يجرع الكؤوس ، فلما انتشى أمر الحواط الواقف على الباب ان يستدعي اليه مأمور الاعشار من

دار الضيافة ،فأسرع شاكر السباعي اليه ، وجلس محيياً بين يديه ، وسرد على مسامعه التعليمات والاوامر المشددة الصادرة من وزارة المالية في استانبول ، وانه يطلب اول ما يطلب المختار وهيئة الاختيار ليبدأ بتنفيذ اوامر الدولة .. واصغى اليه ثريابك حتى انتهى ، ثم فاجأه بأن كشف قميصه عن عورتـــه زاعماً انها الهيئة الاختيارية التي يطلب ، فاذا لم تعجبه عليه ان يبلغ ذلك من عينه لهذه الوظيفة !.. وبهت السباعي ، وحار في هذه التحة ، ثم غادر المكان مسرعاً ، وحمل امتعته من دار الضيافة ، وغادر القرية لا يلوي على شيء حتى بلغ سلمية ، وقابل في اليوم الثاني مدير المـــال ، وحدثه بما جرى ، فضحك وقال له : « انها غلطتي .. اذ ارسلتك الى قرية من قرى الاقطاع ، فاستعـد غداً للسفر الى قرية غيرها يملكها اصحابها الفلاحون .. انك ليس بواجد بينهم مثل ما وجدت في قرية ثريا بك..وستجد المختار والهيئة كلها، وسينصاعون لاوامرك » . وطبعاً عين بعدها مدير المـــال مأمور اعشار من ذوي الخبرة الى قرية ثريا بك ، يعرف كيف يتفاهم معه !.. وقد اشترك شاكر السباعي بعدها في الثورة السورية ، وقص علينا فيها قصة ثريا العظم معه !..

فوزي القاوقجي ومجرى التاريخ !

— ١٠ —

استمر انسحاب الجيش التركي من بلاد الشام في شهر ايلول عام ١٩١٨ ، ثم في شهر تشرين الأول . وقد حدثني القائـــد العسكري الثائر فوزي القاوقجي الذي اشترك في الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ، وقـاد ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، واشترك في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ في العراق ، ورافقته في هذه الثورات العربية الثلاث — حدثني بأنه كان ضابطاً خيالاً برتبـــة نقيب (يوزباشي) في احدى الفرق التركية التي كانت في جبهة قتال فلسطين ، فتلقت

فرقته ، في بدء انهيار الجبهة التركية أمراً من القيادة بأن تغادر فوراً مواقعها في الغور ، وتتوجه بأسرع ما يمكن ودون توقف إلى موقع درعا باعتباره عقدة الخطوط الحديدية ، لأن قيادة الجيش التركي كانت تخشى سقوط هذا الموقع بيد الجيش العربي، فيسحق الجيش كله في جبهة قتال فلسطين . وتحركت الفرقة فوراً باتجاه درعا ، ومن أقصر الطرق ، وأدركت من تحرك الفرق الاخرى أن هناك انسحاباً شاملاً ، وان جبهة القتال خرقت . وكان أمر القيادة واضحاً بأن لا تتلهى الفرقة ولا تتدخل بأي شيء في الطريق ، كي لا تشغل عن الهدف ، وهو الوصول الى محطة درعا . وواصلت الفرقة سير الليل بالنهار ، ولما اجتازت نهر الاردن في غور بيسان ، في الصباح الباكر ، شاهدت قتالاً يجري وراءها في سهل بيسان بين لواء من خيالة الانكليز ، وبين سرية تركية من المشاة، كانت تحاول جاهدة أن تتخلص من الوقوع في الأسر ، وتقاتل بضراوة ، وتتراجع نحو نهر الاردن . ومن جميل المصادفات أن النقيب القاوقجي كانت أسندت اليه ، من قبل ،رئاسة أركان الفرقة بسبب قلة عدد الضباط في آخر الحرب ، وحسب التسلسل بالرتب ، فأخذ يتابع من مرتفع بمنظاره المعركة الدائرة بين قوتين غير متكافئتين ، فلاحظ أن السرية التركية على قلة عدد أفرادها تستخدم في المعركة الدائرة بضعة عشر رشاشاً ، مما لا عهد للجيش التركي به في تلك الحرب ، إذ السرية عادة لا تملك أكثر من رشاش أو رشاشين ، ثم شاهد أن الانكليز ، رغم خسائرهم الجسيمة بالنفوس مصممون على سحق أو أسر هذه السرية، بينما الالوف من الجنود الاتراك يستسلمون اليهم في ذلك ،اليوم حتى دون قتال ، فقد أدرك الجيش أن جبهته انهارت، وأن لا جدوى من القتال . فذهب القاوقجي الى قائد الفرقة، ونبهه إلى تلك المعركة الغريبة، وشرح له ملاحظاته ، بأن في السرية التركية شيئاً غير عادي ، ثم شاهدا معاً الانكليز يقذفون في أرض المعركة بلواء آخر ، وبدفعية أقاموها مكشوفة في السهل ، أخذت تصب حمم نيرانها على السرية التركية المستميتة بالدفاع ، وتضعضع من ثباتها ، وتعرقل تراجعها ، حتى بدا اليأس يدب في صفوفها ، فاقترح القاوقجي أن تتدخل

فرقته لانقاذ هذه السرية التي يدل وضعها وملابسات قتالهـا ، على أنها غير عادية ، وإلا لما تحمل الانكليز كل هذه الخسائر في سبيل سحقهـا أو أسرها .
واعترض قائد الفرقة على التدخل ، وقال ان الامر لديه صريح لا يقبل التأويل ، وان مخالفته قد تذهب به إلى المحكمة ، وإلى الموت رمياً بالرصاص ، وانه غير مستعد لتحمل مسؤولية مخالفة الامر ، فرجاه القاوقجي ان يدعي المرض ، ويعهد اليه موقتاً بقيادة الفرقة باعتباره رئيس أركانها ، فيتحمل هو مسؤولية التدخل . وتم فوراً تبليغ الأمر الخطي للقاوقجي ، فوجه سريتين عبر نهر الاردن لنجدة السرية المتضعضعة ، ونصب مدفعية الفرقة في موقع استراتيجي وراء النهر ، وأمر قائدها باسكات مدفعية العدو المكشوفة في السهل .
وكان ضابط المدفعية من الممتازين ، فلم تمض لحظات حتى فوجئت القوات الانكليزية بتصف أسكت مدفعيتها ، وحطمها ، وبقوات جديدة عبرت نهر الاردن لنجدة السرية ، فتراجعت القوات البريطانية ، بسبب هول المفاجأة ، واستطاعت السرية أن تتراجع ، وتنجو ، تحمي تراجعها السريتان ، حتى عبرت نهر الاردن ، ووقف القاوقجي يترقب شأن هـذه السرية ، وإذا بطليعة السريتين المنجدتين يعلن ضابطها أن الفريق مصطفى كمال باشا قائد الجيش السابع وأركان حربه في هذه السرية من الحرس المزودة بعـدد كبير من الرشاشات .
والانكليز كانوا يعرفون أن في السرية صيداً ثميناً لذلك كانوا يقـذفون بقواتهم للظفر بهذا الصيد ، ولا يبالون بالخسائر .

سمع القاوقجي صوت مصطفى كمال قادماً يسأل عن اسم القائد الذي تحمل مسؤولية التدخل في المعركة ، ومخالفة أمر القيادة ، وكان سبب انقاذ السرية ، دون أن يعرف من فيها . وكان ضباط السريتين حدثوه بالجدل بين قائد الفرقة وأركان حربه ، فتقدم اليه القاوقجي مهنئاً شارحاً الموقف ، فقال له مصطفى كمال : « ان القليل في الجيش التركي من القادة يقدم على ما أقدمت عليه ، لأنه في حال الفشل كان يكلفك حياتك . الا انك بتحملك المسؤولية في هذا الحادث

لم تنقذ قيادة الجيش التركي فحسب ، بل أنقـذت شرف الدولة العثمانية فاليك تهانئي ، وأنا مثلك تحملت مرة بمفردي ، في « انا فورطة » من حرب الدردنيل مسؤولية مخالفة الأوامر ، وشننت هجوماً معاكساً على قوات العـدو ، خلافاً لأمر القيادة العليا التي أمرتني بالانسحاب ، وهزمت العـدو ، وأنقذت الحصن من السقوط ، فأطلق عليّ منذ ذلك اليوم لقب بطل أنافورطـة ، وأنا أبارك الجيش الذي فيـه أمثالك » . ثم أخـذ ورقة ، وكتب بحضور أركان حربه ، وفي عدادهم المير الاي نصوحي البخاري من دمشق ، كتاب تقـدير للعمل العظيم الذي قام به القاوقجي وسلمه اليه ، وانطلق كل فريق في سبيله ، وإلى هدفه .

يقول القائد القاوقجي انه ما زال يحتفظ بهذا الكتاب الذي يسجل هـذا الحدث الذي غير مجرى التاريـخ . وحدثني بأنه بعد الثورة السورية ، لجـأ مرة إلى تركية ، وقابل الغازي مصطفى كمال باشـا رئيس الجمهورية الذي سمي بعدهـا « اتا تورك » ، محاولاً أن يحصل على مساعدة من الحكومة التركية لاستئناف الثورة السورية من الشمال . وفي المقابلة أشار القاوقجي إلى المعرفـة السابقة ، واللقاء الذي تم بينهما ، وذكره بالحادث ، فقال له الغـازي : « هل تظن انني أنسى تلك اللحظة التاريخية التي غيرت مجرى التاريخ ؟ » . أجل انه لحادث غير حقاً وجه التاريخ ، فمن كان يستطيع أن يقوم بدور مصطفى كمال في ثورة الاناضول ؟ ومن كان مثله يحمل تلك الروح التي كان لها الأثر الأكبر في النصر ، يوم جزئت تركية ووزعت تركتها بين الدول ؟ من يقود ثورة تركية لو أن مصطفى كمال كان يومئذ في عداد الأسرى ، وفي أحدى معسكرات الانكليز في مصر ؟

العلم العربي يخفق في سماء دمشق

بعد الانسحاب والانهيار في جبهة قتال فلسطين ، كانت أول قوة عربيـة

دخلت دمشق بقيادة سلطان الأطرش، مؤلفة من محاربي جبل الدروز ، سبقت الجيش العربي في دخول المدينة ، واحتلت حي الميـــدان ، والجيش التركي ينسحب مشتتاً ، ومصطفى كمال قائده يقيم في فندق فيكتوريا مقر قيادة الجيش على ضفة « بردى » مقابل دار الحكومة أو دار الولاية ، تحرسه قوة من جيش الصاعقة « بيلديرم اوردوسي » . وبلغ نبأ دخول الجيش العربي المدينة مسامع الوطنيين ، فتوجه عدد منهم برفقة الامير سعيد الجزائري حفيـــد الامير عبد القادر الجزائري ، إلى دار الولاية في ساحة الشهداء ، ودخلوها ؛ وأنزلوا العـلم التركي عن ساريتها ، ورفعوا عليهـــا العلم العربي ذا الألوان الاربعة ، وقامت ضجة في صفوف الناس الذين شهدوا الحادث ، وتنبه لهـا مصطفى كمال ، فنزل فوراً من الفندق ، وركب سيارته ، وغادر دمشق مع حرســه باتجاه الشمال ، وكانت وراءه سرية أخرى من جيش الصاعقة تنسف الجسور في طريقهـــا لتعرقل تقدم جيش العدو . وبلغ مسامع أهل حماة أن مصطفى كمال باشـــا قائد الجيش حل في مدينتهم ،وآثر الاقامة في دار الحكومة على مقربة من جسرها على العاصي . وكانت القطر تمر بمحطة حماة مثقلة بالجنود والركاب في طريقها إلى حلب ، والمئات بل الالوف من الجنود وأسر الضباط والموظفين الاتراك يحتلون سطح الشاحنات والمركبات ، لأنهم لم يجدوا مكاناً في داخلها ، وفي داخلها الحشر ، وعلى رفارفها حشر . وكان منظر المنسحبين يثير الشفقة ، ويعمل عمله في نفوس الحمويين المحافظين المتدينين ، فترى الوجوم على وجوههم ، يشعر بحزنهم الدفين ، وهم يرون هزيمة دولة مسلمة عاشت مع العرب أربعمئة سنة باسم اخوة الدين ، واعتبرتهم في البدء رعاياها ، لا فرق بينهم وبين سائر الأقوام التي تتألف منهم الدولة ، حتى جاء غلاة القومية التركية من حزب الاتحاد والترقي ، وتسلطوا على الحكم ، وبدءوا يبيتون الشر للعرب ، وللقوميات غير التركيـــة ، ويخططون اضطهادها وصهرها في بوتقة قوميتهم الطورانية ، ثم غدروا بأحرار العرب الذين كانوا لا يبغون اكثر من صون قوميتهم من الانحلال ، ورضوا بأن تبقى بلادهم في اطار الدولة العثمانية شريطة ان يشاركوا في الحكم ، وان يكون لهم مثل مـا

عليهم في الحقوق والواجبات ، لذلك اكتفوا بطلب اللامركزية ليصونوا بها مقومات امتهم ، ويهيئوا لها سبل النهضة . لقد أبى الحمويون ان يثأروا من المنهزمين ابناء دينهم ، على الرغم مما فعلوا ، وقتلوا ، وافقروا ، واجاعوا ، وسخروا ، وخربوا في البلاد العربية ، لذلك لم يقع اثناء انسحاب الاتراك في حماة أي حادث يسيء اليهم ، اللهم إلا حادث واحد ، وقع خلال الايام الأخيرة من الانسحاب ، في المحطة ، أو على مرمى سهم منها في اتجاه حلب ، بين شاب كان يمتطي جواداً ، ويحاذي القطار السائر ، فقد حدث بينه وبين جندي تركي سوء تفاهم على شراء بندقية أدى الى ان الجندي أطلق النار على الشاب وصرعه . ومع ان الاتراك كانوا المعتدين ، لم يقع رد فعل للحادث بين الحمويين ، ولم يفكر أحد في العدوان أو الثأر .

أما في دمشق التي شهدت مآسي الحرب أكثر من غيرها ، كمقر لقيادة الجيش التركي ، وعلق الاحرار على أعواد المشانق في ساحتها ، ورمي المئات والالوف بالرصاص بتهمة الفرار من الجيش التركي في مرجها الأخضر ، فقد كان الحال فيها على عكس مدينة حماة . كان الكثيرون من شبابها وشباب الضواحي يسلبون الجنود الاتراك المنهزمين بنادقهم ، وإذا قاوم أحدهم وجهت اليه نيران الأسلحة ، وصرع دون شفقة . وفي دمر متنزه دمشق ، وفي بعلبك نسف فريق من الاهلين اكثر من قطار ، وسلبوا ما فيه . وفي سرغايا في قضاء الزبداني كانت البندقية تسبب مصرع صاحبها الجندي ، لأن المسلحين من آل الشماط كانوا في ايام الانسحاب الاخيرة يكمنون ليل نهار في واديهم ، ويطلبون من كل جندي يمر فيه ، سالكاً الطريق الى جانب الخط الحديدي ، ان يلقي سلاحه ، وينجو بروحه ، فاذا أبى كلفه ذلك حياته . وقد شهد وادي سرغايا مجزرة ارتكبها عقيد الشماط وجماعته ، إذ قتلوا سرية من الالمان حلفاء تركيا ، استطاعوا ان ينجوا متجمعين بانفسهم ، وهم يتتبعون مشاة الخط الحديدي في انسحابهم ، فوقعوا في كمين عقيد الشماط وجماعته ، وأبوا أن يسلموا اسلحتم وقاتلوا قتالاً مريراً

حتى فنوا عن بكرة أبيهم ، وامتلأت أرض الوادي بجثثهم . وفي دوما وبساتينها على طريق حمص وقعت حوادث اصطدام عديدة بين بعض الاهلين والجنود المنسحبين بسبب السلاح ، فقد كان المرابطون طمعاً بالسلاح لا يفرقون بين تركي أو عربي او كردي ، ويقتلون كل من يستعصي عليهم ،ويقاوم تسليم سلاحه .

مكث مصطفى كمال ثلاث ليال في دار متصرفية حماة ، وصباح اليوم الثالث أفاق الأهلون على بيان يذيعه القائد التركي قبل رحيله يشكر فيه أهالي حماة على هدوئهم ، وعواطفهم الأخوية النبيلة التي أظهروها خلال انسحاب الجيش من مدينتهم ، ويودعهم بكلمات مؤثرة . وفي الضحى شاهدنا في الطريق العام الذي يخترق المدينة من الجنوب الى الشمال سرية فرسان من جيش الصاعقة تمر بخوذاتها الحديدية ، والبنادق مشهرة بأيدي رجالها ، حتى غادرت المدينة في طريقها الى حلب . وبعد ساعتين ، سمعنا انفجاراً يدوي ، وقيل ان هذه السرية نسفت جسر الضاهرية ، وهو جسر حديدي على العاصي ، يمر عليه القطار بعد مغادرة حماة الى الشمال . ونسف قبله جسر للقطار بين حمص وحماة في قرية « حر بنفسه » . وفي اليوم الذي سبق انسحاب القائد التركي من حماة سمعنا ، ونحن نلعب في باحة دارنا، بعد الظهر بقليل، هدير طائرتين يختلف عن هدير الطائرات الالمانية التي كانت تمر بسماء حماة ، ومنها الطائرة السوداء التي قيل ان قائدها الالماني فقد ساقه كلها في احدى المعارك الجوية ، بعد ان أسقط العديد من الطائرات الانكليزية ـ شاهدناه في سماء حماة يجري أثناء الانسحاب ، مختلف الالعاب ، ويغادر سماء الشام في طريقه الى تركية .

سمعنا هدير طائرتين فهرعنا الى سطح المنزل ، وشاهدنا طائرتين يلمع معدنها في ضوء الشمس ، ويزيد من بياضها ، تتجهان نحو محطة المدينة ، ثم رأينا قطعاً تلمع تتساقط منها ، تعقبها أصوات انفجارات رهيبة هزت المنازل ،

فتراكضنا نحو السلم تحاشياً للخطر ، ثم عدنا لئلا تفوتنا المعركة ، فشاهدناهما تنقضان وتطلقان رشاشاتها ، ثم تعودان نحو حمص ، بعد ان افرغتا حمولتهما من القنابل . وقد عرفنا بعدئذ سبب الغارة ، فقد أمر قائد الجيش اثناء وجوده في حماة بأن يفتح مستودع الحبوب الخاص بالجيش ، وهو على مقربة من المحطة ، لعشائر البدو تمتار منه بدون ثمن حتى ينفد ، فأقبل الاعراب من الريف بجمالهم واباعرهم يملأون الاكياس قمحاً وشعيراً وحمصاً وفولاً وعدساً ، ويحملونها ازواجاً على البعير ، وتنساب قوافلهم مثقلة بهذه الخيرات الى منازلهم . وأهل المدينة لا يحركون ساكناً ، فقد يكون القائد التركي اشترى هدوءهم أثناء الانسحاب بما سلبته الدولة من الشعب . وبينما كان هؤلاء الاعراب في حشرهم ونشرهم حول المستودع في ذلك اليوم ، فاجأتهم الطائرتان الانكليزيتان ، وشاهدتا الزحام والحركة الكبيرة في الميدان الفسيح بجانب المحطة ، والمحطة في حد ذاتها هدف لطائرات العدو ، فأمطرتا الاعراب وأباعرهم بصوب من قنابلهما ، ولما تشتت الجمع ، انقضتا برشاشيهما تحصدان النفوس ، فاختلط الحابل بالنابل ، ومادت الارض ، وشردت الجمال خفافاً وثقالاً ، وداست اصحابها ، وفر من فر هارباً لا يلوي على شيء ، وسمع أحد اقاربي ، وهو جالس في مقهى ، في موقع الموقف وسط المدينة ، بدوياً شارداً من جهة المحطة يصيح ، وهو يمر راكضاً : « يا يما ! أنا ولّيت ! » ، فهو يهتف باسم أمه ، ويحسب انه لا بد من المقتولين !..

احتلال حماة وحلب

بعد ظهر اليوم الذي تم فيه انسحاب مصطفى كمال القائد العام للجيش التركي ، وسرية جيش الصاعقة ، انتشر في المدينة خبر وصول طليعة الجيش العربي على مشارف حماة ، وان الجيش العربي بقيادة الامير ناصر الهاشمي زاحف من حمص الى حماة ، فخرجت المدينة تشهد دخول الجيش الفاتح ، وغص

الشارع العام الذي يخترق المدينة بالرجال والنساء والاطفال ، وبعد قليل وصلت الطليعة ، ثم أعقبها الجيش العربي ، على ألوف من الهجن تحمل الضباط والجنود فرادى وردائف ، والاهازيج البدوية تشق عنان السماء . وقد سررت عندما رأيت امين الكيلاني زميلي في تجهيز دمشق ، ومن ابناء حماة . كان يتقدمني بثلاثة صفوف ، عندما رأيته ببزته العسكرية ، وعقاله العربي على هجين يمر أمامي مع طليعة الجيش. وكان أمين ، قبل ان يصبح الشيخ امين الاديب الشاعر في حماة ، استدعي الى الجندية التركية ، وتخرج من ميدان التدريب في الشام مرشحاً ، ثم ترفع لرتبة ملازم . ولما سمع باقتراب الجيش العربي ، فر من الجيش التركي ، والتحق به ، وترفع الى رتبة ملازم أول . وقد أبهجتني رؤيته ، وداخلني شعور بالعزة ، فقد أصبح للعرب جيش يهزم الجيش التركي ، ويطارده الى الشمال ، قبل الجيش البريطاني ، ويحرر البلاد العربية من تسلط الدولة العثمانية وطغيانها . تابعت كتائب الجيش العربي اقتفاء أثر الجيش التركي ، وتعقبته إلى معرة النعمان ، فحلب . وبعد يومين من رحيلها وصل الجيش البريطاني الى مدينة أبي الفداء مقبلاً من حمص ، ومعظمه من الخيالة الهنود وجنود المستعمرات ، ببنادقهم ورماحهم وسيوفهم ، وظل ساعات يجتاز المدينة في زحفه الى الشمال ، وراء الجيش العربي . ويظهر ان دخول الجيش العربي مدينة حلب الشهباء دون قتال ، أطمع الانكليز في تعقب الجيش التركي شمال المدينة ، وتوجيه ضربة اليه قبل ان يصل الى جبال طوروس ، ويتعلق بدروبها ، ويتحصن فيها . وتضايق مصطفى كمال من هذه الملاحقة السريعة ، وكان جيشه انتظم بعد حمص وحماة وحلب المدن الثلاث التي لم تهاجمه ، ولم تعتد عليه ، فأعد ، على بعد بضعة وعشرين كيلومتراً شمالي حلب على طريق اعزاز وكليس ، هجوماً معاكساً باغت به الجيش البريطاني ، ودحره حتى أبواب الشهباء ، حتى استعد الانكليز لإخلائها ، والتراجع عنها ، ولكن القائد التركي ، بعد هذه الضربة المفاجئة ، كان يدرك ان جيشه المنهزم لن يستطيع الصمود في سهول سوريا الشمالية ، فتابع انسحابه ، بعد أن لقن الانكليز درساً ، كفوا بعده عن مضايقته في انسحابه

الى جبال طوروس. وكان القائد يريد ان يتخذ منها خطاً للدفاع عن بر الاناضول حيث يبدأ الوطن التركي ، والولايات التي تسكنها أقوام غير عربية . ويشاهد المسافر اليوم الى بلدة اعزاز على يمين طريق السيارات نصباً تذكارياً أقامه الانكليز لقتلاهم في أرض المعركة بينهم ضابط برتبة جنرال .

وأخيراً وقعت الهدنة في يوم ١٩١٨/١١/١١ ، (أي في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٨) بين الدول الحليفة ، والمانيا والدول المركزية حليفتها ، وتوقف القتال على جميع الجبهات في العالم ، وساد السلام ، ولكنه السلام الذي فرضه المنتصر على المغلوب : السلام الذي اقتسمت فيه الشعوب الضعيفة غنائم حرب ، فكان من الطبيعي ألا يدوم هذا السلام .

الفصل الثاني

بلاد العدو المحتلة

- ١١ -

قام في ديار الشام ، بعد جلاء تركيا عنها حكم أجنبي شعاره « بلاد العدو المحتلة » ، فاحتل الفرنسيون منطقة الساحل من موقع الناقورة حتى الحدود الفاصلة بين سوريا الطبيعية وبر الاناضول التركي ، بما في ذلك الاسكندرونة ومرسين وطرسوس وأذنة بالاضافة الى منطقة كيليكيا ، واحتلت بريطانيا ما تبقى من الساحل السوري في الجنوب من الناقورة الى رفح والعريش ، كما احتلت سوريا الداخلية الى شمالي حلب ، وأقامت إدارة خاصة في لواء القدس المستقل في عهد الدولة العثمانية ، بعد اضافة متصرفتي نابلس وعكا من ولاية بيروت اليه ، واسمت هذه المنطقة « فلسطين » . وفي باقي المناطق التي احتلتها بريطانيا من سوريا اقامت ادارة عربية برئاسة الامير فيصل بن الحسين ، كنائب عن ابيه الذي سمي ملك العرب ، واستقل في ولاية الحجاز . وكانت الادارة العربية في سوريا لا تعتمد على قوة تستطيع الدفاع عن نفسها ، فالجيش العربي الذي أسهم في احتلال ديار الشام كان سلاحه هزيلاً ، وكان في اكثريته مؤلفاً من رجال

القبائل الذين انتهت مهمتهم بانتهاء الثورة ، وبانتهاء عطاءاتها من الذهب البريطاني ، وعادوا الى عشائرهم . ولم يبق في هذا الجيش إلا المتطوعون ، على رأسهم الضباط العرب الذين التحقوا بالثورة ، فكانت هذه القوة التي اسموها الجيش العربي قليلة العدد هزيلة السلاح ، اتفقت بريطانيا مع حليفتها فرنسة من قبل على عدم تسليحها تسليحاً تاماً ، وعدم تقويتها ، ليتسنى لهما اقتسام البلاد العربية ، وفرض استعمارهما عليها . وتتابعت الأحداث ، واحتل الحلفاء استانبول عاصمة الدولة العثمانية ، واحتل الفرنسيون كيليكيا ، واحتل الطليان اضاليا ، واعطيت منطقة ازمير لليونان ، ولاحق الارمن الذين بطش بهم الاتحاديون اقطاب حزب الاتحاد والترقي الحاكم ، خلال سني الحرب ، لاحقوهم بعد هزيمة تركية في الحرب ، فقتل سارو ملكيان » الارمني طلعت باشا الصدر الاعظم اللاجيء الى المانية بالرصاص ـ قتله عام ١٩٢١ في أحد شوارع برلين ، وقبض على القاتل ، ولكنه لما سرد امام المحكمة ما أنزلته تركية بالارمن من الفظائع برأته المحكمة ، وسافر الى الولايات المتحدة الامريكيـــة ، وتوفي في ٣٠/٥/١٩٣٠ ، في أحد مستشفيات سان فرنسيسكو» . وتسلل انور باشا وزير الحربية ، بعد الحرب العالمية الى تركستان في آسيا الوسطى ، وقام فيها بثورة ترمي الى استقلال تركستان ، مستفيداً من الفوضى التي عمت روسية اثر الثورة البلشفية ، ونازل الجيش الاحمر في عـــدة معارك ، لكنه سقط قتيلاً في احدى تلك المعارك .

وسمع احمد جمال وزير البحرية المختفي عـــن عيون الحلفاء بثورة انور في تركستان ، فتسلل باسم مستعار حـــتى بلغ القفقاس في طريقه الى تركستان . وقد كشف احد الارمن هويته هناك ، واغتاله ثأراً مما أنزله حزبه بالارمــــن . وكان العدل يقضي بأن يقتل احمد جمال السفاح بيد عربية جزاء ما ارتكب في بلاد العرب من فظائع وجرائم ، منها تعليق زهرة رجالهم واحرارهم على اعواد المشانق ، وقتل الالوف منهم رمياً بالرصاص ، وقتل مئات الالوف بالامراض والمجاعات . ولكن شاء القدر ان يكون مصرعه على يد ارمني ، كمصرع طلعت باشا من قبله . وهكذا تهاوى اقطاب الاتحاديين واحداً بعد الآخر .

وعلى ذكر الجيش العربي ودوره في الثورة العربيـــة جاء في تقرير الجنرال اللنبي ما يلي : « .. وقد ساعدنا الجيش العربي مساعدة عظيمة بقطع مواصلات العدو قبل القتال ، وبمعاونته لفرساننا في أثناء الزحف على دمشق، فقد رابط على الطريق التي تقهقر منها العدو شمالي درعـــا ، فحال دون فرار جانب من الجيش العثماني الرابع، وأنزل بالعدو خسائر كبيرة » . وجاء في كتاب للجنرال اللنبي أرسله إلى الحسين ونجله فيصل قال فيه : « أشكر لجلالة الحسين بن عـلي ملك الحجاز اخلاصه العظيم لقضية الحلفاء ، ولا أملك نفسي من توجيه عاطر الثناء الى سمو الامير فيصل لما أظهره من براعة في القيادة ، ولإخلاصه القلبي ، ولما أبداه من بسالة ومهارة في الاعمال الحربية التي قام بها الجيش العربي . وقد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على نتائج فاصلة في الحرب » .

وجاء في تقرير ان القوات التي شغلها الجيش العربي ، ونازلها ، او تعطلت عن خوض القتال ضد الانكليز ، تم احصاؤها كما يلي :

١٥ الف في المدينة المنورة بقيادة فخري باشا .

١٠ آلاف في محطة القطرانة من الفيلق الثاني لحماية المحطات.

٠٨ آلاف في معان واطرافها بقيادة الفريق محمد جمال باشا المرسيني، وهو كما اسلفنا غير احمد جمال باشا السفاح .

٠٤ آلاف في تبوك بقيادة بصري باشا .

٠٣ آلاف في العلا بقيادة علي نجيب بك .

٤٠ فيكون المجموع أربعين ألف جندي .

كدت أمتهن الجندية !

افتتحت مدرستنا في دمشق باسم «مدرسة التجهيز الاولى » ، في مطلع شتاء عام ١٩١٨ ، متأخرة نحو ثلاثة شهور عن موعد العام الدراسي المعتاد ، بسبب

احداث الحرب التي وقعت في البلاد . ولما بدأنا الدراسة بالعربية ، كنا نعاني قلة المدرسين ، بعد انسحاب المدرسين الاتراك .

بعد بضعة أسابيع من افتتاح المدرسة ، جاءني ليلة أثناء ساعات المذاكرة ، الشيخ عبد القادر المبارك مدرس اللغة العربية في مدرستنا ، والذي تربطه بخالي محمود الريس رابطة ود وصداقة ، وسألني : ماذا انتظر في هـــذه المدرسة ، والبلاد في أول عهدها بالاستقلال ، تريد أن تبني جيشاً تعتمد عليه في صون هذا الاستقلال والدفاع عنه ، وان واجبي وواجب أمثالي الشباب ان نلتحق بالمدرسة الحربية لنتخرج منها ضباطاً نصبح عماد الجيش . وحدثني بان المدرسة الحربية افتتحت في مبنى جامع « دنكز » حيث كانت المدرسة الاعداديـــة العسكرية في عهد الدولة العثمانية ، وانها امتلأت بالطلاب ، وباشرت التدريس ، وانه عين هو مدرساً للعربية فيها ، بالاضافة الى وظيفته في مدرسة التجهيز . أثر بي كلام الاستاذ المبارك ابلغ تأثير ، وحصلت في الصباح على اجازة ساعتين استطعت خلالها ان اقدم طلباً للمدرسة الحربية ، صحبتها بورقة الجـــلاء التي تثبت ترفيعي إلى الصف التاسع في التجهيز ، طلبت فيه قبولي في المدرسة الحربية ، واحلت الى الفحص الطبي ، بعد أن تقرر قبول الطلب ، وانتقلت الى الحربية . وصادف ان طالباً اسمه بـــدر الدين القطمة من حماة بلدتي ، كان دوني صفاً في التجهيز ، التحق معي في نفس اليوم بالمدرسة الحربية . ولما كنا غريبين عـــن المدرسة الجديدة ، وزميلين داخليين في التجهيز من قبل ، ومن مدينة واحدة ، فقد ربطتني به أواصر صداقة في المدرسة الحربية . وفي أحد الايام دعي الطالب القطمة الى الادارة ، وعاد منها شاحب الوجه ، فلما سألته عما به ، أخبرني أن الادارة حققت معه حول السرقات التي وقعت من جيوب بعض الطلاب أثناء النوم في المدرسة ، فسألته عن موقفه من هذه التهمة ، وعما إذا احتج على هذه التهمة البشعة ؟ فأجاب بانه قال لهم أن لا علم له فيما وجه إليه من تهمة . قلت : « ان السكوت عن هذا الحادث جريمة ، وأنا على استعداد لسحب اوراقي من ادارة المدرسة الحربية ، والعودة الى مدرسة التجهيز ، فهل يوافقني على العودة

معي؟» ،قال : «نعم !» ولكنه لم يجرؤ على أن يرافقني الى ادارة المدرسة ليطلب اوراقه مع اوراقي ، لذلك توجهت لوحدي ، وطلبت مقابلة الضابط المناوب ، واحتججت على ما وجه الى رفيقي من تهمة ، وطلبت ارجاع أوراقي المدرسية الي ، وشطب اسمي من المدرسة الحربية ، فسألني الضابط : « وما شأنك انت بالتحقيق الذي جرى مع الطالب القطنة ؟ » ، قلت : « انه زميلي في التجهيز ، وابن بلدي ، ودخلنا الحربية معاً في يوم واحد ! » ، فدخـل غرفة المدير العميد شريف رمو ، وكان برتبة « ميرالاي » في الجيش العثماني ، وحدثـه حديثي فخرج من غرفته مهتاجاً ، وصفعني على وجهي عدة صفعات ، وأمـر بسجني ثلاثة ايام بدون طعام ، فاقتادني الجنود الى غرفة السجن حيث قضيت فيها النهار والليل وانا أفكر بطريقة للهرب من هذه المدرسة التي ليس للطالب كرامة فيها . وقبل موعد النوم سجلت اسمي في عداد الطلاب الذين هم بحاجة للاستحمام في الصباح ، وكان طالبو الاستحمام يرسلون مع جندي خفـير في الصباح الباكر الى حمام في حي القنوات القريب من المدرسة .

دعيت في صباح اليوم الثاني من السجن لمرافقة زملائي زبائن الحمام ، فذهبت الى غرفة النوم ، وحملت أكثر ملابسي في صرة كبيرة ، وتوجهت بها الى الحمام، يرافقنا جندي غفير غير مسلح من ملاك المدرسة . وكانت الاوامر صدرت اليه بان ينتبه ، باعتبـاري سجيناً ، وان يفوت علي كل محاولة للهرب . لذلك لم تسنح لي فرصة الهرب في الذهاب،فقد كان يلازمني كظلي ، دون سائر الزملاء، وكان الطريق خالياً من المارة ، قبيـل الفجر أو مع تنفسه ، فعزمت أن أترك محاولة الهرب للعودة ، والطرقات آهلة بالناس . وفعلاً لما عدنا من الحمـام كان شارع النصر فيه حركة ، فلما دنونا من شارع رامي ، أطلقت ساقي للريح في اتجاه هذا الشارع، وانطلق الجندي ورائي بقوة ، يصيح ويطلب من المارة ان يقبضوا علي .. وثقلت علي الصرة ، وكادت تفشل خطتي ، ويقبض الجندي عـلي ، فطرحت بها من بين يدي ، واندفعت بالركض نحو ساحة الشهداء (المرجة) ، واجتزتها نحو البحصة ، والازقة الضيقة ، فأضاع أثري الجندي ، وعـاد بصرة

ثيابي الى المدرسة التي اعتبرتني فاراً ، ومطالباً بتسديد ما انفقت علي المدرسة خلال الاسابيع القليلة التي قضيتها فيها ، وطلبت من قيادة الموقع القبض علي . وكنت أعرف انني سألاحق ، لذلك بادرت في اليوم نفسه الى السفر من دمشق الى دوما حيث كان عمي مديراً للمالية في هذا القضاء ، ولبثت في منزله بضعة ايام ، ثم غادرت دوما الى دمشق ، ومنها الى حماة بمركبة تجرها الخيل ، لان القطر كانت لا تسافر اليها بسبب الجسور التي هدمها ونسفها الجيش التركي أثناء انسحابه من الشام . وفي حماة انتسبت الى مدرستها التي غدت في العهد العربي مدرسة تجهيز ذات تسعة صفوف ، أي ما يعادل المدارس المتوسطة اليوم . وكنا في الصف التاسع النهائي ستة طلاب منهم القاضيان عبد الكريم البرازي ،وفريد قنوت ، والمحامي ابراهيم الشيشكلي.وفي الفحص النهائي حصلت على شهادة المدرسة التجهيزية للدورة الاولى ، وهي شهادة كانت تخول صاحبها دخول الجامعة السورية . ولكن الجامعة السورية كانت غير موجودة ، فصممت في صيف عام ١٩١٩ أن أدخل مسابقة لتسع وظائف شاغرة ، كانت اعلنت عنها مديرية الديون العمومية أو العامة ، وفزت بالمسابقة على اكثر من مئة تقدموا اليها ، وعينت كاتباً وأمين صندوق ، أي خازناً لإدارة الديون في قضاء سلمية شرقي حماة ، والتابع لمتصرفية حماة ، براتب أصبح بعد بضعة شهور من تسلمي الوظيفة بضع عشرة ليرة ذهبية ، بما ضم اليه باسم غلاء المعيشة .

لم أعدم التدرب على السلاح !

أفدت في الاسابيع القليلة التي قضيتها في المدرسة الحربية من التدريب العسكري الذي يعتبر كافياً للقتال فيما اذا أضيف اليه تدريب عسكري آخر ، كنت مارسته في سنوات الحرب في المدرسة السلطانية الاولى ، فقد كانت الحرب فرضت على مدرستنا التدريب العسكري لنكون مؤهلين لخدمة الاحتياط عند دعوتنا الى خدمة العلم . وقد قام بتدريبنا أكثر من ضابط تركي . ولي

ذكريات في هذا التدريب ، خاصة يوم تولاه ضابط تركي شاب أحمق كان عضواً في ديوان الحرب العرفي ،أي في المحكمة العسكرية في دمشق . وكانت أقل شتيمة يوجهها الى الطالب المقصر : « أبو جهل قاربوزي ! » ، اي : « يا بطيخة ابي جهل الحمراء ! » . أما الضرب ، والصفع ، والتمرغ بملابسنا المدرسية بالتراب فكانت اموراً عادية تتم كل يوم تدريب . وكان التدريب يجري في ميدان خارج المدرسة ، بعد الظهر ، في يومين من كل اسبوع .

الاحتلال الافرنسي

١٢

كانت ظروف ما بعد الحرب قضت علي ان اصبح موظفاً ، وانا في الثامنة عشر من عمري ، لأن والدي طلب احالته الى المعاش ، فكان اول موظف سوري يحال الى التقاعد ، قبل ان يوضع قانون جديد للتقاعد ، فغدا راتبه ضئيلاً ، على الرغم من خدمته المديدة التي بلغت بضعا واربعين سنة قضاها في وظائف المالية . وكان لا بد من مساعدته في اعالة الأسرة الكبيرة ، وتعليم خمسة من اخوتي واخواتي كانوا اصغر مني سناً .

اعلن المؤتمر السوري في الثامن من شهر آذار عام ١٩٢٠ استقلال سورية بحدودها الطبيعية من طوروس الى رفح،تحت تاج الملك فيصل بن الحسين،حسماً للاتفاقات السرية ، والتآمر بين الحلفاء على تجزئة سورية ، واقتسامها بين فرنسة وبريطانية ، وجعل فلسطين وطناً قوميا لليهود . وابلغ المؤتمر قراره لجميع دول العالم ، فلم تعترف بهذا الاستقلال غير دول قليلة ، وفرض المنتصرون في الحرب على سورية والعراق انتداباً جاءت به المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الامم ، اذ وضع مؤتمر الصلح في شهر نيسان من عام ١٩١٩ في باريس ميثاقا لعصبة الامم نصت المادة الثانية والعشرون منه على ان بعض البلاد

المنسلخة عن تركيا يقطنها جماعات من الناس بلغوا من التقدم مبلغاً يجيز الاعتراف مؤقتاً بأنهم امم مستقلة، على ان يقود خطاهم منتدب ينصحهم ويعينهم في الادارة الى ان يصبحوا قادرين على السير وحدهم . ويجب ان يعتد برغبة هذه الجماعات في انتخاب الدولة المنتدبة . وكانت هذه المادة والميثاق وسيلة لتنفيذ احكام معاهدة « سايكس بيكو » السرية ، ووعد بلفور ، وخداع



يوسف العظمة شهيد ميسلون

الشعوب المستضعفة باسم جديد للاستعمار ، هو الانتداب . ولم تنقض ستة شهور على انسحاب الجيش البريطاني من مدن سورية الداخلية ـ عدا ما اسموها فلسطين ـ وقيام حكومة عربية فيها تحت تاج الملك فيصل ، حتى اصدر الجنرال غورو الفرنسي في بيروت انذاره الى الحكومة العربية في دمشق، وتبع الانذار عدوان قوض استقلال سورية ، وفرض عليها الاحتلال الفرنسي .

وشهدت ، وانا في سلمية ، انهيار الآمال التي علقت على وعود الحلفاء وعهودهم للعرب ، واجتياح الجيوش الفرنسية في الاسبوع الاخير من شهر تموز عام ١٩٢٠ بلادي ، واحتلالها ، وفرض الانتداب الفرنسي والبريطاني عليها ، وتجزئتها الى دويلات اسمها فلسطين وشرقي الاردن تحت الانتداب البريطاني ، ودولة لبنان الكبير ، ودولة دمشق ، ودولة حلب ، ودولة العلويين ، ودولة جبل الدروز ، وحكومة لواء الاسكندرونة المستقل تحت الانتداب الفرنسي . وكنت اسمع بمقاومة الشعب العربي في سورية المحاولات الاستعمارية ، وبالثورات التي قامت في أجزاء من بلاده ، منذ بدء تقسيم سورية الى ثلاث مناطق للاحتلال ، اسميت بلاد العدو المحتلة . فقد نشبت ثورة في شمال سورية ، يوم كانت فرنسة تحتل منطقة الساحل وحدها ، شملت مناطق انطاكية والاقضية التي تحاذي المنطقة المحتلة في الشمال كجبال الزاوية والجبل الوسطاني في قضاءي حارم وادلب ، وبعض الاقضية التي احتلتها فرنسة وألحقتها بمنطقة الساحل كقضاء الحفة وجسر الشغور ، تحاذيها ثورة أخرى نشبت بزعامة الشيخ صالح العلي عمت قرى العلويين (النصيرية) في جبال اللاذقية ، تحاذيها ثورة صغيرة ثالثة في جبال بعلبك التي الحقت بعدئذ بلبنان ، تليها ثورة رابعة في جنوب لبنان مسرحها وادي التيم وتمتد حتى حدود فلسطين بزعامة الامير محمود الفاعور شيخ عشيرة الفضل في الجولان جنوب غربي دمشق . وكانت الحكومة العربية في سورية الداخلية تغذي هذه الثورات المسلحة ، وتمدها بالاسلحة والعتاد والمال ، واحياناً بضباط يعملون فيها بأسماء مستعارة ، هدفها إظهار مقاومة الشعب العربي في سورية لمحاولة استعمار بلاده وتقسيمها غنائم حرب ، وإرهاب المستعمرين انفسهم بتكبيدهم الخسائر . يضاف إلى هذه الثورات ثورة نشبت في الفرات الاعلى على حدود سورية ، إذ أن الانكليز ضموا ، في بادىء الامر ، لواء دير الزور المستقل في العهد العثماني إلى العراق ، ولم يجلوا عنه إبان جلائهم عن مدن سورية الداخلية قبيل إعلان المؤتمر السوري استقلال سورية ، فاندلعت فيه هذه الثورة التي لعب فيها رمضان شلاش من شيوخ عشائر الفرات ، دوراً ، وارغمت الانكليز على

الجلاء عن لواء دير الزور وضمه إلى سورية . ثم كان هـذا اللواء منطلقاً لثورة العراق عام ١٩٢٠ على الاحتلال البريطاني ،عمت وادي الفرات كله ، حتى أقصى جنوب العراق ، واستمرت اكثر من ستة اشهر كبدت الانكليز خسائر فادحة في النفوس والاموال ، وأرغمتهم على أن يـدعو الملك فيصل الذي طرد من سورية للجلوس على عرش العراق ، وانهاء عهد الاحتلال البريطاني الذي كان يرتبط بالادارة البريطانية في الهند مباشرة . وليست هذه الثورة بعيدة عـن تخطيط الحكومة العربية في سورية الداخلية ومساعداتها في الاشهر الخمسة التي تخلصت فيه من الاحتلال البريطاني ، يضاف اليها الدعم الذي لقيته من مجتهدي الشيعة لعوامل سياسية كانت وراءها ايران التي كانت تحاول التخلص أيضاً من الاحتلال البريطاني .

سياسة فرنسا في العلويين

١٣

انتدبت في ربيع عام ١٩٢١ الى رئاسة ادارة الـديون العمومية وكالة في قضاء مصياف غربي حماة . ومصياف قضاء في جبال اللاذقية كان تابعاً لمتصرفية حماة ، ولكن فرنسة ، يوم أقامت دولة العلويين ، فصلته عن حماة ، بعـد أن ضمت اليـه قرى أخرى أكثرية سكانها من العلويين، والحقته باللاذقية مركز حكومة العلويين التي كان يرأسها فرنسي ، ويحكمها مباشرة .

وصلت إلى بلدة مصياف في شهر آذار عام ١٩٢١ ، والقوات الفرنسية تكاد تكون منتهية من القضاء على ثورة الشيخ صالح العلي ، إلا أن الثورة التي تزعمها ابراهيم هنانوفي الشمال ، منذ دخول الجيش الفرنسي مدينة حلب ، كانت تدفع عصابات العلويين المجاورة لمنطقتها إلى المقاومة . وكان بعض العصابات في منطقة انطاكية انضم ، بعد استسلام صبحي بركات للفرنسيين ، الى ثورة الزعيم هنانو،

وانضم اليها ايضاً ثوار الحفة وغيرهم في الساحل السوري فأصبح مجـال ثورة الشمال الجبال في اقضية ادلب وحارم وجسر الشغور ومعرة النعمان ،والريحانية وقرق خان الى شمال قضاء مصياف الذي كانت عصاباته لم تستلم كلها باستسلام الشيخ صالح العلي . ولذلك عين الفرنسيون « ليوتنان كوله » مستشاراً ، أي ضابطاً للمصالح الخاصة في هذا القضاء حيث جند كوكبة خيالة من المتطوعة أكثرها من عشيرة المتاورة ومنطقة وادي العيون برواتب مغرية ، كان همه بهذه القوة أن يقضي على آخر مقاومة للعصابات ، ويحول دون تسلل العصابات من المنطقة الشمالية التي ما تزال تشتعل فيها الثورة . وقد قام كل ضباط المصالح الخاصة الذين كانوا يسمونهم مستشارين في المناطق الثائرة بتأليف مثل هـذه السرايامن المتطوعة الفرسان اسموها كتائب الحرس السيار ،دأبها مطاردة العصابات في القرى والجبال، فضلاً عن الاستعانة بتسليح العملاء من أنصار فرنسة في المدن الصغيرة والقرى ، لحماية مناطقهم من الثوار ، ومساعـدة فرق المتطوعة في مطاردتهم ، أمثال شعبان آغا في قرية « حلس » من قضاء حـارم ، وصادق الحاج عيسى في منطقة القصير من لواء الاسكندرونة ، ومتطوعة قريتي القنيـة واليعقوبية في قضاء جسر الشغور وغيرهم .

ولقد شهدت بنفسي خلال الاشهر الثلاثة التي قضيتها في مصياف كيف كان ضابط الاستخبارات ،او المصالح الخاصة الفرنسي يتحكم بمصائر المنطقة وسكانها كلهم ، ويسيطر على الموظفين ، ويقبض بواسطة جواسيسه وعملائه وجنوده على المتهمين من الفلاحين بمساعدة الثوار ، او الاتصال بهم ، او اطعامهم ، او السماح لهم بالمرور من القرى ، او الاقامة فيها ، ويلقي بهم في غياهب السجون ، أو يرسلهم الى امـاكن التعذيب في القلعة والثكنات ، بل كان يجلب بعضهم الى مكتبه في دار الحكومة ، ويعذبه على مسمع من الموظفين واصحاب المصالح ، ويضعهم عراة على لهب البارود يشوي اجسادهم ، فيشتم النـاس رائحة اللحم المشوي على نار المستشار الفرنسي ، أثناء تعذيب الأحرار من ابناء قرى الجبال التي يرتادها المجاهدون .

ومن القصص الطريفة ان سكان قرية « البيضا » التي تقع على بعد بضعة كيلو مترات جنوبي بلدة مصياف ، ارادوا ان يوثقـــوا صلتهم كمسيحيين بالمستشار الفرنسي فيمصياف. وكان يقوم يومئذ بقيادة الموقع ووظيفة ضابطالاستخبارات ضابطبرتبة مقدم (قومندان) اسمه لاروش،فتردد وجهاؤهم عليه ، واكثروا من زيارته ، وأبــدوا تعلقهم بفرنسة مرات في حضوره ، ثم دعوه مرة الى زيارة القرية ، وتناول الغداء في قريتهم ذات المياه العذبة والاشجار والظلال ، فلبى الدعوة ، وحدد لها يوم الاحد ، يوم عطلته الاسبوعية ، وامتطى ضحى ذلـك اليوم جواداً ، وسلك طريق القرية غير المعبد ، يرافقه جندي حارس من جنود الخيالة . ولما خرج من الباب القبلي لسور مصياف على مشهد من الناس ، رآه على ما يظهر بعضهم ، وعرف هدفه ، وابلغ عزيز هواش قائد ثورة المتــاورة إبان ثورة الشيخ صالح العلي ـ ابلغه بالنبأ ، وان القومندان لاروش في قريـة البيضا دون حراسة تذكر ، فهب عزيز هواش مع عدد من أفراد عصابته . وانطلقوا باتجاه « البيضا » ، ينحدرون من الجبال ، ويطوون المسافة البعيدة . ولمـــا أصبحوا في جوار القرية ، رتب عزيز هواش تطويق القرية ، حتى لا يفلت منه الصيد الثمين ، ويأخذه ، وهو في أوج لهوه وصفوه ، يشرب الخمر بجوارالينابيع ويطرب لغناء شباب القريـــة وبناتها على أنغام المزمار ، ورقصة الدبكة ، والطبل يقرع دون هوادة ، والهتاف بحياة لا روش وحياة فرنسة يشق عنان السماء . ومن سوء الحظ أن أحد الفلاحـين تنبه لتسلل العصابة ومحاولتهـــا تطويق القرية ، فأسرع يبلغ القومندان لاروش ، وهذا بدوره ، قفز الى صهوة جواده يعتليها ، وأطلق له العنان فأفلت من الطوق ، ونجا بأعجوبة مـــن الموت،ولم يتمهل حتى أصبح وراء سور مصياف وعاد عزيز هواش بخفي حنين .

وفرض لاروش على اهل القرية غرامة بمئات الليرات الذهبية قبضها منهم ثمناً لرأسه ، لم تجدهم بعد نقله من مصياف الشكاوى لرؤسائه بأن لا ذنب لهم في حادث هجوم العصابة عليه . ولما عين الليوتنان كوله مستشاراً في مصياف ، ومن مهماته مطاردة فلول العصابات ،صادف مرة بقواته مهربين صادرمنهم ثلاثين حملاً من التبغ المهرب ، جـــاء بها الى مصياف ، القضاء الذي ليس فيه ادارة

لحصر التبغ « ريجي » ، فاستشارني كرئيس للديون العامة ، ونصحته بان يبعث بها ، ويسلمها الى مديرية حصر التبغ في مدينة حماه ، ففعل وسلمها بواسطة القوماندان « ميك » مستشار حماة الذي قبض المكافأة التي هي من حق مستشار مصياف وجنوده الذين صادروا التبغ ووضعها في جيبه ، ولما طالبه بها كوله انكر قبضها ، ثم رفض اعادتها وزعم انها من حقه . وبعد بضعة اسابيع صادف ليوتنان كوله تبغاً مهرباً في قرية « تل سلحب » في شمال القضاء ، صادره كله من المنازل وصادر معه دواب القرية لحمله الى مصياف . ولما بلغ البلدة استدعى الدلالين ، وطرح التبغ للبيع في سوق البلده بالجملة وبالمفرق ، وباعه كله ، وباع الدواب ايضاً ، ووضع الثمن في جيبه ، وصرح بأن غباوة تسليم التبغ لدائرة الحصر لن تتكرر في عهده ! .. وأذكر انني اشتريت بضعة كيلوات من هذا التبغ المباع في سوق البلدة بالمزاد أهديتها لوالدي ، ولم ألتفت إلى أحكام القانون التي داسها ضابط الاستخبارات صاحب السلطة العليا في مصياف ، ولم يسأل عن خسارة الخزينة ، ولا خسارة إدارة حصر التبغ التي هي في الاساس شركة فرنسية ذات امتياز في حصر التبغ في الدولة العثمانية كلها .

وحدث مرة أن إدارة الديون العمومية التي كنت ارأسها في مصياف صادرت مشروبات روحية ، أي خموراً تباع وتشرب علناً في مقهى البلدة ، دون ترخيص منها ، حيث كانت جوقة للرقص تقيم حفلاتها في ذلك المقهى ، وأغلق المقهى في اليوم الثاني ، وختم بالشمع الاحمر من قبل سلطات الامن ، حسب احكام القانون ، وبطلب مني ، حتى يؤدي صاحب المقهى الغرامة القانونية . ولكنني علمت في المساء أن الراقصات ذهبن إلى منزل « ليوتنان كوله » ضابط الاستخبارات ، وقابلن صديقة أو قعيدة له لبنانية ، يعاشرها كزوجة ، وشكون اليها إغلاق المقهى ، وتعطل اعمال الجوقة ، فنقلت شكواهن لرجلها ، وهذا استدعى الملازم قائد الدرك ، وهو لبناني الأصل ، وأمره بفتح المقهى ، وفك الاختام عنه ، ففعل ، وثابرت الجوقة على إحياء لياليها ، دون أن يؤدي صاحب المقهى الغرامة المفروضة عليه بحكم القانون ، لذلك قمت بمراجعات

خطية رسمية إلى قائم مقام مصياف ، ومديرية الديون العمومية في اللاذقية باعتبارها مرجعي ، وبعد بضعة أسابيع استدعاني الملازم كوله إلى مكتبه ، وأمامه كتاب من حاكم اللاذقية الفرنسي ، أو من رئيس دوائر الاستخبارات في حكومة العلويين ، يسأل عن أسباب فك الاختام عن المقهى دون استيفاء الغرامة من صاحبه ، وسألني عن قصة المقهى والغرامة ، فحدثته حديثها ، وأن المقهى بعد ان أغلق وختم بالشمع الاحمر من قبل قيادة الدرك ، صدر أمر شفوي منه لقائد الدرك ، وفتح المقهى دون استيفاء الغرامة ، فأرسل المستشار الفرنسي في طلب قائد الدرك ، وسأله : « بأمر من فتحت المقهى المغلق بالشمع ؟ » ، فأجابه : « بأمرك الشفوي يا مولاي ! » ، فرمقه شذراً كأن الامر لم يصدر عنه ، ثم قال له : « قل لصاحب المقهى أن يدفع الغرامة لصندوق الديون العمومية ، والا تغلق مقهاه ويختم بالشمع ! » ، وفعلاً لم تنقض ساعات على هذا الامر ، حتى اقبل صاحب المقهى الى مكتبي ، ودفع لقاء ايصال ما فرضه القانون عليه من غرامة .

يتبين من هذا ان ضابط المصالح الخاصة هو صاحب الكلمة العليا في منطقته من دولة العلويين ، وان القائم مقام الذي جعله منصبه المسؤول الأول عن إداره القضاء في سورية الداخلية ليس هو في منطقة العلويين سوى موظف تابع للمستشار الفرنسي ، حتى انه لا يستطيع ان يقبل عريضة شكوى من الاهلين ما لم تقدم اولاً الى مكتب المستشار الفرنسي ، ويوافق عليها ، ويحيلها مشفوعة برأيه ، أو يبقيها عنده ، ويهملها ، أو يتدخل شخصياً في حلها مباشرة . كذلك رئيس المحكمة ، يعرض كل يوم ، قبل ان يجلس على قوس القضاء ، ما لديه من دعاوي الناس ، على ضابط الاستخبارات ، ويسأله ان كان له رأي خاص بالنسبة لبعض الاطراف فيها ، ويتلقى منه التوجيه ، فتكون كلمة المستشار احياناً فوق الحق ، وياويل من كان خصمه المستشار ! أما تراجع الملازم كوله في قضية

صاحب المقهى ، فلأن للديون العمومية مديرية عامة ومجلس ادارة في استانبول اعضاؤه من انكليز وفرنسيين يمثلون دولهم الدائنة لدى الدولة العثمانية ، فكانت المفوضية الفرنسية في سورية تسهر على مصالح الديون العمومية باعتبار ان لفرنسة ديناً على الدولة العثمانية والبلاد المنسلخة عنها ، ولولا ذلك لما تراجع المستشار عن امر أصدره ، ولو كان مخالفاً للقانون . واستدعاني الملازم كوله مرة إلى مكتبه ، ودون ان يشير الي بالجلوس ، كعادته ، ابلغني أن لديه امراً من مرجعه الاعلى يمنع بيع الطوابع بانواعها باكثر من الثمن المرقم عليها بالعملة السورية . ولما كانت دوائر الديون العمومية في سورية الداخلية ما زالت تعتبر الدينار الذهب اساساً في معاملاتها ، انسياقاً مع العملة المتداولة قبل الاحتلال الفرنسي ، وكان الجنيه المصري أو الاسترليني يساوي ٨٧ قرشاً ونصف القرش من الدينار الذي يساوي مئة قرش ، وكان قضاء مصياف تابعاً إلى حماة ، أي لسورية الداخلية ، ثم بعد الاحتلال ألحق فوراً باللاذقية ، وظلت ادارة الديون العمومية فيه مرتبطة بحماة ، تحول أثمان الطوابع بالدينار إلى العملة السورية التي فرضتها فرنسة ، حسب اسعار سوق النقد (البورص ، تعدلها في رأس كل شهر ، ونبيع الطوابع حسب سعرها الشهري . ولما شرحت الأمر للمستشار ، واخبرته أن الأمر الذي لديه يشمل الطوابع المالية في حكومة العلويين عدا قضاء مصياف ، لارتباط ادارة الديون العمومية فيه بمديرية حماة ، قال: « انني ابلغك امراً ، واطلب منك تنفيذه ، والا أعتبرتك متمرداً عليه ، واتخذت بحقك التدابير القانونية !.. » ، قلت : « انني اتلقى اوامري من مرجعي مديرية الديون العمومية ، وسأعود إلى مكتبي الآن لانقل ما ابلغتني اياه برقياً إلى هذا المرجع ، وانتظر أوامره في هذا الصدد . والمال للدولة وليس مالي حتى أفرط فيه دون أن اسأل ! » ، قال : « أنا انذرتك ، وسانذر الآن باعة الطوابع في السوق بما انذرتك به ، وبهذا كفاية ! » .

عدت الى مكتبي ، وأبلغت الامر برقياً الى مرجعي ، واذا بباعة الطوابع

يتراكضون يسألونني عن الخسارة التي ستلحق بهم ، فيما اذا نفذوا أمر المستشار، فقلت لهم : « اذهبوا الى حوانيتكم ، واتوني بكلى ما تبقى لديكم من طوابع مالية ، حتى ارد اثمانها اليكم بسعرها الذي اشتريتم به ، واذا جاءكم احد من اصحاب المصالح يطلب شراء طوابع منكم ، فدلوه على ادارة الديون العمومية ، حيث سأتصرف في بيع الطوابع حسب الاوامر التي لدي من مرجعي ، وليفعل بي المستشار ما يشاء ! » ، وفعلاً توليت بنفسي بيع الطوابع بالمفرق للناس ، حتى جاءتني برقية من مديرية الديون العمومية تعلمني ، ان المديرية العامة وضعت في التداول طوابع جديدة تباع بالاسعار المكتوبة عليها بالعملة السورية ، وعلي ان اترقب وصولها ، وابيعها ، واسحب من التداول الطوابع القديمة ، ففعلت ، وتحديت كرّة أخرى امر المستشار .

وحدث مرة انني كنت في طريقي الى مكتب القائم مقام في دار الحكومة ، واذا بفلاح يافع يحمل عدداً من جلود الثعالب ، يغادر مكتب الملازم كوله المستشار . ولما كانت امثال هذه الجلود تابعة لاداء الرسم عنها كضريبة ، ويضاعف الرسم غرامة اذا بيعت مهربة ، سألت الفلاح الى أين ذاهب بهذه الجلود ، فقال : « ان المستشار اشتراها ، وكلفني بأيصالها الى بيته ! . قلت : تعال الى مكتبي بجوار دار الحكومة لأكلفك شراء مثلها ، ولما بلغت به المكتب أمرت الموظف المسؤول بمصادرتها ، حتى يدفع صاحبها الغرامة والرسم عنها . وانطلق الفلاح راكضاً الى مكتب المستشار يشكوني ، فبعث يستدعيني وسألني : « لماذا صادرت الجلود التي اشتريتها ؟» . قلت : « ان هذه الجلود تابعة لضريبة تجبيها ادارتنا ، وتدمغ الجلود بخاتم كعلامة على أدائها ، وعندئذ يباح لصاحبها بيعها في السوق ، وعند المخالفة تصادر الجلود ، ويضاعف الرسم غرامة » . وانت اشتريت جلوداً خالف صاحبها القانون ، فحق عليه الرسم والغرامة ! » ، قال : « اهكذا يقول القانون عندكم ؟ » ، قلت : بلى ! » ، عندئذ اعطى الفلاح مبلغاً من جيبه ليسدد رسماً وغرامة ، ويسترد الجلود .

سياسة الفرنسيين في سوريا الداخلية

- ١٤ -

لم تطل اقامتي في مصياف ، لانني كنت منتدبـاً بالوكالة ريثما يعين رئيس للدائرة فيها ، فلما عين ، نقلت في صيف عام ١٩٢١ رئيساً لكتـــاب الديون العمومية في قضاء جسر الشغور من اعمال ولاية حلب . ولهذا القضاء قصة في ثورة الشمال ، فقد احتل الفرنسيون بلدة جسر الشغور مركزه سبع عشرة مرة ، وفي كل مرة كانت العصابات الثائرة تجليهم عنها . وموقع البلدة استراتيجي على نهر العاصي ، ولها جسر قديم ليس هناك ممر غيره للسيارات بين حلب واللاذقية ، وكذلك للقوافل والناس .

ولما وصلت الى البلدة كانت انباء انسحاب الزعيم ابراهيم هنانو بمن تبقى من رجال ثورته ، ضارباً عرض البادية لبلوغ شرقي الاردن ، ثم القبض على عصابته في بادية الشام ، شرقي سلمية ، حديث الناس . وكان لا يخفف أثر هذا الحادث على الناس الا نجاة الزعيم هنانو وعدم وقوعه بيد الفرنسيين . وكان حبل الامن مـــا يزال مضطرباً في المناطق الشمالية التي كانت مسرحاً لمعارك ثورة الشمال . ففي بلدة جسر الشغور نفسها كنا نباغت في بعض الليالي برشاشات الفرنسيين تطلق نيرانها من المرتفع الذي اقاموا عليه ثكناتهم شمالي البلدة . وقيل لنـــا مرة ان صبحي اللاذقاني المعروف في اللاذقية بصبحي حليمة ، ورفيقه خيرو القصاب ، او خيرالله القصاب من اللاذقيـــة ايضاً ، ومن فلول ثورة الشمال ، دخلا مع عصابتهما ، عنـــد صلاة العشاء البلدة ، وباغتـــوا وجيهاً من وجهـــاء البلدة في منزله ، واستاقوه معهم الى الجبال . وكنـــا نسمع ايضاً الكثـــير عن غزوات عقيل السقاطي ومغامراته ، وهـــو ثائر من قرية « سقاط

التابعة الى قضاء حارم ، لجأ بعد انهاء ثورة الزعيم هنانو الى تركية ، اسوة بعدد من الثائرين في الشمال . وكانت تركية تفيد من وجود هؤلاء لاجئين اليها ، تستخدمهم كلما تعكر صفو الصلات بينها وبين فرنسة ، أو نشب خلاف بينها على الحدود في سورية ، فينطلق عقيل السقاطي ، ومصطفى الحاج حسين ، وصبحي وخيرو اللاذقيان ، كل منهم بعصابة صغيرة تجتاز الحدود الى سورية ، وتتسلل عبر الجبال إلى أقضية ادلب وحارم وجسر الشغور ومعرة النعمان وما جاورها ، تخل بالامن ، فتقوم فرق المتطوعة بقيادة ضباط الاستخبارات في هذه الاقضية ، تؤازرها قوات أهلية من قرى ملس والقصير والقنية وغيرها بقيادة المتزعمين ، تقوم بمطاردة العصابة ، ويتناقل الاهلون احاديث المعارك والمفاجآت التي تقع في أثناء تلك المطاردات ، وخلال غارات تلك العصابات على بعض البلدان والقرى لخطف الاغنياء ، وارغامهم على دفع فدية لفك أسرهم ، والا كان مصيرهم القتل . وكنا نسمع من الاهلين الثناء على المجاهدين نجيب عويد ، والشيخ يوسف السعدون من زعماء ثورة الشمال اللاجئين الى تركية ، لانهما بعد لجوئهما لم يقوما بأي عمل من اعمال اخلال الأمن في سورية تستغله تركية لمصلحتها ، أو يفسره الاهلون بأنه من اعمال الشقاوة والسطو وابتزاز المال من الاثرياء .

كان ضابط المصالح الخاصة في جسر الشغور ، كغيره في مناطق سورية الداخلية ، لا يتظاهر كثيراً بالتدخل في شؤون الحكومة والموظفين والاهلين ، إلا أن الواقع يشعرنا بانه يتدخل بالصغيرة والكبيرة من وراء ستار ، حتى ان لترجمانه السوري من النفوذ في القضاء ما لا يضارعه نفوذ القائم مقام الذي هو اكبر موظف مسؤول عن ادارة القضاء . ويظهر ان الفرنسيين ، خلال المعارك التي جرت في هذا القضاء ، والمظالم التي ارتكبوها لاخماد الثورة ، القوا الرعب في قلوب الناس ، حتى اذا مر ضابط المصالح الخاصة عرضاً بمقهى البلدة ، وقف الجالسون في الشارع على كراسي المقهى احتراماً له ، بما فيهم الموظفون . وقد

خالفت منذ البداية هذه العادة الذليلة ، وابيت ان أقف ، وانا في المقهى ممثل الاستعمار في بلدي. مما لفت انتباه الضابط الفرنسي إلى استهتاري به ، ففوجئت مرة في الصبـــاح ، وأنا على رأس عملي في الوظيفة ، بضابط صف في الدرك يدعوني الى قيادة الدرك للتحقيق معي في حادث وقع في الليل ، كنت فيه عرضاً ، ومن باب المصادفة ، لم ارتكب فيه ما يستوجب المسؤولية . وبعد وصولي إلى قيادة الدرك ، وصل عريف من المتطوعة الذين يقودهم عادة ضابط الاستخبارات أو المصالح الخاصة ، وقال لقائد الدرك ان المستشار يريد ان ترسلوا اليه رئيس كتاب الديون العمومية ، فلبى القـائد الطلب ، ورافقني إلى مكتب المستشار الذي استقبلني بتهكم قائلاً : « لقد بلغني ان لديك مسدساً جميلاً .. فهـلا اريتني هذا المسدس ! » ، قلت : « ليس لدي مسدس ، ولم اك احمل مسدساً كما زعموا لك ، فالتهمة باطلة من اساسها ، سببها ان رجال الدرك يريدون ستر مخالفتهم لواجبهم في الحادث الذي وجدت فيه عرضاً ! » قال « انني اريد المسدس ! » ، قلت : « ليس لدي مسدس ! ».وتكرر الطلب من الضابط الفرنسي الذي كان برتبة ملازم أول ، وتكرر الاصرار مني بجرأة ، وبدون وجـــل ، فألتفت المستشار الى ضابط الدرك ، وقال له : « اذهب إلى القائم مقـام ، وابلغه انني قررت اعتقال رئيس كتاب الديون العمومية ، فهل هو موافق ؟ » ، وصدع الضابط العربي بالامر ، وعاد بعـــد هنيهة يعلن لضابط الاستخبارات موافقة القائم مقام على اعتقـــالي ، فامر ضابط الدرك بان يعتقلني في السجن المدني ، وخرجت مع هذا إلى دار الحكومة حيث السجن في جانب من باحتها ، ولكنني لما وصلت إلى الباحة تسلقت السلم إلى مكتب القائم مقام ، وقائد الدرك يركض ورائي ، ودخلت على جميل السلحدار دون استئذان ، وقلت للقـــائم مقام : « يجب ان تعلم انني اسجن ، خلافاً للقانون ، بموافقتك انت كقائم مقام مسؤول عن الموظفين ، فلا تتهرب غداً من المسؤولية ، عندما تسأل عن اعتقالي ! ولا تزعم ان ليس لك يد فيه ، وان المسؤول عنه ضابط الاستخبارات وحـــده ! وها أنا الآن ذاهب إلى السجن ! » ، وخرجت بينما كان القائم مقام مرتبكاً ،

يعتذر بكلمات مضطربة ، ولكنني سمعته يامر ضابط الدرك بان يحتفظ بي في مكتبه ، وألا يدخلني السجن ، ولما وقفت أمام باب السجن ، ابعدني عنه قائد الدرك ، وزعم انه يريد اتمـام التحقيق معي في مكتبه ، واحتجزني الى قبيل الغروب في المكتب، إذ صدر الامر باطلاق سراحي، وأحيلت اوراق التحقيق إلى محكمة الصلح بتهمة شهر سلاح على رجال الدرك ، واطلاق النار عليهم ،وهي تهمة كاذبة ، كما قلت ، املاها عليهم حقد رئيس الدورية علي ، لأنني كشفت اخلاله بواجبه في الحادث الذي اشرت اليه .

الثورة تعتلج في نفسي

كنت في قرارة نفسي ثائراً على الاوضاع ، يحز الألم في صدري لان بلادي لم تستطع الاستمرار في ثوراتها على الفرنسيين المحتلين ، معجباً ببطولة الأمـة التركية في ثورتها بقيادة مصطفى كمال ، واستمرارها في الثورة والنضال حتى حررت بلادها من المحتلين ، واجلت جيوش الحلفاء واساطيلهم عن استانبول ، وعن المضايق التي كانت الدول الكبرى تتسابق الى احتلالها والسيطرة عليها . ولم اكن في سني وتجاربي لأميز الاسباب الكثيرة التي كانت سبب انتصار الترك في ثورتهم ، والتي كانت بلادي محرومة منها . ان تركية دولة ، لها كيان منذ اكثر من خمسمئة سنة ، ولها جيش مسلح ،ولديها اسلحة حديثة توفرت لهـذا الجيش في الحرب الكونية التي خاضتها مع الالمان ، استعانت بها في ثورتها . ثم ان تركية بموقعها من العالم ، وبوجود المضايق في بلادها، موضع خلاف بين الدول الكبرى ، تسعى كل منها ان تكون هي المسيطرة على تلك المضايق ، لذلك ما كادت تنشب ثورتها في الاناضول ، حتى هب البلاشفـة الحاكمون في روسيا لمديد العون اليها ضد الدول الرأسمالية التي كانت وجهت جيشها الابيض للقضاء على الثورة الشيوعيـة الحمراء في عقر دارها ، وضد الحلفاء الذين يحتلون المضايق ، وهي هدف روسيا منذ ارسى القيصر بطرس الاول قواعد الدولة ، ورسم سياسة توسعها ، وخروجها الى البحار الدافئة . ثم هناك ايطاليا بين دول

الحلفاء ، لم يرضها ما اصابها ، عند تقسيم تركة الرجل المريض ، فانسحبت من مقاطعة أضاليا ، أي ولاية قونية ، ولحقت بها فرنسا ، اذ عقدت مع مصطفى كمال صلحاً في معاهدة انقرة ، تخلت فيها لتركيا عن كيليكية وجزء كبير من شمال سورية لتستطيع سحب قواها من كيليكية الثائرة عليها ، وتحشدها مع قواتها في سورية لضرب ثورة الزعيم هنانو في الشمال ، والقضاء على كل مقاومة في سورية ، ولأنتزاع اعتراف تركيا وتنازلها عن سورية باعتبارها كانت جزءاً من بلاد الدولة العثمانية . وفي كل مرة كانت الاسلحة والذخائر تترك من الدولة الاجنبية المنسحبة ، للجيش التركي يستعين بها في حربه ضد اليونان ، الدولة التي تدعمها بريطانيا في توسعها في بر الاناضول ، وليس لايطاليا او فرانسا مصلحة في هذا التوسع . واليونان دولة صغيرة لا تقاس قوتها بقوة فرنسا التي تستعمر سورية ، وتضرب ثوراتها . وهناك ايضاً العالم الاسلامي بأسره كان يعطف على تركيا ، ويعتبرها دولة الخلافة الاسلامية ، ويؤيد ثورتها ، ويجمع لها التبرعات ، حتى ان سورية التي ذاقت من الظلم والاضطهاد التركي ما ذاقت جمعت لثورة مصطفى كمال الاموال تبرعاً ، وقدمتها اليها ، ويوم انتصرت الثورة التركية على اليونان ازدانت المساجد والمآذن بالمصابيح ، واحتفلت مدينة حماه بالنصر ، وتليت سيرة مولد الرسول الاعظم ابتهاجاً به ، واحسب ان المدن السورية لم تكن أقل بهجة من حماة . أما تركية ، فقد تخلت في معاهدة انقرة ، عن سورية للفرنسيين ، واقرت استعمارهم لها ، واقتطعت جزءاً كبيراً من الشمال السوري ، ضمته الى بلادها اغتصاباً ، واصطنعت حدوداً بينها وبين سورية لاغتصاب الخط الحديدي من ميدان اكبس إلى نصيبين ، والاراضي التي تقع شمال الخط حتى جبال طوروس الحدود الطبيعية بين سورية وتركية ، ثم انها تخلت عن مساعدة ثورة الزعيم ابراهيم هنانو في الشمال ، بعد ان وعدت بمساعدتها في الكفاح المشترك ضد فرنسة التي كانت تحتل كليكية وسورية معاً ، وفرضت شرطاً في معاهدة انقرة يخول الاقلية التركية في لواء الاسكندرونة حقوقاً لا تتمتع بها اقلية في العالم ، مهدت ، بعد بضع عشرة سنة ، لاغتصاب

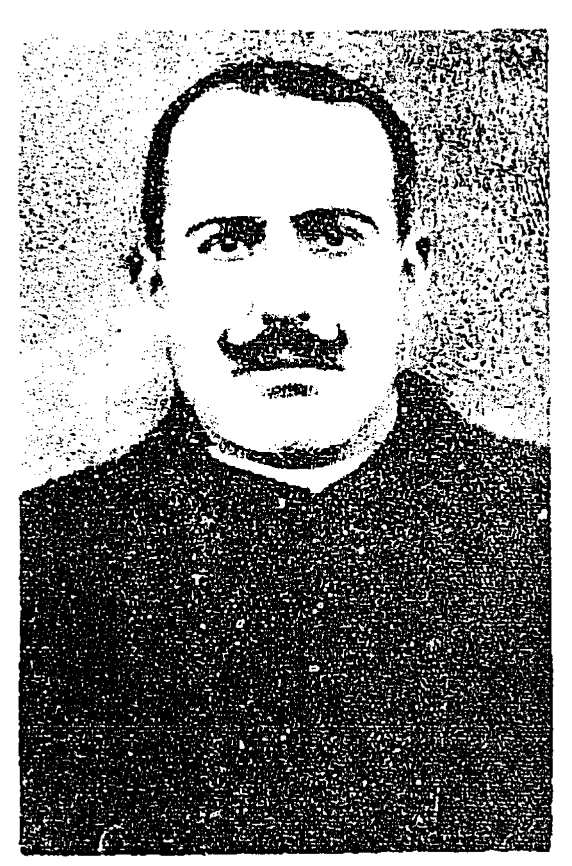
اللواء العربي بكامله ، مع جزء من قضاء جسر الشغور ، هو ناحية « الاردو » ولم تسلم من هذه الناحية إلا قرية كسب الارمنية ، بفضل مساعي زعماء طائفة الأرمن لدى الدول الاجنبية التي تآمرت مع تركية على اغتصاب اللواء .

كيف نجا هنانو من الفرنسيين ؟

- ١٥ -

سمعت ، بعد وصولي إلى بلدة جسر الشغور ، الكثير عن بطولات قومي في ثورة الشمال ، وثورة الشيخ صالح العلي . وانا لا اريــــد ان اتعرض لاحداث ثورات لم اشترك فيها ، ولم اخض بنفسي معاركها ، فبقايا السيوف من ثورة الشمال كتبوا صفحات مشرقة عن تلك الثورة . الا انني سمعت مرة في منزل السيدجميل مردم في دمشق ، ومن فم الزعيم ابراهيم هنانو نفسه حديثاً عن انسحابه من الجبال التي كانت مسرحاً لثورته ، وضربه بمن تبقى من رجاله بادية الشام لبلوغ عمان في شرقي الاردن ، ارويه هنا تسجيلاً للتاريخ . قال الزعيم هنانو بلل الله ثرى جدثه : حشدت فرنسة ، بعد عقدها معاهده انقرة مع تركية كل قواتها لاخماد ثوره الشمال ، وتعددت المعارك ، وكتب لنا النصر في العديد منها ، بفئتنا القليلة ، وسلاحنا الهزيل ، على قوات كبيرة مجهزة بأحدث واقوى الاسلحة ، حتى كادت تنفد منا الذخيرة ، وخضعت اكثر القرى للقوة ، وللحملات التي كانت توجهها فرنسا تباعاً الى مناطق الثورة . ولم يبق حولي من الرجال إلا القليل ، فجمعت البـارزين من اخواني ، وتحدثت اليهم عن الموقـف المتدهور ، وان لا أمل لنا بعد اليوم بالاستمرار ، لان الاستمرار ، في حقيقته انتحــــار . وكنت اوفدت هزاع ايوب من مجاهدي جبل الزاوية الى شرقي الاردن ، برسالة مني الى اخواني احرار سوريا اللاجئين الى عمان في اعقاب انهيار الحكم العربي في دمشق ، وبينهم عـــدد من رفاقي في جمعية العربية الفتـــاة ، وفي حزب الاستقلال

الذي تألف بعد الحرب ، وفي المؤتمر السوري ، اسألهم رأيهم فيما اذا انتقلت مع عدد من رجالي الى شرقي الاردن ، هل سأجد العون من الامير عبدالله بن الحسين لاستئناف الثورة السورية من الجنوب ، فجاءني الجواب بأن انسحب ، على كل حال ، بمن معي من الرجال الى شرقي الاردن، ما دام لم يعد هناك أمل باستمرار



المجاهد مصطفى الحاج حسين من البارزين في ثورة الشمال

الثورة ، والوقوف في وجه القوات الفرنسية المتألبة على المنطقة .

عدت مرة ثانية اجمع البارزين من رجال الثورة ، وطلبت منهم الموافقة على

اجتياز بادية الشام الى شرقي الاردن ، فوافق فريق ، وعارض فريق ، معددا الاخطار التي تحيق بالطريق لبعدها ، ولأنهــا سهل ليس فيه موانع للاحتماء واللجوء ، ولعدم الاطمئنان لولاء العشائر التي تسكن البـــادية ، مما سيمكن الفرنسيين من مطاردتنا بما لديهم من وسائل حربية سريعة ، واختار هذا الفريق ان يكون اللجــوء الى تركيا لقرب حدودهـــا من مناطق الثورة ، ولاتصال الجبال الى ما وراء الحدود . أما انا فقــد فضلت ان اقتل في طريق البادية الى شرقي الاردن، على ان الجأ الى تركيا الدولة التي تخلت عن مساعدة ثورتنا ، بعد ان عقدنا معها اتفاقاً على التعاون ، والكفاح المشترك ضد القوات الفرنسية التي تحتل سوريا ، وتحتل جزءاً من بلادها ، فلما لاحت لها الفرصة عقدت مـــع فرنسا معاهدة انقرة ، دون ان تعلمنا ، ودون ان تطلب من عدوتنا أي شرط في صالح حرية بلدنا ، وفوق ذلك اقتطعت جزءاً مهماً من شمال سورية ، وضمته الى اراضيها وحدودها التي تنتهي عند جبال طوروس . وافترقت عن اخواني ، وانحدرت بمن سار معي من الرجال الى المناطق الوعرة في قضاء معرة النعمان ، وضربنا الليل في السهول الى الشرق نكمن في النهار ، ونسير في الليل ، حتى اصبحنا شرقي سلمية ، وعددنا لا يزيد على ثمانين مسلحاً اكثرهم من المشاه ، بينهم بضعة عشر ألمانياً وبلغارياً من ضباط وجنود الفرقة الاجنبية في الجيش الفرنسي ، كانوا التحقوا بثورتنا ، وربطوا مصيرهم بمصيرنا .

بلغنا قرية « عنز » من قرى سلمية ، ومكثنا فيها بأنتظـــار الاصيل حتى نتابع السير نحو الجنوب ، ودليلنا هزاع ايوب الذي تعددت رحلاته في هذه الطريق سيراً على الاقدام ، واذا بسياره تصل الى القريـــة تحمل الشيخ سلطان الطيار من زعمـــاء العشائر يحمل الي رسالة من « الكابتن » فوزي القاوقجي الضابط في الجيش الفرنسي ، يعلمني فيهـــا انني وعصابتي مطوقون بالقوات الفرنسية ، وبقوات قبائل البادية ، وان لا نجاة لنـــا منها ، ويعرض علي ان ادخل معه في مفاوضات على الاستسلام لقاء تعهده بضمان حياتي وحيـــاة من

معي من افراد العصابة ، ومعاملتهم معاملة الاسرى ، ريثما يصدر عنا عفو من المفوض السامي الفرنسي ، فغضبت لهذه القحة ، واجبت الشيخ سلطان رسول القاوقجي بالرفض، واصدرت أمري لجماعتي بالرحيل، قبل ان يتم تجهيز الطعام الذي كانت القرية تعده لنا ، وانطلقنا نضرب في البادية ، نغذ السير في مهامها وقفارها، الى ما بعد منتصف الليل . وكان لا بد من الراحة والاستجمام ، فجنحنا الى الراحة في القفر ، وانتبذ دليلنا هزاع ايوب مكاناً لوحده ، واستغرق في النوم من التعب . فلما افقنا في عتمة الفجر نستأنف سيرنا لم نتنبه لغيابه ، وفي الصباح افتقدناه ، فلم نجده ، وتابعنا السير ، واشرفت الشمس على الشروق ، واذا بأحد اخواني ينبهني الى ان غباراً ساطعاً من ورائنا يخفي قوة من الفرسان تلاحقنا ، فالتفت الى الغبار استكشف بالمنظار عدد المطاردين ، وأصدرت امري بأن تتجه العصابة الى ارض وعرة كنت اراها غير بعيدة عنا ، يتخذونها للدفاع ، وبان يهيأ الرشاش الثقيل الذي معنا فوراً لوقف الغارة التي لا نعرف عدد فرسانها من كثرة الغبار . وما كاد اصحابي ينزلون الرشاش عن الدابة ، حتى سطع غبار آخر من الغرب ، وآخر من الشرق ، وآخر من الجنوب . بل ثار الغبار من حولنا ، وظهرت الفرسان من تحته تغير بكل قوة جيادها علينا ، حتى ان المسؤول عن الرشاش لم يعد يستطيع ، لاضطرابه ، تثبيت سلاحه ، واطلاق النار ، فترجلت وعملت معه على تثبيت الرشاش وتركيزه ، واذا بفارس من اخواني يمسك بكتفي ، ويشدني عن الرشاش منبهاً ألا فائدة منه ، فقد وصلت الخيل المغيرة علينا ، وداهمتنا قبل ان نستطيع اطلاق النار ، وقبل ان يصل أكثر اخواني الى الوعرة التي وجهتهم اليها . وفعلاً بدأت الخيل تمر بنا تباعاً ، والرصاص يملأ الفضاء ، حتى ان فارساً من البدو ، مر بي كالسهم ، وقبض على ذراعي ليلقيني عن جوادي ، ولكن قوة اندفاع فرسه ابعدته عني ، وانقذتني من السقوط . والتفت حولي ، فرأيت في السهل

امامي جهة وعرة ، لا تتدفق الخيل منها ، وخطر لي أن امرق منها ، ولكزت جوادي ، ودفعته إليهـا ، وبيدي مسدسي من نوع « برابيللو » اطلق منه إلى الوراء لابعد الفرسان عن اللحاق بي . وكان جوادي من كريم الخيول العربية ، فما كاد يجتاز بي الوعرة ، ويخرجني من نطاق الخشر ، حتى رأيت فارساً من رفاقي ، ضرب قبلي في نفس الاتجاه ، فلويت عنان جوادي نحوه لنكون اثنين خيراً من ان يضيع كل منا في جهة من مجاهل البادية . ولما دنوت منه عرفت انه صبحي اللاذقاني المعروف بصبحي حليمة ، فحاذيته ، وكوكبة من الفرسان البدو تلاحقنا بجيادها العربية الأصيلة ، واستمر السباق والطراد طويلاً بيننا وبينهم ، ورصاصهم ينهمر علينا ، والله يحفظنا ، ويقينا شره ، فيطيش ، وكلما تتالت الساعات في هذا السباق ، قصر عدد من المطاردين ، وقل عديدهم ، حتى اصبحوا عشرات ، بعد أن كانوا مئات ، وتوسطت الشمس قبة السماء ، واصبحت الجياد من شدة الحر والانهاك ، تكاد ترتمي ، والشهر تموز ، عندئذ قلت لصاحبي ان فرسينا هلكتا من الطراد ، فلنعرج إلى هذا التل الذي تراه ، ونتخذه موقعاً للدفاع ، حتى يستجم فرسانا ، وعرجنا نحو التل ، وترجلنا وراءه ، وصعدنا إلى قمتـه ، وافترشنا الارض استعداداً للقتال ، واذا بالمطاردين ، يتوقفون ، ويتشاورون ، ويدركون اننا مستميتان ، واننا سنصرع كل من يدنو منا ، ثم يلوون أعنة جيادهم ، ويعودون من حيث أتوا ، حتى غابوا عن انظارنا . على أن فرحتنا بالخلاص من المطاردة لم تكتمل ، فقـد رأينا فرس صبحي اللاذقاني ترتعش ، وتسقط ، وتنفق من التعب والعطش ، ورأيت صاحبي ينهار امام هذا المشهد ، يجيل ناظريه في الصحراء الجرداء القاحلة المترامية الاطراف ، الملتهبة بلهيب الحر ، تمتد كالبحر ، فلا يدري كيف سينجو منهـا ، فواسيته بكلمة ، وشجعته ، وقلت له ان راحلتي لي وله ، نتناوب ركوبها ، وقد يهيء الله لنا من أمرنا فرجاً ، ثم اقترحت عليه ان نحدد قبل غياب الشمس اتجاهنا ، ونسير تواً نحو الغرب لندرك المنطقة العامرة من سورية ، قبل ان نموت جوعاً وعطشاً في البادية القفراء النفراء ، حتى ولو وقعنا بيـد الفرنسيين ، وكان الموت نصيبنا ،

فالموت مدركنا في الحالين ، إلا أن هناك املا بان نختفي وننجو من الفرنسيين . أما الموت في البادية عطشاً فلا نجاة منه . رأيت صاحبي يعود اليه الأمل ،فهب يفك لجام ورَسَن فرسه النافق لعلهما ينفعان في متح الماء من بئر قد نصادفه في طريقنا ، ثم يبحث في خرجها وخرج جوادي لعله يجد فيهما ما يبل حليقنا الجافين ، فعثر فيهما على تفاحة ذابلة ، ونقاطاً من الماء في وعاء الماء (المطرة) بللنا بها الحلق ، وجلسنا ننتظر الاصيل لنسير نحو الغرب ، آملين ان ينعشنا برد الليل .

وفعلاً نشط جوادنا في الليل ، وتناوبنا ركوبه ، وقد هده الجهد والجوع والعطش ، حتى بلغنا مكاناً متعرجاً من الارض ، تكثر فيه التلول ، صادفتنا فيه اشجار متفرقة من البطم التي تكثر في أحراج سورية ، لم يستطع الجواد على جوعه وعطشه ان يقتات بها ، فادركنا اننا في جبل البلعاس شرقي سلمية وحمص . وهذا الحرج كان كثير الشجر الا أن أيدي البدو ، وايدي متعهدي الحطب في الحرب العالمية قضت على اكثر ما فيه ، فقررنا بعد منتصف الليل ان نركن للراحة ، ولو ساعة واحدة او ساعتين نستجم خلالها ، ويستجم الجواد ، وانتحينا جانباً من التلاع ، ونجمت من جراء الاستجمام مشكلة ، شغلت بالي ، فرفيق دربي من عامة الشعب الذين التحقوا بالثورة ، وهو في مثل وضعنا ، اخشى ان يبلغ به اليأس حداً تسول له نفسه فيه اغتيالي والاستئثار بجوادي ينجو به من خطر الصحراء ، ويذهب الى الفرنسيين مبشراً بانه قتل ابراهيم هنانو قائد ثورة الشمال الذي تدفع فرانسا الوف الليرات الذهب ثمناً لرأسه ، وقد منّت شيوخ العشائر بعشرات الوف الليرات الذهبية ان جاءوا بهنانو حياً او ميتاً . لذلك كان لا بد من الحذر ، دون ان يشعر رفيق الدرب ، واقترحت عليه ان لا ننام معاً ، وان نتناوب السهر ، وطلبت منه ان يسلمني بندقيته ، وينام بدوره ، ثم اوقظه لانام بدوري ، وسلمني عن طيب خاطر بندقيته ، ونام مطمئناً ، وانا اسلمت جفني للنوم ، بعد ان اطمأنيت الى ان لا سلاح بيده

يغتالني به ، نمت بعد ان وضعت البندقيتين تحت فخذي ، وبعد ساعتين ، نبهت رفيقي ، واستأنفنا المسير حتى الضحى ، فبانت لاعيننا دروب صغيرة تتلاقى لتؤلف درباً أوضح نحو هدف، سلكناه حتى وصلنا الى كهف وبجانبه بئر ماء، فكانت فرحتنا لا توصف ساعة تأكدنا من وجود الماء في البئر. وسارعنا الى المطرة نربطها برسن الفرس النافق ولجامها ورسن جوادي حتى بلغت الماء ، ونضحنا بها غرفة قدمناها للجواد الذي حمحم هو يرشفها رشفة واحدة ، واعدنا الكرة مئات المرات حتى ارتوى الجواد وارتوينا ، ودبت بنا الحيـــاة مع الامل من جديد ، وأوينا الى الكهف نستظل فيه من الشمس المحرقة غير وجلين من الجوع، فالمرء ، بعد وجود الماء ، يتحمل اياماً الجوع .

فوجئنا بعد الظهر ، ببدوي دخل علينا الكهف فجأة ، ولمـــا رآنا انطلق يعدو ، ويصيح يدعو عدداً من الرعـــاة كانت مواشيهم في طريقها الى البئر ، ويستعجلهم . ورأيناهم مسلحين ، أخذوا يتراكضون نحونا ، وصياحهم يدل على ما ينتوون ، فقلت لصاحبي ان الجواد الخائر القوى من الجوع لا يستطيع حمل اثنين ، وانت ليس معك مال تخشى عليه ، وليس لهؤلاء مطمع الا ببندقيتك ، ونحن لا نريد ان نخوض مع هؤلاء معركة ، لأننا قد نلجأ الى منازل عشيرتهم ، فنقتل اذا قتلنا احدهم ، ولا نريد ان نستسلم اليهم ليسلبونا الجواد واسلحتنا ، لذلك سلمني بندقيتك لا نطلق بالجواد والسلاح بعيداً عن المكان ، وابق انت في مكانك ، فانهم لا يؤذونك اذا لم يجدوا معك مالاً وسلاحاً ، بل ربما يطعمونك من زادهم ، وامتطيت صهوة الجواد ، وانطلقت في الجهة المعاكسة لغارة الرعاة ، الف وادور ، واتجه نحو الغرب ، تحت وابل الرصاص ، حتى غبت عن انظـارهم ، واخذت بعدها امشي الهوينا ، وقبيل الغروب لاحت لي خيام تتجه اليها قطعان الماشية ، فاضطررت لأن اعرج نحوها ، لانني وجوادي كنا باشد الحاجة الى ما يقيم اودنا .

وفي غبشة الغروب دخلت الحي باحثاً عن اكبر بيت فيه ، اعرف انه بيت

رئيس الحي ، فلما وجدته ترجلت عن جوادي امامه ، وكنت ارتدي «القلبق» التركي أو الشركسي على رأسي ، وهو يصنع من فرو الخراف ، اجنة ، قبل ان تولد، وفي عنقي منظار يتدلى، وفي حزامي مسدس حربي، وكان زيي عسكرياً أو شبه عسكري وشدة حصاني تزدان بالفضة ، سرجها وطوقها، فهب صاحب البيت يرحب بالضيف كعادة الاعراب ، وتسلم من يدي عنان الجواد ، واكرم وفادتي ، ولما تفرق رجال الحي من منزله ، بعد ان ارتووا من شرب القهوة ، سألني : « هل يمكن ان اتعرف إلى ضيفي ؟ »، قلت : « انني مفتش عد الاغنام في قضاء سلمية ضللت الطريق ، حتى اهتديت إلى هـذا الحي ! » ، قال وهو يبتسم : « انني اعرف كل جباة سلمية ، وموظفي ماليتها ، بل كل موظفيها ، فلست انت منهم والله ! فلا تكتم عني امرك ، فانا اهل للكتمان ، وانت ضيفي ، ومن واجبي ان اساعدك ! .. » قلت ، وقد تبدى لي في وجه مضيفي، وهو شيخ عشيرة بني خالد ، عدم الاقتناع فيما قلت ، فعـــدت الفق قصة اخرى اكثر انطباقاً على مظهري ، فقلت: « اريد الصدق؟ انني ضابط شركسي من عمان، فار من الجيش التركي ، واخشى ان يقبض علي الفرنسيون ، ويسلموني الى الحكومة التركية ، بموجب ما بينهما من اتفاق ، فاحاكم بالموت ، واقتل جزاء فراري .. وكل ما أود منك ، ان تساعدني على الوصول الى شرقي الاردن ، فأهلي هناك من اغنياء الشركس ، سيجزون من يوصلني إليهم جميل الجزاء ، بـــل سيغنونه بالمال .. »، فظهر الاقتناع على وجـه محدثي ، ثم الأهتمام ، وطمأنني بأنني اصبحت في حرز أمين ، وانه سيساعدني على الوصول الى اهلي ، وسيجد لي الدليل الذي يرشدني الطريق ، ولكن يجب الآن ان انتقل من هـــذا البيت الكبير الذي يطرقه كل قاصد للحي ، وكثيراً ما يكونون من رجال الدولة ، وضباط قوة البادية وجنودها الذين تطوف دورياتهم كل مكان ، وهؤلاء خطر علي وعليه ان عرف احدهم بأمري . وفوراً نقلني الى مضرب صغير في «الحي» « خربوش » ، وطلب مني ان اخلع ثيابي ، وارتدي ثوباً عربيا ، ثم جـــاءني بثوب عتيق رماه لي ، وكنت رأيته يقلب بين يديـه منظاري ، وسوطي من

الفضة قبضته ، فأهديتها اليه ، وقلت له خذ المسدس ايضاً ان شئت ، فشكرني واعتذر عن المسدس بانه سلاح حربي ضخم يجلب النظر ، وربما تساءل من رآه من اين وصل الى يدي . أما المنظار والسوط فيمكن شراؤهما ، وليس اقتناؤهما ممنوعاً. وكان مضيفي الشيخ يمنيني بأنه أرسل من يبحث لي بين العشائر القريبة عن دليل يعرف الطريق جيداً إلى شرقي الاردن ، لأن المسافة شاسعة ، ومجاهل الصحراء لا يعرفها غير الخريت بين الادلة . ثم عاد لي وزوجه يوماً ليقول لي أنه لم يجد الدليل الماهر الذي يرضى بان يرافقني الى شرقي الاردن ، دون ان يقبض الاجر سلفاً ، إذ لا يصدق الأعراب أن اهلك سيجزونهم ، بعد وصولك اليهم . وكنت احتزم تحت ملابسي الداخلية حزاماً للنقود ، فيه أكثر من مئة وعشرين ليرة ذهبية ، سرعان ما مددت يدي اليه احل اربطته ، وانا اسائل الشيخ عن المبلغ الذي يريده الدليل اجراً الى عمان ، والقيت اليه بعشر ليرات ذهباً مما كان معي ، ثم التفت لأرى عيني الرجل وعيني زوجته تلمع نهماً وشرهاً على ما في «الكمر» من ذهب وهاج ، فأدركت أني أخطأت ، وعرضت حياتي للخطر ، يوم كشفت لهما عما معي من دنانير ذهبية ، وسارعت أتلافى الخطأ فألقيت بالحزام كله ، بما فيه من ذهب إلى الرجل ، وقلت له : «كل هذا المال لك ، ادفع منه اجر الدليل ، وخذ ما تبقى لك حلالاً هبة مني اليك جزاء مساعدتك إياي ! .. ولا اريد منك لقاء ذلك إلا ان توصلني إلى أهلي في عمان ! ..» ، وتلقى الشيخ البدرة بيديه حامداً لي أريحيتي ، وهب وزوجه يخرجان ، وهما يقطعان على نفسيهما العهد بان يجدا لي الدليل ، بل اكثر من دليل ، ليبلغني أهلي عزيزاً كريماً ، وبذلك ضمنت ان لا يغتالني الشيخ البدوي طمعاً في مالي ، اذ لم يبق على جسمي غير الثوب الذي تفضل به من قبل علي . وانقضى أكثر من يومين ، وانا سجين الخربوش ، مختفياً عن عيون الناس ، وإذا بالشيخ وزوجه يدخلان علي ، في صباح أحد الايام ، ويقول لي الرجل انه عجز عن ان يجد لي دليلاً في من حوله من العشائر ، وانه يرى لسلامتي وسلامته أن أغادر الحي فوراً ، وأذهب أنى شئت ، فقلت له : « ويحك .. بعد أن اخذت

مالي كله، ضننت علي بأعرابي يرافقني، ويهديني سواء السبيل الى بلدي، ويوصلني إلى أهلي ؟ هلا أعطيتني شيئاً من المال استعين به في طريقي الطويل الى عمان؟!»
قالت زوجه : « بالله يا ابا فلان ! هلا أعطيت ضيفك بعض الدنانير ينفقها في رحلته الشاقة ! » ، فمد الرجل أصابعه إلى داخل الحزام الذي اتى به ، وألقى إلي بثلاثة أو أربعة دنانير قائلاً : « هاك .. بعض المال .. وقم ارحل عن هذا الحي ! » ، قلت ان ما تعطيني لا يكفيني ثمن طعام وعلف لدابتي . فهلا زدت لعلني أجد في طريقي من استأجره دليلاً ببعض المال ؟ » ، وشفعت لي مرة ثانية الزوجة ، فألقى إلي ببعض الدنانير، وتوالت توسلاتي وشفاعة زوجه، حتى اصبح في يدي بضعة عشر ديناراً استرددتها من مالي .. وكان سمح لي بالجواد وسرجه وعدته كلها ، كي لا تدل يوماً على وجودي عنده كشخص ملاحق .. فقلت له : « لا أريد السرج والعدة .. خذهما وأعطني سرجاً عربياً عادياً رخيصاً يتناسب مع هذا الثوب الخلق الذي ألبسه على جسمي ! » قال : « لا أريد جوادك ولا عدته ، لانهما يجلبان إلي الشبهة ، ويثيران الريبة في بيتي ، فالأعراب لا تقتني مثل هذا السرج الفرنجي ! .. » قلت : « أعطني إذن ما أستر به هذه العدة والسرج عن العيون ! » ، عندئذ ذهب ، وعاد إلي بقطعة قماش عتيقة ، كانت في الزمن الغابر خيمة يستخدمها الجنود الالمان ، وألقاها بين يدي، فقمت أستر بها السرج، وأطوي العدة في الخرج، واربطها بخرقة بقطعة من حبل حتى تثبت فوق السرج ، ثم رجوت الشيخ أن يعطيني ما أستر به رأسي من حر الشمس غير « القلبق » الذي يدل على انني ضابط تركي ، ويثير الشبهة ، لأنه لا يتناسب مع الثوب العتيق ، فاعتذر ، ثم جاءني بخرقة ثانية هي نصف كفية عتيقة مثلثة الاضلاع ، وبوصلة من الحبال ربطتها فوقها حول رأسي ، ولم أجد عنده حذاء ، فركبت جوادي حافي القدمين ، وعدتي المسدس الذي لم يشأ أن يأخذه مني ، لأنه مسدس حربي كما قال من قبل .. ولكزت الجواد في اتجاه الغرب ، وانا العن الساعة التي وقعت فيها بين يدي هذا البدوي الشيخ عديم الذمة .. الطماع .. حتى اذا ارتفعت شمس الضحى ، بلغت القرى المعمورة ، فأخذت أتجنبها ، وأسلك

طرقاً تبعدني عنها متجهاً إلى الغرب ، حتى صادفتني ساقية مـاء سقيت منهـا جوادي ، وشربت، ثم مرغت ساقي وقدمي وذراعي ووجهي بوحلها،ومسحته بعد أن جف حتى لا تعرف ملامحي ، وحتى تتناسب قذارتي مع الخلقان الذي ألبسه . وفي وقت الظهيرة دخلت مدينة حمص من جهـة الشرق ، وتغلغلت في حي الخالدية ، نسبة للمسجد المسمى مسجد خالد بن الوليد فيه ، وهو حي اكثر أهله فقراء ، خطر لي أن أطرق باباً من أبوابه ، لأودع فيه حصاني لقاء أجر ، ثم أتسلل إلى المسجد أقضي فيه نهاري مصلياً نائماً في زاوية مـن زوايا باحته أو حرمه ، حتى إذا لفني الليل ، تسللت منه الى دار صديقي عمر الاتاسي، وزميلي في المؤتمر السوري الذي أعلن استقلال سورية في الثامن مـن شهر آذار عـام ١٩٢٠ ، كي يهيىء لي سراً سبيل الوصول إلى شرق الاردن وتميزت الابواب التي كنت أمر بها ، حتى وقع نظري على باب ذي خصاص يدل على فقر ساكني الدار ، طرقته في حمارة القيظ ، وإذا بشاب يفتح الباب ، سألتـه إن كان في استطاعتي ربط جوادي في داره لقاء أجر ، ريثما أذهب إلى المدينة أقضي فيها حاجتي وأعود ، فقال الشاب : « اهلاً وسهلاً بالعم .. إن في استطاعتك ايضاً أن تجدلدينا أنت وجوادك مكاناً للراحة والمبيت، فهلا دخلت أولاً، واسترحت من عناء السفر ، فالوقت الآن وقت قيلولة ونحن في هاجرة النهار .. تفضل يا عم وادخل ، فأنت في دارك وبين أهلك ! » .. شجعني كلام الشاب ،فترجلت، وقاد الشاب الحصان إلى مربط في صحن الدار ، وأدخلني غرفة ، على فقر ما فيها ، نظيفة ظليلة ، وفرش لي حصيراً ، ووسائد لاجلس عليها وأنام ، ولكنه انتبه إلى قذارتي ، فقال: «ما رأيك يا عم بحمام بارد في عتبة هذه الغرفة تنظف به جسمك ، وسآتيك بثياب تلقي بها عنك هذه الاثواب الوسخة ؟ »، ولم يترك لي الشاب مجالاً للاعتراض ، بل ذهب ، ونقل إلى العتبة صفائح الماء البارد، بعد ان انتشلتها من بئر الدار امرأة، عرفت بعدئذ انها امرأة أخيه صاحب الدار ، فاغتسلت ، ولبست ثياباً يعبق منها أريج النظافة ، وجلست في المكان الذي أعد لي ، ورجوت الشاب أن يذهب بدينار ممـا كان معي ، يهيىء لي ببعضه

غداء من السوق ، وعليقاً لجوادي ، فلبى الطلب ، ونمت هادئاً ، وفي الاصيل فتح باب الدار ، ودخل رجل بلباس وطني مؤلف من القنباز والكفية والعقال ، أدركت أنه صاحب البيت . ويظهر أن زوجته لوحت له من المطبخ ، حيث نقل الجواد بناء على طلبي ، بحجة إبعاده عن الشمس ، والواقع أردت إبعاده عن العيون ، عند فتح باب الدار وإغلاقه ، فخف الرجل إلى المطبخ ، وتميز الجواد ودار بين الزوجين همس احتمل دقائق ، ثم أقبل الرجل علي في الغرفة ، وحياني وجلس .. وكان لا بـد من السؤال التقليدي : « من أي ديرة الضيف ؟ » ، قلت : « من جهات المعرة أيها الأخ ! سرقت لي أغنام ، فركبت في أثرها إلى البادية لعلني أهتدي اليها ، وأستردها .. ولكن خاب أملي ، وسلبني قطاع الطرق ملابسي ، حتى رماني القدر في داركم ! .. » قال « ولكن جوادك ايها الصديق هو جوادالزعيم ابراهيم هنانو ،عليه تنطبق كل الاوصاف التي رواهاالبدو والجنود الذين طاردوا عصابته وطاردوه شخصياً في البادية فهلا صدقتني القول وطمأنتني عن سلامة الزعيم ؟ » ، وبانت اللهفة والصدق في عينيه ، فكان لا بـد لي من طرح أكذوبتي الاولى ، قلت : ومن أين عرفت ان الجواد حصان هنانو ؟ » ، قال : « انا جنباز خيل . قضيت عمري في هذه المهنة ، والناس كلهم يلهجون اليوم بقصة الزعيم هنانو ، وجواده الكريم الذي أنقذه من كل خيول البادية التي طاردته طمعاً بالجائزة التي منت بها فرنسة شيوخ العشائر ، والالسن تلهج بالدعاء لله أن يحفظ الزعيم فلا يهلك جوعاً وعطشاً في الصحراء القاحلة ، ولا يقع بيد الفرنسيين اعدائه واعداء البلاد ،فهلا اخبرتني صدقاً ان كان هذا حصانه ،وهلا طمأنتني عنه !» ،قلت : « طب نفساً وقر عيناً فهذا حقاً حصان هنانو ، وانا رفيقه الذي نجوت معه في الطراد ، وهو في مكان أمين ، وحرز حريز ، لا خوف عليه إن شاء الله ، وقد أوفدني إلى حمص بمهمة أنا في سبيل إنجازها له ، فهل انت مستعد لمساعدتي ؟ » ، قال : ان روحي فداء الزعيم هنانو ، وبيتي وزوجي وأخي وكل أسرتي .. هلا حدثتني عن مهمتك فأنا رهن إشارتك ! .. » ، فاغرورقت في عيني الدموع من صدق لهجة الرجل وإخلاصه ، وأدركت أن في وطني شعباً ،هذا الرجل نموذج حي له ،شفت اقواله نفسي مما لقيت لدى شيخ بني خالد ،هو أبعد ما يكون عن شيم العرب ..ولم أجد

بدأ بعد الاكرام الذي أخذ يتعاظم ، والحرص على سلامتي ، والصدق الذي لمسته من أن أطلع مضيفي على الحقيقة ، وأن أعترف له بانني ابراهيم هنانو ، فانكب علي يقبل قدمي من شدة الفرح ، وانا ارفعه عنها ، وطلبت منه ان يسهل اتصالي بعمر الاتاسي ، فغضب لذكر هذا الاسم على لساني ، وقال : « مالنا وهؤلاء الافندية الذوات الذين ليس في أخلاقهم ضمان ولا ثقة ، ونحن نرى نعال اكثرهم تخفق على أبواب المستعمرين ، سعياً وراء مصالحهم .. انهم عبيد مصالحهم ، لا نطمئن نحن الفقراء من عامة الشعب اليهم .. وانا الفقير جنباز الخيل مستعد لأن أبذل روحي في سبيل وصولك إلى المكان الامين الذي يكفل سلامتك ، ولست أريد أن يعلم أحد غيري بوجودك هنا.. وسأقوم من هذه الساعة باعداد العدة لسفرك إلى شرقي الاردن من الطريق الامينة ، وسيكون سفرنا من هنا إلى دمشق ، ومن الطريق العامة ، ولكن بعد أن اغير ملامح الحصان ، وأجد لك الزي المناسب الذي لا يلفت النظر ، ولا يثير الشكوك ، فإذا بلغنا دمشق ، ضمنت منها سفرك الى جبل الدروز ، فهل انت ضامن في الجبل من يساعدك على الوصول إلى شرقي الاردن ؟ » قلت : « نعم ! لي فيه من أثق بوطنيته وإخلاصه وقدرته على العمل » ، قال : « حسناً سأعد العدة ، وليس أمامي غير تغيير أوصاف جوادك الذي أصبح أشهر من داحس والغبراء ، والابجر والخضراء في قصص العرب . ولكنني انا الجنباز سأغير معالمه وأبدل أوصافه ، وأجعل منه جواداً آخر ، لا يمكن لأعظم خبير في الخيل أن يعرفه ! »

وفعلاً جاء في اليوم الثاني باصباغ ، وبمقص للشعر ، وبدأ بتغيير اوصاف الجواد ، فقص شعر ذيله ، وبعض شعر لبدته ، وصبغ الغرة بين ناصيته ، والبياض في ارجله ، وقص وصبغ حتى إذا رأيته حسبت أنه فرس آخر ، ثم ذهب إلى السوق ببعض نقودي واتاني بلباس كامل لزي أغوات عكار ، واخبرني انه استأجر رهوانة لعشرة أيام ، واننا سننطلق معاً في الأصيل الى دمشق ، ومن طريقها العام نسير في الليل ، ونستجم في النهار تحت ستار الحر

في شهر تموز ، حتى نبلغ غايتنا . وانطلقنا على هذا النحو ، وفي أول مرحلة بلغنا « حسياء » حيث قضينا فيها النهار ، وبلغنا النبك في المرحلة الثانية ، ثم القطيفة . وكان رفيقي خير مؤنس لي، ليس فيه علة الا أنه كان يشرب الخمر في الطريق متذرعاً بانه يقوي أعصابه في مهمته الخطيرة ! . وكان معه بطحه يملؤها بالعرق، كلما فرغت ، من القرى التي نلبث فيها أو نمر بها . ولما بلغنا ثنية العقاب في طريقنا من القطيفة الى جوبر بجوار دمشق ، صادفنا دورية من دركيين ترود المكان الذي تكثر فيه حوادث الشقاوةوالسطو والسلب،وخاصة في الليل ، فطلبا منا التوقف ، وفي ضوء عود ثقاب تعرفا الى وجوهنا ، فطلب أحدهما منا ان نسمح له بتحري ثيابناوجيوبنا ومتاعنا من أجل رسائل لا تحمل طابع البريد..فحملها، على حد زعمهما، ممنوع حسب الاوامرالصادرة الى المخفر، ويتعرض حاملها الى غرامة نقدية ! .. فقلت لهما : « مهلاً .. فليس معنا رسائل ، وما نحن إلا عابرا سبيل نقصد دمشق لا شغال لنا فيها» ، قال احدهما: «لا بد من التفتيش، فلدينا أوامر مشددة حول ذلك ! » ، ثم دنا من رفيقي الجنباز ، وأخذ يبحث في جيوبه ، حتى إذا عثر على علبة التبغ صادرها باسم تبغها المهرب ، وعلى مسدس قديم من نوع « طبنجة » لا تساوي قيمته ريالين في ذلك الوقت تسلح صاحبي به من حمص ، فصادره الدركيان باسم سلاح ممنوع حمله ، ثم عثرا على زجاجة العرق (البطحة) ، وفيها ثلثاها ، فصادراها ايضاً، وهمهما شرب ما فيها على الطريق ! .. وكنت في تلك اللحظة افكر بنفسي وبالمسدس الحربي « برابيللو » الذي احمله ، واخشى ما أخشاه ان يقودني حمله الى المخفر، فتكتشف هويتي،واسلم للفرنسيين ، لذلك قررت ان اقتل الدركيين في حال اصرارهما على تفتيشي ، وافر بالجبال ، مهما كانت العواقب ، ولكن الله ابى ان يبلغ بي هذا المدى ، فقد التفت إلي أحد الدركيين ، وأنا أدافع عن صاحبي وتبغه، ومسدسه، وخمره ، واعارض مصادرتها ، وقال : « اننا يا آغا لن نفتشك احتراماً لك ، ولكن لا بد من مصادرة هذه الاشياء الممنوعة من رفيقك ! » ، ثم لكزا جواديهما نحو القطيفة ، ورفيقي الجنباز يكاد يجن جنونه ،

فقد صودر سلاحه ، وأصبح بدون خمر ولا تبغ في طريق يستغرق قطعها بضع ساعات أخرى!.. ولما رأيت حزنه وحنقه ، مددت يدي إليه بريالين، وقلت: « الحق بالدركيين ، على الرغم انني ما صدقت أن أخلص من بلائهما .. وادفع لهما المبلغ رشوة ، فانهما سيعيدان إليك حاجاتك». ولحق بهما ، وكان له ما أراد ، وعاد مسروراً يشرب، ويدخن ويغني ، ويعتز بحمل «الطبنجة»، وبلغنا قبل الصباح قرية جوبر ، فمكثنا فيها إلى الأصيل ، وكان أصيل يوم الاحد ، وحي القصاع غاص بالناس ، تجاوزناه ، دون أن نلفت النظر ، إلى حي الخراب ، وحللنا في خان ترتاده قوافل جبل الدروز ، وقضينا في الخان ليلة ، وفي أصيل اليوم الثاني ، ودعت رفيقي الجنباز الذي لا أنسى فضله علي ، ورافقت قافلة إلى جبل الدروز ، وقصدت القرية التي يسكنها أبو نايف علي عبيد ، وهو شخصية وطنية في الجبل ، رغم عدم معرفتي به من قبل ، قصدته واثقاً من إخلاصه ، فلما بلغت داره استقبلني ولده نايف ، ورحب بي ترحيباً حاراً كضيف، وانزلني في غرفة الضيافة ، ثم ذهب يدعو أباه من مضافة أحد أصدقائه ، ولما جاء الاب رحب اكثر ، ثم فاجأني ، دون سابق معرفة بيننا قائلاً : « ألست في حضرة القائد المجاهد ابراهيم هنانو ؟ » ، قلت : « نعم يا ابا نايف ، ولكن كيف عرفتني ؟» ، قال : « كان هزاع ايوب ضيفي هنا منذ بضعة ايام ، وقد ضاع منكم صبيحة هوجمتم في البادية ، إذ رحلتم ، وخلفتموه مستغرقاً في النوم ، ولم يستطع اللحاق بكم ، بسبب تعرضكم للهجوم ، وجد وحده يقطع البادية ، حتى جاءني هنا ، وحدثني عنكم ، وسألته عن أوصافكم ، فلما وقعت عيناي عليكم الآن عرفت أن ضيفي ابراهيم هنانو . » ، وقام أبو نايف علي عبيد بالواجب ، وهيأ لي السفر والرفاق الى عمان في شرقي الاردن ، واجتمعت هناك باخواني أحرار الشام اللاجئين، وعرفت منهم أن الأمير عبدالله بن الحسين خيب ظنهم فيه، وبوالده ، وأسرته ، إذ جعل إرضاء الانكليز ديدنه وسياسته التي لا يحيد عنها، في سبيل إرضائهم ، لذلك ضاعت كل الآمال التي بنيناها على هذه الاسرة حول مساعدة سورية في محنتها . قلت لا بد لي من مقابلة عبدالله بنفسي ، والتحدث

اليه في الموضوع ، وتوجهت إلى الصيوان الذي نصبه في مرتفع من جبل عمان لديوانه ، في انتظار بناء القصر الاميري ، وقابلته على انفراد، واستنجزته الوعود التي قطعها والده وهو وأخوته للعرب ، وقلت ان الفرصة اليوم سانحة لتنظيم ثورة في جنوب سورية تطرق أبواب العاصمة دمشق ، وغوطتها ، تعتمد على مساعدة شرقي الاردن ، وانا لا اريد منكم رجالاً ، بل كل ما أريده سلاحاً وقليلاً من المال ، ثم تعتمد الثورة على نفسها ، بعد ان تتقوى وتشتد وتتسع !»، قال :.« ان الشعب السوري خيب آمالنا ، وتبين أنه شعب عديم الوطنية والاخلاص ، تخلى عن أخي فيصل ، وقوض عرشه ، وخان بيعته ، حتى أصبح أخي ملكا شريداً بلا عرش ! .. » ، وجرى بيني وبين الامير الهاشمي جدل حاد أثبت له فيه وطنية الشعب العربي في سورية ، وتضحياته ، وبذل كل مرتخص وغال في سبيل حريته ، وحملت أخاه فيصلاً ، وبعض من تعاون معهم مسؤولية ضياع العرش ، وضياع استقلال سورية ، وانحيت باللائمة على سياسته كملك ، وتردده ، ومسايرته الانكليز والفرنسيين المستعمرين ، وأكدت له أن الشعب مستعد الآن لأن يبذل المهج وكل نفيس في سبيل استرداد استقلاله ، وإعادة العرش الهاشمي وحمايته ،وليس يطلب من الذين يندبون ضياع عرشهم ، بسبب سياستهم ، الا ان يقدموا له القليل من المساعدة . وبعد هذا الحديث والجدل أيقنت ألا رجاء للعرب في هذا الامير العميل ، وخرجت من لدنه مغضباً ، ورحت إلى أخواني استحثهم أن يتدبروا لي جواز سفر من الاردن استطيع به أن أغادر البلاد العربية إلى الغرب للتداوي ، ففعلوا ، وغادرت عمان إلى فلسطين بطريقي إلى الغرب،ولكن الانكليز كانوا لي في عمان بالمرصاد، فقبضوا علي في فلسطين ، وأسلموني إلى أعدائي الفرنسيين الذين نقلوني إلىالسجن العسكري في حلب ، وألفوا محكمة لمحاكمتي ، كما هو معروف من الناس،محاولين أن يحملوني مسؤولية أعمال فردية ، وقعت في ثورة الشمال ، اسموها اعمال شقاوة وقتل وسلب ونهب،فدافعت عن نفسي ، وأثبت أن مثل هذه الحوادث تقع في الجيوش النظامية أحياناً عندما تحتل بلداً اجنبياً ، ولم تقع بأمري ، بل

من قبل أفراد حزب بعضهم ، ان لم يكن كلهم ، على ما ارتكبوا من اعمال خارجة عن أهداف الثورة، ولما أعياهم إثبات مسؤوليتي، اضطروا إلى براءتي ، من تلك التهم ، واعتبروا ثورتي وطنية ، وأخلوا سبيلي ، بعد أن بقيت في سجنهم أكثر من ستة شهور. هذه قصة انسحاب عصابة الزعيم هنانو من شمال سورية ، بعد انتهاء ثورته ، ومطاردتها في بادية الشام رويتها كما سمعتها من الزعيم هنانو نفسه، أضيف اليها ما سمعته عن محاكمته في حلب، فقد سأله مرة رئيس المحكمة العسكرية عن عدد عصابته في احدى المعارك التي نشبت ، وكتب فيها النصر للمجاهدين ، فرد هنانو بعد تفكير ، بانه أكثر من ألف مسلح ! ، وتعددت جلسات المحاكمة ، وكرر الرئيس السؤال نفسه في جلسة أخرى، فسكت الزعيم هنانو ، ولما أصر رئيس المحكمة على سؤاله أجابه الزعيم أن عدد المجاهدين كان بضع مئات ، فانتفض الرئيس الفرنسي غضباً ، واتهم هنانو بالكذب لان جوابه في هذه المرة يناقض جوابه في المرة السالفة ، فوقف الزعيم هنانو وصاح برئيس المحكمة : « انا لا اتهم بالكذب ! ولكنك سألتني عن عدد قواتي في معركة هزم فيها الجيش الفرنسي ، وهو ألوف مؤلفة ، فأردت أن أحفظ كرامة فرنسة أمام المستمعين ، لذلك قلت ان عدد قواتي اكثر من ألف مسلح .. ثم احرجتني اليوم بالسؤال نفسه ، فأردت ايضاً أن أبقي لفرنسة كرامة جيشها ، فقلت ، ان عدد المجاهدين كان بضع مئات .. أما وانت تتهمني بالكذب ، فانني اقول صادقاً ان عدد المجاهدين الذين هزموا الحملة الفرنسية لم يكن اكثر من ستين مسلحاً ! ... » ، فوجم رئيس المحكمة ، وخفض رأسه ، وتابع سير المحاكمة .

ويروى في محاكمة الزعيم هنانو ان المحكمة ،بعد ان استنفدت جميع الاجراءات، واستمعت الى جميع الشهود ، وقبل ان تنتقل الى سماع أقوال النيابة ومرافعات الدفاع ، أعلن رئيس المحكمة ، أمام المستمعين ، ان المحكمة تبيح لكل من يريد من المستمعين الكلام في صدد هذه المحاكمة ، او الادلاء بشهادة ، دون ان يكون مدعواً لها ، فنهض سعدالله الجابري من رجالات الوطنية المثقفين في حلب ، وتقدم الى المحكمة بشهادة كانت كمرافعة للدفاع عن الثورات الوطنية ، وانها

غير مسؤولة عن بعض الجرائم التى يرتكبها افراد باسم الثورة ، قــد تسيء لاسم الثورة ، فالجيوش النظامية في الحرب ، يرتكب بعض افرادها جرائم دون علم القيـــادة ، قد تكون ابشع من جرائم الثورات ، واستشهد بالجيش التركي في الهجوم على رومانيا خلال الحرب العالمية الاولى ، وما ارتكب خلاله من حوادث قتل ونهب وسلب لا تقرها انظمة الحرب ، واستشهد بغيره ،وطلب ألا يعد القائد هنانو مسؤولاً عن الجرائم التي ارتكبت ، دون ارادته ، من قبل افراد اندسوا على الثورة ، وجلس بين اعجاب المحكمة والمستمعين ، فقام رجل آخر كهل من آل الجابري ، واراد أن يتكلم ايضاً في صالح الزعيم هنانو ، وحنق رئيس المحكمة من اعجاب الناس بكلمة سعدالله الجابري ، وقحة آل الجابري ، فبادر الشاهد بسؤال : « هــل تحب انت فرانسة ؟ » ، وظهرت الحيرة على الشاهد ، وخاف ان قال : « لا » ان يهينه رئيس المحكمة ، ويطرده من الشهادة ، وان قال « نعم » ان يحتقره المستمعون ، واكثرهم من الوطنيين المهتمين بمحاكمة الزعيم هنانو ، فأجاب : « على قدر الامكان ! » ، وترجم الترجمان الجواب ، فلم يستطيع رئيس المحكمة ان يجد فيه سلبا ولا إيجاباً ، وابتسم وقال للشاهد : « تكلم ! » فأدلى الجابري الكهل بما يريد قوله في صالح الزعيم هنانو ، وذهب وذهب جوابه باللهجة الحلبية ، عن حبــه فرانسة مثلاً يتندر بـه الناس الى اليوم !

مقاومة الشعب للاستعمار

١٦

لم ينس الشعب في سورية قضيته ، على الرغم من خمــود الثورات الكبرى أمام القوة ، فالمقاومة للاحتلال الفرنسي كانت تظهر في ثورات ، وانتفاضات محلية ، ماتكاد تخمد واحدة حتى تشتعل اخرى ، ففي الكتاب الذهبي لجيوش

الشرق » من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٣٦ ، اعتراف بنشوب العديد من الثورات المسلحة في سورية ،وان كانت الخسائر التي يشير اليها مؤلف الكاتب الفرنسي ، لا تدل أرقامها على الخسائر الحقيقية التي تكبدها الجيش الفرنسي في تلـك الثورات ، اذ المعروف ان الفرنسيين يخفضون كثيراً أرقام خسائرهم وقتلاهم في المعارك ، وخاصة قتلى الفرنسيين . اما جنود المستعمرات وضباطهم ، فقل ان يحصوهم في عدد الخسائر ، باعتبارهم غير فرنسيين ، وخسارتهم ليس خسارة لفرنسة . وفي الكتاب اشارات واضحة الى ثورة عشيرة الموالي في اطراف حماة وحلب ، وخاصة قضاء معرة النعمان ، واشارة الى ثورة بدوية أخرى في الفرات ، ومعركة كبرى خاضها الجيش الفرنسي ، وسجل خسائر فيها . واذا تتبعنـا الثورات الصغيرة ، والحركات في سورية ضد فرانسة ، لما استطعنا إحصاءها لكثرتها ، ففي مذكرات الجنرال « فيغان » المفوض السامي في سورية اعتراف بأن عدد الثورات المسلحة والتمرد على فرانسة في عهده ، أربى على ثلاثمئة ثورة وحادث تمرد ، في عدادها حادث دخول عصـابة مسلحة حي باب سريجة في دمشق . أما الجنرال غورو الذي احتلت قواته سورية الداخلية ، وقوض معالم استقلالها ، وسرح جيشها ، وكان أول عمل له يوم دخل دمشق أن سار بموكبه الى قبر البطل السلطان صلاح الدين الأيوبي في جوار المسجد الاموي ، وطرق بسيفه على صفائح القبر ، وقال : « ها نحن قد عدنا ياصلاح الدين ! » إشارة الى الجيوش الصليبية التي هزمها صلاح الدين في عهده . ان هـذا القائد المتعصب المغرور ، جرى له حادث في سورية ، كاد يذهب بحياته ، وخلاصته أن الثائر احمد مريود من أحرار سورية الذين لجأوا الى شرقي الاردن في أعقاب الاحتلال الفرنسي ، ودخول قوات الجنرال غورو دمشق ، أبى ان يقيم في عمان ، مع إخوته ، بعيداً عن مجرى الحوادث في وطنه ، فاختار قريـة « كفر سوم » في قضاء أربد ، قريبة من حدود سورية ، واتخذها مقاماً له ، ولبعض رجـاله الاشداء . وجاءه في أحد الايام رسول من قريته « جباتا الخشب »من اعمال قضاء قطنا (وادي العجم) ينبئه بان محمود باشا الفاعور رئيس عشيرة الفضل سيقيم مأدبة

غداء للجنرال غورو في قرية « واسط » من أعمال قضاء القنيطرة ، (الجولان) المجاور لقضاء «قطنا»، وذلك بمناسبة قيام الجنرال برحلة تفتيشية إلى القنيطرة، وأن الاستعدادات تجري على قدم وساق لهذه المأدبة ، فلم يضع الثائر مريود الفرصة ، ووجه فوراً خمسة من رجاله ، البسهم زي الدرك السوري ، وباتوا في قرية من قضاء الزوية، وفي صباح الثالث والعشرين، وقد يكون الثامن والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٢١ ، رابط هؤلاء الأبطال في منعطف على طريق القنيطرة – دمشق ، في موقع خان « اريثبه » ، وهو منتصف الطريق ، بين دمشق – والقنيطرة، بعد أن سدوا أحد جانبي المنعطف بحجارة لتعطيل السير، وإعاقة الموكب أثناء عودته من المأدبة . ولما بلغ موكب الجنرال غورو المكان ، خففت السيارات من سرعتها بسبب المنعطف ، ووقف الفرسان الخمسة صفاً ، كأنهم يريدون أداء التحية للجنرال ، فرفع الجنرال يده ليحييهم ، وإذا ببنادق المجاهدين الخمسة تمطره ناراً ، فانكفأ على وجهه في أرض السيارة ، واختبأ تحت مقعد السائق ، والقى حقي العظم رئيس دولة دمشق الذي كان جالساً الى يساره ، نفسه فوقه من الخوف، وانطلق السائق بقوة سيارته يقفز الحاجزالذي أقامه المجاهدون ، ومرقت سيارة الجنرال ، بعد أن قتل الضابط المرافق للجنرال ، وجرح حقي العظم في كتفه ، وفخذه ، وشفته ، وجرح آخرون من المرافقين والحرس ، وخرقت رصاصة بزة الجنرال ، وأطاحت بشاراته العسكرية من على كتفه ، وربما لم تصبه الرصاصة ، لأن ذراع الجنرال وساقه مبتورتان في حرب الدردنيل ، الى جانب فقد احدى عينيه ، وذراعه صناعية كساقه وعينه ، لا يؤذيها الرصاص اذا اخترقها .

لقد حسب المجاهدون أن رصاصهم قتل الجنرال، وقد رأوا قبعة المرافق القتيل تسقط من السيارة فحملوها ، وأطلقوا لجيادهم الأعنة ، وتفرقوا ، فسلك بعضهم طريقاً غير طريق اخوانه تجنباً لمطاردة الفرنسيين . وقد تعرفت في الثورة السورية الى بعض افراد هذه العصابة الباسلة، عرفت منهم محموداً ابا دياب البرازي الذي كان ممن يعتمد عليهم المجاهد احمد مريود في اعمال الوطنية العنيفة

ومن أفراد هذه العصابة الباسلة محمود حسن وعارف احمد وغيرهم .

لقـــد نكل الفرنسيون بالقرى التي مرت بها العصابة ، ودمروا الدور والمساكن ، وفرضوا الغرامات الباهظة على الأهلـــين ، وأحرقوا ، ونهبوا ، وملأوا السجون بالأبرياء ، حتى بالاطفال والنساء ، وساموهم سوء العـــذاب ، ونكلوا بهم أبشع تنكيل .



الفصل الثالث

ثورة سلطان الاولى

١٧

ونشبت في عداد تلك الثورات ثورة سلطان الاطرش الاولى ، ففي عام ١٩٢٢ ، أي بعد انقضاء نحو عام على حادث الجنرال غورو في الجولان ، لجأ أدهم خنجر أحد الملاحقين من قبل السلطات الفرنسية ، والصادر عليه حكم بالموت من المحكمة العسكرية الفرنسية ، إلى جبل الدروز ، قاصداً منزل سلطان الاطرش ليحتمي به ، ويسهل له صاحب البيت الفرار إلى شرقي الاردن. ووصل أدهم إلى « القريّة » ، بلدة سلطان ، واجتاز طرقاتها في وضح النهار ، ملثماً على صهوة جواده ، بزي يختلف عن زي الدروز سكان الجبل ، مما لفت نظر رجال مخفر الدرك في القرية ، فلحقوا به ، واعترضوا سبيله ، وهو يترجل عن جواده أمام بيت سلطان الاطرش ، وعرفوا هويته ، وكان اسمه عندهم في عداد الملاحقين من قبل السلطة الفرنسية ، وقادوه الى المخفر ، ومن هناك أرسلوه مخفوراً الى بلدة « صلخد » حيث تسلمه ضابط استخبارات القضاء ، وزجه في السجن ،

ريثما يهيء سوقه مخفوراً الى السويداء مركز حكومة جبل الدروز المستقلة .
وأدرك أدهم خنجر انه مقضي عليه ،فارسل بطريق احد موظفي سجن «صرخد»
رسالة الى سلطان الاطرش ، وكان هذا ساعة القبض على ادهم غائباً عن بيته في
السويداء، فلما عاد في المساء وجد رسالة ادهم يستنجد به فيها ، ويقول انـــه
قبض عليه وهو على باب دار سلطان ،وانه بحكم العرف والعادة والتقاليد العربية
يعتبر جاراً لاجئاً الى حماه،وان في القبض عليه بهذا الاسلوب خرقاً لجوار صاحب
الدار المسؤول عنه أمام الله والتاريخ ، فتوجه سلطان في صباح اليوم الثاني مع
عشرة فرسان من اخوته ورجاله الى صلخد ، وقابل ضابط المضالح الخاصـــة
الفرنسي ، واحتج على القبض على أدهم خنجر من أمام باب داره ، وأن ذلك
يعـــد خرقاً للتقاليد والعادات الدرزية الـــتي نصت الاتفاقية بين فرانسة
وزعماء جبل الدوز على مراعاتها ، فلما قـــال له الضابط الفرنسي : « ولكن
أدهم خنجر محكوم عليه بالموت من قبل المحاكم العسكرية » ، رد عليه سلطان
بانه حسب التقاليد المرعية مسؤول عنه وعن حمايته ، مها كانت جريمته ، ولو
كلفته حمايته بذل روحه ، وان في القبض على أدهم خنجر أمام باب داره ، وفي
بلده خرقاً للاتفاقية المعقودة بين فرانسة والجبل ، ووصمة عار ستلحق به مدى
الحياة ، لا يمحوها إلا الدم أو تسليم السجين اليه ، وإنـــه لا يبرح صلخد إلا
والسجين معه ، ولما اعتذر له المستشار بأن السجين أرسل إلى الكابيتن «كاربيه»
المستشار الفرنسي في السويداء ، وانه عاجز عن ان يلبي طلبه ، قصد سلطان
وجماعته السويداء ، وقابل فيها « كاربيه » مستشار حكومة جبل الدروز ،
وتحدث اليه نفس الحديث ، ولكن « كاربيه » رفـــض بشدة تسليم السجين،
وقال انه شقي مجرم حكمت عليه المحاكم الفرنسيـــة بالموت ، وصدق المفوض
السامي حكمها ، وانه لا يقر بان في القبض عليه خرقاً لاتفاقية جبل الدروز
مع فرانسة ،وانه سيرسله محروساً الى دمشق ،فهدد سلطان بانه سيمنع بالقوة نقله الى
دمشق ، وخرج من لدن المستشار غاضباً ، وتوجه فوراً مع جماعته الى طريق
السويداء — ازرع ، باعتبارها الطريق الوحيدة المعبدة الى حوران ودمشق ،

ورابطوا فوق رابية تشرف على الطريق من جانبيها حتى لايفوته نقل السجين اللاجىء الى جواره ، ويعمل على انقاذه بالقوة من ايدي آسريه .

اتصل « كاربيه » هاتفياً بالامير سليم الاطرش حاكم جبل الدروز الذي كان يقضي أكثر أوقاته في منزل له في دمشق ، ودعاه للحضور الى السويداء ليحول دون الصدام بين فرنسة وابن عمه سلطان ، فجاء على جناح السرعة ، وتوقف قرب السويداء يقنع سلطاناً بان يكف عن المقاومة والعنف ، وألا يعرض نفسه لنقمة فرنسة التي يصر ممثلها على إرسال أدهم خنجر إلى دمشق ليلقى عقابه القانوني ، وأصر سلطان على ألا مقام له بعد اليوم في جبل الدروز إن لم يغسل بالدم وصمة العار التي لحقت به أمام مواطنيه . وكان « كاربيه » ممثل السلطة الفرنسية في الجبل أطلع رؤساءه في دمشق وبيروت على المشكلة التي أثارها سلطان ، فوجهت قيادة الجيش في دمشق سيارتين مدرعتين من حوران إلى السويداء لنقل أدهم خنجر ، وتأديب سلطان الاطرش وجماعته في حال تعرضهم للسجين . ولما أطلت المدرعتان قادمتين من جهة ازرع ادرك سلطان الاطرش انها قادمتان لضربه ، فانتخى وانتخى إخوانه أمامه ، وهي عادة عربية أصيلة يثير بها المنتخون حماسة بعضهم بعضاً ، حتى يصبحوا في هياج نفساني يتحدون به الموت ، واندفع سلطان وفرسانه العشرة بعد النخوة نحو المدرعتين اللتين أخذتا تطلقان رشاشيها ومدفعيها على المغيرين دون جدوى ، حتى بلغ الفرسان المدرعتين ،وقرعوا صفائحها بسيوفهم وبنادقهم ،واطلقوا النار من ثقوب احداهما وثغراتها فقتلوا الضابط والجنود فيها وعطلوها ، وفرت المدرعة الثانية نحو ازرع ، وهي تطلق النار لتصد عنها غارة المغيرين ، وعاد سلطان وعصبته إلى الرابية يرابطون فوقها ، ويصرون على قطع الطريق . وبلغ القيادة الفرنسية في دمشق مصير المدرعتين ، فأرسلت طائرة الى السويداء نقلت السجين أدهم خنجر بطريق الجو إلى دمشق ، وبلغ الخبر مسامع سلطان ، فقال : « لا حيلة لنا بالسماء .. أما في الارض فإننا مستعدون لبذل أرواحنا في سبيل كرامتنا ! » ، ثم انصرف مع رفاقه الى بيوتهم ، ولم تلبث فرنسة ان جهزت حملة عسكرية

قوية ، وجهتها للقبض على سلطان وجماعته ، فخرجوا من القرية ، واخذ سلطان يطوف بهم قرى المقرن الجنوبي ، يستحث الدروز على الثورة ، ولكن الناس كانوا الى ذلك الحين لم يشعروا بوطأة الاستعمار الفرنسي ، فلم تلق دعوته آذاناً صاغية ، وبلغت الحملة « القريّة » ، ونسفت منزل سلطان الخالي من أهله بالمتفجرات ، ثم سارت تتعقب آثار سلطان ، فيلجأ يوم تتكاثر عليه القوى الى بادية شرقي الاردن ، ينزل منها منازل شتى ، في الازرق ، وفي الاراضي الوعرة ، على مقربة من خرائب « أم الجمال » ، لا يبعد كثيراً عن حدود الجبل ، فترسل فرنسا الى بريطانيا حليفتها في شرقي الاردن تطلب منها ان تساعدها على سلطان الاطرش ، وتقبض عليه ، وتحول دون لجوئه الى أراضي الاردن . وتقوم قوة من الجيش الاردني بمباغتة الأماكن التى يرتادها عادة سلطان ، ولكنها في كل مرة كانت تخفق ، لأن بين ضباط الجيش الاردني عرباً كانوا يجدون الوسيلة لإبلاغ سلطان بحركات القوة المسيرة لمطاردته ، قبل وصولها ، ويخبروه باتجاهاتها ، فيروغ عن طريقها ، أو يلجأ الى أراضي جبل الدروز ، ويقوم بغارة مفاجئة على المخافر الفرنسية ، يقتل من رجالها وضباطها ، ويعود الى اراضي الاردن . ومن هؤلاء القتلى الضابط الفرنسي « لاكسان » ، حتى ضاقت فرنسا ذرعاً بثورة سلطان ، على قلة عدد رجاله ، واضطرت لان تبحث مع الامير سليم الاطرش حاكم الجبل وابن عم سلطان أمر العفو عنه وعن جماعته ، لقاء تعهد منه بأن يقيم في الجبل هادئاً ، وأبدت استعدادها للتعويض عما أصاب داره من خراب على يد قواتها . واسفرت وساطة سليم الاطرش عن إعلان العفو عن سلطان في عيد الخامس من شهر نيسان عام ١٩٢٣ ، وهو عيد الاستقلال من اعياد جبل الدروز الرسمية ، اعتاد ان يحضره احياناً المفوض السامي بنفسه .

عاد سلطان الاطرش الى « القرية » بلدته ، بعد نضال استمر بضعة أشهر ، ولم يشأ ان يعيد بناء داره ، فقد اكتفى باصلاح غرفتين فيها لإقامة عائلته ، واقام أمام الدار الخربة مكاناً صيفياً للضيوف سقفه بأغصان الشجر والحصائر ،

كأنه كان ينظر بعين الغيب الى ان الثورة الكبرى ضد فرنسا لا بد منها ، وانها باتت قريبة ، وان ليس من المنطق لثائر مثله ان يبني اليوم داراً لتنسفها فرنسا بعد حين ، من جديد بالمتفجرات .

لم تطل حياة الأمير سليم الاطرش حاكم جبل الدروز ، بعد عودة سلطان الى الجبل ، فقد مات ، بعد حين ، وهو في ذروة رجولته ، وقيل ان الفرنسيين دسوا له السم ليتخلصوا من عهد قطعوه على انفسهم في الاتفاقية التي عقدوها مع زعماء الجبل في بيروت ، قبل عدوانهم على سوريا الداخلية واحتلالها .

فرنسا سالمت الدروز

-١٨-

وجدير بالذكر ان الفرنسيين ، يوم كانوا يخططون في بيروت لاحتلال سوريا الداخلية ، كانوا يحسبون حساباً لمقاومة الشعب في جميع المناطق السورية ، وخاصة في المناطق المسلحة كجبل الدروز والمحافظات الآهلة بالعشائر ، فأوفدوا عملاءهم وجواسيسهم يدعون سراً الى بيروت زعماء جبل الدروز ، وشيوخ العشائر العربية النافذين في قومهم ، فمن وفد منهم اكرموا وفادته ، وملأوا جيبه بالأصفر الرنان ، وطلبوا منه ان يكون الى جانبهم في حال تنفيذ صك الانتداب الذي أقرته عصبة الامم ، وشمل سوريا ولبنان ، ووكل أمر الانتداب على سوريا ولبنان الى فرنسا . ولما كان لا بد لزعماء الجبل من ان يتدارسوا مثل هذا الموضوع فيما بينهم ، على ضوء مصير جبلهم ، فقد اتفقت كلمتهم على ان يطلبوا من فرنسا عقد اتفاقية معهم ، تضمن لجبلهم بعض الحرية في ظل الانتداب الفرنسي ، الى جانب حقهم في ممارسة عاداتهم وتقاليدهم ، وان تبقى لهم حرية اقتناء السلاح وحمله دفاعاً عن أنفسهم ضد عدوان جيرانهم سكان حوران الذين

بينهم وبين الدروز عداوة تقليدية ، وضد عدوان عشائر البادية ووعرة اللجاة المجاورة . وان يكون حاكم الجبل منهم ، ينتخبونه حسب عاداتهم وتقاليدهم ، فلبت فرنسا الطلب ، ووقع المفوض السامي مع عدد من زعمائهم اتفاقية اعترف فيها باستقلال جبل الدروز في ظل حاكم من ابنائه ، وان ترعى فرنسا عادات وتقاليد الدروز الى آخر المطالب . ولما غزا الجنرال غورو سوريا الداخلية ، وقوض استقلالها ، وطرد ملكها ، وحل جيشها ، وفرض الانتداب عليها ، غادر الملك فيصل واحرار سوريا دمشق الى فلسطين وشرقي الاردن ، بطريق حوران ، مما أثار نفوس الحورانيين ، فقاموا بمظاهرات مسلحة ضد الغزو الفرنسي ، لم تهدىء من شدتها المنشورات التي القتها الطائرات الفرنسية على حوران ، وما فيها من انذار وتهديد بالحرب والتدمير ، فتقدمت وزارة علاء الدين الدروبي التي ألفها الفرنسيون في دمشق اثر احتلالهم ، بأن يذهب وفد منها الى حوران ناصحاً الأهلين بالهدوء والسكينة ، فغادر الوفد المؤلف من علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء ، وعبد الرحمن اليوسف ، وعطا الايوبي الوزيرين في الوزارة الدروبية دمشق بقطار خاص الى حوران ، ولما بلغوا محطة « خربة الغزالة » ، وكان خبر وصول اول قطار فرنسي من دمشق سبق القطار ، انهال الأهلون على القطار بالرصاص ، وهاجموه ، وقتلوا علاء الدين الدروبي ، وعبد الرحمن اليوسف ، ونجا عطا الايوبي من القتل ، إذ أنقذه أحد اصدقائه من زعماء حوران ، وجر الثوار جثة الوزيرين في أرض المحطة ، وأخفى الزعيم الحوراني عطا الايوبي في بيته ، وسهل له سبيل العودة الى دمشق ، واضطرت فرنسا ، بعد هذا الحادث ، الى تجريد حملة كبري اخضعت ثورة حوران ، وشعر الحورانيون ، خلال زحفها ، ان أكثر زعماء جبل الدروز موالون لفرنسا ، وانهم غير راضين عن ثورة حوران ، بل قيل ان هؤلاء الزعماء اعدوا جموعاً من المسلحين على حدود حوران ، تحت ستار حماية جبلهم من الحوارنة الثائرين ، مما عجل في قمع ثورة حوران ، واتضح ان هناك اتفاقية بين ممثلي جبل الدورز وفرنسا ، عين الامير سليم بموجبها حاكما على الجبل ، وعين الى جانبه الكابتن « كاربيه » كمستشار ومعاون للحاكم .

تراجع فرنسا عن اتفاقيتها

ولما مات الأمير سليم الأطرش شمر الكابتن « كاربيه » لسلب الدروز حق تعيين الحاكم منهم ، بطريق التآمر والدس . وكان الترتيب في تنظيم الزعامة في جبل الدروز ، ان يخلف الامير حمد الاطرش من دار « عري » نسيبه الامير الراحل ، وان ينتخب من قبل المجلس الإداري الممثل لمقاطعات الجبل وعائلاته الكبرى حاكماً على الجبل ، لأن دار آل الاطرش في قرية « عري » فيها زعامة آل الأطرش السياسية ، وآل الاطرش فيهم الزعامة على الجبل كله . وقد أطلقوا على سليم الاطرش يوم عين حاكماً لقب أمير ، وسميت دار « عري » دار الامارة ، في حين ليس في آل الاطرش امراء ، والامارة على الدروز في آل ارسلان وحدهم ، كما هو معروف بينهم .

شمر كاربيه لسلب منصب الحاكم من الدروز ، فاستدعى فوراً بعض كبار آل الاطرش ، وقابل كل واحد منهم على انفراد ، وقال لعبد الغفار الاطرش كبيرهم في السن ، لماذا يكون الامير حمد الاطرش الشاب الغر حاكماً على الجبل ، ولا تكون انت عميد العائلة الحاكم العاقل الرزين الذي ترغب فرنسا في ان تتعاون معه . ولما تحدث عبد الغفار عن تقاليد الجبل في الزعامة ، وحصرها بدار « عري » قال المستشار ان هذا شيء سخيف ، وان الاتفاقية بين زعماء الجبل وفرنسا تنص على ان يكون الحاكم من ابناء الجبل فحسب ، وليس فيها اشارة الى زعامة دار « عري » ، وفرنسا غير مقيدة بتقليد يأتي بيافع غر إلى منصب الحاكم ثم استدعى إلى مقابلته عميد آل عامر زعماء المقرن الشمالي ، وهم في العدد ، وامتداد القرى والارض ، أكثر من آل الاطرش ، وخلا به ، وسأله لماذا لا يكون هو حاكماً على الجبل ، وعائلته أكثر عدداً من آل الاطرش ، وقراها أوسع من قرى آل الاطرش ، وسخر ايضاً من التقاليد الموروثة ، وتعلل بالاتفاقية ، ورغبة فرنسا في ان يكون الحاكم هو ، وانها الفرصة السانحة لأن

تنقل الزعامة لآل عامر ، وهم أكبر عائلة في جبـــل الدروز . وهكذا بذر «كاربيه » بذور الخلاف بين آل الاطرش انفسهم ، وبينهم وبين آل عامر ، وخلق منافسين للأمير حمد على منصب الحاكم ، وظن كل واحد قابله «كاربيه » أنه الأثير لدى فرنسا . وبدا اثر هذه المؤامرة في الاجتماع الاول الذي عقد لتسمية خلف للحاكم الراحل ، فقد تبدى اختلاف الرأي في المجلس التمثيلي ، وتشعبت الآراء ، لان لكل واحد انصاره ، فاغتنم « كاربيه » الفرصة ، واقترح تأجيل الموضوع بسبب الخلاف في الآراء ، وتعيينه وكيلاً للحاكم حتى تتفق الآراء على الحاكم الجديد ، فظن كل واحد من الطامعين ، بأن التأجيل في صالحه ، واقر التأجيل ، واقر تعيين كاربيه وكيلاً للحاكم ، إذ لا بد للجبل من حــاكم ، ومن الخير أن يكون الوكيل اجنبياً كحيادي بالنسبة لمنصب الحاكم الذي لا بد ان يملأه واحد من ابناء جبل الدروز تتفق عليه الكلمة . واستغل ، بعدها ، كاربيه سلطتــه كحاكم للجبل ، في اضرام نار الخلاف بين زعمــاء الجبل ، حتى اصبح المجلس لا يجتمع إلا على خلاف ، تطور حتى بلغ حد تبادل الشتائم ، والمهاترات ، والتهديد بالحرب الاهلية بين الدروز بسبب خلافهم المستعصي على منصب الحـــاكم . وأوحى كاربيه الى من كانوا يخشون تطور الخلاف ان يقترحوا تعيين وكيل الحاكم اصيلاً ، باعتباره الحل الأفضل ، فكان له ما أراد ، وعين بالاكثرية حاكمـــاً اصيلاً ، وانتزع هذا الحق من الدروز ، وأحاط دار عري بجيش من الجواسيس ، ووجه اليها عملاءه ، باعتبارها دار الامير حمد صاحب الحق في المنصب السليب ، واخذ يضطهد أنصـــاره ، وكل من يزوره في الدار محتجاً على سلب حقه في منصب الحاكم ، حتى لم ينج أحد منهم من الوعيد ، والضغط ، والتهديد ، ثم الاعتقال والسجن ، بل السجن الفظيع في أقبية دار الحكومة التي تستخـــدم كمستودع للفحم الحجري والوقود الذي يستهلك في تدفئة الدوائر الرسمية ، عدا سوق السجناء الى تكسير الحجارة في الشمس المحرقة على الطرق المقرر تعبيدها ، ومجاري المياه المقرر إصلاحها . وقد أذل « كاربيه » بظلمه الرؤوس التي وقفت الى جانب الحق ، وأرهب بها سائر أبناء الجبل ، حتى فرض على القرى ان تهب

باعلامها وطبولها تنتظر الساعات الطويلة، والنهار والنهارين، في الشمس المحرقة، وفي المطر والبرد، لاستقبال ضابط، او ضابط صف فرنسي، فيما اذا كان مكلفاً بالسفر بمهمة الى احدى جهات الجبل. وكانت مهمة المستقبلين ان يهزجوا ويهتفوا ويرقصوا في استقبال كل موظف فرنسي مهما كان شأنه. وقد اطمع هذا الوضع كاتباً فرنسياً زار جبل الدروز بأن وصف أبناء معروف الاشاوس رقاصين، هازئاً بالدولة العثمانية التي كانت تخاف ثوراتهم عليها، وأكد ان شعباً هذه حاله، هو أبعد الشعوب عن الثورة، وأسلسها قياداً للحاكم القوي!

وكانت فرنسا، منذ احتلال جيوشها سوريا، خططت برامجها الاستعمارية حسب يقظة السكان ووعيهم في المناطق السورية، فوجدت أن تنفيذ برامج شبيهة باستعمار الجزائر، يمكن تحقيقها في منطقتي جبل الدروز، واللاذقية التي تسكنها اكثرية من الفلاحين العلويين المتخلفين في العلم والثقافة، فأنشأوا في جبل الدروز بعض المدارس الابتدائية الرسمية، جاءوا لها بمعلمين من لبنان نصارى مارونيين، وحملوا القرى على انشاء المدارس الابتدائية الأخرى ينفق عليها السكان أنفسهم، وعهدوا إلى اليسوعيين بإدارتها، هذا بالاضافة الى مدارس مماثلة أحدثت في حوران ومنطقة العلويين. وكان خريجو هذه المدارس يمنعون من اتمام دراستهم في المدارس السورية. وكان التلاميذ يتعلمون، على أيدي الآباء اليسوعيين الديانة المسيحية وجغرافية فرانسا بالفرنسية. وكان في كتب التاريخ التي تدرس تشويه للتاريخ العربي، وكذب، ومزاعم أن أصل الشقر من سكان جبل الدروز وجبال اللاذقية غاليون وصليبيون، كقولهم في تلك الكتب: «كان أجدادنا الغاليون شقر الشوارب!» ومثل هذه الكتب كانت تدرس في الجزائر وسائر بلاد المغرب العربي، وتوحي للنشء العربي أن أجدادهم من الغاليين الذين هم في نفس الوقت أجداد الفرنسيين. ولم ينشىء الفرنسيون في منطقتي جبل الدروز والعلويين مدارس ثانوية كاملة، بل ان أعلى مدرسة أحدثوها كانت دون الاعدادية صفوفاً يتخرج منها طلاب فقدوا الإيمان بدينهم وقوميتهم، ناقصو الثقافة، نصف جهلة، لا يعرفون شيئاً من تاريخ بلادهم وأمتهم العربية،

يهزءون بامجادها ، ويكبرون كل ما هو فرنسي ، وكل ما تقوم به فرانسا . وكان هم فرنسا في هذه المناطق أن تخرج جيلاً متفرنجاً جاهلاً تستخدمه في أهدافها الاستعمارية التي ترمي إلى تنصير وفرنجة السكان أسوة بما صنعته في الجزائر .

وهذا لا يعني أن الحكم الفرنسي في الدولة السورية التي انبثقت في مطلع عام ١٩٢٥ من ادماج دولتي حلب ودمشق كان أخف وطأة أو يرمي إلى هدف آخر ، فقد كان نمطاً آخر ، لأن الشعب في المدن السورية الداخلية كان على جانب من الثقافة والعلم ، وفي دمشق جامعة سورية تخرج الأطباء والصيادلة والمحامين والقضاة ، لذلك كان لا بد لفرنسا من أن تجرب نمطاً آخر من البرامج في الحكم ، اذ وضعت برنامج لفرنجة النشء على مدى أطول ، . انها لم تستطع الغاء المدارس القائمة ، ولكنها أخضعتها لبرامجها وسلطانها ، ونسفت في البرامج كل ما هو عربي واسلامي كالتاريخ والاجتماع ، وأحلت محله تاريخ فرنسا ولغتها وأدبها وجغرافيتها حتى يتخرج الشاب متفرنجاً يجهل تاريخ أمته وأمجادها ، وآدابها وثقافتها . حتى القضاء كانت فرانسا تتدخل بشؤونه ، مع ان جميع دساتير العالم صانته من التدخل . وأذكر بهذه المناسبة أن القومندان « ترانكا » رئيس المصالح الخاصة في دير الزور مركز متصرفية الفرات ، عز عليه أن يصدر حكم بالسجن من محكمة الجنايات على عميل من عملاء فرنسا سجين ، ثم يصبح الحكم مبرماً ، فاستدعى النائب العام إلى مكتبه ، وأمره باطلاق سراح المحكوم عليه بالسجن سنوات ، فاعتذر النائب العام باستحالة تنفيذ أمره لأنه مخالف للقانون ، وإن كان لا بد له من اخلاء سبيل السجين ، فليسع لدى المفوض السامي والحكومة باستصدار عفو خاص عنه ، ولكن المستشار أصر على اطلاق سراح السجين ، وأمهله يوماً واحداً ريثما يتخذ الاسباب لإخلاء سبيله . وفي اليوم الثاني عاد اليه النائب العام يحمل بيده قانون العقوبات مجلداً ، وأطلع المستشار الفرنسي على المادة التي تنطبق على جرم المحكوم عليه ، والتي حكم بموجبها بالسجن سنوات ، ليثبت له أن الحكم كان قانونيا على السجين ، فأمسك المستشار بالكتاب ، ومزق بيده الورقة التي فيها المادة القانونية ، وقال له : « أعتبر الآن هذه المادة غير

موجودة في قانون العقوبات ، وأطلق سراح السجين فوراً . ولما لم يقنع النائب العام ، أرسل المستشار عدداً من الجند الفرنسي على رأسهم ضابط أطلق سراح السجين بالقوة ، وحراس السجن المدني من رجال الدرك يشاهدون ذلك بأعينهم دون ان يستطيعوا منعهم .

وحادث آخر على غراره جرى في بلدة الرقة مركز القضاء ، إذ كان في هذا القضاء الواسع محكمة بداية . وكان الاستاذ عادل حتاحت من شباب دمشق يتولى وظيفة قاضي التحقيق « المستنطق » في هذه المحكمة . ووقعت جريمة قتل في « تل أبيض » ، وهي ناحية تابعة لقضاء الرقة ، أسفر التحقيق فيها عن توجيه التهمة الى تركي لاجىء في بلدة « تل أبيض » يستخدمه الفرنسيون في أغراضهم ضد تركيا ، فيما إذا ساءت علاقاتهم بجارتهم . ونقل التركي الى سجن الرقة ، بعد ان أصدر قاضي التحقيق مذكرة بتوقيفه . وجاء ترجمان رئيس المصالح الخاصة في الرقة ، إلى قاضي التحقيق يطالبه بإسم المستشار إخلاء سبيل المتهم باعتباره صديق فرانسا ، فاعتذر القاضي بأن ليس في القانون مادة تستثني أصدقاء فرنسا من أحكامه ، وذهب الترجمان وعاد ، والمستشار يصر على إطلاق سراح المتهم ، والقاضي يرى أن القرائن في الجريمة توجب اتمام التحقيق مع المتهم موقوفاً . وأخيراً نفد صبر المستشار ، فجاء بنفسه الى دار الحكومة ، وفيها السجن المدني ، ووراءه عدد من جنده الحرس السيار مسلحين ، وأخذ مفتاح السجن من يد السجان ، وأخرج السجين ، وقاده بيده إلى غرفة المستنطق ، وقال له : « لقد أخليت سبيل صديقي ، كما ترى ، فإن كنت رجلاً حقاً أعده إلى السجن ! » فرد عليه الاستاذ حتاحت : « لو كان بيدي رشاش لما استطعت أن تخلي سبيل مجرم ، وتخرق القانون ! ».

غرامة على السويداء من أجل هرة !

استمر كاربيه في ارتكاب المظالم وتفريق كلمة زعماء الدروز ، وزاد من ألم

أحرار الجبل أن هذا الضابط الفرنسي كان مأفوناً يتناقل الناس من حوادثه ما يندى له الجبين . وبلغ الأمر في عهده أن الملازم الفرنسي « موره ل » أضاع هرة كان يقتنيها في بيته ، ووجه منادياً في السويداء يطلب ردها ، ولما يئس فرض « كاربيه » حاكم الجبل على أهل السويداء عشر ليرات ذهبيــة غرامة ، لأنهم لم يردوا للضابط الفرنسي هرته . وهكذا شعر الدروز بوطــأة الاستعمار ، شعور أخوانهم سكان المناطق الاخرى ، وادركوا ان نصوص الاتفاقية المعقودة بينهم وبين فرنسا اصبحت حبراً على قصاصة ورق ، لانها أبرمت بين فريقـــين غير متكافئين ، قوي وضعيف ، وفطنوا لقول « مندا » : « لا قيمة في السياســة للاعترافات ، ولا للمعاهدات ، فكل من القوة والمصلحة تعقد المعاهدات ، وكل من القوة والمصلحة تنقضها » ، واخذ زعماؤهم ، في ترددهم على مدينة دمشــق يتصلون بالوطنيين فيها ، ويحدثونهم بما يجري في جبلهم من المظالم ، وبالاستياء الشديد الذي يعم الجبل ، ويسود الشعب . وهكذا جمعت المصائب بين أخوان كانوا قبل أربــع سنوات ، لا يتقابلون ، ولا يتناجون حول وضع وطنهم . كان كل منهم يعمل في سبيل. فريق يحسن الظن بفرنسا المستعمـــرة ، ويحسب انه سيرتع في ظل استعمارها بالعيش الرغيد ، واذا به يدرك اخيراً ان الاستعمار لا يسلم أحد من شروره ، وانه جاء ليسلب الجميــع لقمتهم ، ويتحكم بمقدراتهم ، ويعبث بمصائرهم ، وفريق كان يعرف ذلك من قبل ، ويدعو الى مقاومة الاستعمار وخططه .

كانت البلاد السورية الى ذلك الحين رأت عدداً من المفوضين السامين . كانت جربت في مطلع عهد الاستقلال حكم الجنرال « غورو » الذي اعتبر احتـــلال سوريا استئنافاً للغزو الصليبي ، بعد ان قضت عليه في الشرق انتصارات البطل صلاح الدين الايوبي . ثم خلفه الجـــنرال « فيغان » . وفي عهده ، وعلى وجه التحديد ، في أواخر عام ١٩٢٤ ، أُلغي الاتحاد بين دول دمشـــق ، وحلب والعلويين ، وحل مجلس الاتحاد الذي كان يجتمع في دمشق ، وجرى إدماج دولتي

دمشق وحلب تحت اسـم الدولة السورية ، الى جانب دولة لبنان الكبير ، وحكومتي جبل الدروز ، والعلويـين ، ولواء الاسكندرونة المستقل . وكانت البلاد تتلهف الى وحدتها واستقلالها ، وتطالب ، في كل مناسبة ، بهما ، ويقاطع الوطنيون ، ومن ورائهم الشعب ، الخطط التي تضعها فرنسا الدولة المنتدبـة ، وتعتبر الانتداب نفسه غير مشروع ، لانه فرض فرضاً على الشعب .

وكان هذا الشعب استفتي عام ١٩١٩ في مصـيره من قبل لجنة « كراين » الدولية ، فأبـدت اكثريته الساحقة رغبتها في الاستقلال التام الناجز ، وقالت انكان لا بد من دولة تسدد خطوات الشعب السوري في بدء ممارسته استقلاله ، فلتكن الولايات المتحدة الامريكية ، أو بريطانية إذا رفضت الاولى ، على ان تكون مساعدتها فنية بحتة لا تمس جوهر الاستقلال . لقد تضمن تقرير لجنـة كراين الامريكية المطالبة بتحقيق رغائب السكان ، على اعتبار الشام قطراً واحداً مستقلاً تاماً ، تساعده دولة اجنبية — سميت امريكا ، وإلا فانكلترا — مساعدة مالية وفنية ، وان تكون دولة ملكية دستورية ديمقراطية لا مركزية، على رأسها فيصل بن الحسين ملك الشام ، وعلى ان يكون للبنان ادارة لا مركزية واسعة (استقلال داخلي) ، وعلى ان تحدد الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ويقلع عن فكرة تهويدها ، وعن إقامة حكومة يهودية فيها .

كانت خيبة الشعب العربي في سوريا بالعـدل الدولي شديـدة ، يوم رأى جيوش فرنسا تحتل بلاده ، وتقوض دعائم استقلاله، وتجزىء أراضيه الى دويلات تحكم بعضها فرنسا ، وتحكم بعضها بريطانيا باسم الانتداب ، وباسم عصبة الأمم ، لذلك لم يبق له من طريق غير الثورات المسلحة ، والمقاومة السلبيـة يوم يفتقد السلاح . ولما كانت الثورات التي نشبت كلها محلية ، تخمد في منطقة لتشتعل في أخرى ، حيث توجه فرنسا اليها جيوشها لتخمدها وتقضي عليها، أصبح الشعب يتشوق الى ثورة كبرى شاملة تنهك فرنسا ، وترغمها على الاعتراف باستقلاله ، والجلاء عن أراضيه . وزاد في ايمان الشعب بجدوى هذه الثورة ، ما عرفـه عن

ثورة الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف في المغـــرب الاقصى ، وكيف طردت قواته الثائرة الجيش الاسباني ، وألزمته الثغور يحميها بأساطيله الحربية وحصونه وقلاعه ، حتى كادت اسبانيا تسلم باستقلال الريف، وترحل عن المنطقة التي احتلتها ، لولا ان بادرت فرنسا الى مساعدتها ، خشية ان يؤثر انتصار الثورة في الريف على استعمارها في المغرب، فصمدت الثورة للدولتين المستعمرتين، وانزلت بجيوشها الخسائر الفادحة في بادىء الامر ، حتى اضطرت فرنسا لان تنقل قوات أخرى من وراء البحـــار ، وخاصة من سوريا ، للقضاء على ثورة المغرب ، ولم يبـــق من جيشها في سوريا ولبنان أكثر من عشرين الف جندي ، اكثرهم من المتطوعة المحليين ، أسمت كتائبهم في سوريا : « الجوقة السورية » ، وفي لبنان : « القناصة اللبنانية » ، الى جانب الحرس السيـــار بقيادة ضباط الاستخبارات ، او ضباط المصالح الخاصة ، وعددهم نحو ستين ضابطاً . وكان الواعون من الوطنيين ، وخاصة الشبان الثوريون ، يتتبعون وقائع ثورة الريف، ويتلهفون للفرصة السانحة ، وهي انشغال فرنسا بثورة عربية ، قد تمكن ثورة عربية أخرى تنشب في سوريا من النجاح وبلوغ اهدافها . ورأت فرنســا ان تبدل المفوض السامي « فيغان » ، بالجنرال « ساراي » الذي سبقت اخبـــاره وصوله ، بأنه عسكري يساري ، سيعمد الى تبديل جوهري في أسلوب الحكم في سوريا ، فتنادى الوطنيون السوريون قبيل وصوله الى عقد مؤتمر لهم في بيروت اتخذوا فيه عدة مقررات، في رأسها المطالبة بوحدة البلاد واستقلالها، وحملوا هذه المطالب الى الجنرال « ساراي » أثر وصوله مباشرة ، فاتهمهم بأنهم متطرفون لا يمثلون الشعب ، وان دعواهم تمثيله باطلة ، فردوا عليه بان الاستفتاء والانتخابات الحرة والاعتراف بقيام الاحزاب هي الوسيلة لكسب صفة تمثيـــل الشعب ، وفرنسا منذ احتلالها الى اليوم لم تمكن الشعب السوري من ان يستفتى في مصيره.

السماح بتأليف الأحزاب في سوريا

انتهت المقابـلة بأن قبل المفوض السـامي الجديد بأن يتقـدم اليه الوطنيون بطلب تأليف حزب سياسي ، ولما تقدموا سمح لهم بتأليف حزب واحد سموه « حزب الشعب » ، الى جانب حزب حكومي يضم عملاء فرنسا سمي « حزب الأمة » ، أفسح قيامهما المجال لحركة سياسية تعارفت بسببها القوى الوطنية ، وتكتلت ، واصبح لحزب الشعب فروع في جميـع المـدن السـورية . وكان زعماء الدروز في غدوهم الى دمشق ورواحهم يتصلون بالوطنيين من أعضاء هذا الحزب الجديد ، ويطلعونهم على تطور الأحداث في جبلهم ، ومنها سفر الكابتن « كاربيه » الحاكم الفرنسي ، في أول صيف عام ١٩٢٥ ، بإجـازة ثلاثة اشهر الى فرنسا ، وتسلم الكابتن « رينو » منصب الحاكم في الجبل بالوكالة ، وهو أحد ضباط المصالح الخاصة في سوريا ، وكيف استمع الوكيل الى شكوى الوفود من انحاء الجبل ، واطلع على الظلم الذي أنزله كاربيه حاكم الجبل بضحاياه ، وانهم لم يستطيعوا ، خلال وجود الحاكم على رأس عمله ، أن يوصلوا أي شكوى الى المراجع الفرنسية العليا ، خشية بطشه بمن يتقدم اليها بالشكوى ، وانه الآن ، وهو وكيل الحاكم ، يأملون منه ان ينقل للمسؤولين شكواهم ، وكل ما يرجونه من فرنسا ان تنقذهم من ذلك الحاكم الظالم ، وان تعين مكانه حاكماً فرنسيـاً يطمئنون الى عدله ، فهم قد تخلوا عن حقهم في ان يكون الحاكم من أبناء الجبل ، ولكنهم يريدون ألا يضطهدهم الحاكم الفرنسي ، وألا يذل أعزاءهم ، ويذيقهم الهوان ، وان الوكيل استمع الى شكواهم ، وانها حقة ، وان فرنسا لا تريد ان يرتكب عمالها هذه المظالم ، وان المراجع الفرنسية العليا لو عرفت ذلك لبدلت « كاربيـه » بغيره ، وانصفتهم ، وما عليهم إلا ان يتقدمـوا اليه بهذه الشكاوي عرائض مكتوبة حتى يرفعها الى رؤسائه ليطلعوا عليها ، وان الوفود التي جاءت مهنئة الحاكم بالوكالة بوصوله ، عادت الى مناطقها ، وقدمت الشكاوى معـددة

بالأرقام والاسماء والتواريخ المظالم التي اقترفها الكابتن كاربيه ومعاونوه في جبل الدروز ضد الأهلين، وانهم ينتظرون لهذه الشكاوى صدى لدى كبار الفرنسيين المسؤولين ، وانهم عازمون على ان يقوموا بمظاهرات ، بعد الشكوى ، فيما إذا أصم المسؤولون آذانهم عن سماعها ، فكان الوطنيون في دمشق يشجعونهم على الاستمرار بالشكوى ، والاستعداد للمقاومة ، فيما إذا ركبت فرنسا رأسها ، وأبت ان تبدل سياستها في الجبل ، وان سائر المناطق السورية تتضامن مع جبل الدروز ، فيما اذا تعرض لعدوان فرنسي ، فالشعب السوري كله ناقم يريد ان يتخلص من ذل الاحتلال والتجزئة والطغيان والفظائع التي ترتكب باسم صك الانتداب وعصبة الأمم ، وجبل الدروز هو الجبل العربي الأبي الذي تعددت ثوراته على الدولة العثمانية في إبان قوتها وسلطانها .

الفصل الرابع

ريح الثورة تهب

- ١٩ -

كان لهذه الاحاديث تأثيرها على زعماء الجبل ، وخاصة منهم الوطنيين الذين لم تتلوث أيديهم بقبض الأموال والتواطؤ مع فرنسا على توطيد دعائم استعمارها في سوريا ، في مطلع عهد الاحتلال ، فكثرت مراجعاتهم للكابتن « رينو » وكيل الحاكم ، ينتظرون من رؤسائه الانصاف ، فكان هو بـدوره يشجعهم على الشكوى ، وتكرارها بالمضابط والوفود ، وينقلها لرؤسائه ، ويشير في كتبه الرسمية إلى الاستيـاء الشديد الذي يجتاح الجبل ، والى روح التذمر التي تعم الجميع ، وان من مصلحة فرنسا ان تستمع إلى هذه الشكاوى ، وأن تعمد إلى نقل الحاكم المجاز ، وتعيين حاكم فرنسي مكانـه معروف بالاتزان . وربما كان « رينو » نفسه يطمح ، وهو الوكيل ، الى ان يخلف « كاربيه » في هذا المنصب الخطير ، فقد سلمته الأقدار أن يشغله بالوكالة ، وأصبح بخبرته أحق من غيره في تسلمه أصالة ، لا سيا وهو ضابط استخبارات برتبة نقيب « كابتن » يتساوى مع

« كاربيه » في الرتبة والمهمة ، وجميع من زاره من وفود زعماء الجبل ابدوا سرورهم من وجوده في وكالة الحاكم ، ومن اتزانه ؛ وعدله ؛ واعلنوا انهم سيكونون اشد سروراً يوم يعين اصيلاً في جبلهم .

لقد كان الحكم في سوريا عسكري الصبغـــة ، فالمفوضون السامون الذين تبادلوا السلطان على سوريا ولبنان عسكريون كلهم برتبة جنرال ، ورؤساء الدوائر في المفوضية الفرنسية العليا اكثرهم كانوا من العسكريين ، وضباط المصالـــح الخاصة او الاستخبارات الذين تتمثـــل فيهم سلطة المفوض السامي كلهم من الضباط ، حتى المندوب ، ومعاونو المندوب والحكام في المناطق السوريـة كدمشق وحلب وحمص والاسكندرونة ودير الزور واللاذقية والسويداء كانوا من العسكريين . وكانت المصلحة المشتركة تربط بين هؤلاء ، وتجعلهم كحزب عسكري له في فرنسا انصاره ومؤيدوه ، كيف لا وقد تقادم عهد الاستعمار الافرنسي في المغرب العربي ، وافريقيـا . والشرق الأقصى ، وأصبح رتيبـاً بالنسبة للمستعمرين انفسهم . اما في سوريا ، وهي فتح جديد بالنسبة للاستعمار الفرنسي ، فقد احتلت حديثاً ، وكانت من أغنى المقاطعات في الدولة العثمانية ، تكدس فيها من الذهب والثروات خلال سني الحرب العالمية الاولى ، ما يسيل له لعاب الطامعين ، وأشرنا في هـذه المذكرات الى أن الذهب الذي كان العملة المتداولة في الدولة العثمانية ، وماسك منه حديثاً في سنوات الحرب ، ارسل معظمه ، ان لم نقل كله ، الى البلاد العربية ، وخاصة منهـا بلاد الشام ، لشراء الحبوب ومواد التموين للجيش العثماني وحليفيه الجيش الالماني والجيش النمسوي ، فقد كانت المانيا والنمسة (اوستريا وبلاد المجر) تعانيان في السنوات الاخيرة من الحرب أشد مجاعة بلغت حـد مزج نشارة الخشب بالدقيق ، وأكل لحوم فأر الحقل وكل ما يدب على الارض من حيوان يستسيغه جسم الانسان ، وان كان أكله غير مألوف من قبل ، فلا جرم ان انتقـــل رصيد الدولة العثمانية من الذهب والفضة الى البلاد العربية التي نشبت فيها الثورة ، وفيهـــا اخطر

جبهتين للحلفاء ، وشعبها يأبى التداول بالعملة الورقية ، ويعتبرها غير مضمونة ، وهو يرى الدولة صاحبة النقد في حرب طاحنة خفت فيهـــا موازين النصر بالنسبة لها ولحلفائها . لذلك كانت سوريا ولبنـــان مرتعاً خصباً للفرنسيين المستعمرين ، ينهبون ثرواتهـــا بشتى الأساليب والرشوة ، حتى أصبح من المتفق عليه ، في أسواق فرنسا ، ان يتنبأ التاجر ، عندمـــا يرى سيدة فرنسية تشتري من محلاته دون حساب ؛ بان زوجهـــا موظف في سوريا ولبنـــان . ولذلك اصطدمت شكاوى الدروز ضد الحـــاكم « كاربيه » المجاز بعناد الحزب العسكري المسيطر على مقدرات سورية ، ولاسيا اذا مـــا عرفنا ان كاربيه ، بعد ان اصبح الحاكم المطلق السيد في جبل الدروز ، المسيطر على موازنة حكومة الجبل وثروات اهله ، كان لا يألو جهداً في ارسال الهدايا الثمينة الى رؤسائه في بيروت، الى أصحاب الكلمة النافذةحول المفوض السامي ، يغدق عليهم السيوف العربيـــة ، والتحف الاثرية ، والنماذج من صناعات الجبل اليدوية ، والخيول العربية الاصيلة وغيرها ، حتى ضمن لنفسه التأييد المطلق فيما انتهج من سياسة القهر والبطش في الجبل . ولما انقضى اكثر من شهرعلىالشكاوي العديدة دون جدوى ، خاف زعماء الجبل ان تنقضي اجازة الحاكم الجائر ، وان يعود الى ظلمهم وقهرهم والانتقام منهم ، فتداولوا الامر مـــع « رينو » الحاكم الوكيل، واتفقت الكلمة علىانتخاب وفد يمثل جبل الدروز، يسافر الى بيروت، ويقابل الجنرال « ساراي » المفوض السامي ، ويطلعه على ظلامة سكان الجبل، خشيةان يكون رؤساء دوائره في المفوضية العليا يحجبون عنه شكاواهم العديدة. وهكذا اراد وكيل الحاكم ازاء تصامم رؤسائه عن سماع شكاوي الدروز أن يضعهم امام الأمر الواقع ، فارسل ينبئهم بتأليف الوفد الدرزي وسفره الى بيروت ، ويرجو ان يحظى بمقابلة المفوض السامي لخطورة الاوضاع في الجبل ، وخشية ان ينقلب الاستياء الى ثورة على فرنسة ، فيما إذا عاد « كاربيه » حاكماً على الجبل ، لاسيا والجبل مسلح ، وسكانه عرفوا بتعدد ثوراتهم على الدولة العثمانية .

رغم كل هذا استطاع الحزب العسكري المسيطر في سورية ان يقنع المفوض السامي برفض مقابلة وفد الدروز ، وزينوا له ان مقابلته ستعتبر لدى الدروز الجهلاء ضعفاً من فرنسا التي يجب ألا تفكر قط بتبديل حاكم الجبل ، لأن تبديله في هذا الجو العاصف من الاستياء يسيء الى هيبة فرنسا، ويهدم كل ما بناه مثلها كاربيه في جبل الدروز ، وما بلغه من سيطرة فرنسا على هذا الشعب المتخلف الخشن . وابلغ الوفد الدرزي في بيروت ان المفوض السامي تمنعه مشاغله عن مقابلة الوفد ، فعاد اعضاؤه ، وهم نخبة زعماء الجبل ، والحنق يملأ نفوسهم . ولما بلغوا قرية المزرعة حيث احتشدت الجموع من جميع انحاء الجبل لاستقبالهم ، نزعوا عمائمهم ، وألقوا بها في الأرض ، واعلنوا للألوف المؤلفة انه لم يبق كرامة لجبل الدروز، ولطائفة الدروز، بعد ان طرد زعماؤها من بيروت، وضن عليهم المفوض السامي بساعة من وقته يحدثونه عن ظلامة بني قومهم . وهاج المستقبلون وماجوا لهذا النبأ، وزاد في هياجهم ألقاء العمائم الى الارض ، والخطب النارية التي ألقيت ، وكلها تدعوا الى الثورة على الظلم والاهانة التي لحقت بالجبل الاشم . وسطر رجال المخابرات الفرنسية ما جرى وما قيل في المزرعة ، وارسل « الكابتن رينو » وكيل الحاكم به تقارير مكتوبة ، وبرقيات مستعجلة يحذر رؤساءه. وتتالت الاحداث، فقد وصل في أحد الايام التالية سلطان الاطرش مع عدد من فرسان الدروز، يناهزون المئة ، الى السويداء ، وتظاهروا بالسلاح امام دار الحكومة ، ومكتب وكيل الحاكم ، وهددوا بالثورة ، فيما اذا عاد الكابتن « كاربيه » المأفون حاكماً على جبلهم . ونقل الحاكم الوكيل أنباء هذه المظاهرة المسلحة الى رؤسائه ايضاً ، وانذرهم بشر مستطير ، ولكن الحزب العسكري في بيروت أقنع المفوض السامي بان « الكابتن رينو » وكيل الحاكم متواطىء مع زعماء الدروز ، وطامع في ان يحل محل « كاربيه » ، والا لمنع الشكاوى من اولها ، ولمنع التجمعات في المزرعة ، ومنع القاء الخطب التي أثارت الجماهير ، ولمنع بالقوة ايضاً سلطان الاطرش من أن يدوس بئة من فرسانه حمى فرنسا في السويداء ، ويتظاهروا بالسلاح في اكبر ساحة فيها امام مكتب حاكم

الجبل ، ومكاتب الموظفين ، وعيون الضباط والجنود في حامية السويداء وامام اعين سكان السويداء جميعاً .

وحمل الحزب العسكري المفوض السامي على ان يتخذ تدابير زاجرة لمنع الاضطراب في جبل الدروز ، فلم ينقض يومان على مظاهرة سلطان الأطرش المسلحة ، حتى عززت حامية السويداء في القلعة المطلة على البلدة ، بقوة جديدة وصلت الى السويداء، ووصل معها القوماندان « تومي مارتان » رئيس مصلحة الاستخبارات في دولتي سورية وجبل الدروز ، يحمل امراً بان يتسلم هو نفسه الحاكم بالوكالة ، ويعود « الكابتين رينو » الى وظيفته في دوائر الاستخبارات السورية ، فادرك زعماء الجبل ان الفرنسيين عزموا على استخدام القوة في اخماد روح المقاومة ، ولبثوا يترقبون ما سيقوم به وكيل الحاكم الجديد الذي لم يبادر احد منهم للسلام عليه ، والترحيب بمقدمه ، كما جرت العادة ، بل الترحيب باصغر منه من الموظفين الفرنسيين الجدد عند وصولهم الى جبل الدروز . وبعد وصول القوماندان « مارتان » وردت الى الجبل انباء تشير الى ان الكابتين « كاربيه » قطع اجازته في فرنسة ، وهو عائد بعد بضعة ايام ليتسلم منصبه بالذات ، فقامت مظاهرات في السويداء ، بمناسبة عيد الاضحى ، اعقبها كتاب وجهه وكيل الحاكم الجديد الى كل من زعماء الجبل الذين اشتركوا في الوفد إلى بيروت ، ينبئهم فيه ان الجنرال « ساراي » المفوض السامي وصل إلى دمشق ، وانه حدد موعداً لمقابلتهم في دار المفوض السامي في الجسر الابيض ، فعليهم ان يجتمعوا في السويداء للسفر غداً إلى دمشق ، ومقابلة الجنرال « ساراي » في الموعد المحدد لهم . وقد بادر زعماء الجبل في السفر إلى السويداء ، الا سلطان الاطرش ، فقد انتقل من بلدته « القُريّة » ـ تصغير قرية ـ ، إلى قرية « رساس » حيث اجتمع بابن عمه متعب الاطرش الزعيم السياسي في تنظيمات الجبل التقليدية ، وتبادل معه الرأي حول السفر إلى دمشق ، وابدى خشيته من ان تكون الدعوة خدعة لاعتقال الزعماء ، وفرض حكم الارهاب بعدها في الجبل ، واتفق الاثنان

على ان يلبي متعب الاطرش الدعوة مع باقي المدعوين ، ويتخلف عنها سلطان الاطرش الزعيم الحربي في التنظيم التقليدي ، معتذراً ، بوعكة طارئة ألمت به ، عن السفر مع الوفد . وفي اليوم الثاني وصلت انباء الى الجبل من دمشق تشير إلى اعتقال اعضاء الوفد كلهم ، وابعادهم إلى الميادين في لواء دير الزور ، بينهم الامير حمد الاطرش ، وعبد الغفار الاطرش ، ونسيب الاطرش ، ومتعب الاطرش ، وحسين الاطرش ، وصياح الاطرش ، وحسني صخر قائد الدرك ، وعقلة القطامي من مسيحي الجبل وغيرهم من الزعماء . وكان من بوادر الثورة المسلحة ان أسقط المسلحون الدروز برصاص بنادقهم طائرة فرنسية في اليوم الثامن من شهر تموز عام ١٩٢٥ في قرية « امتان » واعتقلوا طياريها .

مطاردة سلطان الاطرش

كان الفرنسيون يعرفون ان اخطر زعيم على استعمارهم في جبل الدروز هو سلطان الاطرش الذي افلت من قبضتهم ، وسبق له ان ثار عليهم في حادث ادهم خنجر ، لذلك جردوا حملة بقيادة « الكابتين نورمان » ، مؤلفة من ١٦٧ جندياً وضابط صف ، وسبعة ضباط ، منهم ١١١ من الجوقة السورية ، والاصح من الفيلق الثاني في الفرقة السورية بقيادة الليوتنان « هيلم غيزون » ، و ٥٤ فارساً صباحياً (سباهيس) من فيلق الصباحيين المراكشيين الثاني بقيادة « الكابتين ماي » يساعده « الليوتنان كاريار » ، ورافق الحملة « الكابتين فورنيه » الضابط الركن ، والطبيب دي فيربيزيه ، وجوزيف الصايغ الضابط السوري المترجم من الدرجة الثانية ، وضابط وثمانية جنود من الفرسان الدروز ، فانطلقت الحملة يوم ٢٠ تموز عام ١٩٢٥ من السويداء إلى قرية « الكفر » في طريقها إلى « القرية » بلدة سلطان الاطرش ، تحمل معها الامر بالقضاء على سلطان ، بعد التقاط اخباره من شبكات الجاسوسية في المنطقة . وحلت الحملة في كرمة للعنب ، تقع على مرتفع بجانب القرية ، حصنته ، واقامت مضاربها فيه . واقبل الاولاد

من القرية يبيعون الجنود العنب والبيض والدخان وغيرها مما في حوانيت القرية ، فكان الكابتين « نورمان » يتحدث اليهم عن سلطان الاطرش ، ويسألهم عن مقره اليوم ، وانه سيفرغ قريباً كل رصاصات مسدسه في رأس هذا المتمرد على فرنسة !

أما سلطان الاطرش ، فقد بلغت مسامعه انباء اعتقال الزعماء في دمشق ، فأخذ يتهيأ للمقاومة ، بان أبعد عائلته ، أي النساء والاطفال عن بلده ، وخرج بعدد من المسلحين فيهم الفارس والراجل ، وبينهم اخواه مصطفى وعلي ، وتوجه فوراً الى قرى المقرن الجنوبي يثير حماسة الجماهير ، ويدعوهـا الى الثورة ، ويشجب اعتقال زعماء الجبل ، ويدعو للثأر من معتقليهم ، وللوقوف في وجه الحملة الفرنسية الزاحفة الى القرية لمطاردته ، فكان ينضم اليه شجعان المحاربين من كل قرية ، ويتخلف المترددون وهم كثرة . وما انقضت ايام قليلة على نشاطه حتى تجمع حوله مئات من الفرسان والمشاة ، قر رأيهم على ان يتوجهـوا نحو الحملة التي عسكرت في « الكفر » ، ويشتبكوا معها ، ولكن سلطان الاطرش ، وهو المسؤول عن ارواح اخوانه ، وافق على ان يدنو بجماعته من الحملة ، لعلها تعلم بخبره ، فتخرج من حصنها في الكفر ، وتمشي لمطاردته ، وعندئذ ينازلها في المكان الذي يختاره ، دون ان يحسب حساباً لتفوقها على جماعته بالسلاح .

يقول الفرنسيون في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ان المجتمعين حول سلطان الاطرش بلغوا مئتي فارس وخمسمئة راجل ، ولذلك توقف الكابتن «نورمان» عن الزحف على «القرية» بلدة سلطان ، وتحصن في كروم العنب ، وجدرانها ، لعلها تمنعه من هجوم مفاجيء .

اندلاع الثورة ومعركة الكفر

- ٣٠ -

على أن مصادر الدروز تشير الى ان عـــدد الرجال مع سلطان الاطرش لا يتجاوز اكثر من مئتي وخمسين مقاتلاً بين خيالة ومشاة ، قاموا يوم ٢٠ تموز بالدنو من حملة « نورمان » ونزلوا مساء على ماء « عري » القريبة ينابيعها من قرية « عري » مقر الامارة في الجبل ، وهيأوا طعامهم وعلف خيلهـــم على الماء ، وباتوا يتداولون في الخطة التي يجب اتباعها للقضاء على الحملة الفرنسية ، فكان رأي الاكثرية الزحف ، ومهاجمة الحملة في مواقعها دون انتظار ، ولكن سلطان الاطرش كان حريصاً على ان تبقى حماسة إخوانه شديدة ، شريطة الا يجر الى معركة لا يكتب له فيها النصر ، فأي هزيمة تلحق بالدروز في المعركة الاولى تكون عواقبها وخيمة على جبل الدروز كله ، بل على سوريا التي يعرف أن احرارها يترقبون انباء الثورة التي ظهرت بوادرها في جبل الدروز ، وعلى نتائج المعركة الاولى يتوقف اندفاع الدروز جميعاً في تأييـــد الثورة التي عزم على ان يخوض غمارها ، ويكون رمزها وقائدها . وقد اصبح القوم على ماء « عري » ، ولما يستقر لهم رأي على خطة ، فالحملة لم تتزحزح من مواقعها لمطاردتهم على الرغم من قربهم منها ، ووصول أخبارهم لقائدها . ولمـــا توسطت الشمس كبد السماء من آخر يوم في سنة ١٣٤٤ هجرية ، وفق ٢١ تموز عام ١٩٢٥ ، ولم توافهم الحملة المكلفة بمطاردتهم ، هبوا يهزجون بحماسة ، حتى بلغ حداؤهم عنـــان السماء ، واندفعوا في الطريق الى الكفر ، وسلطان يخب بجواده بينهم ، يريد ان يثنيهم عن فكرة الهجوم على الحملة المتحصنة في موقعها المرتفع من الكرمة ، خشية ان تحصدهم بنيرانها الكثيرة ، على وضح النهار ، وفي وقت الظهيرة ، فسلاح الدروز البنادق ، والحملة مجهزة برشاشات ثقيلة وخفيفة ، وقاذفات القنابل ، فضلاً عن

البنادق ، ولكن انى له ان يوقف الزحف، وقد بلغت الحماسة باخوانه حداً جعل المشاة يسبقون الفرسان في جريهم نحو الهدف . ولم تأزف الساعة النصف بعد الثانية ظهراً ، وهو وقت القيلولة ، وابعد مـــا يكون عن تفكير قادة الحملة الفرنسيون في هجوم الدروز ، حتى بلغت سرية المجاهدين الكرم، واندفعت من جوانبه كلها، بغارة مفاجئة على المعسكر، لم يثنها رصاص الخفراء، ولا رصاص الرشاشات التي اخذت تطلق النار على المهاجمين ، فسقط من سقط من الشهداء ، بينهم مصطفى الاطرش شقيق سلطان الذي لما رأى سقوطاخيه برصاص العدو ، اقتحم بجواده الكرم ، وتعدى جـــدرانه قفزاً ، واختلط الدروز بالجنود ، وبدءوا يصرعونهم بسيوفهم وخناجرهم ورصاصهم ، وفي مدة لا تتجاوز النصف ساعة اجهزوا على الحملة الفرنسية في حصنها، بعد ان نجا السرجان ، أي العريف ، كابيولادشي مع خمسة من الجنود، تمكنوا ان ينسلوا من الطريق الشمالية الشرقية متجهين نحو السويداء، يحمل ثلاثة منهم جراحهم التي كانت تنزف دماً ، كما نجا من الحملة ضابط صف برتبة سرجان ، و٤٧ من جنود الفرقة السورية بينهم ١٣ جريحاً ، ومعاون الضابط الخيال الفرنسي دوكار ، و ١٧ جندياً صباحياً منهم ستة جرحى ، وجندي من الرماة جريح . أما الباقون ، وهم سبعة ضباط فيهم ضابط سوري ، و ٦٢ جندياً من الفرقة السورية ، فهم ستة فرنسيون ، و ٣٦ صباحياً خيالاً ، بينهم ثمانيـــة فرنسيون ، وسائق سيارة فرنسي ، فقد قتلوا كلهم ، حسب احصاء الفرنسيين انفسهم. ولم يكد المهزومون من الكفر يصلون الى السويداء ، يحملون انباء المجزرة ، حتى دب الرعب في قلوب الفرنسيين فيها فانتقل ضباطهم وموظفوهم بعائلاتهم الى القلعة يحاصرون فيها ، لأنهم ادركوا ان نبأ الهزيمة سيثير الجبل كله ضدهم ، حتى المترددين وضعاف النفوس ستجرفهم الثورة بانباء ظفرها الحاسم في أول معركة نشبت بينهم وبين الدروز . وهكذا كان فقد دخلت قوات سلطان الاطرش السويداء ، وزحفت جموع المسلحين على المراكز الحكومية ، وخاصة في قضاءي صلخد وشهبا اللذين اخلاهما الفرنسيون أثر معركة الكفر مباشرة ، تتجمع ، وتهزج ، وتهتف وتحدو للثورة التي عمت

انحاء الجبل كله ، ولم يبق للفرنسيين مكان فيه إلا قلعة السويداء وما فيها من حامية ضرب عليها الحصار ، واخذ المدفع المقام في القلعة يقصف بقنابله تجمعات الدروز ، ويصب نار حممه على منازل السكان في السويداء ارهاباً ، وابعاداً لهم عن مهاجمة القلعة المحاصرة ، وهي ثكنة كبرى بنيت عام ١٨٩١ ، في عهد الدولة العثمانية ، على مرتفع شرقي السويداء ، لاقامة حامية تركية كبرى في السويداء قاعدة الجبل .

معركة المزرعة

او معارك ٢ و ٣ آب عام ١٩٢٥

- ٢١ -

طلب الفرنسيون المحاصرون في السويداء النجدة من القيادة العليا الفرنسية في سورية ولبنان ، فاخذت تسوق قواتها من جميع انحاء البلاد ، وتحشدها في المحطات على طول الخط الحديدي في حوران ، وخاصة في ازرع البلدة التي يتفرع منها طريق السيارات الى السويداء . واخذ الدروز يضيقون الحصار على الفرنسيين في القلعة ، فقد قطعوا ماء عين قنية عنها ، وهي الماء التي جرت بانابيب من الاسمنت لتزويد القلعة بالماء النقي ، امكن تخريبها ، فلم يبق في القلعة غير بركة ملئت بالماء ليستفاد منها في ايام الحصار . لقد تمكنت القيادة الفرنسية ان تحشد خلال اسبوع واحد نحو تسعة آلاف جندي جاءت بهم من جميع معسكراتها في سورية ولبنان ، وبدأت تستعد للزحف على السويداء لاخماد الثورة ، وانقاذ المحاصرين في القلعة ، ووكلت قيادة الجيش الى الجنرال ميشو ، فاخذ يتقدم بمخافره الى الامام . وفي يوم ٣٠ تموز عام ١٩٢٥ تقدم لواء المشاة بقيادة « لونيه » الى بصرى الحرير ، وهذا اللواء مؤلف من كتيبة القائد «غابل»

التابعة لفيلق الرماة الافريقيين العشرين ، ومن كتيبة سنغالية ، وكتيبة سورية بقيادة « لوغاي » ، ومن كتيبة الرشاشات الثانية التابعة لفيلق الرماة الافريقيين الحادي والعشرين بقيـــادة الكابتين « غراي » ، وانطلق اللواء تعاضده مفرزة سيارات ومصفحة بقيـادة «الليوتنان» « غاسكه » على ان يحتل اللواء جسراً على طريق السويداء أزمـع الدروز على تهديمه ، فانتهت الحملة اليــه عند هبوط الليل . وفي منتصف الساعـة ٢٢ من الليل نفسه هوجمت الحملة ، واحيطت ، واستمر القتال طول الليـل ، ثم توقف . وفي الساعـة الحادية عشرة من يوم ٣١ تموز عــام ١٩٢٥ ، هاجم نحو مئــة من فرسان الدروز الحملة ، وتراجعوا عنهـــا . ويعترف الفرنسيون بان خسارتهم في هذه المعارك ضابط وسبعة جنود ، وجرح ضابط و١٤ جندياً . ولست اريد أن أشير كرّة اخرى الى ان الفرنسيين في تقاريرهم يقللون من خسائرهم ، ولا يحسبون في اكثر المعارك القتلى والجرحى من جيش المستعمرات خسائر حقيقية من جيشهم .

كانت الحماسة قد بلغت أشدها في جبل الدروز ازاء حشد القوات الفرنسية في حوران للزحف على الجبل ، وكان الاندفـــاع في الحماسة الشعبية املى على الزعماء اقتراحاً حظي بما يشبه الاجماع ، هو الزحف من الجبل للقاء الحملة على الحدود قبل ان تتوغل في اراضيه . واخذت جموع القرى تتوجه للقاء العدو الذي جاءت الانباء تؤكد قرب زحفه الى السويداء .

ان جبل حوران الذي يسكنه الدروز ، يمتد من الشمال الى الجنوب موازياً للخط الحديدي بين دمشق ودرعا ، جرت العادة في الروع ان يتجمع محاربو أبعد قرية في كل مقرن من مقارنه الثلاثة : القبلي ، والشمالي ، والشرقي – يتجمعون تحت راية القرية ليسيروا الى القرية التي تليهم ، يستقبلهم محاربوها ، وينضمون اليهم تحت علم قريتهم . ولكل قرية علم يختلف بألوانه واوصافه عن غيره . ويسير الجمع الى القرية الثالثة ، منضماً الى محاربيها ، وهكذا دواليك تتألب الجموع ، وتحتشد

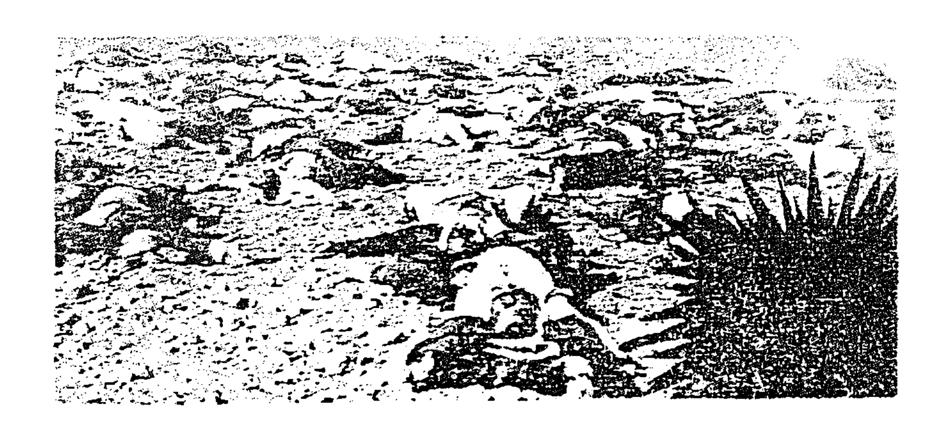
الرايات ، وتسير نحو نقطة التجمع الاخيرة . وكانت نقطة التجمع في هذه المرة، موقعها على طريق ازرع — السويداء ، غير بعيدة عن حدود الجبل، حتى يكون الدروز على اهبة القتال عند اول حركة تبــدو من الجيش الفرنسي الذي أتم تجمعه، واستعداده السريع للزحف ، فمن قائل ان قواته بلغت في حوران اثني عشر ألف جندياً ، تخلف ثلاثة آلاف منهم احتياطاً ، في مواقــع الحشد في حوران، ومن قائل إنها بلغت تسعة آلاف جندي، تعرض منها للزحف والقتال ستة آلاف ، واقيم ثلاثة آلاف قوة احتياطية في حوران .

بدأت حملة ميشو زحفها قبيل فجر اليوم الثاني من شهر آب سنة ١٩٢٥ من بصر الحرير وازرع ، فما وضح النهار الا والجيش الفرنسي يزحف بنسق الحرب منتشراً على يمين طريق السيارات ويسارها لعدة كيلو مترات ، تحمي جناحه الأيمن قوة كبيرة من الخيالة المراكشيين « الصباحيين » ويتقدم قلبه رتل من السيارات المدرعة او المصفحة بمدافعها ورشاشاتها ، ويكشف مجاهل طريــقه سرب من الطائرات الحربية ، يتقدمه ، ويقصف كل تجمع للدروز امامه . وأني أسجل هنا ما نقله الي بعض زعماء الدروز الذين خاضوا تلك المعارك عن اسلحة الجيش الفرنسي ، في تلك التجريدة او الحملة . اذ قدروها بستة وثلاثين رشاشاً ثقيلاً ، وبمئات الرشاشات الخفيفة وسبع مدرعات ، ومدفعين من عيار ١٠٥ مليمتر ، وبطارية من اربعة مدافع عيار ٧٥ مليمتر ، وبطارية اخرى من اربعة مدافع عيار ٦٥ م. م، فضلاً عن عشرات الطائرات التي كانت تتناوب التحليق ، وتصلي تجمعات الدروز ناراً حامية من رشاشاتها وقنابلها . ولما بلغت طلائــع الجيش الفرنسي موقع «تل الخروف» اكتشفت تقــدم كوكبة من فرسان الدروز نحوها ، تعد بالمئــات، فاوعز الجنرال ميشو الى الحملة بان تتحصن بالمرتفعات القريبة من مواقعها ، وينبطح فرادها ، ويحفروا الموانع التي تقيهم الرصاص . واوعز الى الخيالة الصباحيين بان تتقدم كتيبتهم لتشن غارة سريعة على فرسان الدروز ، تناوشهم ، ثم تتظاهر أمامهم بالهزيمــة والانكسار لتجرهم الى خط

النار ، ثم تكشفهم بغتة لنار الحملة المتحصنة ، بالارض ، بحركة بارعـــة من حركاتها . وتقدم الصباحيون المراكشيون ، وهم من العرب المغاربة المعروفـــين بقوة البأس ، والبراعة في الفروسية واغاروا على خيالة الدروز ، وبادلوهم اطلاق النار ، ثم انقلبوا امامهم منهزمين ، فخدع فرسان الدروز بالهزيمـة ، واطلقوا لجيادهم الاعنة في مطاردة الصباحيين المهزومين ، غير حاسبين ان الوف الجند الآخرين مجهزين باحدث الاسلحة ، اتخذوا الارض في خط طويل لحصدهم بنيران اسلحتهم . ولما اصبح الفرسان الدروز على بعد مئـات الامتار من خط النار ، انتظم الصباحيون بشكل سهم في تراجعهم ، فانكشف الدروز المهاجمون للحملة التي تلقت الامر باطلاق النار دفعة واحدة ، ثم انسل الصباحيـــون من خط النار ، وعادوا الى جناحهم ينتظرون الأمر بمطاردة فلول فرسان الدروز الذين قد ينجون من نار المشاة .

تساقط خيالة الدروز كورق الشجر امام نيران حملة ميشو ، وفيهم القـادة والزعماء والشجعان من الدروز ، فانكفأ من كتبت له السلامة من النـار ينجو من الموت ، تلاحقه الطائرات بقنابلها ورشاشاتها ، وتقطع عليـــه كوكبات الصباحيين الطريق ، فاذا نجا منها تعقبته المدفعية بقذائفها الى مداهـا البعيد . وكان لهذه الهزيمة المفاجئة اثرهـا الشديد على معنويات المشاة من مقاتلي الدروز الذين تعرضت جموعهم ، قبل ان تخوض المعركة ، لقصف شديد من الطائرات ، وقذف اشد من المدفعية ، فسرت الى صفوفهم الهزيمـة ، واندفعوا مرتدين إلى الشرق ، يلوذون بالاراضي الوعرة ، منهزمين ، لا يلوون على شيء ، مما اضطر سلطان الاطرش القائد العام ، لما رأى كلماته المشجعة ، واوامره لا تلقى آذاناً صاغية ، لان ينسحب مع فريق من زعماء الجبل الى قرية «سليم» ، يتذاكر معهم في عواقب هـــذه الهزيمة التي حاقت بالدروز ، ويرى الا طاقة للجبل بامكاناته الهزيلة والسلاح العتيق بمنازلة جيش منظم ، مجهز باقوى الاسلحة ، وان من حسن الرأي ان يبدل الاسلوب ، فتنقلب ثورة الجبل من المواجهـة الجماعية الى

حرب عصابات، تنازل الجيش الفرنسي بغتة ، في الفرص التي تسنح لها، وتكبده من الخسائر اكثر ما تستطيع ، وتنسحب . يقول الذين شهدوا هذه المعركة ان المقاتلين من اهل السويداء، وهم بعددهم الكثير ، ورجولتهم المشهود لها، واندفاعهم في الدفاع عن بلدتهم التي هي هـــدف الحملة الفرنسية ، كانوا الامل المرتجى في معركة ذلك اليوم ، ولكنهم كانوا اسبق من غيرهم في الهزيمة خشية ان تبلغ حملة الفرنسيين السويداء ، قبل ان يجلوا نساءهم واطفالهم عن منازلها ، لذلك قطع سلطان كل امل من المشاة في خوض معركة مع الجيش الفرنسي ، وانكفأ الى قرية سليم القريبة من السويداء يتداول مع اخوانه امر الثورة ، على ضوء احداث ذلك اليوم ، وقوة الجيش الفرنسي الزاحف ، ويشعرون بخطئهم في مقابلة الحملة الفرنسية في السهل قرب الحدود ، وهو يعرف ان من عادة الدروز ان كسبوا الجولة الاولى في حربهم ، غدوا كالعاصفة تقتلع كل شيء في طريقها ، وان خسروا الجولة الاولى وهزموا ، ركبوا رؤوسهم ، وغدت هزيمتهم شنيعة ، لا يتخلصون من أثرها إلا بعد حين ، او تثيرهم بارقة نصر يصيبه بعدئذ اخوانهم في احدى المعارك مع العدو .



شهداؤنا في الثورة ملأت جثثهم السهل والجبل

حسب الجنرال ميشو أن الضربة التي وجهها في ذلــك اليوم الى الدروز ، وقضى فيها على مئات فرسانهم ، وفيها زعماؤهم وابطالهم ، فتحت أمامه ابواب السويداء ، وكفته تجمع مؤونة الالوف من محاربي الدروز لقتاله . ولكنــه لم يخرج من حسابه وعورة الجبل وجفاف مياهه والصعوبة التي سيلاقيها في اخضاع مقارن الجبل ، واحداً بعد الآخر ، لذلــك حزم أمره على ان يتقدم بالمقاتلة من جيشه ، دون ثقل ، لاحتلال قرية المزرعة ، والافـادة من مياهها التي لا تكفي للحملة كلها مع الثقل ، فترك الثقل والمدفعية على الماء الذي وجدته والذي ينقل اليها من حوران القريبة ، وتقدم بجيشه الخفيف خيالة ومشاة ومدرعات حتى احتل مياه قرية المزرعة ، وعسكر فيها ، على ان يغادرها في صباح اليوم الثاني الى السويداء ، فيتقدم ثقل الحملة الى مياه المزرعة ، ويبقى فيها ريثما يحتـل دو السويداء ، ويسيطر على مياههـا ، وفي كلا الحالين تستطيع المدفعية بمداها البعيد ان تساعده ، تشق له الطريق وتحمي جناحيه ، وبذلك فصل مضطراً بين المدفعية والثقـــل وبين الجيش ، وترك بينهما مسافة بضعة كيلو مترات ، وهو فاصل لا تقره خطط سوق الجيش ، ولكن وضع الجبل وجفاف مياهه في في شهر آب ، بل قلة مياهه ارغمته على هذا التدبير ، حاسباً انه بما انزله بالدروز من هزيمة ستبلغ بهم قرارهم ، وبلحاقه بجيشه الخفيف سيضمن سلامة المؤخرة بما فيها من مدفعية وثقل . واذا عرفنا ان المركبات التي تحمل الذخائر والعتـــاد لحملته كانت اكثر من سبعمئة مركبة تجرها البغال والخيول ، ادركنا الظروف القاهرة التي ارغمته على فصل المؤخرة عن المقدمة ، وترك هذا الفراغ الشاسع بينهما ، فمياه المزرعة تكفي للألوف من جنود حملته وجيادها والبغال التي تحمل الرشاشات والذخائر والعتاد معه ، ولكنهـــا من المستحيل ان تكفي كل الجيش بما فيه الجنود والدواب التي تحمل الثقل ، وتجر مركباته بالمئات .

قرر الجنرال « ميشو » ،وقد بلغ مياه المزرعة ، بعد ظهر ذلك اليوم ، واحتلها ألا يتورط في نفس اليوم ، باحتلال السويداء ، التي لا بد أن يدافع عنها اهلها المسلحون ، فيتداركه الليل ، ويضطر للمبيت في اطراف السويداء ، تتهدده جموع الدروز التي قد تتحصن في الكروم والأراضي الوعرة . وشاء الله ألا تغيب شمس ذلك اليوم الاعلى نصر لعباده المؤمنين الذين يدافعون عن وطنهم وحقهم في الحياة، فقد وصلت عصر ذلك اليوم جماعة من المقاتلة في المقرن الشمالي، تخلفت ، والأصح تعوقت ، بسبب بعد قراها عن القتال ، وانتظاراً لتجمع الرايات وسيرها من قرية الى قرية، حسب العادة المتبعة في الحشد للقتال . وكانت في طريقها الى نقطة التجمع ، تسمع هزيم المدافع ، إلا أنها لا تعرف شيئاً عن الهزيمة التي حلت بأخوانها وبني قومها الدروز. ولما بلغت نقطة التجمع المضروبة لها ووصلت اليها من أقصر طريق سلكته ، كانت رحى المعركة توقفت ، فراحت تبحث عن تجمع الدروز، وعن جيش العدو لتعرف مكانها منها،ولاحت لها، حملة فرنسية معسكرة على مقربة منها ، كانت من حسن الحظ والمصادفات هي المدفعية والثقل التي خلفها الجنرال ميشو وراءه بسبب قلة المياه . ولما لم يجد الدروز اثراً لاخوانهم حولها ، راحوا يتشاورون فيا بينهم ، فوجدوا من الجبن ، وهم مئات من المقاتلة ، ألا يناوشوا الحملة ، والمكان بوعورته مساعد للقتال ، والوقت مناسب أكثر ، فالليل قريب ، يستطيعون ، فيا إذا رجحت كفة العدو ، ان يتسللوا في ظلمته ، والارض أرضهم والجبل وراءهم وذخيرتهم كافية للقتال بضع ساعات ، وهموا ، وعزموا ، وتسللوا بين الصخور ، حتى اصبحت خيام العدو بما فيها ومن حولها تحت نيران بنادقهم ، ثم اصلوا الحملة ناراً حامية ، لم يرد عليها ، في بادىء الامر احد ، ثم انطلقت نيران هزيلة متفرقة ، ثم ساد الاضطراب معسكر الفرنسيين ، فشدوا من حملتهم على المعسكر ، واذا بالجنود يفرون منه ذات اليمين وذات اليسار ، فريق يسلك طريق حوران يعود

من حيث اتى ، وفريق يسلك طريق المزرعة الى الجبل ، حتى خلا المعسكر من ساكنيه ، ولم يبق أي اثر للمقاومة ، فتنادي الدروز ، وتناخوا ، وقاموا بهجوم على المعسكر ، فوجدوا فيه ذخائر ومدافع ومركبات ودواب لا تحصى ، وخياماً خالية من الجند ، وهكذا أقبلوا على الغنائم ، يكسبون ما استطاعوا حمله ، وعادوا يجر كل واحد منهم وراءه عدة خيول وبغال محملة بالذخائر من عتاد ، وسلاح ، واطعمة محفوظة ، وامتعة وأغطية ، بعد ان حطموا ما حطموا ، وخربوا ما خربوا في المدافع ، عادوا يحدون ويهزجون ، تخفق راياتهم فوق رؤوسهم ، يمرون بالقرى ، يسألون عن سلطان وربعه ، ليعرضوا امامهم ويشهدوهم على نصرهم ، وعرفوا من سكان القرى ما جرى في ذلك اليوم ، وان الجيش الفرنسي الآخر بلغ مياه المزرعة ، فشدوا الرحال نحو قرية سليم حيث يقيم سلطان قائدهم ، وسبقت اخبارهم الى سلطان قبل وصولهم ، فأدرك القائد ان هؤلاء المحاربين التقوا مصادفة بمؤخرة الجيش ، واستطاعوا الاستيلاء عليها ، لأن من معها من الجنود هم من غير المقاتلة ، رجال مدفعية ، وسائقو مركبات ، وساسة خيل وبغال وخدم ، فروا أمام الهجوم المباغت الذي شن عليهم ، وسرعان ما خطر له استغلال الحادث في شحذ عزائم بني قومه المنهزمين أمام حملة « ميشو » ، فأرسل الرسل ، ووجه المبشرين ، إلى القرى القريبة والبعيدة يبشرها بنصر من الله ، ويحدثها حديث الغنائم التي لا تحصى ، والتي منّ الله بها على اخوانهم محاربي المقرن الشمالي ، وحثهم على المبادرة إلى قتال من تبقى من حملة العدو ، على مياه المزرعة ، وغنم ما معها من سلاح وذخائر أسوة بإخوانهم المنتصرين عليها . ولما بلغ الظافرون قرية سليم ، وعرضوا أمام سلطان وزعماء الجبل غنائمهم ، وجههم أيضاً إلى القرى القريبة ، يعرضون فيها ما أنعم الله عليهم به من غنائم ، وسرعان ما سرى خبر النصر والغنم في قرى الجبل ، سريان النار بالهشيم ، فعاد الى الدروز حماستهم ، وزحفوا من كل فج وصوب نحو المزرعة ، مسلحين بالبنادق ، ومنهم بالمناجل والخناجر والسيوف والعصي والفؤوس ، وأخذوا على مدى الليل الطويل يحيطون بالحملة ، مستفيدين من ظلمة



سلطان باشا الاطرش يتقدم المجاهدين

الليل في الزحف والاقتراب منها ، حتى يسبق القريب البعيد في القضاء على الحملة، رغم ما معها من أسلحة وذخائر.

المعركة الفـــاصلة

-٢٢-

وصلت أنباء ما حــل بالمؤخرة الى الجنرال « ميشو » من الجنود الذين فروا منها باتجاه حملته ، ولحقوا بها ، وأدرك أن زحفه في الصبــاح نحو السويداء أصبح خطراً عليه ، فجيشه أصبح بلا مدفعية ، ولا ذخائر ، ولا عتاد ، ولا طعام ، وما معه من ذخيرة لا يكفي لقتــــال يوم أو يومين ، فإذا حوصر في

السويداء ، ونفدت ذخائره قضى الدروز على جيشه كله . وبعد التداول مع أركان حربه ، قرر أن يعود مع الفجر بجملته نحو حوران ، ينقذ في طريقه ، ما أمكن انقاذه من ذخائر المؤخرة التي هاجمها الدروز ، ويحملها معه إلى مواقع الحشد في حوران حيث يكمل في أيام نواقص حملته وتموينها ؛ ويعود للزحف بها من جديد على الجبل ، متجنباً الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه ، وهو الفصل بين الجيش ومؤخرته ، وابقاء المؤخرة دون حامية تحميها ، وأصدر أوامره المشددة بالانتباه ، وزيادة الحراسة ، حتى لا تفاجأ الحملة بهجوم ليلي من مقاتلة الدروز . وهكذا ظلت أسهم الاضاءة تنطلق من المعسكر تنير ما حوله كل ساعات الليل . وكان الدروز على ضوء الاسهم ، يركزون مواقعهم ، ويسدون الثغرات ؛ ويزحفون في الفواصل على بطونهم مقتربين من خطوط العدو . ولما أخذ الصبح يتنفس ؛ وبدأت تباشير النهار : من اليوم الثالث من شهر آب عام ١٩٢٥ ؛ تمحو ظلمة الليل ، دبت الحركة في معسكر الفرنسيين حول ماء المزرعة ، ورفعت الاثقال والاحمال على الدواب . وكان مقاتلة الدروز ينتظرون أن تتجه الحملة نحو السويداء ، اتماماً لزحفها في اليوم الماضي ؛ وإذا بها تتجه نحو حوران ؛ كأنها تشعرهم بالهزيمة ؛ مما زاد في عزيمتهم ؛ وخلق في روعهم أن عدوهم مهزوم ؛ فأصلوه ناراً حامية من بنادقهم ، ضعضعت صفوفه ؛ لقربها ؛ حتى دبت فيها الفوضى ؛ وشجعت أبناء معروف على الهجوم ، واقتحام صفوف العدو ، والاشتباك معه بالسلاح الأبيض ، مما أبطل عمل الطائرات ، وعمل المدرعات ؛ وعمل الرشاشات ؛ واختلط الحابل بالنابل ؛ وأبناء معروف لا يعوزهم ثبات الجنان في المجازر ؛ يوم تتساوى الاسلحة ؛ فعملت سيوفهم وفؤوسهم وخناجرهم في أجساد الجنود ؛ وتساقط القتلى والجرحى ، وجثث الجياد والبغال على طريق السيارات ؛ حتى سدت المسالك ؛ ووقف الجنرال ميشو يهيب بجنوده ؛ أن يثبتوا ؛ وإذا برصاصة تعاجل جواده ؛ فيسقط إلى الارض ، ويقدم له جنوده جواداً آخر يدفعه بين الجنود ؛ يستثير حماستهم ؛ ويحرضهم على الثبات ؛ واستخدام حرابهم ؛ فيحل بالجواد الثاني ما حل بالأول ، ويؤتى له بجواد ثالث ، واذا برصاصة تصيبه ، وتطيح

به من سرج جواده ، فيحمل الى مدرعة تنطلق به نحو حوران ، فتكون المدرعة الوحيدة التي نجت من بين المدرعات الأخرى ، فقد حوصرت هذه بين أكداس القتلى ، وجثث الخيل ، والمركبات والرشاشات ، وما هي ســـاعة حتى تمكن المجاهدون من السيطرة على الساحة كلها ، ومن اطلاق الرصاص من ثغرات الرماية في المدرعات ، يقتلون من فيها ، أو يشعلون النار حولها ، فتحترق بمن فيهـا ، أو يقلبونها بتكاثرهم عليها ، حتى لم يبقوا منها إلا الحطـــام. وهكذا قضي على جيش الجنرال ميشو، ولم ينج منه الا بضع مئات من الجنود والضباط استطاعوا أن يفروا نحو حوران ، لأن مقدمة الحملة ، كانت استطاعت في بـدء المعركة أن تشق طريقها الى الغرب، وكانت تجمعات الدروز تحيط أكثر ما تحيط، بأطراف الجيش الثلاثة : جناحيه ، ومقدمته التي كان مقدراً لها ان تتجه الى السويداء ، فسنحت الفرصة للمهزومين ان ينجوا من الموت ، ولكن بعضهم بلغ قرية درزية في الطريق ، أظن أنها كناكر ، كان رجالها نفروا للحرب والنزال ، وليس فيها غير النساء والأطفال ، فدخل الجنود دار المختار لاجئين ، منهـارة عزائمهم ، واستقبلهم ابنه اليافع الذي طلب منهم ان يلقوا بأسلحتهـــم حتى يضمن لهم السلامة من القتل ، فألقوا في فناء الدار بأسلحتهم ، ولجأوا الى ابن المختار الذي سلمهم بعدئذ أسرى لسلطان الأطرش ، الذي أمنهم على حياتهم ايضاً ، واطلق سراحهم عند اول مفاوضة مع الفرنسيين، لقاء اطلاق سراح زعماء الجبل المبعدين في منطقة الفرات ، فهو يريـد ان يتخلص منهم ، وليس باستطاعته ان يقيم في الجبل القاحل الماحل في تلك السنة معسكرات للأسرى .

لقد بلغت خسائر الدروز في هذه المعركة الفاصلة نيفاً ومئتي شهيد ، يقابلهم بضعة آلاف من جنود العدو وضباطه . وقد استشهد في يوم المزرعة سليمان العقباني من أبطال الدروز الذي كانت ضربات سيفه تقد الضحية شطرين ، سقط

شهيداً وحوله عدد من ضحايا سيفه الصارم، وقيل ان احد هؤلاء الضحايا قدّ من كتفه الأيسر الى خاصرته اليمنى بضربة سيفه، عدا الرؤوس التي كان يدحرجها بضرباته رحمه الله .

واستشهد في معركة اليوم الثاني من شهر آب حمـد البربور من زعماء الجبل وأبطاله ، ومن رفاق سلطان في ثورته الأولى على الفرنسيين .

كيف وصف الفرنسيون سحق جيشهم ؟

لم يرد في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق سرداً لسحق جيش الجنرال ميشو ، إلا انه ورد في الصفحة (٢٥٧) من الكتاب ، وفي خاتمته : ان جيش الشرق الفرنسي سقط من رجاله في ساحات القتال التي خاض غمارها في فلسطين وسوريا والشرق (٢٧٠) ضابطاً ، وتسعة آلاف جندي . وهذا رقم كاذب فخسائر الجيش الفرنسي في معارك ٢ و ٣ آب عام ١٩٢٥ وحدها تقدر بأكثر من خمسة آلاف جندي ، إذا لم تكن أكثر من ثمانيـــة آلاف سقطوا صرعى ، وظلت جثثهم شهوراً مكدسة ، في ارض المعركة ، لا يستطيع المرء ان يقترب من نتنها الذي ظل يزكم الأنوف اشهراً من مسافات بعيدة . واذكر ان صحافيين المـانيين ، كانا ضابطين في الجيش الالماني زارا جبل الدروز ، بطريق عمان ، أثناء معارك الثورة السورية الكبرى ، وطلبا من القيادة السماح لهما بارتياد ساحة المزرعة التي نشبت فيها المعركة ، فصرحا بعد عودتهما الى السويداء بان ظفر الدروز ، ومصرع الألوف من الجيش الفرنسي بالأسلحة البدائية التي كان يحملها الدروز أمر له مثيل في الثورات التي نشبت في مختلف انحاء العـالم ضد الجيوش النظامية ، فالجيش النظامي بقيادة الماريشال « ليوتي » خسر في المغـرب الأقصى أكثر من ثلاثـين ألف جندي في معارك نشبت بينه وبين العرب الثائرين ، ولكن الأمـر الذي يكاد لا يصدقه العقل البشري ان يستطيع الدروز ، بالبنادق العتيقة والسيوف

والمناجل أن يستولوا على المدرعات المجهزة بالمدافع والرشاشـات ، ويحطموها ، ويحرقوها ، فتقف في ساحة المعركة شاهدة على بطولات ومآثر لم يعرف تاريخ الثورات ، من قبل ، لها مثيلا !

لقد أشار الكتاب الذهبي لجيوش الشرق إشارة عابرة الى معارك ٢–٣ آب ، فقال : « يوم ٢ – ٣ آب تناولت نيران الدروز مفرزات السيارات المصفحة من مسافات قريبة . وإذا توقفت أمام احد الحواجز انسل المهاجمـــون الى كنف زواياها التي لا تتناولهم النار منها ، وسددوا الرصــاص الى داخلها من فوهات الرماية ، والمنافذ الاخرى ، فعطلوا خمس مصفحات ، اثنتين من الكوكبة الثامنة والعشرين ، وثلاثاً من الكوكبة الثامنة عشر . وفي اليوم الثالث من آب جدت المفرزة الاولى التابعة لكوكبة المصفحات الثامنة للالتحاق بفلول المؤخـرة التي سحقها العدو ، وفكك أوصالها ، فاعترض طريقها حاجز من العربات المتشابكة ، فاضطر القائد الليوتنان « غاسكه » أن يستخدم مصفحته كآلة تهديم ، فهجم على المصفحة كمين من الدروز ، وحاولوا نزع صفيحتها الخلفية ، واستطاع أحد المهاجمين ان يطلق عياراً نارياً الى داخل المصفحة من احد مفاصلها ، فجرحت شظايا رصاصته أفراد الركب جميعاً ، ولكن المصفحة الثانية توقفت لنفاد البنزين ، فحاول افراد الركب اللحاق بالأولى ، ولكنهم قتلوا جميعاً ، وتمكن « غاسكه » ومعاونه « ارنولد » والسائقان من العـودة جرحى إلى أزرع . أما السرجان « كازانوفا » التابـع للواء الرشاشات الاستعماري الثاني والاربعين ، فقد قتل في اليوم الثاني من آب » .

وصفوة القول ان الضربة التي أنزلها الدروز بجيش الجنرال ميشو كانت قاضية ، فقد قتل في المعركة مئات الضباط الفرنسـيين ، ولم ينج من قادة الحملة غير الجنرال ميشو نفسه ، إذ نقل بعد ان فرت به مدرعة الى حوران ، جريحاً . ولما شفي استدعي الى فرنسا ، ومثل أمام محكمة عسكرية هناك ، بتهمـة مسؤوليته عن

سحق جيش كامل كان بقيادته ، فاعترف بأن السبب الواضح في الهزيمة ، كان فصل المقدمة عن المؤخرة يوم الزحف، ونفوذ جماعة من مسلحي القرى مصادفة الى المؤخرة التي كانت تفتقد المحاربين ، وان الفصل فرضته عليه طبيعة جبل الدروز، وقلة مياهه ، وجفاف بعض ينابيعه في صيف عام ١٩٢٥ ، وان الظروف السيئة التي أحاطت به ، بعد سحق مؤخرته ، أدت الى الكارثة المفجعة ، فبرأت المحكمة ساحته ، واعتبرته غير مسؤول عن خطأ حربي فرضته عليه أوضاع جبل الدروز ، وجفاف مياهه ، وتسلل عصابة من محاربي الدروز الى المؤخرة .

كان النصر حاسماً لولا قلة الوعي

لقد كان النصر في معركة المزرعة مؤزراً حاسماً ، وكافياً لطرد فرنسا من سوريا ، لو ان الثورة كانت عامة تسود سوريا كلها ، وكان لها قيادة واحدة ذات كفاءة . ولكن ثورة سلطان في جبل الدروز نشبت محلية ، لأسباب تتعلق بسكان الجبل وحدهم ، وظلم الكابتن كاربيه حاكمهم الأجنبي . وكان لا يعلم ما يجري في جبل الدروز الا القلة القليلة من السوريين في دمشق ، ممن كانوا على اتصال بزعماء الدروز، خلال أحداث الجبل في عهد الكابتن « رينو » وكيل الحاكم . حتى ان معركة المزرعة التي سحق فيها الجيش الفرنسي ، لم يعرف سكان دمشق اخبارها ، إلا بعد أيام من وقوعها ، وبروايات مختلفة ، كان من الصعب تصديقها كلها لتناقضها ، لأن الفرنسيين حرصوا ، على ألا يذاع نبؤها حتى لا تتمرد عليهم مناطق أخرى ، وعزلوا جبل الدروز عن سائر المناطق المأهولة بالسكان ، ورابطت قوات على الطرق المؤدية الى الجبل حتى لا يتصل بثواره أحد ، ولا تتسرب أنباؤه الى حوران فدمشق ، وسارعوا لتأليف وفد درزي من اصدقائهم الزعماء في لبنان ، أوفدوه فوراً الى جبل الدروز يفاوض باسمهم زعماءه على الصلح ، ويعرض شروطاً فيها من السماحة ما تحمس للصلح

كثيرين من زعماء الجبل ، كإطلاق سراح المعتقلين من إخوانهم في الفـــرات ، وإعلان عفو عام عن كل جرائم الثورة ، وعدم مطالبة سكان الجبل بأي غرامة من المال والسلاح ، بل أعربوا عن إمكان جلاء فرنسا عن جبل الدروز لقـاء السماح لحاميتهم المحاصرة في قلعة السويداء بالالتحاق بمواقعهم في حـــوران ، وأقاموا في دمشق الاسلاك الشائكة والمدرعات تحمي دار الحكومة ومؤسساتها في ساحة الشهداء ، وتحصنوا في القلعة والثكنات ، ونصبوا المدافع ، ووجهوها من قلاعهم في جبل « قاسيون » و« المزة » نحو دمشق استعداداً لقصفها ، في حال قيام أي حركة تهددهم فيها ، والى جانب ذلك طيروا البرقيات الى فرنسا في طلب نجدات عسكرية من وراء البحار وفرنسا ، ترسل على جناح السرعة ، وإلا عمت الثورة سوريا كلها ، والقت بالحاميـــات القليلة الباقيـــة الى البحر .

أما الدروز الظافرون ، في حرب خاضوها بأسلوب عشائري ، وهم قـوة غير نظامية ، فقد انكفأوا ، بعد سحق عدوهم وطرده ، الى قراهم ثملين بنشوة الظفر ، وبالغنائم التي ملأت الجبل ، غير حاسبين حساب المستقبل ، لم يفكر احد منهم بمطاردة فلول الجيش الفرنسي الى اراضي حوران ، فالعداء التقليدي بينهم وبين أهل حوران خلق في روعهم ان جيرانهم ، وهم اكثر منهم عدداً ، وعندهم بعض السلاح ، قد يقفون الى جانب فرنسا ، ثأراً من وقوف الدروز الى جانبها في ثورة حوران عليها ، في مطلع الاحتلال ، بل كان الرأي السائـد لدى أكثر الزعماء ، ان الدروز استطاعوا ان يطهروا جبلهم من الجيش الفرنسي ، ويسحقوه ، فلا أقل من أن تقوم كل منطقة في سوريا بنصيبها ، كما قاموا بنصيبهم ، وتطهر أرضها من جيش الاستعمار ، غير حاسبين ان المناطق الســـورية الأخرى عزلاء من السلاح ، من يحمل مسدساً غير مرخص به من أهلها يتعرض للسجن سنتين ، ومن يحمل بندقية غير فرنسية قد يحكم عليه بالسجن خمس سنين ، ومن يقتني بندقية فرنسية قد يبلغ الحكم الصادر عليه الاعدام ، فضلاً عن ان دوائر

المخابرات والجاسوسية الفرنسية كانت بالمرصاد لكل وطني يبدي مقاومة لخطط الاستعمار ، تعتقله ، وتبعث به الى المنافي والسجون ، وكم امتلأت غرف السجن في قلعة ارواد وقلعة دمشق باحرار السوريين ، لأن الشعب في دمشق تظاهر اثر زيارة قام بها « مستركراين » رئيس اللجنة الدولية التي زارت سوريا في عام١٩١٩ ، باعتباره صديقاً للسوريين ، أو تظاهر بمناسبة زيارة اللورد «بلفور» وزير الخارجية البريطانية في الحرب العالمية الاولى ، دمشق ، واحتجاجاً على الوعد الذي كانقد قطعه آنئذ بأن تصبح فلسطين وطناً قومياً لليهود، أو ألف جمعية أو حزباً سرياً وزع النشرات ضد الاستعمار الفرنسي . لقد كانت أكثرية سكان الجبل ينقصها الوعي القومي ، فقد وقفوا في سحق الجيش الفرنسي الذي زحف الى جبلهم ،واستولوا على جميع أسلحته ، وكان منطق الاحداث يقتضيهم ان يتقلدوا كل ما يستطيعون من سلاح ، وان يتعقبوا فلول الجيش الى حوران ، ويحاصروا المواقع العسكرية فيها ، إذا لم يستطيعوا احتلالها ، وتنطلق اكثريتهم الى دمشق العاصمة ينازلون مع سكانها الجيش الفرنسي في الشوارع، وفي ثكناته ، وعدد جنوده قليل ، ومعنوياته منهارة . ومثل هذه الحركة كانت كفيلة بأن تدفع كل من عنده سلاح من السوريين، في المناطق الأخرى ، الى الثورة على فرنسا ، وان يستخدم سلاحه في قتالها وطردها من سوريا ولبنان ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فالاستعمار عزل المناطق السورية عن بعضها، وأثار فيها النعرات الطائفية والعنصرية ، وأقام من بعضها دويلات طائفية ، وفتح أبواب سوريا لهجرة جديدة للارمن والأكراد من تركيا ، ثم لهجرة الآشوريين من العراق ، وجند الشراكسة والارمن والاسماعيليين والعلويين والموارنة في جيش الشرق ، وحشدهم في الجوقة السورية ، والقناصة اللبنانية ، والحرس السيار ، وسخر الضمائر ، واشترى العملاء ، وسلط في منطقة العلويين الزعماء الجشعين على الشعب الجاهل ، يستغلونه ، ويتحكمون بمصائره ، وسمح للإرساليات المبشرة بالكثلكة ان تنتشر، وتعمل في قرى العلويين ،وان

لأتبني اديرة والكنائس لتنصير السذج منهم، حتى إذا تنصر احدهم مع أسرته، تخلصاً من الزعيم الاقطاعي واضطهاده، بعث ضابط المصالح الخاصة في المنطقة الى ذلك الزعيم الظالم ان يرفع يده عن الأسرة المتنصرة، لأنها دخلت بحماية فرنسا، وأصبحت من رعاياها، فيسقط الزعيم تلك الاسرة من حساب تسلطه، لأنه، في الواقع، يستمد نفوذه من فرنسا، ويعمل لخدمة مصالحها.

لقد فرقت فرنسا حتى بين الطوائف المسيحية التي تزعم انها إنما جاءت الى سوريا لحمايتها من الأكثرية المسلمة، فاضطهدت المسيحيين من الفلاحين في بعض القرى لترغمهم على ان يبدلوا مذهبهم كأرثوذكس أو سريان أرمن بالكثلكة. وقد شهدت ذلك بنفسي في قريتي القنية واليعقوبية من اعمال قضاء جسر الشغور، فقد كانت القريتان العربيتان يدين أهلها بمذهب السريان الارمن، إلا ان ارسالية تبشير كاثوليكية أقامت في قرية القنية ديراً ضخماً وكنيسة يرعاهما أب طلياني يطلقون عليه اسم « بادري »، ظلت ارساليته تعمل حتى حولت بعض سكان القنية الى الكثلكة، فلما جاءت فرنسا منتدبة على سوريا، وقفت وراء ارساليات التبشير للكثلكة في سوريا، وزادتها، وسخرت ضباط مخابراتها الحاكمين ليكونوا أداة اضطهاد للذين لا يتخلون عن مذهبهم من الفلاحين. وقد سلطت البادري على فلاحي قرية اليعقوبية المتكتلين للحفاظ على مذهبهم، حتى أخرجهم منه، إلا أسرة واحدة تحملت انواع الاضطهاد، وأبت ان تتخلى عن مذهبها، ولما اظهرت عطفاً عليها، حرض البادري بعض فلاحي القنية على ان يقدموا شكوى ضدي لضابط المصالح الخاصة، زعموا فيها انني ارهقتهم بالرسوم والضريبة على خمر قريتهم لأنهم كاثوليك، وخففت الرسم أو الضريبة عن الأسرة السريانية. واستدعاني ضابط الاستخبارات الفرنسي الى مكتبه، ودار نقاش بيني وبينه كتب على أثره تقريراً سرياً الى رؤسائه يؤكد فيه كرهي للانتداب الفرنسي وممثليه، وعملي لمقاومته، فلم يمض شهر على الحادث، حتى انتدبت في شهر أيار

عام ١٩٢٥ برقياً إلى مصياف للاشراف على موسم الحرير ورسومـــه ، وبعد اسبوع من انتدابي وسفري الى مصياف ، وردت برقية من المديرية العامة للديون العمومية في بيروت بتسريحي من الوظيفة ، باعتباري من الموظفين الموقتين الذين عينوا بعد الحرب العالمية لوظائف الديون العمومية ، ولم يكونوا أصلاء ، وليس لهم حصانة تقيهم التسريح التعسفي .

* * *

الفصل الخامس

في الطريق الى الثورة

- ٢٣ -

عدت الى موطني حماة ، ورتبت أمري للعمل في التعليم في شرقي الاردن ، وقدمت ما يلزم من الوثائق الى المراجع المختصة في عمان ، وبينما كنت في انتظار دعوتي في مطلع السنة الدراسية إلى عمان ، بلغت مسامعي أنبـاء الثورة في جبل الدروز ، فسافرت الى دمشق أترقب فيها أحداث الثورة ، وأنا مؤمن بأن على المناطق الأخرى في سوريا ان تهتبل الفرصة ، وتهب لنجدة الدروز بثورات أخرى تخفف الضغط العسكري على جبلهم ، وتوسع الثورة على الفرنسيين ، وإلا فصير ثورة الدروز الى الاضمحلال والفشل الذريع . لقد كنت من المؤمنين بأن لا خلاص لسوريا من محنتها إلا بالثورة الوطنية المسلحة تعم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، قبل ان تتمكن فرنسا ببرامجها الاستعمارية من إفساد التعليم والعقائد والضمائر ، وقبل ان تقضي على كل مقاومة لاستعمارها في سوريا ، شأنهـا في

الجزائر وفي سائر بلدان المغرب العربي .

وكنت في دمشق يوم تسربت أنباء هزيمة الجيش الفرنسي في معارك ٢ — ٣ آب ، فوطدت العزم على أن التحق بالثورة ، وأحمل السلاح مع أخواني ابناء معروف ، واقاتل المستعمرين ، وهذا أقل ما استطيع عمله ، بعد ان كدت أقنط من ان يتحسس ابناء وطني في المناطق الاخرى بواجبهم نحو اخوانهم الثائرين في جبل الدروز ، وتوجهت فعلاً الى منزل السيد عثمان الشراباتي في الصالحية قرب الجسر الأبيض ، بعد ان سمعت انه من الوطنيين المعارضين لسياسة فرنسا ، وانه من القائلين بمد يد العون لثورة الجبل ، وقابلته ، دون سابق معرفة بيني وبينه ، وقدمت له نفسي ، وطلبت منه ان يساعدني على الوصول الى جبل الدروز ، ويهديني الى اضمن سبيل للالتحاق بثورة الدروز ، فوقف مني في حديثه موقف الحذر ، وسألني عن صلة القربى التي تربطني بنجيب الريس الصحافي الوطني في دمشق ، فقلت له انه ابن عمي ، وابن خالي ولكنه وطني يعمل بالقلم ، ولايجرؤ على العمل لثورة مسلحة ، فقال لي : « مهما يكن الأمر ، فعليك أن تتدارس مع ابن عمك هذا الموضوع الخطير ، فهو أحق مني بذلك ، وخرجت من المقابلة غير راض عن الشراباتي . وفي اليوم الثاني صادفت في الفندق الذي اقيم فيه سعيد الترمانيني من شباب حماة الذين أعرفهم ، وبينه وبين أخي ناظم الريس صداقة ، فأفضيت اليه بمكنون نفسي ، واظهرت له نقمتي على الوطنيين السوريين الذين لم يعملوا الى هذه الساعة أي عمل لتوسيع شقة الثورة ، وقلب ثورة الجبل من ثورة درزية محلية ، الى ثورة وطنية شاملة هدفها استقلال سوريا ، لا تبديل حاكم فرنسي بحاكم فرنسي ! ولشد ما كانت فرحتي عظيمة يوم اسر لي بأنه موفد من إخوان له في حماة يفكرون نفس تفكيري ، ويعملون لثورة مسلحة في حماة تنصر ثورة الجبل ، وتخفف الضغط العسكزي عليه ، وتوسع شقة الثورة الى مناطق اخرى ، لتكون كما أريد ، ثورة وطنية سورية بالمعنى الصحيح ، وانه كبير الامل بنجاح هذه الحركة التي انضم اليها سراً الكابتن

فوزي القاوقجي قائد سرية الحرس السيار في منطقة حماة ، وانضم اليها أيضاً عدد من أصحاب الاملاك والقرى القادرين على دعم خطة الثورة بالمال الذي ييسر شراء السلاح ، ، وانه جاء الى دمشق موفداً من قبل اخوانه في حماة ليطلع في دمشق على آخر تطورات الثورة في جبل الدروز ، فقد ترامى إلى مسامعهم ان وفداً درزياً من لبنان أمَّ جبل حوران موفداً من قبل فرانسا لعقد صلح بينها وبين الثائرين في الجبل ، وان اخوانه في حماة يخشون ان يتم هذا الصلح ،فتصبح حركتهم في حماه وبالاً عليهم ، مكتوباً لها الفشل ، حيث لا تقوى وحدها على الصمود في وجه القوات الفرنسية التي بدأت تصل كنجدات من فرانسا ، ومن مستعمراتها فيما وراء البحار . وزاد على ذلك بأن أعلمني ان فوزى القاوقجي الضابط السوري في الجيش الفرنسي سيستخدم بعض جنوده المسلحين في ثورة حماة ، وانه اتصل ببعض ضباط الصف من الحمويين في ثكنات الجيش للاستيلاء في وقت واحد عليها ، وعلى دور الحكومة ومؤسساتها ، ولكن نشوب ثورة حماه يتوقف الآن على فشل الصلح بين الفرنسيين وبين زعماء الدروز ، واستمرار ثورة الجبل ، وانه قدم الى دمشق لمعرفة ما تم بين الوفد الدرزي اللبناني وبين زعماء الجبل ، وانه مضطر للبقاء في دمشق حتى يعرف ما آلت اليه المفاوضات، فاقترحت عليه ان يعود الى حماه ، ويستحث إخوانه هناك على اتمام خطواتهم الثورية ، وتعهدت له بأن أقوم بالمهمة التي أوكلت اليه ، ما دمت في دمشق ، واتفقت معه على لغز ارسله برقياً بعنوانه في حماه حول مهمة الوفد الدرزي ، فقبل اقتراحي ، وطلب مني ان أسعى مدة اقامتي في دمشق لإيجاد ضابط سوري سبق له العمل في سلاح الرشاشات ، ليتعاون مع قيادة ثورة حماة على استخدام الرشاشات الكثيرة التي قد تتمكن الثورة من الاستيلاء عليها في ثكنات الجيش الفرنسي في مدينة حماة وشرفتها ، واتفقنا أيضاً على شكل للمراسلة لا يستطيع الرقيب فك رموزه ؛ وسافر سعيد الترمانيني الذي كنت أعرف أنه خدم كضابط احتياط في الجيش العثماني ، وجرح في احدى المعارك في جبهة فلسطين .

لم يمض يومان على سفر الترمانيني حتى أبرقت اليه بفشل المفاوضـات بين فرانسا والدروز ، وعودة الوفـد الدرزي اللبناني من الجبل ، وذلك باللغز المتفق عليه بيننا . وكنت علمت أن بعض الوطنيين في دمشق ، بعـد اجتماع عقدوه في منزل الحاج عثمان الشراباتي ، أوفدوا السيدين زكي الدروبي وتوفيق الحلبي سراً إلى جبل الدروز ، يحملان رسالة شفوية إلى سلطان الاطرش تنبهه إلى خدعة الفرنسيين ، وشروطهم السمحة في الصلح ، وانها لكسب الوقت ؛ فالنجـدات الفرنسية بدأت تصل تباعاً من البحر ، وتحشـد في المراكز الاستراتيجية ، وان كل صلح سينقضه الفرنسيون ، بعد ان يستكملوا حشد قواتهم في سوريا لغزو الجبل ، وان رضاءهم بالجلاء عن الجبل خدعة ايضاً ، فقد أجلاهم الدروز عمليـاً عن كل أراضيه ، ولم يبق لهم فيه غير حامية السويداء المحاصرة التي هم أحوج ما يكون اليوم إلى انقاذها من الحصار الشديد المضروب حولها ، قبل أن ترغم على الاستسلام ، وان أول شرط للصلح يجب أن يكون جلاء فرانسا عن سوريا كلها بما فيها لبنان ، وتنفيذ خطوات الجلاء بسرعة ، بعد تعيين مراقبين من السوريين يسهرون على الموانيء السورية — اللبنانيـة للحيلولة دون وصول قوات افرنسية جديدة ، ويشرفون على عمليات الجلاء في أوقاتهـا المحددة ، والا فان الفرنسيين سينقضون شروط الصلح ، ويزحفون بقواتهم على الجبل لإخضاعه والبطش بسكانه . وفي الرسالة وعد بأن المناطق السورية ستثور لشد أزر ثورة الجبل ، وهو وعد لا يستند الى ظل من الحقائق ؛ فالوطنيون المجتمعون في دار الشراباتي غير ثوريين ، وليس لهم معرفة بالثوريين من أبناء الشعب ، ولكنهم كانوا يحدسون بنشوب ثورات اذا تفاقم أمر ثورة الدروز ، ويريدون لثورة الدروز أن تستمر ، لعلهم في النتيجة يفيدون منها في حمل الفرنسيين على تبديل سياستهم في سوريا ، كما علمت ان كل ما توصل اليه الوفد الدرزي اللبناني في مفاوضاته مع زعماء الجبل هو الاتفاق على اطلاق سراح الزعمـاء المبعدين في لواء الفرات ، واعادتهم الى جبل الدروز ، لقـاء اطلاق سراح أسرى الجيش الفرنسي في الجبل ؛ والسماح للنساء والاطفال الفرنسيين المحاصرين في القلعـة

بالخروج منها ، واللحاق بمراكز الفرنسيين في حوران، وان شهامة الدروز تأبى أن يعامل النساء والاطفال معاملة المحاربين ؛ ويقاسوا شدة الحصار في القلعة . وقد تم تبادل المبعدين بالمحاصرين من النساء والاطفـــال ؛ وسمح بينهم لفوزي الاطرش نجل فارس الاطرش الموظف في السويداء الذي دفعه ولاؤه وولاء والده لفرانسا ؛ إلى ان يحاصر مع الفرنسيين في القلعـة – سمح له أن يخرج مع النساء والاطفال الفرنسيين ، ويلتحق بأسياده المستعمرين . ولا غرابة فوالده أيضـــاً عميل فرنسي في قرية « ذيبين » ؛ تنكر للثورة منذ بدايتها ، وكان لا يتورع عن التجسس لفرنسا أثناء الثورة ؛ وموافاتها بتقارير عن حركات الثائرين يحملها إلى القيادة الفرنسية في حوران بعض جواسيس فرانسا ؛ حتى ضاق قادة الثورة بأعماله ذرعاً ، وخاصة ابن عمه سلطان ، فقبض عليه ، بعد وصول الامـير عادل ارسلان الى الجبل ، وحمل اليه ، واستخدم كل براعته لاقناعه بالعدول عن خطته التي تعتبر خيانة وطنية ، وأفهم انه لولا وشائج القربى التي تربطـه بآل الأطرش لحكم عليه بالموت ، ونفذ به الحكم فوراً . واخيراً اضطر الأمير عادل لأن يجلده أمام الحاضرين، ولكن العميل لم يرتدع ، وظل على ولائـه لفرنسا ، هو وابنه الذي سمح له بمغادرة الجبل مع قافلة النساء والاطفال الفرنسيين .

استطعت خلال اقامتي في دمشق ان اهتدي الى شـاب من حمص اسمه مظهر السباعي كان ضابط رشاش في الجيش العثماني ، ثم في الجيش العربي ، ولما احتل الفرنسيون سوريا الداخلية ، وحلوا الجيش العربي ، التحق بثورة ابراهيم هنانو في الشمال، وقبض عليه في البادية مع من قبض عليهم من أفراد العصابة وضباطها، ثم أفرج عنه وعن إخوانه ،حسب نصوص معاهدة انقرة التي ورد فيها نص بالعفو عن جميع جرائم الثورات في كيليكية وسوريا ،فالتحق بعد خروجه من السجن بحكومة الحجاز ، وعين ضابطاً برتبة نقيب في جيش الملك الحسين ، هو وأخوه الضابط في الجيش العثماني سابقاً . ولما احتل السلطان عبد العـزيز آل سعود الحجاز في الشهور الاولى من عام ١٩٢٥ ، سرح من الجيش مع من سرح من الســوريين

والفلسطينيين ، وعـــاد الى سوريا . وكنت اهتديت اليه مصادفة في إحدى سهراتنا الليلية مع فريق من رفاق المدرسة المتحمسين مثلي للثورة الدرزية ، وبعد انقضاء السهرة ، سعيت حتى انفردت به ، وفاتحته بأمر ثورة حماة ودوره فيها ، فأظهر استعداده لبذل روحه في سبيل خلاص وطنه من الاستعمــــار ، وتعاهدنا على العمل معاً ، وان يبقى معي في دمشق ، تحت الطلب ، ورهن إشارتي ، وبعثت بكتاب بالطريقة المتفق عليها إلى سعيد الترمانيني اعلمــــه بنجاحي في أمر الضابط الرشاش ، وإذا بجواب منه يدعوني ورفيقي الى حماة، للعدل فيها ، فقررنا السفر اليها بقطار اليوم الثاني .

اعتقال الوطنيين في دمشق

وكنت في الأيام الاخيرة اتصل كل صباح ، في مقهى الكمال ، بابن عمي نجيب الريس الذي عرفت انه من المنتمين الى حزب الشعب ، واتحدث معه عن نشاط الحزب لدعم الثورة الدرزية ، وأستحث ، بطريقه ، أعضاء الحزب على تشجيع الثــورة في المناطق السورية الأخرى ، وأطلعته ، لآخر مرة ، على انني مسافر مع رفيقي مظهر السباعي الى حماة ، فإذا كان الحزب بحاجة الى الاتصال باحد أعضاء فرعه في حماة ، لأمور يخشى الجهر بها ، فأنا على استعداد للقيام بهذا الاتصال ، فطلب مني ان أقابله في صباح الغد ، أي في صباح اليوم المقرر فيه سفرنا ليلا بالقطار الى حماة . ووعد بأن يحملني آخر تطورات الوضع والتعليمات لفرع الحزب في حماة . وجئت كعادتي في صباح ٢٧ آب عام ١٩٢٥ الى المقهى ، وانتظرت طويلا فلم يحضر نجيب الريس ، خلافاً لعادته في كل صباح ، ولما قطعت الأمل من مجيئه الى المقهى ، توجهت مع رفيقي السباعي الى مكتب جريــدة « المفيد » في بناية العابد ، وكان يومئذ يحرر فيها ، فوجدت مكتبه مغلقاً ، وعرفت من المستخدمين انه اعتقل في الليل الفائت مع عدد من إخوانه الوطنيين ، وانهــم ما يزالون في سجن الشرطة معزولين عن أي اتصال ، فأسفت لانني لم استطع ان أقوم بواجب

الاتصال بين الوطنيين في دمشق وحماة . وعرفت في النهـــار نفسه ان سبب الاعتقال هو الاجتماع الذي عقـده بعض أعضاء الحزب في منزل الحاج عثمان الشراباتي، وناقشوا فيه ، لأول مرة، موقف الحزب من الثورة في جبل الدروز، وكان هناك اعتراض من بعض الاعضاء ، وتعلل بأن عمل الحزب سياسي ، دون عنف ، كما ورد في نظام الحزب ، وان أي تدخل بالثـورة يقضي على الحزب ، واخيراً اتخذ قرار بالاكثريـة الساحقة ، يقضي باتصال الحزب بقيادة الثورة ، وايفاد الدروبي والحلبي من اعضائه الى الجبل بالمهمة التي كنت أشرت اليهـا ، ورسم خطة معها لدخول ثوار الدروز دمشق ، والعمل مع أهلها على إجــــلاء الفرنسيين عن العاصمة ، وبذلك تعم الثورة سائر المناطق السورية ، وتغدو ثورة وطنية شاملة . وكان في جملة المقررات أيضاً ان يتداعى المجتمعون الى السفر في اليوم الثاني الى قرية « حوش المتبن » لصاحبها جميل مردم ، حيث يتسللون منها فرساناً الى جبل الدروز بطريق المرج . وكان في هذا الاجتماع يحيى حيـــاتي الضابط الركن في الجيش العثماني سابقاً، والدكتور عبدالرحمن الشهبندر ، وجميل مردم ، وفوزي البكري ، وأخوه نسيب البكري ، وسعيـد حيدر ، وسعد الدين المؤيد العظم ، ونبيه العظمة ، ونجيب الريس وغيرهم بالاضافة الى عثمان الشراباتي صاحب الدار . ولما انصرفوا من الاجتماع ، بعد منتصف الليـل ، الى منازلهم ، خاف الدكتور الشهبندر ان يبلغ أحد أعضاء الحزب المشبوهـــين ، مقررات الحزب الى السلطة الفرنسية في الليل فيعتقل هو واخوانـه ، لذلك لم يذهب الى بيته ، وغادر دمشق قبيل الصباح الى الزبـــداني حيث كانت اسرة زوجه من آل المؤيد العظم تصطاف فيها . وهناك اطلع نزيه المؤيـد العظم ابن حميه على ما اتخذ من قرارات في الحزب ، وعلى عزمه وعزم اخوانه على الاجتماع في قرية « حوش المتبن » للسفر الى جبل الدروز ، فعادا معاً الى دمشق فحوش المتبن ، ولما لم يجدا فيها غير العميد الركن المتقاعد يحيى حياتي ، وتخلف الباقون عن الحضور ، عاد الثلاثة الى دمشق . وكانت السلطة قد قبضت في الليل على فارس الخوري ، وتوفيق شامية ، والحـاج عثمان الشراباتي ، ونجيب الريس ،

وفوزي الغزي وغيرهم من الوطنين الذين عثرت عليهم في منـــازلهم ، وأخذت تتعقب الآخرين ، فأحاطت منزل الدكتور الشهبندر في عرنوس بالشرطة السرية والجواسيس ، ففر من فر ، واختفى من اختفى منهم ، ولجأ الشهبنـدر ، بعد عودته من « حوش المتبن » الى الزبداني . وبعد أيام اتضح ان الفرنسيين على علم بمقررات حزب الشعب ، نقلها اليهم ليلة الاجتماع أحد عملائهم في الحزب ، وأن السلطة علمت بعدئذ بوجود الشهبندر في الزبداني ، ففر الدكتور الشهبندر مـع نزيه المؤيد من الزبداني بطريق سرغايا وحلبون الى الغوطة ، فحـوش المتبن في المرج ، حيث أرسلوا من القرية من يتصل بإخوانهم المختفين في دمشق ، فحضر جميل مردم صاحب الحوش، وسعدالدين المؤيد العظم، وحسن تحسين ، واخوان لهم امتطوا كلهم الخيل في الليل ، وقد اصبحوا نحو عشرين فارســـاً، وانطلقوا سالكين الطريق الصحراوي الى الجبل ، فبلغوا أولى قراه في الصباح .

غلطة كادت تفسد كل شيء !

جلست مساء اليوم المقرر لسفرنا أتناول العشاء مع رفيقي السباعي في مطعم قرب السنجقدار ، ولما انتهينا ، سألت رفيقي ما قوله في ان أذهب بنفسي إلى دائرة الشرطة ، باعتباري ابن عم نجيب الريس المعتقل ، واطلب مقابلتـــه متذرعاً بحاجته الى نقود أو ملابس ، لعلهم يسمحون لي بمقابلته ، فالتقط من بين شفتيه كلمة أو اشارة عما يجب عمله بالنسبة لاخوانـــه الوطنيين في حماة ، فوافقني على رأيي ، وهو عسكري قليل خبرة مثلي بالامور السياسية واعمال المخابرات . وكنا نجهل كل ما تم في اجتماع الوطنيين في دار الشراباتي ، واطلاع السلطة على قراراتهم ، بل كنا نجهل حدوث الاجتماع من أساسـه ، فنهضت ، وتوجهت بنفسي الى دائرة الشرطة اسأل عن ابن عمي المعتقـــل ، فأحلت الى دائرة التحري ، أي الشرطة السرية ، واستدعاني رئيسها حلمي عزيز الشهـــير بأبي رباح ، وحقق معي عن صلتي بنجيب الريس محاولاً بنظراته الحولاء استجلاء

ما اكتمه عنه ، ثم ابلغني ان نجيب الريس ممنوع من الاختلاط بأي احـــد من الناس ، اقرباء كانوا أو غير اقرباء . ولما خرجت من لدنه بخفي حنين ، اطلق ، على مـا يظهر ، جواسيسه ورائي الى المطعم حيث ينتظرني رفيقي السباعي ، وبقينا تحت رقابتهم حتى ركبنا القطار حوالي منتصف الليل الى حمـاة ، فاعلم حامي عزيز دائرة المخابرات الفرنسية التي ارسلت برقية إلى ضابط الاستخبارات في حماة تطلب منه ان يراقب منير الريس ومظهر السباعي ، ويسجل حركاتهما في حماة . لقد كانت هـذه الحركة المرتجلة غلطة مني في دمشق أدت الى وضعي مع رفيقي تحت رقابة شديدة اثناء وجودنا في حماة ، اذ لم نكد نصل بعد الظهر الى فندق العاصي حيث احللت ضيفي السباعي فيه ، ونخرج معاً للقاء عبدالحسيب الشيخ سعيد في مكتبه في سوق الدباغة ، وهو صحافي وصاحب مطبعة ، ومن المشتركين في التخطيط لثورة حماة ، حتى اشار الينا من وراء منصته ان لا ندخل مكتبه ، وان نبتعد فوراً عن محله ، فتابعت سيري مع رفيقي السباعي نحو جسر العاصي ، وسلكنا الطريق الجديد على ضفة العاصي حيث يقوم فندق ابي الفداء ودار البلدية ، نتمشى الهوينى كأننا في نزهة ، واذا بشاب يلحق بنا ، ويقترب منا حذراً ، ويهمس في اذني بان برقية وردت اليوم الى ضابط الاستخبارات من دمشق ، بوضعنا تحت الرقابة ، وتعلمه اننا قادمان في القطار ، وان احـــد الاخوان الذين يخططون للثورة كان صديقاً لترجمـان المستشار اطلع من قبيل المصادفات على هذه البرقية ، واعلمهم بمحتواها . وقـد عرفت بعدئذ ان فهمي العظم هو المعني بالموضوع ، فقد ذهب نهار قدومنا الى حماة لزيارة صديقه الشيخ فؤاد حبيش اللبناني ترجمان ضابط الاستخبارات ، وكان مكلفاً من مخططي الثورة في حماة ان يبقى على صلة بالترجمان ، ويتودد اليه كصديق حميم ، ليفهم منه مـا يستطيع من اخبار الفرنسيين وخططهم . وبينما كان جالساً الى جانب الترجمان في مكتبه استدعي هذا لمقابلة رئيسه ضابط الاستخبارات . وكان يومئذ في هذا المنصب « القومندان كوستلير » ، فأخذ فهمي العظم الضليع باللغـة الفرنسية يقرأ بسرعة الاوراق المبعثرة على مكتب الترجمان ، فوقع نظره على البرقيـة ،

وكان يعرف انني ورفيقي مرتبطان معهم في التخطيط لثورة حماة ، فحمل الخبر فوراً الى اخوانه ، واتخذوا التدابير كي لا تكتشف السلطة الفرنسية صلتنا بهم. وفعلاً اغفلنا الفرنسيين بحركاتنا وتصرفاتنا ، واوهمناهم انني دعوت صديقي السباعي لزيارة حماة ، واللهو والتسلية ، وانتجاع المقاصف ، وتناول الطعام والشراب في المحلات العامة . وكنت بعد ان اوصله الى الفندق ، اتسلل إلى المواعيد التي اضربها للقاء باخواني ، بعد ان اتأكد انني غير مراقب . وكانت ازقة حماة الضيقة تساعد على الافلات ممن تحدثه نفسه بمتابعة خطواتي .

عقدت عدة اجتماعات للبت في تحديد موعد للثورة في حماة ، وكنت من المصرين على الإسراع في تحديد الموعد ، وتقريب أيامه ، واقول ان كل يوم ينقضي يزيد في قدرة الفرنسيين على حشد النجدات والقوى ، ويقرب إمكان ضرب ثورة الجبل التي لا ينقذها من تكالب القوات الفرنسية عليها غير نشوب ثورة في منطقة حساسة من سوريا ، كحماة ، وتوزع القوات الفرنسية لمقاومة الثورات العديدة التي قد تنشب اذا ما نجحت ثورة حماة . ولكن كان بين الذين اطلعهم فوزي القاوقجي على نياته ، وطلب منهم دعم ثورته في حماة ، نجيب آغا البرازي من اصحاب القرى والاملاك ، وهو رئيس لبلدية حماة ، وبينه وبين القاوقجي صداقة دفعت القاوقجي الى اطلاعه على سره ، باعتبار البرازي من الأغنياء القادرين على مد الثورة بالرجال من القرى العشر التي يملكها في الريف ، وبالمال الذي تمتلىء به خزائنه ، فيما اذا اقتضى الأمر شراء السلاح لتزويد الرجال به. ونجيب البرازي ، في الواقع ، من اصحاب الاملاك الذين يقدمون مصلحتهم على مصلحة الوطن ، إلا انه تظاهر ، امام صديقه القاوقجي الذي وضع به ثقته ، بالاستعداد لعون الثورة في حماة ، لا سيما وهو يسمع أنباء هزيمة الفرنسيين في جبل الدروز ، وسوء وضعهم في سورية . لقد راح يتظاهر للوطنيين في حماة بأنه معهم ، حتى اذا نجحت الثورة في جبل الدروز ، وجاءت للبلاد بنصر سياسي ، حسب في عداد الوطنيين المجاهدين ، ولكنه لما وجد نفسه في الاجتماعات مطالباً بتحديد موعد لثورة حماة ، وبتقديم المال والرجال لها ، مما قد يؤدي به وبثروته الى مشارف الخطر ، في حال فشل الثورة ، اخذ يطلب تأجيل

الموعد الى أشهر الخريف . ريثما تنتهي اعمال الفلاحين على البيادر في القرى ، وتجمع الغلال ، خوفاً من سطو البدو عليها ، عند اختلال الأمن بسبب الثورة. ولما قيل له ان القوات الفرنسية تتوالى نجداتها الى سوريا ، وتحتشد بقيادة الجنرال « غاملان » في حوران للقضاء على الثورة ، وان ثورة حماة لا معنى لها في حال ضرب ثورة الجبل والقضاء عليها ، تعلل بأنه لا بد اذن من الاتصال بقيادة الثورة في جبل الدروز ، والاتفاق معها على شروط واضحة للتعاون بين الثورتين ، وترك أمر تحديد الموعد لها ، لأنها ادرى منا بالوقت المناسب لنشوب الثورة في حماة ، وأصر على رأيه هذا ، مما حمل القاوقجي واخوانه المجتمعين للرضوخ لارادته ، فقد خشوا ، ان لم يأخذوا برأيه ، ان ينسحب من حركتهم ويطلع الفرنسيين عليها ، فيقضي عليهم كلهم ، وعلى حركتهم . ولما كنت اعلنت انني ورفيقي مظهر السباعي لن نشترك في ثورة حماة ، اذا لم يحدد لها موعد قريب ، واننا في حال التأجيل سنبادر للسفر الى جبل الدروز للالتحاق بالثورة ، والقتال في صفوف المجاهدين الدروز ، اقترح احد الاخوان ان نكون رسولي الثورة الحموية الى قيادة الثورة فيجبل الدروز ، وان نحمل اليها مطالبها . وفي اليوم الثاني للتأجيل زارني الكابتن فوزي القاوقجي يرافقه احد مؤسسي الحركة ، في دارنا ، وزودني بالشروط التي اتفق عليها لنحملها الى سلطان الاطرش ،فحفظتها عن ظهر قلب ، حتى لا احملها مكتوبة ، واعرض نفسي للوقوع بأيدي الفرنسيين ، وسافرت الىدمشق لاستخراج جواز سفر الىالاردن، على ان يلحق بي ، بعد ايام ، مظهر السباعي الى دمشق، فهو كان يحمل من قبل جواز سفر . واخترت السفر الى الجبل بطريق عمان ، متذرعاً بأني عينت معلماً في شرقي الاردن . وقد يسر الله لي في دمشق من سهل لي امر جواز السفر ، بعد ان وقفت دائرة الامن العام الفرنسي دون إعطائه . وفي الثالث عشر من ايلول عام ١٩٢٥ وصل الى دمشق مظهر السباعي ، بعد ان حفظ عن ظهر قلب ايضاً الشروط والمطالب التي اتفق عليها منظمو ثورة حماة . وفي صباح اليوم التالي امتطى كل منا قطار عمان ،في مركبة غير المركبة التي فيها صاحبه، زيادة

في الحذر ، حتى تجاوزنا حدود سوريا . وفي عمان اتصلنا بالمجاهد سعيد العاص، وبعض اخوان لنا ، وطلبنا منهم تيسير سفرنا سراً الى جبل الدروز ، حتى لا نقع بأيدي الانكليز ، حلفاء الفرنسيين في الاستعمار ، وتعهدت لهم بان ادفع اجرة سيارة خاصة تنقلنا الى الجبل ، او أجر راحلتين نركبها الى مقر الثورة .

في مجاهل البادية .

كانت عمان تغص بالجواسيس الانكليز والفرنسيين ، لذلك قام العقيد المتقاعد سعيد العاص ، وهو في الاصل مواطن حموي ، والاستاذ عبد الستار السندروسي القاضي في محاكم عمان ، والمواطن الحموي جميل العلواني الموظف في عدلية عمان — قام هؤلاء الثلاثة بتسهيل سفرنا الى جبل الدروز ، فاستأجروا لنا سيارة ، حملتنا من ضاحية المدينة ، واوصلتنا عصر يوم ١٧ ايلول عام ١٩٢٥ الى منزل الشيخ حديثه الخريشي ، شيخ الخريشات في عشيرة بني صخر ، ورافقنا في السيارة شاب سوري اسمه علاء الدين المسوتي ، قيل لنا انه مثلنا يريد الالتحاق بالثورة. وفي المساء وصلت الى الحي سيارة اخرى من عمان تحمل الشيخ حديثة صاحب البيت ، ونصري سليم الضابط في فلسطين ، وشقيق المجاهد فؤاد سليم من دروز لبنان المثقفين تثقيفاً عالياً ، ومن الذين اشتركوا في الثورة العربية ، وفي الجيش العربي حتى بلغ فيه مرتبة عالية ، ثم نزح عن دمشق إثر الاحتلال الفرنسي ، واقام ردحاً في عمان وفلسطين يعمل مع اخوانه احرار سورية ، وخاصة اخوانه من المنتمين لحزب الاستقلال الذي تألف في سورية بعد الحرب العالمية الاولى ، وجمع بين المنتمين لمختلف الجمعيات والأحزاب العربية في العهد العثماني ، حتى ابعده الانكليز عن فلسطين وشرقي الاردن ، فاقام في مصر . ولما نشبت الثورة في جبل الدروز ، غادر مصر سراً ، واجتاز سيناء مع الاعراب على ظهور الجمال ، وتسلل الى فلسطين وشرقي الاردن حتى التحق بثورة الجبل ، وكان قلبها النابض

بتجاربه في الثورة العربية ، وبثقافته الممتازة ، وبأنه من ابناء معروف يعمل ما لا يستطيع غيره ان يعمله من شباب العرب الملتحقين بالثورة .

كان اخواننا في عمـــان تركوا امر ايصالنا الى جبل الدروز للشيخ حديثة الخريشي ، فهو كشيخ في عشيرة الصخور قادر على أن يجد الرواحل والدليل ، فلما حضر الشيخ مساء تحدث مع السائق الذي جاء به من عمان الى قرية ام العمد والمضرب الذي نزلنا فيه ضيوفاً ، واخذ يقنعه بان يحملنا بسيارته الى جبل الدروز ، ويطمعه بالاجر ، فلمـــا اتفقنا عاد السائق الى عمان ليتزود بالوقود ، ويكمل نواقص سيارته في رحلة طويلة سيضرب فيها بمجاهل البـادية ، ثم بوعور الجبل البركانية ، وحوالي السـاعـة الخامسة من صباح ١٨ ايلول انطلقت السيارة ، من طراز فورد ، تحمل مظهر السباعي ، ونصري سليم ، وخير الدين اللبابيدي ، ومنير الريس ودليلاً من البدو كان هيأه الشيخ حديثة ، وتخلف في المضرب عند الشيخ ،عـــلاء الدين المسوتي ، لان السائق ابى ان تحمل سيارته أكثر من خمسة ركاب لصعوبة الطريق .

وقد دفعت للسائق سلفاً نصف اجرة السيارة ، ودفع نصري سليم النصف الآخر ، ولم نبتعد عن أم العمد حوالي خمسين كيلو متراً حتى انفجرت احدى عجلات السيارة ، وتبين ان السائق نسي الآلة الرافعة في عمـــان ، فعملنا على تلافي هذا النقص ، بقوة عضلاتنا ، وبوضع الحجارة تحت السيارة ، ثم تبين ان السائق نسي ايضاً الخرطوم المطاط الذي يصل المنفاخ بالعجلة ، فتغلبنا ايضاً على هذا النقص بشق الانفس . تابعنا سيرنا في البادية دون سلوك طريق معينـــة ، يتبع السائق اشارة الدليل الذي يحاول ان لا نقع بيـد الانكليز في « كامب » المفرق القريب من الحدود السورية . وقرب الظهيرة اضعنا اتجاهنـــا ، ووجدنا أنفسنا وسط ارض بركانية وعرة ، تسير السيارة بصعوبة فوق صخورها ، وقد انفجرت اكثر من مرة عجلاتها ، حتى لم يبق مع السائق احتياطي لتبديـــل

مطاط العجلات ، بل لم يبـق مطاط الا انفجر ، واستعصى اصلاحه ، فاضطر الى ان يسير على العجـــلات الفارغة من الهواء حتى اذا تقطعت اوصالها ، اخذ يسير على الحديــد ، واخيراً اهتدينا الى خرائب ام الجمال ، وبعد اجتياز حرتها الوعرة ، سلك الدليل بنا طريقاً يعرفها ، اوصلتنا بعد الظهر الى قرية « ذيبين » ، وتناولنا الغداء في منزل حسن حاطوم من وجوهها. ولدى الحساب تبين اننا اجتزنا من منازل حديثة الخريشي الى ذيبين اول قرية جنوبي جبل الدروز ، مسافة تجتازهـــا الخيل عادة بخمس عشرة ساعة — اجتزناها نحن بالسيارة بأربع عشرة ساعة ، لأننا ضللنا الطريق ، وقطعنا مسافة منه تسير بنا السياره على دواليب من حديد، ليست في سرعتها اسبق من الخيل.



المجاهد الطيار خيرالدين اللبابيدي

معركة المسيفرة

- ٢٤ -

حدثنا حسن حاطوم والدروز الذين وجدناهم في داره ، في « ذيبين » ، عن معركة نشبت بين الدروز والفرنسيين في قرية « المسيفرة » من قرى حوران ، يوم السادس عشر من شهر ايلول ، أي قبل وصولنا بيومين الى الجبل، سنتحدث عنها فيما بعد . تابعنا سفرنا ، بعد الغداء ، الى قرية المجيمر ، ومنها الى قرية « عري » ، وحللنا ضيوفاً في دار الامير حمد الاطرش، فوجدنا في دار عري ـ دار الامارة ـ الزعيم الركن المتقاعد يحيى حياتي ، وسعد الدين العظم ، وفؤاد سليم ، وحسني صخر . وكانت فرحة نصري سليم عظيمة بلقاء أخيه . اما أنا فقد طلبت من الامير حمد الاطرش ان يوصلني ورفيقي مظهر السباعي الى سلطان الاطرش ، لأننا نحمل رسالة خطيرة إليه ، لا نبوح بها الا له ، فكان الجواب ، انه ومن عنده من الضيوف يجهلون مقر سلطان ، لانه يتجول دوماً ، ولكنه سيسعى للسؤال عنه ، فاذا عرف مقره اعلمه بأمرنا . وكان حذر الدروز في محله من ايصال الزوار الجدد الذين يجهلون أمرهم الى سلطان الاطرش ، او البوح لهم بمقره ، ومن مستلزمات الثورة ، فالجاسوسية الفرنسية كانت تعمل بكل نشاطها لمعرفة تنقلات سلطان في الجبل ، وتقصف الطائرات الفرنسية كل قرية يبلغها انه دخلها أو حل فيها. وكانت شبكة الجاسوسية في الجبل منظمة وقوية وخطيرة. ومن نشاطها ان كل غريب يصل الى جبل الدروز كان نبأ وصوله ، مع اسمه وهويته يصل الى الفرنسيين في مدة لا تتجاوز اليومين . وكثيراً ما كانت الطائرات الفرنسية تقصف القرية التي بات فيها سلطان الاطرش اكثر من ليلة واحدة ، لذلك اخذ سلطان يسرع في تنقله بين القرى ، ولا يبيت في قرية اكثر من ليلة ، وان

اضطر للاقامة مدة اطول اختار قرية صغيرة ، وسعى لاخلائها من الاطفال والنساء، فقد كانت الغارة الجوية على القرية الواحدة تقوم بها عدة طائرات ، حتى يبلغ عددها احياناً السرب والسربين . وكان سلطان في جميع الغارات التي صادفها قدوة في رباطة الجأش ،فقد تعرض مرة ، في قرية « العطنة » ، وهو جالس في شباك احدى الغرف ، يكتب رسالة ، لغارة قامت بها طائرات عديدة ، دمرت بقنابلها الكثير من المنازل ، فلم يتزحزح من مكانه ، ولم يتوقف عن الكتابة ، مع ان اكثر من كان معه ، غادر الدار الى خارج القرية خشية أن تنهدم على ساكنيها ، الا سلطان ، فلم يتزحزح ، ولم يبدل وضعه ، وكأن شيئاً لم يحدث .

غارة على اطراف دمشق

كانت امنية الوطنيين السوريين ان يتقدم الدروز قبل ان تستكمل فرانسة حشد قواتها — ان يتقدموا نحو دمشق ، ويدخلوها بالاتفاق مع ثوار من اهلها ، في يوم يستعدون له . وقد حمل هذه الامنية إلى سلطان زكي الدروبي وتوفيق الحلبي رسولا الوطنيين في دمشق ،فتقدم يوم ٢١ آب مئات من مقاتلة الدروز ، اكثرهم من الفرسان ،نحو الكسوة في اتجاه دمشق ، حتى بلغوا قرية العدلية ،وقيل ان طلائعهم وصلت إلى بوابة الله في حي الميدان ، ولكن الطائرات الفرنسية طاردتهم ، وقصفتهم ، وأصلتهم من نار رشاشاتها ، وخرجت من دمشق قوة افرنسية لمطاردتهم ، وبعد صدام لم يطل أمره ، انسحب الدروز الى جبلهم ، فقد كان الوعد ان يستقبلهم ثوار من دمشق وحي الميدان خاصة ، ويدخلوا معهم المدينة ، ويهاجموا فيها مواقع الفرنسيين ، ولكنهم لم يجدوا من يستقبلهم فآثروا العودة الى الجبل . والواقع ان الوطنيين كانوا اعتقلوا أو اختفوا إثر اجتماعهم الاخير في دار الحاج عثمان الشراباتي ، ولم يبق أحد منهم على صلة بالثوريين من اهالي الميدان والشاغور والعمارة وغيرها من أحياء دمشق ، ففشلت

حركة الدروز ، وعادوا من قرية العدلية يحملون السوريين مسؤولية الفشل . ولما وصل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر واخوانه الى الجبل ، جرت مباحثات بينهم وبين سلطان الأطرش حول توجيه قوة من الدروز الى دمشق ، وتعهد يحيي حياتي باحتلال دمشق بعدد حدده من المقاتلة ، ثم اخذ يزيد الارقام كلما تأخر الزمن ، متذرعاً بان النجدات الفرنسية تصل تباعاً الى سورية ، ولا بد له من ان يدخل تزايد قوى العدو واسلحته في حسابه . ولم ينفذ هذا الطلب لان الدروز ، كما قلنا ، كانوا ينتظرون من المناطق السورية الأخرى ، وخاصة حوران ودمشق ، ان تقوم هي بواجبها ، وعندئذ يهبون لنجدتها ، وقد جربوا تجريدة العدلية ، فلم يجدوا أحداً من اهـــالي دمشق استقبلهم . وليس من السهل ان يدخلوا وحدهم مدينة كبرى ، ويخوضوا فيها مع الفرنسيين حرب الشوارع ، واهل تلك المدينة يتفرجون ، وينتظرون من الدروز ان يحرروا مدينتهم !..

وقد جاء في انباء الفرنسيين عن تجريدة العدلية ما يأتي : « يوم ١٧ آب بينما كان الجنرال « سوله » خارجاً بسيارته ، وبرفقته الكابتن « دوكوتل » لتفتيش الجنود قرب قرية الكسوة ، عارضه عند قرية المرجانية كوكبة من فرسان الدروز ، واطلقوا نار بنادقهم على السيارة ، فلم يصب احد بأذى ، واجتازت السيارة الحجارة الموضوعة خصيصاً لاعاقتها عن السير ، ولكن كوكبة ثانية استقبلتها عند عقبة ثانية من الحجاره ، واطلقت عليها النار ، فاصيب الجنرال « سوله » في فخذه ، وجرح الكابتين « دوكوتل في كتفه ، ونجت السيارة من الدروز .

وجاء في اخبار الفرنسيين ايضـاً ان الدروز من المقرن الشمالي نسفوا جسر ديرعلي قرب محطة دير علي القريبة من الكسوة ، ورابطوا عنده ، فوجه الفرنسيون قوة من دمشق ، ولكن الدروز اشتبكوا معها ، وغنموا منهـا خيلاً وسلاحاً ، وعادوا الى جبلهم . وهذا يدل على أن الدروز ، مع الانعزال الذي فرضته عليهم أوضاعهم بالنسبة لاهل حوران وسائر السوريين ، لم يترددوا في جس النبض ،

عندما اتصل بعلمهم عزم فريق من اهالي دمشق على الثورة . ولكن السياسيين الذين عاملوهم من دمشق كانوا في الواقع غير ثوريين ، والا لرتبوا أمر الثورة في بلدهم ، وقاموا بها ، وعندئذ كانوا سيجدون الدروز يخفون لنجدتهم ، ولا دليل على ذلك اكثر من اختفاء اكثر الوطنيين عند القبض على فارس الخوري ، وفوزي الغزي ، ونجيب الريس واخوانهم ، واهتمامهم بالفرار الى الجبل ، بدلاً من الاختفاء في دمشق ، والاتصال بالثوريين من الاهلين ، وتنظيم الثورة ، والتعاون مع الجبل على خوض معركتها حسب خطة مرسومة .

معركة المسيفرة فذة في تاريخ الثورة

لما ادرك الدروز ، من الانباء المتواترة ، ان الجنرال « غاملان » يحشد قواته في المواقع الاستراتيجية في حوران للزحف على الجبل ، وان ما علقوه من آمال ، على ثورات قد تنشب في مناطق سورية اخرى ، لم يتحقق منها شيء ، بل كانت كلها سراباً ، بدأوا يتداولون ، فيما بينهم ، حول الخطة التي تمكنهم من عرقلة زحف الجيش الفرنسي على جبلهم . وكانوا على علم بان الفرنسيين في حوران تقدموا بقوة من جيشهم الى قرية « المسيفرة » في حوران ، وجعلوا من هذه القرية القريبة من حدود الجبل مخفراً امامياً للانطلاق منه نحو المقرن الجنوبي ، وفيه منازل آل الاطرش ، وبلدة سلطان الاطرش . وبعد التداول قرّ رأي قيادتهم على مهاجمة قرية « المسيفرة » لضربها من اراضيهم ، وإنزال ضربة قاصمة بقوات الجنرال « غاملان » قبل ان تداهمهم في جبلهم . وفعلاً ارسلت القيادة الى القرى تدعو المحاربين من الدروز الى التجمع ، ولما اكتمل عددهم وجهتهم في ليل السادس عشر من ايلول الى المسيفرة ، وعلى رأسهم عدد من زعماء الدروز ، ومن اللبنانيين العقيد فؤاد سليم ، ومن السوريين نزيه المؤيد العظم ، وسرحان الخالدي الشهير بأبي تركي ، وهو من قدامى الضباط غير المتعلمين في الجيش التركي . وكانت الخطة المرسومة ان يتسلل الدروز قبيل

الفجر ، الى القرية ، ويفاجئوا فيها القوة الفرنسية التي تحصنت بالقرية، وحفرت حولها الخنادق ، واقامت الحصون والاستحكامات والاسلاك الشائكة ، ولم تترك غير منفذ غربي واحد من القرية الى حوران، ومنفذ مثله شرقي الى الجبل - كانت الخطة ان تفاجأ هذه القوه التي كانت تعد بضعة آلاف جندي، بالتسلل، ثم بهجوم صاعق مباغت هدفه احتلال القرية، واعمال السيف في رقاب الحملة المعسكره فيها . وقبيل فجر السابع عشر من ايلول تقدم الدروز براياتهم ، في صف طويل سالكين الطريق الشرقي الى منفذ القرية ، يرومون منه التسلل ودخول القرية . ولما بلغ بعضهم المنفذ ، ووراءه رتل طويل من المقاتلة ، اطلق احد الجواسيس المندس بين الدروز عياراً نارياً من بندقيته ، هبت على اثرها الحملة كلها تطلق نيرانها على تجمعات الدروز ، تساعدها اسهم الاضاءه على الرؤية ، فأخذ القتلى والجرحى يتساقطون بكثره ، وكان اصعبهم موقفاً المتقدمون ، فاندفعوا، فرسانهم ومشاتهم ، الى القرية ودخلوها ، تخلصاً من نار العدو ، وتراجع المتخلفون منهم ، وهم الاكثرية ، وابتعدوا عن القرية ، تحت وابل من النيران الحامية، وانبلج الفجر، وفي القرية نحو ستمئة مقاتل من الدروز، وعلى بعد من القرية في الغرب اضعاف هذا العدد ، لا يستطيعون ان يساعدوا اخوانهم، للنار التي تنفثها اسلحة الوف الجنود من الحصون حول القرية ، ومن منازل القرية نفسها .

كانت المعركة بالنسبة للذين خرقوا الطريق ، ونفذوا الى القرية معركة حياة أو موت ، فنازلوا الفرنسيين في ازقة القرية وبيوتها ، وقتلوهم، وهزموهم، حتى سيطروا على منازل القرية، وركبوا اسطحتها، وركزوا اعلامهم وراياتهم عليها ، ولكن الكثره من الجنود والضباط كانوا في الخنادق والحصون المقامة حول القرية ، وكان من المستحيل على الدروز، لقلتهم ، وللاسلحة الخفيفة التي بيدهم بلوغ هذه الحصون والخنادق ، والاستيلاء عليها ، فلبث كل فريق في مكانه ، وتحصن فيه ، واخذ يدافع عنه ، حتى نفدت من الدروز ذخيرتهم ، فاستبدلوا

بنادقهم ببنادق فرنسية غنموها في القرية . وربما افاد الفرنسيين الذين كانوا نياماً في القرية ، انشغال الدروز الذين دخلوا القرية بالغنائم اولاً ، ففر بعضهم لاجئاً الى الخنادق ، إلا ان العقلاء من الدروز ، وجدوا ان الخيل والبغال التي كانت تملأ دور القرية واسطبلاتها ، ستشغل المحاربين الدروز عن مهمتهم ، وهي القتال ، لذلك اخذوا يقتلون كل جواد فرنسي ، حتى كف اخوانهم عن الغنائم ، والتفتوا الى القتال ، فاستطاعوا تطهير منازل القرية من الفرنسيين ، وسيطروا عليها . ولما اشرق النهار بنوره ، وعلت الشمس ، وصلت اسراب الطائرات الفرنسية تقصف تجمعات الدروز شرقي القرية ، وتلاحقهم برشاشاتها ، حتى ابعدتهم كثيراً عن القرية ، وبعضهم انصرف الى قراه ، وبقي فريق قليل بعيداً عن نيران المعسكر الفرنسي ، ينتظر الليل لعله يستطيع ان يمد يد العون لاخوانه المحاصرين في « المسيفرة » . لقد كان بين الذين اقتحموا القرية عدد من آل الاطرش ، وحمزة الدرويش ، وفريق من اقربائه ، ومحمد عزالدين الحلبي مدير العدلية في حكومة جبل الدروز ، فقد ابلى هؤلاء البلاء الحسن في القرية ، وظلوا كل ساعات النهار يناوشون العدو المختبىء في حصونه ، حتى كان العصر ، وصلت كتيبة من الفرسان الصباحيين قادمة من الغرب لنجدة حامية المسيفرة ، وايقن الدروز في القرية انهم هالكون اذا ما تقاعسوا عن الدفاع ، فاصلوا الكتيبة ناراً حامية من بنادقهم ، واخذوا بالحداء والاهازيج ، حتى اوقفوا غارة الصباحيين وارغموهم قبيل الليل على التراجع والعودة الى قواعدهم . وكان الليل امل الدروز المحاصرين المرتجى ، للخلاص من هذا المأزق . وربما كان الليل بعبع الفرنسيين المحاصرين في الخنادق والحصون خشية ان تصل فيه النجدات الى الدروز ، وتشن عليهم هجوماً فيسوء وضعهم .

واخيراً توارت شمس ذلك اليوم العصيب وراء الافق ، وكانت بالنسبة للدروز الذين اقتحموا القرية كشمس يوشع في بطئها ، وخاصة عندما لاحت في الأفق من الغرب النجدات الفرنسية تقترب من القرية . لذلك ما كاد الظلام يخيم

حتى تنادى الدروز الى الخروج من القرية التي كانت طرقاتها مليئة بجثث الخيل والرجال ، فراحوا يعملون نهباً بخيول الحملة في القرية . وخرجوا من المنفذ الوحيد الى الشرق ، تحت وابل من رصاص العدو الذي انفرجت ايضاً ازمته بانسحاب الدروز من القرية. وقد ترك الدروز راياتهم منصوبة على سطوح منازل القرية ، لان كل واحد من حملة الرايات كان يريد ان يكون فارساً خفيفاً يخرج من بين الاسلاك الشائكة ، ويجتاز الطريق الطويل عرضة لنيران الجنود المحتمين بخنادقهم وحصونهم المسقوفة .

نجا معظم المنسحبين ، وسقط عدد منهم قتلى وجرحى ، وانضم الناجون الى الشرذمة التي بقيت تنتظرهم بعيداً ، وعلى رأسها العقيد فؤاد سليم ، شرقي القرية ، وحملوا معهم بعض الجرحى . ويقدر العارفون ان قتلى الدروز وجرحاهم في هذه المعركة بلغوا اكثر من ثلثمئة ، نصفهم ، او ما يقارب نصفهم من الشهداء . اما خسائر العدو بالنفوس ، فقد كانت بالغة تقدر بتسعمئة قتيل وجريح ، والبعض يقدرها بأكثر من ألف . أمـا خسارة الفرنسيين المادية ، فقـد كانت كبيرة ، اذ خسرت الحامية اكثر خيلها وبغالها ، عدا الاسلحة والعتاد التي استولى عليها الدروز من مستودعات القرية . ويقدر خيل الفرنسيين التي قتلت في القرية بأكثر من مئتي رأس ، عدا مئات الخيول التي غنمها الدروز ، وخرجوا بها من القرية . ان معركة المسيفرة معركة فذة ، تعد من اعظم المعارك فخراً لابناء معروف ، فهم لولا الخيانة التي ظهرت في صفوفهم ، ونبهت الحامية الهاجعة بالطلق الناري لكانوا تسللوا الى القرية في الظلام ، ونازلوا بكثرتهم الحامية في خنادقها وحصونها ، وقضوا عليها قضاء مبرماً . وقـد استغل الفرنسيون انسحاب الدروز من المسيفرة ، فطبلوا وزمروا بنصرهم الوهمي ، وجاءوا بأثنتي عشرة راية تخلى عنها الدروز فوق سطوح المنازل لينجوا بأنفسهم خفافـاً من نيران الاسلحة عند انسحابهم ، وعرضوها كأنها رايات كسبوها في المعركة ، بعد ان افنو الجموع التي تسير تحتها . ومن دجلهم حول نتائج هذه المعركة ، اعترافهم

فقط بان حامية المسيفره خسرت ضابطاً وخمسة واربعين جندياً من الفرقة الاجنبية ، عدا اربعة ضباط و ٧٣ جندياً جرحى من هذه الفرقة . اما خسارة الحامية من فيلق الرماة التونسيين ، حسب اعترافهم ، فضابط واربعة رماة قتلى ، و١٤ جريحاً . كذلك اعترفوا بأن افراد الركب جميعاً في احدى السيارات الرشاشة جرحوا كلهم . ويزعمون ان الدروز تركوا على الحضيض (٢٥٠) قتيلاً ، وان مجمل خسائر الدروز ثمانمئة بين قتيل وجريح ، وعدد من البنادق ، و ١٢ راية .

وكان في عداد القوات الفرنسية المعسكرة في المسيفرة اللواء الخامس من الفيلق الاجنبي الرابع بقيادة قائد اللواء « كراتزر »،أي الكتيبة ١٨ و١٩و٢٩ مع كتيبة الرشاشات الخامسة ، مع كوكبة الفرسان الأجنبية الرابعة ، عدا كتائب الرماة التونسيين الذين اعترفوا بصرع عدد منهم ، مما يدل على ان القوات الفرنسية في المسيفرة كانت بضعة الوف حشدت للزحف على جبل الدروز . وصفوة القول ان عدد القتلى والجرحى من الدروز في معركة المسيفرة كاد ان يساوي عدد شهدائهم وجرحاهم في معركة المزرعة التي قضت على جيش الجنرال ميشو ، لذلك كانت المعركة ،بنسبة خسائرها وفي رد فعلها ، خيبة امل اثرت على معنوياتهم . ويكفي اننا يوم وصولنا من شرقي الاردن الى قرية «ذيبين» في جبل الدروز ،أي بعد يوم من انتهاء المعركة ، رأينا المضافة مكتظة بالدروز ، واخيراً عرفنا منهم انهم جاءوا لتعزية حاطوم صاحب الدار الشيخ بسقوط اثنين من اولاده شهيدين في المسيفره ، فتأثرنا لذلك ، واستغربنا ألا نسمع صوت نحيب أو عويل في الدار ، وشابان من اهله يسقطان في المعركة ، وتحمل جثتاهما على جمل اليها ، ونحن فيها فلا نسمع ايضاً أي صوت لنحيب أو عويل ، ثم يدخل علينا مضيفنا والد الشهيدين مرحباً ، ولا نرى في عينيه أثراً للدمع حزناً على فلذتين من كبده افتقدهما امس في المعركة وجيء بهما اليوم الى داره جثتين داميتين. لقد ذهلنا لرباطة جأش صاحب الدار وأهله ، ولكننا بعد أن خالطنا الدروز

وعرفنا مزاياهم ، ادركنا انهم لا يجيزون في الحديث الرحمة على ميت ، مات حتف أنفه ، فالرحمة تجوز في عرفهم على القتيل في مواقف البطولة . وهذا المشهد الذي رأيناه يذكرنا في صدر الاسلام بقول الفاتح العربي الكبير خالد بن الوليد وهو على فراش الموت : « ان في جسمي كذا طعنة رمح ، وكذا ضربة سيف ، وها أنا اموت على فراشي كالعير ، فلا نامت عيون الجبناء !. » انه الايمان بان الشهيد في معارك البطولة حي ، وان من العيب ان تذرف على من نال مرتبة الشهاده الدموع . انهم يكتمون أحزانهم في قلوبهم ، ويبدون ، في المصائب ، غير هلعين ، ولا وجلين ،فجدير بنا أن نقتدى ببطولتهم ومآثرهم ، فهم عرب أقحاح يحافظون على المآثر العربية ، ويتميزون على غيرهم بكثير من الصفات والمآثر الكريمة . ومن مآثرهم العربيه الكرم والشجاعة ، والإباء ، وحماية الجار ، وهم لا يخضعون لزعمائهم خضوعاً اعمى ، فالزعيم المحترم لا بد له من أن يكون مبرزاً على أقرانه بالكرم ، او الشجاعة ، او المروءه ، وهم شديدو الحرص على السمعة الطيبة والثناء العاطر ، فقد ثاروا مرات على الدولة العثمانية ، وتحدوا جيوشها ، لأسباب تمس ، على الاكثر ، إباءهم ، حتى اصبحت حروبهم مع تلك الدولة مبدأ لتآريخهم ، فيقولون سنة ممدوح باشا ، وسنة سامي باشا ، أو بعد ممدوح باشا بسنة ، وقبل سامي باشا بعامين جرى كذا ، ووقع كذا ، أو ولد فلان ، أو مات فلان . وهم يحبون الشعر ، وينظمون شعرهم الشعبي بلهجتهم العامية ، وفيهم شعراء اذكياء سجلوا ايامهم ووقائعهم ومعاركهم بقصائد ما تزال تحفظ وتروى ، وتؤلف المادة في حدائهم واهازيجهم . واظن اننا نذكر الشعر الشعبي الذي لحنته المطربة « اسمهان » ، وغنته بلحن الموال ، وحفظناه اعجاباً بروعته ووطنية ناظمه ، إذ يقول :

يا ديرتي مالك علينا لوم   يا ديرتي لومك على من خان

نحن روينا سيوفنا من القوم

الى آخر تلك الابيات الرائعة ، فهي من نظم ابي نايف علي عبيد من كبار المجاهدين وزعمائهم في جبل الدروز، رحمه الله رحمة واسعة ، فهو من الذين لهم، طول حياتهم، مواقف وطنية مشرفة ، ولهم في الثورة السورية بطولات تكتب صفحاتها بماء الذهب ، وهو من المثقفين الذين تولوا مناصب في الحكومة إبان العهد العثماني ، والعربي ، والانتداب ، وانتخب لتمثيل جبل الدروز في المؤتمر السوري الذي أعلن للعالم يوم الثامن من آذار عام ١٩٢٠ استقلال سورية بحدودها الطبيعية . ومن المؤسف ان الجهل الذي ران على البلاد العربية قروناً ، كانت وطأته أشد على الفلاحين ، وخاصة في المناطق الجبلية المنعزلة ، لذلك بقي الدروز على الفطرة وخلق البداوة ، فهم مع شجاعتهم ونخوتهم يحبون الكسب والغنم كالبداوة حتى ليكادوا يعتبرون الكسب بانواعه حلالاً . وهذا الطمع في الكسب كثيراً ما سبب لبعضهم الأذى والخسائر في المعارك التي خاضوها في الثورة السورية . فقد كنا ، في المعركة ، نرى احد رفاقنا في السلاح يقفز من مكانه ، ويخرج من استحكامه ، والمعركة على أشدها ، ليغنم بندقية من جندي أصيب ، أو فرساً افتقد فارسه ، فتكلفه تلك الحركة احياناً حياته ، ويرى اخوان له من بني قومه الدروز ذلك ، وتتكرر الحركة ، وتعاد في معركة أخرى . ومحبو الكسب لو صبروا في مواقعهم ، ووجهوا همهم للقتال ، دون الكسب والغنم ، لهزم عدوهم ، وجاءهم الغنم بعد المعركة أضعافاً مضاعفة دون أن يصابوا بأذى . ولا أحب ان اطلق قولي هذا على الجميع ، فبين الدروز رجال مثقفون ينكرون على المغالين في حب الكسب مغالاتهم ، ويؤنبونهم على أخطائهم ، ولكنها عادة الغزو والكسب التي كان أجدادنا في الجاهلية عليها ، ما تزال لدى الكثيرين من افراد العشائر البدوية والدروز الذين لم تتح لهم فرصة التعلم والتثقف والتهذيب .

اللقاء بالشهبندر ومردم

- ٢٥ -



الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

بتنا ليلة وصولنا إلى قرية عري في دار الإمارة ضيوفاً على الأمير حمد الأطرش . ولما استيقظت في صباح التاسع عشر من شهر ايلول ، وخرجت من الغرفة إلى باحة الدار الرحبة ، وجدت أناساً يجلسون على مصطبة في طرف الفناء ، تدل أزياء بعضهم ووجوههم على انهم ليسوا دروزاً ، وقد تطلعوا كلهم إلي ، وقال أحدهم ، وكان السيد جميل مردم للجالس بجانبه ، وكان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر : « انظر اليه !كم يشبه ابن عمه نجيباً !» ، فأقبلت عليهم محيياً ، وقد عرفت منهم الدكتور الشهبندر من صوره التي كانت تنشر في الصحف والمجلات السورية ، فقدم إلي رفيقيه جميل مردم ، ونزيه المؤيد العظم ، ثم نهض وأخذني جانباً ، وسألني عن المهمة التي جئنا من أجلها الى الجبل ، فاطلعته عليها ، وقلت له انني ورفيقي مظهر السباعي جئنا نحمل رسالة شفوية من منظمي ثورة حماة الى سلطان الاطرش ، يريدون منه ان يكون جوابه اليهم بأقصى السرعة ، وبواسطة مضمونة ، والرسالة هي ما يلي :

١ – يطلب قادة ثورة حماة ، في حال قيامهم بثورتهم في منطقتهم ألا يعقد بعدها الدروز الثائرون أي اتفاق أو صلح مع الفرنسيين قبل الرجوع اليهم ، والاتفاق مع قيادة ثورتهم عليه .

٢ – يطلبون أن تحدد قيادة الثورة في جبل الدروز موعد القيام بحركتهم ، وتنفيذ خطتها المرسومة ، لأنها أدرى منهم بالوقت الملائم ، والظرف الذي يساعد على ضرب العدو ، واتساع نطاق الثورة في سورية .

٣ – يطلبون إعلامهم عن المكان الواجب الانسحاب اليه في حال فشل ثورتهم في قلب المدينة ، أو تكاثر القوات الفرنسية عليهم ، هل ينسحبون لإشعال نار الثورة بقواتهم في جبال الزاوية والمناطق الصالحة للثورة في شمال سوريا ، أم ينسحبون الى الجنوب للإلتحاق بثورة جبل الدروز ؟

٤ – كذلك يطلبون من قيادة الجبل ان تخطط لعملية حربية ، وضربة تنزلها قواتها بالفرنسيين في أطراف دمشق أو سواها ، قبيل الموعد المحدد لثورة حماة بيوم أو يومين ، يكون لها صداها العظيم في انحاء سوريا كلها ، مما يرفع من معنويات الشعب ، ويزيد من حماسته للثورة على الفرنسيين .

هذه هي المطالب التي حملناها من حماة الى قيادة الثورة في الجبل ، فان وافقت عليها ، واجابت اخواننا في حماة عنها ، فبها ونعمت ، وإلا فإنني ورفيقي السباعي نضع نفسينا تحت تصرف قيادة الثورة هنا لأي عمل تنتدبنا اليه ، بل اننا في كلتا الحالين جئنا لنضع نفسينا تحت تصرف قيادة الثورة ، واننا مستعدون لذلك منذ هذه اللحظة ، فأجابني بأن في الجبل شباناً ورجالاً مثلنا جاءوا من أنحاء سوريا للعمل في الثورة ، لم يستطيعوا الى الآن ان يقوموا بعمل جدي ، فاقترحت عليه ان نجتمع بهم ، ولو كانوا قلة ، لنؤلف عصابة مسلحة

تتسلل الى غوطة دمشق، تكون نواة لحرب العصابات على أبواب العاصمة دمشق، وأنا مطمئن إلى ان يلتحق بها الثوار من سكان دمشق والغوطة والمرج والمناطق المجاورة، فتتفرع الى عصابات تثير القلاقل على الفرنسيين، وتنزل بهجماتها المباغتة الضربات بهم، وتشعل نار الثورة في كل مكان توجد فيه، فوعدني الشهبندر بأن يسعى لإيجاد سلاح لهذه العصابة، واعتذر عن إيجاد جياد لرجالها، لأن امكانيات الثورة لا تساعد على ذلك، فقبلت ورفيقي السباعي بأن تكون العصابة من المشاة، وأن يكتفي بتسليحها بالبنادق والعتاد. وعدنا الى الحديث عن ثورة حماة فقال: «إنني اصبحت لا أصدق ان بإمكان السوريين أن يقوموا بأي حركة مسلحة تشد من أزر إخوانهم الدروز، بل بت اعتقد اننا خدعنا الدروز، وأحبطنا مفاوضاتهم مع الفرنسيين على عقد صلح بشروط سمحة، ما يزالون يتحدثون عنها الى اليوم، ويظهرون الندم على عدم قبولهم إياها، وغدوت أطرق خجلاً أمام الدروز كلما ذكروني واخواني السوريين معي هنا، بوعدنا، وهو أن تقوم ثورة مسلحة، بل ثورات مسلحة تتحمل نصيبها في معركة التحرير، فلا تلقى اعباء المعركة كلها على عاتق جبل صغير لا يعد سكانه أكثر من ستين الف نسمة، بينما عدد السوريين يربي على الثلاثة ملايين».
وأطرق الشهبندر أمامي إطراقة ألم وحزن، فقلت له: «لا تيأس يا دكتور! إن ثورة حماه صائرة لا ريب فيها!»، قال: «أنا أعرف منك بذوات حماة واغنيائها.. أعرف منك بنجيب آغا البرازي، وفريد بك العظم اللذين حدثتني عن تضامنهما مع اخوانك الشباب!.. فهؤلاء أسرى مصالحهم وعقاراتهم وقراهم، لا يجرأون على القيام بأي عمل يغضب السلطة الحاكمة، خشية ان تتعطل أعمالهم في قراهم وممتلكاتهم، أو تصاب بضرر، أو يتبدل عيشهم الهنيء، ويزول ما فيه من نعمة ورخاء!..»، قلت: «انت على حق في اقوالك، لو أن أغنياء حماة الذين حدثتك عنهم، هم الذين يخططون ويعملون لثورة حماة.. ولكن الواقع ان الثوريين الذين خططوا للحركة في حماة شبان خلص مستعدون ان يبذلوا أرواحهم في الثورة أمثال عثمان الحوراني، وسعيد الترمانيني، والدكتور

خالد الخطيب ، والدكتور محمد علي الشواف ، وعبد الحسيب الشيخ سعيد ، وفهمي العظم واخوانهم . ولو أن هؤلاء أيضاً وحدهم في التخطيط والعمل للثورة في حماة ، لكنت مثلك أشك في نشوبها ، لأن امكانيات هؤلاء المادية والمعنوية لا تساعدهم على القيام بثورة مسلحة ، مهما تكن قوى الفرنسيين هزيلة في حماة ، فثورتهم لا تقوم اذا لم يكن لديهم المال والسلاح والرجال المدربون على القتال .. ولكنني اجزم بنشوب ثورة في حماة ، لأن فيها الى جانب هؤلاء الشباب الثوريين قائداً عسكرياً في سريته المسماة باسمه « اسكادرون فوزي » في حماة ، وجنوداً وضباط صف في السرية من السوريين يأتمرون بأمر قائدهم ، ولأن فوزي القاوقجي ، في الأصل ، هو نفسه صاحب الفكرة ، وصاحب الفضل في التجميع لثورة حماة ، وإيجاد العناصر المقومة لها ، فقد شعر هذا الضابط العربي بعد ثورة الدروز ، وهزيمة الفرنسيين في المزرعة ، بانه آن الأوان ليضرب ضربته ، ويقوم بثورة مسلحة ضد الفرنسيين ، في موضع حساس تخرج ثورة الجبل من طابعها المحلي الى ثورة وطنية تعم البلاد السورية كلها ، وتفجر طاقات الشعب الكامنة التي يؤمن بانها لا تقل عن طاقات الشعب التركي في ثورته بقيادة مصطفى كمال ، ولا تقل عن طاقات الشعب العربي في ثورة الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف ، لذلك كن على ثقة يا دكتور بان الثورة ستنشب في حماة ، وفي الموعد الذي ستحددونه لها ، فاشرعوا بإرسال كتاب موقع من سلطان الاطرش قائد الثورة ، ومنكم ايضاً باعتباركم الدكتور الشهبندر الزعيم الوطني المعروف ، تجدوا ان الثورة نشبت ، وان آمالكم تحققت .. » . فاقتنع بقولي ، وقام هو ، وجميل مردم ، ونزيه المؤيد العظم فوراً للرحيل الى قرية رساس ، والاجتماع بسلطان الاطرش في مقره المعروف لديهم ، وطلب الشهبندر ان يرافقهم واحد منا لقلة الرواحل معهم ، فأوفدت معهم رفيقي مظهر السباعي ، باعتباره عسكرياً يلم بوضع الخطط الحربية ، في حال بحثهم موضوع الثورة في حماة ، وبقيت في « عري » انتظر عودتهم ، فلما عادوا في العشية يحملون كتاب سلطان الاطرش لثوار حماة ، علمت منهم ان سلطان

وافق على الشروط كلها، وحدد لهم في الكتاب غرة شهر تشرين الأول عام ١٩٢٥ موعداً لإعلان ثورتهم في حماة ، وباركها ، وتعهد لهم بأن لا يفاوض الفرنسيين على عقد أي اتفاق او صلح بدون الرجوع اليهم ، في حال قيام ثورتهم ، والاتفاق معهم في الرأي ، وترك لهم الخيار ، في حال عدم تمكنهم من الاحتفاظ بمدينة حماة في ثورتهم ، ان يجددوا ثورتهم في أي مكان في سورية يرونه مناسباً لها ، واذا لجأوا إلى الجبل ، فهم سيكونون بين إخوانهم وفي وطنهم ، ووعد بان يقوم الدروز قبيل الموعد المحدد لثورة حماة بحركة ضد الفرنسيين تنبه الرأي العام ، وتثير حماسته ، وتعده لتقبل الثورة ، وشكرهم على مساعيهم ، وحثهم على العمل ، وان يتوكلوا على الله ، ويقدموا ، فالوطن بحاجة إلى أمثالهم المخلصين الصادقين .



سلطان باشا الأطرش والدكتور الشهبندر وخلفهما المجاهدان محمد أبو قاسم الصعيدي والسيد نسيب شهاب .

وفي الليل من ٢٠ ايلول ١٩٢٥ ركب نزيه المؤيد العظم ومظهر السباعي وسرحان ابو تركي من السوريين ضيوف الجبل جياداً ، ويمموا شطر الغوطة ، حتى بلغوا قرية فيها تخص والد نزيه المؤيد العظم ، حيث أوفدوا منها رسولاً الى دمشق ، جاءهم بالسيد محمد مردم شقيق جميل مردم ، وبالسيد علي زلفو من وجهاء حي الاكراد الوطنيين في دمشق ، وسلموا الكتاب اليهما ، بعد ان اطلعوهما على الوضع في الجبل ، وطلبوا منهما تأمين إيصال الكتاب إلى الدكتور

خالد الخطيب في حماة ، باعتباره أحد منظمي الثورة فيها ، وعاد الرسل الثلاثة إلى الجبل . وقد سلم أحد الرجلين اللذين حملا الكتاب الى دمشق ، الأمانة إلى السيد فهمي العوا بائع الطوابع والدخان في الدكان الصغيرة ، على ناصية مدخل السنجقدار من جهة ساحة الشهداء ، وهو من الوطنيين المخلصين الذين يعملون بهدوء وسكينة ، كي يسعى بوسائله الخاصة لإيصال كتاب سلطان الاطرش إلى حماة ، وتسليمه إلى الدكتور خالد الخطيب . وقد وصل الكتاب دون تأخير إلى أصحابه ، وقيل لي بعدئذ أنه بقي لدى سعيد الترمانيني ، إذ احتفظ به في منزله ، فلما فشلت ثورة حماة ، واضطر الترمانيني للاختفاء ، وجاءت قوة الامن الفرنسي للقبض عليه، في منزله، فلم تجده ، وقبضت على أخيه عثمان الترمانيني ، وحملته من فراش المرض ، وبعثرت ما في المنزل من أوراق ، نثر هذا الكتاب في أرض الغرفة ، دون أن يجلب انتباه أحد ؛ وبعد ذهاب رجال الامن وجد من أهل البيت من أحرقه حتى لا يكون وثيقة بيد الفرنسيين على منظمي ثورة حماة .

مع الزعماء في دار « عري » !

بعد سفر نزيه المؤيد العظم ورفيقيه الى الغوطة ، بقيت في دار « عري » ، انتظاراً لعودتهم ، ولتنفيذ الوعد بأن نؤلف العصابة السورية الاولى المسلحة في الغوطة . وكان في دار عري الزعيم العسكري يحي حياتي ، وسعد الدين المؤيد العظم ، كما بقي فيها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وجميل مردم ، بعد سفر نزيه العظم .

وفي ضحى يوم ٢١ ايلول عام ١٩٢٥ ، بينما كنت مستلقياً في غرفة الضيافة ، والقوم يجلسون في مدخل الدار يستظلون من الشمس ، واذا بطائرة فرنسية تحلق في سماء القرية ، كأنها أخبرت بوجود الزعماء السوريين في دار عري ، وتبـــدأ بإلقاء قنابلها على القرية ، فتسقط في منازلها ، عندئذ خرجت إلى الباحة لأرى

طبعت هذه الصـورة ووزعت بالأبيـات التي كتبت تحتها في عهـد الانتداب الفرنسي ، وهي ترمـز الى هبة الشعب السوري لنجدة ثورة جبل الدروز ، بقيادة سلطان الأطرش كي تعم الثـورة البلاد السورية ، وتغـدو ثورة وطنية عامة شاملة .

وفي الأبيـات حض للشعب على الثـورة حتى تتحرر بـلاده من براثن الاستعمار .



بعض المسلحين الدروز يعتلون سطح الدار ، يهزجون ، ويطلقون نار بنادقهم على الطائرة . ولما كنت لا احمل سلاحاً ، ولا من الهلعين لافر من الدار ، رجعت الى معلوماتي العسكرية القليلة ، فرأيت ان أعود ، واضطجع في الغرفة ، حتى إذا سقطت قنبلة في فناء الدار لا يصيبني رشاشها . ولم اكد استلقي ظهراً في مكاني السابق من بهو الضيافـة ، حتى رأيت الدكتور الشهبندر وجميل مردم يدخلان البهو ركضاً وجلين ، فأغمضت عيني حتى لا يخجلا مني ، بسبب هلعهما من الطائرة ، ولما حسبا انني نائم ، قفزا من فوق الأثاث إلى شبـاك في البهو ، يختبآن فيه ، وأسدلا عليهما الستارة ، حاسبين ان الشباك بقوسه الحجري يقيهما شر القنابل . ولما انتهت الغـارة ، اخذا يتضاحكان ، وهما خجلان من أن أراهما يخرجان من المخبأ ، ثم أزالا الستارة قليلا ، وأطل رأس جميل مردم ،

فأغمضت عيني ، مرة اخرى ، حتى لا يخجلا عند خروجها من الشباك ، وسمعت جميل مردم يقول للشهبندر : « انظر ! انه ما يزال نائماً ! لم يستيقظ من صوت كل هذه القنابل !..» ، ثم قفزا من الشباك الى أرض البهو ، وخرجا منه بهدوء . ولما ظهرت بعد قليل في باحة الدار سألني جميل مردم مازحاً : عما إذا كنت علمت بالغارة ؟ ، فابتسمت .. وقلت له انني رأيته مع زميله يختبئان في الشباك !.. فضحك ، وظل ، بعد الثورة وعودتنا الى دمشق ، كلما فطن لهذا الحادث ، يقول لاصدقائي ومعارفه : « انني ما رأيت مثل منير الريس في الاستغراق في النوم .. ان قنابل الطائرات تتساقط فوقه.. وهو نائم ، لم توقظه كلها من النوم !..».ومرة كان يتحدث في داره بهذا أمام الزعيم ابراهيم هنانو ، طيب الله ثراه ، فابتسم هنانو وقال : « كان في ثورتنا هزاع ايوب ، نام معنا في البادية ، يوم كنا ملاحقين من الفرنسيين والبدو منتحياً عنا قليلاً ، وهو دليلنا في الطريق إلى شرقي الاردن ، ولما أفقنا لنستأنف المسير ، ظل هو مستغرقاً في النوم ، لم توقظه جلبة العصابة في رحيلها ، فأضعناه ، وأضاعنا !.. » ، وأخذ الزعيم هنانو يحدثنا عن تلك المغامرة والمطاردة التي رويتها في مذكراتي هذه ، كما سمعتها منه . وفاتني منها حفظ الأسماء ، فلم أسجل اسم شيخ العشيرة من بني خالد الذي لجأ اليه ، فسلبه دنانيره وأشياء وأساء ضيافته ، كذلك لم اسجل اسم جنباز او سمسار الخيل المخلص الشريف الذي كان له الفضل في تهريب هنانو من حمص الى جبل الدروز .

جلست ، في دار عري ، اتحدث مرة مع العميد الركن يحي حياتي وسعد الدين المؤيد العظم ، والى جانبي سعيد اليماني من الشباب العرب الذين التحقوا حديثاً بالجبل ، فعلمت من حديثهما انهما قررا مغادرة جبل الدروز ، والسفر الى عمان ، لأن مهمتهما انتهت ، فالاول وهو عميد ركن في الجيش العثماني سابقاً ، سارع الى الجبل أثر معركة المزرعة ليقنع زعماء الدروز بمهاجمة دمشق ، قبل ان يكتمل حشد الحملة الفرنسية على الجبل ، وتعهد لهم في أول مرة بأنه يستطيع

احتلال دمشق بخمسائة فارس مسلح من مقاتلة الدروز ، ولكنهم تعللوا في تجميع هذه القوة بان على أهالي دمشق أولاً ان يقوموا بثورة في مدينتهم . ولما قيل لهم ان دمشق يعوزها السلاح ، لأن حمله ممنوع ، ومن عنده سلاح حربي يخفيه ، ولا يبوح لأحد بمكانه ، ومن الصعب ، في مثل هذا الوضع ، قيام أهل دمشق بثورة مسلحة في مدينتهم ، ولا يمكن أن يتلاقى أصحاب السلاح ، ويعرفوا بعضهم بعضاً ما لم تدخل قوة مسلحة من الدروز مدينتهم ، وتهاجم مواقع الفرنسيين ، وعندئذ يظهر الثوريون ، ويستخدم من عنده سلاح سلاحه المخبوء ، وتعم الثورة ، وتدب الفوضى في صفوف الفرنسيين . وكان كلما انقضى يوم أو اكثر على هذا الحديث زاد الزعيم حياتي في طلباته عدد القوة التي سترافقه كشرط لاحتلال دمشق ، متذرعاً بالنجدات الفرنسية التي تصل تباعاً الى سوريا بطريق البحر ، حتى قطع اخيراً كل أمل ، وتأكد من تصميم الدروز على القتال في جبلهم ،أنهم لايريدون الخروج منه ، وأيقن ان الفرصة فاتته ،وانه كضابط ركن لن يكون له دور ، بعدها ، في حرب غير نظامية يخوضها الدروز مع الجيش الفرنسي ، حسب عادات وتقاليد وخطط قديمة اتبعوها في حروبهم مع الجيش العثماني ، لا يصلح فيها ما يعرفه من فن القتال بين الجيوش النظامية . ولذلك فقد صمم هو وصديقه سعدالدين المؤيد على مغادرة الجبل الى شرقي الاردن ، لا سيما هو وصديقه ليس لديهما من المال ما يكفل بقاءهما في الجبل الذي يخوض أهله حرباً قاسية ، الى جانب حرب الطبيعة من قحط وجفاف لم يروا مثلهما منذ عشرات السنين ، ولا بد لهما من الوصول الى شرقي الاردن ، والاتصال بأهليهما في دمشق ، بطريق التجار السوريين في عمان ، كي يرسلوا اليهما مبلغاً من المال يعيشان به ، فقد اضطرتهما الظروف ، وملاحقة الفرنسيين الى مغادرة دمشق الى جبل الدروز ، دون ان يتزودا بمبلغ من المال يكفيهما لإقامة طويلة . وغمز سعدالدين العظم من أمانة عبد القادر القواص احد الشباب الدماشقة الذين أموا الجبل باسم الإلتحاق بالثورة ، بأنه قبل خروجه من دمشق ، زار أهل سعدالدين في دارهم ، واخبرهم سراً بأنه مسافر ليلتحق بثورة الجبل ، وانه مستعد لان يحمل لولدهم

سعدالدين الذي سبقه الى الجبل كل ما يودون إرساله معه ، فزودوه بمبلغ من المال كي يوصله اليه ، ولكنه تصرف بالمبلغ كله ، وأنكره عليه ، واشار في الحديث إلى ان المال المرسل اليه يبلغ عشرات الليرات الذهبية ، ولكنه لم يصله منه شيء ، لذلك فهو مضطر الى مغادرة الجبل ، حيث لا يمكنه ان يبقى فيه عالة على الدروز بدون مال ينفق منه على نفسه !.. ولما استغربنا كيف يسلم والده المبلغ لشاب لم يمتحن امانته ، قال : « ان هذا الشاب كان مستخدماً في مكتب حزب الشعب براتب ، وعزم ان يلتحق ، هو وخازن الحزب بثورة الجبل ، فاختلسا معاً مال الحزب ، واقتسماه ، ثم طافا عن منازل اعضاء الحزب الذين التحقوا بالجبل منذ البداية ، يعرضان على أسرهم استعدادهما لحمل كل أمانة يودون ارسالها إلى رجالهم في الجبل ، فسلمها من اطمأن اليهما ، وعرفهما من قبل ، كوالدي ، مالاً أضافاه الى المال المختلس من صندوق الحزب ».

وامتد بنا الحديث الى ان الثورة في الجبل يجب ان تمتد وتنتقل الى ميادين أخرى في المناطق السورية ، وان تبدأ بعصابات مسلحة تنزل الضربات المفاجئة بالفرنسيين ، وان واجب نقلها غدا في عنق السوريين ، ولا سيما شبابهم الذين التحقوا بالجبل . فأطلعت العميد يحيى حياتي على اننا عقدنا العزم على ان نكون أول عصابة مسلحة في غوطة دمشق ، فأبدى ارتياحه للفكرة ، رغم خطورتها ، لان مجالها سيكون على أبواب العاصمة السورية ، وهي زاخرة بالقوات العسكرية ، وفيها مقر القيادة العليا ، وفيها القلاع والثكنات والحصون والمدفعية والمطار ، ونصحنا ، في حال توجهنا الى الغوطة ، بأن نراعي قواعد حرب العصابات المعروفة بحرب الانصار ، والتي تدرس كعلم في المدارس الحربية ، فلا تبيت العصابة المسلحة في مكان واحد أكثر من ليلة واحدة ، وان تبتعد في مبيتها عن الطرق المعبدة التي تستطيع الحملات النظامية ان تسلكها بكل سهولة مع أسلحتها ، والافضل ألا تبيت في القرى الآهلة بالسكان التي ترتبط بطرق معبدة ، وان تتجنبها ، وان تقيم حراسة في الاماكن التي تلجأ اليها ، وان تعرف العصابة

نقاط الضعف في جهاز العدو ، فتنزل ضرباتها بها على حين غرة منه ، وتنسحب بسرعة دون ان تترك وراءها دليلاً على المكان الذي ستختفي فيه . وقال إن اول شرط لنجاح حرب العصابات، في أي منطقة ، هو ولاء السكان للعصابات، ولا يمكن لعصابة ان يستمر عملها في منطقة سكانها غير موالين لها ، لأنهم يستطيعون ، دون أن تشعر العصابة ، ان يدلوا عدوها على ملاجئها وأماكن تنقلها وتموينها ، فينزل العدو القوي الذي يطاردها ضربته القاضية عليها ، هذا عدا تأمين لوازم تموين العصابة في منطقة غير موالية يغدو عسيراً، وسبيلاً للاهتداء الى مكامن العصابة وتنقلها وحركاتها. ولم يشر العميد حياتي أي اشارة الى سلاح العصابة ، والأجهزة التي يجب أن تمتلكها لايفاء مهماتها ، فقد اصبحت حرب العصابات اليوم ، بعد ان جربتها اكثر الأمم المغلوبة على امرها ، حرباً ذات اصول وشروط وتعاليم معروفة مدروسة ، حتى سميت ، كما قلت ، حرب الانصار، تدرس أساليبها في المدارس، واقل سلاح للوحدة التي ترتبط عادة بقيادة مسيطرة ، ان يكون لديها اجهزة مخابرات للاتصال بالقيادة ، وان يكون لديها رشاش متوسط ، ورمانات يدوية أي قنابل يدوية ، ورمانات البندقية ، اي قنابل ترمى بجهاز يركب على فوهة البندقية ، وبازوكا ، وهاون ٦٠ ، واحياناً الهاون ٨١ ، مع المتفجرات والالغام ومواد التخريب . ومن المؤسف ان العصابات التي تألفت بعدئذ في مختلف المناطق السورية ، لم يكن لها قيادة واحدة تسيطر على حركاتها ، وكان كل رئيس عصابة يعمل ما يروق له ، ويقوم بالحركة التي تناسبه ، وتتفق مع مصالحه . وكل سلاح افراد عصابته المؤلفين عادة من مشاة وفرسان، كان من البنادق الحربية ، واحياناً يحمل بعض افراد العصابة الرمانات اليدوية ، مع بعض المسدسات والخناجر . وكانت هذه العصابات تشترك في المعركة، إذا تعرضت منطقتها لزحف حملة عسكرية عليها ، فيما اذا اراد زعيم العصابة الاشتراك في المعركة ، يخوضها مع عصابته ، كما يحلو له ويتخذ الموقع الذي يوافقه في المعركة ، وينسحب من القتال عندما يعن له ذلك ، ويقيم في المكان الذي يريد ، ويتنقل حسب هواه .

مصرع سعد الدين المؤيد

- ٢٦ -

وصل في أصيل يوم ٢٢ أيلول عام ١٩٢٥ ، الى دار عري بدويان من عشيرة السردية ، وهي عشيرة بدوية صغيرة تقيم في اطراف الجبل ، وفي وعرة اللجاة البركانية ، مع غيرها من العشائر الصغيرة التي يعمل أكثر افرادها رعاة لمواشي الدروز في جبلهم المجاور للجاة .

ولما نشبت الثورة في الجبل أخذت السلطة الفرنسية تحرّض شيوخ هذه القبائل على الدروز ، فأخذوا ، وهم مسلحون ، يسطون على قرى الجبل المجاورة لإحيائهم ومنازلهم في وعرة اللجاة ، ويسلبون المواشي ، ويسرقون كل ما تقع ايديهم عليه ، ويحتمون في مناطقهم البركانية الوعرة ، فاذا اتصل أحد رؤسائهم بالدروز انكر ان يكون هذا العمل من عشيرته ، واتهم العشائر الأخرى .

وصل هذان البدويان المسلحان ببندقية حربية واحدة الى دار عري ، ومعهما راحلتان امتطاهما يحيى حياتي وسعد الدين العظم ، وانطلقا ، بعد وداعنا ، من عري في طريقهما إلى الأردن ، وباتا بقية ليلتهما الأولى في منزل فريق من البدو مخيم على حدود الجبل .

وفي مساء ٢٣ ايلول انطلق ركبهم مجتازاً أراضي حوران ، متجنباً مواقع ومخافر الفرنسيين ، حتى أزف منتصف الليل ، فطلب الاعرابيان المكلفان بنقل حياتي والعظم لقاء أجر ، من رفيقيهما ان يستريحوا وينامو حتى تستجم الراحلتان ، فابتعد يحيى حياتي حوالي عشرين متراً عن رفيقه العظم ، والتف بفروته ، واستلقى للنوم . وما كاد الكرى يداعب جفونه حتى سمع طلقاً نارياً يدوي على

مقربة منه ، فرفع رأسه ليتحقق ما الخبر ، وإذا به يلمح احد البدويين مسدداً اليه بندقيته ، فخفض رأسه بسرعة ، ولكن البندقية دوت في تلك اللحظة ، وغشى نار الطلقة عينيه ، فبترت الرصاصة نصف أذنه ، ومرت بجانب الرأس ، فارتمى كأنه أصيب برأسه — ارتمى دون حراك ، وهو يتوقع ان تصيبه طلقات اخرى من البندقية ، ولكن السكوت الشامل الذي أعقب الطلقين شجعه لأن ينظر حوله ، فوجد الاعرابيين يبحثان عن المـــال في أمتعة رفيقه العظم الذي صرعته الرصاصة الاولى ، فانسل يحيى حياتي من الفروة ، بعد ان ترك فوقها كفيته وعقاله خداعاً للاعرابيين ، واخذ يزحف على بطنه مبتعداً في الظلمة عن المكان ، ثم قام يركض بكل قوته ، والدم ينزف من أذنه إلى ان طلع النهار ، وسخر الله له فلاحاً حورانياً كان يحرث الأرض ، فلجأ اليه ، دون ان يكشف له عن هويته ، وحدثه حديث الاعرابيين اللذين قتلا رفيقه ، وباشرا قتـــله ، وحسبا أنهما قتلاه ، فرثى لحاله ، واستصحبه الى قريته قرب بصرى الشـــام ، وأخفاه اياماً في منزله يداوي جرحه ، ثم اوصله الى قرية عري ، حيث استقبلناه ، وسمعنا منه تفاصيل قصته ، وحزنا على فقدان سعدالدين العظم ، وزادنا العميد حياتي علماً بأن الذي أدخل الطمع في نفسي الاعرابيين القاتلين هو ان سعدالدين رحمه الله ، اخذ ليلة الحادث يسأل الاعرابيين عن سبب عدم اشتراك عشيرتهما ، وعشائر البدو المجاورة للجبل بالثورة على الفرنسيين المستعمرين ، مع ان تلك العشائر مسلحة ، ومواقعها وعرة في اللجاة ، واستراتيجية يصعب على الطائرات التأثير عليها ، ويصعب على الجنود النظامية اقتحامها ، وفي جملة ما قال لهما لحث عشيرتهما على الثورة ، وهو يعرف طمع الأعراب بالمال ، إن الثوره غنية بالذهب ، وان معه الكثير منه ، وان قيادة الثورة مستعدة ان تمـــد المشتركين بالثورة بالذهب الوهاج ، والسلاح والعتاد ، فحسب الاعرابيان انهما وقعا على كنز ، وبدآ يتشاوران همساً ، ويتخلفان احياناً عن الراحلتين في همسهما المريب ، مما جعل العميد حياتي يبتعد عند التوقف للراحة عنهما ، وعن رفيقه العظم ، وينتحي مكاناً لوحده ، مما كان سبب نجاته من الموت . وقال ان الاعرابي الذي اطلق

عليه الرصاصة حاول بعدها الدنو منه اكثر، ولكن رفيقه طلب منه ان لايقرب ضحيته ، حتى لا يخفي عنه شيئاً من متاعه ونقوده ، وطلب منه ان يبدأ بتاع العظم ، وانه لما اخذ يزحف على بطنه مخلفاً وراءه فروته وكفيته البيضاء فوقها هب الأعرابي الذي اطلق الرصاصة فجأة نحو مهجع العميد حياتي ليتثبت من موته ، أو ليكشف صوت حركة قد تكون وصلت الى مسامعه ، عندما أخذ حياتي يزحف مبتعداً عن المكان، فتوقف هذا عن الزحف ، ولما وجد الاعرابي الفروة والكفية والبيضاء في مكانهما، اطمأن الى ان ضحيته صرعت بالرصاصة ، وعاد الى رفيقه يبحثان عن الذهب ، فلا يجدان منه إلا ما يكفي اجر الطريق ، وعيشة بضعة ايام ، فهنأنا العميد حياتي بالنجاه من الموت ، ولبث بيننا اياماً ريثما وجد واسطة أمينة اوصلته الى شرقي الاردن من طريق اخرى .

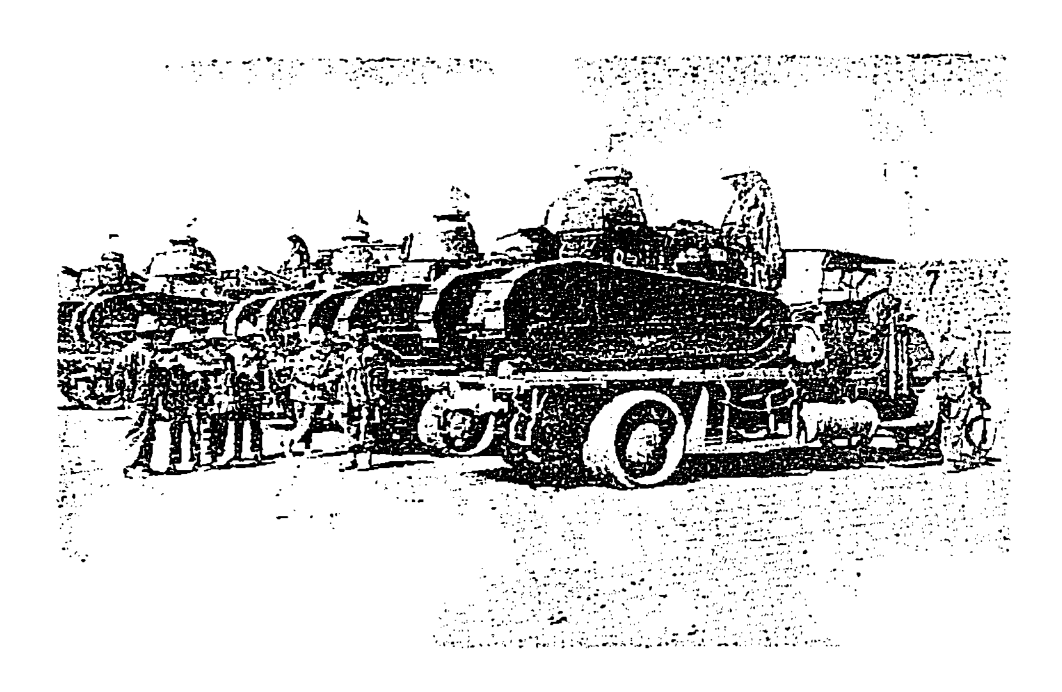
إنقاذ حامية السويداء

- ٢٧ -

بينما كنا جالسين صباح يوم الاربعاء في ٢٣ ايلول ، في دار « عري » ، بلغنا زحف الجيش الفرنسي الى الجبل بطريق قرى : المسيفرة ـ ام ولد ـ كناكر ـ السويداء. وهي اسهل الطرق من حيث طبيعة الارض، واقلها وعورة الى السويداء فصعدنا الى سطح الدار ، نرقب بمنظار كان لدى الامير حمد طلائع الجيش ، فوجدناها بلغت موقعاً يسمى « تلول خليف » ، والجيش يحافله وراءها صفوفاً متلاحقة ، منتشرة على نسق الحرب ، وتتقدم بثبات نحو السويداء ، وبضع عشرة طائرة حربية تحلق في السماء ، وتكشف للزاحفين الطريق ، وتقصف تجمعات الدروز التي بدأت تظهر بشكل كوكبات صغيرة من الفرسان ، فقد بوغت الدروز بالزحف ، ولم يكونوا على استعداد له ، ولم يتوقعوا حدوثه بهذه السرعة ، فقد حسبوا ان الضربة التي انزلوها بالعدو ومعداته في المسيفرة ستؤخر زحفه بضعة أسابيع الى الجبل، واذا بهم يفاجئون

بالزحف ، ولما يمض أكثر من اسبوع على معركة « المسيفرة » . وكانت المدفعية الكثيرة تلاحق تجمعات الدروز التي تكشفها الطائرات ، وقد ركزت على تلول خليف ، والدخان يتصاعد من قرية « ام ولد » الدرزية القريبة من الحدود، ثم تتبعها « كناكر »،فعرفنا ان الفرنسيين دمروا وأحرقوا هاتين القريتين انتقاماً من ثورة الدروز . وكان احتلالهم « كناكر» وقت الظهيرة من ذلك النهار ، ثم اخذ جيشهم يتقدم نحو السويداء ، واهل السويداء والقرى التي على طريقها شغلوا كلهم بإخلاء منازلهم من النساء والاطفال والأثاث، كي لا يحل بهم ما حل بقريتي ام ولد وكناكر . لذلك لم يصل في ذلك النهار الى ساحة القتال الا نفر قليل من الدروز ، تحصن بعضهم في « تل الحديد » ، وهو تل صغير يشرف على طريق السيارات إلى السويداء ، فما كادت الطائرات تكتشفهم ، حتى رأينا التل يختفي في سحابة سوداء قاتمة من دخان قنابل الطائرات، وقذائف المدفعية ، ثم ظهر فرسان الدروز الواحد تلو الآخر من بين سحب الدخان مبتعدين عن التل الذي أخذت تتساقط عليه الحمم ، وتتفجر كفوهات البراكين . وهكذا انسحب الدروز القلائل مبتعدين عن النار المدمرة المحرقة ، في حين كانت كوكبة أخرى من خيالة الدروز ، وفيهم عدد من آل الاطرش ، تتجه من « عري » نحو العدو ، فلا تلبث الطائرات ان تكتشف موقعها ، وتنقض عليها بقنابلها ، فنرى تحت قاتم الدخان الذي أخذت سحبه تنقشع فرسان الدروز يتحلقون مبتعدين عن المكان .

لم يأزف عصر ذلك النهار حتى احتل الفرنسيون « تل الحديد » ، وأخذوا يقيمون حوله الخنادق والحفر والحصون الموقتة ، وحول الأماكن الاخرى التي احتلوها ، فأدركنا أن الجنرال « غاملان » ، لا يريد ان يدخل السويداء في الليل ، وانه قرر المبيت بجيشه في المواقع التي احتلها ، وظلت الاسهم النارية للاضاءة تنطلق طول الليل ، وتجعل الدجى نهاراً حول الأمكنة التي عسكر فيها الجيش . ولما انبلج الصبح في اليوم الرابع والعشرين من ايلول، أخذالجيش



دبابات فرنسية محملة على السيارات في طريقها لميادين القتال

يتقدم نحو السويداء، وبعد قليل ركز مدافعه على تل «الحديد»، وأخذت تصب حممها على السويداء ، وعلى الكروم والحواكير في طريقها كي تطهرها من الدروز الذين قد يكونون متحصنين فيها ، ولم تنقض فترة حتى حجب دخان القنابل والقذائف بلدة السويداء عن أنظارنا ، واخذت فلول الدروز تتراجع عنهـا ، والحملة الفرنسية تتقدم نحوها ، حتى احتلتها ، وأنقذت باحتلالها حامية السويداء المحاصرة ، التي انقضى ثلاثة وستون يوماً على حصارها ، ذاقت خلالهـا الأهوال .

الحصار كلف فرنسا عشرات الطائرات

كان عدد الحامية الفرنسية التي حاصرت في قلعة للسويداء اثر معركة الكفر

بضع مئات من الجنود والضباط ، ويقال أنهم تسعمئة ، أقاموا حول القلعة، من أربع جهاتها، حاجزاً أو مانعاً عريضـاً من الاسلاك الشائكة، وحفروا وراء الاسلاك الخنادق، وأقاموا التحصينات ، وكانت مجهزة بعدد كاف من الرشاشات الثقيلة والخفيفة ، عدا الرشاشات على أسطحة القلعة ، وراء التحصينات بأكياس التراب ، ومن أبراجها المعدة للدفاع . وكان لدى الحامية مدفع من عيار ٧٥ ميليمتر ، أخذت منذ بدء الحصار تطلق منه القذائف على بلدة السويداء ،وعلى تجمعات الدروز ، حتى انها جعلت قصف منازل السويداء يومياً بكمية محددة من القنابل جزءاً من برنامجها اليومي ، تقلق بـه راحة السكان . وكنا عرفنا أن قلعة السويداء ثكنة كبيرة متينة ذات دورين ، أي طابقين ، وفنـاء واسع ، وحوض كبير لخزن الماء . جرت الى الثكنة أخيراً مياه عين قنية جراً فنيـاً ، ولكن الدروز في بدء الحصار خربوا مجراها ، وحولوا الماء عن القلعة تضييقاً على المحاصرين ، في أشهر الصيف وشدة الحر . وهذه الثكنة كانت بنتهـا الدولة العثمانية عام ١٨٩١ ، بعد حربها مع الدروز المعروفة بحرب ممدوح باشا قائد الحملة التي أخضعت جبل الدروز ، حجارتها بيزالتية سوداء ، وهي ذات قنـاطر وأقواس وأعمدة حجرية متقنة النحت والبناء ، تصمد للحصار ، لا سيما وليس باستطاعة الدروز بأسلحتهم الخفيفة احتلالها ، فغدت بقذائف مدفعهـا اداة ازعاج لاهل السويداء ، لذلك كان لا بـد للدروز من تضييق الحصار عليها ، لا سيما بعـد مذبحة المزرعة ، وانقطاع أمل الفرنسيين من الوصول عاجلا إلى السويداء ، وانقاذ الحامية المحاصرة . وكان أمل الدروز هو أن ينفـد الماء والغذاء المخزونان، فيضطر المحاصرون الى الاستسلام ، وقد تم نفادهما فعلا . ولكن فرانسة الدولة الكبرى كان لديها أسطول جوي، وكانت على اتصال دائم بالحامية المحاصرة لاسلكياً ، تعرف كل حاجاتها ، لذلك سخرت طائراتهـا في نقل المؤن والذخائر ، وحتى ألواح الجليد ليستغني بها المحاصرون عـن الماء ، كانت الطائرات تحلق كل يوم فوق القلعة ، وتهبط ، وهي تحـوم ، إلى ارتفاع عشرات الأمتار ، ثم تلقي بأثقالها طروداً وأكياساً فيها كل ما ينقص الحامية

من مؤن وذخائر وألواح الجليد للاستعانة بها على قلة الماء . لذلك كان لا بد للدروز من القيام بعمليات جريئة لعرقلة التموين اليومي من الجو ، وتشديد الحصار على أعدائهم . وكان أول عمل قاموا به ، بعد وصول العقيد فؤاد سليم إلى الجبل ، وبتوجيهه ، وبمساعدة المدفعيين من السوريين الذين التحقوا بالجبل ، أن أصلحوا ثلاثة مدافع من بطاريات الفرنسيين المعطلة في مذبحة جيش الجنرال ميشو ، منها مدفع بعيد المدى من طراز « شنيدر » عيار ١٠٥ مليمترات ، وقام العقيد سليم بالطواف على القرى يشتري القذائف الخاصة بهذه المدافع من الدروز الذين حملوا غنائم المؤخرة إلى منازلهم ، ومن القرى القريبة لأرض المعركة. وكان من الصعب أن يجد قذائف سليمة لأن الدروز كانوا ينتزعون القذيفة من غلافها ، أي ظرفها المعدني ، وينزعون « الكبسولة » من الظرف ليبيعوه نحاساً للنحاسين في الجبل . أما البارود ، وهو شرائح مستطيلة تميل بلونها إلى السمرة القريبة من البياض ، فقد جربوه وقوداً للطبخ والتنور يحمى به للخبز. ولو عرفوا قيمة هذه القذائف لما فرّطوا بها ، ولكنهم على طريق البداوة كانوا لا يقتنون غير البنادق ، لذلك حطموا ، وأحرقوا ، وخربوا كل سلاح عدا البنادق ، حتى الرشاشات الثقيلة التي غنموها في معركة المزرعة عطلوها ، واتخذ بعضهم منها أداة ثقيلة توضع وراء باب الدار في الليل ، وأبواب زرائب الحيوان ، ومثلها فعلوا بالمدافع الصغيرة التي كانت المدرعات مجهزة بها ، ولم يسلم أي مدفع من تخريبهم ، إلا أن العقيد فؤاد سليم ومعاونوه من المدفعيين العرب الذين التحقوا بثورة الجبل ، أصلحوا من عشرة مدافع ثلاثة ، بأخذ قطع التبديل من مدفع مخرب لتحل محل قطعة مخربة في مدفع آخر . وبعد جهد أسابيع ركزوا المدافع الثلاثة التي أصلحت في حرج السويداء ، وفي مكان لا تكتشفه الطائرات ، وأخذوا يملأون الظروف الفارغة بكمية من البارود الذي جمعوه ، ويجهزونها بالكبسول الذي وجدوا أيضاً كمية منه في القرى ، ويعيدون القذيفة إلى ظرفها ، وفي يوم مشرق أخذت مدفعية الثورة تصب قذائفها على قلعة السويداء ، تعمل فيها تخريباً ، وفي حاميتها تقتيلا . وقد عجزت الطائرات الفرنسية عن كشف مكان المدافع التي أحسن العقيد فؤاد سليم إخفاءها ، وتبديل أماكنها .

وكان أشدها تأثيراً على المحاصرين قذائف المدفع الكبير، فقد استطاع المدفعيون العرب، بعد أيام من القصف أن يخرسوا مدفع القلعة، وان يحطموه، ويقتلوا من جنوده، كما أن قذيفة من قذائفه اخترقت نافذة إلى مهجع في القلعة يلجأ اليه المحاصرون، مزدحم بهم، فقتلت عدداً كبيراً منهم، عدا الجرحى، ولم يسع المحاصرون، لا أن يظهروا حزنهم على ضحاياهم في ذلك اليوم، فرفعوا الاعلام السوداء على القلعة، ونكسوا علمهم الكبير الذي كان يرفرف على القلعة. ومن المؤسف أن أزمة المحاصرين من قذائف مدفعية الثورة لم تدم طويلاً، فقد علمت المخابرات الفرنسية من برقيات الحامية ما تلاقيه من شدة القصف، فنشطت بواسطة شبكاتها لإسكات المدفع الكبير الذى كان يهدم جدران القلعة، ويفتح الثغرات في مهاجعها، ويزرع الموت والدمار في صفوف المحاصرين، واستطاعت أخيراً أن تدس بين الدروز العاملين في المدفعية، أو العمال الذين يزنون البارود، ويملأون القوارغ بمقدار، جاسوساً تمكن من ان يضيف الى البارود إصبعاً من الديناميت، أو يضع في ظرف قذيفة من القذائف كمية كبيرة من البارود لا تتحمل ضغط انفجارها سبطانة المدفع، فانفجرت، وجرح من انفجارها عدد من العاملين المحيطين بالمدفع، ومنهم رفيق السلاح سعيد اليماني أحد الضباط اليمانيين الذي كان مدفعياً في جيش الحجاز في عهد الملك حسين، وسرح منه اثر استيلاء عبد العزيز آل سعود على الحجاز، فالتحق بثورة الجبل، لما سمع أن الدروز غنموا عدداً من المدافع الفرنسية، لعله يستطيع أن يقدم خدماته كمدفعي للثورة، فقدمها مدفعياً، وقدمها مجاهداً ببندقيته، وكان احد المدفعيين العربيين اللذين اعتمد عليهما العقيد فؤاد سليم في إصلاح المدافع الثلاثة، وقصف القلعة، وإسكات مدفعها، وإنزال الضربات الشديدة بالاعداء.

إن حادث انفجار المدفع الكبير كان صدمة لقيادة الثورة، وقد أجرى سلطان الاطرش، وبعض زعماء الدروز، تحقيقاً في أسباب الانفجار، والمسؤول عنه، وقيل ان الفاعل لم يعرف. وقد يكون التحقيق دل على الفاعل، ولكن الوضع العشائري في الجبل كان لا يسمح باعتقاله ومحاكمته وعقابه. ألم نر فارس

الاطرش كيف كان يعمل في قرية ذيبين بالجاسوسية ، ويقدم التقارير بأخبار الثورة وأسرارها إلى فرنسة ؟ لقد أمسك الدروز بكثير من الأدلة التي تدين هذا الجاسوس ، فلم يستطع سلطان الاطرش ان يعاقبه بسبب الوضع العشائري والعائلي في الجبل ، فهو ابن عمه لا يستطيع أن يهدر دمه . وظل على ولائه لفرنسة ، حتى استطاع في نهاية الثورة أن يشترك مع الفرنسيين ، ويجند لهم المتطوعة من الدروز في جيشهم للقضاء على الثورة . ثم ألم يلجأ ابنه فوزي الذي أصاب جانباً من العلم في معاهد فرنسة ، وعين موظفاً في السويداء – ألم يلجأ هذا إلى القلعة ، ويحاصر مع الفرنسيين ، ثم سمح له بالخروج مع الاطفال والنساء الفرنسيين ليلحق في حوران ودمشق بالفرنسيين ؟



المجاهد الشهيد العقيد فؤاد سليم

إن الوضع العشائري كان يؤثر على سير الثورة ، فلا يحاسب المنحرفون خشية الانشقاق ، والثأر للدم المهراق ، ولو كان دم جاسوس قذر ، قد تذهب بتقرير منه ألوف الانفس ، أو ينقلب النصر في معركة إلى هزيمة يخسر فيها الدروز مئات القتلى والجرحى ، كما جرى في معركة المسيفرة يوم اطلق جاسوس عياراً نارياً نبه به الجيش الفرنسي ، وقلب النصر إلى هزيمة .

لقد خفت وطأة مدفعية الثورة على الحامية الفرنسية في القلعة ، بعد حادث

انفجار المدفع الكبير، لأن قذائف المدفعين من عيار ٦٥ و ٧٠ ميليمتراً ما كانت لتؤثر بجدران القلعة، ولا تعمل عمل المدفع الكبير.

ومن اساليب الدروز في تشديد الحصار على حامية القلعة ان بعض المسلحين منهم كانوا يسيرون مع الفجر إلى المنخفضات القريبة من القلعة، والتعاريج الارضية التي لا يكتشفها المحاصرون من القلعة، ويتحصنون فيها بانتظار النهار، حتى إذا أقبلت الطائرات الفرنسية لتموين القلعة، وأخذت تحوم وتهبط لتلقي بحمولتها، بادروها بنيران بنادقهم، وهم المدربون على الرمي بالبنادق أحسن تدريب، وأصابوا بعضها، وأسقطوها تتحطم أو تحترق وتنفجر أمام اعينهم، أو تفر تحمل طيارها الجريح، وإذا سلمت من رصاصهم وتحاشته ألقت بحمولتها من ارتفاع لا تستطيع منه التسديد الصائب، فتسقط أكثر الطرود والاكياس المليئة بالمؤن والذخائر، خارج نطاق القلعة والاسلاك الشائكة المحيطة به، فينتظر الدروز، حتى إذا تسلل جنود من القلعة لاستخلاص المؤن، رموهم برصاص بنادقهم، وهم الرماة الماهرون، فيتساقطوا صرعى وجرحى. وإذا جن الليل، وخيم على الارض، زحفوا نحو الاكياس والطرود، وحملوها أو جروها إلى مخابئهم، ثم عادوا بها مؤناً الى منازلهم. وكانت هذه الصورة تتكرر كل يوم، لأن الطائرات الفرنسية كانت مضطرة لتموين الحامية كل يوم. على أن هذه المغامرات اليومية من الدروز كانت لا تمردون ضحايا منهم يصابون برصاص جنود الحامية الذين كانوا يتربصون بهم من وراء الاسلاك، وهم يحاولون الدنو من الاكياس والطرود، ومن الطائرات التي كانت تنقض على مخابئهم حول القلعة بقنابلها ورشاشاتها.

ان الخسائر التي نزلت بالقوة الجوية الفرنسية، خلال الثورة السورية، جديرة بالتأمل لفداحتها، ولا سيما إذا عرفنا أن سلاح الثائرين كان البنادق، والبنادق وحدها، والبندقية من الصعب أن تصيب برصاصها طائرة حربية سريعة محلقة على علو مرتفع تستطيع هي منه ان تستكشف، وتلقي قنابلها على الأهداف

الكبيرة ، هي في الغالب بلدان وقرى وجموع من الثائرين الذين ينازلون الحملات الفرنسية ، أو يقيمون في مناطق سيطروا عليها ، وحرروها من الاحتلال الفرنسي . ولكن الوقائع اثبتت أن الثائرين برصاص بنادقهم أسقطوا أكثر من خمسين طائرة حربية فرنسية ، لأسباب تعود إلى أن الطريقة المتبعة في جبل الدروز الذي كانت قراه هدفاً للغارات الجوية كل يوم ، هو ان يهب المسلحون في القرية المعرضة للغارة إلى سطوح المنازل ، لا يبابون تساقط القنابل عليهم ، يسددون رصاص بنادقهم إلى الطائرات المغيرة ، وهم ، كما قلنا ، من خيرة الرماة ، فتصيب طلقاتهم أحياناً الطيار أو المحرك ، مما يؤدي إلى سقوط الطائرة وتحطمها . كذلك في المعارك التي كانت تدور رحاها بين الحملات الفرنسية والثائرين ، كانت الطائرات تضطر الى الانقضاض للكشف أو التسديد فتصاب أحياناً برصاص الثائرين . ويوم احتل الدروز اللجاة ، وهي حرة بركانية سوداء كثيرة الصخور والشقوق تمتد غربي جبل الدروز من جهة المقرن الشمالي ، للخلاص من عبث عشائرها التي كانت السلطة الفرنسية تحرض شيوخهم ، وهؤلاء يدفعون عشائرهم للسطو والنهب والعدوان والتسلل إلى القرى ، والدروز في شغل شاغل عنهم ، ينازلون أقوى دولة استعمارية ، فكانت الطائرات الفرنسية تغير على اللجاة تقصف الدروز ، وتضطر ، بحكم طبيعة اللجاة إلى الهبوط كثيراً لتكشف الثائرين في الشقوق وبين الصخور ، مما كان يمكن هؤلاء من اصطيادها برصاص بنادقهم ، فضلاً عن أن حصار القلعة كبد القوات الجوية الفرنسية أفدح الخسائر ، مستشهدين على ذلك باعترافات الفرنسيين أنفسهم ، في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ، فهي ، وان كانت دون الحقيقة ، إلا أنها تعطي صورة واضحة عن خسارة الفرنسيين في الطائرات والطيارين ، فقد جاء في الكتاب حول هذا الموضوع ما يلي : « لما نشبت ثورة عام ١٩٢٥ كان فيلق الطيران ٣٩ يقوده الليوتنان كولونيل « بردال » ، مشتملاً على ثمانية أسراب . وقد سقطت في ٣١ تموز طائرة السرجان « رونه » والسرجان « فيشر » على بعد (٣٠٠) متر من القلعة . وفي أول آب اسقط العدو طائرة السرجان « مورو » ، والسرجان

« كوانبار » وقتلا . وفي ١٤ آب سقطت طائرة السرجان « شيفر » ، والسرجان ماجور « كروازيه » في جوار بصرى الحرير . وفي ٢١ آب سقطت طائرة السرجان « سيموتو » ، والسرجان « هوليبه » قرب القلعة فاحترقا . وفي ١ ايلول سقطت طائرة الادجودان « تالران » ، والليوتنان « دون » في اللجاة . وفي ١١ ايلول ١٩٢٥ تعطلت طائرة السرجان «املان» ، والسرجان «جميناز». وفي ٢٣ – ٢٤ ايلول اشتركت في حملة الجنرال غاملان على السويداء (١٥) طائرة استكشافية ، وثلاثة أسراب ، اي (٢٤) طائرة مدمرة ، فسقطت طائرة الكابتين « لافوس » ، والسرجان « باسيل » ، ثم أسقط العدو من ٢ – ٩ تشرين الاول ١٩٢٥ أربع طائرات خلال زحف حملة الجنرال غاملان على عري ورساس ، وأصاب الرصاص ثلاث طائرات استطاعت العودة إلى قاعدتها . وفي ٢٤ – ٢٥ نيسان ١٩٢٦ وفي ايار ١٩٢٦ أحاط الجيش الفرنسي بالسويداء ، واحتلت الشهباء والمقرن الشمالي ، خسرت القوات الجوية في ٢١ أيار الادجودان « كوشوا » من السرب الثالث . وفي اليوم نفسه سقطت طائرة السرجان «بيكمال» ، والسرجان ماجور « اوتلبه » قرب بصرى الحرير ، وقتل سكان « خربا » طياريها . ومن ١٩ إلى ٢٥ تموز عام ١٩٢٦ سقطت طائرة الليوتنان « لوران دوازله » والسرجان «غريسر» ، وذلك في ٢٠ تموز قرب كفربطنا وقتلا . وفي اللجاة أسقط العدو طائرة السرجان « تارديغان » ، والسرجان « انفلر » ، واحترق طياراها ، وجرح الليوتنان «بابي» ، والادجودان « برونو» ، ولكنها استطاعا أن يسلما . وأسقط العدو في اللجاة سبع طائرات أخرى هوت كلها وتحطمت » .

نرى من هذه الوقائع أن الفرنسيين اعترفوا بسقوط ست وعشرين طائرة حربية من طائراتهم ، وفي كل طائرة منها طياران ، فيكون اعترافهم بإصابة إثنين وخمسين طياراً بين ضباط وضباط صف . على أن أحصاءات الثوره تدل على سقوط ضعف هذا العدد على أقل تقدير . ومها يكن فإن إسقاط هذا العدد من الطائرات الحربية برصاص البنادق وحدها ، فيما لا يتجاوز سنة واحدة ،

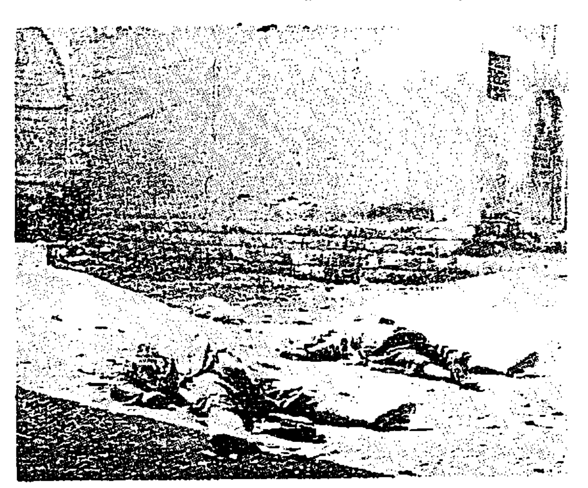
لدليل على بسالة الثائرين ، وشهادة بأنهم رماة مهرة ، يسددون رصاصهم لاخطر سلاح ، لا يقاومه عادة إلا سلاح من نوعه ، أو مدفعية كثيره صنعت خصيصاً ضده ، وكلاهما كانت الثوره محرومة منه .

الفرنسيون حرقوا المعابد

احتلت حملة الجنرال « غاملان » السويداء في اليوم الرابع والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٢٥ ، وأعملت حرقاً ونهباً وتخريباً ببلدة السويداء عاصمة الجبل ، حتى لم يسلم منها ولاحانوت ، ولا معبد ديني ، فغدت تلك المدينـــة الصغرى خرائب وأطلالاً . وقد احرق الفرنسيون في السويداء معبـد « عين الزمان » ، وهو اكبر معبد ديني لدى طائفة الدروز في جبل حوران ، مما زاد في سخط الدروز ونقمتهم على فرانسة التي لم توقر حتى المعابد من همجية جيشها وعدوانه ، حتى سمعت من بعضهم ما يشير الى أن معبد « عين الزمـــان » هو رب المعابـد في الجبل ، لذلك سينتقم الله لبيته من الفرنسيين المعتدين ولضحايا فظائعهم .

لقد كانت الروح المعنوية في الجبل سيئة منـــذ معركة « المسيفرة » التي لم يستطع الدروز ان ينتزعوا فيها نصراً حاسماً على العـدو ، وزادها سوءاً الطابور الخامس الذي كان يبث الشائعات ، ويدس الدسائس ليفرق بين الدروز والغرباء من السوريين الذين التحقوا بالجبل محملاً إياهم مسؤولية فشل مفاوضات الصلح التي قام بها الوفد الدرزي اللبناني أثر معركة المزرعة ، وعرض فيها باسم الفرنسيين شروطاً يعتبرونها سمحاء لوقف الثورة في الجبل ، ويقولون إن فرانسة رضيت ان تجلو عن جبل الدروز ، وتتركه نهائياً لأهله ، لولا هؤلاء السوريون الغربـــاء الذين زينوا للدروز ان مناطقهم ستثور على فرانسة بين ساعة وأخرى ، وهـــا قد انقضى زهاء شهرين على معركة المزرعة ، دون ان تطلق في المناطق السورية الاخرى طلقة رصاص واحدة ضد الفرنسيين . كانت النشرات التي تلقيهـــا الطائرات الفرنسية في غدوها ورواحها كل يوم على الجبل ، تضرب على هـــذا

الوتر الذي غدا حساساً بالنسبة لقلة الوعي القومي في الجبل ، وتدعو الفلاح الدرزي ان يتقلد المحراث ، وان يحرث ويزرع ويبني ، وان لا يصغي إلى أقاويل الغرباء الذين يوقدون الفتنه ، ويسببون للجبل وأهله الخراب والدمار . وقد صدق الكثيرون الخدعة الكبرى بان فرانسة كانت على استعداد للتخلي عن استعمارها في الجبل والجلاء عنه ، والاحتفاظ بسائر المناطق السورية ، وما قدروا ان فرانسة كانت في الواقع جلت رغماً عنها عن الجبل منذ انتصر الدروز في معركة الكفر التي كانت المعركة الاولى في معارك الجبل ، وهي حينما تعرض الجلاء عن الجبل اثر معركة المزرعة التي سحق فيها جيشها ، فانما تعرضه لكسب الوقت ، ريثما تستقدم نجدات لقواتها من فرانسة ومن مستعمراتها فيما وراء البحار ، بل تعرض شيئاً لا تملكه ، اي شيئاً ليس بيدها ، فقدته ، وذلك ريثما تعد العدة وتحشد قواتها لإخضاع الجبل ، والثأر من أهله ، إذ لم يبق لها ، منذ معركة الكفر في الجبل غير حامية محاصرة منهارة ، كلما انقضى يوم على حصارها ، كلما انهارت اكثر ، وتكبدت القياده الفرنسية الخسائر في سبيل حملها على الصمود وعدم الاستسلام . ولقد واجهت أثر هذه الدعاية الخبيثة صبيحة اليوم الثاني لوصولي إلى الجبل ، يوم قال لي الدكتور الشهبندر أنه غدا يطرق خجلاً أمام الدروز الذين يسألونه كلما رأوه : « أين ثورتكم الموعودة أيها السوريون ! لشد أزرنا في ثورتنا على الفرنسيين ؟ » ، وزاد الطين بلة زحف الجنرال « غاملان » بجيشه بغتة على السويداء ، وفي ظرف كان يقال ان معركة المسيفرة



من فظائع الفرنسيين قتلى في الطريق العام

على ما تحمل الدروز فيها من ضحايا ، كبدت الفرنسيين أكثر ضحايا في النفوس ، وحملتهم من الخسائر في الخيل والمؤن والعتاد والسلاح ما يحتاج تداركه إلى عدة أسابيع . والواقع أن تقدير الدروز من هذه الناحية غير خاطىء ، وإن كان مبالغاً فيه ، فجيش « غاملان » تلقى ، قبل أن يكمل ما مني به من خسائر في المسيفرة ، برقية لاسلكية عاجلة من حامية السويداء تنذر بها القيادة العليا بانها مضطرة للاستسلام ، بعد مدة أقصاها ثلاثة أيام ، إذا لم تنقذ من الحصار المفروض عليها ، وذلك بسبب نفاد الماء ، والجوع ، وتفشي المرض بين أفرادها . وفعلاً فقد كتب لي زيارة القلعة بعد جلاء جيش « غاملان » عن السويداء ، ورأيت بأم عيني أطراف جثث الموتى من أفراد الحامية ظاهرة من الحفر والقبور التي حفرت في باحة القلعة ، حيث غصت الباحة على رحبها بتلك الحفر وهي ، على تعددها وعمقها لم تتسع لأكداس الجثث من القتلى والموتى من المرض ، وحتى لم يعد تراب الباحة يكفي لطمر الجثث ، فظلت أقدام الموتى وأيديهم ظاهرة من الحفر تنشر النتن في أرجاء القلعة . لذلك اضطر الجنرال « غاملان » وبأمر من القيادة العليا ، لأن يزحف على الجبل ، قبل اكتمال استعداده الحربي ، لإنقاذ حامية السويداء ، فتعرض ببضعة آلاف من الجنود ، عدتهم الآلية تكفي لجيش عدده أضعاف عددهم ، فأسراب الطائرات التي اشتركت في القتال كانت تغطي السماء وتسيطر على أرض المعركة هذا عدا أرتال الدبابات الثقيلة التي لم تشترك في حملة ميشو ، وكانت في جيش غاملان تتسلق المرتفعات ، وتنحدر إلى المنخفضات ، وتتجاوز الصخور ، وتقلب جدران الحواكير ، وتقفز الخنادق ، وتحصد بمدافعها ورشاشاتها كل ما تراه في طريقها . وكان بديهياً ، والزحف تم على حين غرة ، وفي وقت لا يتوقعه أحد من الدروز ، والروح المعنوية على ما هي عليه من السوء في الجبل ، ألا يتقدم للقاء الجيش الفرنسي إلا عدد قليل من الدروز ، اضطروا إلى الانسحاب والتقهقر أمام نيران الحملة الحاصدة المدمرة ، وأن يصل « غاملان » إلى السويداء هدفه ، وينقذ حاميتها ، ويلبث فيها بعض الوقت ، ريثما يستعد للانسحاب ، فقد كان رغم انتصاره على الدروز ، ووصوله

إلى السويداء قاعدة الجبل ، غير مستعد لمتابعة الزحف على القرى ، لأن جيشه كما قلنا ، لما يكتمل استعداده ، وكان لا بد له من الانسحاب ، إلا أنه غير مستعجل فيه ، فقد استقبل في السويداء الرؤساء الروحيين الذين جاءوا لزيارته ، وقدموا خضوعهم لفرنسة ، وولاءهم لها ، والتنصل من تبعات الثورة ، فقد زعموا أن الثورة القائمة في الجبل هي ثورة سلطان الاطرش ، وعدد من الدروز معه أغراهم ، أو خافوا بطشه ، بعد تسلطه على الجبل ، إثر معركة الكفر ، وان سلطان لا يمثل الشعب الدرزي في الجبل ، وإنما يمثله أكثر شيوخ المذهب الذين سيضعون كل إمكانياتهم تحت تصرفه لعودة الهدوء والسكينة إلى الجبل في ظل العلم الفرنسي. ووصل في الوقت نفسه إلى السويداء وفد من بعض عملاء فرنسة ، أكثر أعضائه من آل عامر الذين ساقتهم المنافسة على زعامة الجبل الى مخاصمة آل الاطرش ، وقدم الوفد ، زاعماً أنه يمثل المقرن الشمالي ، خضوع المقرن لفرنسة ، وولاء سكانه لها ، فوبخهم على هذا الزعم الكاذب ، وهو يعرف اشتراك الشعب في مقرنهم الذي هو أكبر مقرن في الجبل بالثورة ، والا لما خضع هذا المقرن الكبير لسلطان وعصابته ، وللمقرن الجنوبي الذي يسكنه آل الاطرش ، وطلب منهم ان كانوا صادقين في دعوى ولائهم وولاء مقرنهم لفرنسة ، أن يقدموا دليلاً جديداً على هذا الولاء ، وعلى قدرتهم على مقاومة نفوذ سلطان الاطرش ، بتسلم قلعة السويداء من الجيش الفرنسي ، والمحافظة عليها أياماً ريثما يعود هذا الجيش بقيادته الى السويداء ، وان يصونوها من أي تخريب ، والا فسيعتبرهم مسؤولين مع سلطان الاطرش عن الثورة ، ويعاملهم معاملة المتمردين . وبعد هذا اللقاء أخذ الجنرال « غاملان » يستعد للرحيل ، لا سيما وقواته كانت تعاني في السويداء الشدة من قلة الماء ، فقد قطع الدروز مجرى « عين قنية » التي يبعد نبعها بضعة عشر كيلومتراً شرقي السويداء ، وحولوه عن السويداء ، ولم يبق من ماء قريبة للسويداء غير ماء « ام صاد » التي تبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن البلدة ، وحشد الدروز قواتهم في طريقها ، وحولها في المرتفعات ، وتحصنوا في مواقعهم ليحولوا دون وصول القوات

الفرنسية الى ينبوعها ، حتى يلازمها العطش في السويداء . ولكن قلة الماء ليست هي السبب الحقيقي في انسحاب الجنرال غاملان بجيشه من السويداء ، فقدكانت استعداداته لم تكتمل ، وكانت له خطة أخرى مرسومة لغزو الجبل بعد اكتمال عدة جيشه ، فاحتلال السويداء لا ينهي ثورة سلطان ، ولكن غزو المقرن الجنوبي واخضاعه ،ينهي في نظره ثورة الدروز أو ثورة سلطان ،ولإخضاع المقرن الجنوبي طريق غيرطريق السويداء.لذلك غادر السويداء فيصباح يوم ٢٦ ايلول عام ١٩٢٥ الباكر ، مستفيداً من الضباب الكثيف الذي كان مخيماً صبيحة ذلك اليوم على السويداء والوديان المحيطة بها ، متستراً جيشه به ، ولا سيا والدروز كانوا حشدوا قواتهم بأمر سلطان الاطرش في طريق ماء « ام صاد » لأنهم يقدرون أن حملة غاملان بدلها أنتحتلها لتستطيع البقاء في السويداء،والزحف منها الى القرى لإخضاعها ، ولم يكتشف الدروز انسحاب جيش غاملان الا بعد أن أصبح على بعد بضعة كيلومترات في طريق حوران ، في نجوة من مطاردتهم ولما اكتشفوا أخيراً انسحابه دخلوا السويداء ، فنبههم العقيد سليم الى ضرورة هدم القلعة ، اذ لا بد من عودة جيش غاملان الى السويداء ، واستخدام القلعة كثكنة للجيش ،وحصن يهددالسويداء،فوافقت قيادة الثورةعلى الهدم،وعهدت اليه بتنفيذ قراره ، وراح فؤاد سليم يطوف القرى يجمع منها المتفجرات التي في حوزة الدروز من الغنائم ، ويعتمد ، في الاكثر ، على قنابل الطائرات التي كانت تسقط في أنحاء الجبل ، ومنها ما هو ضخم ، ولا تتفجر بسبب عطل فيها ، وكان الكثير من هذه القنابل منزرعاً في القرى والاراضي المحيطة بها ، فأخذ الدروز يحفرون حولها ، ويخرجونها ، وينزعون « كبسولها » ،ويحملونها الى العقيد سليم في السويداء ، يفجرها بوسائله ، ويدك بها جدران القلعة وحصونها ، ولكنها كانت قلعة عظيمة لم يؤثر فيها كثيراً كل ما جمع وفجر في ثغراتها من متفجرات ، وانما استطاع هدم بعض بروجها ومهاجعها ، وجعلها بحاجة الى جهود كبيرة كي تصلح في المستقبل للسكنى والحصار . وتبين بعد الانسحاب أن الفرنسيين استردوا مدفعاً من الدروز كان أقيم قريباً من السويداء

لقصف القلعـــة ، من عيار ٧٥ ميليمتراً لم يفطن أحـــد لنقله فاسترده جيش « غاملان » .

نشاط موقت يسود الجبل

- ٢٨ -

لقد شغلت طائرات الفرنسيين ، بعد انسحاب جيش الجنرال « غاملان » من السويداء إلى مواقعه في حوران ، بقصف بلدة صلخد مركز المقرن الجنوبي ، وقصف بعض القرى في هذا المقرن وغيره كقرى الكفر ، والعفينة ، والرحى ، والقرية بـلدة سلطان قصفاً شديداً . وصادف يوم كنت مع بضعة رفـــاق من السوريين الملتحقين بثورة الجبل ، في قرية « بكة » في ضيافـــة صياح الحمود الاطرش ، فتعرضنا لقصف شديد ، في غارة قامت بها عصر ذلك اليوم ، ثماني طائرات على تلك القرية الصغيرة ، ولم يصب أحد منا بأذى ، على الرغم من كثرة القنابل التي ألقيت على القرية . وعلى الرغم من هذه الغارات الجوية الشديدة على قرى المقرن الجنوبي ، فقد عاد للدروز بعض نشاطهم وحماستهم ، بعد انسحاب جيش غاملان من السويداء ، وبعد أن تبين لهم أن الهدف من الزحف كان انقاذ الحامية المحاصرة في السويداء ، وان الفرنسيين ما زالوا ضعفاء يأبون الزحف على الجبل رغم تخاذل شيوخ المذهب ، والمعارضين من آل عامر أمام الفرنسيين ، ورغم وجود عملاء للفرنسيين في الجبل ، وحتى مـــن آل الاطرش انفسهم . وقد تبين لنا في هذه الايام أن فوزي فارس الاطرش لم يكن الدرزي الوحيـد الذي حاصر مع الفرنسيين في قلعة السويـــداء ، بعد معركة الكفر ، ولكن هنـــاك موظفاً من آل عامر شاركه هذا العار ، وخرج من القلعة مـع نساء الفرنسيين وأطفالهم ، والتحق بهم في حوران ودمشق .

كان السوريون الغرباء الملتحقون بالجبل ، يتحسسون كل يوم بما يدور حولهم

من أحاديث بالهمس والجهر ، وحول مناطقهم السورية المتقاعسة عن شد ازر الثورة في الجبل ، خاصة بعد الوعود الكثيرة التي قطعها زعماؤهم الوطنيون برسلهم ورسائلهم ، وقولهم ان دمشق ستكون اول مدينة تهب لنصرة الدروز في ثورة عارمة ، لا يحتاج أمرها الى اكثر من كتيبة درزية تصل الى مشارف العاصمة السورية ، وتشغل الفرنسيين بتقدمها . وكان الطابور الخامس في الجبل يثير دوماً هذا الموضوع ،وينمي الكراهية بين الدروز وضيوفهم ،حتى أصبحت الكراهية تبدو في العيون اينما حل السوريون وارتحلوا في انحاء الجبل ، بل هناك من اصبح يعتقد بان التفاهم ما يزال ممكناً مع فرانسة ، فيما اذا طرد هؤلاء الغرباء من الجبل ، وترك الدروز وشأنهم يتدبرون امرهم فيما بينهم !

انسحاب السوريين الغرباء من الجبل

لذلك غادر الجبل الى شرقي الاردن سعيد حيدر، وحسن الحكيم، وفوزي البكري ، وأخوه مظهر البكري ، والعميد يحيى حياتي ، في الفترة التي سبقت زحف الجنرال غاملان على السويداء . ولما وصلت انباء الزحف الى مسامع البارزين من السوريين الغرباء في الجبل ، اوعزوا الينا سراً بالابتعاد عن السويداء لان الوضع خطير بالنسبة للغرباء عن الجبل ، فتوجهت مع بعض الرفاق ، يوم احتلال الفرنسيين السويداء، الى «القرية» بلدة سلطان،وقضينا فيها ليلة واحدة، ومساء الخامس والعشرين من أيلول سرنا الى قرية « بكة » ، حيث وافتنا في اليوم الثاني البشائر بانسحاب الفرنسيين من السويداء الى حوران . لذلك عدنا في السابع والعشرين من ايلول الى « القرية » بلدة سلطان الاطرش ، حيث التقينا بنزيه المؤيد العظم ، وعرفنا انه عاد مع رفيقه من الرحلة الى غوطة دمشق لايصال كتاب سلطان الى منظمي ثورة حماة .

توجهنا يوم التاسع والعشرين من ايلول الى قرية المجيمر ، وحللنا في منزل سليم الاطرش ، حيث تلاقينا بالدكتور الشهبندر ، وجميل مردم ، والعقيد فؤاد سليم ، ونزيه المؤيد وغيرهم من السوريين . وبينما كنا في انتظار العشاء في

باحة الدار الواسعة ، دنا صاحب الدار منا ، وقال للدكتور الشهبندر، في صوت خافت سمعناه،ان في الدار جريحاً من معركة المسيفرة ، التهب جرحـــه لعدم وجود طبيب او عناية طبية في الجبل ، وهو يقاسي مر الآلام ، ولما سمع الليلة ان في الدار ضيوفاً بينهم طبيب الح بأن يعوده الدكتور الشهبندر لعله يستطيع ان يصف له ما يخفف من آلامه ، وفجأة سمعنا الدكتور الشهبندر يغضب ، ويخرج عن طوره ، ويصيح بصاحب الدار : « انا هنا لست طبيباً .. انا زعيم سياسي ..ولست احمل معيأي اداة للطب والتداوي..فماذا استطيع ان أصنع لجريحك ؟ .. اذهب وقل له ان ليس بين ضيوف الدار طبيب ! .. » ، فوجمنا كلنا لان اللهجة التي تكلم بها الدكتور الشهبندر كانت غير مهذبـــة ، ولا يجوز للطبيب التقاعس عن عيادة جريح مجاهد في الدار نفسها ، ولو من قبيل المواساة التي تخفف من آلامه، عند العجز عن اسعافه بدواء ، وبان الوجوم فيوجوهنا، ورجا صاحب الدار الدكتور الشهبندر أن يزور الجريح مـــن قبيل المواساة ، فذهب أخيراً لعيادة الجريح مكرهاً ، وخجلا من صاحب الدار ، وعـاد دون أن يصف له أي وصفة تخفف من التهاب جرحه ، مع ان الطبيب الانساني لا يعدم وصفة من طب البيت وحواضره،أو من طب الاعشاب وحواضرهـــا، لتخفيف الالتهاب وآلامه على الجريح . ونحمد الله على ان بعد هـــذا الحادث بأسابيع قليلة وصل الى جبل الدروز الدكتور محمد علي الشواف مـــن منظمي ثورة حماه ، فكان أول عمل قام به أن أسس مستوصفاً في السويداء لمـــداواة الجرحى والمرضى ، ولم يمنعه عمله في ثورة حماه ، ولا وجوده كلاجىء سياسي في الجبـــل ، دون أن يقوم بواجبه ، ويؤديه كطبيب نحو اخوانه المجـــاهدين الدروز .

كذلك التحق بعده بالجبل الدكتور امين رويحة خريج جامعات المانيـــة ، والاخصائي بالجراحة والعظام من اكبر مستشفياتها ، والطبيب الجراح في اكبر مستشفيات الاسكندرية ، وساعد الدكتور الشواف في مستوصف السويداء ،ثم لما علم ان اخوانه المجاهدين في الغوطة يجرحون ، ويموتون من تسمم جراحهم

لعدم وجود طبيب ، اشترى بندقية ، والتحق باخوانه الثائرين الذين يقاتلون فرنسة في معامل الغوطة ، وفور وصوله أسس في قرية « للافتريس » مستشفى للجرحى كان يشرف عليها بنفسه ، ويجري العمليات التي يستطيع عملها ، وإذا سمع قصف المدفعية ونبأ معركة في أي جانب من جوانب الغوطة أو المرج ، كان يتنكب بندقيته ، ويخف الى ساحة المعركة . وكنا نرجوه ، كرفاق سلاح ، أن يحفظ حياته لإخوانه ، فلا يفرط بها ، ويعرضها لخطر القتال ، فليس بيننا طبيب غيره ، ولكننا كلنا محاربون ان فقد منا عدد حل محله كثيرون ، ولكننا ان فقدناه كطبيب ، فليس فينا من يحل محله ، فكان يبتسم ابتسامته الهادئة الرزينة ويقول : « لا تحرموني شرف الجهاد معكم .. مع اخواني ورفاقي في السلاح .. قل لن يصيبنا الا ما كتب لنا » ، وينصرف بخطى ثابتة الى المعركة ، ويتقاتل في الصفوف الاولى ، يقاتل ويضمد جراح اخوانه المجاهدين في خطوط النار . وقد عاد مع القائد فوزي القاوقجي مرة الى اطراف الصفاة ، الحرة البركانية شرقي دمشق ، بعد مغامرة لهما في شمال سورية نجا هو ورفيقه منها بأعجوبة ، بل بأعاجيب ، حيث طاردتها القوات الفرنسية أياماً ، وفي كل مكان ، واستخف فريق من البدو سكان المنطقة بهما ، ورفضوا أن يقدموا لها الزاد ، خشية من بطش الفرنسيين الذين يلاحقونها ، ولكن ذلك لم يمنع الدكتور أمين رويحة من أن يخف لإسعاف ابن رئيس الحي ، لوقف النزف الذي كان ينزف دماً من أنفه ، دون أن يكون لديه ، في تلك الظروف وسيلة من وسائل الاسعاف ، ولكنه كطبيب مجاهد انساني لم يعدم الوسيلة ، من حواضر الحي ، لوقف النزف الشديد الذي كاد يودي بحياة المصاب ، فقد ربط قطعة قماش بخيط عقمها بوسائله الحاضرة ، ومرر طرف الخيط من أنف المصاب الى حلقه ، وجره باصبعيه خارج الفم ، حتى سدت قطعة القماش الصغيرة الانف وترك المصاب بوضع صحي ، حتى وقف النزف ، ونجا المريض من الخطر .

وأصيب مرة في المنطقة نفسها مجاهد من رفاق الدكتور رويحة بخراج أو

دمل كبير في صلبه شله عن الحركة ، وسبب له من الآلام المبرحة ما لا يطاق ، وليس لدى الدكتور أمين رويحه في المغارة التي كانوا يلجأون اليها ، في ذلك المكان البعيد عن العمران ، أي وسيلة من وسائل الطب لشق الخراج ، وإجراء عملية تشفي المريض ، وتخفف من آلامه ، فخف إلى قطعة زجاج حادة طهرها بالنار ، وشرط بها الخراج ، فانفقأ ، وسال منه الصديد حتى جرى في أرض المغارة ، وقام على تطهير الخراج ، ووسيلته النار والماء وما وجد في الحي من مواد ، حتى شفي المريض ، واستطاع أن يرافق اخوانه في السفر .

الزحف الكبير على الجبل

- ٣٩ -

توجهت في صباح الثلاثين من شهر أيلول الى قرية «عري» ، وحللت ضيفاً في دار الامير احمد الاطرش . وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة ، في الثاني من شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ ، زحف الجنرال غاملان بقوات جيشه التي حشدها في حوران وجهزها أتم تجهيز الى قرية «خربا» في جبل الدروز ، واحتلها . وفي مساء اليوم نفسه وصل الى دار « عري » عقلة القطامي من وجهاء المسيحيين في جبل الدروز وساكن قرية « خربا » ، وأخذ يخلو بالأمير حمد الاطرش ، والاهتمام يبدو على وجه الاثنين في مشاوراتها همساً ، وفي خلواتها ، فقدرت أن في الجو غيماً ، وأن هناك مفاوضات مع الامير حمد ، ربما لها علاقة بزحف الفرنسيين نحو « عري » ، وفيها دار الإمارة ، وفيها الرجل الذي من حقه أن يكون حاكماً على جبل الدروز بعد وفاة الامير سليم الاطرش . وكان لا بد لنا من الرحيل عن « عري » ما دامت هدف الجيش الفرنسي في اليوم الثاني . وقيل لنا أن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وجميل مردم غادرا الجبل الى عمان ، وطلب السوريون القادمون الى عري مني ومن رفاقي أن نصحبهم في رحلتهم ، فغادرنا « عري » في الليل فرساناً ومشاة ، وكنت من المشاة ، حتى بلغنا بلدة

صلخد ، وفيها قلعة قديمة . ولم نلبث أن تابعنا السير حتى بلغنا قرية « عنز » ، وهي من القرى الدرزية التي تقع في آخر المقرن الجنوبي ، أي على مشارف البادية التي تصل جبل الدروز بشرقي الاردن . وحللنا في منزل حسين باشا الاطرش ، وهناك أبدى لنا بعض الرفاق سوء وضع السوريين الغرباء في الجبل ، وانه غدا شاذاً وخطيراً ، وان زحف جيش « غاملان » للمرة الثانية الى الجبل معناه تصميم الفرنسيين على ضرب الثورة ، واخضاع الدروز الذين لم يطيقوا ، قبل بضعة ايام ، مقاومة بضعة آلاف من هذا الجيش في زحفهم على السويداء ، فكيف يطيقون ، هذه المرة ، وقف زحف جيش عرمرم مجهز بأقوى الأسلحة وأقطعها ، لا سيما وقد ساء الوضع في الجبل منذ معركة المسيفرة ، وضعفت معنويات أهله ، وسمعنا كيف تقدم شيوخ المذهب الى الجنرال « غاملان » في السويداء ، يعلنون باسمهم خضوع الجبل لسيطرة فرنسة ، ثم تقدم وفد آل عامر « العوامرة » عن المقرن الشمالي يمثل هذا الخضوع ، وان الجنرال « غاملان » اذا تمكن هذه المرة في الجبل ، فقد يجد بين عملاء فرنسة من الدروز من يقبض على السوريين ، ويسلمهم اليه ليقتلهم ، أو يجد من يغتالهم ، لأنهم ، في نظر الدروز ، السبب فيما حل بالجبل من مصائب ونكبات نجمت عن تخلف المناطق السورية الأخرى عن مساعدة الثورة في الجبل ، وأن السوريين الغرباء قرروا السفر الى عمان التي سبقهم اليها الدكتور الشهبندر وجميل مردم . وبعد هذه المحاضرة الطويلة دعينا الى استئجار مطايا من قرية « عنز » ، يقوم به مضيفنا حسين الاطرش ، لنترافق كلنا الى شرقي الاردن ، نبقى فيها كلاجئين ، بعد ان خاب الأمل في نجاح ثورة الدروز . لقد أثرت هذه الاقوال في أكثرية السوريين الموجودين ، اما انا وقليل من الرفاق ، بينهم سعيد اليماني ، فقد اعتذرنا عن السفر ، والانسحاب من الجبل ، قبل ان يطلب منا الدروز ذلك ، وقبل ان يستسلم المقاتلون من رجاله ، لأننا في الأصل جئنا لنحمل السلاح مع اخواننا الدروز ، ونقاتل معهم العدو المشترك ، ولم نأت كسياسيين فشلوا في حركة جاءوا من اجلها ، فآثروا الانسحاب .

بعد منتصف الليل غادر القرية إلى شرقي الاردن العميد يحيى حياتي، ورضا الصبان ، وأسعد البكري ، وجميل البيك ، وعبد القادر القواص، ونزيه المؤيد العظم ، وياسين الحكيم زميل القواص في حزب الشعب ، وبشير الهندي شقيق الضابط محمود الهندي ، وابراهيم صدقي وعدد من اخوانهم ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، استأجروا الدواب ودليلا يهديهم سواء السبيل ، ومنهم من أقـــدم على السفر سيراً على الاقـــدام ، لأنه كان لا يملك أجرة الدابـــة التي تحمله الى عمـــان .

الثائر يخوض المعركة مباشرة

توجهت في اليوم الثالث من شهر تشرين الاول من قرية « عنز » الى قريـــة « أم الرمان » ، ومنها الى قرية « ذيبين » ، وفيها التقيت بالعقيـــد سعيد العاص الحموي الموطن المقيم في عمان ، والذي كان في عداد من سهل سفري مـــن عمان الى جبل الدروز ، وبرفقته الدكتور محمد علي الشواف من منظمي ثورة حماة . وقد غـــادر موطنه ، بعد أن يئس مـــن ثورة حماة بسبب التأخـــير الذي أصابها على أيدي بعض المشتركين فيها ، ولكن الدكتور الشواف لما علم بالوضع السيء في الجبل عاد أدراجه الى عمان . اما المجاهـــد سعيد العاص فقد تابـــع على راحلته السير الى ارض المعركة ، وخاض غمارهـــا مع خيالة الدروز بمـــدسه الحربي من طراز « برابيللو » ، وابدى من البسالة ما كان موضع إعجابهم ، ثم سعى لنقل المدفع الوحيد الذي بقي للثورة لاستخدامه ضد الدبابات .

توجهت في السادس من شهر تشرين الاول من ذيبين الى القرية بلدة سلطان انتظر فيها مع اخواني القلائل نتيجة المعركة الدائرة في جبل الدروز ، لعلنـــا نستطيع بعدها ان نتسلح ، ونقوم بتأليف عصابة في الغوطة تعمل لنقل الثورة الى ابواب دمشق عاصمـــة الدولة السورية . قلت قبل الزحف ان الطائـــرات الفرنسية كانت تنشط كل يوم لقصف قرى الجبل ، وخاصة منهـــا قرى المقرن

الجنوبي ، والمقرن الشرقي والسويداء وتملأ الفضاء بنشرات تنذر بدنو الساعة التي تجتاح فيها الجيوش الفرنسية أراضي الجبل ، وتطلب من الدروز أن يلقوا السلاح،ويعودوا لتقلد المحراث الذي هووسيلتهم لاستثمار الارض، وجني خيراتها. أما تنكب السلاح فلا يجلب لهم غير الموت والخراب والدمار ، وتحرضهم على طرد الأجانب من جبلهم .

مما يتألف جيش غاملان ؟

تبين أن جيش الجنرال غاملان بدأ يتحرك في غرة شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ في تنفيذ خطة زحفه على الجبل. وكان يتألف ، حسب تقديرنا ، من بضعة وعشرين ألف جندي ، جاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق عن قطعاته انها مؤلفة من :

قوة المشاة بإمرة الكولونيل « اندريا » من اللواء الخامس من الفيلق الرابع، واللواء الاول من فيلق الرماة الافريقيين الثامن عشر ، واللواء الثاني من فيلق الرماة الافريقيين الواحد والعشرين،والكتيبة الاولى من اللواء الثاني من فيلق الرماة الحادي والعشرين ، واللواء الثاني من فيلق الرماة السنغاليين السابع عشر، ومن فيلق الرماة التونسيين،وهو ثلاثة الوية، فيكون مجموع المشاة سبعة الوية وكتيبة .



القائد المجاهد سعيد العاص من اليمين وإلى يساره نزيه المؤيد

أما قوة الخيالة فكانت بإمرة الكولونيل « ماسيه » وتتألف من فيلق الصباحيين المراكشيين الحادي والعشرين المؤلف من اربع كوكبات، والكوكبة الرابعة من فيلق الصباحيين التونسيين الثاني عشر ، والكوكبة الشركسية بقيادة الليوتنان « كوله » فيكون مجموعها ست كوكبات .

وكانت قوة المدفعية بإمرة رئيس الكوكبة « غلوك » مؤلفة من بطاريتين من عيار ٧٥ ميليمتر (كل بطارية مؤلفة من اربعة مدافع) ، وبطاريتين من عيار ٦٥ ميليمتر ، والكتيبة ٣٣ من الشعبة الفنية التاسعة ، وفصيلة من اللواء التلغرافي الثالث والاربعين قوة الدبابات المصفحة مؤلفة من كتيبة من فيلق الدبابات المصفحة (٥٠٢) .

السيارات الرشاشة : مؤلفة من الفريق الثامن المؤلف من الكوكبات ٨ ، ١٨ ، ٢٧ ، (كل كوكبة مفرزتان) .

قافلة الذخيرة بإمرة الكولونيل « كورنه » التابع لفيلق رماة افريقية الشمالية الحادي والعشرين .

قافلة عجال (مركبات جر) تحمل ستة عشر طناً من الخرطوش .

قافلة سيارات تحمل اربعة وعشرين طناً من الذخائر . وقافلة سيارات اخرى تحمل ثلاثين طناً من القوت هي مؤونة يومين .

وقافلة سيارات تحمل ثمانية عشر طناً من الماء ، وقافلة سيارات تحمل خمسة اطنان من البنزين . وسرية صحية واحدة .

- ٣٠ -

انطلق هذا الجيش الذي يزيد ، حسب تشكيلات الجيش الفرنسي، عن ثلاثين الف جندي ، يوم الخميس في غرة تشرين الاول من المسيفرة الى قرية « سهوة القمح » التي قال الفرنسيون انها قرية عقلة القطامي ، مع انني اعرف ان عقلة القطامي يقيم في قرية خربا التي احتلها الجيش في اليوم الثاني من تشرين الاول، وهي تقع غربي قرية « عري » .

وصباح اليوم الثالث من تشرين الاول واصل الجيش زحفه نحو الشرق ، فاحتل قرية « عري »،بعد مقاومة طفيفة قامت بها شرذمة من الدروز ناوشت الجناح الايمن من جيش « غاملان » . وكان الدروز ، في هذه المرة ايضاً ، على غير تأهب للقاء الجيش ، لان سكان القرى التي كان الجيش يزحف إليها ،او هي في طريق زحفه المقدر ، شغلوا بنقل الاطفال والنساء والارزاق الى قرى بعيدة عن المنطقة ، والاكثرية من السكان تقاعسوا عن القتال بسبب الخور الذي أصابهم خلال الأيام السابقة للزحف ، وحرب الأعصاب التي شنها الفرنسيون ، والنشرات التي كانت تلقى من الطائرات ، ونشاط الطابور الخامس ، وأنباء الوفود التي قابلت الجنرال « غاملان » في السويداء ، وقدمت إليه الخضوع باسم الجبل . وقد اختار « غاملان » المقرن الجنوبي في زحف جيشه ، وتجنب السويداء لأنه أدرك اثر هذا المقرن على الثورة ، وانه المقرن الذي يسيطر عليه آل الاطرش ، وان في اخضاعه اخضاعاً للثورة كلها . واختار في طريق جيشه مواقع المياه فهو في الاستيلاء على قرية « عري » يضمن لجيشه المياه الغزيرة ، القريبة منها،ويحتل دار الامارة الرمز الأعلى لآل الاطرش وسيادتهم وزعامتهم،

ثم بعدها ينتقل الى رساس ، وفيهـا ماء يساعد الحملة – وهي جيش لجب – على تجنب الخطأ الذي وقع فيه الجنرال « ميشو » يوم فصل المؤخرة عن المقدمة بسبب قلة المياه ، وخلى بينهما مسافة كانت السبب في القضاء على جيشه .

سعى سلطان الاطرش السعي الحثيث لتجميع الدروز في مواجهة الجيش الزاحف ، ولكن رسله وكتبه الى القرى في هذه المرة ، لم تكن لتلقى الحماس الذي لقيته يوم الدعوة الى مقابلة جيش الجنرال « ميشو » . لقد كان المتقاعسون عن القتال في هذه المرة ، اكثر من المبادرين . وقد أخلى الدروز قرية «عري»، إلا الامير حمد الاطرش ، فقد غادرها تاركاً دار الامارة التي تعد اكبر واجمل دار في الجبل ، بكل ما فيها من أثاث وارزاق ومؤن ، يرعاها بعض الخدم . فلما وصل الجنرال «غاملان» الى الدار أمر بان توضع فيها الالغام استعداداً لنسفها، ثم أرسل مع احد الخدم في الدار انذاراً الى الامير حمد الاطرش بأن يستسلم له ، والا نسف الدار ، ولم يبق فيها حجراً على حجر . وقد اطلع الامير حمد سلطان الاطرش وبعض ابناء عمه من آل الاطرش على الانذار الخطي ، وبعد التشاور بينهم ترك له امر البت في الموضوع ، فقيادة الثورة يتولاها فعلاً سلطان ابن عمه ، وليس له شأن فيها، واستسلامه لايقدم ولا يؤخر في قيادة الثورة ، اللهم الا من الناحية المعنوية واثرها على سكان الجبل ، والرأي العام في سورية، وفي العالم . لقد فضل الامير حمد اخيراً انقاذ داره وثروته بالاستسلام ، فتوجه الى « عري » حيث استقبله قائد الجيش ، وعزفت الموسيقى ابتهاجاً بهذا النصر الذي حققه الجنرال « غاملان » في أول خطوة من الزحف الى الجبل . وربما كانت خطة الاستسلام هذه جرت حسب مباحثات سبقت هذا اليوم،قام بها عقلة القطامي بين الجنرال غاملان والامير حمد ، واتفق على ان تمثل بهذا الشكل ، لانقاذ سمعة الامير حمد بين الدروز . ولقد أثر استسلام الامير حمد على ضعاف النفوس ، فتبعه سلمان بن عبده الاطرش مستسلماً عندما وصل جيش غاملان الى قرية المجيمر ، واقتدى بابن عمه ، وفتح الباب لآخرين من آل الاطرش .

احتلال قرية رساس

استعد جيش الجنرال غاملان ، بعد نصره المادي والمعنوي للزحف من « عري » ، واحتلال ينابيع الماء التي تبعد نحو نصف ساعة ، سيراً على الاقدام عن القرية ، والتي تحصن الدروز المقاتلون الذين أمكن جمعهم حولها للدفاع عن الماء ، وصد الجيش عنها . ولكن الحملة انحرفت يساراً ، وتجنبت الاماكن الوعرة التي يتحصن بها الدروز ، وسلكت السهل الممتد في الشمال الشرقي من القرية ، وسلكت الطريق الى رساس ، واحتلتها بعد قتال اشترك فيه جناحها الايمن ، وبذلك احتلت الماء الغزير بجوار القرية ، وضمنت لنفسها كفايتها من الماء . وبينما كان الجند يهدمون وينسفون بيوت السكان أرسل الجنرال « غاملان » انذاراً الى متعب الاطرش حكيم آل الاطرش وعارفته أو عراف جبلهم ، ولكن متعب رفض الاستسلام ، فنسف الجيش المحتل منزله الجميل الجديد ، ولما بلغه الخبر لم يبد حزناً عليه ، وقال : « لقد هدمت فرنسة ما بني بمال فرنسة ! .. » إشارة الى ما كان قبضه بعض زعماء الدروز من المفوض السامي الفرنسي في بيروت ، قبل احتلال الفرنسيين سورية الداخلية كرشوة لهؤلاء الزعماء ، ولبعض شيوخ العشائر السورية ، كي يكونوا بجانبها ، أو يكونوا هادئين على الاقل عند احتلال وطنهم ، وبذلك ضمنت فرنسة يومئذ ولاءهم لها .

لقد ارتكب الفرنسيون أقبح الفظائع في رساس ، القرية الصغيرة ، ولم يكتفوا بقتل الرجال المستسلمين وبتهديم المنازل ،بعد نهبها ، بل قطعوا الاشجار ، واستأصلوا الكروم ، حتى لم يبقوا غصناً أخضر في القرية وكانوا في قرية «عري» لاقوا استقبالاً طيباً عند احتلالها من الاقلية المسيحية في القرية ، اذ بادر النساء والاطفال منها ، يستقبلون الجند بالماء والاطعمة والفاكهة ، ولكن ذلك لم ينقذ الاقلية المسيحية من عدوان الجنود على منازلهم ، ونهبها ، والاعتداء على النساء ، وكان في هذا درس لهؤلاء الذين ضلوا السبيل ، وأحسنوا الظن بالمستعمرين الذين

لا يفرقون في طغيانهم بين مسلم ومسيحي . ولو وقفوا الى جانب اخوانهم الدروز ، وأجلوا نساءهم عن القرية ، لما حل بهم ما حل . فاتني أن أذكر أن حملة الجنرال « غاملان » تعرضت يوم احتلال قرية « عري » لهجوم من الدروز على جناحها الايمن الممتد الى قرب قرية المجيمر ، بقيادة نسيب الاطرش أبلى فيه المجاهدون البلاء الحسن ، ولكنهم فجعوا بسقوط نسيب الاطرش شهيداً في المعركة ، وكان ركناً من أركان الثورة ، وخطيبها المفوه ، رحمه الله ، وجعل مثواه الجنة . وقد كان لاستشهاده دوي في الجبل ، وأثر عظيم على الثورة ، ورنة حزن شملت الجميع لمآثره الكريمة .

قضت الحملة يوم ٥ تشرين الاول في قرية رساس وأطرافها ، بعد ان اقامت حولها الاستحكامات والخنادق ، فبادر المقاتلة الدروز الى التحصن في الاراضي الوعرة التي بين رساس وقرية الكفر ، علماً منهم بأن هذا الجيش اللجب ، لا بد له في زحفه من الماء ، وليس بعد مياه قرية رساس ، الا مياه الكفر التي يستطيع بها البقاء ، ثم الزحف على القرى الأخرى من المقرن الجنوبي موطن آل الاطرش ، وضربها قرية بعد قرية واخضاعها ، كما أحاط فريق من مقاتلة الدروز بجناحي الحملة الايمن والايسر ، حتى يخوضوا معها معركة في حال قيامها بالزحف نحو الكفر ، وأرسلوا كوكبة من فرسانهم الى قرية « كناكر » سدت طريق السيارات بالحجارة والصخور لتقطع الاتصال بين الجيش والحاميات التي اقامتها وراءها في القرى التي احتلتها ، وبين مقرها الخلفي وقواتها الاحتياطية في حوران . وقد استطاع هؤلاء الفرسان ان يغنموا سيارتين تحملان خموراً ومؤناً للحملة ، واشتبكوا مع السيارات المصفحة ، اي المدرعات التي كانت تقوم بمهمة حراسة الطريق الرئيسية بين الحملة ، وبين مراكز الجيش في حوران ، واستمرت المعركة الى الليل ، إذ أخذت المدرعات تطلق في الفضاء شارات مضيئة حمراء إنذاراً لقيادة الجيش بان الطريق الى حوران تتعرض لهجمات الدروز ، وانها مسدودة . وصباح السادس من تشرين الاول لم تبد الحملة اي حركة مما زاد في استغراب الدروز الذين اخذت تجمعاتهم تتزايد بوصول بعض النجدات اليهم من

القرى البعيدة ، ولكن الاعتقاد السائد هو ان هذه التجمعات كلها لا تستطيع الصمود طويلاً في وجه جيش « غاملان » بآلياته واسلحته الجهنمية ووفرة قواته ، عند زحفه الى قرية الكفر .

انسحاب جيش غاملان من الجبل

- ٣١ -

أخذ جيش « غاملان » تدب فيه الحركة في الصباح الباكر من اليوم السابع من تشرين الاول ، ويتهيأ للمسير ، فاستعد مقاتلة الدروز بالمقابل للقائه ، وهم يتربصون منذ يومين به ، في مواجهته وحول جناحيه ، ولكن الجيش بدلاً من ان يتقدم نحو مياه «الكفر»،انكفأ، واتجه من أقصر طريق واسهله نحو حوران منسحباً، متراجعاً ، متجنباً القرى ، مخلياً القرى التي احتلها ، مما زاد في يقين الدروز ان الجيش الفرنسي ينسحب من المواقع التي احتلها في اسبوع لأمر طارىء ارغمه على الانسحاب ، لذلك اشتدت عزائم المقاتلة الدروز ، ولحقوا بالحملة يضربون مؤخرتها ، وسبقها فرسانهم ينازلون اجنحتها ، حتى لا يضيعوا الفرصة التي اضاعوها يوم انسحابها من السويداء . وما ارتفعت الشمس في كبد السماء حتى اشتدت وطأة الدروز على الحملة الفرنسية ، رغم ان اكثر القوى كانت محتشدة في طريق الكفر من الدروز لم تستطع اللحاق بالحملة ، وخوض غمار المعركة لبعدها عن ساحة القتال . وكلما تقدم النهار زاد الضغط على الحملة ، رغم كل ما معها من سلاح قاطع ، ورغم البراعة التي تجلت في قيادتها ، حتى دبت في ساعات النهار الاخيرة الفوضى في مؤخرتها ، فقد ايقن الدروز ان الحملة منهزمة من جبلهم ، همها الجلاء بسرعة ، لذلك اقدموا ، وزادوا ضغطهم على المؤخرة والجناحين . وكان لاشتراك عدد كبير من الزعماء والقادة في معركة هذا اليوم اثرها القوي على حماسة الفرسان الذين كانوا يواكبون اجنحتها ، ويصلونها ناراً من بنادقهم ، وعلى رأسهم زيد الاطرش شقيق سلطان ، وأصغر

إخوته ، وفضل الله الاطرش ، وفضل الله الهنيدي ، وحمد عامر ، وصياح الحمود الاطرش ، ومحمد عزالدين الحلبي، وحمزة الدرويش ، وفؤاد سليم وغيرهم. ولما اخذت الفوضى تدب في مؤخرة الحملة من ضغط المقاتلة الدروز ، وكادت تنقلب إلى هزيمة ، خشي الجنرال « غاملان » المغبة ، وان تصير حملته إلى ما صارت اليه حملة سلفه « ميشو »، فوجه الفرسان الصباحيين إلى مؤخرة الحملة ، ينجدونها ، ويشدون من عزائم جنودها ، ولما عجزوا، راحوا يضربون الجنود المنهزمين بسيوفهم ، يصرعونهم ، فيرى الجندي نفسه مقتولاً في الحالين : برصاص الدروز، أو بسيوف الخيالة الصباحيين، فيختار الصمود والقتال. لقد بلغ الخوف والرعب في قلوب الفرنسيين انهم اخذوا في أصيل ذلك اليوم يتركون ويتخلون عن قتلاهم في ارض المعركة ، وهم ينسحبون ، ولولا الدبابات والطائرات الكثيرة التي كانت تحمي أطراف الحملة،وتصد عنها بنيران اسلحتها ، وتذود عنها ذود الأم الرؤوم عن اولادها ، لآلت المعركة في آخر النهار الى هزيمة شنعاء . وأخيراً اجتازت الحملة قرية كناكر ، وبلغت قرية «الثعلة»، فأخذت تتحصن في أطراف هذه القرية للمبيت ، وقد فرق الظلام بينها وبين اعدائها ، فرجع الدروز يحملون غنائمهم من سلاح العدو الذي تركه في طريق انسحابه ، ومن الذخيرة والعتاد والبغال ، إلى جانب رشاشين انتزعها الدروز من الحملة بعد قتل جنودها. وكان بلاء القائد فؤاد سليم، والقائد سعيد العاص في ذلك اليوم حديث الدروز ، فجرح الاول جرحاً طفيفاً ، وخرقت رصاصة بطن الفرس الذي يركبه سعيد العاص ، ونفذت من الجانب الثاني ، دون ان تصرعها ، واصابت رشة من رشاش المرشحة المتدلية الى جانب بسبب شدة الطراد ، فثقبتها في ستة مواضع وسلم القائد العاص، رغم كل هذا الرصاص الذي أصاب فرسه ومرشحته .

قضت الحملة تلك الليلة في قرية الثعلة وحولها ، وفي صباح الثامن من تشرين الاول تابعت انسحابها الى قرية « المزرعة » واكداس قتلى جيش ميشو مكومة

في ساحاتها ، واحتلت مياهها الغزيرة ، فخشي الدروز ان يكون بقاء الحملة على مياه المزرعة خطة للرجوع الى السويداء من الطريق الرئيسية للسيارات ، لذلك اخذوا يحشدون قواتهم على الطريق المؤدية للسويداء لتحول دون تحول الحملة وتقدمها . وقد كنت قبل يوم المعركة ، اي في السادس من تشرين الاول ، وصلت الى قرية الكفر، ثم سرت يوم المعركة الى قرية « الرحى » حيث التقيت لأول مرة بسلطان باشا الاطرش الذي رحب بي ، وبشرني بان الانباء المتسربة من سورية تشير الى نشوب ثورة مسلحة في مدينة حماة على الفرنسيين، قد تكون هي التي ارغمتهم على الانسحاب والجلاء عن جبل الدروز ، خشية ان يتفاقم امرها ، وتعم المدن السورية الأخرى، الحساسة بمواقعها بالنسبة لهم . ومع ذلك امر بأن ينتقل المدفع الوحيد الذي بقي للثورة من عيار ٦٥ ميليمتراً الى حرج السويداء، كي يكون رجاله على استعداد لاستخدامه في صد الزحف الى السويداء، فيما اذا كان انسحاب جيش الجنرال « غاملان » من رساس خطة للزحف الى السويداء .

لا اعلم ماهو شعور الجنرال « غاملان » ورجال جيشه ، في تلك الليلة ، وهم يبيتون على مياه المزرعة وفي أراضيها التي شاهدت قبل شهرين تقريباً اقسى صراع دموي بين الدروز الذين يلاحقون حملته اليوم ، وبين جيش افرنسي كجيشه ، اسفر عن سحق الجيش وابادته ، تشهد على ذلك ارض المعركة المليئة بحطام المدرعات ، وانقاض المركبات، والهياكل العظمية للألوف من بني الانسان والحيوان . انني اقدر ان جفون الكثيرين من الضباط والجنود الفرنسيين لم تغمض في تلك الليلة ، لاسيما وهم يسمعون طلقات الرصاص تئز حولهم ، من البنادق والرشاشات التي تحميهم من مناوشات الدروز المحيطين بهم في الليل بقيادة حمد عامر ، وهم مقاتلة المقرن الشمالي الذي اعتقد الجنرال «غاملان » انه خضع لفرانسة ، ولم يبق أمامه غير المقرن الجنوبي . ان حمد عامر لم يكن في عداد الوفد الذي ألفه اقرباؤه ، وقابل الجنرال غاملان في السويداء .

ما كاد فجر التاسع من تشرين الاول يبزغ حتى هبت الحملة تسرع بالرحيل من هـذا المكان الموحش بذكرياته ، والدروز يناوشونها حتى دخلت اراضي حوران ،وخلفت وراءها الجبل الثائر الذي عادت إليه حماسته ، والذي لم تتجاوز خسائره في معارك الايام الثلاثة اكثر من بضعة عشر شهيداً ، وعشرات الجرحى ، وبين الشهداء حمد عامر الذي يعتبر اكبر زعيم في المقرن الشمالي، ومن أنبل زعماء الجبل وأكرمهم وأشجعهم . أما خسائر الحملة الفرنسية في ايام انسحابها فتقدر بمئات القتلى والجرحى ، بينهم عدد من الضباط وكبار القادة ، فقد اقام الفرنسيون يوم وصولهم إلى مواقعهم ومراكزهم في حوران حفلاً عظيماً لدفنهم . وقد جاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق نبذة عن حملة غاملان وانسحابها ننقلها كما يلي :

« زحفت حملة « غاملان » في أول تشرين الاول من المسيفرة الى قرية « سهوة القمح » بلدة عقلة القطامي . وفي الثالث من تشرين الاول زحفت على « عري » بطريق المجيمر فاحتلتها ظهراً . ومنع الدروز الحملة من ورود الماء .

في الرابع من تشرين الاول وصل الجيش إلى رساس ، واحتل مياهها ، وظل يومي ٥ و ٦ تشرين الاول يتبادل الرصاص مع شراذم الدروز . وشد الدروز في اليوم السابع من تشرين على الحملة ، فاضطر غاملان ، ان يشرك كل قوات الاحتياط بالقتال . وظهرت وطأة العدو بنوع خاص على لواء « لونيه » الثامن من فيلق الرماة الافريقيين الذي كان يزحف في المؤخرة ، وعلى لواء « كراتزر » الخامس من الفيلق الاجنبي الرابع ، فلم يتمكن اللواءان من التخلص إلا بعد ان نزلت بهما الخسائر الباهظة . وخسرت الحملة في ذلك النهار ٣٨ قتيلاً و ١١٣ جريحاً فيهم اربعة ضباط » . ولم يشر الكتاب الى خسائر الايام الاخرى ، وباشارته الى استخدام الجنرال غاملان كل قواته الاحتياطية بالقتال في ذلك اليوم ، والى وطأة الدروز على لواءي « لونيه » و « كراتزر »،

وانهما لم يتمكنا من الخلاص الا بعد ان نزلت بهما الخسائر الباهظة ، لدليل على ان خسائر جيش الجنرال غامـلان أثناء انسحابه من الجبل كانت اضعاف اضعاف العدد الذي اعترفت به القيادة الفرنسية ، وربما كانت الخسائر المعترف بها هي بالافرنسيين وحدهم ، دون خسائر الحملة من جنود الرمـاة الافريقيين ، والفيلق الاجنبي ، فجنود هذين اللواءين ليسوا افرنسيين ، وخسارتهم لا تعتبر خسارة للجيش الفرنسي .

الفصل السادس

ثورة حماة

- ٣٢ -

لقد تبين ، بعد انسحاب جيش الجنرال « غاملان » ان السبب الوحيد في الانسحاب هو نشوب ثورة مسلحة في مدينة حماة ، أنزلت الرعب في قلوب الفرنسيين، واشعرتهم بانهم على أبواب ثورة قد تعم اكثر المدن السورية واريافها، تحبط كل ما خططوا لإخماد الثورة في جبل الدروز ، لذلك أبرق الجنرال « ساراي » المفوض السامي الفرنسي الى الجنرال « غاملان » ، وهو على رأس جيشه في قرية رساس، ينبئه بنشوب ثورة في مدينة حماة، يخشى من امتدادها الى سائر المدن والمناطق والبادية ، ويطلب منه أن يفرز ألوية و كتائب من قواته ، ويوجهها الى حوران لتكون تحت امرة القائد العام لجيوش الشرق ، يخمد بها الثورات التي قد تنشب في أي منطقة من المناطق السورية الأخرى ، فكان رد الجنرال « غاملان » يشعر بان الدروز حشدوا حشودهم في وجه الحملة ، وجناحيها ، وانهم يحاولون بفرسانهم سد طريق حوران ، وقطع كل صلة لحملته بمراكز التموين في حوران ، وانه بقواته الحاضرة يعاني خطر تطويق حملته وعزلها ، لذلك إما أن يتقدم الجيش بأسره ، وينفذ الخطة المرسومة لإخضاع

الجبل ، واما أن يرجئها ويعود أدراجه الى حوران ، واصر غاملان على رأيه ، وبلغ الهلع بالفرنسيين حداً حمل المفوض السامي على أن يأمر بانسحاب جيش « غاملان » من مواقعه في قلب الجبل ، وان يعود الى حوران ، وان يرجىء الخطة المرسومة لإخضاع الجبل ، فكان الانسحاب الشاق الذي كاد ينقلب الى هزيمة منكرة ، بفضل ارتفاع معنويات الدروز ، واشتداد حماستهم ، عندما شاهدوا جيش غاملان ينقلب على اعقابه تاركاً ما احتل من قرى جبلهم ، فنازلوه ببسالتهم المعهودة ، وحماستهم الشديدة ، وكان ما اشرنا اليه من خسائر اصابت الجيش الفرنسي في اثناء الانسحاب .

دور القاوقجي في ثورة حماة

وصل كتاب سلطان الاطرش الى منظمي ثورة حماة ، بعد بضعة ايام من تاريخ تحريره ، واطلعوا منه على ان قيادة الثورة في الجبل حددت لهم غرة تشرين الاول موعداً لإعلان ثورتهم ، فلم يبق عذر للمتخلفين والمسوّفين . وكان فوزي القاوقجي، خلال هذه الفترة ، اكثر من الاتصال بمعارفه من الضباط، وضباط الصف العرب، والوجهاء ، واطلعهم على امر الثورة في حماة ، رامياً الى الإكثار من الانصار والامكانيات لنجاح الثورة، الا ان المثل المأثور : « كل سر جاوز الاثنين ذاع ! .. » اخرج السر من نطاق المنظمين الاولين القلائل الى عدد من الناس يصعب ان يكتم السر بعضهم ، فأخذت الالسن تلوك الشائعات عن قرب نشوب ثورة في حماة ، وان وراء هذه الثورة فوزي القاوقجي.. ومن الطبيعي ان تصل مثل هذه الشائعات الى آذان المخبرين والعملاء والمنافقين ، ينقلونها بتقاريرهم واحاديثهم الى دوائر المخابرات الفرنسية ، وعلى رأسها القومندان « كوستلير » ضابط المصالح الخاصة في حماة ، فلم يصدق « كوستلير » ان فوزي القاوقجي الضابط السوري الوحيد الذي عين في الجيش السوري المختلط برتبة « كابتين »، اي نقيب ، بينما لم يعين ضابط عربي غيره ، مهما بلغت رتبته من قبل في الجيش التركي أو العربي الا برتبة ملازم ثان في الجيش السوري

المختلط ، وان فوزي القاوقجي الضابط السوري الوحيد الذي يحمل وسام جوقة الشرف (لوجيون دونور) ، من مرتبة « كوماندور » منحته إياه فرنسة ، والذي يتحسر الضباط الفرنسيون الذين هم أعلى منه رتبة على وسام من هذا النوع أو دونه مرتبة ، وان فوزي القاوقجي الذي تطلعه فرنسة على أسرار مخابراتها ، يوم يتسلم وظيفة ضابط المصالح الخاصة بالوكالة في مدينة كحماة ، كلما غاب الضابط الافرنسي الاصيل عنها بالاجازة ، وان فوزي القاوقجي الذي سيصبح أول جنرال في جيش الشرق ، وان فوزي القاوقجي يتمتع براتب أضخم من راتب متصرف حماة ، هل يمكن أن يخون فرنسة ، ويخون وسام جوقة الشرف ، ويخون الجيش ، ويرتكب مثل هذه الحماقة ؟ ومع ذلك فقد تواترت إليه التقارير والاخبار عن اتصالات القاوقجي الكثيرة بالوطنيين والوجهاء في حماة ، فاستدعاه اخيراً إلى مكتبه وسأله فجأة : « يقال ان ثورة مسلحة ستنشب ضدنا في حماة ، فما قولك في هذا الخبر الذي ملأ اسماعنا » وابتسم فوزي القاوقجي ، وقال للمستشار بهدوء : «وهل صدقتم هذه الاشاعة ؟ ثم .. من سيقوم بالثورة المسلحة في حماة ؟ هل يقوم بها الوطنيون ، واكثرهم من الطبقة المثقفة التي ما اعتادت ان تحمل السلاح ، ولا تعرف كيف تحشو البندقية ، والتي امكانيات أفرادها لا تستطيع أن تسلح ثلاثة رجال ؟ ام الوجهاء الاغنياء ، وهؤلاء أنت أعرف مني بهم في حماة ، وكيف نعالهم كل يوم تخفق وراء بابك من أجل مقابلتك ، وتأمين مصالحهم في قراهم وممتلكاتهم بواسطتك؟ ان هؤلاء عبيد مصالحهم يستمدون نفوذهم على الفلاحين من الموظفين أصحاب السلطة ، فهل تقدر ان يجرؤ هؤلاء على الثورة على فرنسة التي بدونها لايستطيعون أن يقابلوا فلاحيهم في القرى ؟ بلى .. لو قالوا لكم إن مظاهرة وطنية ستقوم في حماة .. صدقوا قولهم .. هذا ممكن .. لذلك انتبهوا في ايام الجمعة خاصة الا يخرج بعض الاهلين ، بعد صلاة الجمعة ، من احد المساجد متظاهرين ! .. » وراق هذا الجواب للمستشار كوستلير ، وله عدة سنوات قضاها في حماة ، يعرف ان كل ما قاله القاوقجي صحيح ، ومع ذلك ، اوعز بعد يومين من هذا اللقاء

للقاوقجي بان يتوجه مع سريته إلى البادية لجباية « الودي » وهي رسوم تفرض على العشائر البدوية ، ولمنع تجاوز البدو على زروع القرى ، فلبى الامر ، ولكنه اتفق مع اخوانـــه على ان يوافوه الى أماكن عيّنها لهم حسب برنامج تنقله في الريف والبادية فيما اذا تلقوا شيئاً من قيادة الثورة في جبل الدروز . لذلك لما وصل كتاب سلطان الاطرش الى حماة ، توجه بعض هؤلاء الى مقابلة القاوقجي في الريف ، واطلعوه على الكتاب ، وتشاوروا في امكان تنفيذ خطة الثورة في الموعد المحدد ، الا ان احدهم اقترح ان يتقدم الموعد يومين ، اي للتاسع والعشرين من ايلول ، وفق مولد الرسول العربي (صلعم) ، لان مدينـة حماة تكون في تلك الليلة مبتهجة ساهرة ، مزدحمة الشوارع بالناس ، تخفي بحركتها الصاخبة تنقلات واجتماعات الذين سيباشرون الثورة مع فجر تلك الليلة ، فوافق الجميع على هذا الاقتراح ، وطلب القاوقجي منهم ان يعدوا اجتماعاً في منزل عبد الرحمن المعط من اخوانهم ، يدعون اليه المطلعين على سر الثورة ، وكل من يرجى منه الاشتراك في الثورة ، أو مـد يد العون للقائمين بها ، وعلى ان يكون الاجتماع ، بعد صلاة العشاء ، وانه سيحضر هو بنفسه في الليل رأساً الى مكان الاجـتماع للاتفـاق مع المجتمعين على مراجعة الخطة الاخيرة لمباشرة الثورة في فجر تلك الليلة . ولما أزف الموعد ، عقد الاجتماع ، وحضر القاوقجي من الريف ليلاً الى منزل سعيد الترمانيني ، ثم الى دار عبد الرحمن المعط حيث وجد جميع المنتظمين في الحركة هناك ، الى جانب عدد مـن الوجهاء والوطنيين ، كان الحرص على سرية العمل حال دون اشراكهم فيه من قبل ، وباشر القاوقجي فورا في وضع الخطة الاخيرة ، فطلب منهم ان يتوجه ، بعد منتصف الليل عدد من مسلحي حي الحاضر في حماة بقيادة مصطفى عاشور الى بستان « العدسة » على مقربـة من ثكنة المرابط ، يكمنون فيـه بانتظار مجيئه ليقودهم ، ويهاجم بهم الثكنة القريبة ، ثم يتوجه بهم الى ثكنة « الموقف » المجاورة لمنزل عبد الرحمن المعط الذي عقد فيه الاجتماع ، حيث ينتظره عدد آخر من المسلحين يحيطون بالثكنة مـن المنازل المجاورة لها ، ويهاجمونها ، فيما اذا استعصت وأبت الاستسلام ، ثم ارسل

بعض الجنود الذين رافقوه الى حماة من سريته بسيارتين ، وعددهم ثمانية ،بينهم ضابط الصف ميشيل النحاس ، ليتصلوا سراً ببعض ضباط الصف السوريين في الثكنة ، وخاصة منهم الحمويين ، ليعلموهم بموعد الحركة ، وكانوا منتظمين فيها سراً ، وتعهدوا بان يسلموا الثكنة بالتأثير على الجنود السوريين ، فيما اذا لم يكن في الثكنة ضباط فرنسيون ، فقد اعتاد هؤلاء الضباط الا يناموا في الثكنات ، بل عند أسرهم في المنازل . واوفد القاوقجي عدداً من الشباب الحاضرين ، من غير حملة السلاح ، على رأسهم عبد القادر مليشو الى طريقي دمشق وحلب ، خارج المدينة ليقطعوا قبل الصباح اسلاك البرق والهاتف بين مدينة حماة وسائر المدن الاخرى . قرأ المجتمعون الفاتحة تيمناً ، وتوجه كل منهم للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه ، وقطعت اسلاك البرق والهاتف كلها في تلك الليلة ، عدا اسلاك الخط الحديدي التي سها عن قطعها المكلفون بالمهمة ، وهكذا عزلت مدينة حماة تلك الليلة عن سائر المناطق السورية ، ولم يبق لها غير سلك الخط الحديدي للاتصال بالعالم.راح فوزي القاوقجي ، بعد ان وضع حراسة شديدة على السيارتين اللتين جاء بهما من الريف ، ووضعهما في مقبرة « باب الجسر » ، كي يلجأ ورفاقه اليهما في حال فشل الخطة وراح يسير مع زميله في الحركة عثمان الحوراني من رجال التعليم في حماة ، ينتظر الوقت المحدد للالتقاء بالمسلحين في بستان العدسة . ولما أزف الوقت ارسل الحوراني الى البستان ، فعاد يعلمه انه لم يجد أحداً منهم ، وتكرر الذهاب الى البستان، ثم ذهب القاوقجي بنفسه اليه ، ودنا الفجر ، والبستان لم يصل اليها المسلحون الذين سيبدأ القاوقجي بهم احتلال الثكنتين في حماة ، وثكنات الشرفة خارجها . وكان يعلم ان ليس في الثكنات اكثر من نيف ومئة جندي ، لا يعجزه احتلالها بقواته ، وممن سينضم الى الثورة من المسلحين . وادركه الوقت ، وهو الذي جاء المدينة دون علم السلطة الفرنسية به ، وسار في الشوارع ليلاً على مرأى من الناس، وفي الاضواء المشعة ، وصادف دوريات لرجال الأمن، وتظاهر أنه مهتم مثلهم بأمن المدينة ، فكان افراد الدوريات يحيونه ، فينادي الضابط او العريف الذي يقودها ،

ويصدر اليه الاوامر بـــأن ينتبه ، إذ يخشى أن يقوم بعض الوطنيين المتهوسين بتظاهره في ليلة المولد ، فيجيبه آمر الدورية ، ويؤكد له أنه على أتم الانتباه لمثل هذا الموضوع . ولما قارب الفجر ، أو أزف ، ولم يصل من المسلحين احدالى المكان المقرر ، أدرك القاوقجي حرج موقفه ، وانه مقضي عليه ، ان لم يغادر المدينة ، فودع صديقه الحوراني ، وركب مع جنوده السيارتين ، وانطلق الى مقر سريته في الريف ، يحبر تقريراً الى القومندان كوستليير مؤرخاً بتاريـــخ تلك الليلة عن أعمال سريته ، وحال الريف والبادية ، والامن فيها ، وارسله مع رسول من سريته الى المستشار ، كي لا يصدق التقارير التي ستصله حتماً عن محاولة اضرام نار الثورة في مدينة حماة ليلة عيد المولد النبوي ،ووجود القاوقجي ليلاً في المدينة لهذاالامر ،وانتقل بسريته الى الاماكن التي كان اتفق عليها مع الحوراني ، منتظراً الانباء التي ستصله من حماة ، عما سيقوم به الفرنسيون اثر قطع الاسلاك الهاتفية والبرقية ، والاجتماعات التي عقدت في المدينة وحضرها أناس لم يكونوا من قبل على علم بالحركة ،قد يشيعون خبرها فيصل الى أسماع المستشار الفرنسي.
ولما طلع النهار ، ولم تبدأ الثورة ، وعرف منظمو الحركة ان القاوقجي غادر المدينة الى الريف بسبب اخطاء ارتكبت تلك الليلة ، اختفوا هم في منازل غير منازلهم ، توقعاً لاعتقالات تقوم بها السلطة الفرنسية ،لا سيما وهم هدف مراقبتها منذ زمن بعيد. وقد تبين اخيراً ان مسلحي حي الحاضر ، وعلى رأسهم مصطفى عاشور ، اخلفوا وعدهم ليلة المولد النبوي ، لأنهم أرسلوا احـــدهم الى بستان العدسة فوجد أنها ارض لا شجر فيها ، ولا زرع ، ، يصعب اختفاء عدد مـــن المسلحين فيها ، دون ان يلفتوا النظر ، فعاد اليهم يقترح تبديل المكان ببستان آخر قريب اسمه بستان « ام الحسن » على بعد مئة متر مـــن بستان العدسة ، فكان ذلك ، ولكن دون أن يعلم القاوقجي بهذا التبديل ، وأنى له ان يعـــلم وقائد المسلحين لم يرسل من قبله احداً الى بستان العدسة ينتظر فيها القاوقجي ليهديه الى المخبأ الجديد . وكان في تلك الليلة نفسها شابان وطنيان هـــما فؤاد رسلان ، وعبد الهادي المعصراني على رأس خمسة عشر شاباً من مدينة حمص ،

يحلون في بيت المجاهد سعيد الترمانيني انتظار ألنشوب ثورة حماة ، والاستيلاء علـــى الإسلحة والعتاد من الثكنات العسكرية ، يحملون منها مـــا تيسر إلى إخوانهم في حمص . وكانوا على موعد مع ثورة حماة ، للقيام بثورة مسلحة في مدينة حمص ، تتبعها ، في نفس الوقت ، ثورة مسلحة في بعلبك ينظمها توفيق هولو حيدر من رجالات بعلبك الوطنيين ، فاضطر الحمصيون لأن يتسربوا سراً في اليوم الثاني عائدين الى مدينتهم كي لا تكتشف السلطة امرهم .

الارتجال في الثورة

٣٣

اصبح الصباح ، وهبت المدينة الى اعمالها كالمعتاد ، وعلم الفرنسيون بقطـع الاسلاك البرقية والهاتفية ، ولكن حاميتهم في حماة ، كانت من القلة لاتساعدهم على أعمال البطش ، لا سيما والإشاعات عن قرب نشوب ثورة في حماة تملأالتقارير في دائرة مخابراتهم ، لذلك لبثوا مترقبين ، وزادوا حذرهم ، وربما عدوا قطع الاسلاك في تلك الليلة عملاً من أعمال التخريب قام به بعض المتهورين من الشباب الوطنيين ، قد يقف عند هذا الحد . ولما انقضى النهار دون أن يقوم الفرنسيون بأي عمل سلبي في حماة ، أخـــذ منظمو الحركة يخرجون تباعاً من مخابئهم ، يتصلون ببعضهم بعضاً ، ويتشاورون فـــيما يعملون ، فقر رأيهم على أن يتصلوا بفوزي القاوقجي ، فتوجـــه في اليوم الثالث سعيد الترمانيني مع رفـــاق له بسيارة الى قرية « معر شحور » على بعد عشرة كيلومترات من المدينة ،وقابلوا فوزي القاوقجي الذي عرف منهم انباء المدينة ، وأفهمهم أن وضعه اصبح في خطر ، وانـــه يترقب ان تستدعيه السلطة الى حماة وتعتقله ، أو ترسل قوة للقبض عليه ،لذلك لا بد من العمل السريع لتنفيذ خطة جديدة للثورة في حماة ، واتفق معهم على أن يكون ليل الرابع من شهر تشرين الاول موعداً لإعلان

الثورة ، وكلفهم بأن يجمعوا كل اخوانهم من جديد في مساء تلك الليلة ، اذ يوافيهم الى حي الحاضر حيث يجد منهم من يرشده إلى مكان الاجتماع ، على أن يكون القادرون على حمل السلاح مهيئين بأسلحتهم أيضاً في المكان نفسه ، أو في مكان آخر ، فيباشر اعمال الثورة دون تردد ، فلا تقع الخطيئة التي وقعت ليلة عيد المولد ، ولا تتكرر . وعاد الترمانيني إلى حماة ، وأطلع إخوانه على ما اتخذ من قرارات مع القائد القاوقجي ، فهبوا ينفذونها ، ويطلبون من كل من يعرفون أنه قادر على حمل السلاح من أبناء المدينة ، أو بحوزته سلاح أن يتهيأ للعمل في تلك الليلة ، وانصرف القاوقجي في الريف الى الاتصال ببعض شيوخ العشائر القريبة من حماة ، وأطلعهم على عزمه ، وطلب منهم الاشتراك معه بالثورة . وكان له بحكم وظيفته نفوذ على شيوخ العشائر ، فلباه عدد من شيوخ الموالي والسبعة منهم الشيخ صالح بن هديب ، والشيخ سلطان الطيار ، والشيخ فارس العطور وغيرهم . حتى أن عدداً من فرسانهم رافقه مساء اليوم الرابع من تشرين الاول الى مدينة حماة للاشتراك بالثورة . وكان القاوقجي أوفد الضابط الفرنسي في سريته ، واسمه الليوتنان «جربابي» الى بلدة محردة وقرية السقيلبية إبعاداً له عن جو الاتصالات التي يجريها القاوقجي في تنقلاته كي لا يطلع عليها ، ويعلم مستشار حماة . ولما حل اليوم الرابع من تشرين الاول عام ١٩٢٥ ارسل ميشيل النحاس ضابط الصف وبعض جنود سريته المطلعين على سر الثورة يستدعون اليه الضابط الفرنسي ، ولما وصل قبض عليه ، واعتقله في حي من حي الاعراب الذين أظهروا استعدادهم للثورة معه .

كانت مدينة حماة نهار الاحد في الرابع من شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ ثائرة حقاً ، اذ لم يبق أحد من أهلها لا يعلم ان الثورة ستنشب في الليل ، وكان المتحمسون للثورة يسألون عن السلاح والعتاد علناً من بعضهم بعضاً في الشوارع والاسواق ، يشترون حاجتهم ممن يتاجرون بالسلاح أو يحوزونه في المخابىء ، هذا يسأل : « هل عندك خرطوش ألماني ؟ » ، وذاك يسأل : « هل عندك بندقية للبيع ؟» ،

وكان هذا يجري علناً ، وآذان الفرنسيين تصغي ، وتسمع ، فأدركوا ان المدينة ستثور عليهم في الليل ، وليس لديهم قوة كافية للبطش بالمحرضين الذي تعرف أكثرهم ، لذلك لجأوا فوراً إلى ترحيل عائلاتهم بالقطار إلى بيروت ، وغادر ضباطهم منازلهم الى الثكنات يحصنونها باكياس الرمل ، وبالاسلاك الشائكة ، وينصبون الرشاشات في الاماكن المسيطرة على ما حولهم ، كل ذلك على مشهد من الحمويين . وما غابت شمس ذلك النهار حتى أغلقوا ، على غير عادتهم ،أبواب الثكنتين في قلب المدينة ، وقبعوا وراء رشاشاتهم المنصوبة ينتظرون ساعة الصفر التي يجهلونها ، والتي يتوقعونها في تلك الليلة . وأيقن منظمو الحركة أن ما لهم من أعوان بين ضباط الصف السوريين والمغاربة في الثكنات أصبحوا مشلولين لا يستطيعون مساعدة الثورة ، لأن الضباط الفرنسيين سيطروا بانفسهم على الجنود ، وسيقتلون كل من يتمرد عليهم من افراد الحامية او يشتبهون بأمره .

توجه ، بعد غروب ذلك اليوم ، عدد من منظمي ثورة حماة الى حي الحاضر ينتظرون وصول القائد فوزي القاوقجي واخوانه ، وتجمع حولهم المسلحون من اهل الحي ، دون وجل . لان الفرنسيين سلكوا سبيل الحصار منذ الغروب ، واغلقوا عليهم ابواب الثكنات، ولم يبق ما يخشاه الثوار منهم في احياء المدينة . ولما ازفت الساعة الثامنة مساء وصل القاوقجي ومعه عدد من جنوده وشيوخ العشائر ورجالهم المسلحين ، لا يتجاوز عددهم كلهم العشرات ، وسأل القاوقجي اخوانه الذين كانوا في انتظاره عن اجتماعهم ، فأطلعوه على الوضع ، وان الفرنسيين حاصروا بالثكنات ، لأنهم على علم بان الثورة ناشبة هذا المساء ، وادرك ان الخطة التي كان وضعها من قبل للاستيلاء على الثكنات لم تعد تناسب الوضع ، ولم يبق امامه غير استخدام القوة سبيلاً لثورته ، لذلك اطلق من بندقيته طلقة في الهواء ايذاناً ببدء الثورة، وسار بمن معه من المسلحين الذين استولوا اولاً على مخفر الشرطة في حي الحاضر ، وسائر المخافر في المدينة ، ثم

اتجهوا نحو دار الحكومة وفيها السجن المدني ، ومع ان ضباط الدرك السوريين كان اكثرهم عـــلى علم بامر الثورة ، وبعضهم على صلة بالقاوقجي ،الاان ضابطاً برتبة مـــلازم منهم لم يكن في تلك الليلة ضابطاً مناوباً، تطوع من نفسه لأداء هذه المهمة ، وقاد قوة الدرك في دار الحكومة لمقاومة الثوار لعله يرقى رتبــة ، أو ينال وساماً من الفرنسيين ، فلما وصلت قوة من الثوار الى دار الحكومــة قوبلت من قوة الدرك المتحصنين في النوافـــذ بوابل من الرصاص ، فرد عليهم الثوار ، وتجمهر حول دار الحكومة الاهلون مسلحين وغير مسلحين ، يريدون اقتحام الدار ، فسقط عدد منهم شهداء ، واخيراً ، بعد منتصف الليل ، تمكن فريق منهم ان يبلغ الباب الكبير المغلق ، وان يحطمه ، وان يشعل النار في احد المكاتب ، فتسرى النار الى الدوائر الرسمية ومكاتبها المليئة بالدفاتر والسجلات والاوراق والمقاعـــد والمنصات الخشبية والاثاث ، تلتهم كل شيء في طريقها ، فاضطرت قوة الدرك ، وقوة الحرس السيار التي تحرس السجن ، وكلتاهما تقاوم الثوار ، لان تلجآ الى الاقبية ، خشية ان يذهب افرادهما طعماً للنـــار . وهناك اخذ المحاصرون يبحثون لأنفسهم عن منفذ للنجاة فوجدوا نافذة في اعلى القبــو تسدها عوارض من الحديد ، تطل على باحة دار ، هي سكن فريد العظم الذي كان القاوقجي فاتحه ، في جملة من فاتحهم ، في امر الثورة ، واظهر استعـداداً لمساعدتها ، فأخذ الجنود يصرخون مستغيثين ، ويطلبون من سكان الدار كسر عوارض الحديد ، او خلعها ، وفتح النافذة التي ليس لهم منفذ سواها ، فقـــام الخدم والرجال في منزل العظم بخلع عوارض الحديد من النافذة ، وفتحها حيث تسلل منها رجال الدرك ورجـــال الحرس السيار باسلحتهم الى الدار، واجارهم صاحبها ، وتركهم يتسللون في ظلمة الليل الى منازلهم ، او منـــازل اصدقائهم يختبئون فيها ، وبعضهم ظل لاجئاً الى مضافـــة دار العظم . وقد زار فوزي القاوقجي ، في الليلة نفسها ، دار فريد العظم ، اي بعد حرق دار الحكومة ، وانقاذ المساجين في سجنها ، فلم يخـــبر صاحب الدار القاوقجي بحمايته قوات الدرك والحرس السيار في داره ، واخفى عنه امرها . وقد حدثني خالي عـــلي

الريس ، انه كان بين المهاجمين الذين استطاعوا اخيراً اقتحام باب دار الحكومة ، تحت وابل من رصاص المدافعين عنها ، واستطاعوا تحطيمه ، ان الكثيرين من رفاقه سقطوا شهداء حوله ، ولكنه مع نفر من رفاقه المهاجمين ، تمكنوا من الدخول الى مكاتب الدار ، واشعلوا النار فيها ، وبذلك قضوا على المقاومة الضارية التي قام بها الضابط على رأس قوة الدرك والحرس السيار ، انضمت اليهما في النهار قوة الدرك في سلمية كان استنجد بها الفرنسيون ، واستقدموها ، وضموها الى القوة في دار الحكومة ، ولولاه لاستسلم الجنود ، باعتبارهم من أبناء البلاد ليس على رأسهم ضابط فرنسي ، فقد كان يهدد باعلام الفرنسيين باسم كل من يتهاون في الدفاع عن الدار .

صمود الثكنات الفرنسية

أخذت ثكنات الفرنسيين في المدينة وخارجها تطلق نار رشاشاتها على ما حولها ، حتى لا يقترب منها الثوار ، وتحمي نفسها ، وأخذت المدفعية تقصف المدينة من ثكنة « الشرفة » المطلة على المدينة من جوار محطة الخط الحديدي ، ورغم ذلك ، فقد اندفع الشعب في تأييد الثورة ، فدقت الطبول في الأحياء ، وزغردت النساء ، وتجمع عدد كبير من الاهلين ، مسلحين وغير مسلحين ، على قرع الطبل في حي آل البرازي ، لا سيما ، وكان قد شاع في المدينة أن نجيب آغا البرازي عميد العائلة ، مشترك في الثورة ، الا أن هذا الجمع اصطدم بحسني البرازي الذي جاء يندد بالثورة والقائمين بها ، وانهم جروا الى مدينتهم الموت والدمار ، وسمع نجيب البرازي صوت ابن اخيه ، فخرج من داره يعلن أمام الجماهير براءته من الثورة والقائمين بها ، ويدعو الناس الى التفرق الى منازلهم والتزام الهدوء ، والا فسيضطر الى أن يعلم السلطة الفرنسية بأسماء المتمردين ، فانفض الجمع ، وتوقف الطبل عن القرع ، ولم يتقدم احد في تلك الليلة لمهاجمة الثكنات الفرنسية في الشطر الغربي من المدينة حيث يشطر نهر العاصي المدينة الى شطرين : السوق وهو الشطر الغربي ، والحاضر وهو الشطر الشرقي . وكان

المتفق عليه ان يتولى ، في تلك الليلة ، القاوقجي ورجاله تطهير الشطر الشرقي من المدينة من قوات الدرك والشرطـة ، وأن يتولى نجيب البرازي واصلان البرازي وآل البرازي برجالهم المسلحين مهاجمة الثكنات في الشطر الغربي مـن المدينة . ولكن موقف نجيب البرازي خذل الثورة ، وأرهب النـاس ، فوصل في أول الليل الى حماة نحو عشرين فارساً من الحرس السيار في بلدة « محردة » ، وانضموا الى القوة الفرنسية المحاصرة في ثكنـة « الموقف » دون ان يعترض سبيلهم أحد في الشطر الغربي من المدينة ، وحوالي منتصف الليل خرج من هذه الثكنة « الليوتنان ديرفو » الفرنسي مع فصيلة من قواته معهم رشاش واحـد ، وأنقذ المال من خزانة المصرف السوري في حي الدباغة ، فلم يجد من يعترضه في الذهاب والاياب . وقد تحدث هذا الضابط عن نفسه بعد الثورة ، فقال : « كنا في الثكنة من القلة في العدد ما نجد الدفاع عن الثكنة ضرباً مـن الجنون ، لان ثكنتنا كانت محاطة بالمنازل والحوانيت من اربعة اطرافها ، والمنازل المرتفعة متسلطة عليها . ولكننا لما بدأت الثورة ، وانقضت الساعات دون ان تطلق رصاصة واحدة على ثكنتنا ، ووافتنا نجدة من الحرس السيار في محردة اشتدت عزيمتنا ، وقررنا الدفاع عن انفسنا ، وفكرت بانقاذ أموال المصرف السوري ، فخرجت مع افراد قلائل مـن الجنود من الثكنة ، وأديت المهمة ، وكنت خلالها اتوقع ان استسلم لأي قوة تعترض سبيلي من الثوار ، ولكن لم اصادف احـداً منهم ، ولم تطلق علينا رصاصة واحدة ! ». وبلغ استهتار القومندان كوستلير بالثورة أنه لم يغادر مسكنه في حي « الحوارنة » ، وهو منزل مرتفع يطل على ما حوله ، واكتفى باستدعاء ثمانية جنود مع رشاش ثقيل أقامه على شرفة المنزل ، كان رصاصه يصوب الى اي انسان يخطر امام الجنود في الأزقة والشوارع التي تطل عليها الشرفة ، ويصرعه . وفي الصباح الباكر ، صبـاح الخامس من شهر تشرين الاول ، وصلت الى حماة سرية من الجند ، هي حامية بلدة مصياف غربي حماة ، لا يتجاوز عدد افرادها الثمانين ، وانضمت الى حامية حماة في الثكنات ، وكان افرادها من الرعب والخوف ، وهم يجتازون طريقهم

الى الثكنة ، على استعداد للاستسلام لأي قوة من الثوار تواجههم ، او تعترض سبيلهم . واقبلت الطائرات في النهار تقصف المدينة ، بالاضافة الى المدفعية التي كانت تستمر في قصفها البطيء من ثكنة الشرفة . وتداول وجهـاء حماة أو اغنياؤها « الذوات » ، وتشاوروا فيما بينهم ، فوجدوا من مصلحتهم ان يتبرأوا للقومندان كوستيلير ضابط المصالح الخاصة من مسؤولية الثورة التي لم تستطع الاستيلاء على مواقع الفرنسيين في مدينتهم ، فألفوا وفداً منهم ، كان في عداده نجيب البرازي وفريد العظم ،وتوجه أفراده الى دار المستشار في حارة الحوارنة ، يرفعون المناديل البيضاء شارة الاستسلام ، فاذن لهم المستشار ، وقابل دعوى التبرؤ من مسؤولية الثورة بالهزء ، ولم يصدق ان فوزي القاوقجي بجنود سريته القلائل يستطيع ان يشعل ثورة في مدينة حماة التي يربي عدد سكانها على سبعين الف نسمة ، لو لم يكن زعماء المدينة مشتركين او متواطئين معه على الثورة ، ووقف المستشار عند قناعته بمسؤوليتهم عما يصيب المدينة من تدمير بسبب الثورة ، وبعد حوار وجدل قال لهم انه سيظل يعتبرهم مسؤولين عن ثورة حماة حتى يقبضوا على فوزي القاوقجي وشرذمة جنوده ، ويسلموهم اليه ، وعندئذ فقط يكف عن قصف المدينة ، ويرفع عنها أذى الجنود وتقتيل كل من يلوح لهم من الاهلين . واخيراً لم يجد اعضاء الوفد بداً من التعهد للمستشار بالقبض على فوزي القاوقجي وعصابته ، وخرجوا من لدنه يسألون عن سكان القاوقجي . وكان القائد مع شرذمة من رجاله انتقل في الضحى الى شطر السوق ، لما علم ان ثوار هذا الشطر لم يهاجموا الثكنات ، بسبب موقف نجيب البرازي واضرابه ، ممن كانوا يتعهدون بامداد الثورة بمئات الرجال المسلحين ، ويضعون تحت تصرف قيادتها ما يملكون من ثروة . لقد كان نجيب البرازي يقول للقاوقجي واخوانه : « اني املك عشر قرى في اطراف حماة ، فهل اعجز عن نجدتكم بعشرة مسلحين من كل قرية فيكون لديكم يوم الثورة مني وحدي مئة مسلح ؟ ثم انني املك اليوم سبعين الف ليرة ذهبية نقداً ، وانا مستعد ان اضعها كلها تحت تصرف قيادة الثورة ، فلا تخافوا .. ولا تحزنوا .. اننا جميعاً معكم ! .. » . ان هـذا

الرجل وبعض أقربائه الذين أظهروا استعدادهم لحمل السلاح والقتال بانفسهم ، كانوا متعهدين باحتلال الثكنات الثلاث في حي السوق ، الشطر الغربي من المدينة. ان هؤلاء لم يكتفوا بخذل الثورة والتقاعس عن القيام بدورهم ، بل صدوا الناس عن الانخراط في الثورة ، وهددوهم ، وأخافوهم ، وفرقوهم بدلاً من ان يوجهوهم إلى مهاجمة الثكنات ، وخاصة منها المحاطة بالمنازل ، فقد كان احتلالها سهلاً ومضموناً.

قلنا ان فوزي القاوقجي انتقل ، في ضحى ذلك اليوم ، من حي الحاضر الى شطر السوق ، وصعد مع قليل من المسلحين إلى مئذنة مسجد تشرف على ثكنة الموقف ، وأخذ يهاجم حاميتها برصاص البنادق ، وبالرمانات اليدوية ، فأردى منهم قتلى ، وأصاب جرحى ، وإذا برجال من أبناء المدينة يلحقون به ، ويحدثونه حديث وفد الوجهاء الذي قابل « القومانداًن كوستليير » ، وتعهد له بالقبض على فوزي القاوقجي وعصابته ،

المجاهدون الشهداء عبد القادر مليشو ، ومصطفى عاشور ، وعلاء الدين الكيلاني ، ورزوق نصر ، يتوسطهم الشهيد الدكتور صالح قنباز

وان نجيب البرازي إثر عودته من المقابلة بدأ يسأل الاهلين عن مكان القاوقجي ، وانهم يخافون عليه وعلى إخوانه من الغدر ، فهبط مع رجاله من المئذنة ،

وانسحب توا إلى حي الحاضر . وقبيل الظهر وصل قطار حلب إلى محطة حماة يقل اكثر من مئة جندي ، وجهوا من الشمال لنجدة حامية حماة ، وبعد الظهر وصلت قوة اخرى أكبر بقطار قادم من الرياق ولبنان دخلت المدينة ، واطلقت نيرانها على كل من صادفته من الاهلين في الشوارع والازقة ، وفوق أسطحة المنازل ، واحتلت الاماكن المرتفعة في المدينة كحي الحوارنة ، والباشورة ، وتل الدباغة « صفرون » ، وسلطت نيران أسلحتها على الاهلين ، حتى كثر عدد القتلى والجرحى منهم ، فلا يجد الاهلون مجالاً لدفن شهدائهم ، فإذا خرجوا إلى المقابر انهال عليهم رصاص الرشاشات من المرتفعات ، وأصاب عدداً منهم . وفي أول الليل أصابت القوة المتحصنة في تل « صفرون » من حي الدباغة برصاصها رجلاً عابر سبيل من أقرباء الدكتور صالح قنباز ، سقط بالقرب من باب الدار التي يسكنها الطبيب على التل ، فاستغاث الجريح ، وهب الدكتور لنجدته ، فصرعته رصاصات من رشاش للجنود ، وسقط الدكتور قنباز شهيداً الى جانب قريبه الجريح . ولم يستطع أهله دفنه ، والمدينة تحت رحمة قوات الجيش التي تحتل مرتفعاتها ، وتسلط نيرانها على كل من يخطر امامها من الاهلين ، فدفن في زاوية آل الشرابي القريبة من الدار ، ثم نقل بعدئذ جثمانه الى الضريح .

عارض الثورة فكان ضحيتها

وقد كان لمصرع الدكتور صالح قنباز رنة حزن في المدينة ، وفي كل انحاء سورية ، فقد كان من رجال الحركة العربية ، واستاذاً مدرساً في مدرسة حماة الاعدادية ، ابعده الترك ، في الحرب العالمية الاولى إلى الاناضول مع من أبعد من أحرار سورية ، وهو ، رحمه الله ، كان معارضاً لنشوب ثورة في مدينة حماة ، بل كان معارضاً لكل ثورة مسلحة على الفرنسيين الاقوياء ، فهو يؤمن بتربية جيل تربية وطنية صالحة ، ليستطيع هذا الجيل بالاسلوب الذي يراه تحقيق استقلال سورية ، وخلاصها من الاستعمار الفرنسي الذي ابتليت به . وكنت مع

عـــدد من اخواني منظمي ثورة حماة ، ناقشناه مرة ، في سهرة لنا على تـــل « صفرون » ، في ظروف ثورة الجبل ، وضرورة تخفيف الضغط عليها ، وشد أزرها بثورات تنشب في مناطق أخرى من سورية ، فعارضنا الدكتور قنباز ، وأبدى آراءه السلمية ، وانه لا يؤمن بالثورات المسلحة وسيلة للحرية ، لا سيما ضد فرنسة الدولة القوية التي انتصرت على المانية في الحرب الكونيـة الاولى ، ولما قلت له : «ولكن الفرنسيين سيطروا على أداة التعليم ، ووضعوا البرامـــج الاستعمارية لتخريج جيل يجهل قوميته ، وأمجاده ، وتاريخ أمته ، وانهم أفسدوا العقائد فأصبح المتخرج من المدارس الثانوية لايعرف غـــير تاريخ فرنسة معرفة واسعة ، ولا يعرف غـــير ادبائها وشعرائها وابطالها وأمجادهـــا ، ويرى فيهم القدوة . . » ، قال : « علينا بافتتاح المدارس الخاصة ، تعلم ابناءنا كما نريـــد ، وتنشئهم تنشئة وطنية . » ، قلت : « ولكن الفرنسيين سيطروا ، كما قلت ، على برامج التعليم ، وارغموا المدارس الخاصة على التقيد بها، واخضعوا طلابهـــا لنظام البكالوريا ، ولبرامجهم التي تعنى بالثقافة الفرنسية دون غيرها ، وتعـــلم النشء عظمة فرنسة وحبها ، وهـــا هي مدينة حماة ليس فيها غـــير مدرسة « دار العلم والتربية » الخاصة ، فهل تستطيع هذه المدرسة الوطنية ألا تخضع لبرامج التعليم التي وضعتها فرنسة ، وإلا لعجز طلابها عن نيل الشهادة الابتدائية « سرتفيكا » ، أو شهادة الكفاءة « بروفه » ، أو شهادة الثانوية « بكالوريا » ، في مراحـــل التعليم ، ولما استطاعوا بعدها إتمام دراستهم العالية في الجامعـــة السورية وجامعات العـــالم . ثم ان الدولة لا تسمح ولا ترخص لمدرسة خاصة بالافتتاح مـــا لم يتعهد صاحبها بالتقيد بالانظمة ، والخضوع لبرامـــج التعليم ، والقبول بإشراف الدولة على مدرسته ، فكيف نستطيع افتتاح مدارس خاصة وتنشئة جيل جديد ؟ » ، وأصر الطبيب قنباز على رأيه ، وأصررنا على رأينـــا في أن الثورات هي الطريق إلى الحرية ، وأغلقنا باب الجدل معه ، فقد كان أستاذنا ومربينا في مدرسة حماة الإعدادية، وما كنا ندري أن ثورتنـــا ستودي بهذا المربي العالم، والوطني المؤمن ، صاحب رسالة السلم !

انسحاب القاوقجي من حماة

أذاع قائد الموقع الافرنسي صبيحة يوم الثلاثاء في السادس من شهر تشرين الاول بلاغاً بإخضاع مدينة حماة للأحكام العسكرية ، ومنع التجول ، ولكن سيطرة الفرنسيين لم تعد الشطر الغربي من المدينة ، رغم ان الكولونيل «مارتي» قائد موقع حمص وحماة جاء بنفسه ينظم الدفاع في مدينة حماة ، ويشرف على القوات المتحصنة في الثكنات والمرتفعات ، وأدرك فوزي القاوقجي أن ثورة حماة فشلت موضعياً ، فأراد ان يستأنفها في الريف ، لذلك انسحب مع عدد من الثوار من حي الحاضر في الليل باتجاه الشمال ، وضم الى قواته بعض مسلحي البدو من عشيرة الموالي وغيرها ، وهاجم بهم مخفر الحمراء ، وبلدة معرة النعمان ، ونازل قوات الحرس السيار فيها نحو اربع ساعات ، وغنمت قواته عشرات من الخيل والبنادق ، عدا ما انزل بالافرنسيين من خسائر بالنفوس ، واحرقت قوته محطة كوكب على الخط الحديدي شمالي حماة ،ولكن الفرنسيين ما لبثوا ، بعد ان استقر لهم الوضع في مدينة حماة ، وأصبح لديهم قوات كبرى بانسحاب جيش « غاملان » من جبل الدروز ، ان استدعوا شيوخ العشائر ، وفي مقدمتهم امراء الموالي ، وساوموهم بالإغراء تارة ، وبالتهديد تارة أخرى ، على الغدر بفوزي القاوقجي ، والقبض عليه ، وتسليمه اليهم ، فعاد أمراء الموالي ، وقبضوا على فوزي القاوقجي ، ولكن الشيخ سلطان الطيار وفريق من شيوخ عشيرته المجاورة للموالي ، استطاع باسلوبه انقاذ فوزي القاوقجي من ايديهم ، وحمله على الابتعاد عن المنطقة ، وعن العشائر القريبة من حماة ، فأمعن بالبادية ، وضرب في أرجائها يأوي من حي إلى حي ، حتى علم من حمويين قابلهم في حي للأعراب كانوا نزلاءه ، ان الفرنسيين وجهوا سيارات للبادية فيها جنود وجواسيس باسم تجار للسمن ، يتتبعون أثره ، كي يكتشفوا مكانه ، ويقبضوا عليه ، أو يقتلوه ، فاضطر إزاء هذا الخبر لان يجتاز الحدود

السورية إلى العراق ، ويلجأ إلى شيخ عشيرة الدليم في لواء الرمـــادي ، وهي عشيرة كبرى في المنطقة ، يعرفه القاوقجي قبيل الحرب العالمية الاولى ، يوم كان ضابطاً في الجيش العثماني برتبة ملازم في مدينـة الموصل ، وأدى للشيخ ولوالده خدمة كبرى ، إذ أنقذ الولد الذي كان أبوه الشيخ يومئذ ، من السجن ، ومـن حكم كاد يصدر عليه بالموت . والولد ، بعد وفـــاة والده،أصبح شيخ العشيرة فأكرم مثوى فوزي الذي أقام بضعة أسابيع في ضيافته . وكان يرافق فوزي في هذه الرحلة المجاهد الحاج مصطفى الديب السبسي من أهالي حي الحاضر في



فريق من الاعراب الذين اشتركوا في الثورة السورية

حماة ، واحد المجندين في سرية فوزي أيام خدمتـــه في الجيش الفرنسي ، فكان يرسله ، في فترات ، الى بغداد ، يأتيه بالصحف لعله يقع فيها على أنباء وطنه سورية التي كان يحسب ان ثورة جبل الدروز فيها قد أخمدت ، بعد فشل ثورة حماة ، لا سيا وهو يعرف ان جيش الجــنرال « غاملان » اللجب كان في قلب الجبل يسير من نصر الى نصر ، يحتل القرى الرئيسية ويخضعها ، ويستسلم اليه زعماء الدروز . وفجأة عثر في الصحف مرة عـــلى أن الثورة السورية اتسعت ، وغدت على أشدها ، وان عصابات من الثوار تحيط بدمشق ، وتتخذ مـــن

غوطتها معتصماً لها، ومنطلقاً لمهاجمة العاصمة ، وان سرايا من المجاهدين وصلت الى جبال لبنان ، فاتسعت الثورة الى وادي التيم ، وعمت مناطق جبل الشيخ (حرمون) ، وما يسمى اقليم البلان وحاصبيا وراشيا وجديدة مرجعيون ، وان جبل الدروز متحرر خال من أي قوة افرنسية ، يوجه سراياه الى المناطق السورية الاخرى ، فصمم على العودة الى الشام، واستأذن مضيفه بالرحيل، فزوده هذا ببعيرين ودليلين ينتمي كل منهما الى عشيرة كبرى ، في طريقهم من البادية الى دمشق ، معروف انها في خصام مع العشيرة الثانية ، وبما يلزمهم من زاد لاجتياز البادية الى غوطة دمشق . وكان لا بد لركب صغير كركبهم من ان يتعرض للغزاة من البدو والطامعين بالكسب ، فإذا كان الغزاة من عشيرة الأول ، عرفهم من لهجتهم ، وتقدم ليقول لهم انه « وجه » في عرفهم ، وان رفيقه المدني بحمى شيخ العشيرة ، وانه موفد من قبله لابلاغ المدني جاره المكان الذي يريد ، وإذا كان الغزاة من العشيرة الثانية تقدم الدليل الآخر كوجه ، وسكت الاول عن النطق حتى لا يعرفه الغزاة من لهجته ، وتكلم بمثل كلام صاحبه ، وهكذا استطاع الركب أن يجتاز البادية في نحو شهر ، وان يصل في الشتاء الى مقربة من قرية « ضمير » حيث لبث القاوقجي واحد الدليلين مع الراحلتين ، وانطلق الثاني الى القرية ، وجلس في مضافة يختارها يصغي الى أحاديث روادها دون أن يتكلم ، كضيف وعابر سبيل ، وبدون أن يسأل أحداً ، ويثير الشبهة ، عرف أن المجاهدين يملأون غياض الغوطة ورياضها ، وان جبل الدروز ما يزال بخير ليس للمستعمرين سلطان عليه، وان الثورة تقوى وتشتد وتتسع . ولما عاد الى زميليه ، دخل القاوقجي القرية ، وشكر الدليلين « الوجهين » واعطاها الراحلتين ، وزودهما بما يساعدهما على العودة الى أهلهما ، وحملهما تحياته لشيخ عشيرة الدليم مضيفة في العراق ، وتابع ، بعدها ، فوزي طريقه الى الغوطة فجبل الدروز .

فظائع الفرنسيين في حماة

- ٣٤ -

أعلن الفرنسيون ، بعد اخضاع مدينة حماة ، وقتل المئات من أهلها ، وحرق الحوانيت والدور المحيطة بالثكنات أو المجاورة لها ، أعلنوا بواسطة مناد أن يخرج الأهلون لرفع جثث قتلاهم من الشوارع والازقة ، وان قيادة الجيش فرضت على المدينة خمسة آلاف ليرة ذهبية ، وبضع مئات من البنادق يجب أن تسلم للسلطة الفرنسية في يوم الخميس الثامن من شهر تشرين الاول. ولما كانت المدينة في حال من الخوف والفوضى ، لم يستطع أهلها جمع الغرامة وتسليمها في الموعد المحدد ، فأرسل الفرنسيون طياراتهم تقصف المدينة من جديد ، وخاصة منها حي الحاضر ، فدمرت المنازل فوق رؤوس سكانها ، بما فيهم الاطفال والنساء والشيوخ ، وسارع وفد من أهل المدينة استمهل القيادة في جمع الغرامة ، فأمهلته ثلاثة أيام ، جمعت خلالها الغرامة من مال وسلاح ، سلما للفرنسيين الذين أخذوا يعتقلون الوطنيين مثقفين ، ورجال دين ، ومالكين ، وأساتذة مدارس ، ومن عامة الشعب ، وحتى الطلاب اعتقلوا فريقاً منهم ، وأكثرهم ليس له صلة بالثورة ، ولا تنظيمها ، حتى ضاقت الثكنات بالمعتقلين الذين عوملوا اسوأ معاملة، حملوا على تطهير حفر الثكنات من الاقذار، ونقلها بالسطول ، وعلى تنظيف الاسطبلات من الروث والبول ، وغسل الجياد والبغال ، وتمسيح شعورها بالفرشاة ، وانتدبت ضابطاً في الدرك من أصل تركي ليكون قاضي تحقيق، يلاحق الناس ويتهمهم بأنهم من مسببي الثورة والمشتركين فيها . وكان النقيب عبد الله الجركس قائد الدرك في حماة ، وهو في الاصل جركسي من قرى حمص ارتكب جريمة قتل ، وحكم عليه بالسجن المؤبد ، ولكن القومندان كوستليير ، وهو يبحث عن قائد للدرك حازم يؤدب أهل

حماة السلبيين في وطنيتهم مع فرنسة ، ذكر له أحدهم عبد الله الجركس هذا ، فذهب بنفسه الى حمص ، وأخرجه من السجن بعفو من المفوض السامي ، وعينه ضابطاً برتبة نقيب في الدرك ، وولاه قيادة حماة ، فكان هـذا الضابط ، وهو صنيعـة المستشار الفرنسي، أشد الناس ايذاء للمعتقلين ، وخاصة من كان من عامة الشعب منهم ، فقد كان دأبه أن يمر كل يوم بالسجن ، ويضرب بسوطـه وبيده عدداً من المعتقلين ضرباً مبرحاً، كوجبة يومية يقدمها لهم تزلفاً إلىأسياده الفرنسيين .

لقد كانت ثورة حماة مأساة على أهلها ، ولا سيما الأحرار منهم ، ولكنهـا أنقذت ثورة الجبل من الاضمحلال ، اذ أرغمت الجنرال « غاملان » الذي أصبح في الحرب العالمية الثانية القائد العام للجيش الافرنسي كله ـ أرغمته على أن ينسحب بجيشه من قلب الجبل ، ومن القرى المهمة في المقرن الجنوبي مركزالثورة وقاعدتها ، بعد أن احتلها وهدمها ، وأن يستعيد الدروز حماستهم ، بعدمـا بلغ مسامعهم وتأكدوا أن اخوانهم السوريين في المناطق الأخرى ثاروا عـلى فرنسة مؤازرة لهم ، وان ثورتهم لم تعد ثورة محلية اسمها ثورة الدروز ، وانما غدت ثورة وطنية اسمها الثورة السورية الكبرى ، فوجهوا ، بعـد ثورة حماة سراياهم الى الغوطة ، والى وادي التيم واقليم البلان في جبل الشيخ (حرمون) ، وجنوبي لبنان ، وتوجه ثائرون آخرون من الغوطـة الى قلمون ، فطهروه مـن الافرنسيين ، وحرروه من الاستعمار ، وبذلك عمت الثورة مناطق واسعة في ديار الشام، واضطر الفرنسيون لان يوزعوا قواتهم لمقاومتها، وان يجلبوا نجدات جديدة من فرنسة ، ومن مستعمراتهم فـيما وراء البحار . ومع ذلك اشتدت الثورة ، وقويت شوكتها ، واستمرت اكثر من عامين ، وكبدت فرنسة من الخسائر ما ابهظ ميزانيتها ، وضعضع جيشها . وسنتكلم عن وقائع تلك الثورة، بعد ان اوردنا موجزاً لثورة حماة التي لها الفضل على اتساع ثورة جبل الدروز، واخراجها من صبغتها المحلية الى ثورة وطنية عامة اخذت تبحث في اجتماعات

عصبة الامم ، وتقـــدم الدليل تلو الدليل للعالم ان السـوريين العرب الاباة لا يرضون عن حرية وطنهم بديلاً ، وينتزعونها بالدم والحديد والنار .

الثورة في معاقل الغوطة

- ٣٥ -

لم يبق في جبل الدروز ، خلال الايام التي زحفت فيها حملة « غامــلان » على مقرنه الجنوبي من الوطنيين السوريين إلا عــدد قليل ، منهم نسيب البكري ، ورمضان شلاس ، وخيرالدين اللبابيدي ، ومنير الريس ، والحارس الليلي حسن الخراط مع بضعة شباب من حيه الشاغور في دمشق ، وزكي الدروبي ، وصادق الداغستاني ؛ وسعيد اليماني ، فكان من الصعب تأليف عصابة منهم تكون نواة للثورة في غياض الغوطة وبساتينها على أبواب دمشق ، الا ان ثورة حماة التي هزت البلاد السورية هزاً ، وارغمت الجيش الفرنسي على الانسحاب من قلب مقر قيادة الثورة ، والوقوف في موقف الدفاع بدلاً من الزحف والهجـوم ، اثارت الحماسة في صدور الثوريين من السـوريين في كل مدينة وبلد ، فأخذ بعض المتحمسين من اهالي دمشق ، يعقدون الاجتماعات سراً ، ويتذاكرون في حمـل السلاح ، والتسلل الى الغوطة يحتمون في معاقلها ، وينطلقون منها الى مهاجمـــة المخافر والمراكز الحكومية ، فقصد يوماً الشيخ عرب الخيمي ، وعبد الوهاب الرجولة ، ونديم شهاب ، ومنير الطحان ، وحسن المقبعة ، ومحمد الخطيب ، وابو صـلاح العرجا ، وشفيق السكري ، والضابط في الجيش العربي سابقاً عبـــد الوهاب الدوجي موقع الزور في الغوطة الكائن بين قرى جسرين ، وعقربا ، والمليحة ، والختيتة ، وكفر بطنا ، وهو مكان تتخلله جداول الانهر ، ويكثر فيه شجر الحور والصفصاف واشجار الفواكه ، يكاد المختفي فيه لا يرى مـــن التفاف الشجر ، والتعرجات في ارضه ، فانتشر خبر هؤلاء الرجال المسلحين في الغوطة ،

واخذ المؤمنون الشجعان من فلاحي الغوطة يلتحقون ، وينضمون اليهم . وبعد ايام وصل حسن الخراط من جبل الدروز ، ومعه اثنا عشر رجلا من ابناء حيه كانوا رافقوه الى الجبل ، وساء وضعهم كاخوانهم الآخرين ، فآثروا بعد ثورة حماة التوجه الى الغوطة ، وانضموا الى اخوانهم الذين سبقوهم الى موقع الزور . وبعد بضعة ايام انضم اليهم ابو عبده ديب الشيخ ، وفريق من شباب حي العماره في دمشق ، وبعض فلاحي جوبر حتى تجاوز عدد العصابة مئة مسلح ، قاموا بالاستيلاء على مخفر الدرك في قرية « النشابية » من قرى المرج ، واخذوا سلاح افراده وخيولهم ، فوجه اليهم الفرنسيون الذين لم يأبهوا لهم ، في بادىء الامر ، قوه من رجال الدرك ، توجهت يوم العاشر من شهر تشرين الاول ، على راسها الضباط رفيق العظمة ، واديب كفر بطنا ، وعبد الرحيم الداغستاني ، واحمد يغمور ، يزيد عدد افرادها على مئة خيال . وكان هم القادة الضباط الا يصطدموا بالثائرين مواطنيهم ، وان يشعروهم بقدومهم ووجودهم لعلهم يبتعدون عن موقع تجمعهم ومقرهم في الزور ، لذلك آثروا السير الوئيد من قرية الى قرية ، حتى بلغوا في المساء قرية المليحة ، فنزلوا فيها ، وتفرق الجنود على المنازل للمبيت ، كأنهم في مهمة سلمية لتبليغ أوراق جلب واحضار للمحاكم المدنية ! .. ونام الضباط ، بعد العشاء والسهرة في منزل المختار المعد اكثر من غيره لراحة الضيوف الرسميين . ولما رأى الفلاحون أهل القرية غفلة قادة حملة الدرك ، توجه بعضهم الى موقع الزور ، وأطلعوا العصابة الثائرة على أمر قوة الدرك ، وتعهدوا لهم بأسر أفرادها ، فسار المجاهدون مع الفلاحين الى القرية ، وبلغوها بعد منتصف الليل ، وباغتوا الضباط في منزل المختار واعتقلوهم ، ثم توزعوا على منازل الفلاحين ، يطرق الباب اولاً الفلاح الثائر ، ويطلب من صاحب الدار فتح الباب ليطلعه على أمر



الشهيد الشيخ محمد الفحل زعيم عصابة المشايخ

منهم ، فاذا فتح باب داره ، ولجه الثائرون ، واعتقلوا رجال الدرك النائمين في الدار ، حتى قبض على أكثر جنود الدرك ، وفر القليلون منهم ، وغنموا جيادهم وسلاحهم ، ثم اطلقوا سراح الافراد كلهم ، ما عدا الضباط الاربعة ، فقد ارسلوهم مخفورين الى جبل الدروز ، ولكن سلطان الاطرش اطلق سراحهم ، بعد أن عرف عدم مقاومتهم للمجاهدين ، وكفلهم زكي الدروبي وصادق الداغستاني من ضباط الدرك السابقين اللذين التحقا بالجبل باعتبارهما من زملائهم .

معركة الزور الاولى

لما علم الفرنسيون بمصير قوة الدرك ، وجهوا من دمشق في الرابع عشر من شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ قوة من جيشهم يزيد عدد أفرادها على الالف ، حاولت قبيل الفجر تطويق موقع الزور ، لعلمهم بأنه اتخذ مقراً دائماً للعصابة ، ولكن أحد الفلاحين من اهالي المليحة سبق الحملة الى عصابة الثائرين ، واخبرهم بزحف الحملة عليهم ، فاستعدوا لها ، ولما وصلت طليعتها الى جسر « الغيضة » من جهة قرية جسرين ، توقفت الحملة ، واخذت تطوق المكان ، وسرعان ما اصطدمت بمقاومة العصابة التي كانت متأهبة للقائها ، واحتدمت المعركة ، واستخدم الفرنسيون مدافعهم ومدرعاتهم ورشاشاتهم وطائراتهم ، فاسقط المجاهدون طائرة منها ،وحوالي الظهر شعر المجاهدون بنفاد العتاد منهم ،فأخذوا ينسحبون باتجاه قرية « عقربا» ، واستشهد منهم في المعركة ثلاثة ، وجرح بينهم حسن الخراط ، وفشلت الحملة في القضاء على العصابة ، واصيبت بخسائر بلغت عشرات القتلى وعشرات الجرحى ، مما احنق قادتها ، فامروا جنودهم بقتل الفلاحين في قرى المليحة ، وجرمانا ، وبلاط ، فقتلوا اكثر من سبعين فلاحاً كانوا يعملون في اراضيهم ، أو يقيمون في قراهم ، وحملوا جثثهم الى دمشق ، وعرضوها في ساحة المرجة ،أي ساحة الشهداء،على انها جثث الثوار في الغوطة ،

ولكن الاهلين سرعان ما ادركوا ان القتلى مـــن الفلاحين العزل ، فهم ادرى الناس بملابس الفلاحين وزيهم في الغوطة . كما احرقت الحملة قرية المليحة جزاءاً لهـــا على سرية الدرك التي بات افرادها وضباطها في المنازل ، فوقعوا بايدي الثائرين . لقد نجا المجاهدون في الغوطة من الوقوع بالفخ بفضـــل الفلاح الذي نبههم قبيل الفجر بزحف الحملة ، فاستعدوا للمعركة ، الا ان خطأهم بجعل موقع الزور مقراً دائماً لعصابتهم ، يأكلون ويشربون ويقيمون فيه صلواتهم ، عـــلى مرأى ومسمع من كل طارق وابن السبيل، مما لا يتفق مع شروط حرب العصابات التي كنا اوردنا بعضاً منها ، ولكن افراد العصابة كانوا من عامة الشعب يجهلون اصول حرب العصابات ، وقد يجهلها ايضاً الضابط الســـابق في الجيش العربي الذي معهم ، فهو ضابط احتياط صغير لم يدرب على مثل هذه الحرب ،وليس له الكلمة النافذة بينهم . لذلك رأيناهم ، رغم علمهم بزحف الحمـــلة عليهم ، يكاد يقعون في الطوق ، ثم بعد قتال ينسحبون من المعركة مشتتين في قرى الغوطة والمرج ،يبحث واحدهم عـــن رفاقه فلا يجدهم ،ولا يقر لهم قرار الا في قرية «الهيجانة» آخر قرى المرج في اتجاه جبل الدروز ، مما يدل على انهم كادوا يؤثرون الانسحاب الى الجبل ، والتوقف عن الحركة التي بدأوها ، بعد اول معركة خاضوها مع قوه افرنسية . وشاء الله ان يلتقوا في قرية الهيجانـــه بجموع كبيرة ، تدفقت من جبل الدروز والمناطق المجاورة له ، يرافقهـا نسيب البكري ورمضان شلاش ، تنوى الزحف الى دمشق ، بعد ان شجعها عليـــه انسحاب جيش الفرنسيين ، بما يشبه الهزيمة من جبل الدروز ، وانـباء ثورة حماة ، والوعود التى زينها لها نسيب البكري بان الفرنسيين سينهزمون مـــن دمشق بمجرد دخول قوة من المجاهدين المدينة ، لان اهالي دمشق سيهبون لقتال الفرنسيين ،وسيرغمونهم على الجلاء عــن مدينتهم . وكانت جموع الثائرين اكثرها من مسلحي المقرن الشمالي ، والمقرن الشرقي ، وعشيرة الغياث التي تسكن وعرة الصفاة ، فتوجهت هذه القوة من الهيجانة الى قرية « ضمير » مقر قيـــادة قوة البادية الفرنسية ، المعروفة بالهجانة ، والتي تشرف على أمن البادية ، وتساعد

على ادارة العشائر ، والاعراب من عشيرة الغياث في قوة الثورة يعرفون هذه القوة الفرنسية ، ويمارسون نفوذها عليهم ، لذلك وجهوا جموع الثورة لمهاجمتها، فهوجمت في مقرها ، قبيل الفجر ، وبعد معركة دامية استمرت بضع ساعات استولى الثائرون عليها ، وغنموا نحو ثمانين ذلولا من ركائبها ، وعشرات البنادق وثلاثة رشاشات .

الهجوم على دمشق

- ٣٦ -

توجهت بعد ذلك قوة الثائرين الى قرية « حران العواميد » في المرج ، وهناك بلغهم أن حملة فرنسية وصلت الى قرية « الريحان » في الغوطة الشمالية لمطاردة ابي عمر ديبو الكردي وعصابته في قرية « حوش المباركة » ، فأنجدوه بعدد من رجالهم استطاعوا بعد مناوشة قصيرة أن يرغموا الحملة الفرنسية على التراجع نحو دمشق ، والاحتماء فيها . وعندئذ أخذ رؤساء الثائرين يرسمون خطة الدخول الى دمشق ، فقرروا أن يدخلوها من ثلاث جهات ، ووزعوا قواتهم التي انضم اليها عدد من القرويين المسلحين في المرج والغوطة ، الى ثلاث سرايا ، توجهت يوم الثامن عشر من تشرين الاول سرية الدروز مع نسيب البكري ودخلت حي الميدان بعد الظهر ، ودخلت السرية الثانية ومعها ديب الشيخ من بساتين باب السلام والعقيبة ، ودخلت السرية الثالثة ومعها حسن الخراط وعصابته ولفيف من دروز جرمانا ، من بساتين الشاغور ، بعد معركة نشبت بينها وبين قوة فرنسية أكثرها من جنود السنغال كانت ترابط قرب مقابر المسيحيين واليهود ، فرت اخيراً الى داخل المدينة تحت وطأة الثائرين المهاجمين، وبدرت بعض المقاومة من مخافر الشرطة في المناطق التي دخلها الثائرون ، الا

أن هذه المقاومة ما لبثت أن انهارت ، واغلقت مدينة دمشق حوانيتها عندما سمع الاهلون أزيز الرصاص ، وتفجر القنابل ، وعرفوا ان سرايا الثائرين أصبحت تجوب شوارع مدينتهم وأحياءها القديمة ، ولجأوا الى المنازل خشية ان يصيبهم الأذى من التحام الثائرين بالقوات الفرنسية التي كانت تعسكر في ثكنات الحميدية ، وقلعة دمشق ، وبوابة الصالحية ، وعلى طريق بيروت عند مدخل دمشق ،وفي المزة ،وتتحصن بالقلاع التي بنتها في مرتفعات المزة وجبل قاسيون ، وتحمي قلب المدينة ، وطريق الصالحية باعتباره الحي الذي يسكنه الأجانب ،



من قصور دمشق التي أحرقها الفرنسيون

وأكثرهم من الضباط أو الموظفين الفرنسيين. ولما وصلت قوة الشاغور إلى اسواق المدينة ، ومنها سوق مدحت باشا ، علمت ان الجنرال «ساراي» المفوض السامي الفرنسي يزور في تلك اللحظة قصر آل العظم الأثري في البزورية ، المجاور للمسجد الاموي ، فهب فريق من مسلحي دمشق والدروز لمهاجمة القصر من بابه ، ومن سطوح المنازل المجاورة له . وكان الجنرال « ساراي » في تلك اللحظة

غادر القصر ، لما اتصل بعلمه دخول الثائرين المدينة ، تحمله مدرعة الى جادة الصالحية حيث اجتمع ، في مقر قيادة الجيش المقابل للبرلمان اليوم ، الى قائد جيوش الشرق وأركان حربه ، يتشاورون في طريقة ابعاد الثائرين عن مدينة دمشق . وبوصول الثائرين الى قصر آل العظم الاثري نشبت بينهم وبين حرس القصر معركة أدت الى احتراق جانب من القصر ، وتعطيل سيارة رشاش ، وقتل وجرح أفراد ركبها ، بينهم الليوتنان « دي روايير » ، وضابط صف وجندي قتلوا ، واستشهد في هذه المعركة حسن المقبعة من المجاهدين الاولين الذين ألفوا عصابة الغوطة ، واستشهد أيضاً ابو علي كليب من فلاحي جرمانا . ولما علم الثائرون بفرار الجنرال « ساراي » قبل وصولهم ، كفوا عن مهاجمة القصر ، وعادوا الى الشاغور .

المستعمرون يريدونها حرباً طائفية !

تخلى الفرنسيون في دمشق عمداً ، عن حماية حي المسيحيين في القصاع وباب توما والباب الشرقي ، وحي اليهود ، وتركوهما دون حامية لعل الثائرين ينهبون اهلها ، ويستحلون أموالهم ، وتقع ضحايا من الطائفتين ، ليجعلوا من ذلك دليلاً على أن هدف الثورة السورية القضاء على الاقليات المسيحية التي يتغنون دوماً بانهم جاؤوا سورية لحمايتها من الاكثرية المسلمة المتعصبة ، مع ان المسيحيين عاشوا كعرب بين اخوانهم المسلمين ألفاً وثلاثمئة سنة ، متمتعين بجميع الحريات ، يشاركونهم السراء والضراء . وقد فطن الثائرون الى مؤامرة الفرنسيين ، فأقاموا من شباب الاحياء ومنهم حراساً على احياء المسيحيين واليهود ، وطاف بعض قادتهم تلك الاحياء ، وطمأنوا ساكنيها بان لا خوف عليهم ، وانهم اخوانهم في الوطن ، وان هدفهم اجلاء المستعمرين عن بلادهم ، ففشلت مؤامرة الفرنسيين ، ولم يقع في الأحياء التي تسكنها الاقليات الدينية أي حادث اعتداء خلال اقامة الثائرين في دمشق . ولم يبق امام الفرنسيين الا ان يستروا هزيمتهم بقصف احياء دمشق القديمة التي احتلها الثائرون ، بقذائف مدفعيتهم ، وقنابل

طائراتهم ، وبالقاء القذائف المحرقة، وقذائف النفط الملتهبة التي اشعلت الحرائق في كل مكان . ولما رأى سكان هذه الاحياء المنازل تدمر على رؤوسهم ، وتحترق خرج النساء والاطفال والشيوخ العُجُز الى الازقة والشوارع لاجئين الى قلب المدينة واحياء الصالحية والمهاجرين التي لم تقصف ، يطرقون كل باب ، ويلجون كل دار تأويهم عن سابق معرفة، او دونها،والفرنسيون لا يكفون عن القصف، وجنودهم في المواقع التي تحصنوا فيها يحصدون الارواح برصاصهم دون تفريق بين رجل أو امرأة ، وبين ثائر او مسالم .

لقد بدأ قصفهم من أصيل يوم الاحد في الثامن عشر من تشرين الاول ، دون سابق إنذار ، ودام الليل كله ، واستمر في اليوم الثاني نهـــاره وليله ، فخف وجوه حي الميدان والاحياء التي شملها القصف الى قادة الثائرين يطلبون منهم الانسحاب من المدينة ،مادامت قواتهم غـــير قادرة على احتلال قلاع الفرنسيين وحصونهم وثكناتهم في المدينة وما حولها ، ولان بقاءهم في المدينـــة عرض أحياءها الى الخراب والدمار وهلاك الانفس البريئة من النساء والاطفال والرجال العزل ، فلبى قادة الثائرين طلبهم ، وقرروا الانسحاب من المدينة ، وبدأوا انسحابهم في صباح يوم الثلاثاء وفق العشرين من شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ . وفي اليوم نفسه توجه وفد من أهالي دمشق ، قابل الجنرال « غاملان »،وطلب منه التوقف عن قصف المدينة واحراقها ، مـــا دام الثائرون انسحبوا منها ، وكرروا طلبهم رحمة بالنساء والاطفال ، فوعـــدهم بوقف القصف ظهر يوم الثلاثاء ، فيما اذا قدم الاهلون مئة الف ليرة ذهبية ، وثلاثة آلاف بندقية مـــع عتادها غرامة الى السلطة ، جزاء مساعدتهم الثورة ، وقبولهم دخول الثائرين المدينة ، ولم يسمع اعتراضهم وتذرعهم بان الثائرين مسلحون،ولا طاقة للاهلين العزل بمنعهم من دخول المدينة ،ولكنه أصغى الى اعتراضهم، بان مدد المهـــلة لجمع الغرامة الى الساعة الخامســة من يوم السبت في الرابع والعشرين من تشرين الاول ، وهدد باستئناف القصف في تلك الساعة اذا لم تسدد الغرامـــة كلها ، وبأنه سيدمر كل حي تطلق منه رصاصة ، على رأس ساكنيه ، مهما كان سبب

اطلاقها . ومع ذلك استمر القصف الى ظهر الثلاثاء ، وخرج الفرنسيون من جحورهم ، بعد جلاء الثائرين عن دمشق ، وأرسلوا سياراتهم المدرعة الى سوق مدحت باشا تطلق قذائف مدافعها على أبواب الحوانيت والمخازن ، تخرقها ، ليلقي الجند من خروقها قطع النفط الملتهبة ، فاشتعل السوق كله ، واشتعل حي «سيدي عمود» حي وجهاء دمشق ، بمنازله العربية الجميلة ، وما فيها من تحف وآثار وأثاث فخم ، حتى بلغت خسائر دمشق ما يقدر بعدة ملايين من الليرات الذهبية ، عدا الآثار القيمة التي ذهبت طعماً للنيران والدمار ، والتي لا تقدر بثمن ، ولا يزال اسم حي «سيدي عمود» يعرف الى اليوم بحي «الحريقة» اشارة الى ما اصابه من حريق ودمار في نكبة دمشق التي أسالت عبرات كل من يعرف هذه المدينة التاريخية من العرب ، فرثاها كبار الشعراء والكتاب والادباء ، وقال احمد شوقي امير الشعراء في رثائها قصيدته الرائعة بمطلعها :

سلام من صبا « بردى » أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وقال خير الدين الزركلي شاعر الشام قصيدته الشهيرة بمطلعها :

الاهل اهلي والديار دياري وشعار وادي النيربين شعاري

وقال غيرهما من الشعراء ما قالوه في رثاء اقدم مدينة في العالم ، كانت على مدى قرن عاصمة الدنيا ، تخفق رايات دولتها الاموية من حدود الصين في أقصى الشرق الى أواسط فرنسة في الغرب . ولم يقف وقع جريمة فرنسة في تدمير دمشق على العرب وحدهم ، فقد هال عملها الإجرامي قناصل الدول الاجنبية في دمشق ، فاجتمعوا ، وقدموا احتجاجهم على ضرب المدينة وقصفها دون سابق إنذار ، وفيها السكان الآمنون ، والجاليات الاجنبية من جميع الامم والاجناس ، وحمل احتجاجهم الى السلطة الفرنسية قنصل بريطانيا ، باعتباره اقدم قنصل في المدينة ، واذاع هذا القنصل مساء يوم الجمعة ، عندما علم ان المدينة لم تستطع جمع الغرامة المفروضة عليها ، بسبب التدمير والفوضى وهجر اكثر الاهلين منازلهم ، وان المهلة الممنوحة لها ستنتهي في الغد ، وستدمر المدينة من جديد ، أذاع بياناً في الصحف أنذر فيه الرعايا البريطانيين بما سيحل بالمدينة ، وطلب منهم ان

يحضروا قبل الموعد لانتهاء المهلة الى القنصلية البريطانية يحملون إعاشتهم لبضعة ايام ، مصحوبين بجوازات سفرهم ، واوراقهم الثبوتية الرسمية ، فحل الخوف والهلع بالاهلين من جديد ، إذ لا سبيل إلى مغادرة المدينة ، فقد منعت السلطة السفر ومغادرة دمشق منعاً باتاً خلال تلك الايام . ولما ادرك الفرنسيون ألا سبيل إلى جمع المال ، والمدينة على ما هي من فوضى واضطراب وخراب وتدمير ، أوعزوا الى الحكومة المحلية ان تدفع الغرامة نيابة عن السكان ، على ان تجبيها منهم مضافة الى الضريبة على العقارات ، وان تستخدم القوة في جبايتها ، كما أوعزت الى عملائها ، والى المتطوعة في الكتائب الشركسية أن يخرجوا السلاح القديم من مستودعاته في القلعة ، وان يبيعوا البندقية بعشر ليرات ذهباً ، ليقدمها أهالي دمشق من غرامة السلاح المفروضة عليهم ، وهي ثلاثة آلاف بندقية.

ثائر يساق الى المشنقة وظهر بالصورة أمامه المفوض حلمي عزيز

لقد ارتكب الفرنسيون في دمشق من الفظائع والجرائم ما يشيب له

الولدان ، وكان « مسيو بيجان » مدير الأمن الفرنسي ، يؤتى له بالمعتقلين من الشوارع ، يفرز منهم من يشاء ، يصرعهم برصاص مسدسه ، ويأمر زبانيته بأن يحفروا لهم قبوراً في بستان « الكركة » المجاور لدائرته ، يدفنهم فيها ، اويحمل ضحاياه على حفر قبورهم بأيديهم ، ثم يطلق رصاص مسدسه على رؤوسهم ويصرعهم ، ويأمر بأن يلقوا في الحفر ، ويهال التراب على جثثهم . وكان سجن «الشيف» في القلعة الاثرية ، هو السجن الذي يعتقل فيه المحكومون والملاحقون من قبل السلطة العسكرية ، وكان فيه سجن منفرد « زنزانة » حجارة جدرانها ناتئة في الداخل ، يساق اليها المعتقلون بتهمة الثورة أو مساعدة رجالها وايوائهم واطعامهم ، واحداً بعد الآخر ، فإذا دخل المتهم ظل يلكم برأسه حتى تتحطم جمجمته على حجارة الجدران ، وتصبغها دماؤه ، ويموت . وقد سميت الغرفة سجن الدم ، لا يدخلها سجين ، ويخرج منها الا جثة هامدة .

ثغرات في خطة الهجوم على دمشق

انتهت مأساة دمشق التي اتينا بموجز عنها بانسحاب جموع الثائرين الىالغوطة وقرى المرج ، فريق منهم يعود الى قراه ، وفريق يطلب مزيداً من الغنيمة ، فقد كان الطمع بالغنيمة الدافع الاول لاكثرهم من دخول دمشق ، لا سيا ونسيب البكري ورمضان شلاش اثارا في نفوسهم هذا الطمع ، والاثنان في الواقع لا يصلحان لقيادة الثائرين الى القتال ، ولا يجرآن على خوض معركة بنفسهما ، لذلك رأينا الاثنين ، بعد دخول القوة المرافقة لهما ، الى الاحياء القديمة الخالية من الفرنسيين ، يحل كل منهما ضيفاً على وجيه في حي الميدان ، ويترك المدينة بين ايدي المسلحين لا قائد لهم ينظمهم أو يردعهم ، بينهم أعراب جاءوا وراء رئيس من رؤساءهم يحدوهم الطمع في الكسب والغنائم ، مما أدى الى وقوع الكثير من حوادث السلب والنهب ، كان ابطالها بعض الدروز ورجال البدو من عشيرة الغياث . ولولا وجود ثائرين من اهل دمشق معهم ، ومن العصابة الاولى التي تألفت في الغوطة ، نازلوا الفرنسيين في الدرويشيه وباب الجابية ، لقلنا ان

سائر المسلحين الذين دخلوا دمشق لم يعملوا عملاً غير نشر الفوضى في المدينة . ولا غرو فالثائرون الذين دخلوا دمشق لم يدخلوها بأمر القيادة ، ولم يكونوا اهلاً لهذا العمل العظيم الذي يحتاج الى خبرة فنية وعسكرية وقيادة قادرة بارعة ، واسلحة ثقيلة مفقودة بأيدي الثائرين . واذا اعترض معترض وقال ان نسيب البكري من رجال الثورة العربية ، قلنا له ان الرجل التحق بفيصل بن الحسين، يوم فرت حاشيته من دمشق كي لا تقع بيد احمد جمال السفاح ، وكان عمله في جيش فيصل غير حربي ، يكلف ببعض المهمات السياسية والاتصالات ، وتوزيع المال ، فهو لم يخض غمار معركة واحدة . ولما استقر الحكم للأمير فيصل في سورية



خرائب قصر آل العظم الذي حوصر فيه المفوض السامي في دمشق

الداخلية ، وتوج ملكاً عليها ، وجد نسيب البكري واخوه الاكبر فوزي البكري ، ان ما نالاه من وظائف في الحكومة الفيصلية لا يشبع طموحهما ، لذلك انقلبا على الملك فيصل ،وأخذا يلسعانه بالسنة حداد ، لما وطرد الفرنسيون الملك فيصل من دمشق ، وراح الى لندن يسعى وراء عرش له ، وجد نسيب البكري ان الفرصة سانحة لإشباع طموحه ، فأرسل كتاباً الى المفوض السامي الفرنسي يعرض عليه ان يجعل منه اميراً أو ملكاً على سورية ، واذا كانت مزية فيصل الهاشمي انه من سلالة بنت الرسول او آله ، فهو يمت أيضاً بنسبه الى

قريش وجده ابي بكر الصديق ، فلم يلق العرض قبولاً لدى الفرنسيين ، لذلك التحق بالجبل اثر نشوب الثورة فيه ، والقضاء على جيش الجنرال « ميشو » لعل الفرصة لا تفوته ، عند انتصار الثورة من اشباع طموحه . وقد ظل هذا الأمل يدغدغ أحلامه ، وهو يتردد بين الجبل والغوطة ، واخوته يقيمون في عمان ، دون ان يخوض بنفسه معركة حربية واحدة من معارك الثورة السورية ، مع انه كان فارساً يتقلد السيف والبندقية ، ويتقدم الصفوف في الاجتماعات ، الا ان احداً من المقاتلة لم يره مرة الى جانبه يطلق الرصاص على العدو . واذكر مرة زرته ، ابان الثورة ، برفقة القائد فوزي القاوقجي في مزرعة آل البكري في قرية القابون ، ومعنا بضعة من رفاق السلاح ، وباغتتنا ، ونحن في المنزل ، عصر اليوم الثاني ، حملة فرنسية وصلت طليعتهـا الى مفرق القابون على طريق دمشق ـ دوما ، ووصل رتل من الدبابات كان يسير نحو القرية من طريق حي الاكراد في دمشق ، فنفرنا مع شباب القابون من الفلاحين المسلحين لقتال الحملة ، وتجاوزنا منزل آل البكري عشرات الامتار ، واذا بنسيب البكري وزكي الدروبي يخرجان من فناء الدار على جواديهما كسهمين في الاتجاه المعاكس لاتجاهنا ، ولما صاح بهما القاوقجي داعياً اياهما الى اللحاق به ، اجابا بأعلى صوتيهما انهما ذاهبان لاستنفار المجاهدين ، ثم غابا عن الانظار ، ونحن نضحك لفرارهما ، لاننا كنا نعرف ان الاثنين يحملان السلاح ليقال انهما ثائران ، ولكنهما يتجنبان كل قتال يخوض غماره الثائرون . ومن طرائف الحياة ان نسيب البكري ، سعى بعد الثورة ، في دمشق ، حتى اسس جمعية اسماها « رابطة رجال الثورة » جعل من نفسه رئيساً عليها للاستغلال ، في وقت لم يبق له الكثير من املاكه في الغوطة وسمع ان قيادة الجيش السوري افتتحت متحفاً حربياً في تكية السلطان سليم في دمشق ، خصصت بهواً منه للثورة السورية واعلنت ادارة المتحف انها تقبل كل أثر من آثار الثورة يهدى للعرض في ذلك البهو ، فتوجه نسيب البكري يوماً مع عدد من اتباعه في الجمعية الى المتحف ، بعد الاتصال بمديره ، كي يستقبله الاستقبال اللائق ، وهو يقدم اثراً ثميناً للمتحف ، وحمل معه سيفاً

عربياً قدمه الى المدير وقال له : « ارجو ان يوضع هذا السيف في الموضع اللائق به في بهو الثورة السورية ، فهو سيف عزيز علي ، خضت به عشرات المعارك ضد العدو بالسلاح الأبيض إبان الثورة السورية الكبرى ! » ، وبادر المدير ، وهو ضابط تقاعد شاباً من الجيش ، لا يعرف موضع نسيب البكري ، وأعماله في الثورة السورية ، مطمئناً إياه بأنه سيضع السيف في مكانه الرفيع من البهو ، وما درى الضابط ان بندقية نسيب البكري لم تطلق بندقة واحدة في اتجاه العدو في الثورة السورية ، حتى يخوض صاحبها عشرات المعارك بالسلاح الأبيض ، ويضرب بسيفه وهو الذي لم يجرؤ أن يطلق عليهم رصاص بندقيته من بعيد .

وما يرد على نسيب البكري يرد بعضه على رمضان شلاش ، فهو من عشيرة صغيرة ليس لها قيمة بين العشائر ، تشتغل بالزراعة على شاطىء الفرات في لواء دير الزور ، في عداد من يسميهم أهل دير الزور « شوايا » ، و « معدان » من الفلاحين ، دخل مدرسة العشائر في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وتخرج ضابط عشائر بتعليم سطحي . ولما احتاجت حكومة الملك فيصل في سورية لإثارة منطقة الفرات ضد المحتلين الانكليز ، تقدم هو للعمل ، واستغل ثورة العشائر في الفرات ، ليجعل من نفسه متصرفاً في دير الزور ، ولكن أهالي مدينة « دير الزور » والاقضية التابعة للوائهم ، رفضوا أن يتقدم عليهم رمضان شلاش أو يحكمهم ، واتفقت كلمتهم على أن يكون في دير الزور ثلاثة متصرفين أحدهم رمضان شلاش ، وكانت فترة لحكم الفوضى ما يزال سكان الفرات يتندرون بها . ولما احتل الفرنسيون سورية ، توهموا أن رمضان شلاش ذو أثر في منطقة الفرات ، فدعوه إلى دمشق ، وفرضوا عليه الإقامة فيها ، ورصدوا له راتباً على ألا يغادرها . ولما استتب لهم الامر في المنطقة ، وعرفوا أن ليس لرمضان شلاش شأن يذكر بين عشائرها ، قطعوا عنه الراتب ، فاحتج لدى مندوب المفوض السامي في دمشق ، وهدد بالسفر الى عمان ، إذا لم يبق له الراتب . وكانت عمان ، في ذلك العهد ، ملجأ الاحرار السوريين ، فسأله المندوب الفرنسي : « متى أنت مسافر اليها .. حتى أخرج لوداعك ؟ » ، وسافر رمضان شلاش إلى عمان ،

وليس له مورد يعيش منه، فأثقلت كاهله الديون، يستقرضها من التجار السوريين في عمان ، ويزعم أنه لاجيء سياسي فرّ من الاقامة المفروضة عليه في دمشق .
ولما سمع بأنباء ثورة جبل الدروز ، خف اليهـا تخلصاً من ضنك العيش ، ومن ملاحقة الدائنين ، ورافق نسيب البكري إلى دمشق ، وحل ضيفاً على وجيه في الميدان ، وسلمه قائمة بلوازمه من لباس وزاد وقهوة يحتاج اليها كقائد من قادة الثورة السورية ، وراح بعـد الانسحاب من دمشق ، يراسله من الغوطـة ، يطالب وجهاء الميدان بجمع قيمتها وارسالهـا اليه ، واصطدم صلفه وغروره بسلطة حسن الخراط رئيس عصابة الشاغور ، فقبض عليه ، وجاء بـه الى قرية « سقبا » في الغوطة ، ليحاكمه أمام مجلس من الثائرين ، وشهر به ، وقرأ رسائله الى وجهاء الميدان ، ومطالبته اياهم بالمال والقهوة والملابس والزاد ، وأتهمـه بالسلب والنهب ، وجرده من سيفه وخنجره وحصانه ، وهدده بالقتل ، ولكنه شغل عنه بغارة جوية شنتها ساعتئذ الطائرات الفرنسية على « سقبا » ، فانسل رمضان شلاش إلى جواده ، وانطلق هارباً من الغوطة إلى «قلمون» ، يستضيف في منازل مختاري القرى ، ويتنقل من قرية إلى قرية ، حتى وجد بين المجاهدين أفراداً قلائل غرر بهم ، ودعاهم إلى مرافقته في رحلة الى منطقة الفرات ، وانه بفضل عشيرته ونفوذه في المنطقة سيشعلهـا ثورة تحرق الاخضر واليابس على الفرنسيين ، وانطلق معهم بطريق البادية ، محاولاً اجتيازها الى منطقة الفرات .
ولما بلغ أطراف بلدة سلمية من أعمال متصرفية حماة ، بعث بكتاب مع رسول الى امرائها يطلب منهم التوسط له لدى « مسيو دي جوفنيل » المفوض السامي الجديد بالعفو عنه ، تجاوباً مع ندائه : « الحرب لمن يريـد الحرب ، والسلم لمن يريد السلم » ، فكان له ما أراد ، واستسلم رمضان شلاش للفرنسيين ، والقت الطائرات صورته ، وهو يقدم خضوعه للمفوض السامي الافرنسي ، ونثرتها على جميع مناطق الثورة ، مع دعوة إلى اخوانه الثائرين أن يقتـدوا به ، ويلقوا بسلاحهم ، ويستسلموا الى فرانسا ، فتعفو عنهم ، وتحسن معاملتهم ، كما لاقى هو منها . ولكن أحداً لم يستسلم من الثائرين رغم دعوة رمضان شلاش ، لانهم

يعرفون أن عمله كان في الثورة التنقل من مضافة إلى اخرى ، يجلس على المراتب بصلف ، ليوهم مضيفيه انه رجل عظيم ، وعند نشوب المعركة كان يمتطي جواده ليبعد عن ساحتها الى مضافة جديدة ، حتى وجد بين المجاهدين من أوصله إلى منطقة سلمية ليستسلم إلى فرانسا ، ويحظى براتب منها ، ظل يتقاضاه سنوات وأدخل ولده المدرسة الحربية ، وخرجه ضابطاً في الجيش الفرنسي .

على ان نهاية نسيب البكري في الثورة اختلفت عن مصير رمضان شلاش ، فهو لما أخذت حدة الثورة تضعف تحت وطأة الجيوش التي حشدتها فرانسة ، وخاصة التي جاءت بها من المغرب العربي بعد انتهاء ثورة الامير عبد الكريم الخطابي ، لجأ نسيب البكري الى فلسطين ، وأقام في مدينة يافا ، فلم يقبض عليه الانكليز ، كما قبضوا على غيره ، كالزعيم ابراهيم هنانو ، وجميل مردم ، اذ قبضوا عليهما وسلموهما للفرنسيين ، بل ظل هناك نحو سنتين ، لم ينقطع خلالهما عن الاتصال بمعارفه في سوريا ، كي يتوسطوا له بالعفو لدى الفرنسيين . ولما دعيت البلاد إلى انتخاب مجلس تأسيسي يسن لها دستورها في عام ١٩٢٨ ، كان هو وعدد من الثائرين اللاجئين الملتفين حوله في يافا الفئة الوحيدة التي أصدر عنها المفوض السامي الافرنسي عفواً ، دون سائر المجاهدين اللاجئين الى البوادي والبلاد العربية الاخرى . وقد عاد نسيب البكري مع أسرته واخوته ورفاقه إلى دمشق ، ورشح نفسه في قائمة الشيخ تاج الدين الحسني عميل فرانسا الذي اختارته عامئذ رئيساً للدولة السورية ، وأرادت أن تجعل منه رئيساً للجمهورية ، فخاض غمار الانتخابات ضد الوطنيين وأكثرية الشعب التي كانت تؤيدهم ، وشق الصف الوطني ، وظل مع اخيه فوزي البكري صنيعة الفرنسيين ، يستخدمونهما في محاربة الكتلة الوطنية التي كانت تتزعم الحركة الوطنية في سوريا ، الا في فترة حاول فيها بعض المجاهدين أن يوفقوا بين نسيب البكري الذي اشترك في ثورتين ، وبين الكتلة الوطنية ، وعملوا حتى فاز مرة بالنيابة برضاء الكتلة الوطنية ،

ولكنه ما لبث ان عاد إلى انحرافه ، وانتمى في عهد الاستقلال إلى حزب الشعب ، وعين سفيراً لسوريا في الاردن ، ثم أحيل الى المعاش ، وظــل في عهد الوحدة يتمنى لو ان الحكومة تخصص له ولآل البكري رواتب ، كما فكرت بأن تخصص لورثة احمد عرابي بطل الثورة عند دخول الانكليز مصر ، واحتلال أراضيها بدعوة من الخديوي توفيق . ولما تآمرت الرجعية والاستعمار ، وفرضا الانفصال على الشعب السوري ، كان هو أول من هب ، باسمه ، وباسم رابطة رجال الثورة لتأييد الانفصال ، وتأييد مأمون الكزبري رئيس حكومة الانفصال الاولى ، لعله يجعل منه وزيراً في وزارته . وفي عهد حزب البعث الذي سبق الرجعية في ابعاد سورية عن الوحـــدة ، ظل نعل نسيب البكري يخفق على باب مكتب منصور الاطرش ، وعمه زيد الاطرش ، لعل الوزير يسكت عن التصرف غير القانوني بأموال رابطة رجال الثورة ، ويبقيـــه رئيساً للرابطة في حال تجديد انتخاب مكتبها .

هذان النموذجان من الرجال قادا الجموع المسلحة لدخول دمشق ، فكان دخولهم مأساة ، وكارثة على أهلها ، لان ثورة حماة أغنت كل مدينة سورية عن سلوك أسلوبها الذي قابله الفرنسيون بالقتل العام والتدمـــير ، وهي وأن حققت أهدافها في ارغـــام الفرنسيين المتمصرين في جبـل الدروز على الانسحاب والجلاء عنه ، وقلب ثورته من محلية الى ثورة وطنيـــة شاملة ، الا ان فظائع الفرنسيين في حماة ظلت تحدث بنفسها عن انهم سيدمرون كل مدينة يدخلها الثـــائرون ، أو تبدر فيها بوادر ثورة ، ثم يغرقونها بغرامات المال والسلاح .

الاستيلاء على دوما والنبك وجيرود

- ٣٧ -

انسحب الثائرون من دمشق ، وتفرقت بعض جموعهم ، وظل العديدون منهم في الغوطة ، ولا سيما منهم رجال العصابة الاولى . وقد زاد عددهم ، وعرفوا أن بلدة دوما ، وهي مركز قضاء قريبة من دمشق ، ليس فيها حامية فرنسية ، وكل ما فيها قوة صغيرة من الدرك ، فقرروا الاستيلاء عليها ، وهاجموها ، وبعد معركة مع الدرك الذين تحصنوا في دار الحكومة والمسجد ، أحرق في نهايتها الثائرون دار الحكومة ، استسلم رجال الدرك ، وغنم الثوار أسلحتهم وخيولهم ، وسقط من الفريقين بعض القتلى والجرحى . وكان نسيب البكري عاد الى جبل الدروز ، وعاد معه الكثيرون من الدروز الذين رافقوه الى دمشق ، فقرر رمضان شلاش ، وخلف النعير شيخ عشيرة الغياث الزحف بما تبقى معهما من الدروز والبدو والفلاحين المتجمعين بقصد الكسب ، الى بلدة «جيرود» ، وهي مركز قضاء ، بعد ان علموا أن وضعها لا يختلف عن وضع بلدة دوما ، ففيها موظفون وقوة صغيرة من الدرك لا تتجاوز الفصيل ، وما علم هؤلاء باقتراب الثائرين من بلدتهم ، حتى فرّ القائم مقام وقائد الدرك وجنوده إلى بلدة «النبك» مركز قضاء قلمون ، وتقع على بعد ثمانين كيلومتراً شمالي دمشق ، فدخل الثائرون جيرود دون مقاومة ، واتجهوا الى القطيفة ، وهنا بدأت مطامع خلف النعير ومن معه تظهر ازاء اغراءات فقراء الفلاحين الذين انضموا الى الجمع ، من القرى المجاورة لقرية « معلولا » المسيحية ، والتي لا تبعد أكثر من بضعة وخمسين كيلومتراً شمالي دمشق ، يدفعهم الى ذلك الجهل والتعصب والطمع بالنهب

والسلب ، الى جانب ما بدر من أكثر المسيحيين في سورية ، إن لم نقل كلهم ، من ميل لفرانسة ، وتأييد لانتدابها في سورية . وكانت الدولة العثمانية تغـــذي التعصب في بلادها ، وكان حكم سلاطينها السنيين الأحناف يقوم على التعصب الديني والمذهبي ، يضطهدون كل طائفة دينها أو مذهبها يخالف دينهم ومذهبهم، ويثيرون في النفوس الكراهية ضدها ، فلا غرابة أن يستغـل فريق الفلاحين المتعصبين وجود جموع المسلحين الذين الفت بينهم المطامع قبل المثل العليـــا والمبادىء ، على مقربة من قرية معلولا المسيحية ، وراحوا يحرضون على غزوها ونهبها ، فوجد هذا التحريض هوى في نفس خلف النعير وجماعتـه من عشيرة الغياث ، وأخذوا يلحون على رمضان شلاش بمهاجمـــة القرية ، مع انه ليس له سيطرة على الجموع ، ولكنه كان يدرك أثر هـــذا العدوان على الثورة ، وانه سيسيء إلى سمعتها اساءة تستغلها فرانسة لتملأ أسماع الدنيا وأعضاء عصبة الامم بشاهد على أن الثورة ضد فرانسة في سورية ليست وطنية ، قام بها المسلمون المتعصبون لتقتيل الأقلية المسيحية ، ونهب قراها وأحيائهـا ، وان فرانسة التي تعتبر نفسها حامية الاقليات هناك مضطرة لقمع تلك الثورة بشدة حرصاً على أرواح المسيحيين والأجانب وأموالهم . لذلك أخذ رمضـــان شلاش يعارض الهجوم دون مبرر على القرية الآمنة المطمئنة ، ولكنه حباً بالظهور مظهر القائد ، والفرصة سانحة له بمرافقة هذه الجموع ، كان يسير معها نحو معلولا ، حتى وصلت تلك الجموع الى قرية « عين التينة » المجاورة لقرية «معلولا» ، والتي بينها وبين معلولا ، بسبب اختلاف الدين احتكاك مباشر ، قد يزيـــد في التحريض على الهجوم . ولما لم يجد رمضـــان شلاش مناصاً من مهاجمة القرية ، ازاء اصرار المسيطرين فعلاً على القوة كخلف النعير ، وزعماء شرازم القرى ، بحكم سيطرة كل واحد منهم على جماعته ، اقترح ان يرسل أولاً إلى وجهاء قرية معلولا انذاراً بطلب كمية من المؤن كالدقيق والسمن واللحم ، مع مبلغ من المال ، وكميـة من السلاح مساعدة لجيش الثورة الذي تخلف أهـــالي معلولا عن أن يكون لهم

مسلحون بين سراياه ورواياته، وارسل الكتاب، وحدد موعداً للانذار ،فاجتمع وجهاء قرية معلولا ورؤساء الكنيستين فيها للتداول والتشاور، بينما المسلحون من اهل القرية راحوا يتحصنون في المواقع الاستراتيجية لصد أي هجوم يقع على قريتهم، وفيها اطفالهم ونساؤهم وأموالهم، لا سيما وقد سبقت أخبار الجموع إلى مسامعهم،فاستعدوا للدفاع عن القرية، وهي تقع في قلب شعب صخري يحيط بهــا من أطرافها الثلاثة، ومنازلها في قلب صخوره، وليس من طريق اليها إلا من جهة الوادي الذي فيه بساتينهم وكرومهم وحواكيرهم.

تداول وجهاء القرية ورجال الدين في الأمر، وقد سبقت، كما قلنـا، إلى مسامعهم أخبار الجموع التي ساقها اليهم الحقد والتعصب والطمع، واصبحت على أبواب قريتهم، فقرروا ان يقدموا للجموع المتحفزة للهجوم عليهم ما طلبه قادتها من مؤن ومال فهو طلب حــق من جيش ثائر ضد دولة تقاعست عن حمايتهم، ويحتاج فعلاً إلى تجهيزات ومؤن ليستمر في ثورته، ولكنهم اعتذروا عن تسليم أي بندقية أو عتاد، لأنهم، بعد ان صنفوا في عداد اعداء الثورة، بحاجة إلى هذا السلاح في الدفاع عن قريتهم ضد أي عدوان يقع عليها، وأرسلوا بهذا جواباً حمله رسول منهم، مع المطالبة بمهلة أيام قليلة، يستطيعون خلالها جمع المال والمؤونة، فلم يرض امتناعهم عن تسليم السلاح زعماء الجموع، وقرروا الهجوم على القرية التي لم تكن في طريق زحفهم من القطيفة الى النبك، وإنما قصدوها عامدين متعمدين للعدوان، وزحفت تجمعات المسلحين الى القرية تبغي النهب والسلب، وتخلف رمضان شلاش كعادته عن المعركة، في عين التينة، ودخلت طلائع المهاجمين المنازل القريبة من الوادي المنبسط أمام الشعب والرواق الصخري في ذروة الجبل المحيط بالقرية، وخرج بعضهم يحمل ما وصلت اليه يـده من أثاث وحيوان ومؤن غنيمة، فانهال عليهم المسلحون من اهل معلولا المتحصنين في أعالي القرية، والرواق الصخري بالرصاص، وتساقط القتلى والجرحى بالعشرات، وأدرك المهاجمون ان اقتحام القرية المنيعة التي جعلت منها الطبيعة

حصناً حصيناً مستحيل عليهم ، وسيكبدهم من الخسائر بالأرواح اكثر مما يحلمون به من الغنائم ، ففروا منهزمين تاركين جثث قتلاهم في أرض المعركة ، وانسحب جيش النهابين من قرية « عين التينة » ، وانفض عنه الذين فازوا ببعض الاسلاب من القرية ، أو جرحوا في المعركة ، وذهبوا بغنائهم وجراحهم الى قراهم ، وانكفأت بقية الجموع ترحف إلى بلدة النبك لعل فيها ما يعوض لهم ما حلموا به من غزو معلولا . ولما علم موظفو النبك وقائد الدرك بدنو جموع المسلحين من بلدتهم فروا الى حمص ، ودخلت الجموع النبك ، وحل رمضان شلاش ضيفاً على وجيه من وجهائها ، وعاد خلف النعير ومن التف حوله من النهابين الى وعرة الصفاة منازل عشيرته ، بعد أن نهب في طريقه مواشي قرى القسطل وقلدون وجيرود والناصرية والعطنة والرحيبة والمعضمية والقطيفة وغيرها ، وكان بعض أهالي هذه القرى اشتركوا معه في الزحف إلى معلولا ، فلم ينجهم ذلك من سلب مواشيهم . ولم يكتف خلف النعير بما فعل ، بل كان خلال سني الثورة ،ينطلق بين الحين والحين ، من وعرة الصفاة بغزواته ، ويهاجم مواشي القرى القريبة ، وخاصة قرى قضاء جيرود التي يطلق عليها قرى « الجورة » ، ومواشي قرى قلمون الشرقية . وقد هاجم مرة مواشي بلدة النبك ونهبها ، يوم علم ان المسلحين من أهالي النبك انضموا الى قوة للثائرين توجهت لمهاجمة مدينة حمص . ويقدر عدد المواشي التي نهبها في هذه الفترة بأكثر من اربعين الف رأس من الماعز ، مما أوغر صدور القرويين على الثورة التي جاءت به إلى منطقتهم ، وحمل الكثير من أهالي قرى قلمون والجورة على التنكر للثورة ، والتسلح لصد الثائرين عن دخول قراهم ، لا سيم وهي قرى غير زراعية التربة ، تعيش على تربية الماشية . ومن لم يستطع منهم مقاومة الثائرين ، كان يقف من الثورة موقف المتردد أو المتفرج أو المراوغ ، مما أفقد الثورة قوى وطنية مسلحة كانت قادرة على إحراز النصر في المعارك ، وتوسيع شقة الثورة على الفرنسيين .

اعتقال مردم وفرار الشهبندر

لم يطب المقام للدكتور عبد الرحمن الشهبندر وجميل مردم في عمـــان اثر انسحابهما من جبل الدروز يأساً من استمرار الثورة ، فقررا السفر الى فلسطين، والاقامة في مدينة حيفا ، والسعي لاحضار عائلتيهما اليها والسكنى فيها ، حتى تواتيهما الظروف للعودة الى الوطن، ولكن عيون الفرنسيين كانت لهما بالمرصاد في شرقي الاردن وفلسطين ، وطلبت فرانسة من حليفتها بريطانيا القبض عليهما وتسليمهما إليها باعتبارهمـــا مجرمين حرضا على الثورة . ومن يعلم ؟ فقد تأتي ظروف يظهر في فلسطين من يحرض على الثورة على انكلترا ، ثم يلجأ الى سوريا، وتحتاج الدولة عجوز الاستعمار إلى القبض عليه بواسطة حليفتهـــا فرانسة !.. لذلك أوعزت السلطة البريطانية إلى قيادة قوى الامن في حيفـــا بالقبض على الاثنين ، وبلغ الخبر أحد الضباط الفلسطينيين العرب من الوطنيين ، فأوفـــد صديقاً له من رجالات حيفا الوطنيين يبحث عن الشهبندر ومردم، ويحذرهما من الانكليز ، ويطلب منهما مغادرة حيفا وفلسطين كلها الى شرقي الاردن . وكان الرجلان في مطعم يتناولان وجبة الغداء ، عندما اهتدى اليهما صديق الضابط، وأبلغهما النبأ . فترك الشهبندر وجبة الطعام التي أمامه ، وغادر المطعم فوراً إلى المرآب حيث استقل سيارة إلى عمان . أما جميل مردم الذي شق عليه أن يقطع غداءه ، ووعد الشهبندر بأن يلحق به الى المرآب فور انتهائه من الطعام ، فقد أدركه رجال الامن الفلسطيني في المطعم ، وقبضوا عليـــه ، وساقته السلطة البريطانية بالقطار مغلول اليدين إلى درعا حيث سلمته الى السلطـة الفرنسية .

ومن غريب المصادفات ان عائلة جميل ، أي زوجـه وأولاده كانوا غادروا دمشق بقطار حيفا في نفس اليوم ، فلما التقى القطـاران في محطة درعا شاهدت الأسرة ربها في القطار الذاهب الى دمشق مغلول اليدين تحرسـه قوة من الدرك الفرنسي ، فانهمرت الدموع من العيون ، وعلا النواح ، واضطرت الاسرة لأن

تعود في اليوم الثاني إلى دمشق ، حيث علمت ان السلطة الفرنسية نقلت جميل مردم إلى قلعة ارواد في الجزيرة الصغيرة القائمة على مقربة من بلدة طرطوس ، حيث يعتقل عدد كبير من الوطنيين السوريين . ولما وصل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الى عمان ، ولبث فيها أياماً ، اتصلت بمسامعه أنباء ثورة حماة ، وانسحاب جيش الجنرال « غاملان » من جبل الدروز ، وانتشار الثورة إلى دمشق والغوطة وقلمون ، ووادي التيم وجنوبي لبنان ، فغادر عمان الى الجبل ، وأقام في بلدة السويداء حيث كان الدكتور محمد علي الشواف سبقه إليها عائداً من عمان ، وأسس فيها مستوصفاً لمداواة الجرحى والمرضى .



الفصل السابع

الثورة في وادي التيم واقليم البلان

- ٣٨ -

تسكن قرى منطقة اقليم البلان ، كما يسمونه اليوم ، وهو السفح الشرقي من جبل الشيخ « حرمون » ، طوائف من الدروز والمسيحيين وقلة من السنيين ، وتمتد هذه القرى الى ابواب دمشق ، فقرى صحنايا ، والجديدة ، وعرطوز ، وغيرها على ابواب دمشق من جهة الجنوب ، تسكنها الطوائف الثلاث : دروز ، وسنيون ، ومسيحيون ، ويعيشون معاً رغم السياسات التي تفرق بينهم في العهد العثماني ، وفي عهد الانتداب الفرنسي ، لذلك كان طبيعياً ان يتأثر الدروز في هذا الاقليم اكثر من غيرهم بثورة اخوانهم دروز جبل حوران . وكانت رسلهم على اتصال دائم بالجبل يستطلعون مايحدث فيه ، ويترقبون نتائج المعارك الدائرة فيه ، ويبلغون سلطان باشا الاطرش استعداد اقليمهم لشد أزر الثورة ، شريطة ان ينجدهم بسرية من مجاهدي الجبل ، يشد وصولها الى منطقتهم العزائم ، ويشحذ الهمم ، ويخرج بالمترددين من ترددهم ، ويرهب بعض المسيحيين الذين يقاومون الثورة ، وهم على اتصال بالفرنسيين . ولكن زحف الحملات الى الجبل ، وتصميم الدروز ،

في بدء الثورة ، على عدم الخروج من جبل حوران ، جعل إرسال هذه النجدة اليهم متعذراً ، لذلك اتفقوا مع قيادة الثورة على إحياء العادة القديمة ، وهي إشعال النيران الكثيرة في قمم الجبال ، يراها ليلا سكان القرى في الجبل الثاني ، على بعد الشقة بينهما ، كدليل على زحف الحملة الفرنسية ، ونشوب القتال بينها وبين الدروز . وكنا نرى في الليالي النيران تشعل في ذرى جبل حوران أيام كانت الحملات الفرنسية تزحف اليه ، وتهاجم سكانه ، ثم بعد حين أمسينا نراها في الليالي تشتعل في مرتفعات جبل الشيخ ايذاناً بالمعارك الدائرة فيه بين الثائرين وبين الحملات الفرنسية التي اخذت توجه لقتالهم . والسبب ان ثورة حماة ، وانسحاب جيش « غاملان » من قلب الجبل أفسح المجال لتسرب المقاتلة من الدروز الى خارج الجبل ، فأوفد دروز اقليم البلان رسلهم الى سلطان الاطرش ، يعلمونه ببدء الصدام بينهم وبين جيرانهم المسيحيين في قريتي جندل ومجدل شمس ، وان الفرنسيين ، جردوا ، على الأثر حملة وجهوها الى اقليمهم ، هي اليوم في طريقها اليهم ، وانهم يطلبون نجدة من جبل حوران تساعدهم على صد الحملة ، وتوسيع شقة الثورة في اقليم البلان .

ومن جميل المصادفات ان سلطان الأطرش ، كان ، في ذلك الحين ، عقد اجتماعاً لزعماء الدروز ، تقرر فيه تجريد نجدة كبرى لمساعدة اخوانهم المجاهدين الذين دخلوا دمشق ، اثر وصول كتاب من نسيب البكري يعلمهم بالجموع التي رافقته اليها ، وانها غير كافية لاحتلال دمشق ، ويطلب نجدة من الجبل توافيهم لاحتلال المواقع ، والقلاع ، والثكنات التي يتحصن فيها الفرنسيون في دمشق وجبالها . وكانت هذه القوة التي تجمعت تعد نحو الف وخمسمئة مسلح عين زيد الاطرش شقيق سلطان قائداً عليها ، واشترك فيها حمزة الدرويش ، وصياح حمود الأطرش ، وحسن الاطرش ، والعقيد فؤاد سليم ، واخوه نصري سليم ، وسعيد اليماني ، ورافقهم من السوريين ، نزيه المؤيد العظم الذي عاد مع الشهبندر الى الجبل ، وزكي الدروبي . انطلقت قوة الثائرين من الجبل يوم الثلاثين

من شهر تشرين الاول الى « الهيجانة » لنجدة الثائرين الذين حـاولوا احتلال دمشق ، وكانوا انسحبوا منها بسبب قصفها ، ومن الهيجانة توجهت القوة إلى قرية الخيارة في الغوطة ، وأقامت فيها أياماً للراحة ، فأغارت عليها الطائرات الفرنسية ، وقصفت القرية ، فاستشهد في الغارة سالم الاطرش ، ومحمـد البربور من المجاهدين ، وبضعة اشخاص من الفلاحين في القرية . وهذا الحادث ينبه قادة الثائرين الى خطأ البقاء اكثر من يوم واحد في قرية قريبة من مراكز العـدو ومطاراته . انتقلت الحملة من الخيارة الى قرى عقربا ، ويلدا ، وببيلا من قرى الغوطة ، والاهلون يكرمون وفادتها، كعادتهم في كل من يمر بقراهم من المجاهدين. وفي يلدا وافاهم وفد من وطنيي حي الميدان ، يرجوهم باسم اهالي دمشـق ألا يدخلوا المدينة ، ويعرضوها كرة أخرى للتدمير ، فطمأن زيد الاطرش الوفد بأن حملة المجاهدين لن تدخل المدينة ، وستقاتل الفرنسيين خارجها ، ان تجرأوا وخرجوا لقتالها . وفي اليوم الثاني وصلت الى قيادة الحملة انباء تشير الى أن الفرنسيين ينكلون بدروز الاقليم ووادي التيم ، ويفرضون عليهم غرامات المال والسلاح ، ويعتقلون زعماءهم ، وانهم نسفوا بالمتفجرات بعض المنازل في قرية « بقعاثا » ، ويثيرون الفتن بين الدروز والمسيحيين ليجعلوها مذبحة طائفيـة ، وهم ، في سبيل هذه الغاية ، يسلحون المسيحيين ، ويجردون الدروز من السلاح ، وعقب الانباء وصل كتاب من الاقليم يطلب النجدة ، فقررت قيادة الحملة التوجه الى الاقليم ، وفي الليل انشطرت الحملة الى فريقين : فريق سلك طريقاً تمر جنوبي قرية القدم المجاورة لحي الميدان متجهاً من اقصر طريق الى قلعـة جندل حيث كانت تدور معركة بين أهلها ، وبين حملة إفرنسية ، فوصل الفريق بعد انتهاء المعركة بانتصار القرية على الفرنسيين . وفريق مر بقرية القدم ، وعلى مقربـة منها ثكنة للفرنسـيين اسمها « ثكنة القدم » او « قشلة القدم » ، والكلمة تركية محرفة من كلمة « قيشلاق » ، أي المشتى ، نسبة الى ان الجند يقضون فيه أشهر الشتاء ، فقبع الفرنسيون في حصون الثكنة حتى مرت قوة الثائرين ، ثم أخذوا يطلقون نيران اسلحتهم خوفاً ، ودون ان يهاجمهم احد . واتخـذ هذا الفريق

طريقه ماراً بالقرب من داريا حتى بلغ صحنايا نحو منتصف الليل ، واكثر افراده من المشاة ، لذلك رأى قادتها ألا يتقدموا في السير خشية ان يدركهم الصباح ، وهم في امكنة مكشوفة ليس فيها شجر ، فيتعرضوا لغارة الطائرات ، لذلك قرروا المبيت في بساتين القرية وغياضها دون ان يشعر السكان بوجودهم ، ولكنهم وجدوا في الصباح انهم لبثوا في مكان خطر تهدده قلاع المزة بمدافعها ، وعلى مقربة منهم مطار دمشق الحربي ، تملؤه الطائرات المقاتلة والقاذفة ، وأحس اهل القرية بهم ، فانقسموا إلى فريقين : الدروز يؤيدون الثائرين ، والمسيحيين يريدون مقاومتهم ، وأعلام السلطة بأمرهم ، واخيراً اوفد قائد المجاهدين يطمئن الاهلين ، على انهم لا يريدون دخول القرية ، وان همهم قتال الفرنسيين ، وانهم راحلون عنهم غداً ، ورغم ذلك انسلت امرأتان من القرية الى «جديدة عرطوز» وهي قرية مجاورة قريبة الى المطار ، وابلغت عملاء فرنسا فيها أمر الحملة الدرزية ، فتطوع عميل منهم الى المطار ، واعلم الفرنسيين بوجود الدروز الثائرين



جنود فرنسيون يسوقون الاهلين بالقوة لحمل عتادهم

في بساتين صحنايا ، فحلقت الطائرات تقصفهم ، وتنقض عليهم بالرشاشات حتى

اقبل الليل، دون ان يصاب في القصف كله ، غير جوادين جرحا ، ونفق احدهما.
ولما أرخى الليل سدوله انطلقت الحملة الى الاقليم ، بعد ان تطوع شبان قريتي صحنايا والاشرفية للسير معها ، يهدونها سواء السبيل ، ويجنبونها بلدة قطنا التي كانت قوات كبيرة من الفرنسيين تعسكر في ثكناتها .

ولما اصبح الصباح كانت حملة المجاهدين تسلك الطريق الى قرية « عرنه » في معارج جبل الشيخ ، حتى اذا بلغتها استقبلت من الدروز الذين هم اكثرية السكان ، بالاهازيج والزغاريد ، وعرض المسلحون منهم قوتهم امام الحملة ، وكان على رأس المستقبلين شكيب وهاب من دروز الجبل ، والذي كان يعمل في جيش الحجاز ، في عهد الملكين الحسين وابنه علي ، والشيخ ديب القديسي من وجوه قرية القدم المجاورة لدمشق . وكانا التحقا بالاقليم من قبل . وخلال مهرجان الاستقبال مر بقرية « عرنة » شبان يحملون على البغال كمية كبيرة من البنادق ، جمعت من اهالي القرى المجاورة غرامة لتسلم الى الفرنسيين ، فاستولى عليها المجاهدون ، ووزعوها على من ليس بيدهم سلاح من اهل القرية . وفي اليوم الثاني توجهت الحملة الى قرية مجدل شمس حيث انضمت الى القوة التي سبقتها وعلى رأسها زيد الاطرش ، واستقبلت بحفاوة ، ثم عقد زيد الاطرش اجتماعاً للقادة والبارزين من رجال حملته ، في منزل اسعد الكنج من زعماء المجدل ، أعلن فيه انه جاء من الجبل بقواته بأمر من سلطان الاطرش لنجدة أهل الاقليم ، وتلبية لرغبتهم ، والهدف تحرير أرض الوطن من يد الغاصبين ، .وأعلن ان الامر شورى بينهم ، وانه دعاهم لتحقيق هذه الغاية باستشارتهم والاخذ برأيهم ، وطلب منهم أن يدلوا بآرائهم واقتراحاتهم حول خطة المستقبل ، ومن أقصر الطرق وأكثرها صواباً ، فاقترح البعض مهاجمة بلدة القنيطرة الشركسية لأنها تقدم المتطوعين للكوكبات الشركسية في الجيش الفرنسي ، وتقف من الثورة موقف العداء ، فلم يتفق على هذا الاقتراح ، وقيل في معارضته ان البلدة كلها لا تؤخذ بجريرة بعض أبنائها ، والشركس قوم مسلمون هجروا ديارهم في القفقاس

لما احتلها الروس المستعمرون ، وآثروا الهجرة الى البلاد الإسلامية في سبيل الحفاظ على دينهم ، لذلك لا يؤخذون كلهم بجريرة من يتطوع منهم في الجيش الفرنسي طمعاً بالمال والكسب والنهب . واقترح البعض توسيع شقة الثورة الى حاصبيا ووادي التيم ، فقبل الاقتراح . وقد أغارت طائرة على مجدل شمس أثناء هذا الاجتماع ، وتكررت الغارات الجوية على القرية ، وأسقطت طائرة منها ، فوجهت القيادة سرية من حملتها الى حاصبيا بقيادة حمزة الدرويش ، دخلتها صباح اليوم التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٢٥ ، ولحقت بها سرايا اخرى . أما حاميتها الفرنسية الصغيرة ، فقد لجأت إلى الشيخ حسين قيس قاضي المذهب ، فأجارها قبل وصول المجاهدين ، وأخرجها من البلدة لتلحق بمرجعيون والنبطية .

وسكان وادي التيم خليط من الدروز والسنيين والنصارى ، أشهر بلدانهم حاصبيا وراشيا ومرجعيون ، وجديدة مرجعيون ، أي « مرج العيون » . وكانت منطقتهم تنقسم إلى قضاءي حاصبيا وراشيا من أعمال ولاية الشام في العهد العثماني ، وقاعدتها دمشق . ولما نشبت الثورة في جبل حوران ، وزع الفرنسيون ، كعادتهم ، السلاح على النصارى من سكان هذا الوادي ، ليشعروهم بعطفهم ، ويستميلوهم إلى جانبهم ، ويرموا بذور الكراهية والبغضاء بينهم وبين الدروز والسنيين ، وأخذوا بالمقابل يجمعون السلاح من المسلمين ، ودروز وسنيين ، ويفرضون عليهم الغرامات . وكان اول ما فكر به قادة الثورة الذين دخلوا حاصبيا التشاور مع زعماء البلدة ، على توسيع نطاق الثورة في منطقتهم ، فنبههم هؤلاء إلى قرية « كوكبا » ، وانها أشد المسيحيين غروراً وعداء للثورة ، فقرروا عدم التعرض لها ، كي لا يقال ان الثورة تضطهد المسيحيين ، وأوفدوا أناساً من وجهاء حاصبيا الى بلدة مرجعيون ، يفاوضون اهلها على دخول قوة من الثائرين بلدتهم اسوة بحاصبيا . وتواردت الوفود من راشيا والقرى الى حاصبيا تعلن تأييدها للثورة .

وفي اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني وصـــل وفد من مسلحي جديدة مرجعيون ومسيحييها يعرض فتح بلدتهم لجيش الثورة دون قيد او شرط، ويعلن ان الفرنسيين قد اخلوها عندما بلغهم وصول الثائرين الى حاصبيـــا ، فاقتضى



حمزه الدرويش مع الجنرال اندريا بعد استسلامه في صلخد

الموقف السير بسرعة الى جديدة مرجعيون ، توسيعــاً لنطاق الثورة ، وكسباً لامكانيات سكانها في تأييد الاهداف الوطنية .

حرق كوكبا

- ٣٩ -

لذلك اتجه حمزة الدرويش يتقدم سرية من المجاهدين الى الجديدة ، ولمابلغت السرية موقعاً على مقربة من قرية « كوكبا » القرية المسيحية القائمـة على سفح جبل مرتفع يشرف على الطريق ، وافاها كاهن القرية ، وبعض شبان القريـة



في الوسط رشيد بك بيضون نائب بيروت وقد اشترك في المقاومة السرية فكان يخرج مع الثوار ويقاتل ثم يعود الى المدينة دون ان يشعر به احد

الى يساره المجاهد المعروف رضا الفقير والى يمينه رضا نظام .

المسلحين بسيارة يدعون المجاهدين الى تناول الغداء في القرية ، فاعتذر قادة الحملة عن قبول الدعوة خشية أن تكون سبباً في الاحتكاك والصدام بينهم وبين الموالين لفرانسة من رجال القرية ، الا ان حمزة الدرويش لبى الدعوة ، رغم تحذير اخوانه اياه ، وركب السيارة مع الكاهن ، يرافقه بعض رجاله ، وتوجهوا الى القرية ، فما كاد يصل اليها حتى اطلق الموالون لفرانسة الرصاص على السيارة ، فسقط ثلاثة من رجال حمزه الدرويش قتلى ، ونزل الدرويش ومن بقي سالماً معه من السيارة ، وتحصنوا في أحد المنازل ، ونادى حمزه الدرويش خصومه بأن يكفوا عن اطلاق الرصاص ، فالمجاهدون لم يأتوا لمحاربة بني قومهم ، وانما لمحاربة فرانسة وتحرير البلاد من استعمارها ، وهددهم بالخسران ان هم تمادوا في

العدوان ، فكان الجواب وابلاً من الرصاص عليه ، فاضطرت سرية المجاهدين المرابطة قريباً من القرية لمهاجمتها ، وانقاذ قائدها . وكانت لا تبعد اكثر من كيلو متر واحد من القرية ، فأغار عليها الفرسان ، وزحف وراءهم المشاة إلى القرية ، لا يأبهون لوابل الرصاص المنهمر عليهم ، حتى دخلوها عنوة ، واضرموا النيران في منازلها ، وفر المعتدون كالأرانب ، مخلفين وراءهم النساء والاطفال والشيوخ ، فلم يؤذ الدروز احداً منهم ، بل هدءوا روعهم ، وواسوهم ، وحماوا الطائشين من رجالهم تبعة ما وقع ، وأمنوا على أرواحهم ، ولكنهم استولوا على كل ما وقع بأيديهم من أموال القرية التي اعتدت عليهم ، وقتلت رجالهم غدراً. وكانت خسائر كوكبا بالنفوس كبيرة ايضاً من رصاص المدافعين والمهاجمين ، وقتل كاهن القرية الوطني الذي أراد ان يثبت للمجاهدين ان النصارى وطنيون لا يتخلفون عن تأييد الثورة ، واستقبال الثائرين الذين جاءوا لتحرير البلاد من ربقة الاستعمار . وعاد الثوار بعد حرق « كوكبا » الى حاصبيا ، حتى لا يساء تفسير حرق ، كوكبا »، ولا تتعرض الحملة لصدام آخر في إحدى القرى التي تمر بها في طريقها الى جديدة مرجعيون .

وشاع اثر هذا الحادث ان حمزة الدرويش كان اتصل من حاصبيا سراً باهالي « كوكبا » ، وطلب لنفسه مبلغاً من المال باسم الثورة ، قيل يومئذ انه خمسمئة ليرة ذهبية ، فلامه بعض اخوانه المجاهدين على ذلك ، وحمله مسؤولية الحادث ، وانكر هو ، واقسم انه لم يطلب مالاً ، ولكنه طلب مؤناً وسلاحاً ، ولكنه غدا ، بعد هذا الحادث ، الذي استغله الفرنسيون أبشع استغلال مسؤولاً امام التاريخ ، اذ كان باستطاعته ان يجنب المجاهدين طريق « كوكبا » ، بل بامكانه ، على الاقل ، ألا يقبل الدعوة من كاهن القرية ، ويتابع طريقه دون ان يدخل « كوكبا » ، ويسبب الحادث . وقد أساء الحادث الى سمعة حمزة الدرويش ، وأفل نجمه في الثورة ، وانفض إخوانه من حوله ، فغادر وادي التيم الى جبل الدروز ، واستسلم بعدئذ للفرنسيين متأثراً بما أصابه من الدروز ، فكان

لاستسلامه دوي ، لأنه كان في طليعة المجاهدين ، ومن أصحاب الكلمة والرأي في الثورة ، ملازماً لسلطان الأطرش القائد الذي كان يستشيره في كل امور الثورة، ويطلعه عليها. وقد تبين بعدئذ ان الفرنسيين جاءوا بعصابة من«زغرتا» في شمال لبنان اسمها عصابة بطرس وغطاس كرم ، وحشدوا في القرية عملاءهم وجواسيسهم ، وسلحوا العصابة بسلاح فرنسي ، وحضوها على التحرش بالمجاهدين ، والاعتداء عليهم ، لتكون فتنة بين المسلمين والنصارى ، فكانت مأساة « كوكبا » . ولما بلغ زيد الاطرش قائد الحملة العام نبأ المأساة أذاع بياناً طمأن فيه المسيحيين في وادي التيم ، وان الحملة الوطنية لا تفرق بين مسلم ومسيحي ، وان هدفها وطني قومي ، وان الدين لله والوطن للجميع .

قرر المجاهدون في حاصبيا ، بعد حريق كوكبا، احتلال جديدة مرجعيون، فتوجهت سرية منهم اليها ، ولما وصلوا إلى قرية « ابل السقي » ، وهي على الطريق العام ، تبعد ثلاثة كيلومترات عن مرجعيون ، استقبلهم أهلها ، وأكثرهم من المسيحيين ، وطلبوا منهم أن يقبلوا ضيافتهم ، فقرروا قبولها ، والمبيت فيها . وفي الليل تلقوا كتاباً من بطرس وغطاس كرم موجهاً الى زعماء الدروز فيه تهديد وقح ، وشتائم لا تصدر عن رجل مهذب ، وفي ختامه انذار بوجوب انسحابهم من « ابل السقي » ، وعدم التعرض لجديدة مرجعيون ، والانذار صادر عنها ، فثارت ثائرة المجاهدين ، وهبوا للزحف في الليل ، ولكن وجد عقلاؤهم من الانسب تأجيل الزحف إلى الصباح ، حتى لا تتكرر مأساة كوكبا، وأرسلوا جوابهم المهذب عن الكتاب بأن ثورتهم وطنية ، وليست دينية ، وهم حريصون على الا يثيرهم العملاء ، ولا يجروهم الى تلويث ايديهم بدم اخوانهم المسيحيين، لذلك عدلوا عن المجيء الى جديدة مرجعيون ، وسيغادرون « ابل السقي » في الصباح ، ليثبتوا للملأ أجمع انهم يحافظون على وعودهم وعهودهم ، وفعلاً عادوا في الصباح الى حاصبيا ، فوجدوا فيها زيد الاطرش والعقيد فؤاد سليم وسائر القادة والزعماء، وجموعاً غفيرة من الثائرين الدروز ومن انضم اليهم من أهل المنطقة ، فحدثوهم حديث عملاء فرنسا ، وما اتخذوه

من موقف .

ويظهر أن عودتهم الى حاصبيا ، أطمعت عصابة كرم ،فوجهت عدداً من رجالها الى مزرعة « برغز » التي تخص سامي شمس وأمين شمس من وجهـــاء الدروز في حاصبيا . وكان فيها صدفة شكيب وهاب وعدد من رفاقه الجاهدين، قاوموهم فاستسلم اليهم ستة عشر مسلحاً من العصابـــة ، جردوا من السلاح ، وأطلق سراحهم رغبة في أن يعودوا الى إخوانهم ، وينصحوهم بعدم التعرض للحملة الوطنية ، فكان جواب عصابة كرم الهجوم بجميع افرادها على مزرعـة « برغز » ، حيث صمد لها شكيب وهاب ورجاله ، وأرسلوا الى حاصبيا يعلمون القيادة بالأمر ، فأنجدتهم بقوة ما كادت تصل الى « برغز » حتى انهزمت عصابة كرم نحو جديدة مرجعيون ، وتعقبها المجاهدون، ودخل بعضهم وراءهاالبلدة، واذا بالرصاص ينهال عليهم من الحامية الفرنسية الـتي وصلت الى البلدة في اليوم نفسه ، ونشبت بين الحامية المتحصنة بالبلدة ، ومعها عصابة كرم، وبين المجاهدين معركة استمرت النهار كله ، وقرب الغروب انهزمت الحامية الفرنسية من البلدة بسياراتها نحوالنبطية ، بعد انخسرت الكثيرين من رجالها ، واستولى المجاهدون على راية عصابة كرم ، وعلى فرسه ، وقتلوا عدداً من رجاله ، وكاد غطاس كرم نفسه يقع أسيراً بيد اسعد الكنج أحد زعمـــاء مجدل شمس ، وعندئذ دخل المجاهدون البلدة ، وطمأنوا أهلها ، وخاصة المسيحيين منهم .

ضمان حدود لبنان

عقد قادة المجاهدين وزعماء الدروز في حاصبيا اجتماعـاً ، في اليوم السادس عشر من تشرين الثاني ، قرروا فيه عدم التعرض للبنان ، وان ينحصر نشاطهم في المناطق التي سلخت من دمشق وضمت الى لبنـان الكبير ، وعلى الاثر نسفوا

جسر الخردلة على نهر الليطاني بين النبطية ومرجعيون ، ووجه زيد الاطرش بياناً جديداً الى وجوه واعيان المسلمين والنصارى في جبل لبنان بيّن فيه اسباب الثورة على فرنسا واهدافها ، وحذر من دسائس الفرنسيين الذين يريدون بفتنتهم أن يفرقوا بين المسلمين والمسيحيين ، وهم شعب عربي واحد ، وكشف أساليبهم في الدس والفتنة ، وتسليحهم بعض المخدوعين من النصارى ، وتجريدهم المسلمين من السلاح ، ليحرفوا الثورة عن هدفها الوطني ؛ وجرها الى مذابح دينية وطائفية ، وكان من ثمار هذه الفتن حادث كوكبا المؤسف ، وكيف ان عصابة العملاء قتلت كاهن القرية ، وكيف حشدت قواتها في جديدة مرجعيون ، وأرادت جر الحملة الوطنية الى حادثة ثانية بتعرضها الى مزرعة « برغز » ، وجر المجاهدين الى كمين مبيت في الجديدة ، ولكن النتيجة كانت الفشل ، وهزم المعتدون ، وناشد البيان عقلاء الطائفتين أن يقفوا دون هذه الدسائس والمؤامرات ، التي يريد بها الفرنسيون خلق فتنة بين أبناء الوطن الواحد ، والا تثار قضية حدود لبنان وحدود سورية ، فهي قضية تبحث بين الأخوة ، بعد الخلاص من المستعمرين الغاصبين ، واذا استولت القوات الوطنية ، لضرورة عسكرية على أمكنة معينة في لبنان ، فلا داعي للقلق ، اذ لا علاقة لذلك بالحدود ، وانما يكون تنفيذاً للخطة التي تهدف لاجلاء الاجنبي الذي لم يرحم اطفالنا ونساءنا في جبل حوران ، فألقى عليهم في بضعة أسابيع ما يزيد على ثمانمئة الف كيلو من المتفجرات ، فهل ترون ،بعد هذا ، من الشهامة والمروءة ان تكونوا أنصاراً لهذه الدولة الاستعمارية الغاشمة ، وهل من مصلحتكم ان تخلقوا عداء بينكم وبين إخوانكم سكان الداخل ، وهم الأكثر عدداً ، وهم المصممون على ان يتخلصوا من الانتداب الفرنسي ، ولو اضطروا الى محاربة كل من شاء ان ينتصر لعدوهم .

وقال زيد الاطرش في نهاية بيانه : « واني لفي انتظار جوابكم لنعلم هل هذا البيان كاف لازالة ما علق بأذهان بعضكم من الخطأ الناتج عن الدعايات المغرضة الكاذبة ام غير ذلك . » فكان لنشر هذا البيان اثر طيب لدى الوطنيين اللبنانيين

من مسلمين ومسيحيين ، اذ وصل وفد من النبطية وجبل عامل الى حاصبيا يطلب من الحملة الوطنية ان تتقدم الى مناطقهم ، وانهم مستعدون لاشعال نار الثورة فيها لاجلاء الفرنسيين، فأفهم اعضاء الوفد ان القيادة قررت عدم التجاوز على حدود لبنان، دون المناطق التي سلخت من سوريا الداخلية والساحل السوري



المجاهد سعيد الاظن من دمشق اشترك في معارك
وادي التيم والاقليم

وألحقت بلبنان ، اذا لم تجد نفسها مضطرة الى ذلك . اما اذا شاء سكان لبنان ان يثوروا في مناطقهم ، فإننا سنؤيد ثورتهم وندعمها وننجدها اذا طلبوا منا ذلك .

معركة راشيا واقتحام قلعتها

- ٤٠ -

وصل وفد من أهالي راشيا الى حاصبيا يستنجد بالحملة الوطنية ويستغيث بها لأن الحامية الفرنسية في قلعة راشيا تسوم الدروز أنواع الظلم والاضطهاد ، متذرعة بانهم موالون للثورة ، مما اخرج بعض شبان الدروز عن هدوئهم ودفعهم للاصطدام مع الجند صداماً مسلحاً أسفر عن سقوط قتلى من الجانبين. وعلى الاثر تحصن الفرنسيون وعملاؤهم في القلعة ، وهي كقلعة حاصبيا ، يسمونها « السراي » دار من دور الامراء الشهابيين الذين كانوا يحكمون وادي التيم وأجزاء أخرى من لبنان، تسيطر على البلد ، وتشرف على الوادي والطريق المؤدية الى البلد من الشمال ، وأخذوا يطلقون نيران أسلحتهم على الاهلين الذين وجهوا وفدهم مستنجدين ، وسرعان ما دعا زيد الاطرش الى اجتماع تقرر فيه نجدة راشيا بقوة على رأسها أسد الاطرش ، وحمزة الدرويش ، وشكيب وهاب ، ورافقها نزيه المؤيد العظم ، وصبري فريد البديوي ، وغيرهما من الدمشقيين ، ولحق بها خلق كثير من عشيرة الفاعور وأهل منطقة العرقوب. وكانت قوة الثائرين تواجه في طريقها النازحين عن راشيا من أسر الدروز ، وهم بحال يرثى لها ، فوصلت الى راشيا قبيل فجر الواحد والعشرين من شهر تشرين الثاني ، وانقسمت الى اربع فرق ، كل فرقة أخذت موقعها ازاء جانب من جوانب القلعة. ولما تنفس الصبح، وتعارفت الوجوه ، بدت القلعة أمام الثائرين عامرة، حصنت نوافذها واسطحتها بالحجارة وأكياس الرمل، وركزت وراءها الرشاشات ، وشعرت حامية راشيا بقوة المجاهدين ، وأخذت تصليهم من نيران اسلحتها ، وقنابلها اليدوية ، وقذائف مدافع الهاون ، وقابلوها برصاص بنادقهم ، ثم كفوا عن اطلاق الرصاص ، لان ذخيرتهم قليلة ، ولان الرصاص

لا يؤثر بالقلعة وحصونها ، واخذوا يفكرون بوسيلة لاقتحام القلعة . وفي الليل اجتمع القـــادة والزعماء في راشيا يبحثون الخطة التي تمكنهم من القضاء على الحامية في القلعة الحصينة . وكانت الحامية هدمت مـــن قبل المنازل الملاصقة للقلعة ، واقامت حولها من الجهات الاربع الاسلاك الشائكة الكثيرة ، فوجد المجاهدون أن الوسيلة الوحيدة للاقتراب من القلعة هي في فتح ثغرات فيجدران بعض المنازل التي تهيىء للمجاهدين طريقاً مستترة تجعلهم على مقربة من القلعة ، وافتتحت الثغرات حتى استطاع المجاهدون ان يصبحوا من جهة الجنوب على مقربة من الاسلاك الشائكة في اسفل جدران القلعة . ولما كان من الصعب الدنو من القلعة والاسلاك الشائكة قبل ازاحة الجنود المحاصرين من حصونهم المطلة على المكان ،شرع المجاهدون بفتح ثقوب لبنادقهم في جدران المنازل المقابـــلة للقلعة ولتحصينات الجنود على سطوح القلعة ، وفي نوافذها . وتقدم المجاهدون يطلقون بشدة ، من ثقوب تلك الجدران ، نـــيران بنادقهم على الجانب الذي يواجههم من القلعة ، حتى أكرهوا المتحصنين في نوافذه وسطحه على الابتعـــاد عنها ، وتقدم بعض المجاهدين نحو الاسلاك الشائكة ، ولكنهم فوجئوا بوابل من القنابل اليدوية ومدافع الهاون تتساقط عليهم من الجنود الذين عرفوا خطة المجاهدين لاقتحام القلعة ، فجعلوا من المكان جحيماً بقذائف مـــدافع الهاون وبرماناتهم اليـــدوية ، فقتل وجرح عدد من المجاهدين ، ولكنهم في النهاية استطاعوا ان يقتلعوا الاسلاك الشائكة ، وجاءوا بسلمين طويلين من الخشب شدوا الواحد الى الآخر ، كي يبلغا ارتفاع الجدار الذي يزيد على بضعة عشر متراً،وصعد المجاهدون على السلم الواحد تلو الآخر . وكان في مقدمة الصاعدين شاب من آل الجربوع في السويداء ، مـــا كاد يصل الى اعلى السلم ، ويتسلق الحصن حتى أردتـــه رصاصة فهوى شهيـــداً الى ارض الحصن ،فصعد وراءه مجاهـــد ثان صرع أيضاً برصاص الجند ، وهوى من اعلى السلم الى الارض ، أما الثالث فقد تسلق والقى على الحصن رمانة يدوية ، اتبعها بثانية وثالثة ، انفجرت كلها ، واقتحم الحصن بعد ان تأكد ان حاميته اصبحت بين

قتيل وجريح ومنهزم ، ولحق به عدد من اخوانه الدروز والدماشقة ومجاهدي البقاع الذين اخذوا يلقون رمانات يدوية على حصون القلعة ، ويردون الجنود برصاص بنادقهم ، فدب الرعب في قلوب الجنود من هـــذه المباغتة الجريئة ،



مجاهد صغير اشترك في معارك حاصبيا وراشيا

واخذوا يفرون الى داخل القلعة ، ولجأ عدد كبير منهم الى مهجع كان سقفه الخشبي قريباً من الحصن الذي احتله المجاهـــدون ، فطلب هؤلاء من اخوانهم

نفطاً ، فوافوهم بطريق السلم بصفيحة منه ، أخـذوا ينقعون بنفطها كفياتهم ، أي غطاء رؤوسهم ، ويشعلونها ، ويلقونها على السقف حتى اشتعل، وتساقطت نيرانه على المحاصرين في المهجع ، فذعروا ، وفروا الى الاقبية في الدور الارضي من القلعة ، يطلقون منها الرصاص ، وأسهماً نارية مضيئة حمـراء ، كانت تضيء الفضاء فوق القلعة ، وهي شارة الخطر وطلب النجدة . وخلال ذلك وجـد المجاهدون المحيطون بهذا الجانب من القلعة ممراً ضيقاً إلى القلعة سد بالحجارة ، فاقتلعوها ودخلوا القلعة يهزجون ، وحداؤهم يقطع نياط قلوب المحاصرين ، ثم استطاعوا أن يحطموا باب القلعة ، ويدخلوا منـه مهللين مكبرين ، وأحاطوا بالأقبية التي حوصر فيها الجنـد ، ولكن الطائرات الفرنسية وصلت في تلك اللحظة ، وأخذت تحوم فوق القلعة ، وتلقي قنابلها على القادمـين الى البلدة والخارجين منها ، ولم تلق قنابلها على البلدة خشية أن تصيب القلعة ، وفيهـا الحامية الفرنسية ، ولكنها ألقت صناديق خشبية صغيرة ، سقط احدها بيـد المجاهدين ، واذا فيه أمر عسكري موقع من الجنرال « غاملان » القائد العام لجيوش الشرق في سوريا ولبنان ، موجه الى قائد الحامية هذا نص ترجمته :
« ستصل النجدات الى راشيا في الوقت المقرر لكي تحيط بالدروز . نهنئكم على دفاعكم المجيد » .

وفي هذا الوقت شغل المجاهدون الذين اقتحموا القلعة بالاستيلاء على الخيل والبغال والاسلحة والذخائر والعتاد ـ شغلوا بها عن الانقضاض على أقبية القلعة وإلقاء الرمانات اليدوية على المحاصرين الذين يدافعون عن أنفسهم، وقد أصبحوا على آخر رمق، لولا هذا الامر العسكري الذي يبشرهم بسير الحملات لنجدتهم ويشد من عزائمهم على الثبات إلى ان تأتيهم النجدات . ومع ذلك فقـد استسلم عدد من رجال الدرك اللبنانيين كانوا محاصرين في إحدى غرف القلعة ، فأطلق المجاهدون سراحهم ، بعد الاستيلاء على أسلحتهم ، كما استطاع نزيه المؤيد العظم الذي كان في الحصن الاول الذي احتله المجاهدون في أعالي القلعة، ووقعت بيده نسخة من الامر العسكري، ان يهبط إلى باحة القلعة ، ويحذر إخوانه من عاقبة

الانشغال بالسلب والنهب ، وهي العادة القبيحة التي كثيراً ما كانت سبباً في فشل الحركات الحربية التي كان ينظمها القادة المخلصون في الثورة ، ولكن احداً لم يصغ لإنذاره ، بل اخذوا يخرجون من القلعة محملين بالغنائم متجهين نحو حاصبيا ، تاركين الحامية في الأقبية ، ومن لم يصبه غنم من القلعة سارع إلى نهب حوانيت البلدة ومخازنها ، وسلب الاقمشة والبضائع ، ولم يبق داخل القلعة إلا النزر اليسير من المجاهدين بينهم شكيب وهاب ، ومع الغروب بانت طلائع الحملات الفرنسية القادمة من لبنان لنجدة حامية راشيا فاضطر الباقون في القلعة ، وهم قلة ، الى الخروج منها ، والاتجاه لمقابلة الحملة الكبيرة القادمة من الشمال . وكانت الحملة تسير في بطء بظلام الليل ، وتصعد المرتفع الذي تقوم عليه بلدة راشيا ، في ضوء الانوار الكاشفة ، والاسهم النارية التي كانت تطلقها حتى صدمتها شرذمة المجاهدين ، واوقفتها بضع ساعات ، رغماً عما اطلقته من نيران حامية على المجاهدين الذين كادت ذخيرتهم تنفد ، فاضطروا الى الانسحاب في جنح الليل ، وعادوا الى راشيا التي فر منها اكثر اهلها ، وانسحب منها النهابون من الثائرين ، وتخلوا حتى عن عشرات الجرحى من إخوانهم او من الغرباء الذين اشتركوا في معركة راشيا ، والذين كانوا نقلوا الى منزل الشيخ نعمان زاكية وافراد أسرته ، فقد صرعهم رصاص الجند ، واجهز على الجرحى كلهم ، واحرقت الحملة الفرنسية بعض المنازل والاسواق ، وانسحبت شرذمة المجاهدين التي صمدت ساعات للحملة الفرنسية الكبيرة ، بطريق « العرقوب » الى قرية « شبعا » . ولقد جاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق حول الدفاع عن راشيا من ٢٠ الى ٢١ تشرين الثاني ما يلي : « في الايام الاخيرة من تشرين الاول كانت تجريدة سريعة من الخيالة والدرك تعمل في ناحية حرمون الغربي على قمع الشقاوة التي اتسع نطاقها بسرعة حتى كاد يتناول لبنان الجنوبي . وزادت الحال توتراً وخطورة ، فاستقر الجيش في قلعة راشيا يوم الخامس من تشرين الثاني . والقلعة تشرف على البلدة التي يقطنها ثلاثة آلاف نفس ، نصفهم دروز ، ونصفهم مسيحيون ، وتتسلط من الشمال على الوادي الذي ينتهي الى البقاع ، ومن الشرق على مضيق حرمون ، ومن الجنوب الغربي على السبل المؤدية الى حاصبيا . وهذه القلعة حصن فرنسي قديم يشارفها قمم

من البلدة . وكانت حاميتها بقيادة الكابتين « غرانجر » مـــن فيلق الصباحيين الثاني عشر مشتملة على الكوكبة الرابعة من فيلق الصباحيين الثاني عشر (الكابتين غرومار فياي) ، والكوكبة الرابعة من الفيلق الأجنبي الاول (الكابتـــين لاندريو) ، ومفرزة الرشاشات التابعة لفيلق الصباحيين الثاني عشر ، والليوتنان « تينه » ومئة جندي من الدرك اللبناني .

في اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني اغلقت الاسواق في راشيا ، وتهيأت القلعة للدفاع ، فبوشرت أعمال التحصين بنشاط ، ونظمت اماكن الرشاشات ، وأعدت مراكز راشقي القذائف ، واقيمت الجدر حول نوافذ المنازل والأقبية ، وطوقت القلعة بشبكه من الأسلاك الشائكة ، وهدمت بعض منازل القرية ، تقويماً لخط الرماية . في اليوم الحادي والعشرين من الشهر قطع الدروز جميع سبل المواصلات ، فلم يبق لدى القائد لتأمين اتصاله بالخارج الا ست حمامات زاجلة . فلما بزغ الفجر شرع العدو بالمهاجمة متسرباً الى بيوت القرية ليصبح على مقربة من صفوفنا ، واحتل الهضاب والصخور في الجنوب الشرقي ، فارسل منها ناراً حامية اردت من جنودنا أربعة وجرحت خمسة عشراً . وفي منحنى النهار أصبح على تماس بالمدافعين ، رغم التقذيف الشديد الذي قابلته به اسلحتنا الاوتوماتيكية . وفي ٢٢ تشرين الثاني حاول الدروز تقطيع شباك الاسلاك ، ولم ينفكوا عـن الهجوم طوال النهار بالبنادق والقذائف ، بينما كان رماتهم الحاذقون يسددون الرصاص من البيوت والصخور القائمة في الجنوب الشرقي من القرية ، كأنهم قصدوا الى شل عمل الدفاع . وفي منتصف الساعة التاسعة قتـل الكابتين « غرنجر » برصاصة اخترقت صدغه . وعند الظهيرة شد الدروز بعنف على الجانب الجنوبي. على ان جنود الفيلق الاجنبي ثبتوا ثباتاً حسناً ، وقابلوا المهاجمين بالقذائف ، بيد ان الذخيرة آذنت بالنفاد ، فصدر أمر القائد الى الجنود ان يتحرزوا بإنفاقها . وكان التعب قد أدرك المدافعين ، ولكنهم استمروا على رباطة جأشهم ، وعززت معنوياتهم رسالة ألقتها إحدى الطائرات منبئة ان الحامية ستنقذ حوالي اليـوم الرابـع والعشرين . ما ازفت الساعة الخامسة صباحاً حتى حمل العـــدو على

الجبهة الجنوبية بالقذائف تمهيداً للهجوم العام . وفي الساعة الثامنة اغار على حين غرة ، فتمكن من تسديد القذائف على البرج مرات عديدة، فتلاشى وانعدم عمل الموقع الذي استقر فيـــه مطلقو البواريـــد الرشاشة ، وراشقو القذائف ، فاستطاع الدروز ان يتسلقوا السلالم الى البرج ، واستطلوا من الجنوب على القصر وسطوح الساحة . وفي هذه الاثناء كان العراك حامي الوطيس عند مـــدخل القلعة الصغير ، لان العدو تمكن من ولوج نفق تحت البيت الذي يتسلط على ذلك المكان . اما الليوتنان « كاستان » فاستمر صامـــداً مع جنود الفيلق الاجنبي والصباحيين في الطابق الاعلى . وانتظمت مفرزة الصباحيين الاحتياطية بقيادة معاون الضابط الخيال «ميغرو» في خط المقاومة وراء البيوت القائمة في الجانب الجنوبي ، بينما كان الدروز يغيرون على البرج ، فيكادون يصلون اليه . وحاولوا عبثاً إعمال النار في أرجائه . وجرح الليوتنان « مودرانو » بعيار ناري تنـاوله عن كثب . وفي الساعة الثامنة والنصف أرغم جنود الفيلق الاجنبي على التخلي عن البرج نهائياً ، وعن البيت القائم عند المدخل الصغير . وفي منتصف الساعة التاسعة استقر الدروز نهائياً في البرج، وشرعوا يصوبون النار على حماة الساحة ، ويقتلون الجياد . وفي هذه الاثناء اكتشف الدروز سرداباً ينفذ إلى الساحة ، فسلكوه ، وتحرج الموقف في الساحة ، فأغار الليوتنان « ديغاري » على رأس رهط من جنود الفيلق الاجنبي والصباحيين ورجال الدرك ، وانطلقوا برؤوس الحراب ، فاستعادوا السرداب والبيت الذي يعلوه ، فتعدلت وضعية الدفاع . وفي الساعة السابعة عشرة نفدت القذائف ، فوزعت الخرطوشات الاخيرة على رجال الحامية ، وانقضى عصر النهار بانتظار النجدات المطلوبة ، وأبصر الارصاد لدى الساعة العشرين سهماً نارياً أخضر ينطلق على بعد بضعة أميال في السهل ، واعقبته بعد نصف ساعة اربع طلقات مدافع مـــن شمالي القرية ، وظهرت في الوقت نفسه علامة نارية تشير الى فيلق الصباحيين السادس » .

وقد ورد في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ، وفي الصفحة ١٧١ منه صورة لامر عسكري برقم ٣٩٣ مؤرخ في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٩٢٥ هذا نصه :« ان

الجنرال القائد الأعلى للجيش الافرنسي في الشرق ينوّه في الجيش بفصيلة الكابتين « غرانجر » الذي سقط في ساحة الشرف أثناء المعارك ، وخلفه في القيادة الكابتين «غرومار فياي»، وهي تشتمل على الكوكبة الرابعة لفيلق الصباحيين الثاني عشر ، ومفرزة الرشاشات ، والكوكبة الرابعة التابعة لفيلق الفرسان الأجنبي الأول ، والمعقود اللواء للكابتين « لاندريو » ، والليوتنان « تينه » قائد فريق من الدرك اللبناني الذي قتل في ساحة الشرف ، ويمنحها الصليب الحربي ، فقد وكل اليها ان تحمي قلعة راشيا فدافعت أربعة أيام أمام هجمات العدو المتكررة ، وسطرت بين تلك الجدران التي تتحدث بماضي السلف المجيد ، صفحة من الاساطير تسامي أروع ما في حروبنا البعيدة من المعارك . وقد صمدت حتى الرصاصة الاخيرة ، وحتى وصول النجدات التي دحرت الثوار . يجمل بنا ان نشرك في بطولة الحامية امرأة ورجلا من سكان البلدة : ان السيدة مريم ابنة ابراهيم النحاس وزوجة الخوري السرياني الكاثوليكي يوسف طعمة أبصرت الرسالة التي رمتها احدى الطائرات في ٢٢ تشرين الثاني ، واذ رأتها تسقط خارج القلعة ، والهجوم على اشده ، هرعت الى التقاطها ، وجدت الى ايصالها الى الحامية ، وتمكنت من بلوغ السور على ان الرصاصة التي أصابت ذراعها الايمن منعتها من التمسك بالحبل الذي القاه المدافعون لجذبها ، بيد ان هؤلاء خرقوا الحائط ، فاستطاعت ان تنسل الى داخل القلعة ، تحت نار الثوار . وقد كوفئت على جرأتها واندفاعها بوسام الحرب ، وبالاستحقاق اللبناني من الدرجة الاولى .

اما السيد مالك من راشيا فلم ينفك منذ بدء الاضطرابات عن مرافقة الجيش الفرنسي دليلا ومترجماً ، وقام في القلعة مع المدافعين أثناء الحصار ، فدافع الى جنبهم بشجاعة فائقة ، فاثيب بالوسام الحربي والاستحقاق اللبناني . » .

ان ما سطرته اقلام الفرنسيين في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق على ما فيه من كذب عن نفاد العتاد والذخيرة من الحامية ، ليشهد على البطولات الرائعة

التي سطرها المجاهدون الذين اقتحموا حصون قلعة راشيا ، ولولا ان الجموع التي دخلت القلعة من السرداب والباب شغلت بالكسب والغنائم عن القتال ، لاستسلم المحاصرون في الاقبية من جنود الحامية وضباطهـــا ، ولكانت قوات الثورة التي تفرقت وغادرت ارض المعركة حرصاً على الغنائم ، قادرة على صـــد الحملة التي خفت لنجدة الحامية ، لأن القلعة ، وموقع راشيا المنيـع ، والاسلحة والعتاد الذي أصبح بين ايدي الثائرين كاف لصد الحملة الفرنسية الآتية من السهل الشمالي وهزيمتها ، ولكنها ليست المرة الاولى التي تذهب ريح الطمع وحب الكسب بالنصر الذي يصبح قـــاب قوسين او أدنى من المجاهدين في معاركهم مع فرانسة .

الحياة رتيبة في جبل الدروز

- ٤١ -

كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عاد الى جبل الدروز في الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول ، يرافقه نزيه المؤيد شقيق زوجته ، بعد ان لاحقه الانكليز في حيفا ، وفر هو ، وقبض على جميل مردم . وقد حدثنا الشهبندر بعد عودته ، انه تعرض لخطر القبض عليه في طريق العودة ، فقد اصبح هو ونسيبه ودليلهما من أهل المنطقة على مقربة من قلعة بصرى الحرير في حوران ، حيث اقام الجيش الفرنسي في قلعتها حامية ، ومثلها في قلعة بصرى الشام ، لدى كل منهما مدفع تقصف به قرى جبل الدروز القريبة منها ، فاسرع الركب يبتعد عـن بصرى الحرير في اتجاه الجبل ، واذا بأربعة فرسان مسلحين يلحقون بـــه من القرية ، ويصادرون بندقية الدليل ، ثم يبدأون بالتحقيق عن هوية افراد الركب ، فيسأل احدهم الشهبندر عنهـــا ، ومن اين هم قادمون ، والى اين ذاهبون ؟ ، فقال لهم الشهبندر : « اننا من منكوبي دمشق ، هجرناها ، بعد ان احترقت منازلنا ، ونحن هائمون في حوران لنجد لنا مأوى في احدى قراها ! » ، فقال الحوراني :

« ان الضابط الفرنسي قائـد حامية القلعة شاهدكم بالمنظار ، وأمرنا بأن نلحق بكم ، ونحضركم اليه ليحقق عن هوياتكم ، فلا بد من مجيئكم معنا .. » ، وحاول الشهبندر بكل ما وهبه الله من زلاقة لسان ان يستدر عطف هؤلاء الاجلاف ، وتظاهر بالضعف والبؤس ، واكثر الشكوى مما اصابه وأصاب اهل دمشق من القصف والحريق والتقتيل ، ولكن كل هذا لم يحرك عاطفة الرحمة في قلوبهم . ولما رأى ان لا مناص من الانقياد لآسريه ، اخرج من جيبه عدة بطاقات للزيارة مطبوعة بأسمه ، ومزقها إرباً تحت عباءته ، والقاها جانباً ، ولكن احـد الفرسان شاهد قطع الورق ، وترجل بسرعة يلتقطها ، ويضم مزقها ليقرأ الاسم ، وسأل الشهبندر عن اسمه فقال : « عبد الرحيم ! » وسأله عن كنيته فقـال : « شاهين ! » ، قال الحوراني : « وهذه الراء في آخرها ؟ .. » قال الشهبندر : « شاهيندر .. ياسيدي ! » ، فقال الحوراني : « لم اسمع بحياتي بعائلة « شاهيندر » فما هذا اللقب ؟ .. » ، قال : « اصلنا اتراك .. وهذا اللقب انتقل الينـا من جدنا التركي ! .. » قال الحوراني : « اذن انتم مسلمون ؟ » ، قال نعم .. والحمد لله .. ونحن منكوبون ، فلا تأخذنا الى هؤلاء الظالمين الذين دمروا بيوتنا ، واحرقوها ، وفيها اطفالنا ونساؤنا .. دعنا نذهب في سبيلنا نسعى لان نجد ملجأ ومأوى لنا .. » ، ومد يده فاخرج من جيبه بعض قطع النقود الفضيـة « ريالات » ، وضغطها في يد الحوراني ، فانثنى هذا يقول لرفاقه : « ان الجماعة مسلمون منكوبون ! . فلنتركهم يذهبوا وشأنهم ! .. » ، وابدى هؤلاء رضاءهم ، بعـد ان نفحهم الشهبندر ببعض النقود . وهكذا تخلص الشهبندر والمؤيـد من الوقوع بأيدي الفرنسيين على أهون سبيل ! .. ولما بلغا الجبل مكث فيه الشهبندر ، ورافق نزيه المؤيد حملة زيد الاطرش ، وعادت حياة الجبل ، بعد انسحاب الفرنسيين هادئة ، رتيبة بالنسبة لاهله ، لولا المدفعية الفرنسية التي كانت تقصف كل يوم قرى « بكة » ، و « القرية » و « ام الرمان » من قلعة بصرى الشام ، وقرية ونجران وغيرها من قلعة بصرى الحرير ، ولولا الغارات الجوية التي كانت تشنها الطائرات الفرنسية على قرى الجبل ، وتلقي عليها ما تحمل من وسائل الخراب والدمار ،

ولا يخفف من وقعها ، الا المحاربون الدروز الذين كانوا يقابلونها برصاص بنادقهم ، فتضطر للتحليق عالياً حتى لا يدركها رصاصهم ، وتخطىء اهدافها في القصف من علٍ ، وتسقط اكثر قنابلها في اطراف القرية وخارجها . كانت الطائرات المغيرة تلقي احياناً قنابل من الوزن الثقيل على اهداف معينة في الجبل ، تحمل الطائرة منها قنبلة او قنبلتين ، فتفتح القنبلة الكبيرة حفرة في الارض عمقها بضعة أمتار ، وقطر دائرتها اوسع ، واذا اصابت منزلاً دمرته وما حوله من المنازل ، ودكتها فوق سكانها دكا . ولما كثرت الغارات على بعض القرى ، وخاصة السويداء ، اخذ الاهلون يجلون نساءهم واطفالهم الى القرى الشرقية البعيدة تحاشياً لها .

لقد صادفت في الاسابيع القليلة التي قضيتها في جبل الدروز اكثر من عشرين غارة جوية قامت بها الطائرات على القرى التي كنت اتنقل بينها ، منها غارة قامت بها خمس طائرات ، واخرى قامت بها ثماني طائرات ، ومرة خمس عشرة طائرة . وصادفت في السويداء غارة قامت بها احدى وعشرون طائرة قاذفة . وكانت السويداء ، بعد انسحاب جيش « غاملان » من الجبل تقصف كل يوم ، حتى اصبحت الغارة اليومية كوجبة تأتي في موعد محدد من النهار .

الفصل الثامن

السفر الى الغوطة

- ٤٢ -

قضيت في جبل الدروز نحو خمسين يوماً ، انفقت خلالها ما تبقى معي من نقود ، وتحملت شظف العيش في المأكل والمشرب والمبيت ، وكنت أقطع احياناً في اليوم الواحد الثلاثين والاربعين كيلو متراً مشياً على الاقدام في تنقلي بين القرى ، وانا أنتظر أن تسلحني القيادة ، فقد كنت انفقت على نفسي وعلى رفاقي منذ ارتبطت بثورة حماة اكثر من خمسين ليرة ذهبية ، كانت كل ما املكه في ذلك الحين . وكان العقيد فؤاد سليم يشجعني ، ويشحذ من عزمي ، كلما قابلته في الجبل ، بكلماته الصادرة من قلب مملوء بالايمان وحب الوطن ، ويطمئنني بقرب وصول إعانات مالية ، ومساعدات لقيادة الثورة من البلدان العربية الشقيقة ، تمكن من شراء سلاح وراحلة لي ولبعض إخواني . وقد سمعت مرة أن مبلغ سبعمئة وخمسين جنيهاً وصل من مصر إعانة للثورة ، وان سلطان الاطرش اشترى منها بندقية وجواداً لزميلي خيرالدين اللبابيدي ، وبندقية لسعيد العاص ، وبنادق اخرى لزكي الدروبي ، ونصري سليم ، وسعيد اليماني ،

وثلاثة بغال للأثقال والذخائر التي يريد العقيد فؤاد سليم استخدامها في مسيره مع حملة زيد الاطرش ، وسافر هؤلاء الرفاق ، بعضهم الى الغوطة ، وبعضهم الى اقليم البلان ووادي التيم . وكنت كلما ذكرت سلطان الاطرش بوعده ، أملني خيراً ، واستمهلني متذرعاً بانه لم يجد لي راحلة بسعر معتدل وشكالي قلة المال بيده ، مما جعلني اقدر ان هناك من الرفاق من أبلغه أن معي مالاً اخفيه عنه ، ولا أريد ان أشتري سلاحي وراحلتي به . والحقيقة انني كنت أحمل معي بضع عشرة ليرة ذهبية يوم وصولي الى الجبل ، هي ما تبقى لدي ، بعد دفع اجرة السيارة من عمان الى



المجاهدون ابو عمر ديبو ، وحسن رعد ، في الصف الاول ، والأمير احمد الشهابي إلى اليمين في الصف الثاني وإخوان لهم

جبل الدروز ، وكنت بهذا المبلغ استطيع ان اتسلح واشتري دابة من غنائم الجيش الفرنسي ، ولكنني اطمأنيت لوعد الدكتور الشهبندر بان قيادة الثورة على استعداد لتسليحي وتسليح اخواني السوريين ، وايفادنا الى الغوطة لنؤلف أول عصابة في رياضها ومعاقلها ، لذلك أنفقت هذا المبلغ علي وعلى رفاقي الذين كانوا لا يملكون شيئاً من النقود ، وكثيراً ما كنا نأكل من الحوانيت ، لا نحمل مضيفنا عبء اطعامنا ، لاننا كنا نعلم ما يعانيه سكان الجبل ، في تلك السنة ،

من القحط والجفاف ، واكثرهم فقراء ، يقدمون أحياناً من الطعام ما لا يقيت ويسد الرمق ، حتى لم يبق معي غير ليرة ذهبية واحدة . واخيراً ، وبعد إلحاح على سلطان الاطرش ، واطلاع الشهبندر على حقيقة وضعي المالي ، استدعاني سلطان ، وأبلغني أنه اشترى جواداً بخمس عشرة ليرة ذهبية لركوب العقيد فؤاد سليم ، سيرسله معي كي أسلمه اليه في وادي التيم ، ويعطيني الجواد الذي يركبه ، فقد علم أن فؤاد سليم غير مرتاح لركوب جواده ، وهو من خيل الفرنسيين التي غنمها الدروز في المعارك ، واعتذر لي بانه لم يعد لديه مال لشراء بندقية وعتاد لي ، فاضطررت ان أبيع ساعتي من طراز « زينيت » ، وخاتمي الذهب ، واضيف ثمنها البخس في الجبل ، الى الليرة التي معي ، واشتري بندقية فرنسية طويلة السبطانة ، خاصة بالمشاة ، وغادرت السويداء في اليوم السادس من تشرين الثاني عام ١٩٢٥ برفقة العقيد سعيد العاص ، وحسني صخر قائد الدرك السابق في حكومة جبل الدروز ، وثلاثة عشر من خيالة الدروز ، وعلاء الدين المسوتي من دمشق ، في طريقنا الى الغوطة .

مررنا في طريقنا ، بقريتي عتيل ، ومردك ، وبلدة شهبا ، وقريتي اللاهثة ، والرخيمة ، وبتنا ليلتنا في الرخيمة في منزل آل عزالدين الحلبي ، والحلبية احدى العائلات الثلاث الكبرى في جبل الدروز ، تأتي بالترتيب بعد آل الاطرش في العدد ، واكبر هذه العائلات آل عامر .

توجهنا صباح السابع من تشرين الثاني من الرخيمة نمر بقرى : خلخلة ، والصورا الصغرى ، والصورا الكبرى ، وهي آخر قرى الجبل في طريقنا الى الشمال ، واجتزنا قفراً بين الجبل وقرى المرج بثماني ساعات ، حتى بلغنا قرية « دير الحجر » من قرى المرج . وبعد راحة قصيرة ، وبزوغ القمر ، تابعنا سيرنا الى قرية « شبعا » في طرف الغوطة حيث قضينا ليلة فيها .

تابعنا في صباح الثامن من تشرين الثاني سيرنا الى قرية « دير العصافير » ،

ومنها الى قرية « زبدين » ، فوجدنا فيها شباناً من مجاهدي دمشق ، أبلغونا أن محمد عزالدين الحلبي ، وكان مديراً للعدلية في حكومة جبل الدروز ، وعين قائداً لمنطقة الغوطة ، سرى ليلاً ليهاجم مع الفجر بقواته الحامية الفرنسية المرابطة في معمل الزجاج خارج الباب الشرقي من دمشق ، وانه سيعود الى زبدين ، فلم يطل بنا المقام في « زبدين » حتى عاد بقواته اليها ، وحدثنا بأنه هاجم بها حامية معمل الزجاج ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على الحصن لمناعته ، ويقظة حاميته ، وقوة نيرانها . وقد التقينا بخير الدين اللبابيدي ، وابي عبده ديب الشيخ ، وبشير البكري شقيق نسيب البكري الذين وصلوا الى الغوطة من الجبل قبلنا بيوم واحد . سرنا مع قوة محمد الحلبي ، في التاسع من تشرين الثاني الى قرية « سقبا » ، وفيها تلقى الحلبي كتاباً من رمضان شلاش في « قلمون » ، ينبئه بان الفرنسيين زحفوا بحملة صغيرة من حمص لاحتلال بلدة «النبك» مركز القضاء ، ولكنهم دحروا أمام دفاع الثائرين في البلدة . وكانت منطقة « قلمون » تحررت من الفرنسيين ، إثر وصول قوة من الثائرين تابعت زحفها من معلولا الى الى النبك ، وأخذ شبان بلدة النبك وقرى قلمون يتسلحون ، بعد تفرق قوات الثورة التي كان جمعها الطمع وحب الكسب من بلدهم . وقد وصل بعدئذ الى النبك حسن الخراط مع عدد من رجال عصابته ، وعصابة اولاد عكاش ، لا يزيد أفرادهما على الثلاثين مسلحاً ، جاءوا اليها ابتعاداً عن الغوطة التي اخذ يكثر فيها زحف الحملات الفرنسية لإنشاء مخافر فيها حاميات افرنسية غايتها تطويق الغوطة وفصلها عن المرج ، فأحدثت مخافر ثابتة في دوما ، والمحمدية ، واوتايا ، وحوش خرابو وغيرها لتحد من تنقل عصابات الثائرين في ارجاء الغوطة ، ولتشعر سكان المنطقة بأن فرنسة قوية ، وغير محاصرة في مدينة دمشق ، حتى لا تستفحل الثورة حول دمشق . وقد جاء للفرنسيين ، في أثناء ذلك من عيونهم ، ان قلمون خلت من العصابات ، فجهزوا ، على ما يظهر ، حملة صغيرة لاسترداد بلدة « النبك » ، وارجاع حكومة القضاء اليها ، وجهوها من حمص ، لا يعدو أفرادها المئة جندي نظامي ، وفصيل من الدرك ، جاءت

بالسيارات ، تتقدمها ثلاث سيارات مدرعة . ولما بلغ الثائرين في بلدة النبك خبرها ، وبينهم عصابة الخراط ، أرسلوا يستنجدرن بجمعة سوسق واخيه احمد سوسق في قرية « رنكوس » ، فجاء الاول بعدد من مسلحي قريته والقرى



السلاح دوما بأيدي المجاهدين

المجاورة لها في الجرد ، وانضم الى مسلحي النبك وعصابة الخراط ، وكمن الجميع في بساتين بلدة « النبك » التي تقع الى شرقي طريق السيارات من شمال النبك. ولما أطلت الحملة بادروها بوابل من الرصاص ، وهي في سياراتها، فأصيب الكثيرون من جنودها ، وقتل ضابط فرنسي ، وأسر ضابط الدرك واكثرجنود فصيلته ، وفر سائر جنود الحملة في اتجاه مدينة حمص . وقد جرد رجال الدرك من السلاح ، وأخلي سبيلهم ، وغنم الثائرون أربعة رشاشات ثقيلة، وعدة بنادق ، وعشرة صناديق عتاد ، وثلاث سيارات نقل ، وفرت المدرعات مع سائر السيارات تحمل المنهزمين ، واكثرهم مثخن بالجراح . تقاسم المنتصرون الرشاشات والسيارات ، وخص حسن الخراط منها برشاشين. وبعد هذه المعركة دخل حسن الخراط بعصابته بلدة يبرود التي كانت تتمنع على الثورة لوجود طائفة مسيحية كبرى فيها ، وصادر بعض الآلات الموسيقية

النحاسية من فرقة المدرسة الطائفية التي يرعاها الدير في يبرود ، وأخذ أفراد عصابته ينفخون بأبواقها ايذاناً بالتجمع والنهوض والنوم ، على نمط ما يجري في الجيوش النظامية . وبعد بضعة ايام من المعركة عاد حسن الخراط واولاد عكاش الى الغوطة يتنقلان بعصابتهما منفردين ، دون أن تربطهم بقوة محمد عز الدين الحلبي رابطة غير رابطة المجاملة .

الغوطة في مطلع عهد الثورة

تعد الغوطة أصلح مكان لحركات الثورة وحرب الانصار والعصابات ، لأنها أراض مشجرة كثيفة الشجر ، تمتد أشجارها عشرات الكيلومترات ، وتحيط بدمشق من ثلاثة أطرافها ، عدا الشمال ، وفيها أكثر من خمسين قرية ومزرعة مأهولة بالسكان الذين يعمل اكثرهم بالزراعة ، وبعضهم بالصناعة اليدوية والتجارة، وهم فلاحون متحضرون ، منازلهم لاتقل اثاثاً عن منازل اكثرسكان دمشق في الاحياء القديمة ، واغنياؤهم ، لا تختلف منازلهم عن منازل الخاصة من سكان دمشق بفرشها ، ونظافتها ، وأسلوب ترتيبها . وفي قرى الغوطة حمامات عامة للاغتسال، والمقاهي لا تخلو منها قرية، والاسواق حافلة بالحوانيت والدكاكين ، فيها كل ما يلزم أهلها من حاجات يأتون بها من دمشق ،ويتعاملون بسببها مع تجار المدينة. ومناعة الغوطة اوصلاحها لحرب العصابات يأتي من كثرة الشجر والأقنية والجداول والأنهر وجدران البساتين المصنوعة من الطين ، واحدة يسمى « الدك » ، ويقوم مقام السياج في صون البستان وتحديد حدوده. وفي بناء الدك يصب الطين في قوالب كبيرة من الخشب ، ويجفف ، ثم يبنى الجدار من قطع الطين المكيفة حسب القالب ، وهي قطع كبيرة ، قد تبلغ القطعة في سطحها متراً مربعاً ، او ما يقاربه ، ولا يقل ثخنها عن ثلث متر . وهذه الجدران تختلف في ارتفاعها عن الارض ، من المتر الى عدة امتار ، وهي بطبيعتها موانع تقي الثائرين نيران الرشاشات وقذائف مدافع المدرعات

والدبابات ، وان كانت لا تقوى على مقاومة قذائف المدافع المتوسطة او قنابل الطائرات . ولما كانت أرض الغوطة سهلاً لا يخلو من تعرج وانخفاض وارتفاع، كثرت فيها الموانع التي تتخذ للدفاع ضد اكثر الاسلحة الآلية التي لا تجر الا على الطرق المهدة والمعبدة . هذا عدا الدبابات التي هي سلاح قاطع مؤثر في الغوطة ، لا يقف في وجهها دك ولا قناة ولا جدول ، حتى ولا نهر صغير من أنهر الغوطة التي هي في حد ذاتها فروع وجداول لأنهر دمشق المتفرعة كلها من نهر « بردى » الصغير ، ولا يصدها مرتفع أو حاجز أو منخفض ، فهي بصدمة تقلب الدك على من وراءه من الثائرين ، وتتسلق بسلاسل عجلاتها المرتفعات ، وتهبط المنخفضات ، وتجتاز الحواجز والاقنية والانهر الصغيرة ، فليس في الغوطة جدول أو نهر يحول بعمقه وعرضه دون عبور الدبابات من جانبه الى الجانب الآخر . لذلك كان سلاح الدبابات هو السلاح القاطع الذي يحسب حسابه الثائرون ، يؤثر بهم ، ولا يتأثر برصاص بنادقهم ، على عكس الطائرات فإنها لالتفاف الشجر ، وكثرة الموانع في الغوطة لا تستطيع اكتشاف مكامن الثائرين ، وحركاتهم ما لم تنخفض الى علو قريب من ذرى الأشجار ، مما يعرضها لخطر رصاص البنادق . ولما كان فلاحو الغوطة وسكانها أرقى طبقة بين الفلاحين السوريين ، فإن وعيهم الوطني والقومي زاد في حماستهم للثورة على الفرنسيين ، يفتحون منازلهم للثائرين ، وتستقبل قراهم جموع الثورة مهما بلغ عددها ، لا يبخلون في إطعامهم ، وايوائهم ، وتقديم كل عون لهم . وقد رأينا حماستهم واندفاعهم عند خروج أول عصابة من دمشق الى موقع « الزور » في غوطتهم ، ينضم اليها شبابهم ، بعد ان يشتروا السلاح بمالهم ، ويحملوا اليها ما تحتاج اليه من زاد وذخيرة ، ويزودوها بأخبار العدو وحركاته ، بل ويتقدمون بأنفسهم ، ويسيرون أدلة وهداة للثائرين الى مواقع العدو وثغراته ، فقد جاء قرويون من « المليحة » ، يوم نزلت كتيبة الدرك في بلدهم ، يخبرون عصابة الزور بأمر الدرك ، وعددهم ، وضباطهم ، وغفلتهم ، وتقدموا العصابة يساعدونها ويهدونها الى أبرع الاساليب ، حتى قبضت العصابة على جنود الدرك وضباطهم ، وكان

جزاء قرية المليحة الحرق والتدمير بسبب القبض على كتيبة الدرك . لقد تحمل سكان الغوطة أنواع الاذى والظلم من الثائرين ومن الفرنسيين ، على حد سواء ، منذ انطلقت جموع الدروز من الجبل ، اثر ثورة حماة ، تمر كلها بقرى المرج والغوطة ، لا يكتفي بعضها بالضيافة الكريمة في تلك القرى ، بل كثيراً ما يلجأ بعضهم الى السلب والنهب والسرقة ، وارغام القرويين على أداء المال باسم مساعدة الثورة . ونعتقد أن الطابور الخامس وعملاء فرنسة في جبل الدروز ، لما عجزوا عن مقاومة الثورة جهاراً ، ورأوا الهزائم تنزل باسيادهم ، تظاهروا بتأييد الثورة ، ومنهم من قام بتجميع أعوانه وغيرهم ، وخرج بهم من الجبل في سبيل الكسب والنهب ، يجوبون قرى المرج والغوطة ، ويرتكبون من الاعمال ما أساء لسمعة الثورة ، وسمعة الدروز . ويوم وصولنا الى الغوطة ، وانضمامنا الى قوة محمد عزالدين سمعنا أن جموعاً اخرى من الدروز ، تنتقل من قرية الى قرية ، فهناك ما يطلقون عليه جيش شبلي عزالدين، وجيش نجيب عامر، وجيش زيد عامر ابي خمرى، وجيش محمود كيوان ، كلها جموع من جبل الدروز، تنتقل بين القرى ، ولا تتقيد بأمر ولا نظام ، وترتكب من الاعمال ما يسيء ويضر بسمعة الثورة . ومحمد عزالدين الحلبي الذي عينه سلطان الاطرش قائداً على الغوطة ، لا يستطيع بقوته ان يردع هذه الجموع ، او يخضعها للنظام ، خشية الصدام ، لا سيا والدروز عشائر وعائلات ان سال دم واحد منهم انتصر له ابناء اسرته او عشيرته او قريته ، وانقلب النزاع الى مذابح لا يعلم الا الله ما تكون عواقبها . لذلك كان محمد عزالدين يسعى دوماً لإقناع زعماء تلك الجموع بالحسنى والنصيحة والرجاء ، حتى ضج سكان القرى من اعمال الفوضى، وهجر بعضهم قراهم . ولما بدأت المعارك الحامية تنشب بين القوات الفرنسية التي كانت تزحف احياناً الى الغوطة ، وبين القوة التي يقودها محمد الحلبي ، انسحب النهابون السلابون الى جبلهم ، لأنهم في الأصل انما جاءوا للتخريب والنهب ، لا للقتال والحرب .

الهجوم على حامية دوما

- ٤٣ -

كانت فرنسة أقامت من جيشها حامية في بلدة دوما،تحصنت في دار كبيرة شرقي البلدة تشرف على طريق السيارات بين دمشق - حمص ، وتفصلها عن منازل البلدة مئات الامتار ، حتى لا تتخذ المنازل وسيلة لاقتحام الحصن ، فأصبحت بمثابة ثكنة محاطة بالاسلاك الشائكة من كل جوانبها ، وفي جدرانها ثقوب وشقوق للرشاشات ، وعلى جوانب سطحها معاقل من اكياس الرمل لمفارز الرشاشات تحصد بسلاحها كل من يهاجم الدار أو يدنو منها.وقد اضطرت السلطة الفرنسية لإقامة هذه الحامية ، اذ هاجم بعض الثائرين الذين انسحبوا من دمشق ، مرة ، دوما ، واحتلوها ، وغنموا أسلحة وجياد جنود الدرك فيها . وبعد انسحاب تلك الجموع أعيد تنظيم الحكومة في دوما، وارسلت قوة جديدة من الدرك اليها ، ولكن لم يلبث أن هاجمها محمود كيوان بقواته ، وأسر جنود فصيل الدرك ، وغنم خيلهم وسلاحهم ، فأدركت السلطة الفرنسية الا مقام للحكومة في دوما ما لم تقم فيها حامية فرنسية ، فوجهت قوة من المغاربة العرب والفرقة الاجنبية على رأسها ضباط فرنسيون حلت في تلك الدار ، وحصنتها ، وقطعت الاشجار من حولها حتى لا تكون وسيلة لاقتراب الثائرين منها ، فأصبحت الثكنة مكشوفه من جوانبها الاربعة . وصلنا في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني ، واتفقنا على مهاجمة بلدة دوما مع فجر اليوم الثاني ، ومباغتة حاميتها ، وارسل محمد عزالدين فوراً رسائل الى شبلي عزالدين ، وزيد ونجيب عامر ومحمود كيوان كي يوافوه بقواتهم الى قرية « مسرابا » للاشتراك مع قوته بالهجوم ، وانتدبت ، في تلك الليلة لتخريب « جسر تورا » على طريق دوما عند مدخل دمشق ، وقرب مفرق القابون : وتورا اسم نهر من فروع

«بردى» ، والجسر لا يبعد كثيراً عن المستشفى الانكليزي في حي القصاع حيث أقامت فرنسة مخفراً مجهزاً بالرشاشات للدفاع عن دمشق ، في حال تعرض العصابات لها . وقد توجهت قبيل منتصف الليل مع زميلي خيرالدين اللبابيدي وثمانية مسلحين ، وبضعة شبان عزل من أهالي عربين يحملون الفؤوس ومنشاراً ، ونصف قارورة نفط وكان العقيد سعيد العاص سلمني اصبعين من الديناميت مع كبسولتين دون فتيل ، لا يملك الثائرون غيرهما في الغوطة من وسائل التخريب بالمتفجرات . ولما بلغنا الجسر ، وزعت المسلحين ، لحمايته من جهتي دمشق ودوما ، حتى لا نفاجأ بهجوم مباغت علينا من احدى الجهتين ، وكلفت الفلاحين بنشر أعمدة البرق والهاتف وقطع أسلاك المواصلات على جانب الطريق ، ونزلت بملابسي في ماء النهر ، وعمقه لا يتجاوز ثلاثة أرباع المتر ، وتقدمت تحت الجسر ، وهو ذو فوهتين وركيزة من الحجارة الكبيرة بينهما ، صنعه الالمان في الحرب العالمية الاولى ليتحمل نقلياتهم وآلياتهم ، ونقليات الجيش العثماني ، صنعوه من شجر الحور الكبير صفت الى جانب بعضها على طول الجسر ، ومدت فوقها طبقة من الخشب ثم طبقة من السمنت ، ثم طبقة من الزفت ، فأصبح كانه جسر من الحجارة . وكانت تعليمات العقيد العاص أن اجرب اصبعاً واحداً من الديناميت ، وضعت في الصفيح ، في تخريب الجسر ، فأخذت انفذ تعليماته بحذافيرها ، وفتحت خرقاً بين حجارة الركيزة حشوت فيه الاصبع ، بعد ان جهزته بالكبسولة ، وملأت الكبسولة بالبارود الاسود المستعمل في الصيد ، وردمت جانب النهر من الركيزة بالحجارة ، حتى اصبح ارتفاع الكومة موازياً لموضع الاصبع ، ووضعت حجراً منبسطاً الى جانب الركيزة فوق الكومة ، ورششت فوقه خطاً من البارود طوله بضعة عشر سنتيمتراً يتصل ببارود الكبسولة وخرجت من النهر اوعز للمسلحين في جهة دمشق ان يرتدوا الى ضفة النهر من جهة دوما ، مبتعدين هم واخوانهم عن الجسر ، يتوسدون الارض . وجئت بقصبة طولها بضعة امتار ربطت برأسها خرقة مبللة بالبترول ، اشعلتها ، وادنيتها من طرف البارود ، حتى اذا اشتعل ابتعدت ركضاً ، ثم توسدت الارض

فما هي الا ثوان حتى سمع صوت انفجار ، ولكن الجسر بقي في مكانـــه ، لم يزلزل الانفجار منه شيئاً ، ولم يهدم أي حجر من الركيزة ، وكل ما عمله تفتيت الحجارة حول الثقب الذي احدثته في الركيزة ، وحشوت فيه الاصبع . عدت ثانيـــة الى العمل ، ولكن الاصبع الثاني لم ينفجر في هـــذه المرة لعطل في « الكبسولة » ، او لخطأ مني . وأدركت أن اصبعاً او اصبعين من «الديناميت» لا تؤثران في ركيزة متينة ، وجسر يحمل أثقال عشرات الاطنان ، وكان لا بد



من عمل شيء لتخريب الجسر ، فدعوت رفاقي الى تحطيم ابواب دكان بقال على ناصية الجسر ، خـال من البضاعة ، كل ما فيه اخشاب لوضع البضاعة ، فأخرجنا من الدكان أحمالا من الخشب ، وادخلت تحت قنطرتي الجسر أعمدة الهاتف والبرق متصالبة في الماء ، واقمت فوقها وفوق الماء الاخشاب التي جئنا بها من الدكان ومن ابوابها الكثيرة المطلة على جهتين : جهة النهر ، وجهة الطريق ، ونثرت عليها البترول مـــن صفيحة وجدتها في الدكان مليئة الى اكثر من نصفها ، واشعلت النار بالاخشاب الجافة

الثائر رمزي ابو محي الدين الحمصي

كلها ، بعـــد ان حفرت على طول الجسر بالفؤوس ثلاث حفر أو ثغرات في ارض الجسر ، بلغت بها الى الخشب وسوق الحور ، كي تكون منافذ لألسنة اللهب التي اضاءت المكان وجوه ، فأخذ مخفر المستشفى البريطاني يطلق نيران رشاشاته باتجـــاه النار ، ولكننا كنا ابتعدنا عن المكان الى عربين ، ومنها سرت بالمسلحين الى « مسرابا » كي ننضم الى قوة محمد عز الدين الحلبي المتأهبة للزحف الى دومـــا ، وابلغت القائد ، في الساعة الثالثة من صباح الثاني عشر من شهر تشرين الثاني ، مـــا صنعنا بالجسر ، وانه تعطل باحتراق اخشابه تحت السمنت ، ولم يعد يصلح

لمرور السيارات والدبابات ، فشكرني . وبعــد حين سارت القوة نحو دوما ، وكنت مع محمد الحلبي وسعيد العاص وخير الدين اللبابيدي وبشير البكري في المقدمة ، ولما بلغنا مع الفجر ابواب دوما ، نحاذر أحـداث ضجة حتى نباغت الحامية وجنودها نياماً ، اخذ بعض الدروز ينبهون اخوانهم ، ويدعونهم بكلمة « هس » الى عدم احداث ضجة ، واذا بصوت جهوري يصيـح بقوة : « شو هس .. شو مس؟ .. نحن الدروز لا نعرف الحس.. ولا المس .. ولا نحارب الا علناً وعلى المكشوف ! . » ، واطلق نار بندقيته في الهواء ، فانطلقت وراءهـا مئات الطلقات في الهواء من الدروز ، ولمعت السماء من وهج الرصاص، واندفعت الجموع في ازقة وشوارع البلدة ، ولكن الحامية الفرنسية استيقظت ، واخذت رشاشاتها تدوي في غبشة الفجر، لتدفع عنها الهجوم .وبينما كنت اقود جوادي في سوق دوما متجهاً مع الجمع نحو الشرق لنطل على ثكنة الحامية، واذا بصوت من ورائي ، يناديني ، عرفت انــه صوت بشير البكري ، يقول لي : « دع القوم ، واتبعني ! ، فليس ثمة فائدة من الهجوم ، بعد ان استيقظت الحامية ، واستعدت للدفاع .. اتبعني لنحرق معاً منزل وديع الشيشكلي في دوما ، فهو عميل للفرنسيين يركب الدبابة مع قواتهم ليهديهم الى مواقع المجاهدين ومعاقلهم في الغوطة ! .. » ، فتذكرت ان وديع الشيشكلي من اغنياء دوما العريقــين بالجاسوسية والعمل لحساب فرنسة ، لذلك عدت مع بشير البكري ، وصادفنا تنوراً يخبز صاحبه الخبز ، ليبيعه في الصباح ، فوقفنا عليه،وحملنا من مخبزه كمية من عيدان القنب التي يستخدمها وقوداً ، مع قارورة نفط ، واتجهنــا الى دار الشيشكلي ، يهدينا اليها رجل دوماني صادفناه في السوق ، وهي غير بعيدة عن السوق ، تقع في زقاق ضيق مسدود من احــد طرفيه ، وراح البكري يضع القنب وينثر عليه النفط ، ويشعله امام باب الدار الخشبي ، بينما كنت اقف عند مدخل الزقاق احرس المكان من المفاجئات ، حتى اتم عمله ، وغادرنا المكان ، ولحقنا بقوة الثائرين التي شراذمها تقف في منافذ الازقة والشوارع المطــلة على الثكنة ، يفصل بينها وبين الثكنة سهل فسيح غير مشجر، والرشاشات المسلطة

على تلك الجهة تحول دون تقدم أحد من الثائرين ، لذلك لذنا بحائط كرم مقابل للشكنة ، ورحنا نصلي الشكنة ناراً مــن بنادقنا . وكان النهار اشرق بنوره ، واخذ الفرنسيون يتعرفون الى مواقع قوتنا ، ويوجهون نار اسلحتهم اليها مــن وراء معاقلهم وحصونهم . ولما اقتربت شرذمة من الثائرين زحفاً الى الشكنــة ، استطاعوا قتل وجرح عدد من أفرادها ؛ فانسحبت ، وسقط امامنا جريح من رفاقنا في طرف السهل ، حاولنا حمله ، فسلطت علينا نيران الرشاشات ،واخيراً جئنا بحبل القنباه للجريح ، شده تحت ابطيه ، جررناه به الى وراء الدك الذي كنا نتحصن به ، وضمدنا جراحــــه ، ولكنه قضى شهيداً . وقد ظلت قوتنا تناوش الحامية الى قرب الظهر ، دون جدوى ، فانسحبنا الى بساتين دومــــا القريبة ، نتوارى بين اشجارها من الطائرات التي وصلت في الضحى لنجـــدة الحامية ، تغدو وتروح ، وتقصف البلدة والبساتين باحثة عــــن الثائرين ، حتى اهتدت اخيراً الى مكاننا ، واخذت تقصفنا وتنقض علينا برشاشاتها ، وتذهب فارغة وتعود محملة بالقنابل تفرغها علينا ، ودام قصفها الى ما بعـــد العصر ، اذ قررنا الانسحاب ، لأن البقاء امسى لا يجدي نفعاً ،ولا سيما قوات شبلي عزالدين وزيد ابي خمري عامر ، ونجيب عامر ، ومحمود كيوان لم تأت لتشترك معنا في المعركة ، والدروز من قوتنا اخذوا يتسللون تباعاً مبتعدين عن قصف الطائرات وعن دوما ، منتشرين في القرى القريبة منها ، حتى لم يبق حولنا اكثر مـــن ثلاثين فارساً توجهنا بهم الى قرية « زملكا » . وقد علمنا بعدئذ ان حملة فرنسية كبيرة خرجت من دمشق لنجدة حامية دوما ، ولمــــا بلغت « جسر تورا » ، وشاهدته محترقاً توقفت عن المرور ، واضطرت للعودة الى المدينــة ، وسلوك الطريق التي تمر بحي الاكراد الى القابون ، فطريق دوما ، فلم تصل الى دوما الا قــرب الغروب ، اي بعد رحيلنا الى قرية « زملكا » . كانت خسارتنا في هذه الغزوة غير الموفقة ثلاثة شهداء وثلاثة جرحى . ونعتقد ان خسائر حامية دوما لا تقل عن هذا العدد رغم تحصنها في الشكنة . بتنا تلك الليلة في قرية «زملكا» ، وفي ضحى اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني دخل القرية ، ونحن فيها ، ثمانية

جنود من خيالة الصباحيين ، يدل وضعهم البنادق معلقة في ظهورهم على انهم لم يتوقعوا وجودنا في هذه القرية القريبة من دوما. ولما بلغوا منتهى القرية، فوجيء بهم الدروز الذين كانوا جالسين فيه ، وعددهم ايضاً لا يتجاوز اصابع اليد ، وهبوا الى بنادقهم ، فانكفأ الخيالة عائدين من حيث اتوا ، واطلقوا الاعنة لجيادهم ، واطلق الدروز عليهم نار بنادقهم ، وسمعنا الطلقات ، فخرجنا من المنازل نتعقب الجنود الفارين ، ورأيناهم يعدون بجيادهم بين الشجر ، وتقدمنا وراءهم خشية ان يكونوا طليعة للحملة التي سمعنا انها وصلت من دمشق الى دوما ، فوجدنا عمائم بعض الصباحيين في الارض من اصطدام رؤوسهم بالشجر ، وهم فارون من « زملكا » ، وشاهدنا على الارض آثار دم ، مما يدل على إصابة احدهم او اكثر بجروح . وقد صادفنا في الطريق فلاحاً اخبرنا انه شاهد دبابة وراءها جنود من السنغال في مكان قريب منا ، فتقدمنا حتى بلغنا المكان ، فلم نجد احداً من جنود العدو ، وقدرنا ان يكونوا مع الخيالة طليعة لجناح الحملة الفرنسية التي عادت في ذلك اليوم الى دمشق ، بعد ان انجدت حامية دوما .

قرارات تبقى حبراً على ورق !

- ٤٤ -

بلغنا في اليوم الخامس عشر من تشرين الثاني ، ونحن في قرية «حمورية» ، ان عصابة حسن الخراط ، وابناء عكاش عادت من النبك ، وانها في طريقها الينا ، فخرجنا لاستقبالها في مكان بين قريتي سقبا وحمورية . ولما وصلت ، وعدد افرادها نحو خمسين مسلحاً اكثرهم من دمشق ، استقبلناهم استقبالاً حماسياً على طريقة الدروز ، وتوجهنا جميعاً الى قرية « سقبا » ، حيث عقدنا اجتماعاً


الثائر الشيخ محمد حجاز

حضره حسن الخراط ، وسعيد عكاش واخواه أبو احمد مصطفى عكاش ، وابو دياب عكاش ، والشيخ محمد حجاز ، وحسن الزيبق ، ورفاق لهم ، بحثنا فيه أمر تنظيم حركاتنا في الغوطة ، ومنع فرض أي اتاوة أو غرامة على القرى ، ومعاقبة كل من ينهب ويسلب من الثائرين وغير الثائرين ، وتوحيد قوى الثورة في الغوطة بقيادة واحدة ، فرداً كان أو هيئة ، كي تخطط للحركات المقبلة ، ومنازلة الحملات التي تزحف الى الغوطة لمطاردتنا ، أو لتموين المخافر الفرنسية ، وتنظيم ادارة منطقتي الغوطة والمرج تنظيماً ينجيهما من الفوضى السائدة فيها ، وألا يجبى مال من سكان الغوطة إلا بقرار من القيادة ، ولشراء العتاد والذخائر وضرورات الثورة . وكان سعيد العاص يسجل تلك القرارات ، وكلما انتهينا من قرار كان احد ابناء عكاش يصيح بأعلى صوته « الفاتحة » ، فيقرأها الموجودون تيمناً ، ودلالة على اتفاق الكلمة ، حتى قرأنا عشر فواتح ، وتعاهدنا على تنفيذ القرارات ، ولكن لم تمض أيام كثيرة على هذا الاجتماع ، حتى وصل الى قرية من قرى الغوطة الدكتور خالد الخطيب احد منظمي ثورة حماة ، قادماً من جبل الدروز ، بعدما نجا من يد الفرنسيين إثر فشل ثورة حماة ، وسمع ان الخراط وعصابته في القرية ، فذهب اليه ، وبعد التحية وتقديم نفسه اليه ، سأله عن العقيد سعيد العاص ، وهو مجاهد وعسكري معروف يعمل منذ اسابيع في الغوطة ، وعن اخوانه ، فأجابه الخراط بأنه لا

يعرفه ، ولا يعرفهم ، فأبدى الدكتور الخطيب استغرابه ، وتظاهر الخراط بأنه يمعن في التفكير ، ثم قال : « اخشى ان يكون صديقك هو الذي يعمل خيطي بيطي !.. » كناية عن ان العقيد العاص يعني بالخرائط ، وكتابة المقررات ، ورسم الخطط !.. مع ان الخراط قابل في اول يوم من وصوله الى الغوطة العقيد سعيد العاص ، وتعرف عليه ، واشترك معه في وضع المقررات التي ظلت حبراً على ورق ، وكان اول من نقضها الخراط وجماعته ، ولكنه كان يريد الهزء بالتنظيم والتخطيط ، لأنه يريدها فوضى ، يعمل فيها ما يريد ، ويفرض من الأموال على القرى ، وعلى اغنياء دمشق اصحاب المزارع في الغوطة ، ما يملأ جيبه بالأصفر الرنان !

كيف شوه التاريخ ؟

- ٤٥ -

لقد تألفت في مصر ، حيث يقيم ميشيل لطف الله وأخواه من أثرياء اللبنانيين ، والأصح الشاميين ، لجنة انبثقت عن مؤتمر عربي عقد في عام ١٩٢١ ، حضرته شخصيات سورية ولبنانية وفلسطينية كالامير شكيب ارسلان ، والشيخ رشيد رضا ، واحسان الجابري ، ورياض الصلح ، وميشيل لطف الله ، وطعان العماد ، وتوفيق حماد ، وامين التميمي ، ونجيب شقير ، وتوفيق فايد ، وجورج يوسف سالم ، وشبلي الجمل ، وصلاح عز الدين ، ووهبة العيسي ، وتوفيق اليازجي ، وعلي الغاياتي وغيرهم ، اسموه : « المؤتمر السوري الفلسطيني » ، فقام هذا المؤتمر بتوجيه نداء إلى عصبة الامم عن القضية السورية ، وعن مطالب السوريين ، وترك للجنة التي انتخب ميشيل لطف الله رئيساً لها ، ونجيب شقير أميناً عاماً للسر ، أن تتابع العمل من أجل ايضاح القضية السورية للعالم . ولما نشبت الثورة في جبل الدروز أخذت هذه اللجنة تعمل لإيصال ما يحدث في

سورية إلى اسماع الجالسين على مقاعد عصبة الامم . وكانت خلال الاشهر الاولى من الثورة تصطدم نداءات اللجنة ومذكراتها وبياناتها وبرقياتها برد فرانسة على ان في سورية ثورة محلية درزية ، أسبابها الاولى ان الدروز الذين يسكنون جبل حوران متخلفون دأبهم الثورات والعدوان بالسلاح على جيرانهم . والقتل والنهب والسلب ، وثوراتهم على الدولة العثمانية معروفة ، وان فرانسة في سبيل النهوض بهؤلاء تلقى العنت ، وهي تعمل لإخماد هذه الثورة بوسائل بعيدة عن العنف والقسوة . أما سورية فراضية عن الانتداب ، وجميع مناطقها الاخرى هادئة ساكنة ، لم تتقدم أي شكوى من سكانها ، وليس فيها أي أثر للثورة ، ولم يقع فيها أي حادث يفسر بأنه عدم رضاء عن الانتداب ، فلما نشبت ثورة حماة ، وبلغ اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني نبأها ، ونبأ تأليف أول عصابة غير درزية في الغوطة على أبواب دمشق ، أخذت تركز في بياناتها ونداءاتها على تلك العصابة ورئيسها حسن الخراط ، كي تظهر للعالم ان الثورة في سورية وطنية ، وليست درزية محلية قامت من اجل تبديل حاكم فرنسي بآخر . وتكررت نداءاتها ، وورد فيها اسم الخراط في كل مرة ، ونشر في الصحف ، فبلغ الغرور مبلغه بهذا الرجل غير المثقف ، والذي كان يعمل حارساً ليلياً في أسواق دمشق ليعيش ، حتى ظن حقاً ان ما يذاع في بيانات اللجنة والصحف من عمله ، وانه عظيم ، وانتفخت أوداجه ، وبدأ يفرض بواسطة عصابته المسلحة الاتاوات على القرى والمزارع ، ويبعث برسله إلى اغنياء دمشق يفرض عليهم الأموال ، ويهددهم بحرق حوانيتهم وممتلكاتهم إن لم يدفعوا . وكان لهذا الرجل من زوجته ربيب شاب اسمه فخري الخراط ، أفاد من دخول زوج والدته مع عصابته دمشق ، فهاجم الماخور في حي الشاغور ، ونهب الاموال ، وسلب القوادات والبغايا ، ولم ينسحب مع زوج أمه الى الغوطة ، فقبض عليه الفرنسيون في دمشق ، وحوكم في المجلس العدلي الذي ألفه الفرنسيون ، وحكم عليه بالاعدام ، ونفذ الحكم فيه شنقاً في ساحة المرجة ، وورد في حيثيات الحكم وصف لجرائم النهب والقتل التي ارتكبها في الماخور . من هنا بدأت شهرة الخراط ، وكانت

اللجنة التنفيذية في مصر ، على بعدها وعدم اتصالها بما يجري في سورية ، تجهل من يخوص المعارك في الغوطة من كتائب الدروز ومجاهدي الغوطــة أنفسهم ، فاستمرت كلما أذيع بلاغ رسمي افرنسي عن وقوع معركة في الغوطـة ، او بلغ مسامعها نبأ معركة نشبت فيها ،على اسناد تلك المعركة إلىحسن الخراطوعصابته كي تظهر ان الثورة في سورية وطنية ، وليست درزيـة محلية ، ودأبت على ذلك ، حتى بعد فرار الخراط منالغوطة ، ولجوئه إلى بلدة النبك وقلمون اسابيع عديدة ، هرباً من الحملات الفرنسية التي كانت تروح وتغدو بين دمشق وقرى الغوطة . ولكنه لما سمع ان في الغوطة قوات درزية استقرت فيهـا ، واخذت تهاجم معاقل الفرنسيين في معمـل الزجاج على ابواب دمشق ، وفي دوما ، جمع عصابته ، وعاد إلى الغوطة ، وهو ينتوي أن تكون له الكلمة العليا فيها ،دون ان يكون قادراً بعصابته على خوض معركة جدية معالفرنسـيين . ولو ان ماجمعه الخراط وابناء عكاش ، وهم ثلاثة اخوة من اهالي حي الاكراد في دمشق ــ لو ان ما جمعوه من اموال انفقوه على تسليح عصابتهم ، وعلى ما ينفع الثورة ، لكان في عملهم ما يبرره ، ولكنهم كانوا ينفقون القليــل على تسليح عصابتهم ، ويكتنزون الكثير في جيوبهم ، او في منازلهم ، أو لدى أقاربهم وأهليهم في دمشق . ويكفي للدلالة على نمط هذه الفئة ذات الماضي فيالشقاوة ، انمصطفى عكاش ، احد الاخوة الثلاثة ، تطوع ، بعد الثورة ، في الجيش الفرنسي ، او ما يسمونه الحرس السيار ، وان كبير عصابة حي العمارة ومسجــد الأقصاب والعقيبة ، كان ، بعد الثورة ، أصدق صديق للقومانداں كوله قائد كوكبات الشركس الذي خاض معظم المعارك ضــد المجاهدين ، وارتكبت كتائبه من الفظائع ضد سكان القرى ما يشيب لهوله الاطفال . والضابط كوله الذي كان في عداد ضباط المصالح الخاصة ، لمع نجمــه في الثورة السورية ، وقفز بالرتب العسكرية حتى اصبح جنرالاً ، تولى بعد الثورة مناصب خطيرة في دار المندوب الفرنسي في دمشق ، واصبح رئيساً للمخابرات ، وقطب السياسة الفرنسية في سورية ، يستخدم رئيس عصابة العمارة فياغراضه ، وهذا لا يخجل من أن يتردد

على مكتبه ، واذا أبطأ في التردد عليه زاره كوله رئيس المخابرات في منزله ، او في المقهى الصيفي الذي افتتحه ، وتولى ادارته في شارع بغداد .

كان من جراء تسلط هـذا النوع من زعماء العصابات الدماشقة والدروز على القرى والفلاحين ان اخذ سكان الغوطـة ينزحون عن قراهم الى دمشق ، أو الى القرى البعيدة ، وفي مقدمة النازحين النساء والأطفال ، وان يعمد شبان كل قرية الى شراء السلاح ، وتأليف عصابة تحمي القرية من هؤلاء النهابين ، وتخوض المعارك الى جانب المجاهدين ، فما اذا زحفت حملة فرنسية الى الغوطـــة ، حتى اصبح الوافد الى الغوطة لا يجـــد في قراها بيتاً يستضيف فيه ويطعمه ، وإن وجد بيتاً خالياً من السكان لاقامته ، فهو مضطر لأن ينتمي الى احدى العصابات لتتكفل باطعامه ، كعصابة الشاغور ، وعصابة الميدان ، وعصابـــة العمارة ، وعصابة حي الأكراد وغيرها من العصابات التي كانت تنتمي بأسمائهـا الى احياء دمشق . وقد سهل مهمة رؤساء العصابات النهابين أن لاصحاب المزارع الدماشقة في الغوطة منازل جميلة مفروشة ، لبعضها حـدائق غناء ، ولهم أبقار ودواب وجرارات وأدوات زراعية ذات قيمة يخشون أن يصادرها أو ينهبها رئيس العصابة الذي يفرض عليهم الإتاوات ، يؤدونها مرغمين كي يحموا حوانيتهم من الحرق ، وأموالهم من السلب والنهب . وكان الخراط وأولاد عكاش ومن ينحو نحوهم في فرض الإتاوات على المزارع والقرى ، يضخمون كل زلة يرتكبهـــا الدروز في الغوطة ، فاذا صودرت من مقاتل درزي ملابس مسروقة من المنازل التي حل فيها ، ضخمت الجريمة ، وقيل علناً للدروز : « ارحلوا عن بلدنا .. نحن لا نريدكم ، ولا نريد جهادكم ! » ، مع ان القتال كان يقع عبئه على الدروز الذين كان يقودهم محمد عز الدين الحلبي ، باخلاص وتفان . اما رؤســاء العصابات الاخرى فيغفر لاكثرهم نهب الوف الليرات يفرضونها على الاغنياء ، ويفرون يوم الروع ، يبعدون عن ساحة القتال ، وينتحلون لابتعادهم الاعذار ، بل ينتحلون للسلب أعذاراً بأنهم ينفقون على عصاباتهم ، ويسلحونها ، ولذا يجب الا يحاسبهم عليها

أحد ، حتى الضغائن كانت تلعب دورها في العدوان على أصحاب المزارع والحوانيت ، فقد أحرق نزيه المؤيد العظم حانوت آل الكيلاني في قرية « حمورية » لضغائن بين الشهبندر وبين صاحب الحانوت ، قبيل الثورة ، وصرعت الابقار الثمينة بالرصاص ، وخرب ما في المزرعة ، وحرق كل شيء ، فكانوا في فظائع جرائمهم لا يقلون عن الفرنسيين المستعمرين

معركة الزور الثانية

- ٤٦ -

كان تقرر في الاجتماع الأول الذي عقد في قرية « سقبا » ، وحضره الخراط وأبناء عكاش الاخوة ، ورفاقهم أن يشتري المجاهدون في الغوطة مدفعاً صغيراً من مدافع المدرعات التي حطمت في معركة المزرعة ، يؤتى به من جبل الدروز مع عتاد له ، وللرشاشين اللذين مع عصابة الخراط ، ليستخدم الضابط سعيد اليماني المدفع ضد الدبابات في المعارك التي يخوضها المجاهدون ، فقد كان سلاح الدبابات اكثر الاسلحة الفرنسية تأثيراً على المجاهدين في معاقل الغوطة . وقدر المجتمعون عشرين ليرة ذهبية ثمناً للمدفع والعتاد ، تدفع لمن يملك مثل هذا المدفع من دروز الجبل ، فتقدم ابو عبده اجانا مختار قرية « سقبا » الذي عقد الاجتماع في منزله متطوعاً ، واعلن استعداد قريته للتبرع بالعشرين ليرة ذهبية لشراء هذا المدفع الذي يعتقد الجميع بضرورته للمجاهدين في معاركهم مع الفرنسيين ، وطلب امهاله بضعة ايام ليجمع المبلغ من اهل القرية الذين سيدفعونه عن طيب خاطر . وفي صباح اليوم السابع عشر من تشرين الثاني ، توجهت قوة محمد عز الدين الحلبي الى قرية « عقربا »، وانتدبني قائدها لجلب العشرين ليرة من مختار «سقبا» الذي كان حدد ذلك اليوم موعداً للانتهاء من جمعها ، ورافقني ثلاثة من فرسان الدروز، على أن نوافيه الى قرية « عقربا »، فتوجهت مع رفاقي

الى سقبا ، ولكن المختار الذي حللنا في منزله ، اعتذر بأنه لم يستطع جمع المبلغ في الموعد المقرر، وانما أتم توزيعه على الفلاحين بنسبة مايملكون من أرض القرية، وان اكثر الفلاحين توجهوا في الصباح الى دمشق للبيع والشراء كعادتهم، وطلب منا الانتظار الى الليل ، كي يحظى مساء بعودتهم ، ويجمع منهم المبلغ ، وأكد لنا ان اكثرهم توجه للمدينة لبيع كمية من محصول القنب كي يؤدي ما عليه في المساء . ثم جاءنا مختار سقبا ، وحدثنا عن طائرة فرنسية حلقت في الصباح فوق قرى الغوطة ، تكشف مواقع الثائرين ، ولكن عصابة الخراط وابناء عكاش أسقطتها بنار الرشاشين اللذين لديها ، فوجهت القيادة الفرنسية قوة لانقاذ الطيارين اللذين جرحا، ومنعت هذه القوة فلاحي الغوطة من دخول دمشق والخروج منها ، فبقي معظم فلاحي « سقبا » في دمشق ، وطلب المختار منا ان نبيت تلك الليلة ضيوفاً عليه ، حتى يستطيع في الغد جمع المبلغ ، فقبلنا عذره ، وبتنا ننتظر . وفي الليل جاءنا مضيفنا « ابو عبده اجانا » ، وأنبأنا بأن اصحاب المزارع « الحوانيت » في الغوطة من اهالي دمشق ارسلوا الى وكلائهم وفلاحيهم في المزارع ، الا يخرجوا الحيوانات ودواب الحرث والفلاحة في الصباح الى الارض ، لأن الفرنسيين سيزحفون غداً بحملة قوية الى الغوطة لقتال الثائرين ، فلم نأبه للخبر ، وحسبناه من الاشاعات التي تروج كل يوم على الالسن ، وقلنا : من أين لاصحاب المزارع ان يعرفوا مقدماً خطط القيادة الفرنسية ؟ .. ولكن في الصباح الباكر من اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩٢٥ ، جاءنا مضيفنا ينقل الينا ان الحملة الفرنسية زحفت فعلاً من دمشق في آخر الليل، وطوقت مع الفجر موقع الزور القريب من « سقبا » ، حاسبة ان موقع الزور ما زال ملجأ للعصابات المسلحة ، ولما لم تجد فيه احداً كمنت فيه ، وهي ما تزال الى هذه الساعة في موقع الزور باعتباره معقلاً وعقدة طرق عديدة تمر به ، ولايعرف احد الى اين ستتجه الحملة بعدئذ ، وأكد لنا ان الفلاحين الذين خرجوا في الصباح الباكر مع دوابهم من سقبا والقرى المجاورة الى العمل في الارض، شاهدوا الحملة ، وعادوا بدوابهم الى منازلهم هرباً من الحملة .

كانت قرية « سقبا » لا تبعد اكثر من نصف ساعة سيراً على الاقـــدام من موقع الزور حيث تعسكر حمـــلة الفرنسيين التي قد تزحف باتجاه سقبا ، لذلك قررت ورفاقي الثلاثة ان نلحق بقرية « عقربا » ، وننضم الى قوة المجاهدين فيها ، وهي تعد بضع مئات من المسلحين ، لا يمكن تحديد عددهم بالضبط ، فهم عرضة دوماً للزيادة والنقصان بنسبة الوافدين من الجبل والمنسحبين اليه . وكان من طبيعة الدروز وإلحاح ضرورات العيش عليهم في الثـــورة التي عطلت اعمالهم الزراعية ، ان المسلح ببندقية منهم كان يقصد الغوطة للقتال والتجارة ، فإذا مل المقام فيها باع بندقيته لفلاح في الغوطة بزيادة ليرتين أو ثلاث ليرات ذهبيـــة عن سعرها في الجبل ، وعاد الى قريته ليشتري بندقية غيرها ، وينفق من الربـــح . وكان هناك من الدروز جماعة تسافر الى شرقي الاردن لشراء البنـــادق بسعر أرخص وحملها الى الجبل للتجارة ، وهكذا تسير تجارة السلاح ، ويفيد الدروز منها بتنقلهم بين قراهم وبين قرى الغوطة وغيرها من المناطق الثائرة . والبنادق التي تحمل عادة من شرقي الاردن الى الجبل هي من طراز البنادق الالمانيـــة والتركية المصنوعة في بلاد الالمان ، وعتادها كان غالي الثمن لقلته . أما البنادق الفرنسية فكانت كثيرة في الجبل من غنائم الحرب ، تباع بأسعـــار أرخص ، وعتادها يباع كل عشرة أمشاط (٥٠ طلقة) بريال واحد ، بينا المشط الواحد من الطراز الالماني والعثماني كان يباع بنصف ريال واحياناً بأكثر .

قررت مع اخواني اللحاق بعقربا ، وخرج مختار سقبا معنـــا الى طرف القرية يهدينا الطريق الى أول قرية مجاورة سنواجهها في مسيرنا ، واذا بفلاح يركض من القرية ، ويخبر المختار بأن عصابة الخراط وابناء عكاش مرت الآن باطراف سقبا الى قرية «حمورية » ، فقررت مع رفاقي ان نلحق بعصابة الخراط في حمورية القريبة منا ، ونخوض معها المعركة ضد الحملة الفرنسية ، وتوجهنـــا فوراً الى حمورية ، فرحين بهذا اللقاء الذي وفر علينا كثيراً من الجهد والسير في طرق بعيدة تدور وتلف حتى لا نمر بموقع الزور الذي تحتله الحملة . ولما أقبلنا على المقهى في قرية حمورية ، وجدنا الخراط وعدداً من أفراد عصابتـــه جالسين

يشربون قهوة الصباح، ويدخنون « النراجيل »، فحييت، وترجلت مع اخواني، وقلت للخراط : « ماذا تنتظر يا ابا محمد ؟ والعدو على بعد نصف ساعة منا ، قابع في موقع الزور ؟ هلا سرت بنا الى قتاله !.. » قال : « أهذا ما ترتئيه ؟ اجلس ، وتناول فنجاناً من القهوة ، ريثما نجمع الرفاق !..» ، ثم نادى حامل البوق ، وأمره بأن ينفخ في جمع القوم ، فنفخ ، واجتمعت العصابة في ساحة القرية امام المقهى ، وكان عدد افرادها أربى على المئة مسلح بين فرسان ومشاة ، والمشاة هم الاكثرية . وركب الخراط وابناء عكاش ، وحملوا معهم رشاشاً واحداً ثقيلاً ، وسرنا والعلم يخفق أمامنا ، متجهين من أقصر طريق الى موقع « الزور » . وفي الطريق صادفنا فلاحاً قادماً من جهة الزور ، أخبرنا بأن الحملة تقدمت طلائعها نحو قرية « بالا » ، على طريق دمشق ـ حوش خرابو ، فتابعنا سيرنا الى قرية جسرين . وكان في طريق القرية شجرة تعلو قبراً لرجل صالح يسمى امثاله مزاراً ، عقدت على اغصان الشجرة قطع كثيرة من الخرق الملونة ، فاندفع بعض افراد عصابة الخراط المشاة، يتعلقون بجذوع الشجرة ، ويتمسحون بالمزار ، ويبتهلون الى الشيخ محمد ولي الله ان ينصرهم على عدوهم في المعركة القادمين على خوضها ، وجهلوا ان ساكن المزار لا يقدم ولا يؤخر ، وان النصر من عندالله . ولما دنونا من جسر الغيضة ، وهو الممر الوحيد في طريقنا الى موقع الزور المنخفض وراء الجسر مباشرة ، كان يتقدمنا ، على بعد عشرين او ثلاثين متراً المجاهد محمد الأغواني من قرية « بيت سوا » في الغوطة ، على صهوة جواده ، يحاذيه فارس آخر من رفاقه ، فما كادا يتوسطان حدبة الجسر حتى أطلق عليهما جنود الحملة النار ، ودوت الرشاشات من وراء الجسر ، وكنا على مقربة منهما، فقتل الفرس الاول، وجرح الفارس في ساقه، ولكنه تحامل على نفسه، وعاد الينا ، فاضطررنا ، وكنا بضعة عشر فارساً كطليعة تتقدم العصابة ، لان نترجل ، ونربط جيادنا بالاشجار على قارعة طريق السيارات المعبدة ، ونلجأ الى قناة صغيرة جافة الى يمين الطريق توازي الجسر ، ولا تبعد عنه أكثر من عشرات الامتار ، بينما تراجع اكثر أفراد العصابة المتخلفين ، تحت وابل الرصاص المنهمر

علينا من موقع الزور ، وأكثر المتراجعين كانوا من المشاة ، انسحبوا من المعركة لاجئين إلى القرى وراءنا ، ومنهم من فك جيادنا من الأشجار ، وامتطى صهوتها ناجياً بروحه ، وبعضهم لم توقف هزيمته كل قرى الغوطة ، فخرج منها بعيداً إلى قرى المرج ، لا يسأل عما حل برفاقه القلائل الذين تركهم امام الالوف من جند العدو .

كانت اوراق الشجر تتساقط من الرصاص ، من فوق رؤوسنا ، من مرتفع مشجر وراءنا متصل بالبساتين . وقد حاول عبثاً حاملو الرشاش نصبه على قاعدته المثلثة الى جانب الطريق عند رأس القناة التي كنا نتحصن فيها ، فتقدم رفاقي الدروز الثلاثة لمساعدتهم ، وركزوا الرشاش الذي اخذ يطلق رشات قابلها العدو بزيادة نيرانه على موقعنا ، وحمي وطيس المعركة ، والحملة بنسبة كثرة نيرانها تعد حتماً بضعة آلاف ، فيها كوكبات من المتطوعة في الحرس السيار ، أكثرهم من الشركس الذين انضم اليهم العشرات من مسلحي الشركس في قرية « مرج سلطان » من قرى منطقة المرج ، فقد القى اليهم أمر اللحاق بالحملة باكراً من احدى الطائرات .

استمرت المعركة ، ونحن ثابتون في موقعنا من القناة الصغيرة ، ساعة ونصف الساعة ، اندفع خلالها رفاقي الدروز من القناة ، نحو الجسر ، وهم يستحثون الجميع على الهجوم ، فتقدم معهم حسن الخراط ، واستطاع الاربعة أن يجتازوا الجسر زحفا الى الزور حيث يكمن جيش العدو في معاقل الزور ، ويتحصن وراءها ، فسدد العدو نيرانه الى الزاحفين بشدة ، وأصابت رصاصة منها بندقية الخراط ، وحطمت خشبها ، وجرحت أصبعه ، فاضطر الاربعة الى التراجع زحفاً ، واجتازوا الجسر عائدين إلى مواقعهم بيننا ، فهنأناهم على بسالتهم ، ولكن الدبابات وصلت في تلك اللحظة ، ورابطت على ضفة الجسر من جهة الزور ، تسدد نيران مدافعها ورشاشاتها إلى موقعنا من القناة ، بعد ان

اكتشفته ، فسقطت بعض قذائفها حولنـــا ، وأطلت رؤوس مدافع الدبابات ورشاشاتها علينا من وراء الجسر ، فأشار الخراط بالإنسحاب ، وصعـــدنا من طريق ضيقة إلى البساتين المرتفعة من ورائنـا ، وتعرضنا إلى وابل من رصاص العدو ، كنا لا نصدق ، ونحن مكشوفون ، أن ننجو منه ، دون أن يصـاب الكثيرون منا ، وكشفت الدبابات انسحابنا ، فتقدمت ، وتقدم وراءها الجنود يجتازون الجسر ، فاضطر اخواننا لأن يحملوا الرشاش دون قاعدته أو منصبه ، وينجوا بأنفسهم ، كما تمكن رفاقي الثلاثة الدروز من الوصول إلى جيـادنا التي كانت في مرابطها تجمح ، وترفع قوائمها الأمامية في الهواء من صوت المـدافع والقذائف المتفجرة والرشاشات ، وان يعتلوا صهوات جيادهم ، وينطلقوا بها في الطريق إلى جسرين ، بينما كنا نحن نتراجع بين الاشجار في طريقنـــا إلى قرية «كفر بطنا» ، وفوجئنا برصاصة أصابت كتف حسن الخراط ، وألقت به أرضاً ، وتراكضنا ننهض به ، وتتابع انسحابنا تحت وابـل من جحيم النيران ، حتى ابتعدنا عن الحملة ، وأصبحنا في منجاة من نيرانها . وقد قيل لنا بعدئذ أن بضعة من الثائرين كانوا في قرية «زبدين» ، أي في الجانب الآخر من الزور ، سمعوا أصوات احتدام المعركة ، فتقدموا لمناوشة الحملة من الخلف ، ولكنهم اضطروا للانسحاب تحت وطأة نيرانها الشديدة .

ووصلت أصوات مدفعية الدبابات إلى مسامع إخواننا المجاهـــدين في قرية « عقربا » ، فتقدم بهم محمد عز الدين الحلبي نحو الزور مارين بقرية « المليحة » ، ولكن نيران الحملة كانت شديدة حين فاجأتهم ، فاضطروا إلى التراجع نحو قرية « بلاط » حيث آووا جيـادهم . لكن العقيد سعيـــد العاص ، وخير الدين اللبابيدي ، مع ثلاثة من المجـــاهدين ، ثبتوا في مكانهم ، وخاضوا المعركة مع الجند ، وحمي وطيسهـــا ، واستحال على محمـد عز الدين ورجاله الوصول اليهم ونجدتهم ، فيئس من انقاذهم ، وتراجع بقواتـــه نحو قرية « جرمانا » حيث وافاه عدد من شبابها الدروز المسلحين ، وأشاروا عليه بأن يكمن بقواته

في مكان يشرف على الطريق العامة التي لا بد للحملة أن تسلكها في انكفائها إلى دمشق .

دامت المعركة حوالي ثلاث ساعات بين سعيد العاص واخوانه الأربعة ،وبين الحملة الفرنسية ، إلى ان نفد عتادهم ، ولم يبق غير بندقية واحدة من بنادقهم الخمس تطلق الرصاص ، وشعر جنود الحملة بضعف المقاومة أمامهم ، فركزوا الحراب في رأس البنادق ، وقاموا بهجوم مركز على موقع العاص الذي كان أطلق وحده (٣٥٠) طلقة حتى نفدت ذخيرته ، فاضطر مع اخوانه للانسحاب ، مستترين بالاشجار والمواقع ، وسقط منهم محمد فرحان شهيداً في أثناء الانسحاب ، وهو من أبطال الدروز الميامين ، فغنم الجنود بندقيته ونقوده ، وأرادوا حمل جثته ليعرضوها في دمشق ، ولكن بدء المعركة بين حملتهم وبين قوة محمد الحلبي أرغمتهم على تركها في ارض المعركة .

استمر القتال بين قوة محمد عز الدين والحملة الفرنسية في عودتها الى دمشق من ساعة قبل الغروب الى ساعة ونصف الساعة بعد الغروب ، اي ساعتين ونصف الساعة ، لم يفرق بينهما إلا الظلام . وقد استبسل الدروز في حربهم ، وثبتوا في مواقعهم ، وأصلوا الحملة المنسحبة ناراً حامية من بنادقهم ، مما جعلنا نقدر خسائر الحملة الفرنسية في ذلك اليوم ببضع مئات من القتلى والجرحى . أما خسائر المجاهدين في معارك ذلك اليوم ، فهي ثلاثة شهداء وأربعة جرحى .

مصرع متطوعة الشركس في حمورية

- ٤٨ -

وصلنا في انسحابنا مع عصابة الخراط الى قرية « حمورية » التي انطلقنا منها في الصباح أكثر من مئة مسلح ، وعدنا اليها بضعة عشر ثائراً ، انضم الينا فيها عدد من الذين انسحبوا في بدء المعركة من عصابة الخراط . وفي أول الليل ، ونحن جلوس في بيت المختار حول فراش حسن الخراط الجريح ، وافانا شاب يافع يلهث من الركض ، ليخبرنا بأن خيالة من الشراكسة مسلحين دخلوا القرية من الطريق العامة ، ووصلوا إلى الساحة التي فيها المقهى ، ووقفوا بجيادهم يسألون من في المقهى عن طريق دوما . وكان عدد من أفراد عصابة الخراط في المقهى ، وبنادقهم مسندة الى الجدران ، فبغتوا من المفاجأة ، وتيبسوا في أماكنهم ، وأسرع أحد الفلاحين يهدي خيالة الشركس المسلحين ، وعددهم تسعة ، الى الطريق التي تمر بالقرية ، وتوصلهم الى دوما ، فانطلق خيالة الشركس يجتازونها ، بينما أسرع الفلاح اليافع الينا ينبئنا بنبئهم ، فتواثبنا إلى بنادقنا ، ونحن لا نتجاوز العشرة ، واندفعنا من الغرفة ، والخراط يقول لنا : « لا تتركوني يا أولادي جريحاً بين أيدي العسكر ! » ، فقلنا له : « لعينيك يا أبا محمد ! » ، وتراكض الرفاق نحو ساحة البلدة والمقهى ، وأدركت بالهامي الا نفع من الوصول الى الساحة ما دام الخيالة الجراكسة غادروها في طريقهم من قلب القرية إلى طريق دوما ، فقبضت على ذراع الشاب اليافع ، وجذبته ليهديني إلى طريق مختصرة توصل إلى آخر القرية من جهة طريق دوما ، فهرول أمامي ، وتبعته حتى أشرفنا على مكان مقابل لحانوت آل الكيلاني في آخر القرية ، يشرف على طريق دوما ، ووجدت أمامي دكاً تحصنت وراءه ، ولبثت اترقب ، وإذا بأول فارس من الشراكسة يظهر في الشارع ووراءه فارس ثان ، سددت اليه

نار بندقيتي ، وأطلقتها ، فانكفأ مع رفيقه ، ومن وراءهما من الخيالة مذعورين إلى داخل القرية ، حاسبين انهم وقعوا في كمين للثائرين متربص بهم في آخر القرية . وعلى صوت الطلقات من بندقيتي أطلق أفراد عصابة الخراط نار بنادقهم وراء الخيالة من أزقة القرية والساحة التي فيها المقهى ، فوقع الشراكسة بين نارين ، وأخذوا تحت وابل الرصاص يتساقطون مع جيادهم ، وينادون مستسلمين . ووصل في تلك اللحظة الفرسان الدروز الثلاثة رفاقي قادمين من طريق دوما حيث كانوا في قرية مجاورة لجأوا اليها بعد انسحابنا من المعركة ، ولما سمعوا أن الخراط جريح في حمورية قدروا انني معه ، فجاءوا الى القرية ليلاً ، وصادف وصولهم اليها صدامنا مع المتطوعة الشراكسة ، فأطلقوا رصاص بنادقهم ، واندفعوا بجيادهم مارين من أمامي هازجين ، ولما وجدوا الرصاص يلعلع ، وقد سقط من الشراكسة قتلى وجرحى ، أجهزوا على من وصل لايديهم منهم ، فكانوا اربعة قتلى وأسيراً واحداً انقذه أفراد عصابة الخراط من القتل بأيدي الدروز ، وقد فر أربعة من الخيالة ، بعد أن قتلت جيادهم ، تسللوا من شق في جدار أحد البساتين قبيل حانوت آل الكيلاني ، فقد عثرنا بعدئذ على أغطية رؤوسهم « قلبق » ملقاة في البستان التي فروا منها في طريقهم الى دوما حيث لجأوا فيها إلى الحامية الفرنسية . عدنا الى منزل المختار ، ومعنا الاسير ، وكان أحد الثائرين احتز رأس أحد القتلى ، والقاه في الغرفة أمام الفراش ، الذي يضطجع فيه الخراط هاتفاً : « لعينيك يا أبا محمد ! » ، فلم أقر هذا التمثيل بالموتى ، رغماً من المبررات التي أدلوا بها ، وقولهم ان الفرنسيين ، وهم جيش نظامي ، يجهزون على كل جريح من الثائرين ، ويحرقون جثته بالنار ، فلم يسلم جريح وقع بأيديهم من المجاهدين ؛ هذا عدا تقتيلهم السكان العزل الآمنين !

بدأنا التحقيق مع المتطوع الأسير وكان: في مقتبل العمر ، زعم ان لا علاقة له ولرفاقه بالحملة الفرنسية ، وانهم شراكسة مسلحون للدفاع عن انفسهم فحسب ، وانهم كانوا في طريقهم الى دمشق من قريتهم « مرج سلطان » ، إلا انهم وقعوا

تحت نيران الدروز الذين كانوا ينازلون الحملة على الطريق العامـــة في اراضي « جرمانا » ، فاضطروا الى ان يغيروا طريقهم ، ويسلكوا طريق حموريــة إلى دوما لقضاء ليلتهم فيها ، ثم استئنـــاف السير في الصباح الى دمشق . وكانت حقائب الخيالة « خراجهم » في الغرفة ، ففتشت ، وإذا في حقيبة الاسير علم فرنسي ، فسألناه ما معنى هذا ؟ فارتبك ، وزعم أولاً انه علم للتلويـــح به للطائرات الفرنسية حتى لا تحسبهم ثائرين بملابسهم المدنية ، وتقصفهم اوتحصدهم برشاشها ، ثم اعترف بأنهم متطوعة سلحتهم فرنسا ، وانهم كانوا في قريتهم صباح اليوم الباكر ، حيث حلقت في السماء طائرة فرنسية ، والقت اليهم بأمــــر عسكري كي يلحقوا بالحملة الافرنسية المعسكرة في موقع « الزور » ، فتوجـه المتطوعون المسلحون وانضموا الى الحملة ، يحملون العلم الفرنسي ، وقاتلوا معها ، ولكنهم بملابسهم المدنية ، ساروا في مؤخرة الحملة اثناء عودتها الى دمشق ، وشدد الثائرون في أراضي « جرمانا » برصاصهم في المساء على الحملة ، وأدركهم الليل ، حتى لم يستطيعوا الاستمرار في طريقهم ، فانفصلوا عن الحملة تسعة خيـــالة ، وانكفأوا راجعين ، يسلكون الطرق الى القرى ، محاولين لنجاتهم الوصول الى دوما ، ما داموا لم يستطيعوا الوصول الى دمشق . وفي حمورية حدث لهم مـا حدث .

ما كدنا ننتهي من التحقيق مع الأسير حتى وافانا الى حموريـــة فريق من عصابة الخراط المبعثرة في القرى بسبب معركة النهـار ، قبضوا في الطريق على جاسوسين للفرنسيين ، وجدوا معهما أوراقاً ورسائل تثبت أنهما يعملان لحساب مصلحة الاستخبارات الفرنسية التي اوفدتهما اليوم بمهمـــة إلى الغوطة ، فوقعا مصادفة بيد عصابة الخراط ، فبدأنا من جديد التحقيق معهما ، واعترفا بجريمتهما ، وقررنا ، بعد انتهاء التحقيق ، اعدام الأسير الجركسي والجاسوسين شنقـاً على ابواب دمشق ، امام معمل الزجاج الذي فيه حامية الفرنسيين ، وكتبنا قرار الحكم بخط كبير عن جريمة كل منهم على حدة ، وأرسلناهم ، قبل فجر العشرين

من تشرين الثاني ، مع عدد من افراد عصابة الخراط ، حيث شنقوا تعليقاً على الأشجار مقابل المعمل ، فأصبح الجند من الحامية ليجدوا ثلاثة يتأرجحون امام ثكنتهم ، قتلوا ليكونوا عبرة لكل جاسوس وعميل لدولتهم المستعمرة .

في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني أعاد لي احد افراد عصابة الخراط جوادي الذي امتطاه ، وفر به ، دون علمي ، منذ بدء المعركة ، مصاباً في مطوى فخذه ، وقرب بطنه برصاصة ، أخذ بعدها القيح يسيل من جرحه ، حتى اصبح غير صالح للركوب ، فسلمته بمعرفة محمد عزالدين الحلبي ، الى صاحب مزرعة من آل القوتلي ، حللنا في القرية التي فيها المزرعة ، على ان يعطيني فرساً عوداً من عنده اركبها ، وهو بدوره يقود الجواد ليداويه في دمشق ، فشكرته ، ولم أعد لأراه مرة ثانية ، وقيل لي ، بعدئذ ، ان الحصان نفق ، وان السيد القوتلي سأل عني ليسترد فرسه ، ولم يجدني في الغوطة ، وقيل لي ان الحصان شفي واعتبر العملية مبادلة ، فالحصان مهر أصيل ، وفرسه عود اصبحت في اواخر سني حياتها ، على انني لا انكر انها فرس اصيل كريم ، اعانتني كثيراً في الثورة ، على ضعفها ، وشقيت بي ، حتى سلبها الافرنسيون مني في حادث سآتي على ذكره فيما بعد . ولعل القارىء يتساءل : لماذا لم أوصل الجواد الى العقيد فؤاد سليم في وادي التيم ، وابادله به على الجواد الذي يركبه ، كما أوصى سلطان الاطرش قائد الثورة ، وسلمني في السويداء كتاباً بخطه وتوقيعه بهذا المعنى ، فأقول ان الذين رافقتهم من جبل الدروز كانوا في طريقهم إلى الغوطة فقط ، وليس بالمستطاع ان اغادر الغوطة وحدي إلى جنوب لبنان ، بل كان علي ان انتظر ركباً من المجاهدين الى تلك المنطقة ارافقه . وخلال الانتظار خضت معركة الزور الثانية مع عصابة الخراط ، واصيب جوادي فيها ، وارسلته الى دمشق للتداوي ، ثم بلغني بعد ايام قليلة سقوط العقيد فؤاد سليم شهيداً في احدى المعارك التي نشبت في سفوح جبل الشيخ ، فكان حزن المجاهدين عليه شديداً لانه كان دعامة من دعائم الثورة بمواهبه وشجاعته وذكائه المتوقد ، رحمه الله ، وجعل الجنة مثواه .

مرت بعد معركة الزور الثانية فترة سكون على الغوطة ، لعل سببها المعركة نفسها ، فقد اخذ الفرنسيون بعدها يزيدون من عدد كوكبات الشركس ، وكان فلاحو الغوطة يسمعون من أفواه متطوعة الشركس في دمشق التهديد تلو التهديد ، والوعيد لاهالي حمورية ، فقد عدوهم مسؤولين عن مصرع الخمسة من ابناء جلدتهم في قرية حمورية ، وايقن الفرنسيون بعد المعركة ان القوات الثائرة في الغوطة لم تعد عصابة واحدة يستطيعون ان يطوقوها في ساعة ، ويقضوا عليها ، او يحملوها على الهزيمة من كل المنطقة تبحث عن ملجأ لها في قامون أو جبل الدروز ، وانما اصبح في الغوطة قوات كبيرة من محاربي الدروز الشجعان ، تدعمها عصابات من اهل دمشق ، وعصابات من فلاحي الغوطة ، ولا بد للتغلب عليها من زيادة كوكبات المتطوعة من شركس وعرب اسماعيليين وعلويين ، واكراد وارمن ، لان العصابات من الصعب قتالها بجيوش نظامية بطيئة الحركة ثقيلتها ، وانما تقاتل بقوات غير نظامية خفيفة مثلها ، اقرب في تشكيلها الى العصابات من الجيوش . لقد غيرت المعارك التي نشبت في الغوطة ووادي التيم واقليم البلان الاسلوب الفرنسي في قتال الثائرين ، فأخذت القيادة الفرنسية تزيد من عدد المتطوعة والحرس السيار ، حتى اصبح لديها من الشراكسة وحدهم ثماني كوكبات تعد نحو الفين او اكثر من الجنود ، هذا عدا ما في الجيش الفرنسي من قوات الحرس السيار ، جيء بأكثرها لقتال العصابات الثائرة حول دمشق .
واهم ما وقع في الايام التي اعقبت معركة الزور الثانية ان العصابات قامت ثلاث مرات بمناوشة حامية معمل الزجاج في ليال متفرقة ، وارسل محمد عزالدين الحلبي الضابط خيرالدين اللبابيدي ، في ليل ٢٤ ـ ٢٥ تشرين الثاني ، مع شرذمة من الدروز قامت بتخريب جسر صغير قرب دمشق على خط حوران الحديدي ، وقطعت اسلاك البرق والهاتف هناك وعادت . والقت طائرة فرنسية قنابلها علينا في قرية العدلية فجرحت اثنين من قوتنا ، وقتلت ثلاثة جياد . وقامت عصابة الخراط في ليل الثامن والعشرين من تشرين الثاني بمهاجمة مخفر للشرطة في دمشق ، متسللة من البساتين الى بوابة الله والشاغور ، وغنمت خمس بنادق

من المخفر ، والقت طائرة في صباح التاسع والعشرين من تشرين الثاني قنابلها علينا في قرية عقربا فاستشهد مجاهد واحد وقتل فرس ايضاً . ووصل في اصيل هذا اليوم من دمشق عبد القادر سكر ، وهو في العقد السادس من عمره ، من وجهاء الميدان ، ملتحقاً بالثورة ، ووصل ايضاً صبري العسلي ، وفائق العسلي ، ونسيب شهاب ، وخليل الحموي ، وياسين الخاني من شباب دمشق المثقف والاسر المعروفة ، وكلهم من خريجي الجامعة السورية ، اجتمعنا بهم في قرية « بيت سحم » ، وقالوا انهم التحقوا بالثورة ليضعوا كفاءاتهم العلمية في تنظيم الثورة الى جانب اشتراكهم في القتال لتحرير وطنهم من الاستعمار .



المجاهد عبد القادر سكر رئيس اول عصابة لحي الميدان في دمشق

الاستيلاء على مخفر باب المصلى

- ٤٩ -

دعاني محمد عزالدين الحلبي ، في ليل التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني ، ونحن في قرية في بيت سحم ، وارفقني بخمسين مسلحاً من دروز الجبل ودروز قرية جرمانا في الغوطة ، وعهد إلي بالاستيلاء على مخفر الشرطة في باب المصلى من حي الميدان التحتاني ، بعد ان بلغه ان حسن الخراط يفخر دوماً أمام فلاحي الغوطة بان عصابته دخلت مدينة دمشق اكثر من مرة ، واستولت على مخفر

الشاغور ، وغنمت خمس بنادق من مرتب شرطة المخفر ، فتوجهت بمن معي الى دمشق ، ولما تجاوزنا منتصف الطريق الى المخفر ، وكانت الليلة مقمرة ، اخذنا نسير في طريق تقوم على جانبيها البساتين ذات الجدران ، لذلك نظمت اخواني صفاً واحداً متتابعاً ، وطلبت منهم ان يسيروا في ظل الجدار من جانب الطريق الايسر ، حتى يخفى سيرنا على من قد يقابلنا من جهة المدينة ، وتقدمنا نحـــو « برية المسلخ » ، المكان الذي اتخذته بلدية دمشق لذبح الاغنام وتموين المدينة باللحوم، وفجأة انطلقت رصاصة من بندقية احد الرفاق معي ، فأوقفت سيرهم، وسألت عمن أطلق الرصاصة ، فاعترف أحدهم فوراً بانه نسي تأمين بندقيته ، فاصطدمت اصبعه بالزناد اثناء السير ، فثارت بندقيته المعلقة بكتفه دون اختيار منه . ولما كنا ما نزال بعيدين عن المخفر ، وقنعت بان المجاهد صادق في قوله ، طلبت من الرفاق كلهم ان يؤمنوا بنادقهم بقفلها حتى لا يتكرر الحادث، وقد لاحظت على الوجوه التشاؤم من هذا الحادث ، لان الرصاصة التي ايقظت حامية المسيفرة ، وكبدت الدروز مئات القتلى والجرحى في تلك المعركة ما زالت ماثلة في أذهان الجميع . تابعنا سيرنا في ظل الجدار ، تحاشياً لضوء القمر أن يكشف جمعنا، وما كدنا نتقدم مئات الامتار،حتى أخذت طلقات رصاص تثور من البساتين التي أمامنا ، ولكنها بعيدة عنا ، كأنها اشارات بين اناس مسلحين موزعين في البساتين . وكان القائد الحلبي نبهني إلى أن لديه معلومات عن عميل فرنسي في حي الميدان الف عصابة مسلحة لخدمة الفرنسيين ، وطلب مني الحذر ، وألا أباغت فيما إذا صادفت هـــذه العصابة في طريقي الى حي الميدان ، فلم أتوقف عن السير ، وتابعت طريقي ، وأنا أسير في الطليعة على أتم الحذر ، وبعد شوط من السير برز مـــن تقاطع الطريق التي نسلكها ، وعلى بعـــد خطوات منا ، أربعة فرسان مسلحون بالبنادق ، ولكن بنادقهم كانت مستقرة امامهم ، مما يدل على اطمئنانهم ، فأشرت الى الرفاق بالتقدم ، والقبض عليهم دون اطلاق رصاص ، واندفعنا بغتة نحوهم ، وكنا لا نبين في ظل الجدار المعتم ، ونسير كأننا رجل واحد ، يتبع الواحد منـــا الآخر ، فما شعروا إلا

وبنادقهم وأعنة جيادهم تمسك بها أيد قوية ، وتحيط بهم جمهرة من المسلحين ، كأنهم كانوا لهم في كمين . وسألتهم عن هوياتهم ، وماذا يعملون في هذا المكان ، والى أين كانوا قاصدين ؟ ، فقال احدهم ، وقد تبين اننا ثائرون ، وان جمهرتنا من أبناء معروف : « اننا جماعة عبد القادر سكر من حي الميدان ، سبقنا الى الثورة أمس ، وكنا نحن الليلة على موعد مع بعضنا للحاق به ، والالتحاق بالثورة ، والعمل بقيادته ، وخرجنا من الحي متفرقين ، واجتمعنا على موعد قرب هذا المكان ! . » ، قلت : « وهل طلقات الرصاص منكم ؟ » قالوا : « نعم .. خرجنا من أماكن مختلفة في الحي ، لنجتمع على موعد قرب هذا المكان ، ولكن أضاع بعضنا الآخر ، فأطلقنا بعض الطلقات لنهتدي بها الى بعضنا بعضاً .. » ، وفي تدقيق هوياتهم قال احدهم انه من آل المطيط ، وهي عائلة معروفة في الميدان فتقدم شقيقي محمد عزالدين الحلبي الذي كان في عداد عصابتنا ، وقال : « انا اعرف هذا الرجل ، وهو حقاً من آل المطيط في حي الميدان . » ، قلت : « لا بأس عليكم ان كنتم خارجين للثورة ، ومن جماعة عبد القادر سكر ، فهو معنا في قرية قريبة من هذا المكان ، فاسمحوا لي ببنادقكم ، حتى أرفق معكم من يهديكم إلى صاحبكم في القرية » قالوا : « نحن لا نسلم سلاحنا ، ونجد في تسليمه عاراً علينا ، ونكون شاكرين اذا ارفقتنا بمن يوصلنا الى عبد القادر سكر رئيسنا ! .. » ، فأقررتهم على اعتراضهم ، وفرزت عشرة مسلحين من جماعتي على رأسهم عريف ، أوصيته بان يرافقهم ، ويعاملهم كإخوان سلاح ، ويوصلهم الى القائد محمد عزالدين وضيفه عبد القادر سكر ، وتابعت السير مع سائر الفصيل نحو دمشق ، على نفس النمط السابق ، ولم نكد نتقدم نصف كيلو متر ، حتى عثرنا على جثة رجل غارقة بالدم ، اعترضت سبيلنا على قارعة الطريق ، والجثة لرجل حسن الهندام يلبس زياً شعبياً من الجوخ ، مكتمل الرجولة ، فالتف الرفاق حول الجثة ، وتبينوا ، من الدم الذي لما يتجمد ، انه فارق الحياة منذ قليل من الوقت ، فأوعزت بالسير ، ولكن الكثرة ظلت متجمعة حول الجثة تتأملها ، وتتهامس بينها ، فقلت : « ما شأن اخواني

الدروز ؟ ألم يروا قبل الليلة جثة قتيل ؟ .. اننا اصبحنا على مقربة من المخفر ، فلا تضيعوا علينا الوقت ! » ، ولكن شقيق محمد عزالدين الحلبي ، واظن ان اسمه عبد الغفار ، تقدم من بينهم نحوي ، وقال : « ليس بين الدروز اخوانك من لم ير جثة قتيل ! .. ولكننا نحن الدروز والله نتفاءل ! .. ـ كناية إلى انهم يتفاءلون ويتشاءمون من الظواهر ـ ، ثم قال : «في المرة الاولى انطلقت رصاصة خطأ من بندقية أحد اخواننا .. وهذا اول فأل .. ثم انطلقت عدة رصاصات في البساتين من اخواننا الشوام ـ اي الشاميين ـ الذين صادفناهم قبل دقائق .. ونحن لسنا بعيدين عن المخفر الذي نجاحنا في الاستيلاء عليه يتوقف على عامل المفاجأة .. وهذا ثاني فأل .. والقتيل الذي جثته أمامنا لا نعرف من قتله ، وقد تكون قتلته العصابة التي قيل لنا أن الفرنسيين الفوها في حي الميدان ضد الثورة .. وهذا ثالث فأل .. اقول هذا باسم اخواني الدروز الذين هم معك ، وتعرفهم انهم ليسوا جبناء يوم الروع ، وهم يقترحون أن نؤجل مهاجمة مخفر الشرطة الى ليلة الغد ، حتى لا نصاب بأحد ، بعد كل هذه الفالات ، والغريب فيها انها طابقت ثلاثة فالات .. ! .. ولك الكلمة أولاً واخيراً فأنت القائد علينا .. » ، قلت : « انني اولاً لا اعتقد بالفأل ، ولا اتشاءم بالظواهر .. ثم اننا اصبحنا قاب قوسين أو أدنى من هدفنا .. فماذا نقول لأخيك محمد عزالدين القائد إذا عدنا اليه دون ان نقوم بالمهمة التي انتدبنا اليها .. ؟ انقول له : اننا والله تشاءمنا من مشهد قتيل على قارعة الطريق ، فعدنا من برية المسلخ ؟ ان طلقات الرصاص التي ثارت كانت بعيدة .. وهب انها نبهت رجال المخفر ، اليس بأيدينا سلاح؟لماذا لا نجرب مهاجمة المخفر ،فإذا استعصى علينا عدنا بعد أن نكون قمنا بالواجب .. انا لا اعترض على من يتفاءل منكم .. واسمح له بأن يتخلف هنا .. وانا سائر الى اداء المهمة فمن أراد منكم أن يرافقني فليأت معي .. ومن شاء فليبق في مكانه منتظراً عودتنا ! » ، وسرت فتبعني أبناء جرمانا كلهم ، وعبد الغفار عزالدين ومعه قليل من أبناء جبل الدروز ، وتخلف في المكان حوالي النصف من رفاقي .

فاكتفيت بمن سار معي ، لأنني أعرف أن مرتب مخفر الشرطة لا يحتاج الى عدد كبير في الهجوم عليه ،والمرتب عادة لايزيدعن سبعة على رأسهم ضابط ،او مفوض شرطة كما يسمى في ذلك الحين . حاولت ، بعد السير ، ان اشحذ من معنويات رفاقي ، فتقدمتهم ، وتجاوزتهم اكثر من خمسين متراً ، وقمت بمهمة الطليعة لهم. ولما نفذت الى الشارع العام قبلهم ، وجدت على الناصية حارساً ليلياً يجلس على كرسي صغير من القش ، وبيده عصا ، وكنت اخفي بندقيتي الفرنسية القصيرة التي استبدلتها ببندقيتي الطويلة ،ودفعت فرق ثمنها – كنت اخفيها وراء ظهري بلباسي العسكري ، وانا اسير بخطى جريئة متزنة ، لا تبين انني ثائر يخشى خطره ، حتى الحارس خدع بي وظنني جندياً او ضابطاً حكومياً . ولما رأيت الحارس لا يحمل سلاحاً حربياً تجاوزته الى الشارع العام الذي يمر به خط الترام الى الميدان الفوقاني ، وانحرفت الى اليسار باتجاه المخفر الذي وصف لي الرفاق من ابناء جرمانا مكانـه ، وحددوه لي ، واخترت ان اسير بنفس الخطوات القوية المتزنة في منتصف الشارع ، كأنني عابر سبيل ، او قادم بمهمة الى المخفر ، لعلي اصل اليه ، قبل ان ينتبه احد الى رفاقي القادمين من الطريق الجانبي ، ففوجئت برجال شرطة المخفر جالسين مع مفوضهم على الكراسي في الرصيف المقابـل للمخفر ، يلبسون فراء من جلود الخراف فوق لباسهم الرسمي ، اتقاء لبرد الليل ، وبايديهم بنادقهم تستند كعابها الى ارض الرصيف ، فسرت بخطواتي الثابتـة نحوهم ، لا يريبهم شكلي ، لا سيما وانا وحيد اظهر كأنني غير مسلح ، وظلوا ينظرون اليّ ، ولكن ظهور رفاقي في الطريق العـام ، وتجمعهم على الحارس الليلي ، يسلبونه مسدسه الضخم ، وعصاه وملابسه ، نبه رجـال الشرطة الى انهم امام عصابة من الثائرين ، فنفروا من مقاعدهم يركضون على الرصيف في اتجاه الميدان الوسطاني ، فاضطررت لان اطلق النار عليهم ، حتى لا اترك لهـم مجالاً للمقاومة او اصابة احد من رفاقي الذين شغلوا لحظات بالحارس ،ثم اندفعوا في الشارع العام يطلقون رصاص بنادقهم في الهواء ، فأطلق رجـال الشرطة طلقات قليلة من بنادقهم ، ثم اختفوا في الازقة الى الجانب الايمن من الشارع ،

بعد ان ترك بعضهم فراءه على الكراسي ، فذهبت غنيمة للثائرين . وكنت ، عند البدء باطلاق الرصاص، شاهدت سلك الترام المكهرب قد انقطع من رصاص جماعتي ، وسقط بقوة الى الارض ، فلذت بناصية زقاق ضيق ، أتميز منها بناء المخفر من بين المنازل والحوانيت القائمة على يسار الطريق ، ووصل الى جانبي ، في تلك اللحظة احد شباب جرمانا ، وهداني الى المخفر القريب ، وهو في الطابق الاول ، فوق الحوانيت ، يصعد اليه بسلم . وكان مضاءً بالكهرباء ، فأطلقت رصاصة على نوافذه، واطلق مثلها صاحبي ايضاً، فلم نشعر بأي مقاومة من المخفر، وادركت ان جنوده كلهم كانوا جلوساً في الشارع ، حيطة ، بعد سماع الطلقات المتقطعة الصادرة من البساتين القريبة ، وانهم نجوا بانفسهم ، قبل ان يؤخذوا على غرة . وكنت اسمع بعض طلقات بنادقهم تصدر عميقاً من بعيد ، فأوعزت بالهجوم على المخفر ، وتقدمت الهجوم ، فلما بلغنا الباب اندفع الرفاق كلهم يصعدون السلم ، وهم يحدون ويهزجون ، حتى لم يبق غيري وغير صاحبي ، فأمسكت بذراعه ، وحلت دون صعوده وقلت له : « ابق معي في الشارع باتجاه مخفر الشيخ حسن القريب ، وأمرته ان يطلق النار على كل قادم من تلك الجهة ، وركعت الى جانب ركيزة حانوت لنحمي اخواننا من المفاجآت ! » ، واقفته وراء ركيزة حانوت متجهاً الى الميدان الفوقاني ارقب الطريق ، ومنافذ الازقة القريبة حتى لا نباغت بشرطة المخفر المنهزمين ، أو بغيرهم ، وإن كنت اعرف انهم راضون بالسلامة ، وان هزيمتهم لا رجعة لها. بعد بضع دقائق هبط الرفاق يهزجون، يحملون كل ما عثروا عليه في المخفر من أثاث يمكن حمله، حتى آلة الهاتف جاؤوا بها مع الفرش وأغطية أسرة الجنود ، فغادرنا المخفر ، وعدنا بنفس الطريق ، ولما انعطفنا في طريق برية المسلخ ، سمعنا طلقات رصاص عميقة صادرة من ناحية مخفر الشيخ حسن ، فقدرنا ان شرطة المخفر يطلقون الرصاص خوفاً من ان يهاجموا ، بعد ان سمعوا الطلقات الكثيرة التي اطلقناها على المخفر المجاور لمخفرهم . بعد قليل تقدم نحوي شاب من جرمانا ، وقال : « انني وجدت هذا المسدس على المنصة

داخل المخفر ، وبجانب آلة الهاتف ، وأنا أقدمه هدية اليك ! .. » ، قلت : « شكراً لك .. انك احق مني ، لانك كسبته حلالاً في اشتراكك معنا ، ودخولك المخفر .. فابقه لك .. انه سلاح تحتاج اليه في جهادك . » ، وقدرت بعد هذا الحديث ان شرطياً كان في المخفر ، الى جانب آلة الهاتف ، تخلى عن مسدسه ذعراً .. ووجد لنفسه مخبأ او سبيلاً للفرار من السطح الى المنازل المجاورة ، اذ ليس من المعقول ان يتخلى شرطي عن مسدسه ، ويجلس على قارعة الطريق ، عند منتصف الليل ، خاصة في ايام الثورة . وصحت نبوءتي ، فقد نشرت جريدة « الف باء » الدمشقية لصاحبها يوسف العيسى ، وصفاً لمهاجمة مخفر باب المصلى في تلك الليلة ، قالت فيه ان شرطياً من مرتب المخفر كان داخله لما اجتاحه الثائرون ، ففر الى السطح ، وربط نفسه من تحت ابطيه بحبل للغسيل وجده على السطح ، بعد ان خلع ملابسه الرسمية ، حتى لا يعرفه الثائرون اذا ما وقع بأيديهم ، وبقي بالثياب الداخلية ، وتدلى الى خلف المخفر يريد الفرار من البستان الخلفي ، ولكنه اصطدم بان الحبل قصير ، والمسافة التي تفصله عن الارض كبيرة ، فخشي ان تتكسر عظامه اذا قفز من هذا العلو الشاهق ، وظل ساعات معلقاً من تحت ابطيه يتدلى على الجدار ، حتى سمع اخيراً احد المارة صوته ، واخبر رفاقه ، فخرجوا ، وانقذوه من كربته ! ..

عدنا في الساعات الاولى من صباح اليوم الثلاثين من شهر تشرين الثاني ١٩٢٥ الى بيت سحم ، بعد ان انضم الينا رفاقنا المنتظرون عند جثة القتيل ، واطلعت القائد على ما تم ، فشكرني . وهذا ما نشرته جريدة « الف باء » عن الحادث بالنص الحرفي :

« انتقل جماعة الثوار الذين هاجموا اول امس معمل القزاز (الزجاج) في الشاغور ، كما ذكرنا في عدد امس ، الى محلة الميدان ، فدخلوها في الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، وتقدر قواتهم بمائتي رجل ، فهجموا على المخفر الموجود في

باب المصلى ، واطلقوا نيران بنادقهم عليه ، فثقبوا جدرانه من محلات عديدة . وحدث ان احد رجال الشرطة كان على سطح المخفر ، فلما سمع صوت الرصاص خاف خوفاً شديداً ، فألقى بردائه وقلبقه في سطل ماء هناك ، ودلى حبلاً كان معه الى البستان الذي بجانب المخفر ، وتدلى عليه ، ولكنه لم يصل إلى طرف الحبل حتى رأى ان مسافة بعيدة تفصله عن الارض ، واذ لم يتمكن من الصعود ثانية لأنه بلا سلاح ، قضى معلقاً في الفضاء . اما باقي رجال الشرطة ، فلم يكونوا اذ ذاك في المخفر ، فلما علم الثوار بعدم وجود الشرطة ، هجموا عليه ، واخذوا جميع ما وجدوه من الاسلحة والامتعة التي وقعت بأيديهم ، ثم أطلقوا بعض طلقات نارية في الفضاء، وقفلوا نحو الساعة الثانية والنصف راجعين من حيث أتوا . ولا تسل عن الرعب الذي استولى على قلب الاهالي في تلك الاثناء ، إذ قضوا تلك الليلة ، ولم يغمض لهم جفن . ولما خرجوا صباحاً ، ذهبوا الى حيث كان الثوار في الامس، فرأوا الارض مفروشة تقريباً بالخرطوش الفارغ الذي كانوا يطلقونه في الفضاء . » ، وهكذا قدر رجال الشرطة عددنا بمئتي مسلح ، في حين ان عددنا لا يزيد عن العشرين !

فرنسة تسعى لعقد هدنة

٥٠

القت الطائرات في اليوم الثلاثين من الشهر قنابلها علينا في قرية « يلدا » من قرى الغوطة ، فقتلت سائق مركبة نقل من الاهلين ، ودابتي المركبة، وجرحت مساعد السائق ، وقتلت اثنين من المجاهدين الدروز . وفي اليوم نفسه هاجمت عصابة الخراط نهاراً مخافر الشرطة في حي الميدان ، وقتلت اربعة من رجال الشرطة ، واعتقلت خمسة منهم . وفي الليل توجهت قوتنا بقيادة محمد عز الدين

الى جسر للخط الحديدي بجوار قرية « سبينه وسبينات » على طريق دمشق ـ حوران ، جنوبي دمشق ، واسمه « جسر الباردة » ، وخربناه ، واقتلعنا ما يقدر طوله بثلاثمئة متر من الخط الحديدي ، وعدنا الى قرية يلدا ، فألقت طائرة قنابلها علينا في اليوم الاول من شهر كانون الاول ١٩٢٥ . وفي الليل أرسلنا شرذمة من قوتنا الى مخفر « بوابة الله » ، في حي الميدان ، فوجدته خالياً خاوياً . لذلك عادت ، بعد ان أطلقت نيران بنادقها على ثكنة القدم لإزعاج حاميتها .



وفي اليوم الثاني من كانون الاول عاد زكي الدروبي ونزيه المؤيد العظم من وادي التيم اثر معركة راشيا . وفي اليوم الثالث من الشهر ألقت طائرة قنابلها علينا في قرية « بيت سحم » ، فأصابها رصاصنا ، وتعطلت ، وسقطت قرب قرية القدم . وقبيل ظهر هذا اليوم استشهد العقيد فؤاد سليم قلب الثورة النابض ، وضابطها المثقف الشجاع ، في موقع « التل الاسود » ، قرب قرية « السحيتة » من أعمال مجدل شمس في

المجاهد عبد الحليم الدركزنلي

اقليم البلان ـ استشهد برمى مدفع اطلقه العدو ، اثناء معركة نشبت هناك ، فكان لاستشهاده دوي في كل مناطق الثورة ، لما كان للبطل الشهيد من حب وتقدير في القلوب .

وقد علمنا من محمد عزالدين الحلبي قائدنا أن الاميرطاهر الجزائري من وجهاء دمشق ، وعميد أسرة الامير عبد القادر الجزائري ارسل اليه يطلب منه ان يقابله على انفراد في قرية « حوش بلاس » جنوبي دمشق ، وانه موفد من قبل

الفرنسيين للمفاوضة مع قيادة الثورة في الغوطة على عقد اتفاق للهدنة بين الفريقين ، بمناسبة وصول « مسيو دي جوفنيل » المفوض السامي الجديد الى بيروت ، يحمل حلولاً للقضية السورية تحتاج الى مفاوضة بينه وبين زعماء البلاد. وقد توجه محمد عزالدين في الوقت المحدد إلى القرية ، ولكنه لم يجد الامير طاهر الجزائري فيها،وكان غادرها إلى دمشق، لان السلطة الفرنسية استدعته، في آخر لحظة من القرية ، وطلبت منه الغاء المقابلة مع قائد ثورة الغوطة ، حتى لا يفسر موقفها بالضعف. ولكن الحادث ، بما سبقه من اتصال بين دي جوفنيل والوطنيين السوريين في مصر، في طريق قدومه إلى سورية ، يوضح ان الفرنسيين اصبحوا في وضع حرج من انتشار الثورة في سورية ، واشتداد حملاتها على مواقعهم ، وعجزهم عن انتزاع نصر عاجل عليها . وفي اليوم الرابع من شهر كانون الاول بلغنا ان الفرنسيين الفوا عصابة في ضواحي حي الميدان على رأسها عميل يدعى « سليم المفتي» ، مهمتها الفتك بالثائرين ، واغتيال زعمائهم وقادتهم، واكد ناقلو الخبر الينا في قرية « ببيلا » ان العصابة تتجول علناً في النهار في البساتين المجاورة لحي الميدان ، فانتدبني محمد عزالدين للقضاء على هذه العصابة، وأرفقني بخمسين فارساً من مجاهدي الدروز ، ومجاهدي حي الميدان ، ورافقني نزيه المؤيد العظم ، فأخذنا بعد الظهر نخترق البساتين ، حتى دنونا من « بوابة الله » ، وهو موقع في حي الميدان من دمشق ، على مقربة منه ثكنة القدم ، وفيها حامية افرنسية قوية . وما كدنا نصل حتى سمعنا أزيز الرصاص ، وعلمنا من المارة ان الفرنسيين وجهوا من الثكنة قوة تقدمت نحو البساتين المجاورة لحي الميدان، واصطدمت بعصابة صغيرة من مجاهدي حي الميدان على رأسها أبو القاسم شقيق عبد القادر سكر (قد يكون ابو قاسم الدرخباني من البارزين في عصابة الميدان) ، فأطلقنا أعنة جيادنا نحو ساحة المعركة ، ولما دنونا منها ترجلنا ، وبدأنا نضيق الحصار على الفرنسيين الذين ما كادوا يشعرون بوصول نجدة الى الثائرين المشتبكين معهم ، حتى فروا إلى الثكنة تحميهم الرشاشات المنصوبة وراء معاقلها وحصونها وثغراتها . ولجأ بعض الجنود الى معمل القدم

العائد لادارة الخط الحجازي تاركين وراءهم عـدداً من القتلى والجرحى . وكان الليل اخذ يخيم على المنطقة ، فعدنا الى قرية « ببيلا » حيث علمنا ان محمدعزالدين توجه بقواته الى قريتي حتيتة التركمان ودير العصافـــير لمواجهة متعب الاطرش وعلي الاطرش ، ومعهما حملة من المجاهدين الدروز جاءت بطريق الغوطة لنجدة الثورة في اقليم البلان ووادي التيم ، فقد بلغ قيادة الثورة في الجبل أنباء عـــن تكاثر الحملات الفرنسية على تلك المنطقة الثائرة ، وحاجتها لنجدات تواجـــه تلك الحملات .

معركة يلدا وببيلا

٥١

سرت بالفرسان الذين معي الى قرية «عقربا» للمبيت فيها، على أن نلحق في الصباح الباكر بمحمد عزالدين الحلبي ، ولكن رسالة وردتني في الليـــل من نزيه المؤيد العظم الذي بقي مع عدد من مجاهدي الميدان في قريـــة « ببيلا » يعلمني فيها أن نبأ وصل اليه من مصدر ثقة في دمشق يشير الى ان حملة كبرى من الجيش الفرنسي ستزحف في الصباح الباكر الى قريتي يلدا وببيلا اللتين أصبحتا مقراً للثائرين، يقومون منهما بالهجوم على أحياء المدينة ، وخاصة منهـــا حي الميدان،ويطلب مني الحضور ليلاً بمن معي من فرسان الى يلدا وببيلا، والاستعداد للقاء الحملة قبل زحفها . ولما كنا سرية من الفرسان موفـــدة من القيادة بمهمة أديناهـــا ، اتفق رأينا على أن نسير قبل الفجر لننضم إلى قيادتنا ، ونخوض المعركة معها ، ان صح النبأ . وكان من حسن الحظ ان أهالي يلدا وببيلا في طليعة فلاحي الغوطة إقبالاً على شراء السلاح ، وتأليف عصابة من شبابهما ، تحمي القريتين من النهابين ، وتخوض المعارك الى جانب المجاهدين . وبعدهـــا أخذت سائر قرى الغوطة تقتفي اثرهما ، فبادرت قرية جوبر بعدهمـــا لشراء

السلاح ، فاشترت مئتين وخمسين بندقية في اسبوع واحد ، وغدت بعصابتها القوية حارساً اميناً للثورة على ابواب دمشق .

سرنا مع فجر الخامس من شهر كانون الاول من قرية « عقربا » ميممين شطر دير العصافير ، وما بزغت شمس ذلك اليوم حتى سمعنا أزيز الرصاص من جهة حي الميدان ، ورأينا محمد عزالدين بقواته قادماً نحونا ، بعد ان انضم اليها فريق من مجاهدي الميدان على رأسهم عبد القادر سكر ، وانضمت اليهم ايضاً القوة القادمة لنجدة اقليم البلان بقيادة متعب وعلي الاطرش ، واقبل مسلحو جرمانا بالعشرات ، وتخلف عن الزحف زيد عامر ومعه حوالي اربعين فارساً من الدروز . وكان هذا الرجل لا يعرف غير الطواف بمن معه على القرى يستضيفها ، ويفرض عليها طلباته ، ويرتكب فيها أساليب النهب والسلب ،



جنود الغاصبين يحتمون وراء الحصون

فإذا جد الجد ، وشمر المجاهدون للحرب ، ابتعد عن أرض المعركة ، وإذا حمي وطيس المعارك ، انكفأ بمن معه الى جبل الدروز يستجم فيه من وعثاء السفر .

عدنا بزحفنا الى قرية « عقربا »، فاكتشفتنا احدى الطائرات الست المحلقة منذ الصباح الباكر في سماء الغوطة ، وقصفتنا بقنابلها ، فترجلت ، وسلمت فرسي الى فلاح من أهالي عقربا ، وسرت مع الجيش الثائر الذي اربى بعدده على ستمئة مسلح ، نصفهم بقيادة متعب وعلي الاطرش ، حتى بلغنا قرية ببيلا حيث كان العدو بلغها بقواته ، بعد ان اصطدم بنحو ساعتين ، بمجاهدي الميدان ومسلحي يلدا وببيلا ، الذين راحو مع الفجر ، ورابطوا في البساتين القريبة المشرفة على السهل المحاذي لطريق الميدان — بويضة ، ولكن المدفعية والطائرات ارغمتهم على التراجع الى قرية ببيلا يصدون عنها العدو الذي ما شعر الا والمجاهدون اطبقوا عليه ، وصدموه صدمة هلع لهــا . وكان الزحف من قواتنا مركزاً في اول الامر على جناح العدو الايسر ومقدمته ، ثم اخذت قواتنا تحيط به . وكانت حملته في ذلك اليوم تبلغ عدداً بضعة آلاف من الفرسان والمشاة ومفارز الرشاشات والجنود المغاربة والفرق الاجنبية والسنغال ومتطوعة الشركس وغيرهم ، تحميهم سبع دبابات وست طائرات ومدفعية قوية تؤازرها المدفعية من قلاع دمشق وثكناتها . ذهل العدو لهذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها ، فقد كانت مخابراته تحصي عدد الثوار في الغوطة بمئات من المسلحين ، مبعثرين في عصابات لاتربطها قيادة موحدة ، واذا به بعد الصدام ساعتين مع عصابة لا تعد اكثر من مئـــة مسلح ، يجد نفسه امام جيش من الدروز احاط به فجأة وصدم مقدمتـــه وجناحيه ، وانزل به من الخسائر في اقل من ساعة ما لم يكن يتوقعه ، فتوقف اولاً عن الزحف واخذ بنيرانه الشديدة يحاول الثبات في مواقعه ، ولكن ابطال الدروز ، وبينهم القادمون الجدد ، وفي عدادهم من اهل السويداء المعروفون بشجاعتهم ، تبادلوا مع العدو الرومانات اليدوية ، على مسافة لا تزيد عن الاربعين متراً ، مستفيدين من موانع الغوطة واشجارها واقنيتها وجدرانها للدنو منه ، ثم قاموا بهجوم على مواقع الرشاشات التي تحمي العدو ، فسقط ستة مجاهدين ، ووصل الباقون الى الرشاشات يصرعون جنودها برصاصهم وسيوفهم ، فاندحر العدو أمامهم ، وتضعضعت صفوفه الباقية ، ودبت فيها الهزيمة ، ولحقت بها الدبابات

تخشى ان يصيبها ما أصاب المدرعات الفرنسية في معركة المزرعة ، تدفع جهد طاقتها هجمات المجاهدين على الجند ،وجثث القتلى والجرحى من الفرنسيين تغطي ارض المعركة ، فلا يجد المنهزمون وقتاً لحملهم معهم . وما انتصفت الشمس كبد السماء حتى كان المجاهدون على ابواب مدينة دمشق ، والحملة تلجأ الى حي الميدان ، وثكنة القدم ، والمقبرة بجانبها ، ومعمل الخط الحديدي ، منهزمة ، تتحصن فيها . وما لبث المجاهدون ان ارغموا المتحصنين في المقبرة على مغادرتها ، ففروا يتحصنون بالثكنة ، وبشوارع حي الميدان وأزقته ، فتعقبهم المجاهدون في الازقة والشوارع ، وخرج النسوة من المنازل يحملن اكداس الخبز مع الطعام واواني الماء يستقبلن بها المجاهدين، ويزغردن ، وقد سفرن عن وجوههن ، وهن المحجبات في خدورهن ، المعروفات بانهن يعشن في حي الميدان المحافظ على عاداته وتقاليده . وقد ارتبك واضطرب الفرنسيون من هذه الهزيمة التي لم تدخل في حسابهم ، وعززوا جندهم المنهزم بقوات جديدة، وملأت الدبابات والمدرعات البساتين المجاورة لحي الميدان ، والطائرات تساعدها بالقصف ، وتدلها على تجمعات المجاهدين . والحق يقال ان يوم بلدا وببيلا كان يوماً معدوداً من أيام الثورة ، عرفت دمشق ان على ابوابها قوة من المجاهدين تدحر الجيوش ، وتهزمها شر هزيمة ، وترغمها على ان تلوذ باوكارها من الحصون والثكنات .

دنا الغروب فاخذ المجاهدون يغادرون حي الميدان والبساتين المحيطة به ، يحملون الكثير من الغنائم : بنادق ورشاشات، وصناديق ذخيرة، وملابس كثيرة من قتلى العدو وجرحاه ، فبلغ ما غنموه اكثر من مئة وخمسين بندقية ، وثلاثة رشاشات ثقيلة ، وعشر بنادق رشاشة ، وعتاد كثير حتى بيع كل مئة وعشرين طلقة فرنسية بريال واحد من الفضة . وأربت خسائر العدو على ستمئة قتيل وجريح . اما خسائر المجاهدين فكانت ثمانية شهداء ، وبضعة عشر جريحاً .

عدنا مساء الى قرية « بيت سحم » ، فوجدنا حسن الخراط وابناء عكاش وعصابتهم يخطرون في ازقة القرية زاعمين انهم لبعدهم عن ساحة المعركة لم يستطيعوا خوضها ، واللحاق بالدروز ، في حين ان نزيه المؤيد ارسل اليهم في الليل يعلمهم بنبأ الحملة ، وسمعوا من الصباح الباكر قصف المدفعية ، وتفجر قنابل الطائرات ، وازيز رصاص المعركة ، اذ كانوا في قرية « عربين » على مسافة بضعة كيلومترات من ارض المعركة ، ولكنهم ، بعد معركة الزور الثانيـــة ، وجرح الخراط ، اتفقوا فيما بينهم على ان لا يخوضوا معركة وجهاً لوجه مـــع الجيش الفرنسي ، وتركوا ذلك لقوة محمد عز الدين الحلبي لعلها تسحق مرة فيتخلصوا منها ، وتبقى لهم الغوطة بخيراتها ، يتحكمون بمقدراتها ، ويتسلطون على الاغنياء اصحـــاب الحوانيت والمزارع فيها من أهالي دمشق . ولكي تبقى لهم سمعتهم الثورية قرروا ان يهاجموا احياناً مخافر الشرطة في احياء مدينة دمشق ، وتدخل شراذم منهم بعض احياء دمشق القديمة الخالية من الدفاع الفرنسي ، ليلاً أو نهاراً ، وتخرج بالإتاوات من أغنيائها ، وتناوش احياناً في الليل حامية معمل الزجاج خارج الباب الشرقي من مدينة دمشق . وسمع زيد ابو خمري عامر بالنصر المؤزر على العدو ، فجاء بعصابته الى « بيت سحم » ليحضر اجتماع قـــادة الثورة دون خجل أو حياء .

استمرت مدفعية دمشق تقصف الغوطة من القلاع كل ساعات الليل بطوله ، وظلت الطائرات تحلق فوق حي الميدان وبساتينه الى ما بعد الغروب من نهار المعركة ، رغم ظلمة الليل ، مما يدل على ان الفرنسيين كانوا يخشون الثائرين في المدينة ، وان يحاولوا احتلالها ، ومهاجمة ثكناتها وقلاعها ، ولم يعلموا ان الظروف هي التي جمعت قوة كبيرة من مسلحي الدروز في الغوطة ، يوم زحفت حملتهم لضرب الثائرين في مناطق الغوطة القريبة من حي الميدان ، وان حوالي نصف القوة التي قابلتهم في المعركة غادرت في اليوم الثاني الغوطة متجهة الى اقليم البلان ووادي التيم .

لقد كان هدف الفرنسيين من زحفهم على قريتي يلدا وببيلا القضاء على قوة الثائرين التي أكدت مخابراتهم أن عددها لا يتجاوز ثلاثمئة مسلح في الغوطة كلها ، أو على الاقل القضاء على عصابة حي الميدان التي أخذت تزداد وتقوى ، وتقوم كل يوم بدخول الحي ليلاً ، وتزعج الفرنسيين بهجماتها على مواقعهم ، وترابط في النهار في البساتين المحيطة بالحي ، تنازل أي قوة فرنسية تخرج من ثكنة القدم ، حتى اصبحت حامية تلك الثكنة في حال حصار دائم ، مع انها ثكنة في مدينة دمشق. أو ربما كانوا يرمون الى اظهار قوتهم اثر وصول مفوضهم السامي الجديد الى بيروت ، وتصريحه الشهير : « الحرب لمن يريد .. والسلم لمن يريد السلم !. » ، وكان دي جوفنيل صرح بهذا اثر فشل مفاوضاته مع ممثلين عن لجنة المؤتمر السوري الفلسطيني في مصر . لذلك كانت هزيمتهم في معركة يلدا وببيلا كبيرة الاثر عليهم ، قلبت خططهم رأساً على عقب ، وحملتهم على سحب الكثير من قواتهم في جنوب لبنان واقليم البلان الى دمشق ، بعد ان اقاموا حاميات ثابتة في حاصبيا وراشيا وجديدة مرجعيون وغيرها من المواقع التي يخشون هجمات المجاهدين عليها ، وفتحوا باب التطوع لشباب الشركس والاقليات العنصرية والمذهبية ، يدفعون اكثر من عشر ليرات ذهبية للمتطوع من المشاة راتباً ، وخمس عشرة ليرة ذهبية للفارس ، وابتدأوا يرسمون خطة جديدة لضرب الثائرين في معاقل الغوطة ، وانشاء مخافر جديدة تفصل ما بينها وبين قرى المرج ، وترسم قوساً يحيط بها ، وتساعد على تطويق العصابات والاحاطة بها ، في حال تمكن الجيش الفرنسي من توجيه الضربات اليها عند زحف قواته الى الغوطة ، او وضع خطة لتطويقها. وقد شاع ان دي جوفنيل المفوض السامي الفرنسي اضطر الى ارجاء زيارة دمشق ، حسب البرنامج الذي كان أعلنه ، فقد حملت اليه تقارير مخابراته ان الثائرين أعدوا خطة لقتله أثناء تلك الزيارة .

عدوان الخراط على رمضان شلاش

لم يقتصر اثر النصر الذي انتزعه المجاهدون في معركة يوم السبت في الخامس من شهر كانون الاول ، على الفرنسيين وحدهم ، بل كان اثره كبيراً ايضاً على سكان الغوطة الذين كانوا مثلاً أعلى في البذل والتضحية منذ بدء الثورة ، الى آخر يوم من ايامها ، فقد هبوا يشترون بمالهم السلاح لمؤازرة الثورة ، والحفاظ على قراهم من النهابين والسلابين . وكان مقاتلة الدروز يبيعون اسلحتهم لأهل الغوطة بأسعار جيدة ، ويعودون الى قراهم في الجبل ، مما انقص عدد الثائرين الدروز في الغوطة ، بل كان بعضهم التحق بحملة متعب الاطرش وعلي الاطرش التي سارت الى اقليم البلان ، وغادر الغوطة ، فضعفت قوة محمد عزالدين الحلبي التي كانت القوة الوحيدة التي تنازل وتصمد للحملات الفرنسية عند زحفها الى الغوطة ، وتواجهها في معارك طاحنة وجهاً لوجه ، واصبح نصف أفرادها عزلاً من السلاح ، عبئاً بإعاشتهم على أهل القرى ، وعبئاً على قيادتهم .

كنا مع القائد محمد عزالدين في قرية « سقبا » ، وإذا بالخراط وعصابته يصلون الى القرية ، ويدعو الخراط إلى عقد اجتماع عاجل للقادة ، ثم يطلب إحضار رمضان شلاش الى الاجتماع ومحاكمته على ما يقال عن فرضه الا تاوات على القرى ، وعن جمعه المال باسم الثورة . وكان الخلاف بين الخراط وشلاش معروفاً وشائعاً ، يوم كان الاثنان في قلمون مبتعدين عن جو الغوطة المثقل بالحملات والطائرات الفرنسية . وانتدب الخراط عدداً من رجاله ليأتوه بخصمه ، فلما احضروه امر بتفتيش جيوبه وحقيبته ، وصادر ما معه من اوراق ، واخذ يقرأ ما فيها ، وصادر ما معه من نقود ، بلغت عداً تسع ليرات ذهبية ، تبين انه استدانها من أحد معارفه ، يوم ان كان مع نسيب البكري ضيفين على وجهاء الميدان ، وسلبه الخراط سيفه وخنجره والوسام الذي كان منحه اياه الملك الحسين في الحجاز مع لقب « باشا » ، وعلق الخراط الوسام على صدره

قائلاً له : « انا احق منك بهذا الوسام !» ، ولما سمعت بما صنعه الخراط برمضان شلاش ، عاتبت العقيد سعيد العاص على سكوته عن مهزلة المحاكمة التي اتخذها الخراط وسيلة لشفاء احقاده على رمضان شلاش ، وعجبت كيف وافق هو ومحمد عزالدين الحلبي ونسيب البكري وغيرهم ممن حضروا الاجتماع على هذه الاجراءات الظالمة التي لا تستند إلى منطق أو قانون ، فاعتذر العاص بانهم وافقوا مبدئياً على استدعاء رمضان شلاش الى الاجتماع ، والتحقيق في التهم الموجهة اليه ، فإن ثبتت صحتها اجبر على السفر الى جبل الدروز مع تقرير يوضح لسلطان الاطرش قضيته ، ولكن الخراط استغل الاجتماع ، وأهان شلاش ، واعتبر التهم الموجهة اليه بحكم القضية المقضية ، ونصب نفسه خصماً وحكماً ، ولم يتمكنوا من ردعه حذراً من وقوع صدام بين الثائرين يؤدي الى مذبحة هم في غنى عنها . وقد اشرنا من قبل الى اغتنام رمضان شلاش فرصة الغارة الجوية على قرية « سقبا » في ذلك الاجتماع ، وانفراط عقد المجتمعين لاتقاء الغارة ، حيث بادر الى جواده ، واعتلى صهوته ، وفر الى قلمون ، ثم وجد بين المجاهدين من مناه بالاماني ليرافقه الى عشيرته في منطقة الفرات توسيعاً للثورة ، حتى اذا بات على مقربة من سلمية أرسل الى امرائها يوسطهم في استسلامه للفرنسيين ، واستسلم لقاء راتب خصص له ، الى جانب تعليم أبنائه في المدارس على نفقة فرنسا .

معركة مع المدرعات

- ٥٢ -

أخذت مدفعية الفرنسيين ، بعد هزيمتهم الاخيرة ، تقصف من قلاع دمشق وثكناتها قرى الغوطة في الليل والنهار ، خاصة منها جوبر ، ويلدا ، وببيلا ،

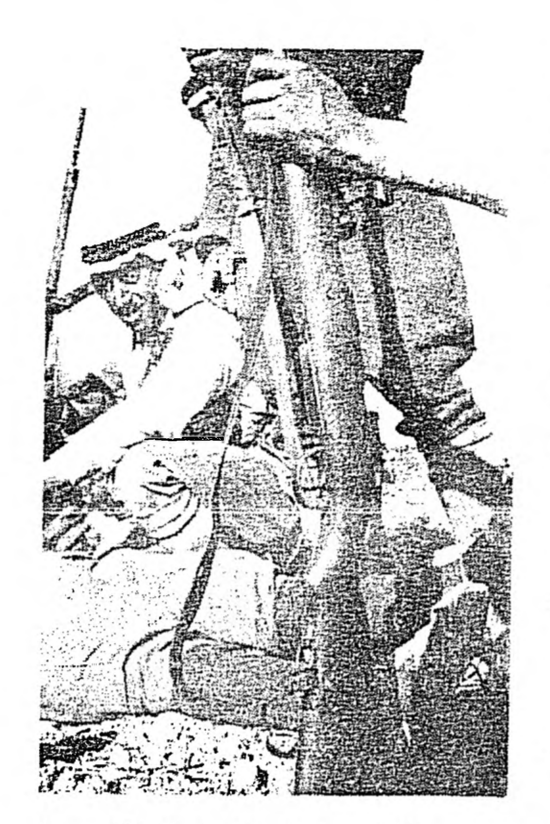
وعقربا ، وكفر بطنا ، وبيت سحم ، وسقبا ، وحمورية ، كما أخذت طائراتهم تشن الغارات ، وتـــدمر المنازل على الاطفال والنساء والشيوخ ، فنزح معظم العائلات الى دمشق ودوما وقرى المرج البعيدة ، وخلت المنازل من أهلهـــا . واذكر ليلة قضيناها مع قوة محمد عزالدين في جوبر ، استيقظنا في منتصفها على اصوات تفجر القذائف ، وانهيار المنازل ، فجمعنا قوتنا ، وانتقلنا بها الى قرية القابون حتى تمكنا من النوم والراحة بقية الليل . وكان الثائرون في المتابـــل يقومون بهجمات في الليل والنهار على أحياء المدينة ، وتتكفل كل عصابة بالحي الذي تنتمي اليه ، فعصابـــة ديب الشيخ تتسلل الى العمارة ، وتهاجم المواقع الفرنسية فيه أو القريبة منه ، وعصابة الخراط تشغل حي الشاغور واطرافه ، وعصابة الميدان تقض مضاجع الفرنسيين في مواقعهم في هذا الحي ، وأخذت أحياء دمشق الاخرى تدفع بشبابها ورجالهـــا الى الغوطة تؤلف العصابات ، وتهاجم المواقع الفرنسية في تلك الاحياء .

وفي اجتماع اتفقت كلمة رؤساء العصابات على أن يقوموا يوم العاشر من شهر كانون الاول عام ١٩٢٥ بمهاجمة مدينة دمشق بقواتهم من عـــدة جهات ، ويبقوا فيها وقتاً محدداً قصيراً ، ثم يعودوا الى قواعدهم ، فدخلنا دمشق مـــع محمد عزالدين الحلبي ، ودخلت العصابات الاخرى من جهات أخرى ، وسمع أزيز الرصاص في كل مكان ، وهوجمت مخافر الشرطة ومراكز الدفاع الفرنسي ، ثم انسحب الجميع الى قواعدهم .

وبلغ مسامعنا صباح اليوم الثاني أن ثلاث مدرعات توجهت من دمشق تحرس قافلة سيارات تنقل المؤن لحامية دوما ، فتوجهت قوة محمد عزالدين الى طريق دمشق ــ دومـــا ، ورابطنا على مقربة من قرية عربين في نقطة تشرف على الطريق ، ثم أقبلت عصابة أبناء عكاش التي انفصلت عـــن عصابة الخراط ، وانضمت الينا في انتظار عودة السيارات المدرعة ، وقام الثائرون بحفر خندق يقطع طريق السيارات عرضاً ، وربطوا سلكاً غليظاً ، أي حبـــلاً معدنياً مما

يستخدم في قطر وجر السيارات ، شدوه بين شجرتين على جانبي الطريق ، كي نرغم المدرعات على التوقف عند عودتها الى دمشق. ورابطنا في البساتين المشرفة على الطريق . ولما دنا وقت الظهيرة ، وصلت المدرعات ، وحاول أفراد ركبها إزالة الموانع، ولكننا أصليناهم ناراً قابلونا بأشد منها من رشاشاتهم ومدافعهم، ودامت المعركة حوالي ساعة واحدة، قفلت بعدها المدرعات راجعة الى دوما. ثم حلقت طائرة فوقنا ، وتابعت طريقها الى دوما فدمشق . ولما دنا العصر فوجئنا بخمس طائرات تقصف مواقعنا ، وتنقض علينا برشاشاتها وتعود الى دمشق . بلغني بعد الغارة الجوية أن العقيد سعيد العاص احضر المدفع الصغير الذي كنا ارسلنا لشرائه من الجبل بتبرعات اهل سقبا ، وهو مدفع منزوع من مدرعة، ومن عيار ٣٧ مليمتراً ، واقامه في مكان قريب جداً من طريق السيارات ليستخدمه ضد المدرعات ، فيما إذا عادت ثانية من دوما ، فتوجهت نحو المكان لرؤية المدفع ، ولما أصبحت على بعد عشرين متراً منه، في مكان مكشوف، وصلت المدرعات من دوما ، وأخذت تطلق نيران مدافعها ورشاشاتها علينا ، ووصل في نفس الوقت ثلاث مدرعات أخرى من دمشق ، معها سيارة نقل تقل جنوداً من المتطوعة ، فأطلق سعيد العاص ورفاقه نار بنادقهم على السيارة حاملة الجنود الذين أسرعوا بالقفز منها ، والتحصن في الجانب المقابل من الطريق، بعد أن أصيب بعضهم بجراح ، وانضمت مدرعات دمشق للمعركة ، وصبت نيرانها بشدة على المكان الذي تحصن فيه سعيد العاص ، وهو أقرب موقع اليها من مواقع الثائرين ، فاستلقيت ، وزحفت نحو قناة قليلة العمق صادفتها أتقى بها النار ، حتى غمرتني اغصان الشجر المتكسرة من قذائف المدرعات . وسقط الكثير من القذائف بجانبي، وهي تسدد الى معقل العاص واخوانه فتتجاوزه الي، وحجبني الغبار ودخان القنابل . وكان هناك شاب يافع من الفلاحين أعزل من السلاح صادف ما صادفته ، فألقى بنفسه قريباً مني ، ثم أخذ يزحف حتى التصق بي ليحتمي من النار، فهدأت روعه. وقد دامت المعركة حتى الغروب ، ثم تراجعت المدرعات والجنود ، كل الى الجهة التي اتى منها ، دون ان يستطيعوا

اجتياز المانع الذي احدثناه في الطريق . وفي الليل ، ونحن في قرية عربين،عادت المدرعات من دوما ، وكانت الطريـــق خالية ، ممـا ساعدها على إزالة المانع من الطريق ومتابعة السير بأمان الى دمشق . لم يصب احد منا في هذه المعركة التي استمرت عدة ساعات من النهار ، عـدا مجاهد واحد جرح في رجـلـه جرحاً خفيفاً . ولم يستطع سعيد العاص من استخدام المدفع لعطل فيه ، فقد حاول محاولته قبـل أن يقـوم بتجربة المـدفع ، ويتأكد من صلاحه للاطلاق .


فريق من المجاهدين في فترة الراحة والاستجمام

وشائج العروبـــة

- ٥٣ -

وصلنا في اليوم الثـــالث عشر من كانون الاول الى قرية « قبرالست »حيث مقام وضريح السيدة زينب من العترة النبوية الطاهرة . وفيهـا بلغنا من مصدر ثقة ان الفرنسيين سيزحفون في الغد من اربع جهات لتطويق عصابات الثائرين في

الغوطة ، ثم تبين في الغد ان الزحف كان لاحـــداث مخفرين قويين في قريـتي « اوتايا » و « حوش خرابو » . وعلى ذكر المصدر الثقة أحب أن أوضح أن الكابتين « عطاف » الضابط العربي المغربي في كتائب الفرسان الصباحيـين في دمشق ، قدم خدمات جلى للثائرين في الغوطة ، فقد كان هذا العربي المخلص بحكم وظيفته ، يطلع على الاوامر العسكرية التي تصدر قبل حـــين من الزحف ، وتزود القادة بمهاتهم في الحملة وخطة الزحف . فكان هـــذا العربي الشهم يبادر فوراً الى الاتصال بالامير طاهر الجزائري ، وغيره من الوطنيين المغاربـــة في دمشق ، ويطلعهم على الاوامر الصادرة اليه ، وهؤلاء يقومون بدورهم بالاتصال بإخوانهم الوطنيين لابلاغ قادة الثورة في الغوطة قبل حين عن خطة الفرنسيين ، وتحرك حملاتهم في الغوطة ، ليكونوا على حذر ، ويستعدوا للقتال . وكان هذا الضابط العربي وإخوانه من الضباط والجنود المغاربة ، في كل حملة ، يتعرضون مع الافرنسيين لرصاص الثائرين ، دون تميز بينهم وبين الكتائب الاخرى . اما من جانبهم ، فقد كانوا يطلقون رصاص اسلحتهم طائشاً حتى لا يصيبوا بني قومهم ودينهم مـــن المجاهدين العرب ، وكلما سنحت لهم الفرصة القوا ببعض عتادهم وذخائرهم في الحفر ، ووراء الاشجار ، حتى اصبحنا ، كلما تقدم بنا العهد في الغوطة ، نجد ، بعد كل معركة ، كميات من العتاد الفرنسي ، نجمعها ، ونزود بها إخواننا المسلحين ببنادق إفرنسية . وكم مرة عثرنا على صندوق للذخيرة مليء ملقى في حفرة ، أو مطمور اكثره بالتراب بجانب جذع شجرة ، وكم جمعنا مئات الامشاط المليئة بالرصاص ، مبعثرة وملقاة هنا وهناك ، فكنا نعجب من قومية إخواننا عرب المغرب الذين كانت فرنسة تسوقهم رغماً عنهم لقتالنا ، يطلعوننا سراً على حركة الفرنسيين ، لنعد العدة للقائها ، وهم يتعرضون لرصاصنا الذي كنا نسدده إلى جيش العدو دون تفريق ، أما رصاصهم فيطلقونه طائشاً وعالياً لا يصيب أحداً منا ، وكلما سنحت الفرصة لهم ألقوا عتـادهم وذخائرهم في ارض المعركة يزود الثـــائرين إخوانهم بالرصاص القاتل الذي يوجـــه اليهم ايضاً ، وشعارهم : « عليَّ وعلى أعدائي يا رب ! » . انهم كانوا يؤثرون إخوانهم في

العروبة والدين الثائرين، على انفسهم . ولم يكتفوا بهذا ، فقد فر عدد منهم إلى صفوف الثائرين ، وعرضوا اسرهم وعائلاتهم في المغرب العربي لبطش فرنسة وانتقامها ، وقاتلوا في الصف العربي ، ومات منهم شهداء في سبيل حرية بلاد الشام المقدسة في نظرهم ، ولم تحل الالوف من الاميال التي تفصل بين الشام ، وبين بلادهم دون هذا البذل . لقد رافقنا في الغوطة جنديان مغربيان هما محمد وعبدالله ، وجندي ثالث فلسطيني من قرى نابلس هو عبد الحميد المرداوي ، التحقوا بثورة الغوطة ، وفروا من الجيش الفرنسي ، وظلوا أشهراً يسيرون معنا عزلاً من السلاح ، يخدموننا بأمانة وإخلاص ، وينتظرون أن يتيسر لهم يوماً السلاح غنيمة . ولما تسلحوا خاضوا معنا المعارك الضارية ، واستشهد محمد المغربي منهم في معركة « وادي فيسان » ، في جبال الهرمل في شمال لبنان ، سقط شهيداً الى جانبنا يهتف باسم اخوة العروبة والدين التي تربطنا به . وكان اثنان من الجنود المغاربة الملتحقين بثورتنا ، رافقانا إلى قلمون ، واقامهما سعيد العاص في احدى المعارك على رشاش خفيف ، في هضاب بلدة النبك الغربية ، واستشهدا معاً بقذيفة مدفع رحمهما الله .

معركة جوبر الاولى والثانية

— ٥٤ —

كان الخبر في تلك الليلة من الكابتين « عطاف » الذي اطلقنا عليه اسماً مستعاراً بيننا ، حتى لا يفتضح امره عند الافرنسيين ، فيما اذا اشرنا اليه في أحاديثنا . لذلك استيقظنا في فجر الرابع عشر من شهر كانون الاول ، وتوجهنا الى قرية يلدا ، ثم تقدمنا بطريقها نحو دمشق ، ونحن نجهل الطريق التي ستسلكها الحملة ، فقد كان الخبر ، هذه المرة ، مقتصراً على زحف الحملة من دمشق الى

الغوطة في البكور ، دون تحديد الطريق . وما كاد النهار يشرق حتى سمعنا أزيز الرصاص ، وأصوات المدافع تدوي ، وقدرنا انها صادرة من جهة قرية جوبر ، وان الحملة الفرنسية زاحفة من طريق دمشق - دوما ، ونحن بعيدون عنها ، ومع ذلك قررنا نجدة مجاهدي جوبر ، واذا بالخراط وعصابته ومعهم الشيخ محمد حجاز ، يلاقوننا ، ويقترح الخراط مهاجمة دمشق ، بينما الحملة الفرنسية تزحف إلى الغوطة ، فقلنا ان هذا لا ينجد اخواننا الجوبريين المشتبكين في قتال عنيف مع حملة كبرى للعدو ، وبعد جدل بيننا وبين الخراط ورفيقه الشيخ حجاز ، حرد الخراط ، وذهب بعصابته بعيداً عنا وعن أرض المعركة ، لأننا لم نوافقه على رأيه ، وتقدمنا مسرعين ، ترافقنا عصابة الميدان ، نحو جوبر من أقصر الطرق ، فبلغناها بعد انتهاء المعركة ، واجتياز الحملة في طريق دوما قريتي عربين وحرستا ، حيث اصبح اللحاق بها مستحيلاً علينا ، فرابطنا في بساتين قرية جوبر لعل الحملة تعود في المساء الى دمشق من نفس الطريق ، ولكن انتظارنا ذهب سدى . وعلمنا من اخواننا مجاهدي جوبر ان الفرنسيين خرجوا مع الفجر من دمشق بجيش لجب عدده بضعة آلاف من المغاربة والفرقة الاجنبية والجوقة السورية ، ومتطوعة الشركس وغيرهم ، ترافقهم عشرون دبابة ، وتمهد لهم المدفعية من قلاع دمشق وثكناتها ، فكمن لهم مجاهدو جوبر في مجرى نهر تورا الجاف ، والبساتين المطلة على طريق دوما ، وصدموا الجناح الايمن من حملتهم ، ودارت بين الفريقين المعركة نحو ساعتين ، ثم تابعت الحملة سيرها نحو قرية « عربين » ، فصدمتها عصابة أبناء عكاش التي كانت مرابطة في بساتين القرية ، وتبع مؤخرة الحملة فريق من مجاهدي جوبر ، ولبثوا يناوشونها حتى بلغت دوما ، وعسكرت في بساتينها . وقد استشهد من المجاهدين سبعة في هذه المعركة ، وجرح بضعة عشر ، وتخلى أبناء عكاش للحملة عن رشاش خفيف ، عندما زاد الضغط عليهم ، واضطروا الى الانسحاب . أما خسائر الحملة فتقدر بمئات القتلى والجرحى . وكان سبب فشلنا في اللحاق بالحملة ان الخبر من المصدر الثقة نقل الينا محرفاً ، صدق من جهة زحف الحملة ، ولكنه كذب من جهة

تعرضها من أربع جهات ، فنال شرف خوضها مجاهدو جوبر الذين ثبتوا في معاقلهم ،ثم مجاهدو عصابة أبناء عكاش . وكانت هذه اول معركة يخوضها مجاهدو جوبر مع حملة فرنسية ، بعد شرائهم السلاح ، وتأليف عصابتهم ، فكسبوا ، في بادىء الامر ، شرف منازلتها وحدهم ، وكبدوها خسائر فادحة .



المجاهد حسن السقا اشترك صغيراً باحدى المعارك ونقل الرسائل للمجاهدين فقبض عليه الفرنسيون وعذبوه

عدنا في المساء الى قرية جوبر ، وقضينا فيها ليلتنا ، ولم نغادرها رغم اطلاق مدفعية دمشق قذائفها في الليل على القرية . وفي صباح اليوم الخامس عشر من كانون الاول توجهنا الى قرية عربين ، ورابطنا في اراضيها المشجرة على طريق دوما — دمشق ، انتظاراً لعودة الحملة من دوما ، ولكن خبراً بلغنا ، بعد الظهر ، عن تحول الحملة من دوما الى قرية « اوتايا » ، ومنها الى قرية «حوش خرابو » ، وانها عسكرت فيها ، فقدرنا انها ستبدل طريق عودتها ،وتسلك طريق بالا — دمشق ، لذلك انتقلنا الى غابة «الزور» وكمنا فيها بانتظار عودة الحملة لننازلها. وعند الغروب عدنا مع نجدة وصلت الينا من الجبل الى قرية «بلاط» حيث بتنا فيها ، بعد أن وجهنا ثمانية عشر مسلحاً في الليل ناوشوا الحملة في حوش خرابو ، وقضوا مضاجع أفرادها . وفي صباح السادس عشر من كانون الاول توجهنا بقواتنا ، ترافقنا عصابة الميدان ، وعصابة الخراط الى « حوش خرابو » لمنازلة الحملة في معسكرها ، أو في أثناء سيرها ، فلم نجد لها اثراً ، وعلمنا من الجوار انها بعد ان اقامت مخفراً ، وعززته عادت الى دوما ، فعدنا ادراجنا الى قرية

«بالا» حيث وافانا رسول اليها ينبئنا بأن الحملة عادت الى دمشق بطريق دوما ، فسار الفرسان منا خبباً ، ومررنا بقرية كفر بطنا ، ونحن نسمع ازيز الرصاص ، وتفجر القنابل والقذائف قريباً من ناحية «عربين» و «جوبر» ، فبلغنا عربين ، بعد الظهر ، وقد اجتازتها الحملة الى جوبر ، لذلك سلكنا طريقاً بين عربين وجوبر تحت الرصاص ، وتفجر القنابل والقذائف حولنا ، ودخلنا قرية «جوبر» في الوقت الذي وصلت طلائع الحملة الى جدران المنازل محاولة اقتحامها ، واحتلال القرية ، والثأر من أهلها ، ولم يبق بين الفرنسيين وبين القرية سوى مجرى نهر تورا الجاف الذي هدم اهل القرية الجسر الذي عليه ليحولوا دون عبور الحملة الى قريتهم . وكان عتاد مجاهدي جوبر اوشك على النفاد ، بل نفد عتاد اكثرهم بعد صدام دام زهاء ثلاث ساعات ، فأدركت قوتنا العدو على أبواب جوبر ، ودخلت طلائعها الازقة ، وتحصنت فيها ، وفي بعض المنازل ، وكان فريق من قوتنا يزحف من البساتين بين قريتي « عربين» و « جوبر » ، ويحاذي كتائب العدو ، وبدأت المعركة من جديد ، وانطلقت بنادقنا تصلي العدو ناراً حامية ، فدحرناه عن القرية ، وألزمناه طريق السيارات التي لا تبعد اكثر من مئة متر عن جدران المنازل ، ثم وصلت بقية قواتنا . وتحصنت في مجرى النهر الجاف ، فكانت ساعة صمت لها الآذان ، تطلق القذائف من جميع قلاع وثكنات دمشق وقاسيون والمزة التي ركزت فيها المدفعية الثقيلة ، على جوبر وبساتينها ، والطيارات تفرغ وتعود لتحمل من مطار المزة حمولتها ، تقصفنا بها ، وتطلق الشارات لتهدي المدفعية الى مواقعنا ، والدبابات ، وقد انتشرت في ساحة المعركة ، تطلق نيران مدافعها ورشاشاتها على مواقعنا التي كانت تعيق سير الحملة ، وتلتقط الجرحى وجثث القتلى من الجنود ، وتنقلها الى سيارات الإسعاف . وكنت مع الطليعة التي دخلت قرية جوبر ، وصدت الجند عن منافذ القرية ومداخلها ، ثم تحصنت وراء جدران البساتين تنزل بالحملة المتقهقرة الخسائر ، حتى ارغمتها على الدخول الى دمشق مشتتة ، ولحقنا بمؤخرتها الى قرب المستشفى الانكليزي في القصاع ، ولم تمنعنا ملاحقتها في قلب دمشق

إلا حصون تلك الحامية المتسلطة على مداخل المدينة .

عدنا مساء الى قرية جوبر مبتهجين باننا وصلنا في الساعة الحاسمة ، وانقذناها من يد العدو الحاقد على مجاهديها واهلها ، فقدم لنا اهلها العشاء تحت تساقط القذائف من مدفعية دمشق ، وكنا قضينا النهار بطوله لم نذق الطعام. وقد كانت خسائر قوتنا ثلاثة شهداء بينهم المرحوم مصطفى الاغواني من وجهاء قرية « بيت سوا » وكرام مجاهديها ، واربعة جرحى . أما العدو فخسائره تقدر بعثات القتلى والجرحى ، وعند ختام المعركة لم يتمالك حسن الخراط نفسه ، فتقدم يقبل شاربي محمد عزالدين الحلبي إعجاباً بما أبداه من بسالة نادرة ، فقد جمعت ظروف المعركة الاثنين جنباً الى جنب في مكان واحد ، واعترف الخراط بأنه اعطى بندقيته في المعركة إلى أحد أفراد عصابته ليقاتل فيها ، لأنه شيخ ، وبصره لا يساعده على التسديد في الرمي ، ورغم ذلك فإنه كان مغروراً يستهين بكل ثائر من غير عصابته . واذكر مرة ، في اجتماع تم بيننا وبينه في موقع الزور ، ان جاءه رسول بكتاب من نسيب البكري ، وسامه إياه قائلاً بعد التحية : « هذا كتاب يا ابا محمد من نسيب بك البكري اليك ! وهو يقرئك السلام !.. » فنظر اليه الخراط شذراً ، والقى الكتاب في وجهه قائلاً : « من هذا نسيب بك ؟ انا لا اعرف رجلاً بهذا الاسم .. ولا صلة لي بالبكوات !.. » ، مع أن الخراط رافق نسيب البكري الى دمشق يوم سببوا الكارثة للمدينة التاريخية .

واذكر ايضاً ان نزيه المؤيد الذي وصل الى جوبر معنا ، ورأى اقتحام الجيش الفرنسي منافذ القرية ، انسحب مع عدد من الثائرين دون ان يطلق رصاصة من بندقيته ، وحسب ان جوبر احتلها الفرنسيون ، فابتعد عنها . ولما عاد في المساء ، الى جوبر ، بعد انتهاء المعركة ، وكنت اول من صادفه مقبلاً على القرية ، ورأى محافظ الرصاص « الجنادات » فارغة في عاتقي ، وكان رآها عند انسحابه مليئة بالبندق « الرصاص » ، اندفع يقبلني ، ويشتم الذين أوهموه ، واخافوه ، وحملوه على الانسحاب من ارض المعركة ، ويهنيء بالنصر الذي

احرزناه في تلك المعركة التاريخية .

نجوت بأعجوبة من الموت

- ٥٥ -

في صباح السابع عشر من كانون الاول ، اي في اليوم الثاني لمعركة « جوبر » تلقينا رسالة من ابي عمر ديبو الكردي ، وهو احد وجهاء المزارعين في قرية « حرستا » المعروفين في منطقة الغوطة وما يجاورها ، يقول فيها أن نسيب البكري الذي غادر الغوطة مع زكي الدروبي وعدد من الثائرين ، عقب معركة يلدا وببيلا ، الى منطقة الجورة ، اي الى قضاء جيرود وما حوله ، قام بمهمة حث اهالي القرى على مؤازرة الثورة ، واستطاع ان يوجه نحو الف وخمسمئة مسلح من قرى جيرود ، والمعضمية ، والرحيبة ، وضمير ، والحفر ، والحفير ، الى الغوطة ، وان هذا الجيش وصل الى قرية «بيت سوا» للانضمام الى مجاهدي الغوطة ، فلم يجد أحداً منهم ، لذلك يجب الإسراع لاستقباله ، وضمه الى قوة المجاهدين في الغوطة ، قبل ان ينفرط عقده ، ويعود أفراده الى قراهم ، فأسرع محمد عزالدين الحلبي وعبد القادر سكر ، وبعض مجاهدي الميدان الى قرية « بيت اسوا» ، فلم نجد فيها اثراً لهذا الجيش او الجمع المسلح، وقيل لنا انه عاد الى قرية «الشفونية» ، و «حوش الريحان» ، فتابعنا سيرنا الى الشفونية ، وهناك قيل ان الجموع عادت الى قرية«عدرا»،فتابعنا سيرنا اليها حتى لانعد مقصرين في اكتساب هذا العدد الكبير من المسلحين لصفوفنا . ولما وصلنا الى «عدرا» في المساء لم نجد احداً من مسلحي الجورة،وعلمنا انهم تفرقوا كلهم ، وعادوا الى قراهم، فأدركنا ان سكان تلك المنطقة أوفدوا جموعهم خوفاً أو خجلاً من نسيب البكري وجماعته ، وتهديداته بان القرى التي لا تؤازر الثورة ، وفيها رجال مسلحون ستعد معادية للثورة ، وستفرض قيادة الثورة عليها جمع ذلك السلاح ، وتقديمه

اليها لاستخدامه في اغراض الثورة وأهدافها . قررنا المبيت في قرية « عـدرا » بعد سير شاق على مشاتنا استغرق النهار كله ، واضطررنا لأن نبقي عدداً مـن مشاتنا في قرية الشفونية وحوش الريحان . وفي منتصف الليل وصل الى «عدرا» رسول من الغوطة يعلمنا ان الفرنسيين سيزحفون في الصباح الى قرية « جوبر » لتدميرها وحرقها والبطش بأهلها ، ثأراً من تعرضها للحملة الفرنسية في الذهاب والاياب . ولكن عبد القادر سكر رئيس عصابة الميدان الذي كان معنا ، وهو رجل مسن ، لم يصدق الخبر ، وقال انه كاذب كالإشاعات الكثيرة التي كانت تصل عن زحف الحملات الى الغوطة ، ثم لم يتحقق اكثرها ، وقال : « لا يعقل



الجلوس من اليمين : سعيد العاص ، عبدالقادر سكر ، الامير عزالدين الحسني الجزائري

ان يزحف الفرنسيون غداً الى جوبر ، بعد ان خاضوا أمس معارك حامية الوطيس في الغوطة ،فاضطر محمد عزالدين الحلبي لأن يبقى تلك الليلة في «عدرا»، وان لا يرهق قوته المتعبة بالمسير ليلاً . وجاءنا مع الفجر رسول ثان يؤكد ما قاله الاول ، ويستنجد بنا ، فنهضنا نتهيأ للمسير ، وما اصبح صباح الثامن عشر من كانون الاول حتى اخذت مدفعية قلاع دمشق تقصف بشدة لم يسبق لها مثيل ،

فنسمع هزيم المدافع كالرعد ، ونحن على بعد عشرين كيلومتراً من دمشق، فقدرنا من شدة القصف أن خبر زحف الحملة الى الغوطة صادق ، فقد اعتاد الفرنسيون ان يبدأوا منذ الفجر بقصف المنطقة المجاورة لدمشق التي تسير حملتهم على طريقها، حتى يبعدوا عنها عصابات الثائرين ، ويلقوا الرعب في قلوبهم، لذلك اسرعنا الى جيادنا نمتطيها ، وسرنا ومن معنا من المشاة خبباً وركضاً لاجتياز المسافة البعيدة التي تفصلنا عن الغوطة . وفي الطريق وافانا رسول ثالث يعلمنا ان الفرنسيين زحفوا من دمشق الى جوبر ، ودخلوها بعد معركة مع عصابتها ، واحرقوا عدداً من منازلها . وكنا كلما أمعنا في السير قابلنا من عصابة الخراط فرادى وازواجاً قادمين الينا ، وكلما سألناهم عن الحملة أكدوا لنا انها احتلت جوبر ، وانها تزحف نحو « عربين » ، وانهم موفدون الينا كي نسرع لمواجهتها . والحق ان حملة ثقيلة تعد بضعة آلاف جندي مجهزين بأحدث الاسلحة ، لا تستطيع عصابة الخراط ان تقف في وجهها ، لان عددها لا يزيد عن مئة مسلح، ورئيسهم في الاصل يتجنب خوض المعارك مع الحملات، ما لم يجر بحكم المصادفات الى خوضها مع قوات ثائرة اخرى، فالاحرى بهذه العصابة الا تخوض المعركة وحدها اليوم ، وان ينتشر افرادها في القرى يبحث كل واحد منهم عن سلامته . أما اهالي جوبر فإن شبابهم ورجالهم المسلحين كانوا استنفدوا كل اعتدة سلاحهم في معارك الايام الماضية ، ولا قبل لهم ، بعتادهم القليل ، ضد حملة كبرى تزحف لاقتحام قريتهم من جميع الجهات ، لا المرور بها في طريقها الى مكان آخر . كان طريقنا الذي سلكناه من عدرا يمر بين مخفري دوما واوتايا الفرنسيين ، وبارض غير مشجرة ، فكشف مخفر دوما جمعنا، وسلطت حاميته علينا رشاشاتها من بعيد ، فلم نأبه لها، وتابعنا سيرنا حتى بلغنا الاراضي المشجرة في الغوطة . وكنا اضطررنا لان يسبق فرساننا المشاة في اسراعهم للقاء الحملة الفرنسية . ولما بلغنا قرية «بيت سوا» ، صادفتنا الطائرات تحلق في سمائها ، وتقصف القرية وما حولها . وفيها عرفنا ان الحملة الفرنسية دخلت بعد « جوبر » قرية «عربين» ، وزحفت منها الى قرية «حمورية» ، وهي في طريقها اليها ، دون ان تلقى أي مقاومة ،

وان جنودها ، وفيهم كوكبات الشركس والحرس السيـــار ، ارتكبو انواع السلب والنهب والعدوان على الاهلين ، حتى انهم دخلوا ظهر يوم الجمعة المساجد في عربين والناس فيها يصلون صلاة الجمعة ، فاشبعوا المصلين ضرباً ، وسلبوهم كل ما في جيوبهم من نقود ، وبأيديهم من ساعات ، ودخلوا المنازل ، ونهبوا مـــا شاءوا من محتوياتها ،واعتقلوا عدداً من وجهاء القرية الكبيرة ، وارتكبوا فيها من الفظائع ما يتحدث به المنهزمون من فلاحي القرية وقالوا ان ما فعلوه في قرية جوبر كان أشد واعظم .

وقد علمنا أيضاً ان عصابة أبناء عكاش ، كانت هجرت الغوطة ، بعد معركة جوبر الاولى ، وانتقلت الى جهات دمر ووادي « بردى » ، وأن عصابة العمارة تبعثرت في قرى الغوطة والمرج ، بعد جرح رئيسها ديب الشيخ ، لذلك لم تلق الحملة الفرنسية مقاومة تذكر منذ زحفها من دمشق ، الى ان اصبحت ، كما قيل لنا ، على ابواب قرية « حمورية » . وكنا على علم بما يكنه الشراكسة في الجيش الفرنسي لقرية حمورية من حقد اسود ، بسبب مصرع خمسة من شراكسة « مرج سلطان » ، عشية معركة الزور الثانية ، فتشاورنا ، ونحن لا نتجاوز الخمسين خيالاً ، وسائر قوتنا من المشاة خلفناها وراءنا على بعد بضعـــة كيلو مترات ، فاتفق رأينا على ان نسارع لدخول قرية حمورية قبل وصول الحملة الفرنسيـــة اليها ، ندافع عنها ريثما تصل اليها قوتنا من المشاة ومن الفرسان المتخلفين ، لاننا قدرنا الفظائع التي يرتكبها الشراكسة في هذه القرية وبسكانها العزل ، بعـــد التهديدات التي كانوا يطلقونها ، ويسمعها فلاحو الغوطة من افواههم في دمشق . تقدمنا من اقصر طريق نحو حمورية ، وامامنا دليل يهدينا الطريق . ولما اصبحنا على بعد مئات الامتار من القرية ، نسير بـــين اراض مشجرة ، في طريق على جانبها الجدران القصيرة « دك » ، باغتنا العدو بوابل من رصاص رشاشاتـــه وبنادقه ، فادركنا ان جنوده يتحصنون بين الاشجار،وراء الموانع في البساتين، لذلك ترجلنا بسرعة عن جيادنا وراء جـــدار « دك » ، وكنا بضعة وعشرين

فارساً سبقنا اخواننا ، محاولين قبلهم دخول القرية ، وسلمنا كل بضعة جياد لواحد منا ،وصعدنا الى البستان في الجانب الثاني من الطريق ،وتحصنا وراء الدك ، نرد على نيران العدو ، وقد اختفى وراء معاقله ، لا نلمح منه جندياً واحداً ، الا ان ما يطلقه علينا من رصاص يدل على كثرة عدده . وكنا نظن اننا نقابل طلائع الحملة التي لما تصل الى حمورية . ولما يئسنا من رؤية جنود العدو بين الاشجار ، وهدفنا الوصول الى القرية ، صاح العقيد سعيد العاص : « لنترك هذا المكان ، ونتقدم ، وندخل القرية قبل ان يدخلها العدو ! » ، وكان تقديرنا خاطئاً ، فالعدو سبقنا الى القرية ، واحتلها وتمركز فيها ، واحتل ما حولها من البساتين ، وهو من طائراته كان على علم بزحف قوة من الثائرين نحوه ، لذلك استعد وراء الموانع والمعاقل الطبيعية للقائنا . ولما كنت في صف محمد عز الدين الحلبي ، وسعيد العاص ، وعبد القادر سكر ، ورفاقهم في اقصى اليمين الى جهة القرية ، سرت مع اثنين من الدروز الشباب ركضاً في الطليعة ، وتقدمنا اخواننا في دخول القرية ، وسبقناهم نحو خمسين متراً في طريق اليها تطل عليها من اليسار جدران المنازل ، لا يفصلها عن الطريق الا بستان شجر الحور ذات جدار عال « دك » ، سرنا وراءه نريد بلوغ مدخل القرية ، فصادفنا فيه شقاً من انهدام جزء منه ، ولم يأبه له ثلاثة من شباب الدروز كانوا أمامي ، واجتازوه مندفعين الى الامام ، ولما خطوت وراءهم ، واصبحت امام الشق سمعت صوت حركة في بستان الحور ، فتلفت الى يساري ، وإذا بسرية من متطوعة الشراكسة بلابسهم العسكرية ، وزيهم ، وعلى رؤوسهم « القلبق » يزحفون نحونا لا يفصلنا عنهم أكثر من عشرة أمتار ، ولما وقعت العين على العين ، انبطح فريق منهم ، وركع فريق ، ووقف فريق ، وصوبوا بسرعة بنادقهم الى الشق ، فقفزت الى الامام مندفعاً بسيري لأجعل الجدار ستراً لي من رصاصهم ، واذا بالدروز الثلاثة الذين تقدموني يعودون نحوي مسرعين ، فقد صادفوا ، من شق ثان في الجدار كان الى يسارهم ، كتلة كبيرة من الجنود الشراكسة تندفع الى الشق ، لا يفصلها عنهم غير الجدار ، فأنكفأ الثلاثة نحوي منهزمين ، واطلق الشراكسة الرصاص من الشقين.

ولما بلغ رفاقي الثلاثة الشق الاول سقط احدهم قتيلاً ، وجرح الثاني ، ونجا الثالث . ورأيت أن مصيري القتل إن تبعتهم ، فقد أصبح الجدار وحده يفصل بيني وبين الجند ، والجند يزحفون من شقيه ، واذا بقيت وراءه ، وألقى احدهم رمانة يدوية قتلني ، واذا ترددت في الابتعاد عنه خرجوا الي من الشقين ، وصرعوني برصاصهم ، وانا وحدي ، وهم كثرة ، لذلك سرعان ما خطوت الى منتصف المسافة بين الشقين من الجدار ، واخذت ابتعد عمودياً عنه ، حتى كشفني الجنود من الشقين رحت منحنياً أعدو بسرعة لالقي بنفسي في قناة للماء عميقة اعترضت سبيلي ، حيث اختفيت فيها لحظة عن عيونهم ، ووقتني رصاصهم ، ولكنها كانت بمجراها تنحرف نحو القرية ، ولا مصلحة لي في الدنو من القرية المليئة بالجنود ، وهي عميقة وفيها ماء جار ، قريبة جداً من الجند ، رأيت انها لا تصلح للدفاع ، فقررت ان اخرج منها الى ضفتها الثانية ، وهي اعلى من الاولى ، واتابع الابتعاد عن الجند ، وابتلت عباءتي الرقيقة ، وهي من نوع المشلح ، بماء القناة ، والتفت حول ساقي تمنعني من الحركة ، فالقيت العباءة بالماء تخفيفاً عني ، وخرجت الى الضفة الثانية ، واذا امامي كرمة مكشوفة ليس فيها غير سوق شجيرات العنب الجافة العارية في الشتاء ، فركضت منطوياً على نفسي ابتعد عن مواقع الجند ، ولكن وابل الرصاص الذي امطرني به الجنود من الشقين ، ومن النوافذ واسطحة المنازل التي احتلوها ، وتحصنوا فيها ، كان من غير المستطاع والمعقول الا اصاب منه ، اذا ما استمريت على الركض ، فالقيت بنفسي في ارض الكرمة على بعد عشرات الامتار من القناة ، واستدرت نحو القرية ، اطلق من بندقيتي الرصاص على مواقع الجند ، دون ان اراهم من مكاني ، واستمر اطلاق الرصاص ، وكان يتساقط حولي من علٍ كالبرد ، ويثير الغبار من ارض الكرمة .

وفجأة ، انفجرت البندقية بيدي ، وثار بارودها في عيني ، فظننت انها أصيبت بطلقة من رصاص العدو ، ورحت أتنيزها ، واذا بسبطانتها قد انشقت

من فوهتها بضعة سنتيمترات طولاً ، لإنسداد فوهتها بالتراب الناعم من ارض الكرمة ، وانفجارها من ضغط البارود عندما أطلقت الرصاصة الاخيرة ، واصبحت البندقية عاطلة ، قد تكون العصا افضل منها للدفاع عن النفس ، واسقط في يدي ، وادركت اني هالك لا محالة ، فنهوضي تحت وابل الرصاص فيه هلاكي ، وبقائي على بعد أمتار من الجند فيه الخطر الاعظم ، ولبثت مستلقياً في ارض الكرمة ، وما حولي يشتعل برصاص الجنود الذين تقدموا ونفذوا من أزقة القرية وشوارعها ، عدا من تحصن منهم في السطوح والنوافذ ، يتعقبون برصاصهم الفئة القليلة من الثائرين التي لاحت لهم على ابواب القرية ، وانسحبت بعد ان تركت بعض جثث افرادها على الارض. وبعد نصف ساعة لم يسمع فيها غير صوت الرصاص ، وقف اطلاق النار فجأة ، وخيم سكون موحش على المكان ، وانا في مكاني لا أرى احداً ، فرفعت رأسي لأرى ما حولي ، فلم يقع بصري على أحد ، ونهضت بجذعي ما استطعت فلم أرَ احداً ، وقررت ان اقف على قدمي لعلي ابتعد عن القرية ، ويا هول ما رأيت ! .. رأيت على ضفة القناة المنخفضة التي القيت فيها بعباءتي مجموعتين او كتلتين من الجنود الشراكسة وقوفاً امامي وبيدهم بنادقهم ، لا يفصلني عنهم اكثر من عشرين متراً ، وبين المجموعتين فاصل لا يعدو طول الجدار ذي الشقين ، فتقدمت بخطوات ثابتة نحوهم ، وبيدي بندقيتي المعطلة ، حتى وصلت الى ضفة القناة ، وهبطت فيها ، ثم تسلقت ضفتها الثانية ، فأصبحت في الوسط على محاذاة الجند ، وانا اتوقع ان يتحركوا ، ان يطبقوا عليّ ، ان يرموني برصاص بنادقهم ، ولكن احداً منهم لم يتحرك ، كأن على رؤوسهم الطير ، ينظرون الي من مواضعهم كأنني البس طاقية الاخفاء في الاساطير ، وتلفت الى اليمين ثم الى اليسار ، ولما رأيت ان حال سرية اليمين لا يختلف عن حال سرية اليسار ، تابعت سيري بخطواتي الثابتة المستسلمة للموت ، وتجاوزت كتلتي الشراكسة من ذات اليمين وذات اليسار ، فلم يلحق بي احد منهم ، وازدادت حيرتي ، وادركت ان في الامر معجزة ، واستقبلني في اتجاهي الى القرية المليئة بالجند بيدر لحزم القنب التي تستخدم وقوداً في الافران ، بعد

قشر مادة القنب الصناعية عنها . وكان هذا البيدر يمتـــد من طرف القناة الى جدران القرية ، ويشغل مساحة كبرى ، تقوم عليـــه اكوام القنب الواحدة بجانب الاخرى بشكلها المخروطي . وعاودني الامل بالحياة ، فاندفعت ، بعد ان غبت عن انظار الجنود الشراكسة ، الى كومة على يميني اشق بيدي في قلبهـــا مكاناً لي للاختفاء ، ولما فتحت فجوة فيها ، القيت بثقل ظهري فيها ، اوسعها بالدفع ، حتى ولجت داخل الكومة ، واخذت اشد بيدي حزم القنب لاسد الثغرة التي نفذت منها ، وشبكت العيدان امامي حتى اطمأننت إلى ان اي انسان يمر بين اكوام القنب لا يمكنه ان يراني ، اذا كان خالي البال من وجودي . وانقضت الدقائق سراعاً ، وانا انصت الى كل حركة وسكنة حولي ، فقد اصبحت في قلب حملة الافرنسيين ، متطوعة الشراكسة عن يساري وســائر الحملة الفرنسية عن يميني ؛ واذا بي اسمع احد المتطوعة الذين على مقربة مني يقول لرفاقه بالتركية ؛ وانا اتفهمـــا « انظروا إلى ابن اللخنـــاء ! كيف ترك عباءتـــه هنا في القناة ! » .

ويظهر انه انحدر الى القناة يقلب العباءة المبتلة التي القيتهـا ليرى آثار الدم عليها .. وكان التاؤها سبب نجاتي ، كما أراد لي الله ، اذ كنت البس معطفــاً عسكرياً تحت العباءة من غنائم الجيش الفرنسي ، يقيني البرد ، لم أجد ، ساعة باغتتنا الحملة برصاصها ، وقتاً لأن أخلعـــه واخلع العباءة عني ، فترجلت عن فرسي ، ودخلت المعركة بها ، فلما القيت العباءة المبتلة التي اخذت تلتف على ساقي في القناة ، اصبحت بمعطفي ، وبغطاء ساقي من الجلد « كيتر » ، وبمحافظ الرصاص « الجذادات » الافرنسية على صدري ، وبندقيتي الفرنسية ، لا اختلف في الزي ، عن جنود الحرس السيار ، حتى بالكفية والعقال اللذين على رأسي ، فبينهم ، على ما يظهر ، من كان يلبسها من المتطوعة . ولمـــا نهضت من مكان لا يبعد عشرين متراً عن متطوعة الشراكسة ، واتجهت ، بقدرة الله ، بخطوات ثابتة نحوهم ، اجتازهم من وسطهم الى القرية دون خوف ، حسبوا انني احـــد

المتطوعة في الجيش الفرنسي ، تقدمت اثناء المعركة إلى الامام لمطاردة الثائرين. وكانوا رأوني في البدء بالعباءة ، ولم يروني بالزي الذي اقبلت عليهم به ، فأبهم عليهم حالي ، ولم يحسبوا انني كنت مقبلاً نحوهم ، مستسلماً للموت مصيري ، فنجاني الله من الموت بأيديهم ، وحسبوا انني متطوع اعود الى القرية لأنضم لسريتي ، وبذلك سنحت لي الفرصة . ووصلت الى بيدر التبن ، واستطعت ان أختفي فيه . سمعت من مخبئي الجندي الشركسي يشير إلى عباءتي ، ويشتم صاحبها اقذع شتيمة ، فيجيبه رفيقه بالتركية : « لاريب ان صاحبها أصيب.. انظر أليس عليها أثر للدم ! » ، وقلب الشركسي العباءة وقال : « ليس عليها أي أثر !.. »، ورد عليه رفيقه : « ان صاحبها قتل ولا ريب .. والا أين يختفي ويسلم من أيدينا ؟ » . وشغلوا بعد هذا الحديث ، بفتى فلاح من اهل القرية ، كان ،على ما يظهر مختبئاً في منحنيات القناة ، فأخرجوه ، وأحاطوا به يضربونه ضرباً مبرحاً ،وهو يستجير منهم ، ويستغيث بالله وبمحمد رسوله ، وهم يشتمون خراطه ، فكل اهل حمورية ، في نظرهم ، متواطئون مع عصابة الخراط على قتل الخمسة من المتطوعين الشراكسة في مرج سلطان ، يوم معركة الزور الثانية !.. وانصرف ، على ما يظهر ، العدد الكبير من الشراكسة مع الفتى الاسير إلى القرية ، اذ ابتعدت اصواتهم واصوات وقع اقدامهم عني ، وانصت ، واذا بصوت من جانب القناة يقول بالتركية : « ويحك يا علي !.. لم يبق غيرنا في هذا المكان .. فلنبتعد عنه ! » ورد عليه صاحبه : « لا تخف يا صديقي ! وانظر الي الجثث الملقاة على الارض ، تنبئك بمصير الثائرين !..» ، قال هذا ، ولكن الخوف كان ساوره وساور الشرذمة الباقية من رفاقه على طرف القناة ، فقد سمعت وقع خطواتهم تبتعد ، بعد هذا الحديث ، باتجاه القرية . وساد السكون حولي ، واطمأنيت اكثر ، بعد ابتعاد الشراكسة عن مخبئي ، وأخذت أصغي الى الصراخ والعويل يرتفع من القرية ، واصوات التحطيم والتكسير والتخريب ، واصوات اللهب والسنة النار من المنازل المحترقة في القرية ؛ تنقلها الى مسامعي ريح شرقية باردة ، فأدركت ان المتطوعة الشراكسة فتكوا بالقرية

الآمنة ، وقتلوا من وجدوه من رجالها ، وافترسوا نساءها ، ونهبوا منازلها ، ثم تركوها طعمة للنيران .. ثم بعدها سمعت وقع حوافر جياد تمر بأرض الكرمة التي كنت فيها ، وأصوات الجنود الصباحيين يتحدثون بلهجتهم المغربية متجهين نحو قرية « بيت سوا » ، ثم سمعت بعدهم هدير الدبابات تمر بالكرومة ايضـاً ، فأدركت انني اصبحت تماماً في قلب الحملة ، وان الاسلم ان أبقى في مخبئي حتى يهبط الليل ، لعل لي فيه مخرجاً من مأزقي ! .. ولكن الأقدار ما كانت تريد لي الهدوء في مخبئي ، فقد سمعت .. ويا لهول ما سمعت !. سمعت اصوات النيران تلتهم بشدة أكوام القنب التي على البيدر ، وتنقل الريح رماد القنب الاسود يمر امام ناظري كأسراب الجراد ، وانا في جوف احدى الاكوام التي ستصل اليها حتماً النيران وتلتهمها ! .. لقد اصبح موقفي حرجاً جداً ، ان لبثت في مخبئي فستأكلني النيران وتحرقني ، وان خرجت منه فقد أقع بيد الجيش الفرنسي ، وفي ذلك هلاكي .. وازداد اشتعـال القنب ، ودنت النيران من مكاني .. وكنت أسمع صوت تآكل النار بالقنب قريباً مني .. وصممت على الا اخرج من المخبأ قبل ان تصل النار الى الكومة التي اختفي في جوفها ؛ لعلي بين لهب النار والدخان اتسلل الى القناة القريبة اختبيء فيها الى الليل ؛ فليس غير الليل ما يسترني عن عيون الجند ، ويساعدني على التسلل من قلب حملتهـم . اشعلت لفافـة تبغ ادخنها في مخبئي بغير حذر ، فدخانها لا يظهر بين دخان الحريق الذي اصبح يغطي المكان .. ولما انتهيت منها اطفأت عقبها بكفي ، حتى لا تتسرب ناره الى القنب حولي ، فأعجل باحتراقه ، ولم اقنط من رحمة ربي التي انقـذتني من الموت اكثر من مرة ، ان تنجيني من الموت حرقـاً بين أكوام القنب .. ومرّ الوقت وئيداً ، وبدأت أصوات اللهب من اكوام القنب تخفت ، واصوات فرقعة القنب وهو يشتعل تهدأ ، وتغدو عسيساً .. ودنا الغروب وساد القرية سكون كسكون المقابر ، بعد العويل والصراخ والبكاء ، واصوات التحطيم والتكسير ، ولم تبق إلا اصوات اللهب ، من المنازل المحترقة ، تنقلها الريح الى مسامعي ، واخذ الليل يرخي سدوله ، مع اصوات الفلاحين من القرية تتنادى لإطفاء النيران ،

واصغيت بكل جوارحي الى اصوات ابي عبده وابي محمد وابي ابراهيم تصدرعن القرية مع اصوات اللهب ، فأيقنت ان الفرنسيين جلوا عن القرية ، وإلا لما دخلها الرجال الذين لم اسمع لهم اصواتاً في النهار .. انها أصوات الفلاحين يتنادون لاطفاء الحرائق ! عندئذ تحركت من مخبئي ، ومددت رأسي وعنقي من ثغرة فتحتها في كومة القنب استطلع ما حولي ، ولما اطمأننت اندفعت من جوف الكومة ، واذا امامي منظر رهيب اسود ، فقد غدا البيدر المتسع لمئات الاكوام قاعاً صفصفاً ورماداً ، ولم يبق من كوماته إلا الكومة التي أنا فيها ، وكومة اخرى امامها عفت عنها النيران ، فوقفت اسبح ربي على قدرته ، وأحمده على لطفه بي ، وسرت فوق الرماد الأسود اجتاز البيدر الى القرية في غبشة اول الليل ، فمررت بجثتين محترقتين في نطاق احد الاكوام المحترقة من اعواد القنب ، وكانت فقاقيع الدهن من جمجمتها مازالت تلتهب ، وقدما احدهما لم تأكلها النيران بحذائها القديم من النوع الذي يلبسه عادة الفلاحون ، فقدرت انها من الفلاحين لاذا مثلي بالقنب من شر الفرنسيين ومتطوعتهم ، فقتلتها النار ، أو قتلها الجنود ، واحترقت جثتاها بالنار ، حتى غدت كل منها بحجم جسم صبي صغير !.. وما كان للرهبة والرحمة ساعتئذ أثر في قلبي ، فقد كان مقدراً لي ان اقتل او احترق مثلهما ، لذلك تابعت سيري نحو القرية، وتسترت ، وانا أطل على شارع رئيسي في القرية ، بجدار ، فرأيت فلاحاً يخرج من باب داره ، يتلفت في الشارع ذات اليمين وذات اليسار ، فبرزت له من جانب الطريق ، وتقدمت نحوه ، فاسرع بالفرار الى داره ، وناديته : « أنا لست جندياً .. بل أنا ثائر!» ، وتردد اولاً في تصديقي ، ثم نظر الى غطاء رأسي ، واطمأن قليلاً ، ثم طلب مني ان اسرع وادخل داره ، فعدوت اليها ، وأنا احسب ان هناك خطراً يتهددنا ، ولما دخلت الدار اغلق الفلاح بابها ورائي ، واخذ يضع خلف الباب مساند من الخشب والاشياء الثقيلة ، وانا اسأله : لماذا يحصن باب داره ، هل في القرية جنود ؟ فيجيب : « كلا !.. ولكن ربما عادت الحملة الى القرية !.. » ، قلت : « إذا عادت الحملة تقضي علي ، فدعني اذهب ! » ، قال : « وعلي ايضاً.. إنها لم

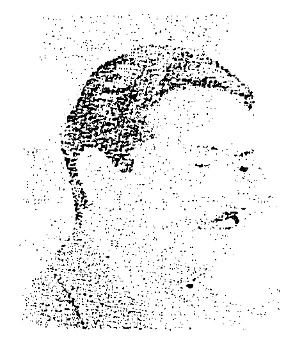
تترك رجلاً في القرية صادفته ، إلا وقتلتـه !.. » ، قلت : « وكيف نجوت من ايديهم ؟ » ، قال : « كنت في البيت وحدي ، ودخلت الحملة ، وانتشر الجنود الشراكسة يقتلون كل من يصادفونه من الفلاحين ، في القرية ، حتى قتلوا اكثر من ثلاثين فلاحاً ، واعتدوا على الاعراض ، وحطموا الابواب ، ودخلوا المنازل يسلبونها ، ويحرقونها ، وسمعت باب داري يحطم ، فانحدرت الى البئر من صحن الدار ، ألوذ بمائها وظلمتها ، فنجاني الله من القتل ، ولما خرجت منها ، وجدت انهم سلبوا الثمين مما في الدار ، وحطموا الباقي ، وحتى المؤن في جرارها واوانيها الزجاجية حطمت ، وها هي كما تراها في قـــاع الارض يسيل السمن الى جانب الزيت ويختلط ، بالدبس !.. » وسار الى زاوية من الغرفة يخرج ، من وعاء زجاجي تحطم نصفه ، مربى المشمش ، يضعه في اناء ، ويحمله إلي ، يدعوني الى أكـله ، وكنت لم أذق طعم الزاد في نهاري ، ولم يدخـل في جوفي قطرة ماء ، وحلقي من هول اليوم جاف ، فجاءني بكوب ماء ، تناولت بعده مشمشة بدلت بحلوها طعم فمي المر ، وشكرته ، وأشعلت لفافة تبغ ، بعد ان قدمت مثلها لمضيفي ، وأشار الى سقف الغرفة الذي رشه الجنود بالوقود السائلة ، فاشتعل جانب منه ، وهو من الخشب والقصب ، ثم انطفأ بقدرة قادر ، وقال : « احمد الله على انه نجاني من الموت ، وانقذ بيتي من الحرق ، وان سلب الظالمون ما فيه من أثاث ثمين.. بالاضافة الى خسارتي الكبيرة في المؤونة ، ولكن الله سيعوضني عنها ! » ، واذا بباب الدار يطرق بشدة ، وفلاح من اهل القرية ينادي مضيفي باسمه ، فيفتح له الباب ، واسمع القادم يقول له : « ما بقاؤنا في هذه القرية ، بعد ان قتل رجالنا ، وفضحت نساؤنا ، ونهبت منازلنا ، وأحرقت ؟.. هيا بنا نغادرها قبل ان تعود الحملة ، وتقضي على البقية الباقية منا ! ». قال مضيفي . « ولكن الى اين يا ابا محمد ! في هذا الليل البهيم ؟ » قال : « الى دمشق ، نلجأ اليهـــا ، ونقيم مع عشرات الوف اللاجئين الذين سبقونا اليها . » قال صاحبي : « ولكن دمشق في الليل مغلقة ، وحولها ضرب نطاق من الحصون ، والاسلاك الشائكة ، يصرعنا جنود المخافر من حولها بالرصاص فيما اذا اقبلنا عليهـــا في الليل ! » .

قال أبو محمد : « نقيم في البساتين القريبة من دمشق ، ثم ندخلها في الصباح مع الداخلين ، خير من ان تعود الحملة وتقضي علينا كلنا ! » ، فتردد صاحبي أولاً ، ثم وافق ، وعندئذ خرجت إلى باب الدار ، وبيدي بندقيتي المعطلة ، وقلت : « استودعكما الله ! ، وشكراً يا صاحبي على ضيافتك ! » ، قال : « إلى أين ؟ » قلت . « انكما ذاهبان الى دمشق ، وانا ثائر محرم عليّ دخولها الا غازياً .لذلك فأنا سائر في هذه الغوطة حتى اجد لنفسي مبيتاً في غير هذه القرية المنكوبة ! » وانطلقت اسير في الشارع على ضوء الحرائق التي جعلت ليـــل القرية نهاراً ، والفلاحون يحاولون بوسائلهم الضعيفة اطفاء النار في بعض المنازل ، ولكن انـّى لهم ذلك ، وابواب جهنم مفتحـــة ، والنار تسري من منزل الى منزل ، تلتهم ما تجد في طريقها .

سرت في ضوء الحرائق بعيدا في طريق قرية « سقبا » ، ولما بلغتها وجدتها خالية هجرها اهلها فراراً من بطش الحملة ، وخوفاً من ان يصيبها ما أصاب قرية « حمورية » : ومع ان الحملة الفرنسية لم تدخلها ، إلا انها احرقت بيادر القنب في اطرافها ، فاحترق معها بعض المختبئين في جوف أكوامها من الفلاحين . بحثت كثيراً بين منازل القرية لعلي اهتدي الى احد ، واخيراً وجدت فلاحاً سألته عن الجهة التي اتجهت اليها حملة الفرنسيين ، حتى اتجنب الطرق التي سلكتها ، أو قد تسلكها في العودة ، فأجابني بانه لا يعرف شيئاً عن وجهتها ، لانه كان في عداد الفارين من القرية ، عندئذ تابعت سيري وحيداً الى جسرين ، واذا بمنازلها مغلقة كلها ، وازقتها معتمة مظلمة ، لا يخطر في ازقتها حي . حاولت جاهداً ان أجد بيتاً مفتوحاً ، أو انساناً في الطريق ، فلم اجد ، واخيراً ، وقد طال تطوافي في ازقة القرية ، سمعت صرير باب في الزقاق الذي اسير فيه ، وفتح الباب ، ولكن وقع اقدامي حملت من فتحه على اغلاقه بشدة ، والاختفاء في الدار ، وعرفت الباب ، ورحت اطرق ، دون ان يرد علي احد ، وناديت سكانه ، وقلت اني ضيف طارق أريد المبيت في هذه الساعة من الليل ، واخيراً قلت اني ثائر لن

أتزحزح ، ولا بد لي من الدخول، وانني سأكسر الباب واطلق عليه الرصاص إذا لم يفتحه اصحاب الدار باختيارهم ، وفتح الباب ، وولجته ، فوجدت في الدار اثنين من الفلاحين ، اوقدا ناراً في موقد احدى الغرف ، وعليه ابريق الشاي والحليب ، فشاركتهم شرابهم ، ونمت الى الصباح ، ثم ودعتهما سالكاً طريـــق الزور الى قرية « زبدين » ، وحذرت ان يكون في الغابة كمين ، ثم سمعت صوت طلقات من رشاش صادر من جهة دمشق ، فتركت الطريق العـام ، وسرت في ظل الاشجار الكثيفة حتى بلغت قرية « حتيتة جرش » ، وتجاوزتها الى زبدين ، فلم أجد للثائرين فيها من أثر ، ولم اسمع من اهلهـــا خبراً عنهم ، لذلك تابعت سيري الى قرية المليحة ، ثم الى قرية « بلاط » ، تحت تهطال المطر ، حيث وجدت حسن الخراط مع عدد من افراد عصابته في منزل من منازل القرية . حييتهم ، ودخلت اخلع ثيابي وأجففها على النار ، والخراط يعتب ، ويقول : « اين كنتم امس ؟.. اين هربتم وتركتمونا وحدنا أمام الحملة في الغوطة ؟. » ، قلت : « نحن لا نهرب يا أبا محمد مثل غيرنا من الحرب والقتـــال !.. وانا خضت معركة حمورية أمس ، وخلصت من الموت باعاجيب.. لا بأعجوبة واحدة !.. » فقال : « الحمدالله على السلامة يا ولد ! » ، وما كاد ينتهي هذا الحديث القصير بيننا ، حتى دخل فناء الدار بضعة رجال بينهم فارس واحد من الدروز ، قادمين من الجبل ، وقف الخيال أمام باب الغرفة وحيا ، وسأل : « أيها الربع ! اتعرفون مقر محمد عزالدين الحلبي ؟ » ، فقال الخراط : « في جهنم ! » فرد عليه الدرزي : « جهنم تحرقك ! » ، واحتدم الجدل والسب بين الدروز وعصابة الخراط ، وخفت ان يتطور الى صدام ، فوقفت ، وقلت للفارس من ابناء معروف : « هدىء من روعك ، فأنا مثلك أبحث ايضاً عن مقر محمـــد عز الدين الحلبي ، وسأرافقكم تواً للبحث عنه ، والسؤال من القرى المجاورة . » ، وتوجهت مـــع الدروز ، وبينهم المسلح وغير المسلح ، الى قرية « حتيتة التركمان » في المرج ، حيث بتنـا ليلتنا فيها نستقصي اخبار عصابة محمد عزالدين الحلبي ، فتواترت الاخبار عن

وجودهم في قرى المرج ، من جهة الشمال الشرقي من الغوطة ، لذلك سرنا في صباح العشرين من شهر كانون الاول عام ١٩٢٥ نقصد قرية « حران العواميد » في المرج ، وفي طريقها السهل المكشوف ، لحنا وراءنا، عن بعد، بضعة فرسان يعدون ، تنطلق خيلهم خبباً تظللهم راية ، فحسبنا انهم طليعة لحملة فرنسية . وكان معنا أربع بنادق صالحة للقتال ، وزعت اصحابها للدفاع وراء فوهات لقناة تجري تحت الارض المنبسطة المكشوفة . ولما رأى الفرسان اننا اختفينا عن انظارهم ، أدركوا قصدنا ، وراحوا يلوحون بكفياتهم



الدكتور خالد الخطيب

البيضاء ، وبالراية التي معهم ، فقدرنا انهم من الثائرين ، وظهرنا لهم ، ثم سمعنا اصواتهم عندما اقتربوا منا ، ينادونني باسمي ، فتأكدنا انهم اصدقاء ، ولماوصلوا عرفناهم ، وهم الدكتور خالد الخطيب من منظمي ثورة حماة ، وجميل العلواني الحموي الموطن والموظف في عمان ، وفؤاد رسلان، وسليمان المعصراني، واخوه عبد الهادى المعصراني ، ومصباح الحسامي من شبان حمض الوطنيين الذين كانوا في مدينتهم على صلة بمنظمي ثورة حماة ، قادمين من جبل الدروز ، فقد تسللوا اليه ، بعد فشل ثورة حماة ، وهناك تسلحوا ، وقصدوا الغوطة للانضمام الى العقيد سعيد العاص واخوانه ، ومنازلة الفرنسيين في معاقلها ، وصادف وصولهم الى قرى المرج ، بعد حملة الفرنسيين على جوبر وعربين وحمورية وانسحاب قوة محمد عز الدين الحلبي من الغوطة الىقرى المرج فيالشمال الشرقي من دمشق . وكان ركبهم المثقف بلغ قرية الختيتة بعد رحيلنا عنها في الصباح وحدثهم مختارها حديثنا ، واننا نبحث ايضاً عن مقر محمد عز الدين الحلبي ، وان احدنا اسمه منير ، ووصفني لهم ، فتأكدوا انني رفيقهم في ثورة حماة ، وجدوا للحاق بنا ، وكان اللقاء الذى طرنا له فرحاً . ولما بلغنا

قرية حران العواميد في أصيل ذلك اليوم ، أرسلنا فلاحاً برسالة من الدكتور خالد الخطيب يبحث في قرى المرج الشمالية عن محمد عز الدين الحلبي والعقيد سعيد العاص واخوانهما . وفي صباح الواحد والعشرين من كانون الاول فوجئنا بقوة محمد عز الدين تتجه إلى حران العواميد ، وعدد أفرادها لا يزيد عن المئة ، أكثرهم عزل من السلاح ، باعوا بنادقهم في الغوطة ، وهم الآن في تنقلهم ، ليجدوا الفرصة سانحة للعودة الى جبل الدروز . وقد تبين ان عدداً كبيراً من أفراد القوة فارقهم اثر معركة « حمورية » عائداً إلى قرى الجبل . لقد كان لتلاقي باخوان السلاح ورفاقه شائقاً ، اذ كانوا حسبوني في عداد شهدائهم الذين سقطوا على أبواب قرية « حمورية » ، وحدثوني عن اضطرارهم للانسحاب من حمورية لقلة عددهم ، بعد ان باغتهم العدو بجنده الكثير من منافذها وبساتينها ومنازلها وسطوحها ، وتعقبهم الى قرية « بيت سوا » حيث نشبت بين الفريقين معركة عنيفة احتل على اثرها الفرنسيون القرية ، فعادوا أدراجهم الى قرية « عدرا » مخلفين وراءهم الغوطة ، ولم يخسروا في هذه المعارك إلا بضعة شهداء سقط اكثرهم على أبواب « حمورية » ، ولكن قوة الثائرين تبعثرت امام الحملة ، وكثرة عددها ، وقوة أسلحتها ، وغادر الكثيرون الغوطة عائدين الى قراهم في الجبل . وقد بلغنا ونحن في حران العواميد ان العقيد الركن محمد اسماعيل الطباخ ، والمقدم الركن مصطفى وصفي السمان ، وشكري القوتلي من وطنيي دمشق ، وأركان حزب الاستقلال ، وصلوا الى قرية « دير العصافير » في الغوطة قادمين بطريق الجبل ، فأرسلنا من هداهم الى مكاننا ، وبعد وصولهم ، عقدنا اجتماعاً عاجلاً للبحث في تلافي الحال التي آلت اليها الغوطة ، واصلاح الوضع .

في قرية فخري البارودي

- ٥٥ -

انتقلنا في اليوم الثاني والعشرين من كانون الاول الى قرية الجربا ، وفيهامنزل لفخري البارودي من وطني دمشق ، وبعض أراضيها الزراعية ، أو كلها ملك له . وقد وجدنا على الجدار في منزله أبياتاً من الشعر كتبها أحد خلانه الذين كانوا يرتادون ، قبل الثورة ، القرية للهو والاستجمام ، ما زلت أحفظ مطلعها :

الا يا صاحب الجربا بلاك الله بالجوب

وفي الأبيات شكوى مرحة من براغيث القرية ، وسوء حال ضيوفه في ضيافته .

وقد اتصل بنا ، ونحن في القرية زحف حملة افرنسية الى الغوطة ، وتأسيسها مخفراً جديداً في قرية « شبعا » على طرف الغوطة الجنوبي ، دون أن تلقى أي مقاومة في الزحف والعودة الى دمشق . وهكذا طوقت الغوطة من أطرافها بمخافر فرنسية فيها حاميات قوية هي : دوما ، اوتايا ، حوش خرابو ، شبعا . وبين مخفري شبعا وحوش خرابو تقع قرية « مرج سلطان » الشركسية ، ورجالها كلهم مسلحون بأسلحة فرنسية ، ويعتبرون من الحرس السيار لهم رواتب شهرية . وقد سد اهلها منافذ القرية ، وحصنوها ضد العصابات ، وكانوا يناوئونها ، ويتحدونها ، ويشتركون كلما سنحت لهم الفرصة في المعارك التي تخوضها الحملات الفرنسية قريباً من قريتهم .

استشهاد حسن الخراط

-٥٦-


الثائر حسن الخراط

أخذ الفرنسيون ، بعد احداث هذه المخافر ، يوجهون حملاتهم الى الغوطة لمطاردة فلول العصابات فيها . وزحفت، في مرة ، حملة أكثرها من المتطوعة ، الى قريتي « يلدا » و « ببيلا »، وباغتت في الطريق حسن الخراط مع عدد من افراد عصابته يكمنون في ارض مشجرة، أي بستان، استشهد في المعركة حسن الخراط ، ودفن في قرية ببيلا ، وانسحب الثائرون من الغوطة ، وعاد محمد عز الدين الحلبي بفلول قوته الى الجبل ، وبانسحابهم غادر الغوطة إلى الجبل محمد اسماعيل الطباخ ، وشكري القوتلي ، ومصطفى وصفي ، وخليل الحموي ، وصبري العسلي ، ونسيب شهاب ، وفائق العسلي ، ورفاقهم من مثقفي شباب دمشق الثائرين ، ومنهم من تابع طريقه الى شرقي الاردن وفلسطين ومصر معتبراً الثورة انتهت

في الغوطة والمناطق السورية الاخرى ، وليس لهم نفع للدروز ، في حال بقائهم في الجبل ، الا ان يكونوا عالة على أهله .

الثائرون المؤمنون لا ينسحبون

أما العقيد سعيد العاص ، وفؤاد رسلان ، وخير الدين اللبابيدي ، والاخوان المعصرانيان ، ومنير الريس ، وجميل العلواني ، ومحمد علي الدروبي ، وابراهيم صدقي ، والاخير ضابط في الجيش التركي ثم في الجيش العربي ، سرح من الاخير شاباً ، وعمل معلماً في المعارف ، حتى اقتصد بعض المال ، ثم انتمى الى الجامعة السورية ، حتى بلغ الصف الاخير من كلية الحقوق ، ولكن الثورة حملته على ترك الجامعة ، فالتحق بها ، وهو وحيد والديه . أما هؤلاء فقد عقدوا اجتماعاً في قرية «الجربا» حضره الدكتور خالد الخطيب الذي كان من رأيه الانسحاب الى الجبل مع المنسحبين ، وإصلاح وضع القيادة لصلاح وضع الثورة ، قبل مباشرة أي عمل ، ولكن هؤلاء ، خلافاً لرأي الدكتور الخطيب ، واعتقاداً منهم بانهم غير قادرين على تغيير او اصلاح وضع القيادة ، بالنسبة لأوضاع جبـــل الدروز وتقاليده ، فقد قرروا الاعتماد على انفسهم ، والعمل على توسيع شقة الثورة الى الشمال ، حتى تصل الى حمص وحماة المدينتين اللتين ينتمي اكثرهم اليهما ، واذا أمكن ان تشمل المنطقة الوسطى وتتعداها الى الشمال من سورية ، والا فإن الثورة مقضي عليها ، لأن الفرنسيين متى اخضعوا الغوطة والمناطق الداخلية من سورية ، سيزحفون بقواتهم الكبيرة التي جاءوا بها من المغرب الاقصى ، ومن فرنسة ، ومستعمراتهم الاخرى في افريقية والهند الصينية ، خاصة بعد ان قضوا على ثورة الامير عبد الكريم الخطابي في المغرب ـ سيزحفون الى جبـــل الدروز لإخضاع اهله ، وباخضاعهم تنتهي الثورة ، ويعود الفرنسيون الى التحكم بمقدرات سورية ، دون ان يلقوا مقاومة .

لقد اتفقت كلمتنا ، عدا الدكتور الخطيب ، على السفر الى قلمون ، وتوحيد

كلمة قادة الثورة فيه، وجمع مسلحيه، والزحف الى حمص فحماة لتوسيع نطاق الثورة ، وشغل الفرنسيين ، وإلهائهم عن جمع قواتهم لضرب ثورة الجبل في اول الربيع .

وغادرنا نزيه المؤيد العظم، وعبد القادر سكر ، واحمد الملا من مثقفي حي الاكراد في دمشق بمن تبقى معهم من عصابة حي الميدان وحي الاكراد الى غربي دمشق ، وانضموا الى عصابة أبناء عكاش ، وقاموا بتخريب الخط الحديدي في وادي بردى بين دمشق والزبداني ، يساعدهم في ذلك الفلاحون الشبان في قرى الوادي ، وتمكنوا ، كما علمنا ، من توقيف قطارين ، والاستيلاء على غنائم فيهما ، حتى اصبح وجودهم في تلك المنطقة يهدد المواصلات بين دمشق ولبنان ، وبين دمشق وشمالي سورية ، فوجه الفرنسيون عدة حملات لمطاردتهم ، واصلاح الخط الحديدي . وقد نشبت معارك بين هؤلاء الثائرين وبين الحملات الفرنسية ، كنا خلالها نهـــدد حمص بقواتنا ، مما شغل الفرنســيين بمنازلة العصابات الثائــرة في الشمال ، وغربي دمشق ، والهاهم عن الغوطة ، فأخذت العصابات تعود اليهـا ، وتنشط عصابات قراها ، وتزداد قوة كلما انضم شبان جدد مـــن دمشق إلى عصابات الاحياء الدمشقية التي عادت تتمركز في قرى الغوطة قريباً مـــن احيائها .

مناطق تتنكر للثورة وتقاومها

– ٥٧ –

توجهنا في صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون الاول ، وعددنا تسعة أشخاص الى بلدة القطيفة ، فوجدنا اهلها قد سدوا المنافذ اليها ،واقاموا الابواب لبلدتهم يحرسونها ليل نهار من العصابات الثائرة ، تحت ستار الحراسة من غزو

عشيرة الغياث ورئيسها النهاب السلاب . وقد حسبونا ، في بادىء الامر ، من موظفي الحكومة السورية ، لان اكثرنا كان يرتدي اللباس الغربي،والزي العسكري ، فسمحوالنا بدخول بلدتهم الصغيرة،وعرفنا منهم انهم ساروا على هذا النهج منذ حوادث خلف النعير واضرابه من النهابين ، فقضينا الليلة في سهرتنا نقنع زعماء البلدة بان اعمال خلف النعير واضرابه من السلابين ليست بموافقة قيادة الثورة التي تشجب هذه الاعمال المنكرة،وان قادة الثورة الحقيقيين قرروا ان يؤدبوا كل من يرتكب اعمال السلب والنهب وفرض الاتاوات على السكان . وقد بلغنا ، ونحن في القطيفة ،ان نسيب البكري وبعض رفاق معه في قرية «عين التينة» ، فتوجهنا صباح اليوم الثاني اليها ، فلم نجدهم ، وقيل لنا انهم توجهوا إلى بلدة «النبك» في قلمون ، فتابعنا مسيرنا اليها ، وادركنا المساء قرب قرية «قلدون» ، واهلها من التركمان ، فقررنا المبيت فيها، ولكن اهلها استقبلونا مساء بالرصاص ، بعد ان تحصنوا وراء جدران قريتهم والحواجز التي اقاموها لمنع العصابات من دخول قريتهم . وبعد توقف طويل ، وتبادل الشارات والنداءات، ارسلوا الينا رجلاً منهم ،تفاهمنا معه على ان يسمح لنا اهل القرية بالمبيت ، وافهمناه باننا لا نضمر شراً للقرية واهلها . وهكذا دخلنا القرية ، وقام اهلها بضيافتنا على احسن وجه ، واكدنا لهم ان اهداف الثورة شريفة ، وانها لا تقر اعمال السلب والنهب . وتبين لنا ان الفلاحين مستاؤون جداً من الاعمال التي ارتكبها زعماء الثورة في منطقة قلمون ، وخاصة خلف النعير ومن معه من عشيرة الغياث.القت صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الاول طائرة قنابلها على قرية « عين التينة » نتيجة لزيارة نسيب البكري ، ثم لمرورنا بها . ولما اقبلنا ضحى على بلدة « النبك » مركز قضاء قلمون شاهدنا طائرة تقصفها بالقنابل . وبعد الظهر أعادت الكرة ، ونحن في البلدة . وليلا اجتمعنا برمضان شلاش الذي لجأ الى قلمون بعد حادثته مع حسن الخراط ، ثم اجتمعنا بنسيب البكري ، وبحثنا وضع الثورة في الغوطة وقلمون ، وعرفنا اننا وصلنا الى منطقة واسعة متحررة من الفرنسيين ، ولكن الفوضى تسودها، والخلافات

على اشدها بين زعمائها ، والاهلون في البلدة والقرى التابعة للقضاء غدوا احزاباً وشيعاً ، هناك فريق مع الثورة وفريق ضدها يقاومها بقوة ، وفريق على الحياد ،او سلبي يريد الا يقرب الثائرون قريته ،ويعلن انه لا يساعدالفرنسيين ، ولكنه لا يحاربهم فيما إذا جاءوا . وقد علمنا خلال الايام التي قضيناها في النبك ان اعمال قادة العصابات ، وفي مقدمتهم حسن الخراط ، وابناء عكاش ، وجمعة سوسق ، واحمد سوسق ، وخالد النفوري الذين يحملون اسم الثورة ، هي التي اوصلت المنطقة الى هذا الوضع المتدهور ، فقد أساءت اعمالهم وتصرفاتهم الى سمعة الثورة ، وزعزعت ثقة الكثيرين من الفلاحين وسواد الشعب باهداف الثورة . لقد كانت الجريمة الكبرى التي ارتكبها ادعياء الزعامة في الثورة هنا العدوان على قرية «معلولا» المسيحية ، مما حمل قرى صيدنايا ، ومعلولا،وصدد ، والحفر ، ورأس بعلبك وغيرها من القرى المسيحية، او القرى التي فيها طوائف مسيحية كبرى، ان تتنكر للثورة ، وان تعاديها علناً ، وان تتسلح لمقاومتها . واستغل الفرنسيون الحادث ليوزعوا السلاح على القرى المسيحية أو القرى التي اكثرية سكانها من المسيحيين ، ويحرضوا اهلها ضد الثورة . ثم جاءت بعدها جريمة عدوان خلف النعير الذي جاء المنطقة مع جموع الثوار ، ومع نسيب البكري ورمضان شلاش،اثرانسحابهم من دمشق جاءت جريمة عدوان هذا الشيخ وأتباعه من عشيرة الغياث على مواشي المنطقة وسلبها ، فانقطع الاهلون عن معاضدة الثورة ، وقاموا يحصنون قراهم ، ويتسلحون لحمايتها وحماية ماشيتهم من النهب . لذلك كانوا يقفون موقفاً سلبياً من العصابات الثائرة ، ويمنعونها ، اذا ما استطاعوا ، من دخول قراهم ، ولو اضطروا الى استخدام السلاح .

والجريمة الثالثة الاتاوات التي كان يفرضها قادة العصابات على القرى باسم الثورة ، ثم التعدي على المسيحيين في يبرود ، ودير عطية ، وفي بلدة النبك نفسها ، فقد قام بذلك حسن الخراط ، وابناء عكاش معه ، وقام بعدهم بذلك جمعة سوسق واحمد سوسق من قرية رنكوس،واستبدوا في المنطقة،وخاصة ، بعد اندحار الحملة الصغيرة التي وجهها الفرنسيون من حمص في محاولة لإرجاع

سلطان الحكومة على النبك.واذكر ان حسن الخراط روى لنا بنفسه في الغوطة قصة مصادرة القطع الموسيقية من مدرسة «يبرود» الطائفية في الدير ، وكيف عرضت، الطائفـــة المسيحية في يبرود عليه خمسمئة ليرة ذهبية كي يعيدهـا الى المدرسة ، فرفض، ولم يستفد من هذه الآلات النحاسية ، وتركها يأكلها الصدأ، واستخدم منها بوقين للتظاهر امام القرويين بان عصابته اصبحت كجيش نظامي تستخدم في حركاتها البوق ! .. وقـــد قام المسيحيون ، اثر هذه الاحداث ، يجتمعون الى زعماء اخوانهم المسلمين في يـــبرود ودير عطية وغيرهما من القرى الكبيرة في المنطقة، يبحثون معهم عن حماية قراهم من العدوان والسلب ،فاقتدى هؤلاء بالقرى المسيحية ، وسدوا منافذ قراهم ، وحصنوها ، واشتروا السلاح ، ووقفوا في وجه كل من يريد الدنو من قراهم باسم الثورة ، واعلنوا في بادىء الامر انهم على الحياد، ولكن تهديد العصابات المتواصل اجبرهم على الاتصال بالسلطة الفرنسية ، وطلب مساعدتها ، فشجعتهم على موقفهم ، ووجـدت في منطقتهم تربة خصبة لبذر التفرقة ، والشقاق ، وشل تيار الثورة ، وشغلهـا بالخلافات ، حتى اصبح عدد المسلحين بالبنادق في منطقتي قلمـون والجورة ، أي في قضاءي قلمون وجيرود ، اكثر من ثلاثة آلاف مسلح ، ولكنها قوة مشلولة لا يمكن لاي كان ان يوحدها، أوينتفع منهـــا في حركة تفيد الثورة. وكان اول من انضم إلى الثورة من وجهاء النبك خالد النفوري تخلصاً من الاتاوة التي فرضها عليه حسن الخراط وأبناء عكاش . ولما قوي ساعده بمـــن انضم اليه من مسلحي النبك ، اقتفى اثر غيره من الطماعين ، وقام بقوة عصابته يحارب الذين كانوا ينازعونـــه الوجاهـــة والنفوذ في النبك وفي منطقة قلمون كآل طيفور ، وآل ملحم في بلدة النبك ، ومصطفى دعبول في بلدة دير عطية ، وبذلك طغت المنازعات الشخصية على الاهداف السامية للثورة . وقد قام خالد النفوري هـــذا بدعوة الثائرين في قلمون الى تجهيز حملة وطنية زعم انه يريد بها احتلال مدينة حمص ، وتحريرها من الفرنسيين ، فقلده خالد الطيفور ، وسليم الملحم من وجهاء النبك ايضاً ، وحسن السويدان من وجهاء قرية «قارة» غيرة منه ، وساروا بأنصارهم

ايضاً نحو حمص ، حتى اصبحوا على مقربـــة منها ، ولكنهم ، في آخر الامر ، اكتفوا بنهب قرية « الفحيلة » المسيحية ، ونهب قرية « الرغامة » النصيريـــة (العلوية) ، شرقي حمص ، متذرعين بان هاتـــين القريتين استعصتا على جيش الثورة الذي يقودونه ، وقاومتاه بالسلاح ، وانفرط عقـــد جيشهم اثر عمليتي النهب ، وعـــاد افراده هذا يحمل قدراً ، وذاك يتنكب لحافاً ، وآخر يجـر حماراً . وكان من نتائج عملهم قيام جميع قرى النصيرية في محافظة حمص بالتسلح ضد الثورة ، وانحيـاز زعمائهم علناً للفرنسيين ، متذرعين بما أصاب أهـــالي «الرغامة» على ايدي الثائرين. ثم جهز احمد سوسق من رنكوس والقرى القريبة منها مسلحين ضمهم الى جماعة خالد النفوري في بلدة النبك ، وسارت حملتهـم مجتازة سلسلة الجبال الغربية إلى سهل القصير جنوبي حمص ، ودخلت بـــلدة القصير مركز الناحية بدعوة من حسن رعد الذي كان متزعماً فيهـا ، فأضعف الاحتلال الفرنسي نفوذه، وخرج عليه، اول من خرج، النصارى في بـلده اعتماداً على صلتهم بضباط الاستخبارات الفرنسيين ، وتحدوه ، وحقد عليهم ، حـتى واتته فرصة اقتراب الثائرين من بلده ، فدعاهم إليها ، كي يبطش بخصومـــه النصارى الخارجين على زعامته ، وشفاء لأحقاده ، فقتل الثائرون ثلاثة مـــن الفرنسيين المدنيـــين كانوا يعملون هناك في مسح الارض وفرزهـا وتنظيمها « كاداستر » ، ونهبوا أموال المسيحيين في القصير وقرية « الدمينة » المسيحية ، واقتلعوا قضيباً واحداً من الخط الحديدي بين حمص ــ الرياق ، ثم عادوا الى قراهم ، واضطر حسن رعد واولاده ، وكلهم شبان ، للجلاء عن بلدة القصير خوفاً من بطش السلطة الفرنسية بهم ، فنهب النصارى منزله وامواله واستولوا على اراضيه واملاكه مقابلة له بالمثل ، ولم يفكر قادة الثائرين الذين بلغ عـــدد حملتهم حوالي ألف مسلح بالزحف الى حمص ، أو الاستيلاء على مخفر من مخافر الفرنسيين في المنطقة ، في حين كانت حامية حمص الفرنسية لا يتجاوز عددها مئتي جندي ، وجاءتهم دعوة من الوطنيين في حمص بالزحف الى المدينة ، مع معلومات صادقة عن ضعف الحامية الفرنسية ، واستعداد الشعب في المدينـــة

لمؤازرتهم ، ولكن الهدف من الحملة ، في الاصل ، لم يكن قتال الفرنسيين ، وإنما كان نهب المسيحيين ، وشفاء أحقاد حسن رعد في القصير . والانكى من هذا ان قادة حملة الثائرين بلغهم وهم يقتربون من حمص ان معظم أغنياء المدينة ، وخاصة المسيحيين منهم، نزحوا إلى طرابلس في لبنان ، بعد ان جمعهم المتصرف وضابط الاستخبارات الفرنسي ، وأعلنا لهم ان ليس لدى الحكومة قوة تقف في وجه وصول الثائرين الى المدينة ، فبلغت اجرة المركبة تجرها الخيل من المدينة الى محطة القطار ليرة ذهبية لكثرة النازحين من الخوف الى مدينة طرابلس . وكان من نتائج غزوة النهب والسلب هذه اتفاق كلمة اهالي القصير مسلمين ونصارى على مقاومة الثورة وتوسعها ، وكثر اعداؤها ، واصبح السكان لا يجدون عاراً في اللجوء الى السلطة الفرنسية ، وطلب مساعدتها لحماية قراهم واموالهم من عدوان العصابات عليها .

هذا هو الوضع الذي واجهنا في قلمون عندما وصلنا الى بلدة « النبك» نحمل الآمال الكبار في امكان جمع الكلمة ، وتجنيد المسلحين للزحف الى الشمال من أجل توسيع الثورة وانتشارها نحو الشمال .

لقد زار نسيب البكري ، بعد وصولنا الى النبك ، بلدة يبرود داعياً اهلها إلى معاضدة الثورة ، والعدول عن موقفهم السلبي منها ، دون جدوى . كذلك أوفد رسولاً الى بلدة «دير عطية» ، فأشبعه اهلها ضرباً ولكماً وشتماً ، ومزقوا رسالة البكري . ولما بلغه نبأ مصير رسوله قنط من صلاح الوضع في قلمون ، وغادر النبك الى جبل الدروز . وفي طريقه التقى بفوزي القاوقجي قائد ثورة حماة ، وكان وصل حديثاً الى الغوطة ، قادماً إليها من العراق ، فترافقا الى الجبل .

أما نحن التسعة القادمون من الغوطة فلم نيأس ، ولم نقف مكتوفي الايدي ، فعقدنا الاجتماعات مع أصحاب الكلمة في النبك ، وتوجه قائدنا سعيد العاص

يرافقه خيرالدين اللبابيدي من الغوطة مباشرة ، عند رحيلنا عنها ، الى قرية رنكوس لاقناع جمعة سوسق واحمد سوسق الاخوين في جمع تجريدة من ثائري قلمون هدفها مدينة حمص ، وتوسيع شقة الثورة الى الشمال .

ولما وصل العاص واللبابيدي الى النبك بطريق يبرود استأنفنا اجتماعاتنا مع وجهاء النبك ، وقربنا بين نزعاتهم باسم مصلحة الثورة ، وحاربنا دعاية الفرنسيين التي بلغت حد إرسال وثائق بالعفو عن آل طيفور ، وآل ملحم ، وآل مالك وغيرهم من وجهاء النبك وقلمون ، على ان يقفوا بانصارهم على الحياد من الثورة ، ويقاوموا أعمال خالد النفوري الذي ينازعهم النفوذ بقوة الثورة . وكتبنا نشرات وزعناها على القرى تدعو الى اتفاق الكلمة إزاء المستعمر عدو البلاد المشترك ، واوضحنا اهداف الثورة السامية ، وانها لا تقر ما وقع من اعمال السلب والنهب والعدوان على أي مواطن بسبب اختلاف المذهب او الدين أو الرأي ، واحدثنا من اخواننا اصحاب الاقلام هيئة للدعاية ، واكدنا في كل اجتماع تم ، اننا سنكون مع الاهالي الشرفاء للضرب بيد من حديد على أيدي النهابين السلابين ومستغلي الثورة لمصالحهم الشخصية . وكنا نسمع من أفواه اكثرية الشعب ، ومن اصحاب التجربة المخلصين ان المنطقة بحاجة الى قوة توفدها قيادة الثورة في الجبل ، يلتف حولها الشرفاء في تنفيذ مخططات الثورة ، وردع كل رئيس عصابة او متزعم في بلده او قريته من ارتكاب الاعمال المنافية لأهداف الثورة. ولما كانت يدنا لا تطول هذه القوة ، فقد قررنا الاتصال بجمعة سوسق ،لعلنا نثير فيه نزعة الخير والوطنية ليجعل من عصابته نواة لجمع مسلحي قلمون في حملة تزحف الى حمص .

استسلام رمضان شلاش للفرنسيين

- ٥٨ -

توجهنا مع سعيد العاص الى رنكوس من الجبال القريبة من حدودلبنان ، ووصلنا إليها تحت تهطال الثلوج ، نشق سبيلنا بصعوبة في الطرق التي كانت تغمرها الثلوج . ولما استقر بنا فيها المقام، اقنعنا الاخوين سوسق بالفكرة ، أو انها تظاهرا أمامنا بانهما قنعا ، وان الهدف من الحملة سيكون حرب العدو المستعمر ، والا فرق بين المسلم والمسيحي في نظر الثورة ، فكلاهما مواطن له ما للآخر من حقوق ، وعليه ما على الآخر من واجبات ، وان قيادة الثورة ضد كل اعمال السلب والنهب والعدوان ، وألفنا لجاناً في القرى تحصي عدد المسلحين ، وتهيئهم للزحف والجهاد في سبيل الوطن ، وتنظمهم ، وتتدارك اعاشتهم لمدة من الزمن ، واعلنا ان جزاء الجاسوس القتل ، واننا سنعاقب كل من يقاوم الثورة بالقوة أو بنفوذه وماله ولسانه . وبعد مساعي واسفار ورحلات شاقة في الجبال تحت الثلوج ، وفي البرد القارس ، وبعد تحمل الكثير من التعب والشقاء، استطعنا نحن التسعة تجميع نحو مئتي مسلح ساروا معنا الى بلدة النبك ، حيث جددنا فيها المساعي لتوحيد الكلمة ، وازالة الضغائن ، واستطعنا ان نقنع زعماءها المتنابذين بالمسير معنا ، فتوجهت قوتنا التيزاد عددها على خمسمئة مسلح من النبك الى الشمال ، وكان مسيرها في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٢٦ ، وعلى رأسها من زعماء المنطقة جمعة سوسق ، ومحمد محسن شيخ قرية الجبة ، وخالد النفوري ، وغيرهم من زعماء قلمون ورنكوس . وقدتخلف احمد سوسق عن السير مع الحملة بسبب جرح من شظية اصابته من قنبلة القتها الطائرات الفرنسية علينا في النبك قبل الرحيل .

كنت قبل سفرنا الى قرى الجرد ، اي الجبال ، لتجميع قوى الثائرين ، توجهت مع رمضان شلاش، وجميل العلواني ، وابراهيم صدقي ومحمد علي الدروبي الى قرية « جريجير » غربي بلدة النبك لإقناع اهلها بالانضمام الى جيش الثورة الذي سيزحف الى الشمال . وخلال اقامتنا في القرية اقنع رمضان شلاش جميل العلواني ومحمد علي الدروبي من اخواننا بمرافقته الى منطقة الفرات ، بطريق البادية ، لاشعال نار الثورة فيها ، مستعيناً بعشيرته هناك . وكان مع رمضان شلاش رجلان من اتباعه ، فاصبحوا خمسة ، حملوا معهم البندقية الرشاشة التي أتى بها اخواننا من جبل الدروز ، يوم التقينا بهم على طريق حران العواميد في المرج . وعلى مقربة من بلدة سلمية ، كشف رمضان شلاش لرفاقه عن نيته في الاستسلام للفرنسيين ، فافترق عنه جميل العلواني ومحمد علي الدروبي ، وكان جواد الاول قد نفق في الطريق من الجوع ، وسرق تابعا شلاش بندقية الدروبي والرشاش الخفيف . وعاد العلواني والدروبي الينا ، بحال يرثى اليها ، اذ تسلل كل منهما بطريق سلمية الى بلدة حمص وحماة ، ومنها الى قلمون ، فوصلا الينا بعد عودتنا من معارك الزراعة على مقربة من قصير حمص .

الفصل التاسع

خطة الزحف الى حمص

- ٥٨ -

كان زين مرعي جعفر وثلاثة من أبناء عمه من عشيرة الجعافرة الشيعية في جبال لبنان الشمالي ، وعشيرتهم يتزعمها آل حمادة في بلدة الهرمل ، وصلوا الى النبك قبل رحيلنا عنها ، للاطلاع على اوضاع الثورة في السهل ، لان منطقة قلمون تعد سهلاً ، في نظر هؤلاء الجبليين ، على ما فيها من جبال ومرتفعات ، وقابلوا سعيد العاص قائدنا ، فشجعهم بدوره وحثهم على الثورة وقتال فرانسة ، وزودناهم بنشرات كنا كتبناها ، وبتعليمات وضعناها عن أهداف الثورة . فوعد زين مرعي جعفر القائد العاص بأنه عائد الى منطقته لاعلان الثورة على الفرنسيين ، وموافاتنا بمن ينضم اليــــه من الثائرين الى جسر « الحارون » بجانب قرية « الزّراعة » ، على مقربة من بلدة القصير ، لان خطتنا كانت تخريب هذا الجسر الحديدي ، وتعطيل سير القطر من رياق الى حمص ، ثم التوجه بقواتنا الى الاراضي الوعرة غربي حمص ، والتي تمتد الى بساتين مدينة حمص ، وتتصل بسلسلة جبال اللاذقية ، مما قد يساعدنا على نشر الثورة وتوسيعها الى الغرب والشمال في مناطق صالحة للثورة ،

ذات معاقل تحد من عمل السلاح الجوي ، وسلاح المدرعات والدبابات . وكنا مدركين ان قوتنا القليلة لا تساعد على مهاجمة حمص من الجنوب والشرق بسبب السهول المتدة من الجهتين الى المدينة ، ولا سيا بعد ان عزز الفرنسيون حامية حمص حتى زادت على الف وخمسمئة جندي من مختلف الاسلحة ، قاموا عند علمهم بحركتنا ، يحصنون المدينة ، ويسدون مداخلها بالأسلاك الشائكة ، وحراستها .

لقد اقتصرنا في خطتنا على محاولة توسيع الثورة في جبال المتاولة ومنطقة الحرمل ، وشمال لبنان ،وفي منطقة العلويين (النصيرية) ، وجبال اللاذقية ، وتهديد المدن الوسطى والساحلية ، ثم توسيع شقة الثورة الى الشمال وتهديد مدينتي حلب واللاذقية ، فتصبح الثورة تعم سورية من اقصاها الى اقصاها ، ويتسع الخرق على فرانسة ،فلا تستطيع القضاء على الثورة بالزحف إلى جبل الدروز واحتلاله وإخضاعه . لقد علمتنا التجارب في الغوطة ، واقليم البلان ، ووادي التيم ، وقلمون ان وصول قوة من الثائرين ، وعملهم الدائب في المنطقة يشجع اهلها على التسلح ،ثم يدفعهم الى الثورة ومنازلة القوات الفرنسية ، ولا سيا اذا استطاع الثائرون القادمون الى المنطقة الانتصار على الفرنسيين في المعارك الاولى . ان السكان ينتقلون من مساعدتهم بالزاد والايواء الى تسليح شبابهم ، وتأليف عصابات منهم ، تشترك في المعارك ، وباشتراكهم تصبح منطقتهم من مناطق الثورة الرئيسية ، وان جلا عنها الثائرون الاول .

الفرنسيون يستعدون للدفاع عن حمص

توجهنا في اليوم السادس عشر من كانون الثاني من قرية قارة الى قرية « البريج » ، بعد ان عجزنا عن استصحاب مسلحي قارة معنا ، لان حسن السويدان من وجهائها ، كان تسلم سراً وثيقة من السلطة الفرنسية بالعفو عنه ،

وكان واسطته في ذلك عبدالمجيد آغا سويدان صاحب قرية حسية أو«حسياء»، وصاحب قرى واراضي كثيرة حولها، فيها سلسلة الجبال التي تقع غربي حسية، والتي تمتد الى لبنان ، ومساحتها تبلغ ملايين الدونمات ، وهـــو من اصحاب الاملاك الممالئين لفرانسة، يسكن على الاكثر مدينة حمص ، خاصة ايام الثورة، فهو يخشى ان تناله الثورة بأذى لقاء ما يقدمه من خدمة للفرنسيين . لذلك لما علم بزحفنا الى حسية قريته ، غادرها الى حمص ، وارسل من اقربائه في القرية من يرجونا الا ندخـــل حسية كي لا يتعرض هو واقرباؤه واهل القرية لبطش الفرنـسيين ، فلم نأبه لرجائه ، ودخلنا مساء السابع عشر من كانون الثاني حسية، فاستقبلنا فيها سعيد سويدان مدير ناحية حسية وشقيق عبد المجيد سويـدان ، وعرفنا ان سيارة فيهـــا ضابط فرنسي كانت ترابط في حسية تراقب زحفنا ، وتقدر عدد قوتنا ، انطلقت الى حمص ، عندمـــا اقبلنا على القرية ، لتنبىء الفرنسيين بآخر المعلومات عن زحفنا ، وعـــددنا ، ومعداتنا ، واسلحتنا ، وفرساننا ومشاتنا . وقد كانت حملتنا هذه المرة ، لها ثقل ، ترافقها مركبات تجرها الدواب ، فيها ذخائر وزاد وبارود اسود وغـــيره . والبارود يستخدم عادة في تفجير الصخور ، فأهالي النبك بينهم الكثير من عمـــال البناء ، وقطع الحجارة ، استحضروا معهم كمية من البارود لاستخدامها في النسف ، بدلاً من المتفجرات الحربية التي تنقصنا .

لقد خفي على الفرنسيين الوجهة التي سنسير إليها ، بعد وصولنا إلى حسية ، لذلك استعدوا في حمص للقائنا ، وزادوا في تحصين مراكزهم في المدينة ، وهم يترقبون ان تصلهم أخبارنا الجديدة من شبكات تجسسهم ، ومن أصدقائهم في حسية . لذلك سرنا من القرية في الساعات الاولى من يوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني متجهين الى الغرب ، واجتزنا ممراً بين الجبال ، ووديانًا اوصلتنا، مع شروق الشمس ، إلى مغاور وكهوف تقع على بعد ثلث ساعة مشياً من قريـــة « الزراعة » ــ بتشديد الراء ــ وجسرها الحديدي المعروف بجسر الحارون،على

الخط الحديدي بين رياق ـ حمص ، وكمنا في تلك المغاور والكهوف المطلة على السهل الذي يمتد فيه الخط الحديدي ، محاولين ان نخفي اثرنا حتى عن سكان المنطقة ، لنباشر عملنا في الليل ، ولكن سكان المنطقة كانوا كشفوا في الصباح الباكر جموعنا ، وهم يحرثون اراضيهم في السهل . لقد وسعت المغاور والكهوف جموعنا ، وخيولنا ، ومركباتنا كلها . وكان أمامها نبع ماء فاتر اسمه « عين السخنة » ، ويجانبها من الشمال مجرى سيل جاف اسمه « سيل الضبع » . وكان الزاد والماء متوفرين لدينا ، لذلك لم نرسل إلى القرى بطلب الزاد . وكانت القطر ذات الركاب تمر عـادة كل يوم بذلك السهل نهاراً ، فمر قطار للركاب ضحى أمامنا ، واجتاز السهل قادماً من الرياق ، ورابط في محطة القصير القريبة ، ثم غادرها إلى حمص . وحوالي العصر وصل قطار مصفح مسلح الى جسر الحارون قادم من حمص ، ورابط عنده ، واستدعى ضابط فرنسي في القطار مختار قرية الزراعة المجاورة للجسر ، وسأله عن الثائرين ، او حسب عرفه ، عن المتوحشين ، إذ كان الفرنسيون يطلقون على الثائرين كلمة « بدوان » ، أي البدو ، وسأله هل ظهر لهم اثر في هذه الجهات ، فأجابه بالنفي ، ولكنه قال له : « ان الاشاعات تتواتر عن وصولهم الى الجبال ، فماذا علينا ان نعمل في حـال وصولهم الى قريتنا ؟ » . فقال : « وماذا يمكنك ان تعمل سوى إعلامنا عن وصولهم ، وتنقل الينا اخبارهم ! » . وتابع القطار سيره الى محطة « رأس بعلبك » ، ولحق به قطار الركاب القادم من حلب بطريقه الى «الرياق» . لقـد جرى كل هذا دون ان يظهر أحد منا للعيان ، مع تقديرنا ان عملاء فرانسة في حسية اعلموا السلطة الفرنسية في حمص عن وجهتنا ، وزودوهم بكل ما سألوهم عن اخبارنا ، لذلـك توقعوا ظهورنا في سهل القصير ، ورافقوا قطار الركاب الثاني بقطار مسلح لحراسته أثناء المرور بسهل القصير .

معارك مع القطر المسلحة والطائرات !

- ٥٨ -

لم تكد شمس ذلك اليوم تحتجب وراء الافق حتى برزنا من مكمننا ، ووجهنا فصيلاً من قوتنا بقيادة محمد محسن شيخ قرية الجبة المعروف بشجاعته في جرد قلمون ، فرزناه من مسلحي قريته ، وعدد افراده عشرون ، أرفقناهم بالضابط خير الدين اللبابيدي لتخريب القضبان الحديدية على بعد ساعة مشياً جنوبي جسر الحارون ، حتى نحول دون وصول القطار المسلح الى الجسر أثناء عملنا في تخريبه ، وزودناهم بطرقة ثقيلة لتحطيم « البزال » ، أو المسامير المحوية (البراغي) التي تشد القضبان إلى بعضها بعوارض حديدية . وكنا مضطرين لان نعمل طويلاً بوسائلنا البدائية في تخريب الجسر . ثم اردنا توجيه مئة من قوتنا الى الشمال لتخريب القضبان الحديدية بعيداً عن الجسر حتى لا يداهمنا قطار من حمص ، فاعترض خالد النفوري على اقتراحنا ، وأكد الا خطر يأتينا من جهة حمص . ولما لم يكن لنا على الحملة غير إبداء الرأي ، سكتنا على مضض ، وتقدمنا بقوتنا كلها إلى جسر الحارون ، واقتلعنا نحو مئتي متر من القضبان ابتداء من الجسر الى الشمال ، وابتدأ من له إلمام من الثائرين بالبناء وقطع الحجارة من مقالعها ، ينقب في ركيزة الجسر اليمنى من جهة الشمال ، وقد بنيت الركائز الاربع من الحجارة المنحوتة ، حتى إذا تم فتح ثقب في الركيزة ، ونقب بعده ليملأ بالبارود ، ويفجر لنسف الجسر ، تبين ان البارود مبلل من المطر لا يشتعل ، فذهب العمل ساعات في نقب الركيزة سدى ، ولم يبق أمامنا سوى هدم الركيزة حجراً حجراً ، وهي عملية شاقة تحتاج الى وقت طويل ، وعمل دائب لمتانة الجسر .

وصلت فصيلتنا الى موقع بالقرب من قرية « جوسية الخراب » ، وما كادت تباشر تحطيم المسامير المحوية ، وتزحزح قضيباً واحداً من الخط الحديدي

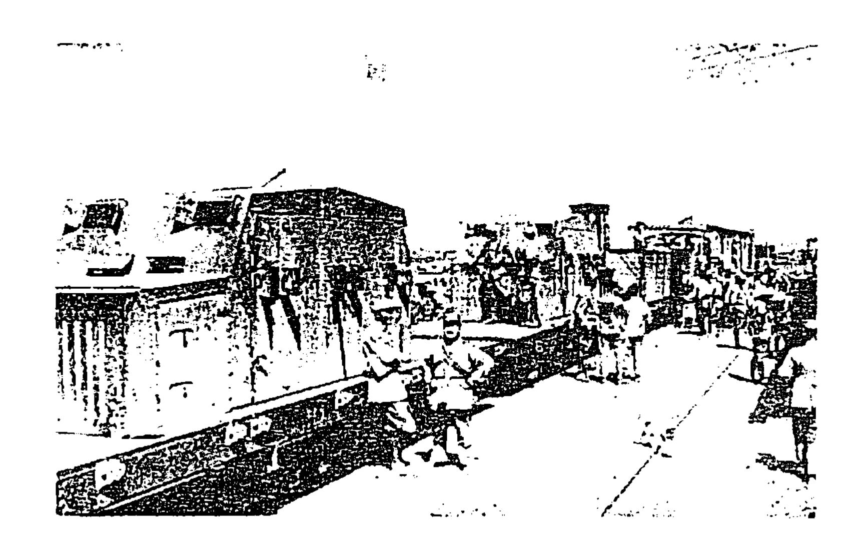
حتى أدركها القطار المسلح عائداً من محطة رأس بعلبك في الجنوب ، لحراسة الجسر والخط الحديدي ليلاً في سهل القصير ، فتراكض الثائرون مبتعدين عن الخط نحو معاقل تحصنوا وراءها ، وما كادت القاطرة تبلغ المكان المخرب ، تخريباً لا يظهر للعين في ظلمة الليل ، حتى خرجت عن الخط ، وخرجت وراءها مركبة مسلحة ، وتدهورتا وانقلبتا إلى جانب الخط ، وظلت مركبتان مسلحتان سليمتين اخذ ركبها يطلق الرصاص من رشاشاته ، والقذائف من مدافعه ، خشية أن يستولي عليها الثائرون . وسمعنا اصوات الرصاص وتفجر القذائف ، فلم نعبأ بها لبعدها عن الجسر مكان عملنا . وقد لبثنا اكثر ساعات الليل ، وهو ليل قارس البرد ذو أندية وريح صرصر ، نعمل في هدم الحجارة ، فلم نستطع قلب الجسر الحديدي عن ركائزه إلى النهر ، ولكننا املناه الى الغرب ميلاً ظاهراً ، لم يعد بعده صالحاً لمرور القطر عليه . وما انبثق الفجر حتى عدنا إلى مغائرنا وكهوفنا نلوذ بها ، وظل محمد محسن ورجاله يناوشون القطار المصفح الليل بطوله . ولما تنفس الصبح ابتعدوا عنه ، وانتقلوا الى موقع آخر صالح للمناوشة في النهار . وفي الضحى أطل علينا من محطة القصير قطار شحن طويل كثير المركبات قادم من حمص ، ظل يتقدم نحو قرية الزراعة حتى حجبته منازلها عن عيوننا ؛ فحسبنا ان القطار يحمل جنداً ، وتأهبنا لخوض المعركة معهم . وكان اكثر اهالي القرية هجروا منازلهم وقريتهم خشية أن يقعوا بين النارين . ولما طال وقوف القطار ؛ وانقضى نحو نصف ساعة لم يترجل الجند منه ، تقدمت مع رفيقي الضابط ابراهيم صدقي وبضعة من الثائرين كطليعة نحو القرية ، نكتشف من وراء جدرانها وأزقتها سر القطار الواقف . ولما توسطنا المسافة بين مواقع قوتنا والقرية ، وكشفنا عدة شاحنات من القطار أطلقنا نار بنادقنا عليها ، لعلنا نجر من فيها إلى المعركة .

ولكن سرعان ما رأينا القطار يتراجع فاراً نحو محطة القصير ، ثم يغادرها نحو حمص ، فتتبعناه بنار بنادقنا حتى غاب عن عيوننا ، وقدرنا بعدئذ ان

القطار كان يحمل عمالاً وحرساً قليلاً من الجند لإصلاح ما خرب من الخط الحديدي والجسر ، ولكنهم فروا لما عرفوا ان الثائرين ما زالوا على مقربـــة من القرية . ويظهر ان الفرنسيين في حمص قدروا أن الثائرين عملوا عملهم التخريبي في الليل، وانتقلوا الى الجبال ، ولم يخطر ببالهم ان تبقى عصابة مسلحة بالبنادق فقط نهاراً ثانياً في وسط سهل فسيح يمكن ان يصبح عرضة للغارات الجوية ، وعلى مقربة من الخط الحديدي الذي ينقل الحملات واسلحتهـــا من أي نوع كانت ، وبأسرع ما يمكن الى ارض المعركة ، ويوجه القطارات المسلحة التي تقوم لوجدها مقـام المدرعات والدبابات والجنود .

بعد انسحاب قطار حمص وصل من الرياق قطار مصفح ثان انقذ المركبتين السليمتين من القطار المسلح الذي تدهورت قاطرته ومركبته الاولى ، وعاد بهما باتجاه « رأس بعلبك » ، بعد ان اطلق نيراناً حامية من اسلحته وجنوده على موقع فصيلنا الذي كان يناوش جنود القطار المتدهور . وقد توقعنا ، بعد فرار قطار العمال الى حمص ، ان تغير علينا الطائرات ، وتقصف مواقعنا في المغاور والكهوف ، وانتظرنا إلى عصر ذلك اليوم ، ولكن السماء كانت متلبدة بالغيوم ، فصممنا على إتمام عملنا في الجسر على ضوء النهار ، في الساعات القليلة الباقية منه ، وتوجه من قوتنا نحو مئة مسلح الى قرية الزراعة والجسر الحديدي يعملون في اقتلاع الحجارة من الركيزة ، وبقي في المغاور والكهوف جمعة سوسق ، وخالد النفوري وسائر الثائرين . وقد اشرفت مع العقيد العاص على سير العمل ، ثم توجهت معه الى قرية الزراعة ، وجلسنا في بيت المختار ننتظر انتهاء العمل على الجسر ، ولكننا سمعنا فجأة دوي محرك طائرة قادمة من جهة حمص ، تحلق على ارتفاع منخفض ، وتتبع الخط الحديدي ، فخرجنا من بيت المختار الى ارض خالية بجانبه ، توسدناها ، واصلينا الطائرة التي مرت فوقنا ، بنار بنادقنا ، حتى كنا نسمع وقع رصاصنا على جسمها المعدني واجنحتها ، فأخـــذت فوراً بالارتفاع ، وانقضت علينا بقنابلها ورشاشها ، ثم انصرفت باتجاه حمص . وعاد

الثائرون الى عملهم في الجسر ، ولكـــن الطائرة عادت هذه المرة تنقض من عل دون هدير محركاتها على القرية ، وباغتتنا ، قبـــل ان نبلغ الارض المجاورة لبيت المختار ، وعاجلتنا من ارتفاع عشرات الامتار بقنبلتين سقطتا في ساحة القرية ، أصابت شظاياهما فلاحاً من أهل القرية قتلته ، فاضطررنا لأن نتوسد الارض في أزقة القرية ، وفي الأماكن الـــتي بلغناها . وكانت جرأة من الطيار وعملاً بارعاً ، لم يمكننا ، بسبب المفاجأة ، حتى من تسديد رصاصنا الى طائرته ،



قطار مصفح يقاتل ويحرس الخط الحديدي

ثم اخذ يرتفع بطائرته ، ويفرغ الاربع عشرة قنبلة الاخرى حمولتها على القرية وما حولها ، ويعود أدراجه باتجاه حمص . وقيل لنا بعدئـــذ ان الطيارين في الطائرة الاولى جرحا ، وان الطائرة عادت الى قاعدتها مصابة برصاص بنادقنا.

عالج الثائرون امر الجسر على ضوء النهار ، وقبيل الغروب بساعة ونصف الساعة وصل من حمص قطار مسلح تجاوز محطة القصير ، وتقدم نحو قريـــة

الزراعة، ووراءه قطار ثان مؤلف من قاطرة ومركبتين، قدرنا انه ايضاً مسلح، رابط في محطة القصير، ثم تجاوزها، وتقدم مئات الامتار نحو قرية الزراعة، ورابط يحمي مؤخرة القطار المسلح الاول، واعقبها قطار ثالث كثير المركبات رابط في المحطة ايضاً، فانسحب الثائرون عن الجسر، وتسلل اكثرهم الى المغاور والكهوف لاحقين باخوانهم المرابطين فيها. وغادرت مع العقيد العاص، وخير الدين اللبابيدي، وابراهيم صدقي، وفؤاد رسلان، دار المختار الى موقع وراء جدران القرية، يبعد عشرات الامتار عن الخط الحديدي، ولحق بنا المجاهد عبدالرحمن الملط من منظمي ثورة حماة الذي سمع بقربنا من مدينة حمص، فتسلل من مخبئه في مدينة حماة، والتحق بنا في موقعنا من سهل القصير. وكنا ارسلنا جيادنا الى الكهوف لئلا تصاب في المعركة، ثم أخذنا نوبخ المنهزمين الى الكهوف من رفاقنا في السلاح، ونشجعهم على الثبات معنا، فانضم الينا نحو عشرة مسلحين من قلمون. ولما دنا القطار المسلح الاول رويداً رويداً من القرية اطلقنا على جنوده المتحصنين وراء أكياس الرمل نيران بنادقنا، فرد علينا بنار من رشاشاته ومدافعه لا تبقي ولا تذر، ولكننا في موقعنا القريب من القطار، ووراء المانع من الارض، كنا في حرز حريز من قذائف مدافعه التي كانت، لارتفاع المدافع عن الارض في المركبات، تسقط وراءنا، بعيداً عنا مئات الامتار. وقد حلقت في نفس الوقت ثلاث طائرات فوق رؤوسنا، اخذت تلقي قنابلها فتسقط بعيداً عنا، لقرب المسافة بيننا وبين القطار المسلح الذي أخذ يتقدم نحو القرية حتى اختفى وراء جدران منازلها عن عيوننا، وأخذ القطار المسلح الثاني يتقدم، حتى وقف في منتصف المسافة بين الزراعة ومحطة القصير، وأخذ يطلق نيران رشاشاته ومدافعه على موقعنا، فأوعزنا الى بضعة افراد من رفاقنا ان يدخلوا القرية، ويتحصنوا في أزقتها، ويناوشوا القطار الاول، خشية ان ينزل الجنود منه، ويلتفوا، او يحيطوا بموقعنا القريب منهم. أما القطار الثالث، فقد كان يحمل، على ما يظهر، عمالاً كثيرين ومعدات لإصلاح الجسر والخط الحديدي، لأنه، خلال المعركة، ظل مرابطاً في محطة القصير لا يصله رصاصنا لبعده عنا، ينتظر نتيجة المعركة التي استمرت إلى ما بعد

غروب الشمس ، يشهدهـــا اخواننا من مكمنهم في المغاور والكهوف ، ولا يحركون ساكناً ، لأن المسافة بيننا وبينهم لا تساعد على خوض المعركة ، وكل من يتقدم منهم لنجدتنا يتعرض لنيران القطارين المسلحين . وقد استشهد ثائر واحد من النبكيين معنا في هذه المعركة ، وا نسحب عندما بدأ الليل يخيم على المكان القطاران المسلحان عائدين الى محطة القصير ، وغادر قطار العمال المحطة باتجاه حمص يحرسه قطار مسلح ، ورابط القطار المسلح الاول في محطة القصير .

لقد بلغنا بالتواتر ان خسائر ركب القطار المسلح ثمانية قتلى ، وعامل قتيل من اهالي قرية قطينة المسيحية القريبـــة من حمص ، وربما كان العمال في القطار الطويل كلهم منها .

بعد انسحاب القطارين المسلحين عدنا الى القرية ، وبحثنا فيها عن حبـــال ومخول حديدية — جمع مخل ،وهو عصا غليظة من الصلب رأسهـا دقيق منبسط يدخل تحت الصخرة أو الجسم الثقيل لزحزحته — فلم نجدها في القرية التي خلت من السكان . وكنا فكرنا بشد الجسر الحديدي بالحبال وزحزحته بالمخول عن ركائزه لاسقاطه في النهر ، لذلك اوقفنا العمل على الجسر ، ولجأ الثـــائرون الى المغائر والكهوف في تلك الليلة الباردة اتقاء الزمهرير ، والمطر الذي كان يتساقط رذاذاً متجمداً كحبات البرغل . ولما عدت من القرية مع عبد الحميد المرداوي متأخراً قليلاً ، وجدنا المغاور والكهوف كلها مزدحمة بالثائرين النيام ، وليس هناك غير مغارة واحدة خالية ذات بابين متقابلين ، منحدرة الارض ، يجري من وسطها ما يتجمع ويسيل من ماء المطر ، اي ان الماء يدخل من باب ويخرج من باب ، ونسمة الريح الباردة ،اي الزمهرير، تعصف في ارجائها ، وليس معي غطاء يقيني البرد غير معطفي العسكري ، وليس مع رفيقي المرداوي ، وهو جندي فلسطيني فر من الجيش الفرنسي والتحق بالثورة ،غير كيسين فارغين من القنب ، جعل احدهما غطاء والثاني فراشاً ، واضطجع كل منا في جانب من المغارة يجري

الماء بيننا ، ولكن بعد غفوة لا اعرف مداها ، أفقت من النوم متجمداً كأنني جسم صلب دون مفاصل . ولما استطعت بعد حين تحريك يدي ، لمست بهـا شعري ، واذا به واقف كالمسلات ، أو كشوك القنفذ من شدة البرد ، فعلقت بندقيتي في عنقي ، والقيتها وراء ظهري ، ورحت أدبّ على اربع ، حتى خرجت من باب المغارة ، ورذاذ المطر يخالطه الجليد يتساقط ، والسماء مكفهرة مخيفة ، وفرسي المربوطة امام باب المغارة بالعراء ترتجف كالسعفة من شدة البرد . وكنت أشعر بخطر التجمد من البرد ، فواليت سيري أدِبُّ على الاربع ، حتى بلغت باب مغارة صغيرة ذات باب واحد ، مددت يدي منـه فوقعت على اجسام متلاصقة دافئة ، ودون أن اعرف من هم هؤلاء النيام ، تدحرجت بجسمي فوقهم ، وعلا الصياح ، وتتالت الشتائم من الفظ الذي يدخل مغارة صغيرة ، في آخر الليل ، ليس فيها موضع قدم له ، وقلت للشاتمين مبرراً عملي بأنني تجمدت من البرد في مغارة ذات بابين ، النوم في العراء أفضل من النوم فيها ، وعلا صوت العقيد سعيد العاص من بين الموجودين في المغارة ، يقول : «هذا فلان! افسحوا له مكاناً بينكم .. انظروا انـه كقطعة جليد يكاد يقتله البرد ! .. » ، ونزلت بجسمي بين اثنين منهم بالقوة ، وارتاح للدفء ، وسرى الدم في مفاصلي ، ونجوت من الموت متجمداً . وكم كان عجبي شديداً ، لما أفقت في الصباح ، ووجدت صاحبي المرداوي ما زال نائماً في تلك المغارة المفتوحة من الجانبين ، تجري في وسطها ساقية من الماء المثلج ، وتعصف من بابيها الريح الصرصر الباردة ، مع ان ملابسه شعبية صيفية ، وليس لديه معطف يقيه البرد . كان الله بعونه على ما قاسى من البرد في تلك الليلة .

كانت السماء في صباح العشرين من كانون الثاني عام ١٩٢٦ متلبدة بالغيوم ، متجهمة مع ضباب قليل منخفض ، والمطر ما زال يتساقط رذاذاً ، فـاطمأنت نفوسنا إلى اننا سنكون بنجاة ، في هذا النهار ، من الغارات الجويـة وشر الطائرات التي أصبحت تعرف مقرنا ، وتهتدي اليه بسهولة . وكان من حقنا ان نحسب الحساب للطائرات ، فهذا هو يومنا الثالث ترابط في وسط سهل فسيح ، قريباً من الخط الحديدي الذي قد ينقل الينا بغتة الجيوش ، ونقيم في مكان

واحد، لا بد ان الفرنسيين حددوا موقعه بالضبط من جواسيسهم، ومن قطاراتهم المسلحة، ومن طائراتهم التي كانت تجيء وتغدو، وتحلق فوقه. وقمنا نسعى لنتدارك الحبال والعصي الحديدية «المخول» نزحزح بها الجسر الحديدي عن ركائزه، وتوجه اكثر الثائرين الى موقع الجسر، وربطوه بالحبال يشدونها من جانبه المائل، والمخول الحديدية تعمل بين الجسر والركائز بحركتها الاستنادية « ما نيود ل » لتزحزحه وتخرجه من قواعده، فما هي إلا لحظات حتى مال الجسر وسقط في مجرى النهر، وظل جانب من جوانبه مرتكزاً على جدران الركيزتين من ركائزه الاربع. وما كدنا نهلل لنجاحنا في تخريب الجسر، بعد عمل استمر ثلاثة ايام، حتى شاهدنا القطار المصفح يتقدم نحونا من محطة القصير يتبعه القطار المسلح الثاني، ويرابط القطار الطويل بالعمال في المحطة، على نسق مساء أمس. وكانت المعركة التي خضناها أفراداً قلائل أمس، شجعت بقية الثائرين على خوض معركة اليوم مع القطارين المسلحين، فكمن فريق في مجرى النهر قرب الجسر، وكمن فريق في أزقة القرية وحولها، وأخذنا مواقعنا ننتظر وصول القطار المسلح الاول الذي ظل يتقدم بحذر، حتى بلغ الجانب المعطل من الخط الحديدي، تحجبه منازل القرية، وهبط منه ضابط فرنسي في فمه غليون يدخنه، وألقى نظرة على الجسر ويداه في جيبه، حاسباً ان الثائرين غادروا المكان، بعد ان ألقوا بالجسر الحديدي في مجرى النهر، واطمأن، وتقدم نحو الجسر ليشاهد مدى التخريب فيه، وتبعه عدد من ركب القطار، هبطوا منه مطمئنين اطمئنان قائدهم. وما كاد الضابط يدنو من الجسر حتى سقط صريعاً برصاص الثوار المتحصنين بضفة النهر، وسقط بعده عدد من جنوده ورجاله، واحتدمت المعركة بين الثائرين وبين القطار المسلح، وعمل ركب القطار بحماية رشاشاتهم ومدافعهم حتى رفعوا جثث قتلاهم، وحملوا جرحاهم من ارض المعركة، وانسحبوا بقطارهم نحو محطة القصير، يسبقهم قطار العمال، والقطار المسلح الثاني نحو حمص. وقد تأكدنا من ان الضابط القتيل برتبة « كابتين » نقيب، وان عدد القتلى والجرحى كان حوالي اثني

عشر جندياً . وقد استشهد في هذه المعركة من الثائرين عبده آغا سويدان نجل عبد المجيد سويدان صديق الفرنسيين في حسية ، إذ ان نجله الشاب صادف في حسية عبد الرحمن المط من منظمي ثورة حماة يسأل عن قوة المجاهدين التي سمع انها وصلت الى حسية ، فذهب إلى بيته ، وحمل بندقية ، وركب فرساً ، ورافق السيد المط إلى مقربة على جسر الحارون ، عارضاً رغبته في ان يلتحق بالثورة ، منددا بتوقف والده وأعمامه منها ، وبصلتهم بالفرنسيين . ولما نشبت المعركة في الصباح بين المجاهدين ، وبين القطار المسلح كان في عدادهم ، وكشف القطار مكانه ، حيث قفز احد المجاهدين يبغي تبديل مكانه بمكان افضل ، واراد الشاب سويدان ان يلحق بزميله ، وهو غير مدرب على القتال ، لم ينتبه الى الرشاش الذي سلط على المكان بسبب قفزة رفيقه ، ولما تحرك محاولاً القفز صرعه الرشاش الذي كان لحركته بالمرصاد . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد ضرب المثل الحي على ان الوطنية الحقة لا تعدم في نفوس أبناء الوجهاء والاغنياء ، وانهم عند سنوح الفرصة يخرجون على إرادة ذويهم الذين تقودهم مصالحهم الشخصية إلى عار ممالأة المستعمرين . لقد ضحى عبده سويدان ، وهو في ريعان الصبا ، بحياته في سبيل وطنه ، وكان فقده اكبر مصاب نزل بوالديه واهله ، كذلك جرح من الثائرين مجاهد شاب من اهالي قرية « عسال الورد » في قلمون ، حمله ابناء قريته الى بلده ، وجرح شاب آخر من اهالي النبك جرحاً بسيطاً . وحوالي الظهر وصل قطار مصفح من جهة « الرياق » في الجنوب الى مكان القاطرة المتدهورة مع المركبة ، لإصلاح العطل ، ورفع القاطرة والمركبة ، ولكن محمد محسن وشباب الجبهة المرابطين في جوسية الخراب ، تصدوا له ، وناوشوه حوالي ثلاث ساعات ، حتى كادت تفرغ ذخيرته ، فاضطر الى الانسحاب والفرار باتجاه رأس بعلبك .

قلب النهابون نصرنا إلى هزيمة !

- ٥٩ -

أصبحت مهمتنا على جسر الحارون منتهية ، بعد تخريب الجسر الحديدي واسقاطه في النهر ، فقد أقمنا ، على قلة عددنا ، ثلاثة ايام متوالية في منتصف سهل القصير ، ضد كل المحاولات من الجيش الفرنسي لزحزحتنا عنه ، وأدينا المهمة على أكمل وجه ، وأصبح الانتقال من هذا المكان اول عمل يجب ان نبادر اليه ، لأن فرنسة كدولة قوية لا يعجزها ان تسوق اليه حملة كبيرة تطوقنا ، وتقضي علينا بأسلحتها الحديثة الفتاكة ، فلديها المدفعية والدبابات والطائرات التي تعمل عملها في السهل ،لذلك بادر سعيد العاص يطلب من خالد النفوري وجمعة سوسق ان تتهيأ العصابة للسير مساء ، حسب الخطة المرسومة ، وبعد انقضاء الموعد المضروب لزين مرعي جعفر دون ان يوافينا مع رجاله الى موقع جسر الحارون ، فطلب النفوري وسوسق من سعيد العاص امهالهما ، والبقاء يوماً آخر ، في نفس المكان . ولما بلغنا النبأ ، توجهنا نحن غير القلمونيين جماعة سعيد العاص مجتمعين الى جمعة سوسق وخالد النفوري ، وأنذرناهما بسوء العاقبة ، فيما اذا تلكأوا الليلة في الرحيل من هذا المكان ، الى وعرة حمص ، حسب الخطة المرسومة ، وأوضحنا لهما من الوجهة العسكرية الأخطار التي باتت تتهددنا ، بعد المعارك التي خضناها ثلاثة ايام متوالية ، مع القطر المسلحة ، وبعد قطع طريق رياق — حلب كل هذه المدة . والخط الحديدي بين دمشق — بيروت — حلب ، يعتبر بمثابة الشريان الوحيد لفرنسة ، مـا دام طريق السيارات بين دمشق — حلب معطلاً منذ احتدام المعارك في الغوطة ، واستيلاء المجاهدين على قامون ، فزعما انهما مضطران للبقاء مع القوة في هذا المكان انتظاراً للجعافرة ، فقلنا لهما ان موعدنا مع الجعافرة فات ، وبإمكانهم ان يلحقوا بنا في وعرة حمص ، فهي

أقرب إلى جبالهم من هذا المكان ، ولا يحتاجون عندئذ لاجتياز سهل القصير ، والخط الحديدي للحاق بنا في مكاننا هـــذا . ولما تهلهلت حجتهم تعللوا بأنهما ينتظران مؤناً وأشياء ضرورية للحملة ذهب من يأتي بها من النبك ، فقلنــا لهما اننا لم نخض معركة ذات بال ، وذخيرتنا التي معنا تكفينا لعدة معارك اخرى ، وبإمكان الذين ذهبوا الى النبك ان نرسل إليهم الآن من يطلب إليهم اللحاق بنا الى غربي حمص ، ونحدد لهم المكان الذي يجب أن يوافونا إليه ! . . وأخيراً طلبا منا امهالهما الى منتصف الليل ، فقلنا لهما اننا لا يمكن ان نبقى ساعة أخرى في هذا المكان ، وسنتقدم كطليعة للقوة الى القرى الأماميـــة ، بانتظار مسير العصابة كلها في الليل ، فأكدا لنا ان العصابة ستسير حتماً بعد منتصف الليل ، وعندئذ ركب العقيد العاص ، وابراهيم صدقي ، وفؤاد رسلان ، وخير الدين اللبابيدي ،والاخوان المعصرانيان ،واربعة من أبناء حماة ،كانوا اشتركوا بثورتها وصدرت عليهم أحكام بالموت من المحكمة الاستئنائية في حماة ، ومنير الريس ، ورافقنا شاب مسيحي من يبرود اسمه « عزة النبكي » شقيق داود النبكي وابن عم خليل النبكي ، كما رافقنا عبد الرحمن المط ، وتوجه الركب الى قريـــة « الدبابية » التي تقع على مقربـــة من موقعنا في « سيل الضبع » باتجاه الشمال ، فوجدنا فيها حسن رعد واولاده السبعة الشبان من القصير ، يقيمون بعيداً عن ارض المعركة ، بانتظار وعد قطعه لهم سراً خالد النفوري وجمعة سوسق باحتلال بلدة القصير ،والبطش بخصومهم من المسيحيين والمسلمين الذين يمالئون الفرنسيين ، ولم ينفذاه ، لأننا اشترطنا على الثائرين جميعاً ، قبل مسيرنا من النبك ، اننـــا ذاهبون لقتال العدو المشترك فرانسة ، واننا نتجنب كل بلد او قريـــة تخشى دخول الثائرين ، واننا لن نحاسب احداً على موقفه فيما مضى ، ما لم تبدر منــه بادرة جديدة فيها عداء للثورة وجيشها ، وفيها انحياز الى الفرنسيين .

قضينا الليل ونهار الواحد والعشرين من كانون الثاني في قرية الدبابية دون أن يوافينا اليها أحد من الثائرين ، فقدرنا ان النفوري وسوسق ينتظران الليل لتسير العصابة كلها الينا ، وليكون لديها متسع من الوقت لاجتياز سهل القصير

الى غربي حمص في الليل دون أن تكتشفها الطائرات . وبناء على هـــذا التقدير قررنا ان نسبق القوة الثـــائرة الى قرية « الضبعة » في السهل لتخريب الخط الحديدي ، ريثما يوافونا اليها ، فالقرية في الطريق التي سنسلكها الى وعرة حمص ، لا سيما وقد علمنا ان قطراً مصفحة وقطار عمال وصلت في النهـار من الرياق الى المكان الذي تدهورت فيه القاطرة ومن ورائها المركبة المسلحة ، وعمـل من في القطر على رفع القاطرة والمركبة ، واصلاح المكان المخرب من الخط الحديدي ، كما ان القطار المسلح المرابط في محطة القصير تقدم في المساء نحو قرية الزراعة ، وأنزل الجنود منه مدفعاً كبيراً قصفوا به المغاور والكهوف ، وأطلقوا ثلاث قـذائف لتحديد المسافة بينه وبين مكمن العصابة ، كما بلغنا أن الفرنسيين وجهوا من حمص إلى قرية حسية حملة عسكرية تقدر بخمسمئة جندي أكثرهم من الفرسان الصباحيين ، يرافقهم رتل من المدرعات ، فأرسل سعيد العاص كتاباً من قرية الديابية الى خالد النفوري في «سيل الضبـع» ، يعلمه ألا يهتم بهذه القوة ، لأن الفرنسيين لا يزحفون بمثلها لاحتلال النبك ، وأكد عليه أن يتقدم بمن معه من قوة الى قرية « الضبعة » حيث ننتظرهم فيها لنجتاز معهم السهل الى غربي حمص ، ونرغم الفرنسيين على سحب قوتهم من حسية ، فهم سيضطرون الى سحبها دفاعاً عن مدينة حمص التي ستصبح تحت رحمة الثائرين . وسرنا نحن جميعاً ، ومعنا حسن رعد وأولاده ، من الديابية ، بعد ان جندنا رجالها وشبابها معنا لتخريب الخط الحديدي قرب قرية « الضبعة » ، وفعلنا في طريقنا ، نفس العمل بقرى « دحيرج » و« كوكران » ، و « الضبعة » ، فجندنا الفلاحين لمساعدتنا في عملية تخريب الخط الحديدي ، في موقع يسمّى « تل مسعود » بين محطتي القصير وقطينة ، وخلعنا بمساعدتهم نحو مئة متر من الخط ، وقلبناه الى جانب الطريق ، وانتظرنا الليل بطوله كي تصل قوة الثائرين الى القرية ، ولكن انتظارنا ذهب سدى ، وطلع النهـــار ، وقبل وضوحه سمعنا دوي الطائرات ، فأدركنا خطر موقفنا ، وانا في منتصف سهل القصير على مقربة من حمص ، بجانب الخط الحديدي ، وعددنا لا يزيد على عشرين مسلحاً ، منهم حسن رعد واولاده ، لم يرافقونا من اجل القتال ، وانما انتظاراً

لفرصة تواتيهم لنهب مسيحيي القصير وتقتيلهم .

وقد حدث لنا معهم في الليلة الماضية حادث يدل على البون في التفكير بين امثال هذه الفئة التي اندست على الثورة ، وبين المخلصين الذين نذروا انفسهم لحرية وطنهم ، وحرصوا على أهداف الثورة . والحادث هو اننا ، لما دخلنا في اول الليل قرية الضبعة ، وحللنا في منزل المختار للعشاء ، ريثما تصل جموع الفلاحين من القرى لمساعدتنا في تخريب الخط الحديدي ، إذ كنا وجهنا حسن وطفة من ثائري النبك ، ومعه الاربعة الفرسان من الحمويين ، واحد ابناء حسن رعد ، واثنين من رجاله ـ كنا وجهناهم من قرية الديابية إلى القرى المجاورة لاستنفار اهلها مع الفؤوس والمطارق وكل ما يساعد على التخريب، وليوافونا الى قرية الضبعة . ولما وصلنا الى القرية لم نجد اثراً لوفدنا ، فتوجهنا الى بيت المختار كما اشرت من قبل ، وسأل حسن رعد المختار ، ونحن في انتظار العشاء ، عن رجل مسيحي من اهل القصير ،يسكن قرية «الضبعة» ، ويعمل «سمكريا» فيها، أي انه يصنع بعض الاواني والاباريق من الصفيح « التنك »، فخاف المختار على المسيحي من حقد « حسونة » ، كما كان الجوار واهل القصير يطلقون على حسن رعد ، فزعم له ان الرجل ترك القرية منذ اضطرب حبل الامن في هذه المنطقة ، وعاد الى القصير ، بلده ، خشية ان يصيبه سوء في «الضبعة» ، فطمأنه حسونة بأنه لا يريد بالرجل شراً ، وان خسارته بماله تبلغ المليون ليرة ، فهل يعقل ان ينتقم من هذا العامل الفقير وكل ما ينبغي السؤال منه عن حوادث القصير واحوالها ، بعد جلائه واولاده عنها . وصدقه المختار ، وارسل في طلب السمكري المسيحي ، ولما جاء خلا به حسن رعد وثلاثة من اولاده ، وطلبوا من هذا الصناعي المسكين خمسين ليرة ذهبية ، قال لهم انه لا يملك إلا عشرها ، وقدم لهم خمس ليرات ، اخذوها منه ، وهددوه بالذبح إذا لم يدفع لهم بقية المبلغ ، وقام حسن رعد ، وتكأه الى عتبة الغرفة ، وبيده خنجر حاد يطلب منه الدفع ، واستغاث الرجل ، وسمعنا استغاثته ، وتقدمنا لإنقاذه من يد حسن رعد ، واحترم سعيد العاص سن حسونة ، وقال له : « دع الرجل الفقير

يذهب في حال سبيله ، واعلم ان عملك يسيء الى سمعة الثورة وينافي اهدافها ، وهو عمل من اعمال النهب والسلب ! » ، فبدرت من حسن رعد كلمات نابية ، وان ليس في الدنيا قوة تحول بينه وبين هذا الرجل الذي هو من أعدائه الذين نهبوا ثروته وعقاراته في القصير، وتعصب الاولاد لوالدهم، وتقدمنا ننصر العتيد العاص ، حتى ادى الامر الى شهر السلاح ، واستخدام القوة ، وإنقاذ المسيحي من ايديهم . وقد اخذنا الرجل معنا الى « تل مسعود » ، واقمنا عزة النبكي الثائر المسيحي على حراسته حتى انتهينا من تخريب الخط . وتخلف حسن رعد واولاده في القرية ، ولم يشاركونا ليلاً في عملية التخريب ، حتى تنفس الصبح ، وانتقلنا الى قرية « دحيرج » ، لا ندري سبب تخلف قوة الثائرين التلمونيين عن الزحف . ويظهر ان لإبطاء حسن وطفة والخيالة الذين ارسلناهم معه لتجميع الفلاحين ، وتوجيههم الى قرية الضبعة قصة اخرى ، فقد سألناهم عند عودتهم في الليل عن سبب تأخرهم ، فقالوا لنا انهم قصدوا في رحلتهم قرية « الدمينة » المسيحية التي نهبها السلابون في المرة الاولى، وطمأنوا اهلها ، ولم يطلبوا منهم غير إرسال مؤونة في الصباح الى قيادة الثائرين. ولكننا لما غادرنا الضبعة في الصباح الباكر نحو الشرق ، وهدير الطائرات يملأ السماء ، قصدنا قرية «دحيرج» باعتبارها اقرب قرية الى الضبعة من جهة الشرق، يمكن ان نتوارى فيها من شر الطائرات ، لاحظنا ان حسن وطفة ورفاقه الحمويين يريدون ان يعدلوا بنا عن اللجوء الى هذه القرية ، متذرعين بقربها من السهل والخط الحديدي ، مقترحين ان نقصد قرية غيرها ، مما اثار الشبهة في نفوسنا ، فصممنا على الذهاب الى «دحيرج» ، وافترق عنا وطفة والحمويون الاربعة ، ولكنهم بعد هنيهة لحقوا بنا الى القرية، زاعمين انهم لم يريدوا أن يفترقوا عنا . ولم ينقض على وصولنا الى القرية ساعتان ، حتى وصل مختار قرية الدمينة، وفلاحون معه يسوقون امامهم أحمال القمح والشعير والبرغل والدقيق مع ثمانية رؤوس من الماعز، وسلموها الى حسن وطفة ، ثم تقدم المختار إلى سعيد العاص ، بحال من الذل ، يعتذر عن عدم تمكنه من جمع المئة دينار ذهباً التي امر بجمعها من قرية الدمينة ، وطلب امهاله

الى الغد لجمعها وتقديمها، فاستغرب سعيد العاص الامر ، وحقق مع المختار، فعلم ان ثمانية فرسان وصلوا ليلاً الى قريته باسم جيش سعيد العاص ، وأخذوا اثنتي عشرة بندقية كانت لدى الاهلين ، وفرضوا على القرية مئة ليرة ذهبية ، عليها طرة آل عثمان ، وكمية من المؤن ، فغضب سعيد العاص ، وتبرأ من حسن وطفة ورفاقه ، وأعلم المختار ان كل طلب بـــدون كتاب خطي موقع باسمه، ومهور بخاتم الثورة الرسمي ، فهو طلب مزور ، وأمره بعدم جمع أي مبلغ من الاهلين،



قرويون مسالمون اعتقلوا بعد تدمير قراهم.

والاكتفاء بالسلاح والمؤونة ، لأن الثائرين بحاجة اليها ، فدعا له المختار ، وعاد مع فلاحيه إلى قريته . أما سعيد العاص فقد طلب من حسن وطفة الاحتفاظ بالبنادق والمؤونة ، ريثما يصل النفوري وسوسق وجماعتها من الثائرين ، وينظر القادة في أمر توزيعها على المستحقين. ولكن حسن وطفة قال انه سيحملها الآن الى العصابة في مكمنها ، وغادرنا مع رفاقه النبكيين بالمؤونة والبنادق ، ونهبوا

في الطريق قطيعاً من مواشي قرية الدبابية ، وتابعوا سيرهم بطريق الجبال الى النبك ، ليدخلوا في قائمة النهابين السلابين . ولم ينس سعيد العاص جريمة وطفة هذا ، فلما عدنا الى النبك طلب سعيد العاص محاكمته ، ومعاقبته على جريمته ، ورد منهوبات الدبابية الى اهلها ، فعارض جمعة سوسق ، وقال في تبرير عمله :
« ان الرجل كريم في بيته ، وهو ثائر لا يعمل عملاً يرتزق منه ، ولا بد له من رزق يعيش منه ! » ، فأدركنا ان الاثنين في الهوى سواء ! .

لم تكد ترتفع شمس اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني حتى سمعنا أصوات قصف المدفعية الثقيلة آتية من جهة الزراعة . وكان القصف شديداً ، لا تقل بطاريات مدافعه عن ثلاث ، اي اثني عشر مدفعاً ، فاوفد العاص ، على الفور ، رسولاً منا يكشف لنا الخبر ، وكنا نود المسير الى تلك الجهة لولا كثرة الطائرات التي كانت تروح وتغدو فوق السهل والخط الحديدي ،وتقصف القرى هنا وهناك ، ولا سيما منها القريب من قرية الزراعة ،وانتظرنا الى ما بعد الظهر ، فلم يعد الينا الرسول ، واوفدنا فارساً آخر ، وانتظرناه الى منتصف الليل ، فلم يعد الينا الرسول الثاني ايضاً ، فساورنا القلق ، ولا سيما واهل الدمينة يعرفون مقرنا ، وقد يبلغون امرنا للفرنسيين ، فنباغت في القرية الصغيرة القريبة من حمص بما لا طاقة لنا به ، ولذلك قررنا المسير الى الدبابية نستطلع الامر بأنفسنا ، فلما بلغناها عرفنا منها ان قوة بقيادة الجنرال «مارتي» ،تعد بضعة آلاف جندي ، نقلتها القطر ليلاً الى منطقة القصير ، ومعها الدبابات والمدفعية الثقيلة ، وتحميها الطائرات ، تعرضت في الصباح ، واحتلت قرية الزراعة ، بعد قصفها الشديد بالمدفعية ، فادرك الثائرون في المغاور والكهوف الخطر الذي يتهددهم ، وخرجوا منها منهزمين الى الجبال الشرقية المعروفة بجبال حسية متجهين الى قلمون ، متجنبين الوصول الى قرية حسية من المضيق الذي مروا به في مجيئهم ، حتى لا يقعوا بين ناري الحملة التي تنتظرهم في حسية . وقد جهز الفرنسيون هذه القوة من دمشق والرياق وحمص ، وفيها قناصة من لبنان ، وكتائب من الحرس السيار ،

ومتطوعون من الطوائف المختلفة ، وبينهم مسلحون من راس بعلبك المسيحية . وكانوا اصلحوا ما خرب من الخط عند « تل مسعود » و « جوسية الخراب » ، واتوا بقواتهم من الشمال ومن الجنوب ، وطوقوا قرية الزراعة ، واحتلوها، واحرقوا امنازلها، وشغلهم احتلالها عن كشف مكمن الثائرين في المغاور والكهوف، ولكنهم فطنوا اخيراً للامر ، عندما رأوا الجموع تخرج منه منهزمة باتجاه الجبال الشرقية ، فسلطوا مدافعهم عليهم ،وعلى المغاور والكهوف ، ولم يكن فيها الكثير من الثائرين ، فقد كان خرج منها جمعة سوسق بجموع الجرد الى جبال حسية ، خشية المباغتة ، وظل فيها خالد النفوري مع مسلحي النبك ، ينتظر، حتى فاجأتهم الحملة الفرنسية ، فخرجوا مهزومين تاركين كل ثقلهم من مركبات ومؤن وذخائر وبعض الجياد، حتى العلم العربي الذي تركناه ليتقدم حملة الثائرين ، تخلوا عنه ، وتركوه في إحدى المغاور ، فاستولى عليه الفرنسيون مع الثقل ، واربعة جياد ، وكثير من العباءات والاحذية والمؤونة التي لم يتمكن اهلها من نقلها ، وتركوها لينجوا بانفسهم . وقتل ستة من الثائرين بقذائف المدفعية ، وفرح الفرنسيون بالعلم العربي الذي كتب عليه جيش خالد بن الوليد، واحتفلوا بعرضه في حمص ، وظل الثائرون في هزيمتهم حتى بلغوا موقع «عيون العلق » ، على بعد ستة كيلومترات شمالي قرية قارة، حيث وجدوا عدداً من مسلحي النبك ويبرود وقرى الجرد هرعوا إلى هذا المكان ، بعد ان سمعوا بوصول حملة افرنسية الى حسية، وما دروا انها كمين اعد للاطباق على الثائرين في حال هزيمتهم من سهل القصير في اتجاه حسية .

الطمع بالنهب سبب الهزيمة

- ٦٠ -

علمنا تفاصيل المعركة من فلاحي الدبابية، وان الفرنسيين يرابطون في المغاور

والكهوف ، وظلوا فيها الليل بطوله ، وانهم يحتلون قرية الزراعــة ، فسرنا تحت جنح الليل نتسلق الجبال الشرقية ، ونتجنب الدنو من الكهوف والمغاور في « سيل الضبع » ، حتى أصبحنا في الجبال بعيدين عن الخطر ، واضطررنا لان ننام فوق الثلوج طلباً للراحة ، وان نتابع السير في نهــار الثالث والعشرين من كانون الثاني في الجبال ، نتجنب حسية ، حتى بلغنا مراحاً للماعز في الجبــال ، قضينا الليل عند سكانه من اهالي القرى الذين يقضون الشتاء في طلب المرعى في تلك الجبال .

تابعنا سيرنا في صباح الرابع والعشرين من كانون الثاني الى موقع « عيون العلق »، حيث التقينا بجمعة سوسق وخالد النفوري وجموع من الثائرين كانوا يرابطون هناك خشية زحف الحملة الفرنسية من حسية الى النبك ، وسنحت لنا الفرصة في هذا اللقاء لأن نعرف السر الذي كان السبب في تخلف جمعة سوسق وخالد النفوري وقوة الثائرين معها في مغاور وكهوف « سيل الضبع » ليلتين اخريين ، بعد مغادرتنا المكان الى قرية « الديابية » حتى وقعت الكارثــة ، وتشتت شمل القوة الثائرة ، وفشلت الخطة التي وضعناها ، وكنا نرمي مــن ورائهــا ان نبلغ بثورتنا حمص وحماة وحلب وجبال الزاوية واللاذقية حتى حدود تركية في الشمال. وقد بلغنا ، عند عودتنا الى عيون العلق في قلمون ، نبأ استشهاد حسن الخراط في بستان الحلاق قرب حي الشاغور من دمشق ، في يوم من ايام شهر كانون الثاني عام ١٩٢٦ رحمه الله .

أما السر الذي أشرنا إليه فيتلخص بأن أهالي قريــة « جوسية الخراب » سمعوا بوصول قوة الثائرين إلى سهل القصير ، ورأوا بعيونهم محمد محسن شيخ قرية الجبة وعصابته الصغيرة ينازلون بجوار قريتهم القطار المصفح الآتي من محطــة « رأس بعلبك » ، ويدهورون قاطرته واحدى مركباته ، فتعجز فرانسة أياماً عن اصلاح الخط ، ورفع القاطرة والمركبة ، وابعاد جيش الثورة عن قريــة

الزراعة وجسر الحارون ، وفي قريتهم مستودع لمالك القرية من اهل حمص ، فيه الحصة العشرية من الحبوب . أي ضريبة الدولة عن انتاج القرية في ذلك العام ، جباها مالك القرية عيناً من الفلاحين ، ولم يبعها ، ولم يؤد الضريبة ، فقد اعتاد أكثر مالكي القرى أن يتلكأوا في تسديد الضرائب والرسوم عن أملاكهم وعقاراتهم إلى خزانة الدولة ، لتغدو بقايا غير قابلة التحصيل ، وتسقط عن كاهلهم ، فتدخل جيوبهم ، فأرسل الفلاحون في القرية سراً الى خالد النفوري وجمعة سوسق يطلبون منهما ان يرسلا من قوتها من يصادر هذه الحبوب من قريتهم ، ويأخذها لاعاشة الثائرين ، فهم أحق بها من المالك من آل الحسيني في حمص ، ومن فرانسة التي تقيم الحكومات العميلة في سورية ، وقالوا لهما ان كمية الحبوب في المستودع تساوي مئات من الليرات الذهبية ، فسال للمبلغ لعاب سوسق والنفوري . ولما كان الاستيلاء على الحبوب ونقلها لمصلحة جيش الثورة لا يفيد منه سوسق والنفوري ، لذلك أرسلا من قبلهما رسولاً في السر والخفاء يقول لزعماء القرية : « اعطونا ثمن الحبوب ، أو ما يعادله تقريباً ، وخذوا انتم الحبوب من المستودع ، تصرفوا بها كما شئتم ، وقولوا لمالك القرية ان الثائرين استولوا عليها !.. » ، فرد عليهما زعماء القرية بأن للمالك عيوناً في القرية من الفلاحين أنفسهم ، بل ان له وكيلاً في القرية سيطلعه على ان الثائرين لم يستولوا على الحبوب ، وانما استولى عليها الفلاحون ، فيستردها منا ، او يسترد ثمنها أغلى مما تساوي في السوق ، ونحن نحب ان تنتفع الثورة بهذه الحبوب التي هي في الواقع مال الدولة التي تحاربونها لا مال المالك! .. وأبت نفسا النفوري وسوسق الدنيئتان ان تفوتهما الغنيمة ، وليس لديهما وسيلة لنقل الحبوب بكميتها الكبيرة ، سراً الى بيتهما في النبك ورنكوس ، واذا نقلت علناً عرف ذلك سعيد العاص واخوانه والشرفاء من الثائرين ، وعندئذ ستكون الحبوب للثورة لا لجيبهما وحدهما ، لذلك ظلا في مفاوضات سرية مع فلاحي جوسيه على قبض ثمن الحبوب دون ان يعود مالك القرية به على الفلاحين . ولما طالت المفاوضات ، وانتهت مهمة الثائرين على جسر الحارون ، ولم تنته المفاوضات ، انتحل سوسق والنفوري

الأعذار الواهية للبقاء ، وأصر زعماء الفلاحين على موقفهم ، حتى فاجأت القوات الفرنسية الثائرين في مكمنهم ، ولولا جهل القيادة الفرنسية بمغاور وكهوف « سيل الضبع » ، وظنهم ان الثائرين يقيمون في قرية الزراعة ، لقضي على الثائرين ، وكانت خسائرهم كبيرة . لقد شغل الفرنسيون بتدمير قرية الزراعة وتطويقها في الصباح الباكر ، ثم احتلالها عن موقع « سيل الضبع » ، فسنحت الفرصة لمن فيه من الثائرين بالخروج من المغاور والكهوف والانتشار في اتجاه سلسلة جبال حسية ، والفرار إليها ، تاركين وراءهم من الغنائم ما كان سبيلاً لتندر الفرنسيين عليهم في البلاغات الرسمية ، والقول انهم تركوا احذيتهم ، وفروا إلى الجبال . أما دم الشهداء الذين سقطوا على جسر الحارون وقرية الزراعة ، ثم بتدفعية الفرنسيين يوم الهزيمة المشؤوم ، فهو في عنقي سوسق والنفوري اللذين استغلا الثورات مرات في سبيل النهب والسلب وتحقيق مطامعهما . وحسبنا انا ايقظنا فيهما حوافز الخير والوطنية ، يوم فاوضناهما ، واعتمدنا عليهما ، وعلى ما اقسما من ايمان بأن يعملا لاهداف الثورة مجردين عن المطامع ، وتعاونا معهما في حركتنا الاخيرة ، واذا بها حوافز كاذبة خادعة طغت عليها حوافز الطمع والشرد الأصيلة في نفسيهما .

تداعينا ، بعد اطلاعنا على سر فشل حملتنا ، إلى اجتماع عقدناه في « عيون العلق » ، اتفقنا فيه على ان نعرض على المتزعمين من جديد اصلاح ما جنته ايديهما على الثورة والثائرين ، وان نزحف من جديد ، بمن معهما في « عيون العلق » من الثائرين ، لتنفيذ الخطة التي رسمناهما ، فانتحل جمعة سوسق لنفسه عذراً ، وغادر المكان الى قريته ، بعد ان وعدنا بأن يعود بعد اربعة ايام الى موقع « عيون العلق » للسير من جديد الى الشمال . وشاع سر فشل الحملة فأخذ الثائرون يتسللون الى قراهم ، حتى لم يبق في « عيون العلق » غير مسلحي النبك ، ومسلحي يبرود من أنصار الثورة ، وهم قلة بالنسبة لسائر سكان هذه البلدة ، وأدركنا ان جمعة سوسق لن يعود ، وان الدافع لمسلحي النبك في البقاء هو خوفهم على بلدهم من ان يداهمها الفرنسيون بحملتهم المعسكرة في قرية « حسية » ، مع علمنا

ان تلك الحملة الصغيرة لم توجه الى حسية الا لقطع خط الرجعة على الثائرين ، عندما خطط الفرنسيون للهجوم على قرية الزراعة ، وسحق الثوار المرابطين فيها ، حسب تقديرهم ! .

النفوري ينهب مواشي دير عطية

عدنا مساء اليوم الرابع والعشرين من كانون الثاني الى بلدة «قارة» ، واتفقت مع رفيقي في السلاح الضابط ابراهيم صدقي ان نصارح سعيد العاص القائد بان كل جهد نبذله في هذه المنطقة لخدمة الثورة سيمنى بالفشل ، ما لم يكن لقيادة الثورة في المنطقة قوة رادعة يخشاها الاشرار ويرضى عنها الاخيار ، وهم الكثرة الكاثرة في سواد الشعب . الكثرة في الفلاحين البسطاء الذين يبيعون مؤونتهم ولقمة عيشهم ، ويشترون بها البنادق والعتاد ليجاهدوا بها في سبيل الله والوطن ، ويموتوا شهداء ابراراً ، ويقدموا عن طيبة خاطر أرزاقهم ومؤنهم لضيافة الثائرين الذين يؤمون قراهم ، واطعامهم . الكثرة في العمال وصغار أرباب العمل والشبان المثقفين والجنود والضباط المؤمنين بحق وطنهم في الحياة الكريمة ، ينفق الواحد منهم آخر درهم في جيبه ، ويشتري به البندقية قبل الراحلة ، ويترك زوجه واولاده وأمه واباه واهله ، ويخرج لقتال العدو القوي ، فيموت شهيداً ، ويغمض عينيه وهو يهتف باسم وطنه ، وحرية أمته العربية ووحدتها .

اجتمعت ورفيقي ابراهيم صدقي بالعقيد سعيد العاص ، وطلبنا منه ان يرافقنا الى جبل الدروز لنطلع سلطان الاطرش والزعماء النافذين في الثورة على وضع منطقتي الغوطة وقلمون في ضوء تجاربنا خلال الاشهر الثلاثة التي قضيناها فيهما ، وإلا فإننا مسافران غداً لوحدنا إلى جبل الدروز ، فأصر هو على البقاء والانتظار اياماً ، في قلمون ، لعل جمعة سوسق يعود حسب وعده ، ويستطيع أن يعاود معه ، ومع خالد النفوري وزعماء قلمون محاولة تجميع قوة من جديد ، والزحف

بها الى اطراف حمص ، فقلنا له انك ستنتظر عبثاً عودة هذا النهاب ، وان عاد فلن يعاونك على جمع القوة ، وان جمعت فإن مصير كل حركة فيها سوسق والنفوري واضرابهما سيكون نفس المصير الذي آلت اليه حملة جسر الحارون ، أي الفشل الذريع . ولما رأى العاص اصرارنا ، وما آلت اليه حالنا من الحفى والعري ونفاد العتاد ، وليس في جيبنا بارة واحدة ، وافق على ان نسبقه الى جبل الدروز في الغد ، ووعد بأن يلحق بنا ، اذا لم يعد جمعة سوسق في الموعد الذي حدد له . ودعت ورفيقي ابراهيم صدقي الرفاق الذين تخلفوا مع سعيد العاص في قارة ، وسرنا في صباح الخامس والعشرين من كانون الثاني إلى النبك ، بعد أن زودنا سعيد العاص بكتاب منه الى سلطان الاطرش شرح له فيه الوضع في الغوطة وقلمون . ورافقنا في رحلتنا عبد الرحمن المط التاجر في حماة ، ومن منظمي ثورتها ، وعلاء الدين المسوتي من دمشق الذي عرفنا انه يجوب قرى قلمون بعيداً عن الغوطة ومعاركها ، فأصبحنا اربعة ، بجوادين نتناوب ركوبهما . ولما بلغنا قرية القسطل على بعد عشرة كيلومترات جنوبي النبك ، علمنا ان خالد النفوري عاد من قارة بمن معه من مسلحي النبك الى بلده ، بعد ان اطمأن الى ان الحملة الفرنسية في حسية رجعت الى حمص ، واغار في طريق عودته على مواشي دير عطية من الماعز ونهبها ، بعد صدام وقع بينه وبين اهلها المسلحين ، فعوض بذلك على ما فاته من غنيمة مستودع الحبوب في جوسية .

لقد بادل رفيقي ابراهيم صدقي في بلدة النبك على بندقيته الالمانية القصيرة المعروفة « بأوتوموبيل » ، إشارة الى انها سلاح جنود السيارات والفرسان ، ببندقية عثمانية قديمة ذات خزان حديدي للطلقات الخمس ، معروفة باسم «قاصه لي» ، وقبض ليرتين ذهبيتين الفرق ، فاشترينا منهما حذاءين رخيصين لي وله ، وانفقنا ما تبقى منهما على انفسنا وعلى الفرس خلال رحلتنا الى جبل الدروز .

قيادة الثورة ليست على مستوى الاحداث

بلغنا السويداء في اليوم الرابع من شهر شباط عام ١٩٢٦ ، بعد مشاق تحملناها في الطريق من رداءة الجو،ورداءة الطريق، حتى ان فرسي عثرت بثلاثة جروح في ظهرها ، وهزلت من الجوع والتعب . وصادف يوم وصولنا الى السويداء سفر فوزي القاوقجي منها الى الغوطة للاشتراك في معاركها . وقيل لنا انه بذل مع نسيب البكري جهوداً من اجل اقناع سلطان الاطرش والامير عادل ارسلان الذي كان وصل الى الجبل ، واصبح له كلمة نافذةعلى الدروز ، من اجل تجهيز قوة من الجبل بقيادة صالحة تسير الى قلمون ، وتجند مسلحيه وتسيرهم لتنفيذ أهداف الثورة ، وتضرب على يد كل من يعتدي على القرى ، ويعمل للسلب والنهب ، حتى قيل لنا انهما تعهدا للقيادة بدفع رواتب لأفراد هذه القوة وقادتها من الضرائب التي تجبى من الاهلين عن طيب خاطر ، ولكن قيادة الثورة في ذلك الحين، كانت تعد العدة للاستيلاء على وعرة اللجاة البركانية ، وتأديب القبائل البدوية التي تكرر عدوانها على مواشي الجبل ، لذلك جادلت تعنتاً كي لا تظهر بمظهر المقصر ، وهزئت بالفكرة ، وتساءلت كيف تستطيع قوة درزية من بضع مئات إخضاع ألوف الثائرين المسلحين في قلمون والغوطة ، وتنظيمهم ، وتمنع السلب والنهب في منطقتهم ؟ وشجبت القيادة مبدأ الراتب لأفراد تلك القوة ، لأنه يثير الطمع فيِنفوس الدروز ، فلا يذهب بعدها أُحد منهم الى القتال دون اجر ، وتعللت بأن المنطقة المسلحة كقلعون يجب ان تنظم نفسها بنفسها ، كما نظم الجبل نفسه بنفسه ، وتجاهلت ان وضع قلمون لا ينطبق على وضع الجبل الذي كان يدار عشائرياً في ظل الحكومات المتعاقبة كلها، فقد ظل اهله، في عهد الدولة العثمانية يحلون مشاكلهم بينهم بالاسلوب والتقاليد العشائرية ، وفي عهد فرنسة ظل متعب الاطرش عارفة المقرن الجنوبي ، ودار عري دار الامارة والحكم ، وسلطان الاطرش

الرئيس الحربي ، ومن قبله كان والده مثله . وهذه وأمثالها تقاليد عشائرية لا تتأثر كثيراً بتقلص حكم الدولة عن الجبل . أما الغوطة وقلمون ، واي منطقة أخرى فيها مدن وصناعات ومهن وحرف وأعمال مختلفة ، وقرى زراعية ، فانها بحاجة الى دولة والى حكومة ترعاها ، والا اضطرب فيها حبل الامن ، وسادت الفوضى ، واعتدى القوي على الضعيف ، دون ان يكون هناك توازن عشائري يحول دون ذلك . لقد كانت قيادة الثورة في الجبل دون مستوى الثورة الوطنية الشاملة ، فهي قد تصلح للثورة في الجبل ، ولكنها لا تستطيع أن تصبح قيادة تنظم ثورة تعم سورية من اقصاها الى اقصاها،فسلطان الاطرش على شجاعته ، وما قام به من عظيم الاعمال في إثارة الجبل على فرنسة ، غير مثقف لا يدرك اثر التنظيم في الثورات الوطنية ، ولا يعرف ما هي الخطط الحربية التي يجب ان تنفذ بالنسبة لأهميتها ، وتتقدم على غيرها ، فغزو اللجاة في نظره أهم من تنظيم ثورة الغوطة وقلمون ، لانه يمنع عدوان أفراد من البدو على مواشي الدروز ! .. ان الاستيلاء على اللجاة لا قيمة حربية له ، لأن الدروز لا يستطيعون البقاء والعيش فيه طويلاً لخلوه من وسائل العيش والبلدان والقرى ، فضلاً عن انهم ليسوا بحاجة إلى ملجأ يتخذونه ضد زحف الحملات عليهم ، وفي حال الاحتفاظ به فإنهم بحاجة إلى قوة كبيرة منهم تسيطر عليه ، وتحول دون عدوان عشائره التي نزحت عنه عليهم ، فهذه العشائر تعرف مجاهله ومداخله، وتستطيع ان تهاجم الدروز المحتلين ، وتقوم بغارات مفاجئة عليهم، وتنسحب فيما إذا عجزت عن إنزال ضربة قاضية بهم . والدروز ليسوا بحاجة إلى وعرة اللجاة للانطلاق منها إلى حوران أو دمشق ، فجبلهم من الوعورة والجفاف والموقع المانع ما أعجز الجيوش الكبرى في جميع الثورات التي قاموا بها ، وحوران على حدود جبلهم ، لا يفكرون بغزوها قبل موافقة أهلها ، واشتراكهم في الثورة ، فهم عشائر وعائلات وحمولات كالدروز ، ولا تخلو أيديهم من السلاح ، وعددهم يفوق عدد الدروز ، ودمشق يهددها الثائرون من الغوطة ، ويحيطون بمعظم احيائها ، بل يحتلون عملياً احياء كبيرة منها . إذ ان

الفرنسيين ، لما اعجزتهم هجمات الثائرين في الغوطة على مراكزهم في دمشق ، قسموا المدينة إلى قسمين : قسم مستدير هو قلب المدينة ، يمر محيط دائرته بالجسر الابيض في جادة الصالحية وبباب المصلى في حي الميدان ، ويشمل القصاع وشارع بغداد ، احتفظت به فرنسة ، ودافعت عنه ، واقامت حوله الحصون (البراجات)، وأحاطته بالاسلاك الشائكة ، وتركت له منافذ معدودة تفتح وتغلق بالاسلاك الشائكة ، وشقت شارع بغداد من اجل ان تشمل الدائرة حي القصاع وباب توما ، وقطعت الاشجار في تلك المنطقة على طول الطريق كي تجعل فاصلاً بين حصون جنودها «براجات »، وبين البساتين التي تتصل بالغوطة المشجرة والعصابات التي تقيم فيها . وقسم يقع خارج تلك الدائرة ويتألف من أحياء المهاجرين والصالحية الى الجسر الابيض ، وحي الاكراد ، وحي الميدان من باب المصلى الى آخر الميدان الفوقاني، وعدد آخر من الاحياء القديمة الاخرى. تخلت فرنسة عنها للثائرين وابقت فيها مخافر للشرطة ، أفراد مرتب كل مخفر منها ، بأكثريته ، من أهل الحي نفسه ، حتى يحرص اهل الحي على المخفر ، ويكف الثائرون عن مهاجمته . وفرنسة تعرف ان هذه المخافر لا تستطيع مقاومة أي هجوم يقع عليها ، ولكن بقاءها يرمز إلى بقاء نفوذ الحكومة على تلك الاحياء . لذلك كان لا بد من ممالأة شرطتها للثائرين، على أن يبقوا عليهم. وقد ظلت دمشق، بعد هذا الحصار، تعيش احياؤها هذه تحت نفوذ العصابات، تدخل مثلاً عصابة حي الاكراد الحي نهاراً بأسلحتها وجيادها ، فيغض أفراد مرتب المخفر في الحي عيونهم عنها ، ويدخل أي فرد من أفرادها الحي بسلاحه فلا يعترض سبيله الشرطة ، ويذهب الثائر من اهل الحي ليلاً الى بيته ينام فيه ، ويخطر نهاراً ببندقيته في السوق لا يخشى عدوان الشرطة عليه ، ولا يحسب حساباً إلا للحملات الفرنسية حين تزحف إلى الحي للبحث عن الثائرين ، أو في طريقها إلى الغوطة . ولذلك يتضح لنا ان احتلال اللجاة ليس له هدف غير تأديب أعراب اللجاة ، والخلاص من سرقاتهم ونهبهم بعض مواشي الدروز ، ويمكن تأجيله، وتقديم تنظيم الغوطة، وتنظيم قلمون عليه، لأن في تنظيمهما بقاء للثورة، ونصراً لها، إذ يتفرغ ألوف المسلحين للزحف إلى المناطق غير الثائرة في سورية، واستغلال إمكاناتها، وحملها على الثورة والتمرد على فرنسة، فلا تبقى الثورة

محصورة في جبل الدروز والغوطة حول دمشق ، او تعيش بضعة اسابيع في اقليم البلان ووادي التيم وتنتهي ، لا سيما ونحن نعرف ان الفرنسيين لا يربكهم شيء كتوسيع الثورة ، وفتح جبهات جديدة عليهم ، خاصة في المناطق الصالحة لحرب العصابات كجبال لبنان ، وجبال اللادقية ، والجبل الوسطاني وجبال الزاوية وغيرها في الشمال ، وهي جبال عاشت فيها الثورة من قبل ، وكبدت بقيادة الزعيم ابراهيم هنانو والشيخ صالح العلي ، الفرنسيين ألوف القتلى والجرحى وملايين الليرات. كان المفروض أن تدرك ذلك قيادة الثورة في الجبل ، بعد أن انتهت الثورة في وادي التيم وإقليم البلان ، ومرت فترة تخلى فيها الثائرون عن الغوطة ، وغادرها أكثرهم إلى الجبل ، وغادرها عدد من السوريين الغرباء عن الجبل إلى شرقي الأردن ، وبعد أن عرفت قيادة الثورة أن قلمون بما ارتكب متزعموه من جرائم حفروا قبر ثورته بايديهم ، ولم يبق أمام فرنسة إلا الجبل تنتظر الفرصة السانحة المؤاتية لإخضاعه ، ولولا عشرة من الثائرين المؤمنين بوطنهم وعروبتهم قاموا بمحاولةيائسة فيقلمون شغلتالقيادة الفرنسية ، وسحبت قواتها إلى حمص وحماة ، لسنحت الفرصة من جديد لأن تغزو فرنسة الجبل بجحافلها ، وتقضي على ثورته . والدروز جميعهم يعلمون الا طاقة لهم وحدهم بقوات فرنسة . وقد جربوا معها في غزو السويداء وإنقاذ حاميتها من الحصار ، وجربوا معها في احتلال خربا وعري ورساس . ولولا ثورة حماة لما عاشت ثورتهم أكثر من ايام معدودات .

لقد تأثر قادة الثورة من الدروز بمصلحة جبلهم فآثروا تجميع مقاتليهم لغزو اللجاة ،بدلاً من تجميع بعضهم لتنظيم الثورة في المنطقة التي أصبح أهلها ثائرين ، واستخدام طاقاتهم وإمكانياتهم في منازلة الجيش الفرنسي ، وتوسيع رقعة الثورة عليه ، حتى لا يعرف من أين تأتيه الضربات .

لقد بلغنا يوم وصولنا إلى الجبل أن نسيب البكري غادره إلى شرقي الاردن ، فهو وان لم يكن محارباً ، إلا انه كصاحب مطامع سياسية ، كان يريد

ان تعم الثورة ، وان تنتصر ليحقق مطامعه ، فلما يئس من تنظيمها ادرك انها سائرة الى الفشل ، وان ليس له دور فيها ، فآثار الانسحاب منها ، وآثر غيره قبله وبعده الانسحاب ، وغادروا الجبل الى عمان .

وهناك قضية اخذت تلعب دورها ،وتثورث الاحقاد والنقمة في نفوس بعض الثائرين على قيادة الثورة ، هي قضية الاعانات والتبرعات التي كانت معدومة ، في بدء الثورة،ثم اخذت بعد ضرب الفرنسيين دمشق وحماة ، وبعد الفظائع التي طبقت اخبارها العالم ، ترد الى قيادة الثورة من البلدان العربية ، ثم من الجاليات العربية في المهجر ، فسعد زغلول الزعيم الوطني في مصر ، وجه بعد ضرب دمشق بالقنابل وتدميرها ، وحرق احياء فيها ، نداء الى الشعب المصري يدعوه الى التبرع ، ومسح جراح المنكوبين من اخوانه السوريين ، وصدرت نداءات كثيرة ، واخذت الجمعيات العربية في المهجر تقيم الحفلات ، وتدعو الى اجتماعات تتحدث فيها عن ثورة الشام ، ونكبة دمشق وحماة ، وعما ينزل الفرنسيون بالمدن والقرى من تدمير وتخريب وحرائق وتقتيل، فاخذ المغتربون العرب، واكثريتهم الساحقة من السوريين واللبنانيين،أي من الشام،يتحسسون بما يعيشه وطنهم ، واخذت تبرعاتهم تصل الى قيادة الثورة، يتصرف بها احياناً سلطان الاطرش بمفرده،واحياناً يتصرف بها سلطان والدكتورالشهبندر الذي كانت بعض التبرعات تصل باسمه الى مصارف شرقي الاردن ، واحياناً يتصرف بها سلطان والشهبندر وعادل ارسلان دون ان يقدموا لاحد عنها حساباً . والمال دوماً سبب الخلاف في التعامل بين الناس ، فقد كان يصعب على رجل مثل الدكتور خالد الخطيب ، وهو من منظمي ثورة حماة ، قضى شبابه في الحركة الوطنية ، وقاد ، وهو طالب ، المظاهرات في دمشق،انه يأتي الى الجبل فلا يجد من يطعمه ، أو يسأل عنه ، ويتلفت ليرى اخوانه وابناء بلده أمثال سعيد العاص ومنير الريس لا يجدون في جيوبهم مجتمعين ثمن حذاء ، فيما اذا اهترأ حذاء احدهم ، ويقال لدا ن سعيد العاص اهترأ « بنطلونه »في الغوطة

حتى ظهرت منه عورته، فلم يجد من يشتري له ثوباً يستر جسمه ، وسمع ان الاعانات ترد الى الجبل ، وتوزع،وتنفق على الانصـــار والمقربين ، يسكن مثلاً الامير عادل ارسلان بيتاً من اكبر البيوت في السويداء،وحوله الاتباع والمرافقون، يأكلون كل يوم اشهى الاطعمة ، ويطعمون من يريدون معهم ، وسعيد العاص وخالد الخطيب او اي ثائر من منظمي ثورة حماة ، او اي ثائر من غير الجبل ، لا يجد ، اذا اعوزه المجيء الى الجبل ، في مقر القيادة من يسأل عنه ، او يطعمه لقمة ، او يقدم لجواده حفنة عليق ، فيضطر لأن يبيع ساعته وخاتمه ليتسلح ، او يبيع مسدسه ليأكل ، او يبدل بندقيته الجيدة ببندقية قديمة ليشتري بفرق ثمنها طعاماً يمسك به رمقه ، او نعلاً يحتذيه من الحفى ، او عليقاً تقتات بـــه راحلته. والدكتور خالد الخطيب لاتنقصه الجرأة،فقد تكلم في هذا الموضوع في المجالس ، وتكلم فيه امام سلطان الاطرش ، فأغضب كلامه المحيطين بسلطان ، وأرادوا إهانته ، بل أهين ومنع من السفر، لا لشيء ، إلا لانه طلب ان يكون للثورة مجلس أعلى تتمثل فيه المناطق الثائرة كلها ، ينظمها ، ويشترك في رسم خططها ، ويطلع على مواردها وطرق إنفاقها. واضطر الدكتور الخطيب اخيراً للهرب من الجبل، وليس لديه مال يستأجر به راحلة تحمله الى شرقي الاردن ، فقطع طرق الجبل متنكراً ، واجتاز طريق الجبل الى عمان مشياً على قدميه ، فبلغها متورم القدمين ، يكاد يقتله التعب . وكان نتيجة طبيعية للتسلط أن يغدو الدروز والسوريون الغرباء في الجبل،وفي مناطق الثورة الاخرى شيعاً واحزاباً، هـــذا ينتمي لزعامة فلان ، وذاك ينتسب لزعامة غيره ، هـــذا يشتم حزب الاستقلال ، وذاك يمجده . يدعو بعضهم الى تأليف وزارة سورية من الآن ، ما دام مسيو دي جوفنيل المفوض السامي الفرنسي فاوض لجـــنة المؤتمر السوري الفلسطيني على ايجاد حل للقضية السورية ، ويقول في تبرير دعوته ان فرنسة لا بد ان ترضخ يوماً لمطالب الشعب السوري ، فإذا انتقل البحث الى اسماء الوزراء اختلفوا عليها ، وكأن الثورة انتصرت ، ولم يبق غير اقتسام الغنائم ! ..

كذلك علمنا يوم وصولنا الى السويداء ان فوزي القاوقجي اتصل خـــلال

اقامته في الجبل بزعماء الدروز ، والنافذين في أسرهم الكبيرة ، واتفق مع بعضهم على السفر معه الى قلمون ، وبلغ عدد قوته نحو مئة مسلح من جماعاتهم ، وجد انها لا تكفي لتنظيم ثورة قلمون ، فبقي بها في الغوطة ، ولكن قوة الدروز ، كما تعرف ، لا تثبت على حال ، ومتى باع الدرزي المقاتل بندقيته بثمن جيد في الغوطة او في المرج ، أو أصاب كسباً ، ولى الغوطة ظهره ، وعاد الى قريته في الجبل يبحث عن شراء بندقية جديدة بثمن اقل .

لقد سبق وصولنا الى السويداء حوادث صغيرة وقعت لتدل على ما يجري في الجبل ، فقد قيل لنا ان زاهد الغزى أحد الشباب الدمشقيين الملتحقين بالثورة توجه الى بيت الامير عادل ارسلان يشكو الجوع ، ويسأل عن الاعانات والتبرعات التي ترسل للثورة كيف تنفق ، وكيف يتصرف بها الزعماء، فأهين، وحبس في الاسطبل بين الدواب بأمر من الامير عادل ارسلان . ولم يقف الامر عند عادل ارسلان وحده بالبذخ ، فالدكتور عبد الرحمن الشهبندر في السويداء ينعم بمآكل الدجاج واللحوم وعلب المحفوظات « الكونسروه » ، والحليب المكثف ، والسمك السردين والطون ، وكل ما تشتهي النفس ، بينما الثائرون أمثالنا لا يجدون في السويداء الخبز الجاف ، ولا يجدون المأوى، ولا يتوفر لرواحلهم التبن في جبل الدروز ، ناهيك عن الشعير ..

لقد جئت الى السويداء مع رفيقي في السلاح ابراهيم صدقي ، بعد فشل خطتنا في غزو حمص ، وتوسيع شقة الثورة ، لنطلع القيادة في الجبل على سوء الوضع في الغوطة وقلمون ، وبعد غياب ثلاثة اشهر عن الجبل ، خضنا خلالها عشرات المعارك الدامية الضارية ، ونجوت ، في احداها ، بأعجوبة من الموت ، واهترأت ثيابنا ، وتقطعت أحذيتنا ، وخلت محافظنا « الجنادات » من الاعتدة ، كما خلت جيوبنا من الدراهم ، وجعنا ، وجاعت معنا الفرس العود ، وقرحت ظهورها القروح والجروح من طول الركب ، وسوء حال السرج ، واضطر ابراهيم صدقي لان يبادل على بندقيته لنحصل على دريهمات

نسد بما نشتري بها رمقنا ، ورمق الراحلة التي تحملنا . واملنا كله في القيادة ، في سلطان الاطرش، في الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي لولا ثورة حماة التي كنت رسولها وموفدها إلى الجبل ، لانتهت الثورة فيه ، ولكان الشهبندر هارباً مشرداً بين شرقي الاردن ، ومصر ، وقد كان اول الهاربين من الجبل يوم زحفت حملة الجنرال غاملان لإخضاع الثورة ، واحتلت عدة قرى من قراه ، وسيطرت على مياهه ، واستسلم اليها الامير حمد الاطرش وغيره .

لقد كانت بندقيتي التي أحملها منذ شهرين ، وأخوض بها أقسى المعارك في الغوطة وقلمون ، وسهل القصير ، نفس البندقية التي انفجرت سبطانتها يوم « حمورية » اضطررت الى فقدان المال من جيبي ، لأن ابتر القسم المتصدع من فوهتها ، وأن أبقيها سلاحي الوحيد ، وأتمرن على التسديد بها ، وهي بعد اختلال توازنها بالبتر ، وقصر سبطانتها أصبحت سلاحاً لا يصلح للقتال . ولكن ما العمل وليس عندي مال اشتري به بندقية جديدة ، وثمن البندقية في الغوطة بضع ليرات ، بل عشر ليرات ثمن البندقية الجيدة ، وليس في جيبي عشر الليرة اشتري به لفرسي حفنة شعير ، خاصة في الايام التي قضيناها في النبك وقلمون نعمل لتوحيد كلمة الثائرين والسير بهم نحو حمص .

لقد كنت ورفيقي ابراهيم صدقي نتوقع، وسلطان الاطرش يعرفنا، ويعرف من الدروز الذين رافقونا في المعارك الكثيرة جهدنا ، واستماتتنا في سبيل حرية وطننا ، بل هو يعرف من محمد عزالدين الحلبي الذي لم نتخل عن رفاقته كل ايام الغوطة ما هو جهدنا في الثورة ، وبذلنا في المعارك التي خضناها معه – كنا نتوقع عند أول مقابلة أن نسمع منه كلمة : « اهلا وسهلا » ، او كلمة تقدير واحدة لجهدنا الذي بذلناه قدر طاقتنا ، بل وفوق طاقتنا . ولكن أول كلمة سمعناها منه ، يوم سعينا اليه في السويداء ، ودخلنا عليه نحييه أمام جمع من زعماء الدروز ، كانت : « لماذا اتيتما ؟ » . أجل ، لماذا أتينا الى الجبل ؟ لماذا لم نبق بعيدين عنه حتى نموت جوعاً وبرداً وعرياً، إذا لم نقتل بايدي الفرنسيين ؟»

أطرقت خجلاً من هذا الاستقبال ، ثم قلت لسلطان : « هنـاك اسباب قاهرة الجأتنا إلى الحضور ! ..» ،وناولته كتاب العقيد سعيدالعاص ، فأخذه ، وقال: « سنتواجه ! » ، ثم غادرنا وخرج ، ولم يسألنا أين نقـيم ، وكيف نعيش ، واي باب نطرق ، وكيف نتواجه وأين .. ؟

لقد وقفت يوم وصولي إلى السويداء مع رفيق دربي ابراهيم صدقي ،ساعـة واكثر من ساعة ،في الازقة نتداول : أين نذهب ؟ وأخيراً خطر لنا أن نذهب إلى دار الامير عادل ارسلان ، أو مقر الامارة الحقة ، نسأل عن عبـد الكريم المدفعي الضابط السوري صديق ابراهيم صدقي ،بعد ان سمعنا أنه يقيم في الدار ، في عداد الحاشية والمرافقين ، مهمته استخدام الرشاش الثقيل الدي أقيم في فناء الدار ضد الطائرات الفرنسية في حال غارتها على السويداء،وكلنا أمل أن يقدمنا الصديق للأمير لعله يهدينا إلى مكان نقيم فيه الايام القليلة التي انتوينا قضاءها في الجبل . وصلنا إلى الدار ، ووجدنا المدفعي فيهـا ، ورحب كثيراً بنـا ، وادخلنا فناء الدار ، ولكنه لم يجرؤ أن يدخلنا غرفة من غرفه.وحانت لحظة، سببها الغارة الجوية على السويداء ، أطل فيها الامير عـادل على فناء الدار ، وعلينا ، وعلى الرشاش المنصوب فيه ، وعرف من عبد الكريم المدفعي أسماءنا همساً ، ثم دخل الغرف دون ان يكلمنا ، أو يتنازل للسلام علينا، وأطل علينا، بعده ، صديقه توفيق هولو حيدر من أهالي بعلبك،وعلى الفناء ، وشعره الاسود يلمع مـن الدهون الفرنجية مفروقاً الى جانب ، وشارباه معقوفان ، عالجها بالدبق الفرنجي ، واحسن تناسقها ، ونادى عبد الكريم المدفعي ، وسأله همساً عنا ، ولكنه لم يتنازل ايضاً أن يدنو منا ، او يحيينا ، أو يدعونا الى غرفـة الجلوس . وتجاهلنا كالأمير كل التجاهل ، وجلسنا في فناء الـدار نتبادل مع المدفعي ماضي حوادثنا،وحان وقت الغداء ونودي على المدفعي من اجل الغداء ، علناً أمامنا ، ونحن جياع لم يدخل الزاد جوفنا منذ مساء أمس، فلم نـدع الى الطعام ، واعتذر المدفعي عن الطعام ليبقى معنا ، فحملناه على الذهاب، ونودي

عليه كرة اخرى ، فاضطر إلى الانصياع ، وخرجنا من فناء الدار نجر راحلتنا الجائعة إلى السوق ،نبحث في جيب ابراهيم عن دريهمات من بقايا الليرتين ، فرق صفقة المبادلة على البندقية ، نسد بها رمقنا ورمق الحيوان الذي ظلمه القدر معنا . وكان لا بد لنا من مأوى ، غير الازقة ، فخطر لي الدكتور محمد علي الشواف رفيق ثورتنا في حماة ، فتوجهنا إلى المستوصف حيث رحب الطبيب بنا كثيراً ، ولكنه لقاء وضعنا الصعب أفهمنا انه نزيل الدار التي استأجرها الدكتور الشهبندر مقراً له في السويداء ،وانه بالتبعية يقيم ويأكل في دار الزعيم، لقاء عمله الدائم كطبيب في المستوصف .. وخرجنا ، وقد عزمنا على أمر ، بعد أن استنفدنا كل معرفتنا بالمقيمين من إخواننا في السويداء كان . في جيب ابراهيم صدقي ريالان فضيان وبضعة قروش،هي كل ما تبقى معنا من فرق ثمن البندقية ، فرحنا نطوف المنازل الشعبية نسأل عن غرفة نقيم فيها بضعة ايام لقاء اجر ، فوجدناها لقاء ريال واحد في الاسبوع . وساعدنا في مسعانا الشيخ نديم شهاب الذي لقيناه مصادفة في الطريق ، وهو من المجاهدين الدماشقة الذين ألفوا اول عصابة للثائرين في موقع الزور من الغوطة . فلما جلسنا على حصيرتنا في الغرفة ، واستقر بنا المقام ، خطر لي ان ابيع شارة الماسونية والسلسلة الذهبية التي كانت الساعة معلقة بها ، قبل رهنها لقاء البندقية ، ولكن:من يفهم بالشارة الماسونية ؟ وخطر لي ان توفيق الاطرش مدير الداخلية في حكومة الجبل قبل الثورة ، وهو مقيم في السويداء ، تعرفت عليه مرة في محفل ماسوني في دمشق ، كنا معاً ضيفين على المحفل في تلك الليلة ، باعتبارنا من أبناء محفلين آخرين، فأسرعت الى ورقة ضمنتها كلمة رقيقة ، ذكرته فيها بلقائنا قبيل الثورة في محفل دمشق ، وأشرت الى ما نحن فيه من ازمة ورقة حال ، وقلت له انني بحكم اخوتي الماسونية اجد نفسي مضطراً لأن اطلب مساعدته المادية قبل غيره ، اذ لا اعرف في الجبل اخاً ماسونياً سواه . وفي ختام الرسالة قلت له انني أرسل إليه مع حامل رسالتي سلسلة ذهبية لساعة كنت رهنتها ، علقت بها شارة ماسونية من الذهب عيار ١٨ ، ارسلها اليه هدية لتبقى

لديه كذكرى لتعارفنا وصداقتنا ، لانني لا احتـاج الى هذه السلسلة والشارة ، وانا ثائر لا اعرف مصيري اليوم قبل الغد . وحملت الشيخ نديم شهاب رسـالتي والهدية ، ورحت مع ابراهيم صدقي ننتظر الغنيمة ، فقـد قيل ، يوم لقنت المبادىء الماسونية ، ان الاخوة بين أبناء هذه الجماعة او الجمعيـة تدعوك الى أن تنصر اخاك ظالمـاً أو مظلوماً ، وان تمد له يـد العون ما استطعت الى ذلك سبيلاً ، لا سيما وتوفيق الاطرش وجيه في بلده ، يقيم في داره ، وكان إلى بضعة أشهر مديراً للداخلية ذا راتب جيد ، فهو مكلف ان كان ماسونياً حقاً ان يمد لي يد العون مادياً دون ارسال هديتي اليه ، عندما اطلعه على حالي ، فكيف وقد ارسلت اليه سلسلة وشارة ذهبيتين يزيد ثمنها عن ليرتين ذهبيتين ، وهـذا المبلغ يكفينا لاجتياز ايام اقامتنا القصيرة في الجبـل . كنت احدث نفسي بأن اخي الماسوني لو قدر الهدية ، وارسل قيمتها إلي فقط لانحلت عقـدتنا ، وانفرجت ازمتنا الى حين . وجلسنا ننتظر عودة رسولنا بفارغ صبر ، فلما عاد وجدتـه يحمل الي جواب رسالتي وفيها شكر رقيق على الهدية اللطيفـة ، واعتذار ارق منه بالظروف الصعبة التي يمر بها الجبل واهله ، وانه موظف ذو راتب انقطع دخله منذ بدء الثورة ، فهو ايضاً في ضائقة مالية خانقة ، ومع ذلك فهو يرسل الي مع الرسول ثلاثة ريالات (اي ما يعادل ثلث ليرة ذهبية) ، معتـذراً بأن المبلغ ضئيل لا يرسل كمساعدة الى اخ ماسوني عزيز عليه ، ولكن عساه ينفع في هذه الظروف القاسية !.. قرأت الرسالة بصوت مرتفع، فرأيت الثورة مرتسمة على وجه رفيقي ابراهيم صدقي من اخذ شيء يساوي ليرتين بأقل من ربع ثمنه ، وقال لو ان توفيق الاطرش ارسل الريالات الثلاثة ، وأعاد الهدية التي يعرف الباعث لارسالها معتذراً عن قبولهـا ، لكان له عذره ، واصر ابراهيم على ان أعيد اليه المبلغ ، فضحكت ، وقلت له ان الريالات الثلاثة في موقفنا الصعب خير من ثلاث ليرات ذهبية في ايام الرخاء ، ولا تنس انك بادلت على بندقيتك الممتازة ببندقية عتيقة لتأكل من ثمنها ، وهي عدتك في الثورة ، فمـاذا تنفع الشارةالماسونية والسلسلة الذهبية إذا لم أجد اليوم ما يقوم بأودي واود فرسي؟

ومددت يدي بريال الى الشيخ نديم ، ورجوته ان يبتاع لنا به ما نأكل . ولما عاد بالطعام والعلف رأيت اسارير ابراهيم صدقي تنبسط ، فقد فطن الى انه يوم عاد من شرقي الاردن الى الجبل ، كان في جيبه ليرتان ذهبيتان ، وقرب الجبل اعترض سبيله وسبيل رفيقه شرذمة من مسلحي الدروز ينتمون الى قرية « أم الرمان » ، وسلبوا الليرتين من ابراهيم ، ولم يصغوا الى اقوالهما انهما من المجاهدين السوريين قادمين للاشتراك بالثورة . ولما وصل ابراهيم الى القرية بلدة سلطان الاطرش ،روى لعلي الاطرش شقيق سلطان قصة السلب هذه ،فأرسل هذا كتاباً الى أحد اقربائه في أم الرمان يطلب منه التحقيق في الحادث ، واسترداد الليرتين من الذين سلبوا ضيف الجبل نقوده ، وانه سمع ، وهو في الغوطة ، من احد الدروز ان علي الاطرش استرد الليرتين من قطاع الطريق ، وقال لنا ابراهيم بعد ان روى لنا الحادث : « سأسافر معك غداً الى القرية ، أو بعد غد لنتسلم الليرتين من علي الاطرش، وبذلك تنفرج ازمتنا ! ونجد ما نأكل به مدة اقامتنا في السويداء . ولم نضع بعد هذا الحديث الوقت ، ففي اول الليل توجهت مع ابراهيم صدقي الى الدار التي يقيم فيها سلطان الاطرش ، لعلنا نجد الفرصة للتحدث اليه فيما نحن اتينا من اجله ، فوجدنا سلطاناً والامير عادل ارسلان فيها مع جمع غفير من وجهاء الدروز . وهكذا سنحت لنا الفرصة للتحدث عن وضع منطقة قلمون امام الجميع ، وعن كثرة مسلحيها ، والاخطاء التي ارتكبت فيها ، وحوادث السلب والنهب ايضاً ، وما قمنا به اخيراً لجمع الكلمة ، وتوجيه حملة من الثائرين نحو حمص ، والشروط التي اعلناها ، وأذعناها على القرى ،وعلى اهل النبك ، واننا في النهاية اضطررنا لان نستعين بجمعة سوسق وخالد النفوري على ألا تتكرر الاخطاء ، وكيف تظاهرا أمامنا بالاقتناع ، وكيف حاولا من وراء ظهورنا نهب مستودع الحبوب في قرية جوسية ، مما ادى الى فشل حركتنا كلها ، بعد معارك ضارية خضناها ، وارغمنا فرانسة على سحب قوات كبرى من دمشق ولبنان والشمال ، ثم ضربنا على وتيرة القوة الرادعة توجهها قيادة الثورة الى قلمون ، وضرورتها القصوى لاصلاح المنطقة ، والافادة من امكاناتها

في توسيع شقة الثورة ، وفتح جبهات جديدة على الفرنسيين ، ولكن سلطان والامير عادل أصرا على معارضة ارسال القوة من الجبل الى قلمون ، رغم انذارنا بأن المنطقة كلها مهددة بالوقوع بأيدي الفرنسيين ، وان حملة افرنسية قوية ستخضعها دون ان تلقى مقاومة تذكر ، بسبب تفرق الكلمة ، ونفرة الناس من أعمال السلب والنهب ، واعتبار الثورة مسؤولة عنها ، وأدركنا اننا نضرب في حديد بارد ، فخرجنا من الدار ، بعد ان قدمنا الى سلطان الاطرش كتاباً أوضحنا فيه حالتنا المادية ، والاشياء الضرورية لاستئنافنا العمل في الغوطة وقلمون .

وفي الصباح علمنا ان سلطان الاطرش والامير عادل ارسلان غادرا السويداء ليطوف كل منهما عدداً من القرى ،يدعو الى تجميع القوى لغزو اللجاة ، وتأديب سكانها الاعراب السلابين ، وفي مقدمتهم قبيلة « السلوط » التي تعدد عدوانها على قرى الجبل ، وقتل من يمر باراضيها من الدروز .

وصل العقيد سعيد العاص إلى السويداء بعد وصولنا اليها بيومين، يرافقه الاخوان المعصرانيان؛وسعيد الترمانيني من منظمي ثورة حماة وضابط الاحتياط في الجيش العثماني سابقاً . وكان هو واخوه عثمان الترمانيني من أركان تلك الثورة والعاملين الفعالين فيها . فقد كانت اكثر الاجتماعات السرية تعقد في بيته من أجل التخطيط للثورة وتنفيذها . وقد لاحقه الفرنسيون بشدة بعد فشل الثورة في المدينة ، واعتقلوا اخاه عثمان المريض ، وتحروا منزله ، وألحقوا به وباثاثه الكثير من الاذى . وقد استطاع سعيد ان يختفي فترة في المدينة ، وان يتسلل منها ، بعدئذ ، مع خاله صالح الداغستاني ، ويلحقا بقلمون ، في الوقت الذي كان سعيد العاص يتأهب للسفر الى الجبل ، بعد ان خاب أمله في عودة جمعة سوسق الى النبك . وصالح الداغستاني من وجهاء الداغستان في قرية « دير فول » من اعمال حمص . وقد استقبلت السويداء هذا الركب الصغير ، كما استقبلتنا من قبل ، فقد ظل سعيد العاص فيها يومين جائعاً هو وفرسه لأنه لا

يملك ثمن طعام وعلف . وما كان حال رفاقه أحسن من حاله ، فاضطررنا الى ان ندعوهم الى النزول في غرفتنا المتواضعة ، وان نشركهم في سرائنا وضرائنــــا ، نقاسمهم اللقمة ، وهي جافة فقيرة ، فغادر الاخوان المعصرانيان الجبل بعــــد بضعة ايام الى شرقي الاردن ، واضطر سعيد الترمانيني وخاله للعودة الى الغوطة ، واللحاق بفوزي القاوقجي الذي كان سبقهما اليها . وقد علمنا أن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر موجود في عمان ، وانه سافر اليها قبل وصولنا الى السويداء لقبض مبلغ من تبرعات العرب ورد باسمه حوالة على أحد مصارف شرقي الاردن فتجدد فينا الامل بأن الدكتور الشهبندر ، بما سيحمله معه مـــن تبرعات ، سيزودنا بما نحتاج اليه من ملابس وعتاد . وكان طبيعياً ، وقد ازداد عددنا في الغرفة الفقيرة ، ان تنفد ريالاتنا القليلة التي تداركناها ، واقترح عـــلي ابراهيم صدقي أن أرافقه فوراً الى بلدة القرية لإحضار الليرتين الذهبيتين اللتين سلبهما منه بعض مسلحي الدروز ، على حدود الجبل الجنوبية ، وسمع أن علي الاطرش شقيق سلطان استردهما منهم ، فقد تساعدان على سد نفقاتنا ريثما يصل الشهبندر الى السويداء . وكان ابراهيم سأل سلطان الاطرش ليلة اجتماعنا به في داره ، فأكد له أن أخاه استردهما من السلابين ، ووعده الامير عادل بأن يأتيـــه بهما في عودته من رحلته ، ولكن انى يعرف الخلي حــــال الشجي !

امير السيف والقلم يعتقلنا !

- ٦١ -

استعار صديقي ابراهيم صدقي جواداً من الاخوين المعصرانيين ، وكان جواداً جائعاً خائراً كفرسي . وركبنا قبيل العصر من السويداء نبغي القرية

بلدة سلطان الاطرش ، وفيها اخوه علي . ولما دنا الغروب ، ولما نتجاوز قرية « رساس » بسبب رداءة الطريق وكثرة الوحول . قضينا ليلتنا في رساس ضيفين على متعب الاطرش الذي اصلح بعض غرف منزله المحترق ، وسكن فيه ، بعد جلاء جيش غاملان عن الجبل . وكان لابراهيم سابق معرفة به ، في غدوه ورواحه بين شرقي الاردن وجبل الدروز . وظلت راحلتانا على علف التبن ، لأن أغنى اغنياء الدروز ، في تلك السنة الماحلة ، كان يعتذر عن تقديم الشعير علفاً لرواحل ضيوفه .

وصباح العاشر من شهر شباط ١٩٢٦ تابعنا سيرنا بهوادة الى بلدة « القرية » ، لأن فرسينا كانا خائرين من الجوع والهزال ، فبلغناها عصراً ، وقابلنا علي الاطرش واطلعناه على سبب زيارتنا ، فأعلمنا أن الليرتين الذهبيتين ما زالتا مع حسن حاطوم في قرية « ذيبين » ، فهو الذي استردهما من السلابين ، بناء على رسالة كان كتبها اليه ، فقررنا متابعة السفر في الصباح إلى ذيبين لنأتي بهما ، وقضينا ليلتنا ضيفين في منزل سلطان ، وعليق راحلتينا التبن . وفي الصباح توجهنا الى ذيبين ، وفي منتصف طريقها أقبلت علينا كوكبة فرسان يتقدمهم الامير عادل . وما كادت العين تقع على العين ، حتى توقف الركب ، وسألنا الامير عادل : « إلى اين ذاهبان ؟ » ، فقال له صاحبي : « الى ذيبين لجلب الليرتين ! » ، وشرح له ازمتنا المالية الخانقة ، وعدم إمكان الانتظار ، فانتفض غضباً ، وامرنا بالعودة معه ، وزعم انه سيبعث هو من يأتينا بها . . وقد ظن الامير عادل اننا نريد مغادرة الجبل الى عمان ، وان قصة الليرتين لدى حسن حاطوم ذريعة منا للوصول الى ذيبين أقصى قرية في جنوب الجبل ، لننطلق منها الى شرقي الاردن . أصدر الامير عادل امره وسار ، والمفروض ألا نخالف الامر ونتبعه ، على الرغم أننا أصبحنا من ذيبين ومن حسن حاطوم قاب قوسين أو ادنى ! . وعز علينا أن نرغم على العودة دون الليرتين ، وفي السويداء اخوان لنا ، لا يملكون مثلنا ثمن طعام وجبة يسدون بها رمقهم ، ينتظرون ، بفارغ صبر

عودتنا اليهم مما يفرج كربتهم . وغاب عنا ، في بادىء الامر ، ان الامير عادل ظن أننا نريد مغادرة الجبل ، وان عنجهيته هي التي أملت عليه فكرة ارغامنا على العودة معه . عـــدنا مع الركب الأميري أدراجنا ، ولكن أنى لجوادينا أن يجاريا جياد ركب الامير ، فقد كانت جيادهم الاصيلة الراتعة بالعلف والعناية تندفع بسرعة في سيرها ، بينما فرسانا ينقلان الخطى ثقلاً وئيداً في طريق وعرة مليئة بالحفر والمياه والوحول . ووقف الامير ووقف ركبه معه ، بعد حـــين ينتظر وصولنا ، ويطلب منـــا ان نحث جوادينا ونغذ السير ، فقلنا للأمير ان فرسينا خائران من الجوع والهزال ، ولكن سادة الركب لم يصدقوا ، وظنوا اننا نتمهل الخطى عمداً لنتخلص منهم ، ونعود الى ذيبـــين. وتكرر الوقوف ، وتكرر الطلب ، وتكرر الاعتذار ، وتكرر بعد المسافة بين ركبنا وركبهم ، وسمعت مرة الامير عادل يقول لحسيب ذبيان أحد مرافقيه : « ناد منير الريس ، وواكبه ، واشغله بالحديث ، يلحق به رفيقه مضطراً » ، فأيقنت عندئذ أن الامير عادل لم يصدق ما قلناه له عن سبب سفرنا الى ذيبين ، وظن بنا غير ما نحن في سبيله ، ونقلت لصاحبي ابراهيم ما سمعت ، فاستفزه الغضب ، واعتبرها اهانة توجه الينا ، وتسلطاً من الامير . وبلغنا اخيراً بلدة « القرية » ، ونزل الامير في دار سلطان للراحة بعض الوقت ، وكان المفروض أن يعرف الامير صدقنا مـن علي الاطرش الذي جئناه أمس نسأله الليرتين . ولو وجدناهما عنده لكنا اليوم في طريقنا إلى السويداء ، لا إلى ذيبين ! .. دخلنا دار سلطان مرغمين مع ركب الامير ، أو بعده بقليل . وطافت أكواب الشاي على الضيوف ، الا نحن فقـد اعتذرنا عنها ، مع أن الزاد لم يدخل جوفنا ذلك اليوم. ولما نهض الامير ليستأنف سيره الى قرية رساس حيث كان مقرراً غداؤه على مائـــدة متعب الاطرش ، دون ان يسأل علي الاطرش عن قصة الليرتين ، قال له صاحبي ابراهيم : « يا امير ! أنعود إلى السويداء بخفي حنين ، وجيوبنا ليس فيها ما يكفي لوجبة طعام؟ هلا بحثت مع علي بك الاطرش امر الليرتين اللتين جئنا من اجلهما ! .. » ، فغضب الامير ، وقال لصاحبي مهدداً : « هذا طريق ذيبين امامك ، فاسلكه ان كنت

رجلا وشجاعاً !» ، قال هذا أمام حشد كبير من اهل البلدة جاءوا للسلام عليه في دار سلطان ، فهو في عرف الدروز اميرهم . وخرج ، وتبعته حاشيته ، وتبعه القوم لوداعه ، وتخلفنا ليمر الجميع ، ووجد حسيب ذبيان ان الامر يحتاج إلى ايضاح ، فالتفت الى الدروز المجتمعين لوداع الامير عند باب الدار ، وقال : « يا دروز ! عليكم بعد اليوم ان تقبضوا على كل سوري ، شامي أو حمصي ، حموي أو حلبي ، يمر بقريتكم متجهاً الى الجنوب ؟ وتعيدوه محروساً الى السويداء .. وها نحن قبضنا اليوم على اثنين !» ، وتلفت الى ورائه ، فوجدني مع القوم استمع الى اوامره ، فاحمر وجهه خجلا ، وقطع حديثه ، وامتطى جواده ، ولحق بركب الامير . لا يمكن الآن ان اصف الالم الذي حز في نفسي ، فقد وقعت كلمات ذبيان علي وقع الصاعقة ، وامتطيت فرسي ، ولحق بي ابراهيم ليسمع مني ما قاله حسيب ذبيان ، وليعرف اننا معتقلان ، نساق بحراسة الامير الى السويداء لنحاكم على جريمة الفرار من الثورة ! . وابطأت راحلتنا كالعادة ، ووقف الامير اكثر من مرة ، واوفد فارساً من اتباعه ، غير ذبيان ، في هذه المرة ، يواكبنا ، ويحرسنا ، وانطلق الامير بركبه الى رساس ، عندئذ لم يعد صاحبي ابراهيم يتمالك كظم غيظه ، فقال : «اذهب وقل للأمير عادل أن يبدل ظنه ومعاملته معنا ، لأننا لسنا كما ظن نود الانسحاب من الثورة . ويوم التحقنا بالثورة لم نلتحق بدعوة منه ، ولم يعطنا راتباً على جهادنا حتى يتحكم بنا ، وحتى نتحمل منه هذه الاهانات المتتابعة ! .. بل اذهب وقل له : اننا قضينا خمسة اشهر نخوض المعارك الضارية في الثورة ، بينما هو كان يقرع الكؤوس ، ويعيش حياة الترف والتبذل في فلسطين ! » ، وقبل ان يتم ابراهيم ما جاشت به نفسه ، بعد ثورته المكتومة ، اندفع الفارس الدرزي وراء الامير ، حتى لا يسمع شتائم اكثر ، ولينقل لأميره ما قاله صاحبي ، فلم نعد نرى ركب الامير يتوقف بانتظار وصولنا ، كلما بعدت بيننا وبينه الشقة ، بل قابلنا عابر سبيل نبهنا الى ان الامير ينتظرنا على ماء المطاحن ، ويطلب منا ان نحث فرسينا للحاق به ، فلم يبدل هذا من الوضع شيئاً ، فالراحلتان بلغتا منتهى الخور . ولما اقبلنا على الماء ،

وصاحبي ابراهيم يمشي ويسوق جواده أمامه ، بعد ان عجز عن السير به راكباً ، رأينا الامير عادل وركبة يغادرون الماء ، الا الفارس الذي كان خلفه لحراستنا ، فقد ظل واقفاً حتى وصلنا اليه ، وواكبنا حتى بلغنا رساس ، وحل الامير وبطانته في بيت متعب الاطرش . ولما رآنا صاحب البيت ، بعد حين ، مقبلين ، دعانا الى مضافته ، فاعتذرنا بجوادينا وعلفها ، وذهبنا الى السوق

نشتري بربع ريال ، هو آخر ما في جيبنا من نقود ، شعيراً قدمناه لجوادينا المنهوكة من الجوع ، وانتبذنا الى جانب منزل متعب الاطرش مكاناً خالياً من الدروز الذين تجمعوا للسلام على اميرهم ورؤيته . وهناك رأيت الدموع تترقرق في عيني صاحبي ، فتألمت لبكائه ، وانا اعرف انه وحيد والديه ، خلفها وراءه في دمشق ، لا يؤنس وحدتها غير شقيقة له صغيرة ، وترك الصف الاخير من كلية الحقوق التي تجعل منه بعد بضعة اشهر قاضياً أو محامياً لامعاً لذكائه وذلاقة لسانه ،



الامير عادل ارسلان

والتحق بالثورة مشياً على الاقدام ليقاتل أقوى دولة برية في اوروبا ، بأضعف سلاح بيده ، ويعرض نفسه للموت ، كل يوم ، في سبيل حرية وطنه . تألمت لبكائه ، وكنت اراه يقطع المسافات الطويلة مشياً على قدميه من عمان الى جبل الدروز ، ويطوف في قراه قبل ان يتيسر له السلاح ، ثم يعود الى عمان مشياً على

قدميه يوم رأى زعماء بلده يتسللون من الجبــــل ، ثم يسمع ان الثورة ما زالت ناشبة ، وان جيش غاملان انسحب من جبل الدروز ، فيعود متنكباً بندقيته ، يقطع المسافات الشاسعة إلى الجبل ، ومنه الى الغوطــــة ، ثم قلمون ، ويخوض المعارك الدامية ، فيشهد أبطـــال الدروز بشجاعته ، ويعيش عيش الكفاف ، وليس في جيبه مال ، ويتحمل أصناف البؤس والحرمان ، دون ان تبدر منه كلمة شكوى ، يملأ الجو مرحاً أينما وجـــد ، ليرفه عن اخوانه في السلاح ، ويخفف عنهم وطأة الحياة القاسية التي يعيشونها . بكى الضابط الشاب الذي قاد الكتائب في الجيش العثماني ، وتطوع لقتال الفرنسيين في عصابات وادي التيم أيام الحكم العربي في سورية. بكى لا خوفاً ولا وجلاً ولا ندماً ولا حنيناً لأهله، ولكنه بكى لاهانة لحقت به ، وجهها اليه زعيم وطني كان يتوقع ان يسمع منه كلمة تقدير بدلاً منها ، فكفكفت دموعه ، وقلت له : « اننــا التحقنا بالثورة لاداء واجب وطني القي على عاتقنا كشباب عرب، ولم نلتحق بها من أجل الامير عادل ارسلان ، ولا لننضوي تحت قيادته أو زعامته ، وضميرنا مرتاح لما قمنا به الى اليوم ، لذلك لن يثنينا عن اداء هذا الواجب اهانة توجه الينا من رجـــل مغرور بامارته ، أو بنفوذه على الدروز !.. » وما كدنا ننتهي من هذا الحديث حتى وافانا رجل من قبل متعب الاطرش يقول ان الطعام جاهز ، وان متعب يك يدعونا اليه ، فاعتذرنا عن الطعام، وزعمنا للرسول اننا تناولنا غداءنا في السوق، ولبثنا ننتظر خارج الدار ، حتى انتهى القوم من غدائهم ، وهبط الامير عادل السلم ليتابع السير الى السويداء ، ومر بنا ، والتفت الي مبتسماً ، وكأنــه شعر بخطئه ، وقال : « لماذا لم تحضرا معنا الطعام ؟..» قلت «اننا غير جائعين !..» قال : « ولكني لم الحظ انكما أكلتما اليوم ! .. » ، فــلم أجبه على ملاحظته ، وتوجه الى جواده ، بينما تقدم حسيب ذبيان ليعتذر باسم الامير فقال : « انكما أخطأتما التفسير ، ولم يقصد الامير اهانتكما !..» ، فانفجر ابراهيم صدقي من الغضب ، وقال له : « اسأل اميرك أين كان يوم جئنا الى الثورة والتحقنا بهـــا مختارين ! » ، وقلت له : « أنسيت خطابك في جمع الدروز في بيت سلطان

الاطرش في القرية ، يوم قلت لهم اننا معتقلان ؟..» ، فتركنا وامتطى جواده، ولحق بركب الامير ، وسرنا سيرنا المعتاد وئيداً حتى أدركنا الليل ، وبلغنا السويداء ، وذهبنا الى غرفة كنا عرفنا ان عبد الكريم المدفعي المقدم السابق في جيش الحجاز استأجرها مع رفيقه الضابط النقيب شوكة الدالاتي ليخلص المدفعي من الاقامة في دار الامير ، ومن مراسمها . ولما سمع المدفعي قصتنا مع الامير عادل ارسلان ذهب الى دار الامير ، وعاد منها ليبلغنا دعوة الامير ايانا الى منزله ، فاعتذرنا ، وشكرنا له هذه الالتفاتة التي جاءت متأخرة !..

فاجأتنا في صباح الثاني عشر من شباط احدى وعشرون طائرة أخذت تقصف السويداء ، وكنا مع اخواننا في غرفتنا . ولما رأينا شدة الغارة تسللنا منها الى خارج السويداء ، فقد انشق جدار الغرفة ، وكادت تنهار علينا . وقتل اثنان من الاهلين ، وقتل جوادان ، وجرح سبعة . والجوادان خاصة الاخوين سليمان وعبد الهادي المعصراني ، قتلا على مقربة منا . وكانت الطائرات الفرنسية اعتادت أن تغير ثلاث منها في كل نهار على السويداء ، وفي موعد كاد ان يكون محدداً ، تصل ، وتلقي فيه قنابلها . وكنا نخرج ، على الاكثر ، قبل الموعد إلى خارج البلدة ، لنتقي انهيار السقوف والجدران علينا من القنابل . وفي مساء يوم بينما كنت وصاحبي ابراهيم صدقي عائدين الى البلدة ، قابلنا في السوق الامير عادل ارسلان يتمشى مع صديق له ، فلما وقعت عيناه علينا حيانا ، فلم نرد عليه التحية ، وتجاوزنا قليلاً ، ثم التفت ، وناداني باسمي ، فخجلت ألا أجيب نداءه ، والتفت ، وتقدمت نحوه ، ومد يده مصافحاً وقال : « انني اعتذر عما بدر مني نحوكما ، واعترف الآن بأنني اخطأت ، فقد اعتقدت انكما ذاهبان إلى عمان ، وكنت تلقيت رسائل من اخواننا هناك ، يطلبون مني ان نمنع تدفق السوريين من الجبل الى شرقي الاردن ، وانسحابهم من ميادين الثورة ، مبررين هزيمتهم بالزعم ان الثورة فشلت وانتهت مما أساء الى سمعتها في العالم . أما الليرتان خاصة صديقك ابراهيم فقد سلمتها الى عبد الكريم المدفعي صديقك ليعطيكما اياها ، وانا سأستردهما من حسن حاطوم . » فقبلت اعتذاره ، وشكرته ، وتسلم ابراهيم صدقي ليرتيه السليبتين ! .

حذاء الزعيم زعيم الاحذية !

- ٦٣ -

يوم الغارة الجوية الكبيرة على السويداء،وصل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عائداً من عمان ، فتوجهنا مع سعيد العاص ليلاً إلى داره ، وهنأناه بسلامة الوصول والعودة ، وحدثه العقيد العاص حديثنا ، والغاية التي جئنا من اجلها الى السويداء ، والعري والجوع والحرمان الذي نعانيه ، واننا قطعنا الامل باصلاح الثورة في الغوطة وقلمون . فلا اقل ان نجهز لاستئناف العمل فيها أو في ميادين أخرى ، وظللنا ثلاثة ايام نتردد عليه في السويداء ، وهو يشبعنا كلاماً ويمنينا بانه سيقوم بواجب تجهيزنا ، واخيراً دعانا إلى منزله ، واعطاني ليرتين ذهبيتين ، ترددت هل ادفعها لسد الدين ، واسترداد ساعتي وخاتمي ، أم أبقيها لنفقاتي، ورجحت الثانية ، وعفت الساعة والخاتم ، ثم وهبني الدكتورالشهبندر حذاءه العتيق ، بدلاً من ان يشتري لي بريال أو ريالين حذاء عسكرياً من الغنائم . ولما وافق قياسه قدمي ، تميزه ، وظهر السرور على وجهه ، وقال : « لا تحسب انه هين علي ! ان له ذكرى في نفسي ! .. فقد كنت احتذيه فيجرد الزبداني وبلودان .. والسلطة الفرنسية تلاحقني للقبض علي ، وانا احاول الهرب إلى جبل الدروز .. للالتحاق بالثورة ! .. » ، فشكرته ، وقلت في نفسي : « لماذا لا اقدر العطاء حق قدره ! .. ان حذاء الزعيم زعيم الاحذية ، ولو كان بالياً لا لون له من كثرة الاستعمال !» ولم يكتف بهذا ، بل سلم أمر سعيد العاص ومن معه من ضباط ومثقفين الى ابي عبده ديب الشيخ رئيس عصابة العمارةالذي يكتب اسمه بصعوبة ، ويعتبر من عامة الشعب ، واعتبره المعتمد ، وسلمه مبلغاً لا بأس به من المال ، لم يصرح لنا بمقداره ، وعهد اليه بشراء لوازم السفر الى الغوطة ، فنالني منها مئة بندقة او طلقة فرنسية لبندقيتي ثمنها في السويداء

ريالان فضيان ، ثم اخذ الشهبندر يلح علينا بالسفر الى الغوطة ، ويتحدث عن ضرورة وجودنا فيها ، كأنه يعبر عما يجول في خاطره ، وهو : « ابعدوا عني ! ولا تروني وجهكم مرة ثانية ! .. » ، وهكذا توجهنا في اليوم السادس عشر من شهر شباط ١٩٢٦ الى الغوطة بقيادة ديب الشيخ ، او سيطرته الماليـــة علينا ، فبلغناها في التاسع عشر من الشهر ، ولم نجد وسيلة للعمل الجدي الا بانضمامنا الى فوزي القاوقجي ، والتعاون معه على جمع قوة من الثوار نتوجه بها الى قلمون لإصلاح وضع المنطقة ، والسعي لتوسيع رقعة الثورة الى الشمال ، الهدف الذي عملنا له من قبل ، وفشلنا فيه لتعاوننا مع المتزعمين النهابين . وساءت حركتنا ديب الشيخ ، فأخذ يتحدث عنا في مجالسه ، ويقول انه احضر معه سعيد العاص ، وابراهيم صدقي ومنير الريس واخوانهم من الجبل الى الغوطة ، وأنفق من جيبه ثمن اطعامهم وعلف دوابهم ثلاثة ايام ، ولما وصلوا الى الغوطة ، افترقوا عنه ، ولم يبقوا بإمرته ، ونسي ديب الشيخ أن المال الزهيد الذي انفقه على اطعامنا ثلاثة ايام هو مال الثورة ، واننا لسنا من القوم الذين يأتمرون بامر رئيس عصابة لا يعرف عن الثورة الا انها ضرب من ضروب الربح والبهورة والانتفاخ ، واننا وفرنا عليه ، بافتراقنا عنه ، المال الذي قبضه مـــن الشهبندر باسمنا ، والذي بقي مقداره سراً بينه وبين الزعيم الذي بـــدأ يشتري بمال الاعانات رؤساء العصابات الذين يعترفون بزعامته دون غيره من المتزعمين !

الفصل العاشر

النشاط يعود الى الغوطة

- ٦٣ -

كنا يوم غادرنا الغوطة إلى قلمون ، نشعر بسيطرة فرنسة عليها ، بما اقامته حولها من مخافر ، وبما وجهته اليها من حملات ، كانت تزحف اليها تباعاً من مختلف الطرق ، لتقضي على فلول العصابات . الا ان الفرنسيين شغلوا بعدها بتطهير وادي بردى من العصابات التي انتقلت اليه من الغوطة ، وبمقاومة زحف الثورة التي اخذت تهدد مدينة حمص في الشمال ، وقطعت اياماً كل اتصال بين شمال سورية ، وبين جنوبها ، يوم هدمت جسر الحارون ، وشغلوا مدة بتجدد نشاط الثورة في اقليم البلان ، بعد وصول قوة متعب الاطرش وعلي الاطرش ، وهو غير شقيق سلطان الاطرش ، ومن ابناء عمه ، فانقطعت حملاتهم فترة عن الغوطة وتسنى للثائرين العودة اليها ، والقيام ببعض الحركات ، كمهاجمة بعض أحياء دمشق ، وتخريب الخط الحديدي بين دمشق وحوران . ولم يقع ، في بادىء الامر ، غير اصطدامين بين الفرنسيين والعصابات ، الاول على طريق قرية شبعا ، وفي القرية مخفر للفرنسيين ، حيث رابط عبد القادر سكر وعصابة الميدان ،

وعدد من الثائرين القرويين بالقرب من قرية «جرمانا» ، وتصدوا للحملة التي خرجت من دمشق لتموين المخفر . وبعد صدام قصير اضطر الثائرون إلى الانسحاب . والثاني وقع على طريق دوما ، يوم خرجت حملة ايضاً من دمشق لتموين مخفرها ، والغاء مخفر «حوش خرابو» ، وفي عودتها كمنت عصابة عبد القادر سكر ، وعدد من الثائرين القرويين ، قرب طاحون « عربين » ، المكان الذي كانت جرت فيه معارك ضارية ، فتقدمت كوكبة من الفرسان الصباحيين تكشف المكان ، ولم تستطع كشف كمين الثائرين ، وعادت تعلم القائد ، فتقدم بحملته باطمئنان ، والجنود يتنكبون البنادق ، يتحدثون ، ويدخنون ، حتى توسطوا الكمين ، عندئذ فوجئوا بالرصاص ينهمر عليهم ، ويصرع منهم ، مما أدى الى اضطراب صفوفهم ، ولكن الدبابات تقدمت نحو الكمين ، فانسحب رجاله ، ولم يدم الصدام اكثر من بضع عشرة دقيقة ، لأن عدد الثائرين كان قليلاً ، واكثرهم من الجدد الذين لم يتمرسوا على منازلة الحملات . وقد جرح في الصدام الاول عبد القادر القواص الذي كان مستخدماً في حزب الشعب ، وبطل



الفلاحون القرويون كانوا عماد الثورة ومادتها الاولى

قصة الاستيلاء على أموال الحزب ، وعلى المبلغ المرسل معه أمانة إلى المرحوم سعدالدين المؤيد العظم من أسرته في دمشق . وبعد هذين الصدامين أخذ عدد الثائرين يتزايد في الغوطة ، وأيقن أهل القرى أن فرنسة لا تفرق بين القرية الثائرة وبين القرية الخالدة للسكينة ، فهي تدمر كل قرية بمدافعها ، وتنهب كل

قرية تدخلها حملاتها ، وتقتل كل من تصادفه في طريقها ، لذلك أخلوا قراهم من النساء والاطفال والشيوخ العجز ، وخاصة منها القرى القريبة من دمشق،وتحت قصف مدفعيتها ، حتى ازدحمت دمشق ودوما بالنازحين ، وأقبل الشبان على تنكب السلاح ، فنظمت دوما عصابة أخذ يتزايد عدد أفرادها حتى أصبحوا يعدون بالمئات،وازداد عدد ثائري حي الميدان حتى اصبحوا من اكبرالعصابات، وأحسنهم تنظيماً ، يتزعمهم رجال مخلصون منهم الشيخ الجليل شفيق عمر باشا، وابو سليمان المهايني ، وابو قاسم المهايني ، وابو قاسم الدرخباني ، استطاعوا ان ينظموا شؤون عصابتهم ، وإعاشتها ، واتخذوا لها القرى الجنوبية ، كيلدا وببيلا وقبر الست مقراً، واقاموا المستودعات لإعاشتها، حتى انهم بنوا فرناً للخبز. وكان حي الميدان المعروف بوطنية أبنائه ورجولتهم يمدهم بالمال والمؤن ، وأقاموا من بين أفراد عصابتهم الطهاة والخبازين يعملون بأجر، فأصبح تنظيمهم مثلاً حياً للعصابات الاخرى ، وجنبوا انفسهم أعمال زعماء العصابات الاخرى الذين يفرضون الاتاوات ، ويتصرفون بالمال كما يشاءون، دون ان يحاسبهم عليه احد . ولما وصل فوزي القاوقجي الى الغوطة بعصابته الصغيرة من المسلحين الدروز ، أخذ يطوف ارجاءها للتعرف الى زعماء العصابات ، فأكرمت عصابة الميدان وفادته ، وأشركته حيناً بإعاشتها وتموينها ، فدرس أحوال المنطقة ، وعرف ما يلزمها للاستمرار في الكفاح، وبدأ نشاطه بالدعوة الى توحيد كلمة الثائرين ، واخضاع حركاتهم الحربية في الغوطة الى قيادة رجل واحد ، او لمجلس تتمثل فيه العصابات كلها ، يتولى التخطيط الحربي ، ويكون مسؤولاً عن الأمن والتموين ، ولكن دعوته هذه اصطدمت بأنانية بعض الزعماء الذين لا يروق لهم التنظيم ، ويريدون الثورة فوضى ، يحققون فيها أطماعهم الشخصية ، عدا شهوة السيطرة وحب الظهور .

وصلنا الى الغوطة فوجدنا قراها خالية من السكان ، الا القليل منها كعربين وكفر بطنا ، وسقبا ، وزبدين ، وفي كل قرية شبان يحملون السلاح من أهلها ،

حتى القرى القريبة إلى دمشق ودوما كان النسوة والاطفال والشيوخ يعودون اليها كل يوم في الضحى ، بعد أن يتأكدوا من عدم وقوع معارك فيها ، يقومون بأعمالهم ، وفي المساء يسيرون إلى ملاجئهم في المدينتين ، حتى لا تباغتهم الحملات مع الفجر في قراهم ، ويتعرضوا للأذى والفظائع والقتل . وبازدياد عدد الثائرين من دمشق ، كثر عدد العصابات في الغوطة ، وازداد عدد المتزعمين عليها ، حتى ان هناك عصابات لا يتجاوز عدد أفرادها العشرة ، كانت تعتبر نفسها عصابات مستقلة . وتألفت عصابات في قرى داريا وكفر سوسة وغيرها من القرى القريبة من دمشق ، وتألفت عصابة كبيرة من حي الاكراد ، وبذلك اصبح لأكثر احياء دمشق عصابات في الغوطة تحمل اسماء احيائها ، وتتخذ كل عصابة في القرى القريبة من الحي مقراً لها ، وبذلك أصبحت دمشق محاطة من جميع أطرافها بعصابات ، دون ان يكون هناك تنظيم او تخطيط لذلك ، فهناك عصابة الميدان الكبرى ، وعصابة للحي صغيرة بزعامة عبد القادر سكر ليس لها مقر معين ، تتجول في انحاء الغوطة والمرج ومنطقة الجورة ، وعصابة ابي دياب البرازي ، وهي صغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها العشرين ، جلهم من أبناء حي الاكراد ، تقيم في قرى الافتريس ، وجسرين ، وزبدين ، وعصابة الشاغور بقيادة حسن الزيبق مقرها في قرية عقربا ، وهي بقايا عصابة حسن الخراط ، وعصابة ابي عبده ديب الشيخ باسم حي العمارة مقرها قرى عربين وكفر بطنا وسقبا وحمورية ، ازداد عددها اخيراً بمن انضم اليها من مسلحي قرى الغوطة ، وأشرف على تنظيمها الضابط شوكة العائدي الذي رافقنا ، في المرة الاخيرة ، من الجبل الى الغوطة . وعصابة دوما وهي ، كما قلنا ، من اكبر العصابات في الغوطة ، مقرها قريتا مسرابا ومديرة ، النافذون فيها يونس الخنشور ومحمود خيتي ، وتتعاون مع ابي عمر ديبو الكردي المقيم في قرية حرستا ، وعصابته تتألف من مسلحي حرستا وبعض قرى المرج وقضاء جيرود . وعصابة جوبر وتضم مسلحي هذه القرية الكبيرة الرابضة على باب دمشق ، وعصابة القابون وبرزة وتضم مسلحي هاتين القريتين ، ويتزعمها ابو محي الدين شعبان من برزة ، وافرادها قليلو العدد .

وعصابة أبناء عكاش ، وتنتقل بين قرى التل ومنين وبرزة ودمر وقرى وادي بردى ، أفرادها قليلون ، ويرأسها سعيد عكاش واخواه، ويزداد أحياناً عددها بمن ينضم اليها من مسلحي القرى التي تتنقل فيها . وعصابة داريا ، وكفرسوسة والقدم يتزعمها خليل بصلة من داريا ، والشيخ محمد حجاز من دمشق، وديب القديمي من قرية القدم،انضم اليها فريق من أفراد عصابة الخراط بعد استشهاده، وتقيم في القرى التي تنتمي اليها . وعصابة الاكراد بقيادة احمد المنلا رافقها صادق الداغستاني من ضباط الدرك السابقين ، وتقيم ، على الاكثر ، في قرية القابون ، وتنتقل بين القرى . وهناك فئة مثقفة من الثائرين تعمل في الدعاية والمخابرات والتنظيم ، ما وسعها العمل ، وتضم فائق العسلي، ونسيب شهاب، ونزيه المؤيد العظم ، وصبري العسلي ، وأديب العسلي ، وحكمة العسلي ، وممدوح العظم ، وغيرهم . وكان اهم قضية ، تشغل العصابات ، في هذه الفترة ، هي قضية الاعاشة والتموين ، فقد خلت القرى من سكانها ، ومنع الفرنسيون خروج المؤن والاطعمة من دمشق ، حتى لا يفيد منها الثائرون في الغوطة ، واضطر هؤلاء إلى جلب مؤنهم بطريق حي الميدان الذي لا يسيطر عليه الفرنسيون، لأنه خارج الحصار الذي ضربوه على وسط المدينة وبعض احيائها ، وفيه مستودعات الحبوب التي تسمى « بوايك » (جمع بايكة) ، فنقلت عصابة الميدان الكثير من هذه الحبوب الى الغوطة للتموين».وهناك طريق ثانية للتموين هي طريق حي الاكراد ، فهو ايضاً خارج منطقة الحصار الفرنسية . وثالث طريق للتموين كانت بلدة دوما ، فقد كان يسمح لاهلها الذين يعدون بالالوف ، عدا الوف النازحين اليها من القرى ، بأن يشتروا الدقيق وغيره من دمشق ،



عصابة قبر عاتكة وباب السريجة من أحياء دمشق

فيذهب بعضه الى الثائرين . وهناك قرى المرج التي ظلت آهلة بسكانها ، كانت العصابات تفرض عليها بعض المؤن ، لانها لم تصب بما أصيبت بـه قرى الغوطة ، ولم تغد ساحة للقتال لانها خارج المنطقة المشجرة حول دمشق .

أما المال فقد كان يذهب الى جيوب رؤساء العصابات، اكثرهم، ان لم نقل كلهم ، ومصادره الاعانات التي كان يجمعها سراً الوطنيون من أبناء الشعب في دمشق ، والاتاوات التي كانت تفرض على الاغنياء ، ومن يتلكأ بالدفع لا يسلم من الوقوع بأيدي عصابة الحي التي يتسلل أفرادها دوماً الى الحي ، وخاصة في الليل ، لا تحول دونهم (البراجات) والاسلاك الشائكة ، فقد كان الثائرون يتغلبون على الاسلاك الشائكة ، ويتجاوزونها من نقطة بين حصنين من الحصون التي اقامها الفرنسيون من اكياس الرمل ، وجهزوها بوسائل الدفاع . أما الاغنياء الذين لهم مزارع في الغوطة ، فهم ايسر بالدفع لقاء صون مزارعهم وقصورهم وبيوتهم وأبقارهم وأدوات زراعتهم وانتاجهم . أما السلاح فقد كان من السلاح في العهدين العثماني والعربي الذي سلم من الفرنسيين في جبل الدروز ، وفي العشائر ، وما كان مخبأ منه في المنازل والقرى ، وما يأتي منه بطريق شرقي الاردن ، يحمله التجار الى جبل الدروز ، وهو ألماني وعثماني وانكليزي ، الى جانب السلاح الفرنسي الذي غنم الدروز أكثره من حملة الجنرال ميشو، أو غنمه الثائرون في معاركهم العديدة مع الحملات الفرنسية .

النهابون أعداء التنظيم

عدنا الى الغوطة ، وحضر سعيد العاص باسمنا اجتماعاً تم في قرية «عقربا» ، دعا اليه فوزي القاوقجي ، بكتب وجهها الى رؤساء العصابات في الغوطة ، أثير فيه أمر التنظيم ، وربط الشؤون الحربية بقيادة واحدة ، يتولاها قائد كفوء ، او لجنة تمثل جميع العصابات ، وان يكون للقيادة لجنة اخرى تساعدها مسؤولة عن الاعاشة والتموين ، تتسلم جميع موارد الثورة ، وقوة لحفظ الامن

يتولى قيادتها أحد الضباط ، وتكون بامرة القيادة الحربيـــة ، فعارض اكثر رؤساء العصابات هذا التنظيم ، حتى ان الشيخ محمد حجاز ، وهو من اصحـــاب البطون التي لا تشبـع ، اتهم سعيد العاص والداعين لهذا الاجتماع بالعمل لمصالحهم الشخصية ، وسعيهم الى الوظائف للاستئثار بالسلطة والمنفعة ، حـــتى انه قال للعقيد سعيد العاص : « نحن نعرف أن كل قصدك من هذا ان تصبح ضابطاً برتبة يوزباشي ! .. نحن ليس عندنا وظائف ومناصب ، ومن يريد ان يتولاها فليذهب الى فرنسة الدولة .. أما نحن هنا فثوار ! .. » ، وفات هذا الجاهل ان سعيد العاص بلغ رتبة عقيد في الجندية ، وتجاوز رتبة النقيب «يوزباشي» بعدة رتب ، وسجن في عاليه ، وحكم عليه بالموت في عهد احمد جمال السفاح ، وقضى حياته في الثورات ! ومشرداً عن الوطن ، ولكن ما فاه به محمد حجاز يعبر عن إرادة اكثر رؤساء العصابات الذين يريدون أن تظل أمور الثورة فوضى ، ليملأوا من أموالها جيوبهم . واقدمهم في ابتزاز المال محمد حجاز يوم كان مع حسن الخراط يوجهان الانـــذار للأغنياء واصحاب المزارع والحوانيت ، ويفرضـــان عليهم الاتاوات ، فيوقع الخراط الانذار باسمه مقروناً بلقب «باشا» ، ويوقع محمـــد حجاز باسمه مقروناً بلقب « شيخ الاسلام » ، والاسلام بريء من أمثال هؤلاء النهابين المستغلين . ولما رأى القاوقجي والعاص ومن حضر معهما الاجتماع من الضباط والمثقفين ان أكثرية رؤساء العصابات ضد التنظيم ، اكتفوا بأن حرروا عهداً وقعه الجميع يقضي بأن ينجد الجميع العصابة التي تخوض معركة مع العدو ، مهما كانت الشقة بعيدة بين العصابات وساحة المعركة ، وقسموا الغوطة مناطق بين العصابات ، بصورة لا تختلف عما اشير اليه فيما سلف عن توزع العصابات في الغوطة ، حتى لا تصطدم العصابات ببعضها بعضاً بسبب ما قد ينشأ من خلاف بينها على المناطق .



من اليمين : سليم الاظن ، ابو حامد ابراهيم الفحل ، جميل دلول ، محمد أبو عبده قدور ، من مجاهدي دمشق .

عدوان الفرنسيين على حي الميدان

هاجمت عصابة حي الميدان الحي ، واحتلت في العشر الثاني من شهر شباط عام ١٩٢٦ اتجاهه ، الى حدود الحصون التي أقامها الفرنسيون في موقع « باب المصلى » ، واخذت تتجول في الحي ليل نهـــار ، وتهاجم حصون الفرنسيين ، وتكنتهم في القدم ،فجهز الفرنسيون حملة اكثرها من كوكبات الشركس ، والحرس السيار اللذين تتألف كتائبهم من متطوعة الاسماعيليين والارمن والعلويين وغيرهم ، تتقدمها الدبابات والمدرعات ، فاشتبكت الحملة مع عصابة الميدان في معـــارك استمرت ثلاثة ايام متتالية في شوارع وازقة الحي ، تتوقف في الليل ، وتتجدد في النهار . وقد تكبد الفرنسيون في هذه المعارك خسائر فادحة بالنفوس ، لأن الثائرين ادرى بدخائل حيهم ومنافذه وموانعه ، من الجنود ، فقد كانوا يتحصنون بالمنازل والاسطحة ، ويجرون الجنود الى الازقة الضيقة ، ويجهزون عليهم ، مما حمل الفرنسيين اخيراً الى قصف الحي بالمدفعية ، وتهديم المنـــازل على رؤوس سكانها ، واشعال النار بما سلم منها ، فاضطر المجاهدون إلى الانسحاب من الحي ، انقاذاً له من القصف والحرق ، وعندئذ أباح الفرنسيون الحي لجنودهم ، فارتكبوا من الجرائم ما تقشعر له الابدان ، فقد قتل المتطوعة من كتائب الشركس والحرس السيار الاهلين ، حتى النساء ، وقطعوا ايديهم واصابعهن للاستيلاء على الحـــلي والجواهر ، ولم يبقـــوا في المنازل اثاثاً ثميناً إلا ونهبوه . وكانت احياء دمشق الاخرى ترى هذا المشهد الفظيع ، وترى الجنود عائدين من حي الميدان يحملون السجاجيد والفرش والملابس والحلي وكل ما في المنازل من تحف في هذا الحي الكبير ، يبيعونها لمن يدفع الثمن ، فكتبت فرانسة بضرب الحي وحرقه وتهديمه واباحته للسلب والنهب افظع صفحة في تاريخ استعمارها . وقد نزح اكثر سكان الحي ، بعد هذه الكارثة ، عن حيهم ، وسكنوا الأحياء الأخرى من المدينـــة ،

بعد أن أصبحوا دون مأوى، وبعد أن اصبح حيهم عرضة في كل مناسبة للتنكيل. وقـــد حضر فوزي القاوقجي ومن معه من الدروز هذه المعارك ، واستبسلوا فيهـــا ، ولم نحضرها نحن ، لاننا كنا في طريقنـــا من جبل الدروز الى الغوطة .

تخريب الخط الحديدي بين دمشق وحوران

قـام فوزي القاوقجي يوم الاثنين في ١٥ شباط عام ١٩٢٦ بمن معه مـــن المسلحين الدروز باقتلاع الخط الحديدي في الكيلو متر الثاني عشر جنوبي دمشق على طريق حوران . ولما اقبل قطار درعا على مكان التخريب أحس السائق به، واراد تفادي التدهور، ولكن حركته المفاجئة لوقف القطار سببت تداخل الشاحنات ببعضها بعضاً ، واحترق ثلاث منها بفعل زيت المصابيح المحطمـة ، وقتل عدد من الجنود والركاب ، فانزل الجنود رشاشاتهم ومدافعهم الخفيفة من القطار تجنباً للنار ، واستعدوا للدفاع عن انفسهم ، واخذ الجنود يطلقون النار على من حولهم دون هدى . وكان فوزي القاوقجي يعرف ان الفرنسيين يرفقون كل قطار للركاب بعدة مركبات مسلحة ، لذلك رابط بعد تخريب الخط ، مع عصابته بعيداً عنه ، ينتظر ان يخرج الجنود من المركبات المسلحة ، ويتوجهوا الى دمشق ، واذا بركاب القطار يمرون، ومعهم بضعة جنود من الدرك السوري، فأخذت عصابة القاوقجي بنادقهم ، واخلت سبيلهم ، وبعـد حين خرج قطار مسلح من دمشق لنقل الجنود ، فابتعدت العصابة عن المكان حتى لا يكشفها القطار في السهل الفسيح ، ويسلط عليها نيران اسلحته .

وقد كررنا ، بعد وصولنا الى الغوطة ، العملية ، إذ توجهنا في ليل الثالث والعشرين من شهر شباط ، مع فوزي القاوقجي وعصابته ، وعدد من مجاهدي حي الميدان الى المكان نفسه ، واقتلعنا الخط الحديدي بطول الف متر، وقلبناه

الى جانب الطريق . وقد استشهد معنــا شاب من الدروز ، انقلبت عليــه القضبان الحديدية فجأة ، وظل تحتها . ولولا اسراعي بالابتعاد عن الخط في نفس اللحظة للاقيت نفس المصير .

تنظيم الثورة يرهب الفرنسيين

- ٦٤ -

دعا فوزي القاوقجي وسعيد العاص رؤساء العصابات في الغوطة الى مؤتمر عقد يوم الرابع والعشرين من شهر شباط في قرية عربين ، حضره عدا الرؤساء ،



القائد فوزي القاوقجي على رأس كوكبة من المجاهدين الفرسان

يتقدمه حامل العلم العربي

الضباط والمثقفون من الثائرين ، بحثوا فيه ما ترامى اليهم من أن الفرنسيين وافقوا على سفر وفد من الاهلين من دمشق الى الغوطة لمفاوضة قادة الثورة فيها في شؤون حي الميدان . وفي نهاية الاجتماع اقترح فوزي القاوقجي ان تقوم العصابات كلها في ليل الخامس والعشرين من شباط ، بحركة موحدة تشعر الفرنسيين بارتباط عصابات الغوطة بنظام واحد ، وهي ان تدخل كل عصابة الحي الذي تنتمي اليه في دمشق ، إذا امكن دخوله ، وان تتولى مناوشة الحصون القائمة فيه ، دفعة واحدة ، وفي وقت واحد . وحدد القاوقجي الساعة التي تبدأ فيها الحركة ، والساعة التي تنتهي فيها ، ووزع أحياء دمشق على العصابات ، فتولت عصابة الميدان وعصابة القاوقجي مناوشة الحصون الفرنسية في حي الميدان ، وعصابة الشاغور حصون حي الشاغور والباب الشرقي ، وعصابة العمارة حصون العمارة ومسجد الاقصاب ، وعصابة أبناء عكاش حي المهاجرين ، وعصابة الاكراد حصون الصالحية ، وعصابة داريا ثكنة الحميدية (الجامعة السورية حالياً) وحصون حي القنوات وقبر عاتكة ، وتوجه سعيد العاص إلى داريا لتنظيم عصابتها وتوزيعها على المواقع . وكنت مع فوزي القاوقجي وعصابة حي الميدان . وفي الساعة الخامسة بعد الغروب ، وهي الساعة الغروبية المحددة للحركة ، كانت دمشق كلها تستيقظ على أزيز الرصاص ، وتفجر الرمانات اليدوية ، وقذائف مدافع الهاون من جميع الحصون التي اقامها الفرنسيون في دمشق وحولها . وظن الفرنسيون ان هناك خطة لاحتلال دمشق ، فهبوا مذعورين يدافعون بضراوة عن مواقعهم ، واشتركت المدفعية الفرنسية في بعض المواقع بالقصف . وبعد ساعة كاملة توقف الثائرون دفعة واحدة عن مناوشة الحصون ، وانسحبوا الى قواعدهم في الغوطة . وقد استشهد بيننا ثائر من عصابة حي الميدان ، بقذيفة من مدفع الهاون ، اطلقت عليه من حصن « باب المصلى » الذي استطاع القاوقجي ان يقذفه برمانات اطلقها من بندقية فرنسية ، اصابت الهدف ، وسقطت على اكياس الرمل ، واوقعت خسائر بالجنود .

وقد شغلت الحركة الموحدة القيـــادة الفرنسية في دمشق ، واقلقتها. وكانت على علم بوصول فوزي القاوقجي الى الغوطـة ، وعلى علم ، من شبكات تجسـسها ، بمساعيه لتوحيد قيادة الثورة في الغوطة ، فقررت القيام بحركة استطلاعية لكشف قوة الثائرين، ومبلغ تنظيمهم الجديد في الغوطة ، لذلك زحفـــت يوم السبت في السابع والعشرين من شهر شباط بحملة اكثرهــا من المتطوعـة في كوكبــات الشركس والحرس السيار . وكنت ساعتـــئذ مع فوزي القاوقجي وابراهيم صدقي وبعض خيالة الدروز في بساتين قرية ببيلا ، نرعى جيـــادنا ، وسائر رفاقنا من الثائرين في القرية ،



المجاهدون يتدربون على الرمي

وإذا بالرصاص يئز من فوق رؤوسنا ، فأسرعنا الى جيادنا نبعدها الى قرية «قبر الست» ، وتقدمنا الى البساتين التي ينطلق منها الرصاص ، ولحق بنا من كان في القرية من الثائرين الميدانيين ، فوجدنا الجنود متحصنين وراء جدران البساتين (الدكوك) وفي معاقلها ، فصدمناهم صدمة شديدة ، وهاجمناهم في مواقعهم ، ودامت المعركة اكثر من ساعة ، اخذ الجنود ، بعدها ، يتقهقرون نحو دمشق ، وحي الميــدان منها ، تذود عنهم الدبابات ، بينما أخذت النجدات تصل الى أرض المعركة من العصابات القريبة ، فالبعيدة ، حسب العهد الذي قطعه رؤســـاء العصابات على

انفسهم . ولما بلغنا بستان « البنجكية » القريبة من المدينة ، اخذت مدفعية قلاع المزة ، و « بريه العظام »، و« الباب الشرقي » تقصفنا بشدة ، فلم يثن ذلك من عزيمة المجاهدين ، واقتحمنا مواقع العدو تحت وابل من قذائف المدفعية ، حتى اصبحنا على مسافة امتار ، لا يفصلنا عن العدو غير فسحة بستـان ، او عرض طريق بين البساتين ، بينما تقدم عدد من عصابة الميدان ، ودخلوا الحي – حي الميدان – قبل ان يصل اليه الجنود في تراجعهم المنظم ، وتحصن المجاهدون في الازقة وخرائب الحي ، وفوق الاسطحة ، فاصبح العدو بين نارين ، وحمي وطيس المعركة في شوارع حي الميدان وازقتها ، واستمرت الى بعد العصر ، ولولا الدبابات التي كانت تحمي الجنود من هجمات المجاهدين ، وقد تزايد عـدد هؤلاء من النجدات التي وصلت اليهم ، لما نجا الجنـود ، ولانقلبت المعركة الى مذبحة . ولما بلغ الجند حصونهم الثابتة اخذت تصد عنهم جمـوع الثائرين الذين ظلوا يلاحقونهم الى قرب الغروب . وقد بات مجاهدو الميدان في منازلهم تلك الليلة ، وعدنا نحن الى قرية ببيلا . ولم تتجاوز خسائر المجاهدين في هذه المعركة شهيدين وبضعة جرحى . أما خسائر العدو فلا تقل عن خمسين قتيـلاً عدا الجرحى .

فرنسا تفاوض الثائرين بصورة غير مباشرة

– ٦٥ –

دعي زعماء العصابات الى اجتماع عام في اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط ، يعقد في موقع الزور ، على مقربة من جسر الغيضة ، فتوافدوا الى المكان مستصحبين معهم معظم رجال عصاباتهم . وقيل في اسباب الدعوة ان وفداً من حي الميدان في دمشق استأذن السلطة الفرنسية في مفاوضة قادة الثورة في الغوطة ، ومطالبتهم بالكف عن دخول الحي ، تجنيباً لأهله من المآسي والفظائع التي ترتكب بسبب

القتال في شوارعه وأزقته . وقبيل الظهر وصل الوفد في سيارتين ، مؤلف من اربعة وجهاء من حي الميدان ، يرافقهم انور البكري ، يحملون معهم كمية من الحلويات هدية للمجاهدين الذين استقبلوا الوفد بالاهازيج والحماسة وإطلاق الرصاص في الفضاء . وكان عددهم يزيد على الألفين . وبعد الاستقبال خلا الوفد برؤساء العصابات والضباط ، وبحث معهم أمر اعتبار حي الميدان منطقة حياد لا يدخلها الثوار ، فتقوم الحكومة بتأسيس مخافر للشرطة ، وتسير شركة الجر والتنوير حافلاتها الكهربائية فيه ، وبذلك يعود السكان النازحون الى منازلهم وحيهم ، ولكن الثائرين رفضوا ان يعاد فتح مخافر للشرطة في حي الميدان ، وتسيير الحافلات في شارعه العام، وقبلوا بأن يبقى الحي منطقة محايدة لايدخلها الثائرون ولا الفرنسيون ، إلا في حال قيام احد الجانبين بالزحف على مواقع الجانب الثاني. أي ان المجاهدين قبلوا بعدم دخول الحي، على ان يمتنع الفرنسيون عن احتلاله ، واقامة تحكيمات وحصون لجيشهم فيه . وقد سأل بعض أعضاء الوفد عن الأسس التي يمكن التفاهم عليها لعقد صلح بين الفريقين ، فأجيبوا بأن الثائرين في الغوطة لا يقبلون أي مفاوضة مع فرنسا حول هذا الموضوع ، لأنه من اختصاص القيادة العليا للثورة ، ومقرها جبل الدروز . وهذه القيادة كانت اعلنت اكثر من مرة مطالبها على صفحات الجرائد ، كما ان الوفد الذي ارسلته فرنسا في شهر كانون الثاني عام ١٩٢٦ الى الجبل اطلع على مطالب الشعب السوري ، ويمكن للسلطة الفرنسية ، فيما اذا كانت تود السلام ان تفاوض القيادة العليا للثورة في الجبل ، دون سواها ، ثم غادرنا الوفد عائداً الى دمشق .

حملة ماسيت تباغت ثم تستنجد !

زحفت مع فجر الثالث من شهر آذار عام ١٩٢٦ حملة افرنسية من دمشق إلى الغوطة بطريق دوما، يقدر عددها ببضعة آلاف من الجنود ، بينهم كوكبات المتطوعة بانواعها، يحميها اكثر من عشرين دبابة، ومدفعية ثقيلة بقيادة الكولونيل

« ماسيت » ، وبلغت مشارف قرية عوبين دون ان يعترض سبيلها معترض ، الا ان نبأ زحفها بلغ بعض الثائرين فالتحموا معها في معركة قرب عوبـــين ، واخذت اصوات النـــار تجر جموع الثائرين القريبة الى ساحة القتال ، ولكن البعيدين لم يدركوها، إلا ان عصابة دوما وحرستا وعصابة العمارة استبسلتا في



قادة الاحتلال يراقبون حركات المجاهدين في احد الميادين

قتال الحملة حتى بلغت دوما وتحصنت في بساتينها . وقد ادركنا آخر المعركة في أطراف قرية « مديرة » ، ورابطنـــا على طريق دوما حذر عودة الحملة في نفس اليوم الى دمشق . وكانت خسائر المجاهدين في هذه المعركة كبيرة ، إذ استشهد سبعة منهم ، وجرح حوالي الخمسين ، مما لم يسبق له مثيل في معـــارك الغوطة . ويعزى السبب الى كثرة الدبابات التي ترافق الحملة ، والى عامـــل المباغتة ، فقد كان المجاهدون يخبرون بزحف الحملة ، في اكثر الاحيان ، قبل حركتها ، او يعترض سبيلها عند الزحف مجاهدو القرى القريبة من دمشق كجوبر والقابون، فيعرف سائر الثائرين طريقها ووجهتها، ويستعدون لها ، ويكمنون ، ويتحصنون

وراء المواقع ، وينازلونها . على ان خسائر الحملة كانت كثيرة لا تقل عن مئة قتيل وجريح. وصلت الحملة الى دوما، ولكن جموع الثائرين توافدت، على أصوات الرصاص والمدافع ، من جميع انحاء الغوطة ، واكثرها لم يكتب له نصيب الاشتراك في المعركة . لذلك قضى الثائرون ليلتهم في القرى القريبة من طريق دوما ــ دمشق ، يترقبون عودة الحملة ، ولكنها لم ترجع في اليوم الثاني ، وبلغنا أنها ألغت مخفر « اوتايا » ، وموّنت مخفر دوما . ولما علم قائدها بكثرة عدد المجاهدين المتربصين والمرابطين على طريق حملته ، طلب من القيادة في دمشق ان تنجده بحملة ثانية تزحف من دمشق ، وتستقبل حملته ، وتساعدها ، وتشق لها الطريق الى دمشق ، فأوفدنا جماعة من عصابة ديب الشيخ (العمارة) الى جوبر للتعاون مع مجاهديها على صد الحملة الثانية في حال زحفها من دمشق . وفي الليل طلب الكولونيل « ماسيت » وجهاء دوما ، وابلغهم ان يتهيأ اهل دوما كلهم للسير غداً مع الحملة الى دمشق . وكان غرضه ان يشل هجمات المجاهدين بارغام الاهلين على السير مع الحملة ، وتعريضهم لرصاص المجاهدين . ولما سمع الاهلون من وجهائهم طلب قائد الحملة ، فر اكثر رجالهم تحت جنح الليل الى القرى المجاورة .

كان الثائرون في فجر الخامس من آذار يرابطون شرقي طريق دوما ــ دمشق ، ويهددون جناح الحملة الأيسر من قرية مسرابا حتى ابواب دمشق . ورابطت عصابة ابناء عكاش مع مسلحي قريتي القابون وبرزة غربي الطريق يهددون جناح الحملة الايمن من قرية « حرستا » الى ابواب دمشق . وكان على رأس الجناح الأيمن لخط المجاهدين شرقي الطريق عصابتا دوما وحرستا ، تحصنتا في قناة ماء تمتد من قرية « مسرابا » حتى جنوبي قرية « مديرة » . وكنا مع فوزي القاوقجي وعصابته بجانب عصابة دوما وحرستا نتحصن في القناة نفسها الى عربين ، والى يسارنا عصابة الميدان فعصابة العمارة فمسلحو الغوطة من مختلف القرى ، ومعهم حوالي مئة مسلح من قرية الرحيبة في قضاء جيرود

جاءوا لأول مرة نجدة لمجاهدي الغوطة ، وامتد خطهم حتى بساتين جوبر ، والى يسارهم عصابة جوبر ، ومعهم سعيد العاص وخير الدين اللبابيدي وعصابة الشاغور وغيرهم من المجاهدين المتمركزين حتى ابواب دمشق . ولما بدأ زحف الحملة من دوما ، واخذت تتقدم على الطريق ، لم نطلق عليها الرصاص حتى توسطت القناة التي نكمن فيها على رأس الجناح الايمن من الخط ، وفجأة بدأت المعركة ، وأغار الفرسان الصباحيون على خطنا غارة مريعة ليحملونا على الانسحاب ، ولكننا هزمناهم برصاصنا ، وأقبلت الدبابات تمطرنا بنار مدافعها ورشاشاتها ، وتتقدم نحو القناة لترغمنا على الخروج من معقلنا ، وضعضعت ، في اول الامر ، الايسر من جناح الدروز الذين معنا ، وقتلت اثنين ، وجرحت ثلاثة ، ولكننا استطعنا برصاصنا ان نوقف تقدم الجنود وراء الدبابات ، وصد الخيالة الصباحيين مرة ثانية ، وتثبيت اقدام إخواننا الدروز. وتبادلنا مع جنود الحملة الرمانات التي تقذفها البنادق ، ولم نتزعزع من معقلنا حتى مرت الحملة تحت وابل من رصاص بنادقنا ، وتجاوزت مواقعنا ، واحتدمت المعركة عند طاحون « عربين »، وحاولنا ان نقتفي اثر الحملة ، وننازل مؤخرتها ، ولكن صفاً من الدبابات كان يحميها ، الى جانب قصف شديد من المدفعية ، وسبع طائرات كانت تمطر المجاهدين بقنابلها ، وتطلق شاراتها لتهدي المدفعية الى مواقعهم ، وتساقط عدد من قذائف المدفعية على حافة القناة التي تحصنا فيها ، وتساقطت قذائف المدفعية ايضاً امام مقدمة الحملة التي تشق لها الطريق . ولما حمي وطيس المعركة زحفت الحملة الثانية من دمشق لانقاذ حملة « ماسيت » ، واستقبلها مجاهدو جوبر والعمارة ومن معهم ، واستمرت المعركة حتى التقت الحملتان في منتصف المسافة بين دمشق وحرستا ، وكان يوماً مشهوداً من ايام الغوطة ، لم يتوقف فيه قصف المدفعية النهار كله، ولم تبلغ الحملتان دمشق إلا قرب العصر ، مع ان المسافة بين دمشق ودوما اربعة عشر كيلومتراً يجتازها المرء على الاقدام بساعتين ، او ثلاث اذا تمهل في السير ، فقد اجتازتها حملة « ماسيت » في اثنتي عشرة ساعة قضتها في عراك ضار مستمر، تسير تحت رصاص المجاهدين المتمكنين

في معاقلهم ، يتصيدون جنودها ، ويجندلونهم ، فترفع الدبابات الجثث القريبة من خط المجاهدين . وقد استشهد من المجاهدين في هذه المعركة عشرة ، وجرح بضعة عشر . أما خسائر الحملة الفرنسية فتقدر باربعمئة قتيل وجريــــح ، عدا الخيل التي كانت جثثها مبعثرة على طول الطريق . وقد عرفنا ان الغرض من توجيه هذه الحملة هو الغاء مخفر« اوتايا » ، بعد مخفر« حوش خرابو » ، وبذلك لم يبق للفرنسيين في الغوطة غير مخفري دوما ، وشبعا ، وتوقعنا الغاءهمـــا في المستقبل ، فقد ارغمت كثرة المجاهدين واستقرارهم في الغوطة القيادة الفرنسية على الالغاء بالتدريج ، لأن بقاءها يحتاج الى تموين مستمر ، وكل عملية تموين لاحد المخافر ، كانت تكلف القيادة الفرنسية حملة تزحف من دمشق ، وتعود اليها تحت نيران المجاهدين الذين اصبحوا كثرة ، بعد ان كانوا يعدون بالعشرات والمئات ، اكثرهم من الدروز الذين يتنقلون بين قراهم والغوطة ، ولا يثبتون طويلاً ، حتى يحنوا الى العودة الى اهلهم ومنازلهم .

الفرنسيون يعترفون بحصار دمشق

- ٦٦ -

وصل الى الغوطة يوم زحف حملة « ماسيت » من دمشـــق ، خالد النفوري قادماً اليها من النبك ، واخبر فوزي القاوقجي وسعيد العاص بأن حال منطقة قلمون ساءت جداً ، حتى بلغت درجة الانحلال ، وان جميع الاهلين ينتظرون وصول قوة خارجية من الثائرين تصلح الوضع ، وتنقذ المنطقة من ان تقع لقمة سائغة بيد الفرنسيين . ومع معرفتنا ان النفوري كان من أكبر أسباب انهيـــار الوضع في قلمون ، عقدنا ، بعد انتهاء معركة دوما ، اجتماعاً قررنا فيه ان يتوجه فوزي القاوقجي بالفئة القليلة التي معه من الدروز ، وسعيد العاص ومن رافقه من الشباب والضباط الى قلمون في محاولة جديدة لإصلاح الوضع . وقد جـــاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق نبـــذة عن الغوطة نرى ان نثبتها هنا بمناسبة

المساعي التي بذلناها من أجل التنظيم ، فيما يلي :

« الغوطة منذ تشرين الثاني ١٩٢٥ معتصم للثوار . ودمشق في شبه حصار . وهي بقعة مستطيلة يبلغ طولها عشرين ميلاً ، وعرضها خمسة عشر ميلاً ، كانت في ربيع ١٩٢٦ فيها ألف من الثوار مرتبطين بقيادة ماهرة ، ويسودهم نظام جدير بالاعجاب . ويشد سكان القرى آزرهم ، ويجعلون منهم خمسة آلاف محارب في الواقع ، وهم منوطون بحكومة ثورية تتقاضى الضرائب ، وتفرض الغرامات ، وتتولى القضاء ، ولهم محكمة ذات قضاء سريع على من خان أو عصى . وقد انتظموا عسكرياً مقابل دمشق على وجه أتم ، فقطعوا السبل والطرق الهامة ، وجعلوها في حال يتعذر معها مرور الآليات ، وخربوا الجسور ، وطمروا الألغام المضادة للدبابات في مهاوي الارض ومنعرجاتها ، وأقاموا عند تخوم القرى جدراناً ذات فوهات ومنافذ . وكان لديهم شبكة تلفونية مستوفاة الشروط . هذا عـدا ان فلسطين كانت تنفحهم بالامداد من ذهب وسلاح وذخيرة . أما أسباب المعيشة فكانت موفورة في اماكنها » .

ويظهر من هذه الفقرة ما القت الغوطة في روع الفرنسيين من قـوة ثورتها ، بسبب المعارك الضارية التي خاضها المجاهدون ضد حملاتهم . مع ان الواقع غير ما قدره الفرنسيون ، فليس للعصابات الثائرة في الغوطة قيادة حتى تكون ماهرة ، ولا حكومـة ثورية تتقاضى الضرائب ، وتفرض الغرامات ، بل كل ما فرض من غرامات ، وجبي من أموال كان عملاً فردياً ذهب الى جيوب رؤساء العصابات ، وليس للثـورة محكمة ، إلا للفترة التي التحق فيهـا عدد من الشبان المثقفين بثورة الغوطة ، فأقاموا محكمة أصدرت بعض الاحكام السريعة على الجواسيس والخونة الذين قبض عليهم متلبسين بجرائمهم . ولم يعرف المجاهدون صنع الالغام ضد الدبابات ، ولم يكن لديهم شبكة تلفونية ، ولم تكن فلسطين (بريطانية) تنفحهم بأي امداد من ذهب وسلاح وذخيرة ،

بل كانت على العكس تقبض على زعمائهم ، وتسلمهم للسلطة الفرنسية تنكل بهم ، كما فعلت بجميل مردم ، وحاولت ان تفعله بالدكتور الشهبندر، وتصادر منهم السلاح ، حتى انها صادرت في مخفر المفرق ، على طريق عمان ـ جبل الدروز ، من يوسف العيسمي رسول سلطان الاطرش ربطة من الفتيل يستخدم في التفجير، استطاع ان يحصل عليها، ويشتريها من متعهدي قطع الحجارة في عمان ، ولم تسمح السلطة البريطانية بوصولها الى جبل الدروز حتى لا تستخدم ضد حليفتها فرنسا . ولولا الاسلحة التي غنمها المجاهدون من الفرنسيين أنفسهم ، لما كان في الثورة غير الاسلحة القديمة من بنادق تركية والمانية وانكليزية هي من مخلفات الحرب العالمية الاولى ، معظمها ، عسكرياً ، غير صالح للاستعمال . ولكن ما غنمه الثائرون من الجيش الفرنسي ، وخاصة منه في مذبحة جيش الجنرال ميشو ، غذى الثورة بأسلحة وعتاد لا تنضب . ولو كان الدروز الذين غنموا في معركة ميشو تلك الاسلحة متقدمين في العلم والثقافة ، لكان لديهم اسلحة فتاكة يستطيعون استخدامها في حربهم مع فرنسا، كالمدافع والمدرعات والرشاشات التي غنموها ولم ينتفعوا بها، بل عطلوا ، المدافع وحطموا آلاتها، وفككوا قذائفها، وباعوها نحاساً، واحرقوا بارودها وقوداً، وجعلوا من الرشاشات مساند لابواب الزرائب والاصطبلات في دورهم ، ولم يفيدوا من كل الاسلحة إلا من البنادق ، وعتادها ، فقد ظل سعر الخمسين بندقة من النوع الفرنسي بريال واحد كل مدة الثورة ، بينما الريال لا يشتري أكثر من عشر بندقات تركية أو المانية أو انكليزية ، وسعر هذه الانواع كان دوماً بارتفاع مطرد .

الفصل الحادي عشر

التآمر على خطتنا في قلمون

- ٦٧ -

أدركنا عقم الانتظار من القيادة ان تصلح منطقة قلمون ، كما أدركنا عقم الانتظار لتجميع الدروز في الغوطة والسير بهم الى قلمون كقوة يعتمد عليها في تنظيم تلك المنطقة ، ولم يبق أمامنا إلا ان نعتمد على أنفسنا ، مرة ثانية ، ونبادر لنجدة قلمون ، فالغوطة بعد ان أصبحت بيد الثائرين من أهلها ، لم يبق للدروز فيها مجال ، وجاءنا من قلمون نذير ينذرنا بما آلت اليه الحال من سوء هناك . كما جاءتنا الانباء من الجبل ان سلطان الاطرش سار في العشر الاخير من شهر شباط ١٩٢٦ الى اللجاة بجموع الدروز ، واحتلها بعد مقاومة بسيطة خسر الدروز فيها خمسة شهداء ، وبضعة جرحى ، وساعدهم على احتلالها استخدام مدفعين أصلحهما صديقنا عبد الكريم المدفعي ، واربعة رشاشات ثقيلة استخدمها الضابط سعيد اليماني ورفقاؤه من الضباط السوريين ضد البدو سكان اللجاة ، وبذلك اطمأن الدروز على أنفسهم ومواشيهم ، وهدأ بالهم ، ونامت القيادة العامة على الظفر ، فلم تفكر في ايفاد قوة رادعة لإصلاح الغوطة وقلمون . ولم نجد أمامنا غير وسيلة

واحدة، هي ان نفيد من وجود قوة درزية مسلحة لا يتجاوز عدد افرادها المئة على رأسها اكثر من عشرة زعماء، كانوا رضوا ان يصاحبوا فوزي القاوقجي الى الغوطة، يمكن ان تصبح نواة لقوة تنظم المنطقة، فأخذنا مع القاوقجي نقنع هؤلاء الزعماء بالسير معنا الى النبك، حتى لان جانبهم، ورضوا بأن يبتعدوا ثمانين كيلومتراً آخر عن جبلهم، ثم رسمنا خطة لانفسنا، بأن نستعين بقوة الدروز هذه لحمل كل قرية نمر بها في قضاء جيرود على ان ترسل معنا مسلحيها إلى قلمون، وان نفيد من مسلحي الجورة التي عطل عمل الثورة فيها متزعم اسمه سليم آغا الجيرودي، ممالىء للإفرنسيين، وله مصالح وعقارات في المنطقة.

غادرنا الغوطة في اليوم السادس من شهر آذار عام ١٩٢٦ الى قرية «حوش الريحان»، وقضينا ليلتنا ضيوفاً على ابي علي كركوش الكردي الشهير بوجاهته وكرمه بين قومه. وفي الليل زار ابو عمر ديبو الكردي رئيس عصابة حرستا أبا علي هذا في منزله، فوجدنا الفرصة سانحة لاقناع ابي عمر بالسير مع عصابته معنا إلى قلمون، ولكنه اعتذر بأن افراد عصابته من حرستا ودوما لم يألفوا الابتعاد عن منازلهم وعائلاتهم، فهم ثائرون في ارضهم التي خبروها، يصعب عليهم الابتعاد عنها، ثم الحرب في أراض مكشوفة غير مشجرة، ولكن خالد النفوري الذي انتظر في الغوطة حتى رافقنا، اختلى بأبي عمر ديبو هنيهة بحثا فيها، على ما يظهر، النفع الذي يصيب أبا عمر ديبو من السير بعصابته



ضابط في الثورة السورية يقرأ تقريراً وصل اليه

الى قلمون ، وحدثه النفوري حديث البلدين المستعصيين على الثورة في المنطقة : دير عطية ويبرود ، بل حدثه حديث غنائها ، ومناه بما يمكن ان يفرض عليها من غرامة لتمردهما على الثورة ، وما يمكن ان يصيبه من تلك الغنيمة ، على ان يبقى ذلك سراً بينهما . وخرجا من الخلوة ليعلنا للمـــلأ قبول ابى عمر ديبو بمرافقتنا مع عصابته الى النبك ، واتفق على ان يتوجه هو بطريق قرية «ضمير» ، ونسير نحن بطريق قرية القطيفة ، ونلتقي بقرية « الرحيبة » أو جـــيرود في طريقنا الى النبك . وقد سررنا بالاتفاق ، وحمدنا الظروف التي جمعتنا بأبي عمر ديبو ، ولم ندر أن فشل حركتنا تقرر بين الاثنين في تلك الليـــلة ، وفي ذاك اللقاء !..

سرنا في صباح اليوم السابع من آذار إلى قرية « عدرا » ، وبعد الغداء تابعنا طريقنا الى القطيفة ، والتقينا في الطريق بمسلحي الرحيبة عائدين الى قريتهم ، بعد أن اشتركوا في معركة دوما الأخيرة ، فاتفقنا مع رئيسهم على أن يسبقنا إلى الرحيبة ليجهز كل مسلحيها ويهيئهم لمرافقتنا الى النبك ، والتقينا أيضـــاً بسيارة قادمة من النبك فيها زميلنا الثائر فؤاد رسلان ، وعادل الحامدي من أنسباء فوزى القاوقجي في طرابلس ، قدم الاخير النبك ليطمئن على سلامة بن خالته فوزي . ولما استبطأ وصوله الى النبك ، وقيل له أنه في القطيفـــة استأجر مع فؤاد رسلان سيارة ، وتجاوز القطيفة ، حتى تلاقينا في الطريق . وقد عرفنا منهما أن منطقة قلمون فوضى ، استفحل الشقاق والخلاف بين زعمائها ، مما حمـــل أكثرهم على الاتصال بالفرنسيين ، وتقديم ولائهم لهم ، وان هؤلاء الزعماء على اتصـــال دائم بالفرنسيين في حمص ، يشيعون بين الاهلين قرب زحف الفرنسيين بحملة كبيرة الى النبك لإعادة نفوذ الدولة الى المنطقة . ولما كانا مصممين على العودة الى النبك أرفقنا معهما زميلنا ابراهيم صدقي ، انقاذاً له من مشاق السير على قدميه معنا الى النبك ، وليزفوا للاهلين بشرى قدوم حملة وطنية كبرى بقيـــادة القاوقجي والعاص ، وان يكاتبوا جميع قرى قلمون لتوفد مسلحيها الى النبك مركز تحشيد

قوى الثورة للزحف الى الشمال . ولما بلغنا بلدة القطيفة دخلناهـا بين أهازيج اخواننا الدروز الحماسية ، ولعلعة الرصاص في الهواء ، لنشد من عزائم أهلهـا المناوئين للثورة ، فقد كنا في رحلتنا الاولى الى قلمون ، خبرناهم ، وعرفنادخيلة نفوس زعمائهم . قضينا الليل ، ونهار الثامن من آذار في اقناع وجهاء القطيفة وشيوخها بارسال مسلحي بلدتهم معنا الى قلمون ، ولكنهم تعللوا بشتى الأعذار ، وبخوفهم من أن يهاجم خلف النعير قريتهم ، وينهب مواشيهم وأثاث منازلهم ، فيما إذا أخلوا القرية من المسلحين . وكنا نظهر لهم اللين تارة ، والشـدة تارة أخرى ، وهم يراوغون كالثعالب ، ويخشون نقض العهد بينهم وبين قرى الجورة (قضاء جيرود) ، ومنه الانصياع لأمر سليم الجيرودي ، والعمل بثورته في كل ما يتعلق بأمر الثورة . وأخيراً اضطروا الى ايفاد ثلاثين مسلحاً منهم ، معناإلى قلمون ، واعفاء الباقين للحفاظ على القرية . وبعد انفراج الازمة انتقلنا في المساء الى قرية المعضمية ، وشيخها اسماعيل ابو الريش معروف بدهائه ، واتصاله سراً بالافرنسيين ، وجرى لنا معه مثلما جرى مع وجهاء القطيفة ، فانضم الينابضعة عشر مسلحاً من أهلها ، باعتبارها قرية أصغر من القطيفـة . ولم نر ضرورة للإنتقال الى الرحيبة ، فقد بلغنا وصول أبي عمر ديبو بعصابته الى ضمير ، فتركنا له أمر الرحيبة ، وانتقلنا في اليوم التاسع من آذار الى بلدة « جيرود » ، لأننا نعرف انها عقدة العقد بالنسبة لمشروع تجنيد قرى الجورة في حملة قلمون الوطنية ، فقد استطاع وجيهها سليم الجيرودي أن يحول دون اشتراك قرى المنطقة كلهـا بالثورة ، وان تتظاهر بالحياد تارة ، وبالتمرد تارة ، حسب الظروف ، متذرعة بحوادث النهب التي ارتكبها خلف النعير في المنطقة . وسليم الجيرودي شيخ ثري تجاوز السبعين ، أنهكت جسمه الخمرة التي يعاقرها ليل نهـار ، والدعارة التي لم يتخل عنها حتى في شيخوخته ، بنى لنفسه منزلاً خلوياً منعزلاً عن البلدة اسمه « الصخرة » ، كي يعيش فيه حياته الخاصة بعيداً عن العيون . ولما وصلنـا إلى جيرود بدأنا نستثير وطنية ابن عمه صفوت الجيرودي ، ووطنية الشبان المسلحين الذين هم في قرارة نفوسهم مع الثورة ، ولكنهم حسب تقاليد الريف لا يخرجون

على ارادة شيوخهم .

وصل أبو عمر ديبو وعصابته ومن استطاع حمله على السير معه من مسلحي القرى ، إلى جيرود في العاشر من شهر آذار ، فبلغ عددحملته أكثر من خمسمئة مسلح ينتسبون الى دوما وحرستـــا وحي الأكراد في دمشق ومسلحي قرى المرج وضمير والرحيبة ، فابتهجنا باجتماع هـذه القوة الكبرى بسهولة ما كنا لنتصورها ، وأيقنا اننا سنوفق لجمع قوة من المسلحين تعد بالالوف في هذه المرة ، نستطيع بها أن ننفذ خطتنا في الزحف الى الشمال ، وتهديد مواقع الفرنسيين ، وتوسيع شقة الثورة . وما علمنا أن حرص أبي عمر ديبو على تجميع القوى حوله ، لتكون له الكلمـة العليا في قلمون ، عنـد اقتسام الغنائم بينه وبين خالد النفوري . وكنا ارسلنا الى جمعة سوسق واحمد سوسق كتاباً من القطيفة أعلمناهما فيه باتجاهنا ، وطلبنا منهما موافاتنا برجالهما في رنكوس وما جاورها من القرى الى النبك ، محاولين ان نفيد من كل القوى والامكانات في المنطقة لتنفيذ خطتنا ، وهي الزحف الى الشمال .

كان صفوت الجيرودي صاحب كلمة في جيرود ، بعد سليم الجيرودي عميد العائلة ، وكان يتردد في امر السفر معنا لسببين ، الاول هو ألا يخـرج على ارادة سليم الجيرودي ، والثاني ألا يخالف إرادة والده عطا الجيرودي الذي كان يضن بولده ، ويخشى عليه أن يصاب في المعارك ، خاصـة وهو ليس برجل حرب ، فتعهدنا لوالده بأن نكتفي بوصول ولده مع مسلحي جيرود الى النبك ، وان يبقى فيها ، كمقر خلفي للحملة ، عند زحفها للقتال في شمال سوريا ، واننا حريصون على ان نمحو عن جيرود وصمة تخلفها عن الثورة ، وانها هي السبب ايضاً في تخلف كل قرى المنطقة ، باعتبارها مركز قضاء جيرود .

واخيراً قطع صفوت الجيرودي العهد على نفسه بأن يوافينا برجاله في اليوم الثاني من وصولنا الى النبك ، ولم يبق لنا مـــا نعمله في جيرود ، لولا الامطار

الغزيرة التي كانت تهطل بأستمرار ، ورداءة الطريق المختصر بين جيرود والنبك. وبينما كنا في حيرة عصر ذلك اليوم ، نتردد بين المسير والمبيت ، جاءنا رسول النبك يحمل الينا نبأ تحشيد الفرنسيين حملة كبيرة في قرية « حسية » للزحف بها الى النبك ، فتوجهنا تحت وابل مدرار ، تغوص حوافر جيادنا بالوحول ،

والأقدام تغوص وتنزلق في الوحول والمياه التي كانت تغطي وجه الطريق فلا تبين معالمه . ولكننا عندما دنونا من الصخرة حيث منزل سليم الجيرودي ، غاصت قوائم فرس سعيد العاص في وحول الارض السبخة الهشة ، حتى البطن ، وتعبنا في انهاضها من حفرة الوحل ، واضطررنا ، ونحن بضعة فرسان ، لأن نلجأ الى بيت سليم الجيرودي لتنظيف سعيد العاص وفرسه من الوحل ، بينما تابعت جموعنا ، ومعها خالد النفوري وسائر إخواننا ، سيرها تحت المطر الى النبك ، بطريق قرية العطنة ، مجتازين بعدها عقبـــة في الجبال .

اما نحن فقد قررنا المبيت في ضيافة سليم الجيرودي ، لاستمرار هطول الامطـــار بغزارة ، ولضعف راحلة سعيد العاص ، وعجزها عن السير في الطريق الرديء ، على ان نلحق بإخواننا في الصباح الباكر. ولما اخذ الليل يرخي سدوله ، أقبل علينا سليم الجيروي ، ورحب بفوزي القاوقجي وسعيد العاص واخوانهما في منزله ، وسألنا : « وهل نشعل اللوكس؟ واللوكس في عرفنا مصباح يضاء بالبترول والنفخ وضوؤه شديد ، فوافقنا ، ولكننا بعد سويعة دعينا الى غرفة المائدة ، وقد اعدت للشرب ، وعلى المائدة من مشهيات الشراب ما كدنا ننساه في حياة الثورة . قضينا ليلة ممتعة نسمع احاديث سليم الجيرودي عن مباذله ، وقصص لياليه الحمراء مع البغايا ، اذ ليس ما يتحدث به هذا الشيخ السكير غير هذه القصص . تابعنا طريقنا في فجر الحادي عشر من آذار بمن تخلف معنا من خيالة الدروز ، والتقينا في الطريق بمتخلفين كثـــيرين ، فوصلنا الى النبك قبيل الظهر ، وفرح النبكيون بوصول هذا العدد الكبير من المسلحين الى بلدتهم ،

وقاموا بواجب الضيافة والاستقبال على أتم وجه . واطمأنوا الى ان في بلدتهم من الثائرين ما يكفي للوقوف في وجه الحملة الفرنسية التي تحتشد في « حسية » ، وصدها مهما كانت كبيرة .

بعد الظهر تلقينا من حسن أغا سويدان الوجيه في قرية «قارة » رسالة ينبئنا فيها بأنه علم من مصدر ثقة ان الحملة الفرنسية ستزحف غداً الى قارة ، ويطلب حضور الحملة الوطنية للدفاع عنها . وحسن سويدان ، كما نعلم ، على صلة بأبناء عمه عبد المجيد وسعيد سويدان في حسية ، اخباره صادقة ، يريد من ورائها إظهار ولائه للثورة ، وولاء ابناء عمومته سراً لها ، لذلك عقدنا بعد العشاء اجتماعاً في منزل خالد النفوري حضره ، عدا صاحب الدار ، فوزي القاوقجي ، وسعيد العاص ، وابو عمر ديبو ، وصفوت الجيرودي ، واحمد المنلا ، وصادق الداغستاني ، وبقية رفاقنا الضباط والمثقفين ، لوضع خطة للقاء الحملة وصدها عن قارة ، وتوجيه قوتنا الى مواقع القتال في الليل . وكان يحز في نفوسنا ألا يحضر جمعة سوسق واحمد سوسق ، ولا أحد من مسلحي القرى في منطقة قلمون وجردها ، وعددهم ، حسب خبرتنا السابقة ، أكثر من ألف مسلح ، رغماً عن أرسالنا الكتب والرسائل الى رنكوس ، وانقضاء خمسة ايام على ارسالها . وقد علل خالد النفوري تأخرهم بكثرة تهطال الأمطار والثلوج في الجرد . وكان لا بد لنا ان نبحث امر مقابلة الحملة بقوتنا الحاضرة .

نخطط للقتال ، والنفوري يخطط للنهب !

كان موقع الدفاع الطبيعي عن قارة في نظرنا الهضاب التي تتسلسل في موقع « عيون العلق » على مسافة ستة كيلو مترات شمالي « قارة » ، فاقترحنا ان ننتقل بقواتنا هذه الليلة الى قارة ، وان نزحف في الصباح الباكر لنتخذ مواقعنا على التلول في موقع « عيون العلق » ، وزاد فوزي القاوقجي على خطتنا ، بان يعهد إليه بقيادة الفرسان من قوتنا ، وعددهم حوالي ستمئة ، يسري بهم في الليل

متجاوزاً « عيون العلق » ، الى كمين يختاره في سلسلة الجبال الغربية ، فإذا ما اشتبك المشاة بما فيهم مسلحو النبك ، ويبلغ عدد المشاة نحو ألف مسلح — فإذا ما اشتبك المشاة مع الحملة الفرنسية في موقع عيون العلق ، وحمي وطيس المعركة ، خرج القاوقجي من مكمنه ،واغار بالفرسان على مؤخرة الحملة وثقلها ، وساعد على ان يصبح العدو بين نارين لسحقه وهزيمته ،ولكن خالد النفوري عارض خطتنا منذ البدء ، مقترحاً السير الى « دير عطية » البلدة المتمردة على زعامته ، كي لا تهدد بسلحيها قوتنا من الخلف ، ثم السير من دير عطية الى عيون العلق ، ومقاومة الحملة الفرنسية في هضابها ، فرفضنا اقتراحه لأنه يشغل الثائرين باحتلال قرية محاصرة، تخشى هجوم الثائرين عليها ،قبل ان تفكر هي بالخروج والاعتداء عليهم ، وسيجر احتلال القرية المتمردة الى النهب الذي بعثر من قبل عدة حملات وطنية ، اذ يترك المسلحون القتال ، ويعودون بالاسلاب الى قراهم ، فتفشل حركتهم ، وتذهب ريحهم ، وقلنا ان الحملة قد تزحف في الصباح الباكر ، وتصل الى هضاب عيون العلق وتحتلها ونحن مشغولون عنها بالهجوم على قرية « دير عطية »،وليس ما يدعونا الى التحرش بدير عطية ، ما دامت ليست على طريقنا ، فطريق السيارات ، وهي طريق حلب — دمشق تمر بقارة الى النبك مباشرة ، بعيداً عن قرية « دير عطية » . وطال بيننا الجدل ، وتظاهر النفوري اخيراً بأنه صرف النظر في خطته عن احتلال « دير عطية » ، ولكنه زعم ان نبأ صار إليه من مصدر ثقة هو أن الفرنسيين عزموا على الزحف الى النبك بطريقين ، أحدهما طريق صدد — دير عطية ، والثانية طريق عيون العلق — قارة ، واقترح ان ترابط نصف قوتنا في مواقع قريبة من دير عطية ، وبالأصح شمالها ، فقلنا له ان هذا غير منطقي ، وما دام للحملة آليات ومدفعية وثقل ، فإن من العسير عليها ، في الشتاء ، وفي فصل الأمطار ، أن تسلك طريقاً غير معبدة كطريق صدد — دير عطية — النبك ، كذلك لا يعقل ان يقسم الفرنسيون حملتهم الى شطرين ، لأن ذلك يضعفها ، في زحفها لاحتلال منطقة ثائرة عليها ، وأصر على رأيه ، واخيراً ، اقترح حلاً للمشكلة التي كادت تعطل عمل الحملة

الوطنية ، ان تنقسم قوتنا الى قسمين ، الأول المشاة ، وهؤلاء يتوجهون في منتصف الليل الى قارة فعيون العلق بقيادة القاوقجي والعاص ، والفرسان ، وهؤلاء يتوجهون بقيادته وقيادة ابي عمر ديبو ، وخبرة صادق الداغستاني العسكرية — وهو ضابط درك سابق — بطريق دير عطية ، ويتجاوزونها الى الشمال دون ان يتعرضوا للقرية ، ليرابطوا في التلول الصالحة القتال هناك ، فإن جاء جزء من الحملة الفرنسية بطريق صدد دير عطية قاتلوه ، وان زحفت الحملة كلها الى « عيون العلق » ، انتقلوا بجيادهم سريعاً الى نجدتنا . وقد تبين لنا اخيراً ان اصرار النفوري على سير الحملة الوطنية الى دير عطية ، هو لاكتساحها ، قبل كل شيء ، شفاء لا حقاده على زعيمها مصطفى دعبول ، وبراً بالعهد الذي كان قطعه سراً في الغوطة لابي عمر ديبو ، من ان يمكنه من احتلال بلدتي دير عطية ويبرود المتمردتين ، ويقاسمه الغنائم مما سيفرض على اهلهما من غرامة المال والسلاح جزاء تمردهما عليه .

وكأنه بجشعه وقصر نظره كان يظن ان الفرنسيين لا يزحفون الى قلمون بعد ما وصلت اليهم انباء حشود الثائرين الكبيرة في النبك ، فقبلنا اخيراً هذا الاقتراح ، وطلبنا من زعماء المسلحين ان يبلغوا جماعتهم القرار ليكون المشاة متأهبين للسير في منتصف الليل ، وحذرنا خالد النفوري من عواقب التعرض لبلدة دير عطية قبل الخلاص من الحملة الفرنسية ، فوعدنا واكد وعده ، وكفله ابو عمر ديبو الذي كنا نقدر انه مثلنا ليس له مصلحة في غير قتال العدو ، وانه تكبد مشقة السفر من الغوطة الى قلمون مع مسلحيه من أجل هذا الهدف . لقد كنا نخطط لقتال العدو الاجنبي أما القرى المتمردة على الثورة ، فيمكن حل مشاكلها ، متى احرزنا نصراً مؤزراً على العدو ، ان لا تستطيع عندئذ أي قرية أو بلدة ، مهما كانت قوية ، ان تتمرد علينا ، ويمكن عندئذ معاملة اهلها باللين ، والاقناع اولاً ، فان لم يجد ذلك معها ، وشعرنا بخطرها على الثورة ، استخدمنا الشدة مع زعمائها الذين نعرف أنهم على صلة بفرنسة . وكنا دوماً ضد استخدام

القوة مباشرة ضد القرى المتمردة على الثورة ، لاننا كنا على علم بالاعمال السيئة ، بل بالجرائم التي ارتكبها المتزعمون ضد بعض القرى ، مما أدى الى نفرة أكثر القرويين في منطقتي الجورة وقلمون ، من الثورة ، واستغل ذلك عملاء ، فرنسة فاوصلوا قراهم الى التمرد والحصار ومقاومة وصول الثائرين اليها ، تحت ستار الدفاع عن حياتهم واموالهم .

توجهنا في الدقائق الاولى من اليوم الثاني عشر من شهر اذار الى ساحه الغفري في بلدة النبك ننتظر تجمع المشاة من قوتنا فيها حسب القرار المتخذ ، ومرت الساعات الباقية من الليل تباعاً ، ولم يصل الى الساحة ثلث المشاة المسلحين ، لأنهم نيام في المنازل التي توزعوا فيها بحكم الضيافة ، أذ من الصعب على النائمين ان يهبوا في منتصف الليل للسير الى قتال لم يتأكدوا من حتمية وقوعه ، فوصلت الى الساحة تباعاً القلة ، وتخلفت الاكثرية، فاضطررنا لضيق الوقت ان نسير بهم ، وعددهم لا يتجاوز ثلاثمئة مسلح ، وبذلك افسحنا المجال لخالد النفوري وابي عمر ديبو ان يسيرا بالفرسان ومن تخلف من المشاة، وفيهم زعماء الدروز ، وصفوت الجيرودى ، واحمد المنلا ، وسائر زعماء مسلحي القرى ، باعتبارهم فرساناً لحق بهم المشاة المتخلفون ، ولما أصبح يوم الثاني عشر من آذار عام ١٩٢٦ ،أحاطت الجموع التي أربى عددها على الف وثلاثمئة مسلح بقرية « دير عطية » ، وأنـذر زعماؤها القرية المحاصرة بالاستسلام ، وإلا هاجموها ، وأحرقوها ، وقتلوا كل من قاوم من أهلها ، فاستسلمت « دير عطية » ، بعد تأمينها على أرواح اهلها واموالهم، ودخل الثائرون القرية الكبيرةالتي لم تمتد إليها يد من قبل ،وقدمت لهم فيها المآكل الشهية ، وفتحت لهم حماماتها العامة ، ونام الظافرون على فرش وثيرة ، ينتظرون جمع الغرامة المفروضة عليها من سلاح ومال ، متناسين أنهم في حرب مع فرنسة، وأن حملة العدو تحتشد على ابواب قلمون، وان مصطفى دعبول صديق فرنسة على علم بموعد زحف الحملة الفرنسية ، لذلك استمهل زعماء الثائرين في جمع الغرامة إلى ما بعد الموعد المحدد لوصول الحملة الفرنسية الى قلمون .

نحن لا نقاتل إلا مع زعمائنا !

وصلنا في ضحى اليوم الثاني عشر من آذار الى موقع عيون العلق مع فوزي القاوقجي وسعيد العاص ، وابراهيم صدقي ، وجميل العلواني ، وفؤاد رسلان ، وصالح الداغستاني، وسعيد الترمانيني ، ونظير النشواتي من أبناء حمص ، وبقية الرفاق ، ورتبنا المشاة القلائل معنا على التلول ، استعداداً للقاء الحملة ، منتظرين أن يلحق بنا سائر المشاة في النهار ، ولم نكن نعلم أنهم ساروا مع الفرسان خلافاً للقرار المتخذ ، والخطة المرسومة . ولما دنا الغروب ولم تصل الحملة الفرنسية ، عدنا الى « قارة » لنسمع من أهلها احاديث دخول الثائرين قرية « دير عطية » ، وما فرضوا عليها من غرامة السلاح والمال ، وما ينعم به المحتلون من طيب المقام ، وهناءة الضيافة ، والنوم على الفرش الوثيرة ، وأكل شهي الاطعمة ، فلم يلبث المشاة الذين كانوا معنا ان سلكوا طريق « دير عطيه » ، فالحياة فيها خير من المرابطة في الهضاب دون طعام ، ثم خوض معركة ضارية مع جيش مجهز باحدث الاسلحة ! وكنا كلما رجونا احداً منهم ان يبقى معنا ، لأن الحملة الفرنسية قد تزحف غداً الى قارة، قال : « ولماذا أبقى ؟ هل الحرب علينا والغنم لهم ؟ .. » ثم أدار ظهره ، وسلك الطريق الى دير عطية ، وربما قال بعضهم : نحن لا نقاتل ما لم يكن زعماؤنا على رأسنا ! وزعماؤنا في دير عطيــة ، ونحن ذاهبون إليهم ! » . كان نصيبي مع ابراهيم صدقي أن نحل ضيفين على عائلة رقيقة الحال كثيرة العيال في قارة. وبعد العشاء ذهبنا معاً الى دار حسن سويدان حيث يحل القاوقجي والعاص ، وابلغناهما ان لم يبق في قارة غيرنا نحن الضباط والشبان المثقفين من دماشقة وحمصيين وحمويين ، مع شرذمة من مسلحي قرية الرحيبة ، وعددنا كلنا لا يتجاوز الثلاثين مسلحاً ، وطلبنا منهما ان يتوجها بنفسيهما الى « ديرعطية » لاقناع زعماء الثائرين فيها بالزحف ليلاً الى قارة ، فقد تواترت الاخبار من الشمال تؤكد ان الحملة الفرنسية، وهي كبيرة ، ستزحف غداً الى قارة ، وحدة كاملة لا تنشطر ولا تتجزأ ، ومعها ست مدرعات ، ومدفعية

ثقيلة ، فاضطر العاص والقاوقجي لان يتوجها ليلاً الى ديرعطية ، لاطلاع زعماء المسلحين على ان قارة خلت من المدافعين، وان المشاة اصبحوا كلهم في ديرعطية ، وينذرا خالد النفوري وابا عمر ديبو ومن معهما بسوء العاقبة ، اذا لم يسرعوا بقواتهم الى قارة قبل ان يحتلها الفرنسيون ، ويحتلوا معها الموقع الاستراتيجي للدفاع عن النبك ، بل عن قلمون كله . وصل القائدان العسكريان ليلاً الى دير عطية ، وقاما بالواجب ، ولكن الآذان كانت صماء عن سماع النذير ، لأن المهلة لجمع السلاح والمال تنتهي في الغد ، ولا بد اذن من الانتظار حتى تمتلىء الجيوب بالدنانير التي دغدغت احلام النفوري وابي عمر ديبو ومن لف لفهما ، وتحمل كواهل جماعتهما السلاح الذي يباع بألوف الدنانير الذهبية .

وقد علمنا ان شجاراً نشب بين سعيد العاص وخالد النفوري ، انسحب على اثره سعيد العاص ، وعاد ليلاً الى قارة ، وظل فوزي القاوقجي يحاول بمرونته وبالمنطق إقناع هؤلاء الزعماء ، دون جدوى ، حتى إذا أصبح الصباح ، ولم يجد منهم أي بادرة للحركة ، بادر الى جواده يسعى الى قارة . وكنا تجمعنا باكراً في ساحة القرية ننتظر عودته ، فلما أقبل أشار إلينا ، بالمسير فوراً الى «عيون العلق» ، بعد ان طمأننا،وأكد لنا ان أخواننا كلهم قادمون لنجدتنا، حتى يشد من عزائمنا ، فقد حدثنا ، بعد المعركة أن أكثر هؤلاء المتزعمين كان يكذب نبأ زحف الحملة في الغد الى قارة ، بل كان بعضهم يكذب نبأ حشد الحملة في حسية من اساسه .

للوطن رجال نذروا انفسهم !

– ٦٨ –

سرنا من قارة في صباح الثالث عشر من شهر آذار ١٩٢٦ ، مسرعين الى

موقع « عيون العلق » ، ورافقنا إليها عدد من مسلحي قارة المكلفين قبل كل أحد بالدفاع عن قريتهم ، فلم يبلـــغ عددنا المئة مسلح . ولما شارفنا على التلول فاجأتنا طائرة فرنسية تحلق منخفضة بقنابلهـا ، فتفرقنا ، وتوسدنا الارض ، واطلقنا عليها نار بنادقنا ، حتى اخذت ترتفع ، وعادت من حيث أتت . وعندئذ وجهنا نحو خمسين مسلحاً الى أعلى تل يشرف على سهل « الـــبرج » وطريق حمص ، يعرف بجبل الصوان ، وتحصن فوزي القاوقجي ، وسعيد العـــاص ، وفؤاد رسلان ، ونظير النشواتي ، ورفيقـــه حسين جراد من حمص ، وعشرة مسلحين عن اهل الرحيبة في تل شرقي طريق السيارات ، وتحصن بعض مسلحي قارة في تل وراءهم ، وتحصنت مع جميل العلواتي وثلاثة مسلحين آخرين في تل صغير غربي طريق السيارات ولكنـــه قريب جداً منها ، أي أننا نحن الخمسة وقفنا في وجه قلب الحملة مباشرة ، وفي وجه آلياتها المدرعة ، على عكس التلين شرقي الطريق ، فإن مسافة لا بأس بها كانت تفصلهما عن الطريق العامـــة . وتحصن نحو عشرة مسلحين وراء جدار بستان صغير الى يسار التل الذي تحصنا فيه نحن الخمسة .

وكان الضابط ابراهيم صدقي اخبرنا ان بندقيته تعطلت اثناء التصويب الى الطائرة ، فعالجناها معاً ، وتبين لنا ان هنـــاك كسراً في ابرتها ، لا بد له من اخصائي يصلحه ، وقررنا ان يذهب بها الى قرية « قـــارة » حيث يوجد من يصلحها ، ويستعين بفرسي التي قررت ابعادهـا الى قارة مع جوادي القاوقجي والعاص حتى لا تصيبها مدفعية العدو وطائراته ورشاشاته اثناء المعركة . فلمـا ادرك ابراهيم صدقي ألا مفر له من الذهاب الى قارة ، والابتعاد عنا ستة كيلو مترات ، ونحن قلة على أبواب معركة ضارية ، قال : « يعز علي فراقكم في مثل هذه الساعة العصيبة !.. » ، وترقرق الدمع في عينيه ، فكانت آخر كلمات سمعتها من هذا الصديق الشاب الوفي الذي انزلته من نفسي منزلة لم انزلها احداً غيره من رفاق السلاح ، لشهامته واخلاصه لوطنه ، وسعة علمه ، ووفائه لإخوانه ، وذكائه . وخفة روحه ، ولا أبالغ اذا قلت انه كان مثالاً حياً للشباب العربي ، وكأنه وهو يودعنا كان يخشى ان يفجع بأحد منا ، نحن أخوانـــه ورفاقه في

السلاح ، وهو يشعر بأننا على ابواب معركة غـــير متكافئة ، قلة تواجه جيشاً افرنسياً يزحف بألوف جنوده لاحتلال منطقة قلمون. بينما هو ذاهب الى القرية ، وراء خط القتال ، لاصلاح بندقيته ، وما درينا ان كلمته تلك ، كانت حساًقبل الوقوع ، ، اذ فجعنا ، نحن في ذلك اليوم بمصرعه ، في موقف بطولي ، لم يقفه قبله أحد ، رحمه الله ، واحسن الى والديه اللذين نشآه أحسن تنشئة ، فقد كان وحيدهما من الذكور . تسلم ابراهيم صدقي فرسي ، ورجوته ان يبقيها في قارة بعيداً عن أرض المعركة ، إن عاد هو إلينـــا ، ورحنا نرقب الطريق الى حمص ، واذا بالطائرة تعود ، تقصفنا بقنابلها ، وتنقض على مواقعنا برشاشاتها ، فتأكدنا من ان الحملة الفرنسية في طريقها إلينا ، ولم يكذب حدسنا ، فقد رأينا بعد حين ، مسلحينا يفرون منحدرين بسرعة من جبل الصوان ، وهو أسمى مرتفع يطل على طريق حمص ، لا يلوون على شيء وراءهم ، وغـــادروا ارض المعركة دون ان يطلقوا رصاصة ، من بنادقهم ، فقدرنا ان الحملة الفرنسية في طريقها الى احتلال هذا المرتفع المشرف ايضاً على مواقعنا ، وعجبنا كيف يفر هذا العدد من المسلحين دون أي مقاومة ، ضارباً في السهل ، منحرفاً الى الشرق حـــتى غاب عن انظارنا ، وظهرت طلائع الحملة على ذرى جبل الصوان ، ثم انحدرت نحو مواقعنا ، وظل القائد الجنرال « مــارتي » واركان حربه في ذروة المرتفع يواجهون المعركة ، واطل الفرسان الصباحيون يؤلفون الجناح الايمن من الحملة ، منتشرين على نسق الحرب الى قرب سلسلة جبال قلمون الغربية ، وعددهم الوف ، وأطل المشاة يؤلفون الجناح الأيسر منتشرين الى بعـد أميال في السهل شرقي جبل الصوان ، واطلت المدرعات الست من منعرج الطريق ، واصبحت على بعد عشرات الامتار منا ، تفصل بين تلنا والتل الذي يتحصن فوقه القاوقجي والعاص واخوانهما ، ووراءها زحف الجنـــود يتقدمـــون منتشرين نحونا ، فاطلقنا عليهم نار بنادقنا ، وأوقفنا زحفهم ، ولكن المدرعات أمطرتنا بوابل من مدافعها ورشاشاتها ، ثم اخذت المدفعية الثقيلة تقصف مواقعنا بشدة ، ففر المسلحون من اهالي قارة والرحيبة ، وتخلوا عن الجدار الذي كانوا متحصنين

وراءه في البستان ، منسحبين من المعركة ، وفر معهم المسلحون المتحصنون في التل الشرقي وراء التل الذي يتحصن فيه القاوقجي وإخوانه ، ورأينا رفيقنا سعيد الترمانيني وصالح الداغستاني يتدحرجان من جبل «المنطار» ، ووراءنا تحت قصف المدفعية الشديد ، وقد استشهد معهما ثائر وجرح آخر ، ولم يبق في جبهتنا صامداً غير تلنا الصغير ، ونحن فيه خمسة ، وغير التل الشرقي يدافع عنه القاوقجي واخوانه ، واخذ الفرسان الصباحيون يلتفون على جناحنا الايسر ، أي على تلنا الصغير ، واخذ المشاة يلتفون على جناحنا الايمن ، أي على التل الذي يتحصن فيه القاوقجي والعاص واخوانهما ، والمدرعات تصلي موقعنا بنيران حامية من مدافعها ورشاشاتها ، حتى أصبح من الصعب علينا تسديد نارنا الى العدو في تل صغير مكشوف اصبح هدفاً لنار المدرعات ونار جنود الحملة ، لم نستطع ان نحفر فيه ما يقينا النار المسلطة علينا . ولكن لا خيار لنا في الامر ، فقد كان الانسحاب من التل مستحيلاً علينا تحت نار المدرعات والجنود ، تحصد كل من تحدثه نفسه بالانسحاب ، ولاسيما وتلنا قرب طريق السيارات تصطف أمامه ست مدرعات ، وتسلط عليه نار مدافعها ورشاشاتها .

استمر القتال ساعة ونصف الساعة ، وحمي وطيسه ، واستخدم القاوقجي مسدسه في تهديد من يفكر بالانسحاب من التل الشرقي ، وأصبحنا نشعر برأسي الكماشة يقتربان لينطبقا على التلين المدافعين . وكنا من تلنا الصغير نرى ونشهد دفاع القاوقجي والعاص واخوانهما دفاع المستميت ، فهم كانوا اقـــدر منا على الحركة ، في تلهم الكبير البعيد مئات الأمتار عن الطريق ، وعن المدرعات التي قذفها القاوقجي من بندقيته بالرمانات ، فلم تصلها ، بل تقدمت رويداً رويداً نحو تلنا حتى أصبحت على بعد بضعة عشر متراً منه ، لا يثنيها عن اقتحام التل الا توقف جنود قلب الحملة خوفاً من نيران بنادقنا في التلين . وفجأة ، وبدون توقع منا ، هبطت الغيوم التي كانت ، قبيل المعركة ، متقطعة بيضاء في السماء ، ثم التحمت ، حتى غطت السماء كله ، اثناء المعركة ، ثم هبطت ، وخلفت ضباباً

كثيفاً لا يستطيع المرء ان يرى ما امامه على بعد بضعة امتار منه، وساد سكون.. إذ سكتت المدفعية ، وسكتت المدرعات ، وسكن إطلاق الرصاص ، وسنحت الفرصة السماوية لمغادرة التل ، فاوعزت لرفاقي بالانسحاب ، وركضنا بكل ما فينا من قوة نبتعد عن المكان.. نبتعد عن طريق السيارات منحرفين عنها نحو الغرب ، حتى لا تلحق بنا المدرعات ، عندما ينقشع الضباب ، وتبيدنا برشاشاتها ومدفعيتها في السهل الفسيح ، لا نغرق بالانحراف الى الغرب كثيراً حتى لا نقع تحت رحمة الفرسان الصباحيين الذين تجاوز رأس جناحهم الأيمن ، موقعنا على التل ، حوالي كيلو مترين ، الى الجنوب ، واخذ يلتف حول التل ، بل حول موقع عيون العلق باسره. ويظهر ان فوزي القاوقجي اوعز بنفس اللحظة الى اخوانه بالانسحاب من التل الشرقي ، فوثبوا منه ، واندفعوا في السهل يركضون مبتعدين ايضاً عن الطريق منحرفين الى الشرق ، لا يغرقون في الانحراف حتى لا يصبحوا تحت رحمة الجنود المشاة الذين اخذوا بدورهم يطوقون تلول عيون العلق ، وتجاوزوها رأس الجناح الأيمن للحملة ، واصبحوا حولها بشكل قوس منحن . هكذا شاء الله بمعجزته ان ينجي هذه الفئة المختارة المثقفة المؤمنة من الثائرين ، فلم ينقشع الضباب الكثيف عن الأرض إلا بعد ربع أو ثلث ساعة ، وببطء متناه ، مكننا من الإفلات ، والنجاة من التطويق ، وأمدنا الله مع الضباب بغيث ألان الأرض الرملية الهشة ، فاصبحت حوافر الخيل تغوص بها ، فلم يستطع الفرسان الصباحيون أن يلاحقونا في السهل الفسيح الذي يمتد ستة كيلومترات بين عيون العلق وقرية «قارة» ، ولما انقشع الضباب ، وأدرك الفرنسيون انسحابنا ، تقدمت مدرعاتهم نحو قارة ، تلاحقنا بنيرانها ، ونحن بضعة وعشرون ثائراً منتشرين على جانبي الطريق ، بعيداً عنها ما أمكن البعد ، بعيداً عن فكي الكماشة التي تسللنا منها ما أمكن البعد . وتتقدمت الحملة ، واستولت على التلال في موقع عيون العلق ، وأخذت منها تلاحقنا برشاشاتها ، وتتقدم كتائب في السهل نحو قارة تحميها المدرعات . وبينما كنا نقترب من قرية قارة شاهدنا جموع الثائرين تحتشد في مداخل القرية الشمالية ، فعرفنا أن المسلحين الذين فتحوا

دير عطية ، وحسبوا أنهم استولوا على حصون « ليبج » و « انفرس » ، راعهم دوي المدافع ، وتفجر القنابل ، وأزيز الرصاص ، وايقنوا ان الحملة الفرنسية وصلت الى قلمون ، وأن حشدها في « حسية » ليس اكذوبة ، وانها لم تهب جموعهم التي احتلت « دير عطية » ، ولم ترجع خوفاً منهم إلى حمص. لذلك تحركوا من دير عطية دون أن يعرفوا ما فعل الله بالغرامة المفروضة على البلدة ، وكم دخل منها الى جيوب زعمائهم . فقد حدثنا خالد النفوري وابو عمر ديبو فيما بعد ، أنهما اضطرا لمغادرة البلدة بجموع المسلحين، قبل ان تنتهي المهلة المتفق عليها لجمع المال والسلاح . وقبل ان يقبضا الغرامتين . ولكننا نعتقد انهما قبضا غرامة المال أو اكثرها، وتخليا عن غرامة السلاح، لان مسلحي دير عطية لا يمكن ان يسلموا أسلحتهم لخصومهم ، وهم يسمعون أصوات مدافع أصدقائهم الفرنسيين تدوي وتنفجر قذائفها قرب قارة التي لا تبعد بضعة كيلومترات عن بلدتهم ، وتتجاوزها الى ما وراء قارة باميال .

كان جميل العلواني على مقربة مني يوم انقشع الضباب ، وبدت طلائع الثائرين القادمين من دير عطية في مداخل قارة ، فأخذنا نمشي الهوينا من التعب ، ومن رخاوة الارض التي بللها المطر ، فأخذت تنفرز فيها اقدامنا ، وفجأة اندفع نحونا بضعة فرسان من عصابة دوما يطلبون منا الا ننسحب حتى لا نثبط من عزائم اخواننا القادمين لنجدتنا من دير عطية ، فتوقفنا معهم ، بل عدنا نحو العدو ، ننازل صفوفه الزاحفة ، وترجل الفرسان ، واطلق بعضهم الرصاص على العدو ، ولكن رشة مفاجئة سريعة من أحد الرشاشات ، فرقت صفهم ، وألقت الرعب في قلوبهم على رواحلهم ، فأسرعوا الى اعتلاء متنها ، واكثرها من دواب معاصر الدبس في دوما ، واطلقوا لها الاعنة منهزمين نحو قارة ، وتخلف واحد منهم انهارت اعصابه ، فلا يستطيع اعتلاء ظهر دابته ، وانا واقف الى جانبه اتفرج عليه ، شامتاً بالذين اتهمونا بتثبيط عزائم اخواننا القادمين من الفتح ، أراهم ينهزمون تاركين احد اخوانهم عرضة لرصاص الرشاشات المصوبة الينا ،

واخيراً هتف الدوماني يستنجد بي أن اساعده على الركوب ، فرجعت ، بعد ان تجاوزته ، وساعدته على اعتلاء ظهر الكديش، فضن ولم يفطن لأن اكون ردیفه في هذا المأزق ، وانطلق ينجو بروحه ، منهزماً الى قارة التي خلفها مع اخوانه ، لما رأوا تقدم المدرعات نحوهـا ، وزحف الحملة المستمر لاحتلالها . عدت للسير نحو قارة ، وكان جميل العلواني تجـاوزني قليلاً ، فوجدته مستلقياً على ظهره في الارض ، وظننت انه اصيب بطلق ناري ، ولكنه طلب مني الا اتوقف عن السير تحت وابـل الرصاص ، واعلمني أن دكة سرواله (شروال) انقطعت ، وانزلق الشروال عن السروال ، فضحكنـا ، وانتظرته حتى شد حزامه الجلدي على الشروال ، وعدنا ننسحب، وقد رأينا المدرعات تدخـل قبلنا قرية قارة ، فاتجه جميل العلواني الى الغرب، مبتعداً عن قارة ، واقتحمت انا القرية من ازقتها الغربية ، واجتزتها دون ان تكتشفني المدرعات التي رابطت في شارعها الرئيسي وساحتها، ثم اخذت اتسلق جدران البساتين التي تلي القرية الى الجنوب،واقفز منها مجتازاً البسـاتين ، حتى أصبحت على بعد مئات الامتار من القرية ، وهناك رأيت جموع القادمــين من دير عطية تعود الى النبك فوضى منهزمة ، وتضطرب عند سقوط قذائف المدفعية الفرنسية على اليمين واليسار من طريق السيارات ، ثم رأيت صادق الداغستاني يروح ويجيء بينهم بجواده محمساً ، يدعوهم للثبات ، فلا يصغي اليه احد ، حتى اذا كثر سقوط القذائف شمالي قارة اندفع بجواده مبتعداً عن الخطر باتجاه النبك . انطلقت بضـع رصاصات متقطعة من نافذة فيمنزل مرتفع في قارة، مصوبة الى جموع الثائرين، فقدر بعضهم انها من بيت احد المسيحيين في القرية ، وقدرت انها من بيت عميل أو جاسوس دون النظر الى دينه . وفي الطريق الى النبك صادفت شاباً درزياً كان يعنى بجواد فوزي القاوقجي ، اسمه فارس ، يبكي ، كنت اعرف انه كان مع القائد في التل الشرقي ، وسألته عن فوزي القاوقجي فلم يجب ، واسترسل في البكاء ، وسألته عن سعيد العاص، فامعن ايضاً في النحيب ، فانقطعت عن سؤاله، وقدرت ان القائـدين البطلين استشهدا في المعركة . وكان ثائر آخر حمل الي

نبأ استشهاد العقيد سعيد العاص، قبل ان التقي بفارس مساعد القاوقجي ،فزاد حزني ، وتابعت مسيري الى النبك، تحت تهطال الثلج،حيث التقيت بالقاوقجي والعاص سالمين ، وتفقدنا اخواننا فعلمنا ان فؤاد رسلان جرح في فخذه ، وحمل الى قارة حيث ترك في منزل حسن سويدان ، دون ان يعلم اخوانه الاقربون به، ولم نعثر على اثر لابراهيم صدقي، ثم علمنا، بعد ايام ، عن مصرع الشهيدين البارين، فقد دخلت الحملة الفرنسية بلدة قارة ، وتوجـــه الجنرال مارتي وأركان حربه ومرافقوه الى بيت حسن سويدان حيث وجدوا فؤاد رسلان جريحاً ملقى في أرضه وهو خال من السكان ، ينزف جرحه . وكان ضابط استخبارات حمص، وعبد المجيد آغا سويدان وجيه حسية يرافقان الحملة ، وقد حلا مع هيئة القيادة في منزل حسن سويدان . والمستشار يعرف فؤاد رسلان في حمص معرفة تامة، يعرفه من اشد الشباب الوطنيين مناوأة لسلطة الانتداب ، فتقدم منه شامتاً ، وسأله: « هل تحب فرنسة يا فؤاد رسلان ؟ » ، فكان جواب الجريح : « انني احب وطني! » ، وافرغ المستشار رصاص مسدسه في رأس الجريح ، فصعدت روحه الطاهرة الى بارئها تسجل حق سورية في الحرية والاستقلال . وتقـــدم عبد المجيد سويدان يرفس جثة الشهيد بقدمه ، ويقول امام الفرنسيين « هذه نهايتك يا خائن ! » ، وسجل التاريخ في تلك اللحظة دور كل منهما في صفحاته، وميز بين الخائن والشهيد ! اما الضابط ابراهيم صدقي ، فقد كان وصل ، قبل المعركة الى قارة ، وربط فرسي في احد خاناتها ، وذهب الى رجل في القرية مختص باصلاح السلاح ، يصلح بندقيته ، وهو يستعجله ، لما سمع قصف قنابل الطائرة في موقع عيون العلق ، ثم سمع بعدها ازيز الرصاص ، وتفجر القذائف من المدافع ، فلما انتهى الرجل من اصلاح ابرة البندقية بتمديدها، تلقفها،وخرج من قارة وحده باتجاه « عيون العلق » ، وهناك رأى التلول التي ترك اخوانه فوقها يغطيها الدخان الكثيف من قذائف المدفعية، ورأى كوكبات الصباحيين ريشة طويلة في جناح الحملة الايمن تتقدم خبباً ، وبنظام نحو قارة ، وتلـــف

لتطويق موقع عيون العلق ، فأدرك خطة التطويق ، وخطرها على إخوانـه ، واندفع نحو تل غربي طريق السيارات ، وارتقاه ، واستلقى فوقـــه ، وراح يطلق رصاص بندقيته على الفرسان الصباحيين ، وخاصة من كان في رأس الجناح الايمن ليوقف خطة تطويق إخوانه ، ويعيق تقدمهم ، وظـــل يصليهم من نار بندقيته حتى داسته سنابك خيلهم ، وصرعه رصاصهم ، فهو واحد إزاء ألوف الفرسان . وكان رحمه الله اشقر الشعر ابيض الوجه ، يلبس بزة عسكرية ، فلما وصل الجنرال مارتي الى قارة ، واستقبله فيها بعض المسيحيين والعملاء من اهلها ، قال لهم مزهواً : « اذهبوا الى التل الغربي القريب من قريتكم ، تجدوا على سفحه

جثة فوزي القاوقجي قائد العصاة ! » . وفي اليوم الثاني ، أي بعد رحيل الحملة عن قارة ، ذهب بعض الفلاحين مـن قارة الى المكان ، حيث وجـــدوا جثة الشهيد ملقاة في سفح التـــل ، وعرفوه ، ودفنوا جثته في جانب مضجعه . ولما عدت بعد الثورة الى الوطن ، قصدت قـــاره خصيصاً ، وزرت مع بعض احرارها التل الذي استشهد فيه اخي ابراهيم فوجدنا السيل قـــد جرف القبر ، وذهب بمعالمه ، لذلك سعيت مع النادي العربي الذي كنت احد مؤسسيه في دمشق ، حتى اقمنا في عام ١٩٣٨ نصباً على طريـــق السيارات الجديده ، الذي يبعد قليلاً عن الطريق القديمة ، لتمر ببلدة دير عطية دون قارة ، كما شاء لها الافرنسيون ، بعد الثورة ، وخلدنا بهذا النصب شهادة ابراهيم صـــدقي وفؤاد رسلان ، وبطولتها ، واشرنا الى المعركة التي استبسلت فيها فئة قليلة مؤمنة نذرت نفسها لله والوطن ، فكانت



الضابط الثائر صادق الداغستاني

رمزاً للثورة بأهدافها السامية ، بعيداً عن المطامع والاهواء الشخصية ، ولكن الفرنسيين حطموا لوحة النصب التذكارية ، قبل جلائهم عن سورية ، فأصلحها النادي العربي ، بعد الجلاء ، وما يزال النصب قائماً إلى اليوم عند الكيلو متر (٩٩) من دمشق ، على طريق حمص . وقد زرت ايضاً قبر الشهيد فؤاد رسلان في مقبرة قارة ، وقد قام اهله ببنائه بالحجارة ، رحم الله الشهيدين ، فقد كان وقع استشهادهما أليماً على نفوسنا ، وستبقى ذكراهما حية في نفوس إخوانهما في المعركة ، حتى يلحق الجميع بهما الى الرفيق الاعلى . أما اهالي دير عطية ،فقد انتقموا من الثائرين مساء المعركة ، وقتلوا عدداً منهم مروا باراضي القرية أثناء الهزيمة ، وسلبوا الكثير من البنادق ، وانجلت المعركة عن استشهاد ستة عشر ثائراً ، وجرح اكثر من هذا العدد .

كانت جريمة نهابي دير عطية تنطق بهولها ، وتلبس مرتكبيها العار والشنار ، وتتحمل وزرها في الدرجة الاولى قيادة الثورة العامة التي تركت هذه المنطقة دون قوة رادعة تسهر على تنظيمها،وتوجه إمكانياتها لأهداف الثورة، وارغمتنا، في كل مرة ، على ان نحاول بانفسنا إصلاح الحال ، فنعتمد على متزعمين يتكشفون لنا عن طماعين ، نهابين ، لا يهمهم فشل الثورة كلها في سبيل تحقيق اطماعهم ، وإملاء جيوبهم بالمال .

أما الضباط والمثقفون فلم يكن بيدهم قوة تردع المتزعمين،ولا سلطان لهم على المسلحين الذين ينقادون للزعامات المحلية ،ولم يكن لديهم وسيلة إلا اسداء النصيحة ، فيتظاهر المتزعمون بأنهم وعوها ، وانهم بها عاملون ، حتى اذا لاحت لهم الفرصة تآمروا على قضية الوطن في سبيل إشباع نهمهم. لقد رحل ليلاً، بعد احتلال الفرنسيين قارة،المئات من المسلحين عائدين الى قراهم . واكثرهم كنا ارغمناهم على المسير معنا، فلما سنحت لهم الفرصة كانوا اول المنفضين عن الثورة، ولم يبق في النبك سوى فئة من الدروز ، وفريق من عصابة دوما وحرستا وحي الاكراد وثوار بلدة النبك الذين لا يستطيعون التخلي عن بلدتهم . وصباح الرابع

عشر من آذار فر ابو عمر ديبو وعصابته ، ومن جمعهم من قرى المرج ، مستصحباً معه صفوت الجيرودي ومسلحي جيرود ، بعد أن أيقـــن أن النبك ستسقط لا محالة بيد العدو .

الاستبسال في الدفاع عن النبك .

- ٦٩ -

اما نحن ، فقد اجتمع القاوقجي والعاص بمن تبقى من النافذين على مسلحي النبك ، وقرروا في هـذا الاجتماع الدفاع عن البلدة ، وانتدبوا سعيد العاص ، ونزيه المؤيد ، وخيرالدين اللبابيدي ، والاخيران وصلا الى قلمون بعـد معركة عيون العلق ، وصادق الداغستاني ، واحمد المنلا ، وعدداً من رفاقنا الفرسان ، ليتوجهوا في صباح ذلك اليوم بالخيالة من الثائرين إلى التلول الغربية الممتدة على طول سهل النبك الشمالي ، والمشرفـــة على طريق السيارات ليتحصنوا فيها ، ويدافعوا عنها كي لا يحتلها العدو ، ويصل منها الى المستشفى الدانماركي القريب من بلدة النبك . وكلف فوزي القاوقجي مع المشاة من الثائرين ومسلحي النبك بالدفاع عن بلدة النبك ، فاختار البساتين التي تقع شمالي البلدة ، وتشرف مـــن الشرق على طريق السيارات ، وتمتد اكثر من كيلو متر ، وتصل الى مدخـــل البلدة . وقد حفر النبكيون وثائروهم خنادق في البساتين ليتخذوهـا في الدفاع عن بلدتهم ، وخندقاً عند مدخل المدينة من الشمال لمنع المدرعات من الدخول الى ساحة الغفري ، واحتلال البلدة .

انبثق فجـر الرابع عشر من آذار عام ١٩٢٦ ، فتوجهت مع فوزي القاوقجي إلى البساتين ، باعتباري من المشاة ، بعد ضياع فرسي مني في حادث استشهاد ابراهيم

صدقي ، ونظمنا مسلحي النبك من مدخــل البلدة الشمالي إلى منتصف خــط البساتين ، وإلى جانبهم اخلاط الثائرين الباقين من مسلحي القرى ، حتى اكتمل خط الــدفاع ، واخترنا بعدهم الزاوية لأنفسنا ، في مكان ينحرف فيــه خط البساتين من الشمال الى الشرق . والمكان ثغرة خطيرة ستتعرض قبل كل مكان في البساتين إلى زحف الحملة الفرنسية ومدرعاتها التي تصل إلى بعــد عشرات الامتار عنها سالكة طريق السيارات ، فإن دخل منها جنود العدو انهار خط الــدفاع الذي أقمناه كله ، واصبح كل من في البساتين من المدافعين معرضــة ظهورهم لنار الجند . وأقمنا على يميننا مشاة الدروز ، وعلى يمينهم أقمنا نفراً من الحمصيين والثائرين الغرباء عن قلمون ، وعدداً من مسلحي النبك معهم . وهكذا أقمنا خطاً للدفاع على شكل زاوية منفرجة في أطراف البساتين لمواجهة الحمــلة وصد جناحها الايسر ، وجلسنا نترقب وصولها إلى ما بعد الظهر ، إذ ظهرت طلائعها تتقدم بطريق السيارات قادمة من « قارة » ، وفي مقدمتها المدرعات الست ، والخيالة الصباحيون يؤلفون كأمس الجناح الايمن من الحملة ، وفي القلب والجناح الايسر المشاة ، ومن ورائهم المدفعية . ولما دنا الفرسان الصباحيون من التلول الغربية ، تقدم ثلاثة منهم طليعة ، وراءهم كوكبة لا تزيــد عن ثمانيــة فرسان ، فما كادت الطليعة الاولى تصعد في التلول حتى قابلها فرساننا بقيادة سعيد العاص ، بنيران بنادقهم ، فسقط اثنان من الطليعة ، وفر الثالث ، وسقط ثالث من الكوكبة ، وتراجع سائر افرادها نحو خط الصباحيين الذين انتشروا وقاموا بغارة على التلول ، يحميهم قصف مــن مدفعيتهم ، يمهــد لهم التقدم ، وسارعت المدرعات حتى وازت التلول ، وساعدت بمدافعها ورشاشاتها هجوم الصباحيين عليها . وما هي إلا دقائق سقطت خلالها بعض القذائف على التلول حتى رأينا خيالتنا يمتطون جيادهم ، ويركنون للفرار . ويظهر انهم كانوا عازمين على هذا ، فقد أبقوا خيولهم الى جانبهم ووراءهم في المنخفضات ، فلما بــدأ القصف عليهم وعلى خيولهم من المدفعية ، سارعوا الى جيادهم يمتطونها ، وينجون بانفسهم ، وكان خالد النفوري في مقدمة المنهزمين . حتى ان احدهم ركب فرس سعيد العاص ، وهو الشيخ الذي لا يستطيــع السير طويلاً ، وهرب بها ، وتركه امام الفرسان الصباحيين ، وتحت قصف المدافع ، حتى أن قذيفة سقطت على

حافة المكان المتحصن فيه العاص ، أصابت شظية منها ثائراً من المغاربة العرب الفارين من الجيش الفرنسي اسمه « رابح » ، كان يجانب العاص يستخدم رشاشاً خفيفاً ، فجرحته ، واسكتت رشاشه . ولما دنا الفرسان الصباحيون من موقع سعيد العاص ، خرج من مكمنه يطلب النجاة لنفسه ، بعد ان تخلى عنه سائر الخيالة من الثائرين، ولكنه لم يجد فرسه في الموضع الذي تركها فيه ، وكاد يقع بيد الصباحيين ، لولا ان سخر الله له الضابط خير الدين اللبابيدي الذي أردفه وراءه ، على جواده ، وانطلقا تحت وابل من الرصاص ، حتى وصلا الى تل وراء المستشفى الدانيمركي، فتحصنا فيه مع بضعة عشر فارساً من الدروز ، ودافعوا ما استطاعوا، ولكن الفرسان الصباحيين، استطاعت كتيبة منهم أن تدخل المستشفى ، وتحتله ، وتتحصن فيه وراء جدران سوره ، فاضطر سعيد العاص ورفاقه للانسحاب باتجاه يبرود . وكان مشاة الحملة الفرنسية يتقدمون نحو النبك ، منتشرين في السهل ، وعلى عرضه بين التلول والبساتين ، بينما كانت المعركة دائرة بين الفرسان ، ولما اصبح المشاة على بعد مئتي متر من موقع القاوقجي في البساتين، أوعز القائد الثائر بإطلاق النار دفعة واحدة ، مما أرغم المشاة على ان يتوسدوا الارض ، ويوقفوا زحفهم . وكنت مع جميل العلواني وعادل الحامدي إلى جانب القاوقجي ، فلما توقف زحف المشاة تقدمت المدرعات الى مسافة خمسين متراً من موقعنا،واخذت توجه اليه نيران مدافعها ورشاشاتها، وساعدتها المدفعية الثقيلة ، اذ اخذت تقصف البساتين بقذائفها ، ولكن اكثرها كان



خير الدين اللبابيدي
الضابط الطيار

يتفجر وراءنا ، على بعد من خط الدفاع . وقـــد حاولت المدفعية والمدرعات وهجمات المشاة ان تضعضع خطنا ، ولكننا ثبتنا ، وارغمنا المشاة على الفرار نحو التلول التي كان احتلها الصباحيون ، منذ بـــدء المعركة ، واصبحت كلها بيدهم الى المستشفى الدانماركي ، فترجل الصباحيون عن جيادهم في التلول ، وانضموا الى المشاة ، وتقدموا نحونا ، يملأون السهل ، ثم قاموا بهجوم مركز على مواقعنا ، تلمع الحراب والسيوف بايديهم ، ولكن الثائرين في خط الدفاع صدوا هجومهم العنيف ، كما كنا في نفس الوقت ، نقوم من جانبنا بصد هجوم الجناح الايسر من المشاة ، ونوقف بالرمانات التي كان يقذفها القاوقجي من بندقيته تقدم المدرعات ، فتتساقط قريباً منها ، حتى عطلت إحداها مدرعة ، حاول ركب المدرعة التي وراءها أن يشدها بسلسلة إلى مدرعته ، ولكننا أرغمنا أفراد الركب على الفرار الى مدرعتهم ، وأصبنا بعضهم بجراح . واخيراً لجأ العدو إلى تثبيت رشاشاته الثقيلة على طول خط دفاعنا وفي مواجهته ، ثم قام ألوف الجند بهجوم جديد مركز على خطنا في ظل نار حامية من الرشاشات ، وقصف شديد مـــن المدفعية ، ولكننا استطعنا ايضاً صد الهجوم الثاني ، وحلنا دون تقدم المدرعات إلى الأمام بتعطيل مدرعة ثانية بالرمانات ، فتراجعت المدرعـــات إلى الوراء ، تجر المدرعتين المعطلتين ، ثم عادت الأربع السالمات إلى مواقعها ، تتقدم رويداً رويداً إلى الامام ، وكلما تقدمت ، غدا موقعنا في الزاوية عند تلاقي الخطين في خطر ، إذ انهـــا تكشف فيما إذا استمر تقدمها يسارنا ، ثم تكشف ظهورنا . استمرت المعركة ، وكلما دنا الغروب زادت ضراوة ، مما يشعرنا بان الفرنسيين كانوا حريصين على ان يحتلوا النبك في النهار ليبيتوا فيها ، على ان يبقوا في العراء ويسجلوا نصراً جديداً على الثائرين ، كما سجلوه في معركة عيون العلق أمس ، حتى صمت آذاننا من كثرة أصوات الرصاص ، وبلغنا الحـــال التي توصف في الحروب الضارية بخرس الرصاص ، فقد تعطلت أجهزة سمعنا عن تميز الاصوات لكثرتها . وقصفت المدفعية الثقيلة بلدة النبك ، قبل الغروب ، بعدة قذائف ، فرفع بعض المسيحيين الاعلام الفرنسية على منازلهم لتميزها المدفعية عن بيوت

المسلمين، ورفع مدير المستشفي الدانماركي من الصباح علم دولته على المستشفى، ودام جيش العدو في كر وفر حتى أفلت شمس ذلك النهار العظيم ، وابتهلنا الى الله ، وشكرناه على نعمائه ، لان عتادنا نفد اكثره ، واخذنا قبيل الغروب نقتصد في إطلاق رصاصاتنا الاخيرة حتى حل الغروب،ما عدا فوزي القاوقجي فقد استنفد قبل ساعتين من الغروب عتاده ، وراح يتمدد تحت شجرة ، ويعلن ان مهمته في القتال انتهت ، وان العبء اصبح على عاتق اخوانه الآخرين ، فألقيت بمنديل مليء بالعتاد الفرنسي ، كنت احتفظ به كاحتياط لبندقيتي ، وقلت له : « عد الى مكانك ، فواجبك ان تبقى الى جانبنا حتى انتهاء المعركة ! » ، وتلقف المنديل ، وعاد ضاحكاً الى خط النار ، وحاول ان يصيب علماً فرنسياً رفع على بيت مرتفع في البلدة ، ولكن اصابته كانت صعبة لبعد المسافة ، لذلك ضن بعتاده ان يذهب الى غير صدور اعداء وطنه ونحورهم فكف عن التسديد اليه . وتقدمت في آخر لحظة المدرعات ، وبلغت نقطة الخطر التي كنا نخشاها ، وايقنا نحن الاربعة حراس الثغرة الخطيرة بالهلاك، لان يسارنا وظهورنا اصبحت مكشوفة لها، وشاء الله في تلك اللحظات الاخيرة ان توجه المدرعات نيرانها الى الامام ، وان يشغلها عن موقعنا الثائرون النبكيون وغيرهم المتحصنون في الخنادق ، ووراء جدران البساتين ، حتى اذن الله،وحل الليل ، وساد الظلام ارض المعركة ، ورأينا الفرنسيين يلملمون جنودهم من السهل ، ويتراجعون بهم الى التلول الغربية ، ويحفرون فيها خنادق للدفاع ، ورأينا المدرعات تتراجع في اتجاه قارة حتى غابت عن الانظار . وعندما اشتد الظلام ، وتوقفت المعركة ، خرج الثائرون من معاقلهم ، واكثرهم ليس في بندقيته غير آخر طلقة ، أو حشو بندقية احتفظ به ليصرع من يريد أن يصرعه من الجنود، عندما يلتحم الطرفان، ويختلط الجمعان . ولو علم الفرنسيون بنفاد العتاد من اكثر الثائرين المدافعين عن بلدة النبك ، لتقدموا دون وجل الى مواقعهم ، واحتلوها ، ثم احتلوا البلدة ، وانتصروا في المعركة كما كانوا يشتهون ! .

عدنا الى بلدة النبك ، فطلب فوزي القاوقجي مني ومــن بضعة من الثائرين يملكون حشو بنادقهم طلقات أن نرافقـــه الى المستشفى الدانيمركي لمناوشة الحامية التي أقامها الفرنسيون فيه ، وكلهم من الخيالة الصباحيين ، فتقدمنا في ظلمة الليل ، حتى دنونا من المستشفى ، وأحست بنا الحامية ، واطلقت علينا نار رشاشاتها ، وقذفتنا بالرمانات من معاقلها في المستشفى ، فأخذنا نزحف. الى بعد امتار من سور المستشفى وصاح فوزي القاوقجي بالجنود ، وكلمهم بلهجتهم المغربية ، وقال لهم انه فوزي القاوقجي ، ودعاهم الى الاستسلام اليه ، فكان جوابهم الشتائم والرصاص وقذف الرمانات على موقعنا ، فجرح أحدنــا بقدمه ، واضطررنا للتراجع زحفاً حتى ابتعدنا عن المستشفى ، وظلت حاميته تطلق نيران رشاشاتها اكثر ساعات الليل ، بسبب الرعب الذي دب في قلوب أفرادها . كانت خسائرنا في معركة اليوم ، على ضراوتها ، لا تذكر ، لأنها لم تتجاوز شهيداً واحداً وجريحين ، عدا شهيدين من فرساننا في التلول . أمــا خسائر العدو فتقدر بالمئات بين قتلى وجرحى ، بينهم عدد مــن الضباط الفرنسيين الذين كانوا يقودون الهجمات على مواقعنا .

لقد تمكن الفرنسيون من احتلال التلال الغربية والمستشفى الدانيمركي ، منذ بدء المعركة ، بسبب هزيمة خيالتنا ، والمستشفى قاب قوسين أو أدنى من بلدة النبك ، إلا انهم إزاء دفاع المشاة البواسل ، عجزوا كل ساعات النهار عن الوصول الى البلدة ، او الى بساتينها المجاورة لها ، ووجدوا انفسهم أمام مقاومة لم يحلموا بها ، خاصة بعد السهولة في دحر الثائرين أمس في عيون العلق ، واحتلال قارة . لذلك كان يوم النبك نصراً لبضع مئات من الثائرين ، ببنادقهم الخفيفـة على الالوف المؤلفة من الجنود المجهزين بكل انواع الاسلحة وأحدثها ، بــل كان هذا النصر يبشر بنصر اكبر لو أن لدى المجاهدين عتاداً يواصلون به المعركة في الغد ، لان خسائرهم اليوم لا تذكر بجانب خسائر الفرنسيين الكبيرة . ومعركة ثانية على نمط معركة اليوم ترغم الفرنسيين على التراجع ، والعدول عن احتلال

النبك ، ولكن من أين نأتي بالعتاد لمعركة أضرى وأطول من معركة اليوم ، قد تستمر كل ساعات النهار في الغد . تلك كانت العقدة التي وقفنا عندها لما انتهت المعركة ، وهذه العقدة نفسها حملت بقية الثائرين الغرباء على الانسحاب من النبك ، تحت جنح الليل ، عائدين الى قراهم ، وحملت معهم مسلحي النبك أنفسهم الى النزوح بعائلاتهم عن البلدة الى القرى البعيدة ، والى الجبال الشرقية التي توصلهم الى قرى الجورة في قضاء جيرود . وهكذا لم يبق في البلدة سوى فوزي القاوقجي وإخوانه الضباط والمثقفين وشرذمة من مشاة الدروز . أما فرسان الدروز القلائل ، فقد لجأوا ، بعد انسحابهم من التلال الغربية ، إلى بلدة « يبرود » ، وقرية « جريجير » وغيرها من القرى في الجبال الغربية ، وفريق منهم انسحب من المعركة ، وتوجه لتوه الى الغوطة ، وبلغ بنا الوضع حدالتفكير بالانسحاب ، ولكن فوزي القاوقجي أراد ان يفيد من ثائري النبك وحدهم في الدفاع عن بلدتهم ، بعد ان رأى استبسالهم اليوم في المعركة ، فدعا وجهاء البلدة واغنياءها الى اجتماع عاجل ، وشرح لهم الوضع ، وبشرهم بالنصر غداً ، فيما إذا تداركوا ، تحت جنح الليل ، عتاداً للمجاهدين ، يكفيهم لمعركة الغد ، المفروض انها قد تستمر كل ساعات النهار ، وقال لهم ان الفرنسيين سيحرقون غداً أكثر منازل بلدتهم ،إذا ما احتلوها،وخاصة منها منازل الوجهاء والاغنياء! وثمن منزل واحد من هذه المنازل يساوي أكثر من ثمن الذخائر التي ستبتاعونها الليلة لإنقاذ بلدتكم ، واكد لهم ان دفاعنا عن البلدة سيرغم الفرنسيين حتماً على التراجع والانسحاب ، إذ لا طاقة لهم باحتمال خسائر جسيمة كالتي تحملوها اليوم، وذكرهم القاوقجي بما سيرتكبه الفرنسيون في البلدة من فظائع لا حدلها، كالقتل ، والنهب ، والحرق ، والاعتداء على النساء ، واكد لهم انه بمن معه من إخوانه، وبثائري النبك معهم مستعدون للدفاع عن بلدتهم ، وإنقاذهم من كارثة وقوعها بيد الفرنسيين الحاقدين، فيما إذا بذلوا الآن القليل من جيوبهم، وارسلوا الرسل في الليل الى يبرود والقرى القريبة المجاورة ، يشترون منها العتاد الكافي لمعركة الغد ، ويأتون به الى النبك قبل فجر الغد . وقال لهم انه

يأمل أن يصل جمعة سوسق غداً بجموع قرى الجرد لنجدتهم ، وأن يرسل الله لنا نجدات أخرى من حيث لا ندري ، وان ذلك ليس على الله بعزيز . ولماخرج زعماء النبك ليباشروا عمل جمع المال ، وإيفاد الرسل، كتب القاوقجي رسائل إلى سعيد العاص وخالد النفوري وزعماء الدروز ، طلب ان يحملها الموفدون لشراء الاعتدة إلى يبرود والقرى الغربية كالسحل وجريجير يدعوهم فيها إلى جمع شمل الثائرين الفرسان ، والمجيء بهم ليلاً الى النبك ، وبشرهم بان العدو لم يتمكن من احتلال النبك ، وانه تكبـــد خسائر كبيرة ، فككت أوصاله ، فانهارت عزائمه ، وانه لن يقوى غداً على الصمود طويلاً أمام دفاع كالذي قـام به المجاهدون المشاة اليوم في النبك ، وانتقل بنا القاوقجي بعدها الى منزل خالد النفوري ، وفيه سطر رسالة إلى الطبيب الدانيمركي رئيس المستشفى حمـــلها رسول من اهل النبك إليه ، وبيده مصباح ، انذره فيه بأن قيادة الثورة راعت القوانين الدولية بتجنيب المستشفيات ، وخاصة الاجنبية منها ، حرمة لدولها ، كل كوارث الحرب ، لذلـــك تعتبر نفسها غير مسؤولة عما سيصيب المستشفى الدانيمركي من حرق وتدمير إذا لم تجل القوات الفرنسية عنه هذه الليلة ، وإلا كان سهلاً على قيادة الثورة أن تقيم في المستشفى الدانيمركي حامية تفيد مـــن موقعه الاستراتيجي ، وتصد عنه قوات الفرنسيين ، وتحول دون وصولها اليه ، ولو انها فعلت لما تمكن الفرنسيون من دخوله ، كما عجزوا عن احتلال النبك ، أما الفرنسيون فلم يرعوا حرمة الدولة الدانيمركية ،ولا احكام القوانين الدولية ، واحتلوا المستشفى ، وجعلوا منه حصناً حربياً يرد عنهم هجمات الثائرين الذين قرروا ان يقابلوهم بالمثل ، ويخرجوهم من المستشفى ، لأن بقاءهم فيه يهدد بـلدة النبك ، لقربه منها . وطلب من رئيس المستشفى باسم قيادة الثورة ان يحمل الفرنسيين على الجلاء فوراً من مستشفاه ، وإلا فنحن ، بعد ساعة واحدة من وصول الانـــذار إليه ، لا نتحمل أي مسؤولية أدبية أو مادية ، عما سيصيب المستشفى من أضرار . ولم تنقضِ نصف ساعة على إرسال الانذار ، حتى رأينا الطبيب الاجنبي رئيس المستشفى الدانيمركي يحضر بنفسه ، ويطلب مقابـــلة

فوزي القاوقجي ، وبعد التحية أبلغه ان الفرنسيين في المستشفى رفضوا الجلاء عنه رغم إنذاره ، وليس له كطبيب مدني أجنبي أن يرغمهم على الجلاء عنه ، ويرجو منه الا يعرض المستشفى إلى الأذى والضرر ، فإدارته غير مسؤولة عن مخالفة الفرنسيين الاجلاف قواعد الحرب ، وأحكام القوانين الدولية التي تحترم المستشفيات ، فأصر القاوقجي على أن قيادة الثورة في النبك لا تستطيع إبقاء الفرنسيين اكثر مما بقوا في مستشفاه ، وانها تعتبر نفسها غير مسؤولة عما يقع ، وخرج الطبيب عائداً الى المستشفى ليبلغ الفرنسيين حديث القاوقجي ، ويزيد في وهمهم من قوة الثائرين .

ينام المرء منتصباً وماشياً على قدميه !

وانتقلنا بعد هذه المقابلة ، وكنا ثلاثة : القاوقجي ، وعادل الحامدي ، وانا ، الى دار في اقصى منازل البلدة المطلة على المستشفى الدانيمركي ، خالية من سكانها ، لنحرس البلدة التي كنا نشاهد اهلها مشغولين بنقل اسرهم ، وما يحرصون عليه من أثاث منازلهم إلى الجبال الشرقية القريبة من البلدة . ان بلدة النبك تقع في سهل مرتفع أو هضبة بين سلسلتي جبال : شرقية وغربية ، والشرقية أقرب الى البلدة ، بل ان قسماً من بلدة النبك يضطجع على سفح جبل من السلسلة الشرقية . وقد شغل ثائروهم بأسرهم عن إقامة نقاط للحراسة ، خاصة مقابل المستشفى الدانيمركي المحتل الذي لا يفصله عن البلدة الا أرض سهلة لا يتجاوز طولها بضع مئات من الامتار . وقد خطرت الحراسة للقاوقجي بعد الانذار الذي وجهه للقيادة الفرنسية باخلاء المستشفى ، إذ قد تقوم بحركة مفاجئة في الليل لاحتلال النبك ،قبل ان يبادرهم الثائرون بهجوم على المستشفى. ولما كان الليل بارداً في النبك ، والقاوقجي تعباً من معركة النهار ، التف بفروته ، ونام في الغرفة القريبة من باب الدار المفتوح على مصراعيه ، فطلبت من ابن خالته الحامدي الا نجلس كي لا يأخذنا النوم ، ونحن منهكون ايضاً ، يغالبنا النعاس ، وان نبقى قياماً نسهر على فوزي القاوقجي ،

ونراقب المستشفى المقابل للدار ، والا تسلط علينا سلطان النوم ، فلا نشعر في الصباح ، إلا والفرنسيون يدخلون علينا ، وفي ذلك هلاكنا نحن الثلاثة ؛ فبدأنا حراستنا ، ولما ينقض من الليل شطره الاول ، نذهب ونجيء في الغرفة ، ثم الفناء الخارجي الى باب الدار نطل منه على المستشفى ، ونصغي لكل همسة . وليل آذار طويل ، والانتظار ، كما يقول المثل ، أشد من النار ، وأطبق علينا النوم بسلطانه القاهر من التعب في معركتين ضاريتين ، شغلتنا يومين كاملين . وأذكر اليوم ، وأنا ما أزال معجباً ، كيف أن النوم القاهر إذا تسلط على المرء برغمه ، فيغفو وهو واقف منتصب على قدميه ، ويغفو أيضاً ، وهو ماش على قدميه . لقد جربت قبل أن افقد فرسي في معركة « عيون العلق » في حادث استشهاد أخي ابراهيم صدقي - جربت أكثر من مرة النوم راكباً ، ولكنني لم أجرب النوم واقفاً على قدمي منتصباً ، أو ماشياً ، حتى كانت ليلة النبك هذه ، وأنا مكلف بحراسة قائدي وحراسة مئات من المجاهدين ناموا مطمئنين تلك الليلة دون ان يحسبوا حساباً لمباغتة العدو ، فقد كنت في ذهابي ومجيئي في الغرفة أتكىء أحياناً على رفراف الموقد الناتىء في جدار الغرفة ، فأغفوا ثواني أو دقائق ثم يختل توازني فاستيقظ وأسير ذهاباً واياباً مرات ، ثم أعاود الكرة كلما اشتد سلطان النوم . وبلغ بي الأمر انني كنت أغفو وأنا أمشي بخطواتي الرتيبة كلما اطمأننت الى الهدوء السائد ، يوقظني من غفوتي اصطدامي بجدار الغرفة . هكذا كانت حالي وحال زميلي الحامدي تلك الليلة حتى انبثق الفجر يوم الاثنين في الخامس عشر من شهر آذار عام ١٩٢٦ فسارعنا نوقظ القائدالقاوقجي ونبلغه أن الفجر بزغ ، ولم يأت أحد من أهالي النبك يخبرنا بخبر عن العتاد وشرائه ، وان مالاحظناه في سهرنا ان البلدة تكاد تكون خالية من السكان ، فنهض القاوقجي ، وألقى نظرة أخيرة على المستشفى . ثم توجهنا إلى ساحة الغفري نسأل من نصادفه من الاهلين والثائرين عن العتاد ، فقالوا لنا أن أغنياء النبك اختلفوا فيما بينهم على جمع المال ، وذهب

كل منهم في سبيله ،فقال لهم القاوقجي : « انني أصبحت في حل من عهدي لزعماء النبك بأن أدافع عن بلدتهم ، ولم أعد مسؤولاً امام ضميري عما سيصيب البلدة من كوارث ، وأراني ، بعد ان نفد عتادنا ، مضطراً للانسحاب مع رفاقي من بلدتكم ، فجيوش العدو لا تقاوم بالعصي !.. » وتوجهنا بمن تبقى معنا من الثائرين ، وعددهم لا يتجاوز الخمسين مسلحاً ، نخترق أزقة البلدة ، ونصعد نحو حي مرتفع في الجنوب الشرقي منها ، حتى بلغنا مرتفعاً إلى جانب المنازل ، وقفت فوقه شرذمتنا ، وأخذت جيوش النهار تطرد جيوش الليل ، وأخذ الظلام ينجلي رويداً رويداً ، وبانت لانظارنا أماكن الجند في رؤوس التلال ، بقعاً سوداء ، أخذت تتحرك في مواقعها . وتجلى المستشفى الدانمركي بحلته البيضاء ، ثم رأينا الفرسان الصباحيين يمتطون جيادهم ، ويسيرون صفاً طويلاً أخذ يطوق أطراف البلدة ، فتحولنا من مكاننا ، وانحدرنا من المرتفع إلى السهل ، بعد أن القينا نظرة اخيرة على البلدة الهادئة ، يدخلها جيش العدو ، كما فعل آخر ملوك بني الاحمر في الاندلس يوم القى نظرة أخيرة على ملك أضاعه ، وهو يرحل عنه رحيلاً لا عودة بعده !.. لقد رأينا كيف انحدرت كتائب الفرنسيين من التلال ، وكيف تجمعت ، وتراجعت الى الوراء ، ثم انتشرت،حتى وصلت المدرعات من قارة ، وأخذت الكتائب من فرسان ومشاة تطوق بلدة النبك من جهاتها الثلاث ، عدا الشرق ، ولما لم تجد اي مقاومة في البساتين ، وفي البلدة أطلقت بعض القذائف من مدافعها على البلدة ، ثم دخل فرسانها البلدة من الجنوب بطريق السيارات، ومشاتها من الشمال . وتلاقى الجمعان في ساحة الغفري التي كانت سبقتها اليها المدرعات . وفي تلك اللحظة أقبل تسعة من اهالي النبك الطاعنين في السن لاستقبال قائد الحملة طامعين بحلم فرانسة ، فرموا بالرصاص ، وقتلوا كلهم ، مع انهم ليسوا من الثائرين الذين حملوا السلاح ، ونازلوا حملتهم ، وكانوا يحسبون انهم لا يؤخذون بجريرة غيرهم ، ولكن ضابط المصالح الخاصة في حمص ، الذي كان يرافق الحملة ، استقبلهم ، ورماهم من مسدسه بالرصاص ، واكرم وفادتهم .. وكان قبل يومين اجهز بنفس المسدس على الجريح فؤاد

رسلان في قارة ، ثم انطلق الجند الى المنازل ينهبونها ، ويعملون فيها حرقاً ، فقد اشعلوا النار في منزل خالد النفوزي ، ومنزل حسن وطفة ، ومنازل الكثيرين الذين أبلغهم جواسيسهم وعملاؤهم انهم ثائرون . وباحتلال النبك خضعت منطقة قلمون ، ومنطقة الجورة ، أي قضاء قلمون وقضاء جيرود إلى السلطة الفرنسية ، وخبت في هاتين المنطقتين روح الثورة التي لو نظمت لكانت فرنسا على ابواب الرحيل عن سوريا !..

التقينا في قرية القسطل ، على بعد عشرة كيلومترات جنوبي النبك ، بالعقيد سعيد العاص، وخيرالدين اللبابيدي، وبعض الرفاق الذين كانوا في صف الفرسان عند بدء معركة التلال الغربية . وقد اصبح سعيد العاص مثلي من المشاة ، إذ ركب فرسه اثنان من عصابة الاكراد في اثناء فرارها . والفرس في حد ذاتها خائرة القوى من التعب والجوع وجرح قديم أصابها في جبل الدروز، فلم تقو على حمل الجلفين طويلا ، وسقطت تحتها نافقة ، واصبح صاحبها الطاعن بالسن ، المرهق الجسم في سجون الاتراك ومنافيهم ، مضطراً لان يسير الساعات على قدميه . وقد انتقلنا بعد الظهر من قرية القسطل الى قرية قلدون ، فاستقبلنا اهلها التركمان بالرصاص ، يصدوننا عن قريتهم ، فافهمناهم بالحسنى الا غاية لنا سوى المبيت تلك الليلة في قريتهم ، ومتابعة الطريق ، فكفوا عن اطلاق الرصاص ، وسمحوا لنا بالمبيت .

القرى التي كانت تخشانا انقلبت علينا !

– ٧٠ –

وفي صباح السادس عشر من آذار تابعنا سيرنا الى جيرود ، وحللنا ضيوفاً في منزل صفوت الجيرودي حيث بحث معه فوزي القاوقجي وضع منطقة جيرود على

ضوء عودة الفرنسيين الى قلمون ، وافهمه انه لا بد لهم من الزحف الى جيرود بعد قلمون ، وان الأذى سيصيبها منهم ، مهما كان موقف سليم الجيرودي ممالئاً لهم ، وحثه على التعاون معنا للدفاع عن جيرود حتى لايصيبها ما اصاب النبك ، وشرح له الخطة بأن يقوم هو بجمع تبرعات من الأهلين لشراء كميات كافية من العتاد للدفاع عن جيرود ، نزود بها سرية الدروز ومن معنا من المجاهدين ، ثم نرابط في مضيق « ثنية العقاب » المعروف اليوم بالثنايا ، ونمنع تقدم الحملة ، ووصولها الى منطقة الجورة كلها ، فلم يعترض صفوت الجيرودي على الاقتراح ، وابدى رغبة من جانبه لتنفيذه ، إلا انه في صباح السابع عشر من آذار نقل الينا قرار وجهاء جيرود ،وعلى رأسهم سليم الجيرودي ، بعدم مقاومة الفرنسيين ، وفتح بلدهم لهم ، والطلب ان نغادر بلدهم فوراً ، فانتقلنا الى المعضمية حيث وجدنا شيخها اسماعيل ابا الريش بادي الفرح لما آلت اليه قلمون ، ومستبشراً بقرب وصول أسياده ! ومع ذلك فاوضه القاوقجي في أمر الدفاع عن المنطقة ، والاستعانة بمسلحي القرى المجاورة كالرحيبة والقطيفة ، بعد توحيد كلمة اهلها ، والتحصن في « الثنايا » لصد أي حملة تزحف الى منطقة الجورة ، ولكن أبا الريش رفض البحث في الموضوع ، وقال : « ليس لنا طاقة بمقاومة دولة عظمى كفرنسا !.. » ، وعلى الأثر تابعنا سيرنا الى قرية الرحيبة ، فقاوم اهلها دخولنا القرية ، وبينهم من كان معنا بالأمس يقاتل الى جانبنا كتفاً لكتف . وقد اقبل الليل ، واصبح صعباً علينا ان ننتقل الى قرية اخرى ، فقرى الجورة كلها تتنكر للثورة ، في حال ضعفها . وزعم اهل الرحيبة ان الفرنسيين اذا ما علموا بدخولنا قريتهم قصفوها بالقنابل من الجو ، فتوجهنا الى قرية ضمير حيث بلغناها بعد انقضاء الشطر الأول من الليل ، وقد انهكنا التعب ، فوجدنا نسيب البكري ضيفاً فيها مع اربعين فارساً من الدروز بقيادة زيد ابي خمري عامر جاءوا للالتحاق بفوزي القاوقجي ، ولكنهم تريثوا لما سمعوا أنباء هزيمة الثائرين في قلمون . وقد قام القاوقجي والعاص والبكري بجمع وجهاء القرية ، وحاولوا أن

يحملوهم على جمع تبرعات من القرية يشترون بالمال عتاداً لتجهيز الذين نفذ عتادهم في معارك قلمون من جماعة القاوقجي ، ولكن مساعيهم ذهبت ادراج الرياح .

توجهنا في الثامن عشر من آذار الى قرية العبادية في المرج ، فبلغنا أن حملة فرنسية قوية زحفت من دمشق بدباباتها ومدافعها ، وبعد صدام عنيف بينها وبين عصابات الغوطة على طريق دوما بلغت قرية « عدرا » ، ففر اهلها من منازلهم ، ودخلها الجنود ونهبوها . وتبين انها حملة متممة لحملة قلمون ، تزحف الى القطيفة ، لتتلاقى مع حملة الجنرال مارتي ، وتتم إخضاع منطقتي قلمون والجورة ، مما زاد في رعب أهالي القرى كلها ، حتى قرى المرج ، واصبحنا لا ندخل قرية فيه حتى يتوسل اهلها الينا بألا ندخل قريتهم حتى لا يتعرضوا لبطش الفرنسيين .

أقام الفرنسيون حامية في النبك على هضبة تشرف على مدخل البلدة الجنوبي وساحة الغفري وعلى الأحياء القريبة منها ،وتابعت حملتهم زحفها الى جيرود حيث وافتهم إليها قوة البادية من تدمر ، وتعد حوالي خمسمئة هجان ، فاحتل الفرنسيون البلدة دون أي مقاومة ، واحرقوا منزل سليم الجيرودي في الصخرة ، ومنزل صفوت الجيرودي في البلدة ، بعد ان نهبوهما ، ففر سليم وصفوت الجيرودي الى القرى المجاورة ، وفرض الفرنسيون غرامة على البلدة من مال وسلاح أسوة بالنبك ويبرود . ثم زحفوا في التاسع عشر من آذار الى قرية المعضمية ، فلاطفوا أهلها ، وشكروا شيخها أبا الريش على مواقفه معهم ، وتابعوا زحفهم الى القطيفة حيث التقوا بالحملة القادمة من دمشق . ويوم العشرين من آذار توجهوا بجميع قواتهم إلى قرية « عين التينة » ، فمعلولا ، فقرى الجرد حتى بلغوا « رنكوس » ودخلوها دون مقاومة . وفر جمعة سوسق واخوه احمد سوسق منها ، فاحرقوا منازلها ، بعد ان نهبوها ، وأكملوا زحفهم الى القرى الأخرى ينهبونها ، ويفرضون عليها الغرامات ، ويجمعون منها السلاح . وفي اليوم السادس والعشرين من آذار عادت حملتهم المزدوجة إلى دمشق ، بطريق

صيدنايا – التل – منين – برزة – القابون . وقد صادمهم في مضيق الوادي عند قرية « منين » فوزي القاوقجي وسعيد العاص وشراذم من عصابات الغوطة ، ولكنهم لم يستطيعوا التأثير على الحملة لكثرتها ، وقوة اسلحتها ، فقد ملأت بجنودها الهضاب والجبال والوديان ، وزحف رتل للدبابات من دمشق لشق الطريق إليها عند وصولها المنطقة المشجرة على أبواب دمشق ، فاضطر الثائرون للانسحاب امام هذه القوات الكبيرة ، لا سيا وجماعة القاوقجي والعاص كانوا خالبي الوفاض من العتاد والمال الذي يشتري العتاد .



الفصل الثاني عشر

أثر إخماد ثورة الريف

- ٧١ -

أقبل فصل الربيع ، وبحلوله بدأ الفرنسيون تنفيذ خططهم للقضاء على الثورة في منطقة بعد منطقة ، وساعدهم على التنفيذ نقلهم قوات كبيرة من المغرب ، بعد اخماد ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي ، واستسلامه ، وابعاده ، ونقلهم قوات أخرى من مستعمراتهم فيما وراء البحار ، حتى أربت النجدات على المئة الف جندي ، عدا ما كان لديهم في الشام من قوات . وتطوع في كتائبهم الوف الشراكسة والاسماعيليين والنصيرية والأرمن والنور وكل مرتزق من بلاد الشام ، وبذلك تسنى لهم توجيه حملاتهم الى منطقتي قلمون والجورة ، واخضعوهما ، ثم سيروا حملاتهم إلى اقليم البلان وقرى جبل الشيخ ، ودخلوا قرية « مجدل شمس » ، مقر ثورة الاقليم ، بعد معركة عنيفة ، قيل ان الفرنسيين خسروا فيها حوالي الف قتيل وجريح ، ثم احتلوا قلعة جندل وسائر قرى الإقليم ، وفعلوا بها مثلما فعلوا بقرى قلمون من نهب وسلب وتقتيل وفرض غرامات مالية وجمع الاسلحة مع العتاد ، فهاجر أكثر السكان من الدروز إلى جبل حوران فراراً من البطش

والتنكيل بهم ، يعيشون الى جانب إخوانهم الذين ما يزال جبلهم حصناً يخيف الفرنسيين . وأقام بعضهم في اللجـاة ، وما علموا ان الفرنسيين خططوا ايضاً لضرب الجبل مقر قيادة الثورة ومعقلها ، لانهم يدركون ان الجبل ما دام ثائراً سيظل قاعدة لانطلاق كتائب الثائرين منه الى المناطق الأخرى ، يثيرونها من جديـد ، ويخلقون لفرانسا المتـاعب . وهم يوم يخضعون الجبل لايصعب عليهم إخضاع الغوطة ، فكم مرة شتتوا فيها العصابات ، وطاردوا فلولهـا ، ولكن المشتتين كانوا يلجأون الى الجبل ،والى المناطق الأخرى الثائرة ،يستجمون فيها ، أو يعملون ، ثم يعـودون الى الغوطة ، ويزداد تدفقهم اليها يوم تشغل الفرنسيين احدى المناطق الثائرة ، وتلهيهم عن الغوطة ، وتهدد مراكزهم الحماسة في مناطق جديدة غير ثائرة . والفرنسيون لم يخفوا نيتهم هذه ، فقد أعلنوا عنها في تصريحات للمسؤولين منهم نشرتها الصحف عن دنو اليوم الذي يخمدون فيه الثورة السورية بالعنف والقوة ، والى جانب وعود كانوا يقطعونها عن عزمهم على تأليف حكومة وطنية ، يكون لها جيش وطني الى غير ذلك من المطـالب المشابهة لمطالب الثورة ، حتى إنهم وعدوا بتوحيد الدويلات السورية ، وباجراء انتخابات نيابية حرة . كل ذلك لتخدير الشعب والهائه بالمعسول من الكلام عن أمانيه الحقة في الحرية والاستقلال .

مصرع الكولونيل « فرن » !

لما عدنا إلى الغوطة من معاركنا في قلمون ، علمنا من إخواننا فيهـا ان الفرنسيين زحفوا يوم الثامن من آذار عام ١٩٢٦ بحملة من دمشق على رأسهـا الكولونيل « فرن » ، مهمتها الغاء مخفر « شبعا » ، وهو آخر مخفر لهم في محيط الغوطة ، فنازلتها العصابات على طول الطريق ، وحالت دون وصولهـا الى « شبعا » ، وأرغمتها على اللجوء الى قرية « قبر الست » ، بعد أن قتل قائدهـا « فرن » برصاصة اخترقت صدره ، ومات بين يدي ضبـاطه ، وهو يقول :

« لا تحزنوا يا رفاقي ! فهذا مصير كل جندي ! » .

وفي صباح التاسع من آذار تمكنت الحملة من العودة الى دمشق ، دون أن تستطيع الغـــاء المخفر ، فاضطرت حاميته أن تنسحب تحت ستار الليل الى « الكسوة » ، على بعد عشرين كيلومتراً جنوبي دمشق على طريق حوران ، دون أن تشعر العصابات بتسللها وانسحابها من « شبعا » ، إلا في نهار اليوم الثاني . وقد حزن الفرنسيون لمصرع الكولونيل « فرن » ، فهو أحد قائدين كانا يتناوبان قيادة أكثر الحملات الزاحفة الى الغوطة لتموين المخافر أو مطاردة العصابات . ولم يبق الآن من الاثنين حياً إلا الكولونيل «ماسيت» الذي حاصره الثائرون مرة في دوما ، وأراد أن يحتمي بأهلها ، ويقودهم مع جنوده لعل الثائرين يكفون عن منازلة حملته ، واطلاق الرصاص عليها . ونقدر أن خسائر الفرنسيين في حملة « فرن » كانت جسيمة ، فقد قتل القائد ، وعجزت الحملة عن الوصول الى « شبعا » ، وعادت الى دمشق ، دون أن تقوم بمهمتها . وقد ظلت العصابات ، بعد هذه المعركة ، تهاجم ، كعادتها ، حصون الفرنسيين حول النطـاق الذي أقاموه لحماية جانب من المدينة التاريخية دمشق .

بعد وصولنا الى الغوطة توجه فوزي القاوقجي ونسيب البكري الى قرية «الهيجانة » وأرسلا منها تقريراً وافياً الى قيادة الثورة عن أحداث قلمون ومنطقة الجورة ،وخطة الفرنسيين المقبلة لتضييق نطاق الثورة ، وضرب جبل الدروز أخيراً ، وطلبا ايفاد قوة من الدروز بقيادة أحد الزعماء المخلصين المجربين للتوجه بها الى منطقـة قلمون ، واعادة نفوذ الثورة اليهـــا ؛ قبل أن يتمكن الفرنسيون من جمع كل سلاح الاهلين؛ فيصعب عندها اشتراك بعضهم في الثورة ، وأوضحا لسلطان الاطرش ان اهمال ايفاد القوة الدرزية سيمكن الفرنسيين من ضرب الثورة منطقة بعد منطقة ، وتنفيذ خطتهم التي أصبحت واضحة بالزحف على الجبل . ولكن هذا التقرير ذهب كغيره مع أصواتنا أدراج الرياح !..

غامرت ودخلت وحدي دمشق !

قصدت إثر وصولي إلى الغوطة قرية « القابون » . وكان لي فيها صديق شاب من الفلاحين ، اسمه عبد اللطيف ، وكنا يومئذ في شهر الصوم المبارك . وكنت نويت دخول المدينة دمشق ، ووضعت لهذه المغامرة خطة ، توصلني الى أقارب لي فيها لعلي استطيع أن ألجأ إلى منزل أقربهم إلي ، وأرسل الى أهلي في حماة من يأتيني بمبلغ من المال استطيع أن أشتري به بندقية صالحة وراحلة ، فقد أصبحت أيامي في الثورة ، بعد ضياع فرسي في قارة ، قطعة من العذاب ، أسير الليل والنهار على قدمي ، أحمل سلاحي وعتادي وبعض ملابسي ولوازم لا بد منها ، فيرهقني الحمل ، ويضنيني السير ، وأنا لست من ثائري القرى حتى ألجأ في كل فرصة الى بيتي ، أصلح فيه من شأني وحالي ، فقد غادرت بيتي من شهر ايلول عام ١٩٢٥ ، ولم يبق معي ما أبيعه أو ارهنه لانفق على نفسي ، او اشتري عتاداً لبندقيتي . حتى البندقية التي أقاتل بها ، لا تصلح للعتاد ، بعدما أصابها في معركة حمورية من عطب ، لو لم أكن تمرنت عليها تمريناً خاصاً ، وأنا لا اطمئن الى تسديدها في حرب المسافات البعيدة ، بعد ان بترت قطعة من سبطانتها ، وبدل موضع شعيرتها .

توجهت مساء يوم العشرين من آذار الى القابون ، وقضيت ليلتي في بيت الصديق القابوني ، وبعت في القرية بندقيتي المبتورة بليرتين ذهبيتين ، وبعد السحور من صباح الواحد والعشرين من آذار ، بدلت ملابسي شبه العسكرية بمعطف أسود عتيق ، وبنطال مدني ، ولففت كفيتي البيضاء على رأسي وعنقي ، كما يفعل فلاحو الغوطة ، وانطلقت من القابون مع ناقلي الخضار ونساء القرية أبغي دمشق بطريق حي الاكراد ، فلما طلع النهار واشرقت شمسه حتى كنت مع الالوف من الاهلين والفلاحين ننتظر أمام حصن الجسر الابيض في جادة

الصالحية . وكنت استشرف من بين الرؤوس على حامية الحصن ، وموظفي المخابرات والامن الواقفين بجانبه ، أترقب ان يفتحوا الاسلاك الشائكة لتمر هذه الجماهير الى قلب المدينة ، وأرى كيف سيستطيعون تدقيق هويات هذه الالوف المؤلفة من البشر ، فهويتي ترسل بي الى المشنقة ، ومفكرتي والاوراق التي أحملها كبعض الوثائق الحريص على الا تضيع مني ، كانت معي في جيوبي ، وهي وحدها كافية لان تدينني أمام أي محقق ، وتثبت انني الثائر الواجب قتله أو اعدامه بقوانين فرنسا . وكنت انتوي العودة ، لو كان التدقيق سيشمل الجميع ، ولكنني فجأة رأيت السد من الخشب والاسلاك الشائكة يزال من الطريق ، وتتدفق الالوف الى جادة الصالحية وقلب المدينة ، ومعها المركبات والطنابر والدواب التي تحمل الخضار من قرى الغوطة ، فاندفعت مع التيار اجتاز الممر أمام الحصن ، دون ان يفطن الي احد بين الالوف المؤلفة من البشر ، واجتزت جادة الصالحية الى بوابتها فسوق صاروجه ، فالعصرونية ، الى حارة الدفاقة حيث تسكن خالتي وزوجها ابو بشير راضي خلوف ، وكلاهما من حماة ، يسكنان مع اولادهما في دمشق ، منذ سنوات ، والزوج يعمل كاتباً في محل تجاري في الدرويشية . وكنت أتوقع ، حسب محبتهما لي ، ان يتحملا مسؤولية إخفائي في منزلهما بضعة ايام ، حتى يأتيني المال الذي سأطلبه من والدي واخوتي في حماة . وصلت الى الدار باكراً ، ووقفت امام الباب أقرعه بهدوء ، ثم بشدة ، وانا اعرف ان المسلمين في رمضان ينامون الى الضحى ، واكثر من الضحى ، ويسهرون لياليه الى ما بعد السحور ، بل الى ما بعد صلاة الصبح . وبعد قرع شديد أزعج الجيران لطوله ، سمعت صوت رجل يرد ، وفتح الباب ، واذا برجل لا اعرفه ، بلباس النوم يسألني بغضب وحدة : « ماذا تريد؟ » ، ويتميز هيئتي المزرية التي لا تختلف عن متسول أو فلاح فقير معدم ، ولما سألته : « أليس هذا بيت فلان ؟ » نظر إلي شذراً ، وكاد يضربني من شدة الغيظ ، وقال : « لقد تخلى ابو بشير عن هذا البيت من ستة أشهر ! » ، وصفق الباب بشدة في وجهي ، فوقفت امام الباب حائراً ، اتساءل في نفسي : « ماذا اعمل ؟ وهذا البيت كنت اعده الملجأ الوحيد الذي

لا يغلق في وجهي ؟ » لقد كان لي في دمشق أقارب آخرون ، ولكن احياءهم واوضاعهم لا تساعد على إيواء ثائر مثلي في منازلهم ، فضلاً عن ان صلة قرباهم بي كانت بعيدة ، أو انهم جبناء لا يجرؤون على ادخالي منازلهم . وخطر لي أن اذهب الى زوج خالتي في محل عمله ليهديني الى منزله الجديد ، ومنزله بالأجرة . ورحت اجتاز سوق الحميدية ، وكل حوانيته ومخازنه مغلقة في هذا الصباح الباكر . ولما بلغت محل « الغريواتي » لبيع الادوات الكهربائية في الدرويشية ، وجدته كغيره من الدكاكين ، مغلقاً ، وسرت بخطوات وئيدة نحو شارع النصر ، وعلى ناصيته دار المندوب ومقر حكومة الانتداب ، وكانت تعرف في عهد الدولة العثمانية بالمشيرية ، واصبح القصر العدلي اليوم في مكانها .

وأمام دار مندوب المفوض السامي هذه كدست اكياس الرمل ، ووراءها الجنود يتقلدون بنادقهم ، ويقفون وراء الرشاشات . مررت بها واجتزتها قليلاً في شارع النصر ، وجلست فوق مقعد خشبي أرقب الغادين والرائحين ، والجنود من مختلف الجنسيات والقوميات يملأون الشارع يسيرون متقلدين بنادقهم . وانقضت نصف ساعة ، خشيت بعدها ان يشتبه احد بأمري ، وانا بهذا اللباس المزري ، لباس فقراء فلاحي الغوطة ، وهؤلاء اليوم موضع شبهة لدى السلطة الفرنسية ودوائر الامن ، لا سيما وانا أجلس في شارع عام على مقربة من دار المندوب ، فقد يمر احد من الجواسيس يعرفني ، وللفرنسيين جواسيس كثيرون في الغوطة ، ومن الفلاحين أنفسهم ، فقمت اسير متمهلاً الى مدخل سوق الحميدية ، وتجاوزته ، وسرت على الرصيف المحاذي له نحو الدرويشية ، وهنا خطر لي أن أتوارى في دكان لبائع الفول ، واتناول فيها فطوري ، وكنت أرى من مكاني محل الغريواتي مازال مغلقاً . ودخلت دكان الفوال ، وتناولت فطوري بشهية ، وتماهلت ، ما استطعت ، ثم دفعت الثمن ، وخرجت لالقى المحل مازال مغلقاً . ولفت نظري حلاق الى جانب المحل له ستارة من مواسير القصب والخرز الأزرق مدلاة بخيوط على الباب ، فدخلت دكان الحلاق التي فتحت قبل لحظات ، أقص

شعري ، وأحلق ذقني إصلاحاً لهيئتي ، ومضيعة للوقت ، وتســـتراً عن عيون الناس ، ولكن الحلاق لم يكن في دكانه ، وقال لي الغلام الأجير : « هل تود أن أحلق ذقنك ريثما يأتي المعلم ، ويقص الشعر ؟ » ، قلت : « نعم ! » .

وبدأ الغلام يجر موساه على ذقني ، وفي كل جرة كان يحدث جرحاً ، وانا ساكت اتحمل مرغماً .. ، وما كاد ينتهي حتى أقبل معلمه ، وهو شاب ، واخذ يتم مابدأ به الغلام بمهارة ، ثم أمسك المشط ليبدأ بقص الشعر ، ولكن مشطه لم يغرز في شعري المتلبد من الوسخ والغبار والعرق والشقـــاء ، فلاحظت انه يبتسم وهو يعالج شعري بمشطه ، ابتسامة عجب !.. فتداركت الأمر فوراً ، وقلت له : « لا تعجب لتلبد شعري ، فأنا اشتغل بتجارة الأغنام ، وقد انقضى علي اكثر من شهرين في البادية ، ننام ، ونقوم ، ونسير مع قطعان الغنم .. من العراق الى دمشق ! » ، قال : « من أي بلد انت ؟ » ، قلت :« من حماة ! » ؛ فصدق ، وسكت عندما قلت له انني سأذهب من دكانه الى الحمام . واستطاع بعد جهد ان يفرق الشعر المتلبد ، وان يقصه ، وهو يسألني عن العراق والبادية، والأمطار ، والربيع ، والأمن فيها ، وأسعار الغنم ، وانا اجيبه بما اعرف ، وما لا اعرف ، وهو حلاق يجهل مثلي تجارة الاغنام . ولما انتهى رجوته ان يبعث بغلامه ليرى جاره الغريواتي فتح محله ، ام لا يزال مغلقاً ؟ فعاد الغلام يخبرني انه فتح المحل ، وسألني الحلاق عما اذا كنت سأشتري من المحل ادوات كهربائية ، قلت : « كلا !» ، ولكن لي مع احد مستخدميه عمل أريد ان انجزه ،وتوجهت فوراً الى الدكان لأرى رجلاً غير زوج خالتي جالســـاً وراء مكتبه ، وانحنيت احيي ، واسأل همساً عن قريبي ، فقال لي الرجل : « ان ابا بشير ترك العمل هنا منذ توفيت المرحومة زوجه، وسافر اثرها الىحماة !»، فكدت اصعق للخبر، إذ كانت خالتي في مكتمل صباها وصحتها ، لذلك حزنت عليها حزناً شديداً ، واستدرت لأخرج ، واذا بمستخدم شاب في المحل يعـرفني ايام كنت اتردد على زوج خالتي في المحل ، واجلس طويلاً الى جانبه ، فقد سمع حديث زميله عن ابي

بشير ، وتفرس في وجهي ، واتسعت عيناه استغراباً ، لان قريبي حدثه ولا بد عن التحاقي بالثورة ، فاسرعت بالخروج من الدكان ، وسلكت الطريق الى حي « سوق صاروجه » ،فزقاق « داور آغا » حيث يسكن ابن عم لي ، عامل في معمل القدم للخط الحديدي الحجازي . ولما بلغت داره ، وطرقت البـــاب ، خرج لي أطفال صغار لم اعرف احداً منهم . ولمـــا سألتهم عن غالب الريس ، تراكضوا الى داخل الدار ، وارسلوا لي خاله لطفي البينباشي. وكان يعرفني ، ويعرف من ابن عمي غالب انني التحقت بالثورة ، فاتسعت عيناه وكاد يصعق لما رآني ، ثم تمالك نفسه ، واخذ بذراعي يبعدني عن الدار ، قائلاً لي : « ان في الدار غرفاً أجرت منذ اشهر لأسر غريبة ،ولهم اطفال كثيرون ، ولا يجوز ان ادخلك أمامهم ، وأثير الشبهة ، لا سيما وابن عمك في الزوية عند والديه ! » ، وكان عمي مديراً للمال في فيق مركز قضاء الزوية ، فلما اشتدت الثورة ، وغدا معمل القدم مسرحاً للمعارك بين الثائرين والفرنسيين ، ســـافر ابن عمي الى والديه ، بعيداً عن خطر الثورة في دمشق ، وظـــل خال ابن عمي يقودني حتى وقفنا على باب دار قريب من داره كان يجلس أمامه رجل متقدم في العمر ، وفي حضنه طفل يداعبه ، عرفت انه عديل عمي وصهر لطفي البينباشي ، وهوضابط عثماني متقاعد سكن حديثاً هذه الدار القريبة من أهل زوجه ، فلما وقعت عيناه عليّ عرفني ، وكان على علم بحالي ، فدهش لمجيئي ، ولكنه وقف ، ودعانا للدخول ، وجلسنا في غرفة الاستقبال يستفسرمني عن سبب قدومي الى دمشق ، وتعريض نفسي للخطر ، ولمـــا رويت له قصتي قال : « ان بيت عمك لا يصلح لك ، فأهله ليسوا هنا ، ويسكنه غرباء .. فماذا أنت فاعل بعدها ؟ » ،قلت : « لم يبق أمامي غير بنت خالتي ، وزوجها حموي يسكن في جادة الصـالحية ، لعله يؤويني في بيتـه بضعة أيام ! » ، قال « ان هيئتك هـــذه ، مريبة ، فحذاؤك ليس له لون ، لأنه لم يرَ الصبغ والمسح منذ أشهر ، ويدل على شقائك في الثورة ، فامسحه عند أول ماسح أحذية في طريقك ! . وهـذه الكفية على رأسك لا أراها تتناسب مع لباسك .. فما رأيك في أن تلبس طربوشاً ؟ » ،

وذهب ، وعاد اليّ بطربوش قديم من طرابيشه ، وسر لأنه وافق قياسه رأسي ، فشكرته ، وشربت القهوة عنده ، وودعته مع ابن حميه ، وخرجت أضع الكفية تحت قبة المعطف ، وأسعى الى جادة الصالحية ، أمر ببعض معارفي في الطريق فلا يعرفني ، واحدهم عبد الوهاب عمر باشا ممن التحقوا مدة قصيرة بالثورة . وعجبت كيف يسير طليقاً في شوارع دمشق ، ولا يخشى أن يعرف الفرنسيون دخيلة أمره . ولمـــا بلغت عرنوس ، عرجت على شارع « يوزبك » ، فشارع التكريتي .

وقفت أمام باب الدار أطرقه ، فيجيبني ، بعد انتظار ، وتكرار ، صوت سيدة من داخل الدار ، وقبل أن يفتح الباب سمعت صوت رجل من الرصيف المقابل في الشارع يسألني ماذا أريد ، وألتفت إلى مصدر الصوت ، وإذا بزوج ابنة خالتي جالساً بملابس النوم في الشمس على كرسي ، وفي حضنه غلام من أولاده ، فاتجهت اليه ، ولما دنوت منه ، وسلمت عليه ، لاحظت أن أعصابـــه انحلت ، وكاد يتلاشى على الكرسي ، وسألني بصوت خافت مخنوق : « ماذا جاء بك إلى هنا ؟ » ، وحدثته حديثي ، وكيف قصدت بيت خالتي التي هي خالة زوجه ، وعرفت أنها توفيت ، وسافر زوجها الى حماة ، كما حدثته حديث ابن عمي الغائب في الزوية ، وأنــه لم يبق لي في دمشق قريب غيره ! فقال : « وكيف تجرؤ على القدوم الى هنا ؛ والشارع هذا في الحي الاوربي من دمشق ؛ مليء بالفرنسيين ، وخاصة بضباطهم ، وأولادي يعرفونك ؛ ويعرفون انك في الثورة . وكل يوم يلعبون أمام باب الدار في الشارع لعبة الحرب بين فرانسة والثائرين ، فكيف أضمن أنا وبنت خالتك ألا يذيعوا سر وجودك في بيتي ، فيقبض علي وعليك ، وتشنق ، وربما أشنق أنا معك ، ويقضى على أسرتي كلها ؟ . لقد كان عليك أن تذهب الى حي شعبي كحي الشاغور تبحث لك فيه عن مأوى ، فهو بعيد عن سكنى الاجانب والغرباء !.. » قلت : « ومن لي في الشاغور ؟ » ليس لي فيــه قريب ، ولا أعرف أحداً من أهله . ويوم دخلت دمشق ، كنت أحسب أن

خالتي على قيد الحياة ، وبيتها غير القبر الذي سكنته إلى الابـــد ! » . قال : « وماذا تنتظر الآن ؟ قم ، وانج بنفسك !.. » . قلت : « مهلاً ، اني مغـادرك الآن ، فاقرأ ابنة خالتي سلامي ، ولتطمئن أهلي في حمـــاة عني ، ان امكنها ، ولتخبرهم انني ما زلت حياً أشقى في سبيل وطني .. » ومر في تلك اللحظـــة سرب من نساء الحي محجبات متبرجات ، تفوح العطور من أكامهن ، فقلت في نفسي : « لقد كتب عليك ان يتنكر لك أقرب الناس اليك ، ويبتعدوا عنك ، ابتعاد السليم عن الأجرب، لا لجريمة ارتكبتها ، بل لانك تحب وطنك، وتجاهد الاجنبي الغاصب في سبيله .. وهم يعيشون في أحضان هؤلاء النسوة .. وأنت تموت كل يوم أكثر من ميتة . أليس هذا الوطن وطنهم مثلمـــا هو وطنك ؟ ».
وانتفضت ، وحييت قريبي ، وابتعدت عنه الى زقاق القداح ، اجتازه الىجادة الصالحية ، لأجد نفسي على مقربة من الجسر الابيض، والحصن مفتوح الشريط، يقف الى الرصيف الأيسر ، بجانب أكياس الرمل المكدسة، الجنود الفرنسيون، وموظفون مدنيون ، يدققون في هويات المارة، فاجتزت الجـــادة إلى الرصيف الأيمن ، وتقدمت الى دكان بقال بجانب منزل آل المؤيد العظم ؛ لأشتري علبـة تبغ وألقي نظرة جانبية على الجسر أبحث عن وسيلة لإجتيازه فقـــد كانت وثائق هلاكي في جيبي وليس لدي هوية ،وهويتي توصلني –كما قلت–الىالمشنقة، فقد كان صدر عليّ من المجلس العدلي في دمشق حكم غيابي بالموت ونشر الحكم في الصحف المحلية . لقد لاحظت وانا واقف امام الدكان ان حافلات الترام ينزل منها ركابهاقبل محطة واحدة، وتسير خالية من الركاب،تجتازالجسر ونقطةالتفتيش وتدقيق الهويات لتبدل اتجاهها وتعودالى قلب المدينة فقد كانحدها فيالثورة من من ساحة الشهداء الى الجسر الأبيض ، لا تتجاوزه الىالمهاجرين، ولا الىالصالحية والشيخ محي الدين . وخطر لي ان اجازف ، فانتظرت حافلة خالية وهي تصعد متمهلة الى الجسر ، ولما حاذتني سرت على الرصيف الى جانبهـا ، وهي تحجبني عن عيون الموظفين والجنود الواقفين على الرصيف الايسر ، ووفقت بين سيرها وسرعة خطواتي ، حتى تجـاوزت الجسر ونقطة التفتيش ، واصبحت في اول

طريق الشيخ محي الدين ، دون ان ينتبه لتسللي احد . وسرت بعدئذ بخطوات هادئة الى حي الاكراد ، ومنه الى القابون حيث بدلت ملابسي ، وتابعت سيري الى قرية « زملكا » اسأل عن رفاقي الذين كنت اطلعتهم على عزمي فلم اجد احداً منهم . واخذت اطوف يومين في القرى حتى التقيت بفوزي القاوقجي وسعيد العاص واخوانهما في اليوم الثالث والعشرين من آذار ، في قرية « قبر الست » ، وحدثتهم بما تم لي ، واصبح شغلي الشاغل ان احصل على بندقية ، فأعارني نزيه المؤيد بندقية فرنسية حملتها بضعة ايام ، ثم اعدتها له شاكراً ،بعد ان تيسرت لي البندقية ، وانا مدين بها لفوزي القاوقجي الذي قام بتمثيلية ماهرة ، حتى مكنني منها ، ولا بأس ان نروي قصة البندقية فهي طريفة تستحق الرواية .

كاد الفقر أن يكون كفراً !..

دعا نسيب البكري زعماء العصابات الى قرية « بالا » ، واقام لهم في حانوت شكري القوتلي مأدبة عشاء لا أعلم من أين أتى بتكاليفها ، وكان باع مسدسه في السويداء ليأكل ويطعم راحلته. ولكن أمثاله لايعجزهم إيجاد المال ، والدكتور الشهبندر قد يؤثره على غيره ، ويخصه بمبلغ من الإعانات التي اخذت تصل تباعاً الى الجبل ، ويشتري ولاءه ، فالزعامة تحتاج الى موالين ومؤيدين وابواق!. ومنذ أخذت الإعانات ترد باسم سلطان الأطرش وباسم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر تحسنت احوال ابي عبده ديب الشيخ ، ونزيه المؤيد العظم ، ونسيب البكري ، واصبح حول الثلاثة رجال مسلحون في الغوطة يرافقونهم اينا حلوا وانى رحلوا . أما منير الريس الذي تحطمت بندقيته في القتال ، فلا يستحق ثمن بندقية من أموال الإعانات ، ولم يستحق من قبل ريالين ثمن مداس « بسطار » يوم حفيت قدماه ، فمن عليه الزعيم الشهبندر بحذائه القديم ذي الذكريات المجيدة في جرد الزبداني وبلودان !..

جاء زعماء العصابات ، ومع كل واحد منهم بضعة فرسان حرسهم الخاص ، وصعدنا مع الزعماء وحدهم الى غرفة في الطابق العلوي من الحانوت ، نجتمع ونتداول شؤون الثورة ، وبقي المرافقون في فناء الحانوت ، واذا بفوزي القاوقجي ، يصعد ، ويقف في باب الغرفة ، ويشير بيده كي أوافيه ، ولما دنوت منه همس في أذني ، خارج الغرفة ، بان على باب الحانوت ، أي مصراع الباب المفتوح ، اسندت بندقية انكليزية صاحبها ليس بجانبها ، وطلب مني ان أهبط الى فناء الحانوت ، وان آخذها ، واخفيها في مكان من البساتين القريبة ، لأنني أفضل في نظر قيادة الثورة من حاملها ، وهو احد مرافقي رئيس من رؤساء العصابات ، يستطيع رئيسه ان يشتري له بندقية غيرها ، فرؤساء العصابات اكثرهم من النهابين ، ودفعني بيده لأهبط السلم سريعاً ، ففعلت ، ولما اقبلت على الباحة وجدت فيها عدداً من مرافقي رؤساء العصابات ، وهم من العامة ، مجتمعين حول حمار واتان ، يمرحون بأن يروا الحمار ينزو على الأتان ، وهم في ضحك وضجيج مشغولون عن كل ما حولهم ، وليس اسهل من خطف البندقية المسندة على الباب ، بعيداً عنهم ، والخروج بها في ظلمة الليل ، واخفائها في بستان قريب ، ولكنني لم اقدم على اخذها ، لا جبناً ولا خوفاً ، ولكنني كنت أرى العملية ، في حد ذاتها ، سرقة ، مهما يكن شأن صاحب البندقية ، فهو ثائر مثلي ، لا يحق لي ان أسطو على بندقيته ، وربما كان خيراً مني في جهاده ضد العدو ، وعدت ادراجي الى مكان الاجتماع لأجد القاوقجي يسألني بغمزة عين عما فعلت ، فأشرت اليه برأسي سلباً ، وأدرك انني لم اقدم على اخذ البندقية ، فخرج بنفسه ، وهبط السلم ، وبحث عن احد مرافقيه او جماعته ، فقابله الحاج مصطفى الديب احد الثائرين الحمويين ، الذي رافق القاوقجي بعد ثورة حماة في البادية والى العراق ، وسرعان ما أوعز اليه بأن يخطف البندقية ، ولما فعل أمره ان يسلمها الى عبد الحميد المرداوي الجندي الفلسطيني الذي التحق بالثورة ، ورافقنا دون سلاح ، وكان يخدم فرسي ويعنى بها . فأخذ البندقية ، وحسب أمر القاوقجي اخفاها في احد البساتين القريبة ، وعاد ، وعدنا الى غرفة الاجتماع نبحث شؤون الثورة ،

واذا بالضجة تقرع آذاننا ، فقد انتهت عملية النزو ، وجاء الثائر الدمشقي يبحث عن بندقيته فلا يجدها ، ويعلو صياحه ، وتعلو ضجة رفاقه معه ، ويأتي بعضهم الى غرفة الاجتماع نادباً ضياع البندقية ، ويقول صاحبها انه اسندها الى باب الحانوت ، وبعد دقائق عاد ولم يجدها . وكثر القيل والقال حول البحث عن البندقية ، ولكن فوزي القاوقجي انهى الموضوع بأن اعلن ان الرجل ثائر من اخواننا ، وحضر مأدبتنا ، فسرقت بندقيته بسببنا ، ولا يجوز ان يبقى دون بندقية ، ونحن رؤوس الثورة والعصابات هنا ، فليتبرع كل منا بريالين لنعوض عليه ثمن بندقيته !

وأخرج من جيبه ريالين ، كان أول من وضعها في منديل ، ثم طاف على المجتمعين ، فتساقطت الريالات في المنديل ، وجاء دوري فتبرعت ايضاً بريالين من ثمن البندقية المبتورة ، وتسلم صاحب البندقية ثمن بندقيته أكثر مما تساوي ، بل ضعف ثمنها ، وخرج مسروراً . وبعد المأدبة حملنا البندقية ، وبعناها في قرية بعيدة قليلاً ، بثلاث ليرات ذهبية ، لأنها انكليزية ، وعتادها نادر وغالي الثمن . وأضفت ليرة من ثمن البندقية المبتورة على المبلغ ، واشتريت بأربع ليرات ذهبية بندقية فرنسية قصيرة يتسع خزانها لثلاث رصاصات ، ظلت معي إلى نهاية الثورة . وكنا كلما تذكرنا تمثيلية فوزي لتسليح رفيق له بالسلاح عزيز عليه ، أكبرنا ذكاءه ، فقد وصل الى غايته في تسليح الرفيق ، وعوّض على صاحب البندقية ضعف ثمنها .

ان الفقر كاد ان يكون كفراً ، كما يقولون في المثل ، ولولا تمثيلية فوزي لصعب شراء بندقية لي ، ولأصبحت عضواً أشل في الثورة ، لأن فوزي والعاص وأي واحد من الضباط والمثقفين الذين اشتركوا بالثورة ، وخاصة السابقين منهم ، كانت جيوبهم خالية من المال ، إلا من دريهمات قليلة ، كانوا حريصين عليها ، لشراء عتاد أو غذاء او علف لجيادهم ، يوم لا يجدون من يضيفهم ويطعمهم .

لقد كثرت الاجتماعات في الغوطة ، بعد اجتماعات الواحد والثلاثين من آذار في قرية بالا ، بين رؤساء العصابات. وكانت الدعوة يوجهها اليهم فوزي القاوقجي ، مستعيناً بنسيب البكري ، وبمعرفته كدمشقي باكثر رؤساء العصابات ، وكان البحث يدور ، في هذه الاجتماعات ، حول تأليف مجلس يتولى شؤون الثورة في الغوطة ، والقبول بالنظام الذي اقترحه القاوقجي قبل سفره الى النبك . وفي كل مرة كان فوزي القاوقجي يتحدث ايضاً عن تأليف قوة من عصابات الغوطة تزحف الى قلمون لإعادة نفوذ الثوره اليه ، وإفساد خطة الفرنسيين في ضرب مناطق الثورة الواحدة بعد الأخرى .



المجاهد الامير نسيب شهاب

ولكن رؤساء العصابات كانوا في منأى عن كل هذا ، لا يفكر واحد منهم ان يفارق الغوطة ، وله فيها مقر في قرية او قريتين ، يحتلها بعصابته كأنها ملكه ، ويعتبر فلاحيها رجاله ، فإذا جن الليل أرسل بعض افراد عصابته يتسللون إلى حيهم في دمشق ، ويبلغون انذارته الى الاغنياء في الحي بأن يتبرعوا لعصابته ، ويفرض عليهم المبلغ الذي يراه من المال ، كما يرسل إنذاراته إلى اصحاب الحوانيت الزراعية في منطقته مع عمالهم الزراعين ، والمرابعين كما يسمونهم في الغوطة ، فتأتي إليه الأموال لا يحاسبه عليها احد . وهو نفسه يتسلل احياناً إلى الحي ، ويزور منزله ، ويبيت بين زوجه واولاده ، إن كان رب اسرة ، لأن الأحياء القديمة قل ان يطرقها الفرنسيون ، وخاصة في الليل ، فهم يتهيبون الخروج من ثكناتهم وحصونهم وجحورهم . أما منازلهم في الحي الاوربي ، كما يسمونه ، أي في جادة الصالحية ، من بوابتها إلى الجسر الأبيض ، فهي محروسة

من داخلها بجنود السنغال ، وبدوريات تطوف فيها ، وبمنع التجول المفروض على المدينة في الليل. ان رؤساء العصابات في الغوطة لا يغادرون منطقتهم باختيارهم، وهم مرابطون على ابواب مدينة دمشق ، تأتيهم الغنائم كما يشتهون ، من الأغنياء وأصحاب المزارع ، أما القتال فهو اختياري في أسلوبهم ، فإن شاءوا دخلوه لحظة ، ثم انسحبوا بحجة ألا طاقة لهم بمعدات الحملة الفرنسية ، وان شاءوا تجنبوه ، وأبتعدوا عن ساحته . وقد اعجبهم من اقتراحات فوزي القاوقجي شيء واحد ، هو اقتراح فرض الضرائب على سكان القرى وأفراد العشائر بدءاً بتعداد الأغنام ، ثم بضريبة العشر ، وضريبة الأراضي والمسقفات ، فكيف يتخلى أي منهم عن نصيبه من هذه الضرائب التي تقرر في احد الاجتماعات فرضها؟ إن تحذير القاوقجي والعاص ومن معهما من ضباط ومثقفين بأن الفرنسيين في خطتهم المرسومة ، سيضربون ضربتهم في الغوطة ايضاً ، اذا ما اخمدوا الثورات في المناطق الأخرى ، امر ما يزال في عالم الغيب ، لذلك كانوا يصمون آذانهم كلما طلب منهم القاوقجي مئة مسلح من ثائري الغوطة يتوجه بهم الى قلمون ، ثم الى الشمال ، ولا يهزهم قوله انه تلقى من وطنيي مدينته طرابلس الشام يدعونه فيها للحضور الى الجبال في شمال لبنان ، أي في منطقتهم ، ويؤكدون له استعداد سكان الضنية وعكار وشمال لبنان للثورة ، والقيام بواجبهم نحو وطنهم ، وإنزال الضربات بالفرنسيين في الاماكن الحساسة ، ويقولون إن هناك تبرعات طائلة جمعت سراً لمساعدة الثورة في حال نشوبها في منطقتهم .

مع الدبابـــات في قصف برزة

- ٧٢ -

نشبت في اليوم الثامن والعشرين من آذار بين الفرنسيين وعصابة الميدان معركة في حي الميدان نفسه تكبد فيها الفرنسيون حوالي خمسين قتيلاً ، واستشهد فيها أبو النور حباب من الوجوه المعروفة في عصابة الميدان والنافذين في الحي ، واستشهد معه ثلاثة آخرون .

توجهت صباح الثاني من شهر نيسان ١٩٢٦ مع فوزي القاوقجي ، ونسيب البكري ، وزكي الدروبي ، وعادل الحامدي ، وسعيد الترمانيني ، والشيخ توفيق سوقية الى قرية القابون ، وتغدينا في حانوت آل البكري ، أي في البيت القائم وسط مزرعة آل البكري ، وتفرقنا ، بعد الغداء ، في الغرف نستجم ، مطمئنين الى ان موعد زحف الحملات الى الغوطة انقضى مع الفجر ، أو الصباح . ولكننا حوالي العصر ، فوجئنا ببعض الفلاحين يتراكضون الى الحانوت منذرين بزحف رتل من الدبابات الى مفرق القابون على طريق دمشق — دوما ، فبـــادرنا الى اسلحتنا نتقلدها ، وسلم الفرسان منا جيادهم لمن يحفظها بعيداً عن المعركة .

انطلقنـــا من باب الحانوت بضعة مسلحين نتقدم نحو المكان الذي قيل لنا ان الدبابات وصلت اليه ، لنترصد الجنود أو الحملة التي لا بد انها ترافق الدبابات ، ولنعرف اتجاه العدو وهدفه . ولم نكد نبتعد حوالي خمسين متراً عن الحانوت ، واذا بنسيب البكري وزكي الدروبي يخرجان منه ، منطلقين منه بجواديهما الى الجهة المعاكسة لاتجاهنا ، فصاح بهما القاوقجي يدعوهما ، وينبهها الى مكاننا بين الشجر ، ولكن نسيب البكري قال له انهما ذاهبـــان لإبلاغ الثائرين في القرى

الاخرى نبأ الدبابات ، ونبأ زحف الحملة وراءها .. فضحكنا ، لاننا نعرف ان الرجلين لم يدخلا معركة كل أيام وجودهما في مناطق الثورة ، ويتجنبان كل معركة تنشب بالابتعاد عن ارضها وساحتها . واذا كان لنسيب البكري بعض العذر ، فهو في نشأته وبيئته غير محارب ، إلا ان زكي الدروبي ، وهو من ضباط الدرك ، ليس له أي عذر في تجنب المعارك ، والهرب منها بهذا الشكل المزري أمام سائر الثائرين .

تقدمنا في بساتين القابون ، وتوغلنا نحو مفرق « القابون » ، واذا بفلاح على ظهر دابته يسير خبباً نحو القرية ، فأنذره الشيخ توفيق سوقية ، بصوت مدو ، بان يقف ، وهدده بالبندقية ، مما أثار عجبنا ، وقلنا له : « مالك والرجل ؟ » ، قال : « يجب ألا يركض حتى لا يثبط العزائم » ، فضحكنا ، وتركنا الرجل يذهب الى حال سبيله ، بعد أن تأكدنا من وجود الدبابات التي قال انه رآها ترابط عند موقف « الديليجانس » من مفرق القابون .. والديليجانس مركز لنقل البريد بالمركبات في الماضي ، قبل عهد القطر والسيارات ، يقف عنده السعاة ، وتبدل فيه جياد المركبات .

تابعنا سيرنا نحو المكان ، ولكن ثائراً شاباً من القانون لحق بنا وأنبأنا بأن رتلاً آخر من الدبابات يتجه الآن بطريق حي الاكراد الى القابون ، وانه دنا منها ، وان مسلحي القابون تحصنوا في غابة الزيتون المشرفة على طريق دمشق — برزة ، استعداداً لمقابلة الجند ، ان كان وراء الدبابات حملة ، فعدنا ادراجنا ، نحو طريق برزة ، واذا بست دبابات في سهل القابون ، على الطريق ، تتجه رتلاً متقطعاً نحو برزة ، فاسرعنا الى غابة الزيتون ، واخذنا أمكنتنا الى جانب مسلحي القابون ، وهم بضعة وعشرون ثائراً . وتوقفت الدبابات عن السير ، ثم اخذت تتقدم ببطء حتى حاذتنا ، وليس هناك من أثر للجند وراءها . ورفع فوزي القاوقجي بندقيته ، وصوبها الى دبابة من الرتل ، ولكن توفيق سوقية

أمسك بذراعيه راجياً ألا يطلق ، لأن طلقة واحدة تدل الدبابات الى مكاننا فتلهبنا بنيرانها ، دون ان نستطيع تأثيراً بها ، فتظاهر القاوقجي بالقناعة ، ولكنه عاد فجأة للتسديد ، وانقض الشيخ توفيق ، وأمسك بسبطانة البندقية ، ورجا بتذلل ألا يطلق بندقيته ، حتى كاد يقبل يديه .. وضحك القاوقجي ،



الجلوس من اليمين المجاهدون : خير الدين اللبابيدي ، صبري العسلي ، فائق العسلي .

الوقوف من اليسار : حكمت العسلي ، اديب العسلي ، ممدوح العظم ، نسيب شهاب ، ابو فهد عزيزية

وقال للشيخ : « اين صوتك المدوي الذي أرعب الفلاح الاعزل ، وبندقيتك التي سددتها الى صدره ؟! هلا أريتنا رجولتك الآن !.. » ، وتذلل الشيخ توفيق

بصوته الخافت ، وضحكنا، وتقدمت الدبابات حتى تجاوزتنا اوائلها ، واخذت تقصف قرية « برزة » بمدافعها قصفاً شديداً ، وتطلق نيران رشاشاتها زهاء ساعة ، ثم عادت ادراجها بطريق حي الاكراد الى دمشق . وعندئذ ادركنا ان الغاية من زحف الدبابات هي قصف قرية « برزة » ، وان رتل الدبابات الذي رابط عند مفرق القابون على طريق دمشق – دوما كان لمنع العصابات من الوصول الى القابون خلال فترة القصف .

عاد نسيب البكري وزكي الدروبي في المساء الى القابون ، وقضينا ليلة في حانوت آل البكري نتمتع من شرفاته بمشاهدة حي الأكراد وحيي الصالحية والمهاجرين تتلألأ مصابيحها كالنجوم في الليل على سفح قاسيون . وقد تجدد حنيننا وشوقنا الى دمشق ومقاصفها الجميلة ، وتجددت ذكرياتنا فيها .

وفي صباح الثالث من شهر نيسان توجهنا من القابون الى قرية « زبدين » ، وهناك بلغنا في اليوم الثاني ان الدروز في اللجاة أحرقوا قطاراً ، يوم الرابع من نيسان ، على خط دمشق – درعا . وقد اصبح هذا الخط ، بعد احتلال اللجاة شبه معطل، لان الثائرين في اللجاة كانوا يسيرون في الليل من معاقلهم، ويخربونه، إلى جانب ماتقوم به عصابات الغوطة ، وخاصة منها عصابة الميدان، من تخريب ، في أماكن قريبة من دمشق . وكثيراً ما كان يحدث التخريب في ليلة واحدة في الجبهتين ، فيصعب على الفرنسيين إصلاحه ، وهو خط مهم بالنسبة لمراكزهم وحامياتهم التي ترابط في حوران ، وفي اكثر المحطات ، فكانوا يضطرون الى استخدام السيارات في نقلياتهم .

إخلاء آخر مخفر فرنسي في الغوطة

بلغنا في اليوم الخامس من شهر نيسان ، عن مصدر ثقة ، ان حملة فرنسية ستزحف في الغد من دمشق لإلغاء مخفر دوما . والمصدر الثقة ، كما قلنا من قبل،

هو الكابتن عطاف القائد العربي في قوات الصباحيين في دمشق ، فأرسلنا الكتب الى جميع رؤساء العصابات نطلب منهم الاستعداد للقاء الحملة .

وفي صباح السادس من نيسان رابطنا مع عدد من العصابات في بساتين عربين الى قرية مديرة . وكانت الحملة قوية بآلياتها ، يرافقها اكثر من عشرين دبابة ، اشتبكنا معها في معركة حامية ، لما بلغت بساتين عربين وحرستا الى مديرة . وعندما بلغت الحملة بساتين دوما انضم اليها جنود حامية دوما ، بعد ان أقاموا ، في مخفرهم نحو خمسين دركياً جاءوا من دمشق ، على رأسهم الضابط عبد الغني القضماني ، وعادت الحملة لتوها الى دمشق . وكانت أكثر العصابات تتفرقت لظنها ان الحملة لا بد ان تقيم ليلة في دوما للراحة والاستعداد . لذلك كان عدد الثائرين الذين اشتبكوا معها هذه المرة قليلاً ، لاحقتهم الدبابات الكثيرة التي رافقت الحملة في معاقلهم ، وأرغمتهم على الانسحاب منها . والدبابات في حروب الغوطة سلاح قاطع لا وسيلة لدى الثائرين لصدها .

وقد استمرت المعركة الى ما بعد الظهر ، واستشهد فيها الضابط المتقاعد ابو تركي سرحان الخالدي ، واربعة آخرون من المجاهدين . أما الفرنسيون فتقدر خسائرهم بحوالي مئة وخمسين قتيلا وجريحاً . وبذلك خلت الغوطة من المخافر الفرنسية . وقد غنم المجاهدون في هذه المعركة صناديق عديدة من العتاد ألقاها الجنود المغاربة العرب في الحفر ، وفي المنخفضات ، ووراء سوق الأشجار ، حتى يفيد منها إخوانهم الثائرون في سوريا ، هذا عدا الأمشاط من الاعتدة فقد كان ابناء الفلاحين يجمعون منها اثر كل معركة ، من الارض المئات والالوف ، ويعطونها أو يبيعونها للمجاهدين .

هدنة بين الثائرين والدرك في دوما

أخذ الثائرون ، بعد جلاء الفرنسيين عن دوما يدخلونها في الليل والنهار ،

ويخرجون منها دون خوف أو وجل ، لان جنود الدرك القلائل في مخفرهم المنعزل عن الاحياء والبيوت ،كانوا لا يتدخلون في شؤون الثورة ،وكل همهم ألا يعادوها ، وألا يهاجمهم أحـــد ويسلبهم سلاحهم ، فهم مضطرون للتجول في اســـواق دوما لشراء ما يلزمهم من مؤن وطعام . لذلك تم شبه اتفاق بين زعماء دومـا وبين القضماني قائد سرية الدرك على الا يعترض المجاهدون والدرك سبيل بعضهما بعضاً ، فكان جنود الدرك يذهبون الى أسواق دوما عزلاً من الســلاح ، وإذا شاهدوا ثائراً ببندقيته غضوا النظر ، وتجاهلوه ، لذلك كان اهالي دوما يطلبون ، بالمقابل ، من المجاهدين الذين يؤمون أسواق دوما ان يأتوهـا دون سلاح ، وان يتركوا اسلحتهم في المنازل ، ويتجولوا في انحاء البلدة كما يشاءون . وكان أهالي دوما ، أو قل عقلاؤها ، حريصين على بقاء قوة الدرك في بلدهم ، كي لا يعدها الفرنسيون من البلدان الثائرة عليهم ، يغيرون عليها بطائراتهم ، تدمر منازلهـا على رءوس سكانها ، لا سيما ودوما أصبحت في الثورة ملجأ لالوف العائـــلات النازحة من قرى الغوطة بسبب المعارك التي كانت تنشب بين الثائرين والحملات الفرنسية ، والفظائع التي كان يرتكبها الفرنسيون ضد السكان الآمنين . وكان الثائرون بدورهم حريصين ايضاً على الا يتعرض الدومانيون والنازحون الى بلدتهم لقصف الطائرات ، وان تبقى دوما بلدة هادئة تمون عصاباتهم بالدقيق وبكل مواد الغذاء وما يفتقدونه في دكاكين القرى التي اقفرت واغلقت أبوابها في الشهور الاخيرة . وقد زرت دوما في اليوم الثاني من إلغاء مخفر الفرنسيين منهـا ، مع سعيد العاص ، وسعيد الترمانيني ، وابتعنا بدريهمات قليلة ما لا غنى لنا عنه من اللوازم في السوق . وكنا نمر بجنود الدرك العزل من السلاح ، فلا يلتفتون الينا ، ويتجاهلون اننا ثائرون .

نستطيع ان نسمي هذه الفترة من ايام الثورة في الغوطة فترة اجتماعات كانت تعقد بين رؤساء العصابات ، وليس هناك من علائم الثورة غير المدفعية الثقيلة ، من قلاع وثكنات دمشق ، تقصف القرى في الغوطة ، حيث يعرف الفرنسيون

انها غدت ملاجىء للعصابات . ويعزى هذا الهدوء النسبي إلى انشغال الفرنسيين بحشد قواتهم في مواقع الخط الحديدي في حوران استعداداً للزحف الى جبل الدروز ، فهم مشغولون اليوم بالاهم عن المهم ، لا سيا وقد حصنوا دمشق ، وطوقوا جزءاً كبيراً منها بخط دفاعي تسهر عليه الحاميات في الحصون «البراجات» ، وسلطوا مدفعيتهم على قرى الغوطة وبساتينها تقصفها ليل نهار . ولم تخف اسباب هذا الهدوء على العسكريين والمثقفين من المجاهدين في الغوطة ، بل اخذوا يفكرون بوضع خطة لمهاجمة دمشق ، ومحاولة احتلالها جدياً ، اثناء تعرض الفرنسيين بحملاتهم لجبل الدروز . وكان من الخطة ان توزع العصابات على احياء المدينة وقلاعها وحصونها ، فيعهد لكل عصابة بعمل تتولاه ، ولا تلتفت الى غيره ، ثم تقطع مياه الفيجة عن المزة وقلاعها وثكناتها ، في أثناء حصارها ، وتخريب الخطوط الحديدية ، ونسف الجسور عليها. وكانوا يتكتمون بالخطة حتى لا ينتشر أمرها بين الثائرين ، فتنقل الى آذان الجواسيس في الغوطة ، وهم كثر ، فقد أعدمت العصابات اكثر من مئة جاسوس من الرجال والنساء ، حتى اضطر الفرنسيون لأن يستخدموا اخيراً الأولاد ، والبلهاء والمعتوهين ، فينكشف أمرهم سريعاً ، ويصرحوا بأسماء رفاقهم في شبكات الجاسوسية عند أقل ضغط عليهم من الثائرين .

الشهبندر يحاول تنظيم الثورة في الغوطة

- ٧٣ -

وبينما كانت الاجتماعات تترى بين العسكريين ورؤساء العصابات في الغوطة ، وصل الطبيب عبدالرحمن الشهبندر ، قادماً من السويداء ، يرافقه المقدم الركن في الجيش العثماني مصطفى وصفي وهو دمشقي من آل السمان ، وخليل الحموي من

الشباب الوطنيين الذين التحقوا بالثورة ، ولم يبقوا طويلاً فسافروا الى الجبل ، ثم الى عمان. وصادف وصولهم يوم عيد الفطر ، وفق الثالث عشر من شهر نيسان عام ١٩٢٦ . وقد دعا الشهبندر فور وصوله الى اجتماع عقد في اليوم الثاني في قرية « بالا » حضره جميع زعماء العصابات ، واعقبه باجتماع ثان عقد قبيل ظهر الخامس عشر من نيسان في قرية « عقربا » ، تقرر فيه تأليف مجلس وطني من زعماء العصابات والضباط والمجازين بالحقوق من الثائرين ، فلا يكون لهذا المجلس رئيس حتى لا يختلف اعضاؤه على الرئاسة ، وانتخب مصطفى وصفي قائداً عاماً للغوطة ، كما أراد الشهبندر ، وسجلت قرارات المجلس في ضبوط الجلسة ، ولأول مرة دخلت اجتماعات زعماء العصابات في طور الانتظام . واتفق في هذه الجلسة على عقد اجتماع ثالث في قرية عقربا ايضاً ، وما أزفت الساعة المحددة لموعد الاجتماع حتى امطرت المدفعية من قلاع دمشق القرية بوابل من قذائفها ، فلم يشأ احد من المجتمعين فض الاجتماع ، لكن الدكتور الشهبندر فضه ، وطلب من المجتمعين الخروج الى بساتين القرية ، قائلاً : « ان قنبلة واحدة تصيب محل الاجتماع تنقذ الفرنسيين من كل زعماء الثورة في الغوطة ! » ، فانتقلنا بين تفجر القذائف ودخانها الذي غطى سماء القرية الى البساتين ، نستأنف الاجتماع ، وفي نفوسنا تساؤل : « من أين عرف الفرنسيون موعد الاجتماع اليوم ، ولم يقرر أمس الا بحضور رؤساء العصابات والضباط والشباب المثقف ، وهم عدد صغير من الثائرين ؟ » ،



المجاهد صبري العسلي

ثم فكرنا ان ليس شرطاً ان يكون الجاسوس بيننا ، فكل من حضر الاجتماع من رؤساء العصابات تحدث الى افراد عصابته عما تم في الاجتماع ، وعن موعد الاجتماع في عقربا ، فسمعته اذن جاسوس ، ونقله الى الفرنسيين . بعد اكثر من ساعة توقف القصف ، فعدنا الى اجتماعنا في القرية . وتم في هذه الجلسة انتخاب لجنة تنفيذية للمجلس الوطني، ولجنة اخرى لاعانة المنكوبين في الغوطة ، وتقرر احداث قوة اجرائية ترتبط بالقائد العام، ضباطها وافرادها لهم رواتب حددت



فئة من الشباب المثقفين في الثورة السورية :
من اليسار صبري البديوي ، شوكة العائدي ، نزيه المؤيد ، زكي الدروبي ، القائد فوزي القاوقجي ، أبو علي رشيد الصحناوي نسيب شهاب ، فائق العسلي، اديب العسلي

في تلك الجلسة ، ثم عقد الشهبندر اجتماعين آخرين في الغوطة ، وغادرنا بعدهما عائداً الى الجبل . وقد سعينا مع فوزي القاوقجي وسعيدالعاص لديه كي يساعدنا على تنظيم قوة تسير الى الشمال ، مهمتها إعادة نفوذ الثورة الى منطقتي الجورة وقلمون، ثم توسيع الثورة الى الشمال ، والى الغرب في جبال طرابلس ، فوعدنا بأن يسعى لدى سلطان الأطرش كي يجهز هذه القوة من الدروز ، فاستبعدنا

ان يقبل سلطان باقتراحنا الذي عارضه من قبل، فكيف لا يكون اشد معارضة له اليوم، وانباء حشد الفرنسيين على الجبل اصبحت مؤكدة لديه ؟.. لقد كان بوسع الشهبندر ان يساعد على تأليف هذه القوة من الغوطة، بعد ان اقنع الجميع بعدم مهاجمة دمشق واحتلالها، ومقاتلة الفرنسيين في شوارعها صونـاً لها من الحرق والتهديم، والانتظـار حتى تظهر نيات فرنسا نحو جبل الدروز !.. والإقناع تم لأن عنق المال اصبح بيده، فقد وزع يوم وصوله مبالغ على مؤيدي زعامته، وخص بالأكثر أبا عبده ديب الشيخ، وأبا محي الدين شعبان، ونزيه المؤيد العظم ابن حميه وغيرهم، ولم ينلني من كل ما حمل معه من أموال التبرعات غير ليرة ذهبية واحدة، اشتريت بها عتاداً لبندقيتي، وابقيت بعضها لنفقاتي الضرورية. وبتقاعسه عن تأليف قوة تسير الى الشمال، كأنه يقول: « انتظروا حتى يضرب الفرنسيون الجبـل ضربتهم القاضية، ويعودوا ليوجهوا اليكم مثلها ! ». لقد أمد الشهبندر بعض رؤساء العصابات في الغوطة بالمال والعتاد، وفرض عليهم القائد الذي أراد، وضن علينا نحن ابناء الشمال الذين غامروا بأرواحهم مرات، وذاقوا أنواع الأذى والحرمان، وتحملوا المشاق في سبيل توسيع الثورة الى مناطقهم – ضن علينا بقليل من المال أو العتاد. لقد أعطى الذين كانت جيوبهم عامرة بالمال، يبتزونه من الأغنياء واصحاب المزارع في الغوطة، وضن به على المجاهدين الذين يحاربون الفوضى والسلب والنهب، وليس لديهم مال يشترون به حتى عتادهم للمعارك التي يخوضونها بإخلاص وإيمان. لقد ضن علي بثمانية دنانير اشتري بهـا راحلة أعوض بها فرسي التي سلبت في معركة قارة وعيون العلق، واصبحت بعدها أتحمل المشاق الجسام في التنقل مشياً على قدمي، ولمسافات لا تقطع بالسير على الاقدام.

الفصل الثالث عشر

اذا كانت النفوس كبارا

- ٧٤ -

بعد سفر الشهبندر يئسنا منه ومن سلطان الاطرش ، ومن رؤساء العصابات في الغوطة ، فاجتمع أكثرنا بسعيد العاص ، وقررنا معه أن نغامر ، ونسافر وحدنا إلى الشمال ، ولو كنا سنلاقي حتفنا في مغامرتنا . ولم يوافق فوزي القاوقجي على قرارنا ، اذ ما زال يعلل نفسه بوعد من بعض خيالة حي الاكراد ، انهم سيرافقونه الى الشمال . وقد وعدنا بأن يلحق بنا بعد يومين بمن معه من الفرسان . ولكن الاكراد أخلفوا بالوعد ، فتخلف في الغوطة ، ومعه سعيد الترمانيني وميشيل النحاس ضابط الصف في سريته يوم كان في الجيش الفرنسي، ومن الذين اشتركوا معه في ثورة حماة . وعليه سارت فئتنا المؤلفة من سعيد العاص، وجميل العلواني، وعلاء الدين الكيلاني، ومنير الريس، ومصطفى الديب؛ وكلهم من مدينة حماة ، ومحمد علي الدروبي ، وشاكر السباعي ، ومرعي التركاوي، والثلاثة من مدينة حمص، وفائق الكيالي ، ورشاد ملص من دمشق، وأبو علي رشيد الصحناوي من دروز جبل حوران ، وعبد الله المغربي ، ومحمد المغربي ، وعبد الحميد المرداوي ، والثلاثة من الجنود الفارين من الجيش الفرنسي

الملتحقين بالثورة . وجميعنا مشاة عدا سعيد العاص فقد باع مسدسه « برابيللو » في الغوطة ، وضم ثمنه الى بعض النقود القليلة التي كانت معه ، وابتاع فرساً لا يمكن لمثله أن يركبها ، فهي كديشة هزيلة ، ولكن عجزه عن المشي أرغمه على الرضاء بها ، وعدا علاء الدين الكيلاني ، ومصطفى الديب ، فقد كان الثلاثة خيالة بيننا . ولحق بنا بضعة أشخاص من ثائري النبك نعرف الا نفع لنا من رفقتهم في رحلتنا إلى الشمال ، فهدفهم الوصول الى منطقة قلمون ، والدنو من النبك ليستسلموا الى الفرنسيين اسوة بغيرهم من ثائري بلدتهم الذين استسلموا قبلهم ، فهم لايجرؤون على اجتياز الطريق وحدهم ، لأن منطقتي الجورة وقلمون خضعتا للفرنسيين ، وقد يعتقلون في احدى القرى المعادية للثورة ، ويسلمون للفرنسيين يرمونهم بالرصاص ، او يقتلون في صدام بينهم وبين احدى القرى الموالية للفرنسيين . ان قرى المنطقتين أصبحت كلها معادية للثورة ، إن لم تكن عن عقيدة ، فعن خوف من بطش الفرنسيين . وانضم الينا نحو عشرة أشخاص غير مسلحين ، وعدهم سعيد العاص بأن يسلحهم في أول معركة نغنم فيها سلاحاً من الفرنسيين ، وأراد برفقتهم أن يزيدوا سواد فئته القليلة في نظر سكان القرى التي سنجتازها ، أو نحتك بها من أجل تأمين طعامنا ، وحاجاتنا الضرورية .

وصلنا مساء التاسع عشر من شهر نيسان إلى نزل للاعراب قرب قرية « عدرا » قضينا ليلتنا في ضيافتهم . وصباح العشرين من نيسان سرنا إلى قرية «ضمير» ، واجتمعنا بشيوخها ووجهائها ، وبذل سعيد العاص جهوداً لاقناعهم بارسال مسلحي قريتهم ، أو عدداً منهم معنا ، في رحلتنا إلى الشمال ، ولكن مساعيه ذهبت أدراج الرياح . وبما أن هذه القرية ، حسب موقعها ، كانت في برزخ بين قوة الثائرين في الغوطة ، ونفوذ فرانسة في منطقة الجورة وقلمون ، فقد قبل زعماؤها ايواءنا في قريتهم ، وماطلونا يومين في قضية مساعدتنا ببعض مسلحيهم ، وأخيراً وعدونا بأن يتبعونا بمسلحيهم ، فيما اذا استطعنا أن نقنع

أهل الرحيبة وقرى الجورة على تأييد الثورة ، فغادرنا قريتهم عصر الثـــاني والعشرين من شهر نيسان الى قرية الرحيبة ، فبلغناها مع الغروب ، وهب اهلها بالسلاح لمنعنا من دخول قريتهم ، وأوقفونا في مدخل القرية ، ونحن نصر على المبيت عندهم ، وهم يطلبون منـا تجاوز قريتهم حتى لا يلحق بهم اذى ويبطش بهم الفرنسيون . وبعد ساعة من الجدل ، واثارة نخوة الشباب من اهل القرية ، تحمس فريق من الشباب ضد الشيوخ ، وقبلونا ضيوفاً في منازلهم الى الصباح . وقد حاول سعيد العاص ، بعد الاستقرار في احد المنازل ، أن يدعو زعمـــاء القرية الى الاجتماع به ، فرفضوا ، وأرسلوا إليه الا يتعب نفسه عبثاً في دعوتهم إلى الثورة . ورغم ذلك قضى سعيد العاص أكثر ساعات الليل يتحدث عن فضل الجهاد في سبيل الله والوطن ، ويأتي بالآيات البينات عن فضـــائله . وبلغ قريتي المعضمية والقطيفة نبأ دخولنا منطقة الجورة ، فهب اهلوها الى سلاحهم يحرسون مداخل القريتين حتى لا نقربها ، وارسل اسماعيل ابو الريش رسولاً من قبله إلى ضابط المصالح الخاصة في النبك يعلمه بوصول سعيد العاص مع شرذمة من الثائرين ألى قضاء جيرود .

توجهنا صباح الثالث والعشرين من نيسان إلى بلدة جيرود ، ولبثنا خارج البلدة ، وأوفدنا رسولاً إلى صفوت الجيرودي نطلب منه ان يقابلنـــا في ظاهر البلدة ، فخرج إلينا ، وبحثنا معه امكان الاستعانة بأهل جيرود وقراها لمهاجمة النبك ، واعادة نفوذ الثورة الى المنطقة ، فأكد لنا استحالة ذلك لقلة عددنا ، ولان المنطقة انقلبت على الثورة بعد احتلال الفرنسيين ، وحتى اهـــل جيرود انقلبوا اعداء له على موقفـــه الاخير من الثورة ، وان الوسيلة الوحيدة لبلوغ أربنا ان توجه قيادة الثورة قوة كبرى تستطيع دحر الفرنسيين ، وطردهم من المنطقة ، دون اعتماد على اكثر سكان القرى ، لأن زعماءهم استسلموا للفرنسيين ، وقدموا لهم الغرامات من مال وسلاح ، فشكرناه ، وتابعنـا سيرنا إلى قرية « العطنة » مجتازين أزقة جيرود ، فتخلف فيها بعض من رافقنا من النبكيين

عند عائلاتهم النازحة اليها . ولما وصلنا الى قرية « العطنة » ، عنـــد الظهيرة ، وقد أثر بنا الجوع ، بادر مسلحوها الى التحصن في قلعتها الصغيرة ، أو حصنها القديم ، ولكننا لم نعبأ بهم ، ولم نغادر القرية إلا بعد ان تناولنا طعامنا فيها . استرحنـا فيها قليلاً ، وتابعنا سيرنا الى قرية « الناصرية » ، وهي قرية صغيرة تقع في سهل فسيح قاحل ، او قل في صحراء لا خضرة فيها ولا ماء .

ولما أشرفنا عليها بادرنا أهلها باطلاق الرصاص من وراء جدران القرية ومن منازلها وأسطحتها ، وأمطرونا وابلاً من نيرانهم ، فأرسلنا اليهم مع أحد رفاقنا العزل نقول لهم اننا جماعة سعيد العاص لا نريد بهم شراً ، واننا لن نبرح قريتهم ما لم ندخلها ونأكل ونبيت فيها ، ونتابع طريقنا في الصباح ، وان استمروا على مقاومتنا بالسلاح فاننا سنهاجمهم ، مهما فقدنا من رجالنا ، ونحتل القرية ، ونقتل الرجال ، ونحرق المنازل ، فأرسلوا الينا شيخاً طاعناً بالسن يعتذر عن اطلاق الرصاص ويرجونا ان نتجاوز قريتهم الى غيرها خشية ان ينتقم منها الفرنسيون ، فأمسكنا به ، ووضعناه في مقدمتنا ، وانتظمنا وراءه صفاً واحداً كرتل ، وتقدمنا إلى القرية . ولما أدرك المسلحون انهم سيقتلون صاحبهم ان سددوا الينا رصاصهم ، راحوا يطلقون الرصاص عالياً من فوق رؤوسنا ، بعـــد ان كانوا يسددونه الى شخوصنا . ولما دنونا من القرية ، فر المسلحون ، واخفوا سلاحهم ، واستقبلنا فريق من أهل القرية يعتذرون عن خطأ الشباب ، وان الدافع اليه هو الخوف من بطش الفرنسيين ، فيما اذا علموا اننا دخلنا قريتهم ، فقبلنا اعتذارهم ، وحللنا في بيت واحد ، وبتنا نقيم حراسة يقظة الى فجر الرابع والعشرين من شهر نيسان ، اذ انطلقنا نجتاز السهل الغربي إلى جبال النبك المعروفة بالجبال الشرقية .

ولما ارتفعت الشمس ، وقارب وقت الظهيرة شعرنا بعطش شديـد . وكان دليلنا من النبكيين يطمئننا بأننا مقبلون على ماء . واخيراً ، وبعـــد ان جفت

حلوقنا من الظمأ وردنا ماءاً راكداً أسنـاً ، في منخفض صخري تعلوه جيوش البرغش والبعوض ، لون الماء أصفر أخضر من كثرة ما اختلط به من بول المواشي التي وردت اليه ، فلما أنفنا من شربه ، استلقى سعيد العـاص ، والصحيح انبطح ، ووضع كفتيه على فمـه ، وشرب من الماء القذر ، واقتدى به بعض الرفاق ، ولكنني مع الآخرين صممنا على احتمال العطش في الظهيرة سـاعات أخرى ، حتى بلغنا دير مار موسى الحبشي ، بني كحصن على رأس مضيق بين الجبال ، يبعد عن بلدة النبك اكثر من ساعتين سيراً على الاقدام ، فوجدنا بابه الحديدي الصغير مغلقاً ، وليس في الدير بشر ، وكنا نأمل ان نجد فيه اوحوله احداً من رعاة الماعز نرسله ليتدارك لنا الطعام من أقرب قريـة الى الدير . وعلمنا بعد رحيلنا عنه ان عبد اللطيف سارة رئيس الطائفة المسيحية في النبك قد أغلقه ، واحتفظ بمفتاحه كي لا يلجأ اليه الثائرون ، فكسرنا القفل بطلقات من بنادقنا ، ودخلنا الدير لنستظل بجدرانه ، ومتحنا من بئر بجانب الدير ماء غير بارد ، كان لنا عوناً على تحمل الجوع ، لأن الظمأ كاد يقتلنا قبل أن نصل الى الماء . وقد قرأت بعدئذ عن هذا الدير ما يلي : « ان دير مار موسى الحبشي حصن شاهق فيه معبد اثري من القرن السادس للميلاد ، يوصل اليه طريق طوله اربعة عشر كيلومتراً من النبك . وبعد انتهاء الطريق المعبدة ، يبدأ طريق جبلي يستغرق عشرين دقيقة مشياً على الاقدام . ويعتبر من الأبنية الاثرية في سورية ، ولذلك انتقلت ملكيته ، من بعد ، للدولة السورية ، إلا انه ما زال في رعاية طائفة السريان الكاثوليك التي تحتفظ بالمفتاح . وصوره الرائعة على الجدران تعتبر قطعاً أثرية نفيسة . وكما قلنا الدير حصن ذو ابراج ، يقوم على قاعدة صخريـة شاهقة في جبل « المدخن » من سلسلة جبال قلمون ، وهو من اقـدم الاديرة في سورية ، ويشرف على وادي القريتين ، وعلى طريق تدمر ، وفي داخـل الدير كنيسة رائعة على جدرانها صور ملوّنة بالفريسك لعدد من القديسين والمشاهد الدينية ، ومعظمها محفوظ بحال جيدة . ويهتم بعض السياح بزيارة الدير ، الا ان طائفة السريان الكاثوليك تخصص له يوم ٢٨ آب من كل عام كعيد لزيارته . ومار

موسى الحبشي غير معروف تماماً ، والابحاث عن اصله لم تصل الى حقائق موثوقة ، فهناك من يقول انه ولد من اولاد ملك الحبشة ، تزهد وتنسك، وقضى أيام حياته في جبال قلمون في القرن الرابع من الميلاد ، بينا يقول غيرهم انه ليس حبشياً، ولكن وجهه كان شديد السمرة بتأثير تلويح الشمس والعبادة والتقشف. والدير مبنى أثري ضخم . وهو في الاصل حصن شيد لغايات عسكرية ، اذ ان موقعه منتقى للاشراف على المنطقة الى ابعاد كبيرة ، ومراقبة التحركات المريبة في ذلك المحيط الذي تعرض لموجات الغزو والفتح » .

سرنا عصراً من الدير حتى اشرفنا مساء على النبك من جبلها الشرقي ، وصادفنا هناك حسن وطفة ، او وطفاء من ثائري النبك ، لاجئاً الى مغاور في الجبل ، وجدناه استحضر له ولرفاقه طعاماً بواسطة احد الرعاة ، تبلغنا به ، وعقدنا اجتماعاً مع النبكيين الذين كانوا معنا ومع حسن وطفة ، بحثنا فيه خطة مهاجمة بلدة النبك في الليل ، والاستيلاء على دار الحكومة ، لان فيها ثلاثين دركياً خيالاً ، كما نقل الينا النبكي الذي نقل الطعام لحسن وطفه ، ثم السير جميعاً الى الشمال ، فرفض جميع النبكيين الاشتراك معنا في الخطة ، ما عدا حسن وطفه ، قائلين انهم لا يستطيعون مغادرة بلدهم ، ولا ان يقوموا بأي حركة فيها عداء للفرنسيين ، كي لا تفتك السلطة بعائلاتهم وذوي قرباهم في النبك، فأدركنا ان الجماعة اتفقوا فيما بينهم على الاستسلام للسلطة ، وانهم ما جاءوا الى هذا المكان القريب من النبك إلا ليجدوا الوسيلة أو الشفيع للاستسلام . لذلك تركناهم وشأنهم ، ورافقنا حسن وطفة بمفرده الى النبك ، وتوجه مع اثنين من رفاقنا الى ساحة الغفري حيث اطلقوا عدة طلقات نارية على دار الحكومة ، وعلى الحامية الفرنسية في المرتفع الذي بنيت عليه المدرسة اليوم في مدخل البلدة الجنوبي ، وعادوا الينا . وعندئذ ودعنا حسن وطفة ، وتابعنا نجتاز السهل الغربي متجهين الى قرية « جريجير » ، حتى وصلنا اليها قبل الفجر ، وطرقنا باب مختارها الذي صعق لرؤيتنا . ولكنا دخلنا داره ، دون

دعوة ، للطعام والراحة ، وفي ضحى الخامس والعشرين من شهر نيسان تابعنا سيرنا الى سلسلة الجبال الممتدة غربي النبك . وهناك في سفح من الجبل وجدنا ثلاثة مضارب صغيرة لرعاة الماعز من اهل قرية «فليطة» ،قضينا قيلولتنا عندهم، وقبيل العصر انحدر نحونا فارس من الجبال تبيناه ، لما دنا من مضاربنا ، انه خالد النفوري ثائر النبك السلاب . وقد قص علينا حوادثه ، وانه بعد استيلاء الفرنسيين على النبك انسحب مع من انسحب الى قرى المرج ، واقام يتنقل فيها بعيداً عن ثائري الغوطة ومعاركها وقذائف مدافع الفرنسيين عليها . وصادف بعدئذ وصول توفيق هولو حيدر قادماً من جبل الدروز يرافقه ثلاثة من رجاله معهم رشاشان ثقيلان ، ومدفع صغير من مدافع المدرعات ، عيار ٣٧ ميليمتر ، فرافقهم النفوري الى جبال النبك الشرقية حيث دفنوا المدفع في احدى المغاور ، وتابعوا سيرهم الى جبال بعلبك وجرودها حيث قام توفيق هولو بسعى لدى عمه واقاربه وسكان القرى كي يساعدوه على القيام بثورة ضد الفرنسيين، فلم يوفق، إلا ان بضعة رجال من ابناء المنطقة التحقوا به ، فوجه الفرنسيون اليه قوة من القناصة اللبنانية في بعلبك نجا منها بعد ان قتل احد جنودها. ثم حدث خلاف بين توفيق هولو حيدر وبين خالد النفوري افترق على اثره النفوري عنه، ومضى يتنقل لاجئاً الى خيام الرعاة ، ومن مراح الى مراح ، يرافقه ولده في تشرده . وكان اليوم من قبيل المصادفة في المضارب التي حللنا فيها ، قد حسب لما أقبلنا عليها ، اننا من جنود فرنسا ، لذلك فرمع ابنه الى الجبال ، ولما تحقق من اننا ثائرون عاد الى مكانه ، وفهمنا من كلامه انه يسعى للاستسلام ، ولكنه يخاف غدر الفرنسيين به ، فقلنا له اننا سنقضي بضعة ايام في الجبال الغربية وجرد بعلبك ، ننتظر تحقيق الوعد الذي قطعه جمعة سوسق لبعض رؤساء العصابات في الغوطة بان يسعى لجمع قوة من الجرد يزحف بها الى النبك لإعادة نشاط الثورة الى المنطقة كلها ، والقيام بحرب عصابات مستمرة ضد الفرنسيين ، واننا سنراسل سوسق حول هذا الموضوع ، وان لم تنجح فسنتابع سيرنا الى اكروم في شمال لبنان لننضم الى عصابة زين مرعي جعفر الذي قرأنا في الصحف اللبنانية انها

خربت الخط الحديدي مرة في سهل بعلبك ، وهاجمت قطاراً في وادي خالد على خط حمص — طرابلس ، فوافق على ان يبقى معنا أياماً نقضيها في الجبال. وفي عصر اليوم نفسه انتقلنا الى قلب الجبال حيث قضينا ليلتنا في مضارب الرعاة من أهل « فليطة » أيضاً .

خطة جهنمية لسحقنا والقضاء علينا

٧٤

توجهنا في صباح السادس والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٢٦ الى واد يسمى « وادي العونيات » على حدود قضاء بعلبك،وأوفدنا من هناك راعياً يبحث عن توفيق هولو حيدر ، لمقابلته والبحث معه في شؤون الثورة ، ودعمها في المنطقة ، ورسولاً آخر الى جمعة سوسق ينبئه بوصولنا . وكانت الثلوج تكسو قمم الجبال وبعض السفوح العالية ، والليالي باردة . وقد عاد الرسول الاول في صباح ٢٧ نيسان يعلمنا أنه لم يعثر على أي أثر لتوفيق هولو حيدر ، لذلك انتقلنا الى واد يشرف جبله على السهل الذي تقع فيه قرية « جريجير »يسمى « وادي البَرد » ، وقضينا ليلتنا لدى الرعاة من أهالي جريجير. ويوم الثامن والعشرين من نيسان يئسنا من قدوم جمعة سوسق ، او وصول جواب منه ، وقررنا السير مساءاً نحو الشمال ، الى جبال الجعافرة في منطقة « الهرمل » من شمال لبنان ، ولجهلنا الطريق مباشرة من جبال بعلبك الى جبال الهرمل ، قررنا ان نسلك طريق جبال حسية الغربية الى سهل القصير لنجتازه الى « اكروم » في منطقه الهرمل، ولكن في الوقت الذي كنا نرسم خطة سيرنا ، كان الفرنسيون بدورهم يعدون فخاً للقضاء علينا ، لا سيما وقد عرفوا ، ونحن في منطقة الجورة،وصولنا إليها ، وعرفوا بعدها ليلة مرورنا بالنبك ، وعرفوا من مختار جريجير في أي ساعة

وصلنا الى بيته ، وفي أي ساعة رحلنا عنه ، وعرفوا اننا نتنقل في سلسلة الجبال الغربية ، فلهم فيها عيون ، كما لهم في كل بلد وقرية عيون، لذلك وجهت قيادة الموقع الافرنسية في النبك ، في الثامن والعشرين من نيسان سرية من المتطوعة الفرسان لمطاردتنا ،فوصلت الى قرية « جريجير» دون أن ندري بها ، وخرجت قوة اخرى من بعلبك الى وادي العونيات ،فلم تحظ بنا لاننا كنا غادرنا الوادي، ووجهت قوة ثالثة من حمص رابطت لنا على طريق النبك - حمص، وفر موظفو تعداد الاغنام برئاسة عبد المجيد سويدان من قارة الى حسية لما طرقت مسامعهم أنباء وصولنا الى منطقة قلمون. أما سرية المتطوعة الفرسان فتوقفت في جريجير، ولم تجرؤ على التقدم لمطاردتنا في الجبال ، مع اننا كنا وراء أول هضبة من الجبل المقابل للقرية ، بل كنا ضيوفاً في واد عند رعاة للماعز من قرية « جريجير » ، قد يكون أحدهم نقل الى الجند خبر وجودنا عندهم، او نقله الى القرية ، فتطوع من أوصل الخبر الى النبك حيث وجهت قوة من المتطوعة لمطاردتنا . ولما كانت الحرب خدعة ، وضعوا خطة جهنمية للقضاء علينا ، فأوفدوا الينا رجلاً كردياً يقطن قرية «جريجير» ، ويعمل فيها حواطاً، أي خادماً عند المختار، عرفناه ، وعرفنا من قبل في أثناء ترددنا على القرية أيام عملنا في منطقة قلمون، يحمل كتاباً من مختار القرية الى سعيد العاص أملاه عليه قائد السرية ، يقول فيه ، بعد مقدمة طويلة من المديح والتعظيم والتبجيل : « انكم ياسعادة القائد ، لما جئتم بيت خادمكم ، وشرفتموه بحلولكم فيه ، صح في القرية من نقل الخبر ، في اليوم نفسه ، الى الفرنسيين ، فدعيت مع بعض وجهاء القرية الى النبك ، وقلت للمستشار ان الثوار جاءوا بيتي دون دعوة مني ، او علم مني بهم ، او دعوة من احد في القرية ، وهم جماعة مسلحون ، وانتم جردتمونا من السلاح ، فلا سبيل لنا الى منعهم ! » فقال «ولكنهم لم يستخدموا القوة يوم جاءوا قريتكم، بل انتم فتحتم لهم أبواب قريتكم ومنازلكم ، ورحبتم بهم ! » ، وبصعوبة تخلصنا من السجن والتعذيب ، واليوم بلغنا ان الفرنسيين قرروا حرق بيتي ، وعدة بيوت أخر من القرية بتهمة ضيافة الثوار ، وتقديم العون لهم ، ولا انقاذ لنا من هذا

المصير الا اذا بادرتم انتم اليوم ياسيادة القائد العظيم ، بأن تأتوا مساء الى قريتنا ، فإذا دنوتم منها ،فاطلقوا رصاصكم في الهواء ،وادخلوا القرية آمنين،وانتم تطلقون رصاصكم حتى يعلم الفرنسيون انكم تدخلون قريتنا رغماً عنـا ، ويكون ذلك تأييداً لحجتنا امامهم ، وبذلك تكسبون دعـاء الاطفال والنساء والشيوخ ، وابتهالاتهم الى الله أن ينصركم على اعدائكم لانكم انقذتمونا من عدوان فرانسة ونهب المنازل واحراقها . والخراف ذبحت من اجل عشائكم لا يكون لـكم فكرة .. النجدة .. النجدة.. الغوث .. الغوث يا أهل المروءة والشرف ! . »، فتأثر سعيد العاص بما في الرسالة من استنجاد نساء القرية واطفالها وشيوخهـا العجز به، واعتمادهم على مروءته ، وفوراً كتب الجواب الى المختار : « لبيك!. لبيك !..سيأتيك إخوانك في الوقت المحدد منجدين اخوانهم أهل جريجير! . ، ووقع خالد النفوري مـع سعيد العاص الجواب ، وحمله الحواط الذي كنت أعرفه مَرِحاً لا يترك مناسبة الا ويعمل ما يضحك من حوله ، فإذا هو عبوس كظيم ، فرابني أمره وعبوسه ، وقلت لسعيد العاص ، بعـد ذهابه : « وهل صدقت ما جاء في كتاب المختار ؟ » ، قال : « ولماذا لا أصدقه ؟ ان اخواناً لنا يستنجدون بنا ، ولا تكلفنا نجدتهم غير دخول القرية، وتناول العشاء ، ثم السير في طريقنا الى الشمال ؟ » ، قلت : « ولكن جريجير لا تبعد ساعة عن النبك ، وهي في السهل ، وفيهـا مستشار وجيش فرنسي ، فلماذا لا تظن ان في الامر خدعة ،واننا مدعوون لنقع في كمين نصب لنا، ونكون نحن الذبائح لا الخراف؟.» قال : « سنكون حذرين في طريقنا الى القرية !.. »، قلت : « لن ينفع الحذر، فقوتنا نحن كعصابة صغيرة ، هذه الجبال والشعاب ، نقـاتل فيها ، ونتسلقها ، ونتوغل فيها اذا نازلتنا قوة لا طاقة لنا بها . أما يوم نخرج الى السهل ، ونسير ساعة واكثر من ساعة الى جريجير ، فان أي قوة تكمن لنـا في القرية ، أو في جدرانها وحواكيرها تبيدنا عن آخرنا ! .. » ، وناصرني جميل العلواني ، واصر سعيد العاص ، على الذهاب الى القرية، بحجة انه قطع وعداً للمختار بان ينجده، واخيراً رضي ان يستفتي اخوانه واحـداً واحداً ، ويعمل برأي الاكثرية ،

فاقتت الاكثرية بعدم الذهاب الى القرية ، والسير قدماً الى الشمال . ولما شارفت الشمس على المغيب خرجنا من الجبال ، بعد ان ودعنا خالد النفوري ، جاعلين سلسلتها الى يسارنا ، وكنا نهتدي في الظلام بالنجوم ، واضعين الشمال نصب

أعيننا ، لا نستعجل السير رحمة بالاكثرية المشاة ، حتى سمعنا في الشطر الثاني من الليل نباح الكلاب عن بعد ، فادركنا اننا على مقربة من حي لرعاة الماعز ، واوفدنا ثلاثة غير مسلحين منا الى المضارب ، نطلب من اهلها ان يزودونا ببعض الطعام والماء،وجلسنا نترقب عودة إخواننا، وطال انتظارنا اكثر من ساعتين ، واخيراً عاد الرفاق ومعهم امرأة عجوز من اهل الحي ، يحملون الخبز والجبن والمـــاء ، وابلغونا ان العجوز أصرت على ان ترافقهم ، وان تقبل رأس سعيد العاص قائد المجاهدين ، فقلنا له : « اعطها قرعتك يا سيادة القائد ! » ، وانحنى لها ، وهي تزغرد ، وهجمت تقبل رأسه ، وقالت : « فداء لك يا سعيد بك ! لقد احرق الجنود هذا المساء ثلاثة منازل في قريتنا جريجير ، بعد ان نهبوها! » ، فسألناها : « ومتى وصل الجند الى القرية ؟ .. » ، قالت وصلوا اليها ضحى ، وظلوا فيها الى أول الليل ، ورحلوا عنها بعد احراق المنازل !. » ، والتفتنا الى سعيد العاص نهنئه بالنجاة من الكمين ، وقلنا له : « لولا عدولنا عن الذهاب الى القرية ، لكنا نحن الذبائح في مأدبة الفرنسيين اللئام هذا المساء ! » . وقد تأكد لنا بعد هذا النبأ من العجوز ، وهي من أهل جريجير نفسها ، جاءت الى الحي ليلاً ، ان الجنود ظلوا ينتظرون قدومنا الى القرية لنقع في كمينهم ، فلما قطعوا الأمل ، وربما رأونا لما خرجنامن « وادي البرد » قبل غروب الشمس ، نسير الى جانب الجبال نحو الشمال ، ظنوا ان اهالي جريجير ، او حامل رسالة المختار ،اخبرنا خبر الجند فعدوهممتواطئين معنا ، واحرقوا بيت المختار صاحب الرسالة ، واحرقوا منزلين آخرين لوجيهـــين في القرية ، وغادروهـا الى النبك .

سير في الجبال دون دليل

ظللنا في مسيرنا تلك الليلة ، عن يميننا سهل النبك ودير عطية وقارة وعيون العلق والبريج ، حتى اعترضت سبيلنا سلسلة جبـال حسية المنحرفة قليلاً الى الشرق، وظهر امامنا طريق واضح يخترق الجبال الى الشمال الغربي، فسلكناه ، دون دليل ولا معرفة سابقة . وكنا نريـد على كل حال ، ان نلجأ الى الجبال ، قبل ان يصبح الصباح ، لنأمن الطـائرات ، ومطاردة الفرنسيين ، أو مـا يدبرونه لاصطيادنا ، ونحن عصبة ليس معها غير اربع عشرة بندقية ، من السهل القضاء عليها في أي معركة مع قوة اكبر منها تنازلها في أرض منبسطة ليس فيها موانع ومعاقل طبيعية . وبعد سير عشر ساعات من قرب قرية جريجير بلغنا مضارب لرعاة من أهالي قرية السحل في قلمون ، أقيمت في أحد الوديان ، فاسترحنا لديهم حتى انبثق فجر يوم التاسع والعشرين من شهر نيسان ، وعرفنا منهم الا طريق أمامنا توصلنا الى سهل القصير ، لذلك قررنا أن نجتاز الجبال عرضاً باتجاه الغرب دون أن نسلك طريقاً ، فقضينا نهاراً من أتعس أيام الثورة ، نتسلق جبلاً شامخاً لننحدر منه الى واد سحيق نجتازه لنصعد جبلاً آخر لا ماء معنا ولا زاد ، حتى وهن العزم منـا ، وأشرفنا على الهـلاك من التعب والعطش ، واهترأت أحذيتنا، وظهر الى يميننا جبل شامخ الذرى، فتسلقناه لعلنا نكتشف وراءه طريقاً نسلكها ، فلما بلغنا ذروته شاهدنا قرية حسية الى يميننـا وسهل قصير حمص الى يسارنا، فاستبشرنا خـيراً ، وانحدرنا الى واديه السحيق حيث صادفنا طريقاً تتجه الى الشمال الغربي ، سلكناها دون أن نعلم الى أين ستوصلنا ، وأشرفنا ، قبـل الغروب ، على مضيق بين الجبـال يفضي الى سهل القصير ، فأسترحنا فيه حتى توارت الشمس، عندئذ خرجنا من الجبال لنتجه ، تحت جنح الليل ، الى الشمال ، فقادتنا خطانا الى قرية «الدبابية » ، وكانت الساعة العاشرة من ليل التاسع والعشرين من نيسـان ، وكل منا بلغ الأعياء منه مبلغه . ولمـا شاهدنا اهل القرية حدثت ضجة بينهم ، وفر النسوة منا في الطريق ، فطمأناهم ،

وأفهمناهم أننا لا نريد بقريتهم شراً ، واننا عابرو سبيل ، فدلونا الى بيت المختار حيث قدم لنا الماء ، وما تيسر من الطعام ، واسترحنا زهاء ساعتين ، عرفنا خلالهما أن زين مرعي جعفر ثائر على الفرنسيين في جبل اكروم ، وأن نظير النشواتي الحمصي ، وعدداً من رفاقه وابناء بلده الثائرين انضموا الى عصابة زين مرعي ، ومقر الجميع اليوم قرية « اكروم » في الجبل الغربي ، وان الفرنسيين وجهوا حوالي مئتي فارس من جندهم الى بلدة القصير لحمايتها ، ولقطع كل اتصال بين زين مرعي وعصابات المشرق ، وان الشائعات كثيرة عن زحف الفرنسيين بحملة الى جبال أكروم لمطاردة عصابتها ، وإخماد الثورة قبل ان تستفحل ، فطلبنا دليلاً من أهل القرية ، وسرنا عند منتصف الليل نجتاز السهل من جانب محطة القصير التي ترابط بها الحامية الفرنسية الى جسر خشبي على نهر العاصي ، انحدرنا من جانبه نحيي نهر مدينتنا حماة ، ونشرب من مائه العذب ، ثم تابعنا سيرنا حتى بلغنا قرية « المعيصرة » ، ومنها سرنا الى قرية « زيتا » ، وأهلها من المتاولة (الشيعة) ،ظهر عليهم الخوف ، لما رأونا ندخل قريتهم ، وطلبوا منا الرحيل فوراً ، ولكننا كنا بحال لا يمكن معها الاستمرار على السير ، فمكثنا فيها ساعتين ، على الرغم من أهلها ، وغفونا قليلاً بعد سهر ليلتين متواليتين ، وسير متواصل طوالهما مع النهار كله .

غادرنا صباح الثلاثين من نيسان قرية « زيتا » ، والأهلون لا يصدقون رحيلنا عنهم ، وسرنا نجتاز ازقتها ، وقد تمزقت أحذيتنا ، وتورمت أقدامنا من الحفى والشوك ، وادمتها الحجارة . وإن انس لا أنس رفيقي جميل العلواني ساعة حاول أن يقف على قدميه ، ويخطو بها للخروج من القرية ، فجلس على الارض ، وبكى ، وقال : « لا طاقة لي بالسير ، فاقدامي لا تحملني من الألم ، دعوني هنا ، واذهبوا في سبيلكم دوني ! » ، ورحت أسعى وراء سعيد العاص ، انقل اليه حال المجاهد العلواني ، فعاد واركبه فرسه الهزيل ، ومشى بيننا ، مع ان فرسه بلغت من الإعياء حداً تحتاج هي الى من يحملها .

كنا ما زلنا في وسط السهل لا نبعد كثيراً عن « القصير » ، وكان الحذر من ان يلاحقنا خيالة الفرنسيين في القصير يدعونا للسير والسرعة . وظل السير وئيداً من الإعياء حتى بلغنا قرية « الحويك » في سفح الجبل ، واصبحت جبال أكروم أمامنا ، فعزمنا على ان نستجم فيها، ولكن فارساً شاكي السلاح قادماً من قرية « بلوزة » ادركنا ، علمنا انه من آل « زعيتر » المتاولة ، وعلى ذراعه شارة ترمز الى علم فرنسي كتب عليها « الحرس الوطني » ، وطلب منا الا ندخل القرية ، واذا كان لا بد لنا من الراحة ، فلنبعد عنها . ولما سألناه عن وظيفته قال انه متطوع عند دولة فرنسة المعظمة ! . قالها دون خجل ولا وجل !.. وكان الجواب يقتضينا ان نسدد رصاصة الى صدر المتطوع لدى فرنسة.. ولكننا أصبحنا بين قرى المتاولة ، وهم عشائر ، ووجهتنا زين جعفر وهو منهم ايضاً .. واقل حركة عداء تبدر منا قد تجر إلى صدام مع جماعة اكثر منا عدداً ، سلحتهم فرنسة ،ودعت زعماءهم ، لمقاومة الثورة.لذلك رأينا ان نقابل التحدي بالتروي، فطلبنا طعاماً قدمه لنا أهل القرية ، وبعد استراحة قصيرة تابعنا سيرنا الى «اكروم »، فلحق بنا رجل حمصي عرفنا انه صاحب طاحون، أو مستأجر طاحون قريبة من المكان ، فرجوناه ان يسبقنا الى أكروم ، وهو غير مرهق ، ليعلم زين مرعي وسائر الرفاق الحمصيين بقدمنا . ولما اقبلنا نحو القرية سمعنا ازيز الرصاص ابتهاجاً بقدومنا ، ورأينا الرجال ينحدرون مشاة وفرساناً من الجبل لاستقبالنا .

لقاء أنسانا مشاق الطريق وأهوالها !

- ٧٥ -

وكان لقاء أحيا منا النفوس ،بل كان استقبالاً منقطع النظير نسينا به كل

متاعبنا وما قاسينا من مشاق الطريق ، وحملت الجياد القوية المتعبين جداً من جماعتنا، وصعدت بهم الجبل الى القمة ، وبلغ سيرنا من قرب قرية جريجير الى جبل أكروم اثنتين واربعين ساعة متواصلة، تخللتها ساعات قليلة للراحة وخلفنا قرية « اكروم » في الوادي ، وكانت أصوات الرصاص بلغت مسامع جميع سكان القرى المجاورة ، وبينها قرى مسيحية ، وبين القرى المسيحية قرى مارونية ، هي أشد عداوة للثورة ، لإنها اكثر تعلقاً بفرنسة من حيث الدين والمذهب . ونقلت القرى الى ضابط المصالح الخاصة في « تل كلخ » ، والى زميله في « قلعة الحصن » أنباء وصول سعيد العاص وعصابته إلى اكروم—نقلتها مجسمة إذ هتف المستشار الى رئيسه في طرابلس يعلمـــه عن وصول سعيد العاص ، ومعه مئة وستون من ثائري الغوطة ، الى مقر الثائر زين مرعي جعفر في اكروم ، واستقروا في جبال شمالي لبنان ، وانتقلت الثورة مرة اخرى الى أرض لبنـان الكبير ، البلد العربي الذي تعده فرنسة حصنها الحصين ، لا تجد من بعض طوائفه معارضة لاستعمارها ، بل تجد منها تقبلاً لكل ما تخطط لحكم لبنان ، ولكن الثورة ، في هذه المرة ، انتقلت الى الشمال من لبنان ، بـــدلاً من حاصبيا وراشيا وجديدة مرجعيون في الجنوب !

وجبال اكروم تقع في اقصى حدود لبنان الشمالية ، وهي في الواقع جزء من جبال الهرمل ، بينها جبال شامخة الذرا ، وعرة المسالك ، تغطيهـا الاحراج والغابات ، وهي من أصلح الجبال للثورات وحرب العصابات والانصار ، لان طرق السيارات فيها معدومة ، والطرق العامة تمر بعيدة عنها في المناطق المجاورة لها ، فطريق السيارات بين حمص — طرابلس تمر بوديان تسيطر عليها تلك الجبال ، وكذلك الخط الحديدي بين هـــذين البلدين يمر بنفس تلك الوديان . أما الخط الحديدي بين حمص — بعلبك — رياق فيمر في سهل القصير وبعلبك التي تسيطر عليه ايضاً تلك الجبال ، لو ان الثورة عمت ربوعها . وهذه الجبـال لا عمل فيها لسلاح المدرعات والدبابات ، وحتى المدفعية ، لأن الثقيلة منهـا تحتاج الى طرق

معبدة ، ودواب وسيارات تجرها عليها . ويحد منطقة اكروم التي حللنا فيها وعرة حمص ، ووادي خالد الذي يمر فيه الخط الحديدي بين حمص وطرابلس . وسكان وعرة حمص من النصيرية الذين اطلق عليهم الفرنسيون اسم العلويين .

والعلويون هؤلاء ، كما نعلم عشائر عربية ، تقطن ، على الأكثر في سورية ، سلسلة الجبال الغربية ابتداء من وادي خالد ، وتمتد الى الشمال حتى كيليكية ، وبذلك يؤلفون كتلة جعلت فرنسا منهم في سورية دولة او حكومة ، زعمت فرنسا انها مستقلة ، عاصمتها اللاذقية ، اسمها دولة العلويين. ويحد منطقة أكروم من الشرق سهل القصير والهرمل ، وفيها مجرى نهر العاصي ، بل ان نبع نهر العاصي بالقرب من بلدة الهرمل التي لا تبعد اكثر من نصف ساعة مشياً على الاقدام من سلسلة الجبال . ويتصل جبل اكروم بسلسلة جبال لبنان الشمالية ، بل هو جزء منها ، وترتبط قرية « اكروم » ادارياً بالهرمل ، وهذه بقضاء بعلبك ومتصرفية البقاع . وتسكن منطقة الهرمل وجبالها عشائر المتاولة من الشيعة ، وتعرف بالحمادية نسبة الى آل حمادة زعمائها ، واشهرها الجعافرة عشيرة زين مرعي جعفر . وآل علاو — بتشديد اللام — ، وآل شمس ، وآل دندش ، وآل زعيتر . ولكل عشيرة زعماؤها ينقادون الى آل حمادة القاطنين في بلدة الهرمل ، وأبرزهم في عهد الثورة صبري حماده وسعدالله حماده . وتتصل منطقة اكروم والهرمل من الغرب بجبال عكار والضنية في متصرفية طرابلس .

ان سكان هذه الجبال من السنة والمسيحيين ، واقرب القرى المسيحية الى اكروم قرية عندقت ، وقرية القبيات ، وأهلها من الموارنة ، والعداوة قديمة بين هؤلاء وبين جيرانهم المتاولة ، غذتها فرنسا ، حتى اصبح لا يخلو وقت من منازعات وسفك دماء بين الطائفتين . وليس في منطقة اكروم قرى كبيرة آهلة بالسكان ، وقراها صغيرة ، هي في الواقع مساكن شتوية لسكان المنطقة وماشيتهم من الماعز التي هي مورد رزقهم ووسيلة عيشتهم ، فقليل منهم يشتغل بالزراعة ، لأن اراضيهم وعرة لا تصلح لزراعة الحبوب ، إلا في بقع من الأرض

صغيرة ، تقع عادة في قاع الوديان ، وإذا أقبـــل الربيـع هجر السكان القرى ، وانتقلوا الى الجبال بمواشيهم ، يسكنون مضارب من الشعر واكواخاً يبنونها من أغصان الشجر ، وكلما اشتد الحر ، صعدوا الى ذرا الجبال يبتغون مراعيها ، وبعضهم يشرب الماء من الثلج في الجرد ، ويذيبه على النار لاستخدامه في الغسل والعجن والطبخ ، على ان الجرود التي يرتادونهـا في الصيف لا تخلو من الثلج أو الماء ، كثيرة الكلأ ، ولكنها باردة ، يرتعد المرء في لياليهـــا من أشهر الصيف الحارة ، يغشاها الضباب كثيراً ، وذروة جبل الثلج ، كما يسمونه هناك ، ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلاثة آلاف متر ، وتشرف على مدينة طرابلس وجبال عكار والبحر الابيض المتوسط .

ان تربة منطقة اكروم غنية ، رغم وعورتها ، كثيرة الكلأ ، غاباتها كثيفة الاشجار عظيمتها . ومن المؤكد ان تلك الجبال كانت كلها غابات ، ولكن يـ د الانسان امتدت الى الشجر ، فحرمت مساحات كبرى من الجبال غاباتها الكثيفة ، واصبح بدل الاشجار السامقة شجيرات انبثقت من الجذور التي خلفها الفأس في الارض بعد قطع الاشجار . وأهم أنواع الشجر في تلك المنطقـــة السنديان ، والصنوبر البري ، والقطلب ، والبطم ، والخوخ البري . وأهم قرى المنطقـــة : اكروم ، واكوم ، وكفرتون ، والحميرة في الجبـــال ، والحويك ، وبلوزة ، ووادي حنا في السفح وعلى طرف السهل . وهناك قرية «القصر» في السهل تبعد عن سلسلة الجبال حوالي نصف ساعة مشياً على الأقـدام ، وتعد من قرى السهل . سكان هذه القرى من المتاولة ، عدا أكروم ، واكوم ، وكفرتون ، فان سكانها سنيون ضعفاء لقلة عددهم ، ولوجودهم في منطقـة اكثر سكانها يختلفون عنهم في المذهب ، ان لم يختلفوا عنهم في الدين ، فهم محاطون من جهاتهم الأربع بعشائر المتاولة ، وعشائر النصيرية ، والنصارى . وأنـى ينتقل المرء في جبال اكروم يجد منازل صغيرة متفرقة ، او مجتمعة ، مؤلفة من منزلين ، وثلاثة ، او اكثر ، وتسمى « المراح » ، يسكنها رعاة الماشية ، والى جانبها يقيمون الحظائر لماشيتهم

من الماعز على نمط المراح والحظيرة في جبال حسية وقامون . والكهوف في هذه الجبال كثيرة يستخدمونها ايضاً للسكنى ، وكحظائر للماشية .

والمتاولة الجبليون أشداء، ذوو أجسام قوية، ونساؤهم لا ينقصن عن الرجال بأساً وقوة ، كما لا ينقصهن الجمال لنقاوة الهواء ، وعذوبة الماء ، ولطف المناخ في الجبال . وزين مرعي جعفر من عشيرة الجعافرة ، أو بيت جعفر المتاولة الذين يقطنون القرى القريبة من بعلبك ، هجر قريته مع أربعة من إخوته وبضعة رجال من عشيرته، والأصح من أبناء عمه، وكلهم من أرباب السوابق في الشقاوة والتمرد على الدولة العثمانية ، وسكنوا جبال كروم ، وطاب لهم فيها المقام ، وخشي شرهم سكان اكروم ، واكوم ، وكفرتون السنيون، وخشيهم النصارى جيرانهم ، وبينهم من سبى النساء من قرى النصارى ، وتزوجهن رغماً عن أهلهن ، وتزوج زين مرعي جعفر فتاة سنية من أهالي قرية « اكروم » ، ثم تزوج اختها ، وجمع في عصمته بين اختين خلافاً للشرع الاسلامي ، على جميع المذاهب . ولما تواترت انباء الثورة في جميع مناطق الجنوب السوري، وعمت حتى هددت مدينة حمص، وكل هذه المناطق تسمى « سهلا » في نظر زين مرعي وجماعته سكان الجبال ، قال لاخوته وابناء عمه : تعالوا نري ما هي ثورة اهل السهل هذه؟ » . وقام هو وثلاثة منهم الى جيادهم يمتطونها في الشتاء ، ويولون وجوههم شطر النبك وقامون ليروا جموعاً مسلحة تنتظم السير الى حسية وسهل القصير على مقربة من منازله في الجبال الشامخة ، فشجعه ذلك على ان يثور ضد فرنسا ، فجباله اكثر صلاحاً للثورة من النبك في وسط السهل ، ومن قلمون في سلسلة جبالها ، لذلك تعهد لسعيد العاص في النبك ، ويوم ودعه في « سيل الضبع » بالقرب من قرية الزراعة وبلدة القصير ، ان يعتبره ثائراً ، ووعد بان يوافيه مع عدد من رجاله الى قرية الزراعة للاشتراك مع الثائرين القلمونيين في حركاتهم وخططهم ، ولكنه لم يستطع ان يفي بوعده لأن احداً من عشائر المتاولة لم يوافقه على الثورة ، وكان صعباً على زين مرعي ،واخوته وابناء عمه قلة ، ان ينفردوا بحمل العبء وحدهم

وهم في الأصل، كما قلنا، دخلاء على المنطقة ، محاطون باعداء : بالجيران السنيين ، والنصارى ، والنصيرية ، والأولون يرهبونهم ولا يحبونهم ، والآخرون ، بفضل زعمائهم ، اعداء للثورة ، إن لم يكونوا اعداء لهم . ومع ذلك ظل زين عازماً على الثورة ، يتحين الفرصة لها ، فالسنيون في نظره أقلية ضعيفة لا يخشاها في منطقته ، والنصارى أعداء مزمنون يناصبونه العداء ثائراً كان أو غير ثائر ، والنصيرية على كثرتهم ، سكان وعرة حمص المجاورة له لا سلطان لهم على معاقله في الجبال ، وفي يوم من الأيام سمع ان جنديين من الدرك اللبناني قدما اكروم لابلاغ أهلها بعض الاوراق الرسمية الواردة الى المخفر ، فانحدر الى القرية ببندقيته ، وقتل واحداً منهما ، وسلبهما جواديهما وبندقيتيهما ، وعاد الى معقله في الجبل . وكان قبل ذلك سعى ليتفق مع حسن طعان دندش زعيم بيت دندش المتاولة الشهيرين في الشقاوة والتمرد على الدولة العثمانية ، فوافقه في بادىء الأمر ، وجمعا رجالهما ، وهدما جسراً للخط الحديدي بين محطتي اللبوة ورأس بعلبك، عطل سير القطر اياماً بين شمال سورية وجنوبها، واحست فرانسة بالخطر، وخشيت ثورة المتاولة ، وكان لها ضابط المصالح الخاصة قدير هو الكابتين « ماميه » يعمل في قضاءي زحلة وبعلبك ، بادر فوراً للاتصال برؤسائه ثم بحسن طعان دندش، واتفق معه ، وعهد إليه بحراسة الخط الحديدي في منطقته ، او بالاحرى بين محطة القصير وبين محطة بعلبك براتب شهري ، قيل انه ألف ومئتا ليرة سورية ، فقبل واصبح صديق المستشار الذي لم يفطن، على ما يظهر، لأهمية زين مرعي جعفر ، فهو ليس رئيس عشيرة كحسن طعان دندش ، وما هو الا راع من الرعاة ، جماعته مثله فقراء ورعاة ماعز ، يعيشون بعيداً عن الجعافرة عشيرتهم ، لذلك لم يتصل بهم ، ولا فاوضهم ، في ذلك الحين ، على حراسة الخط الحديدي بين حمص وطرابلس ، كما فاوض حسن طعان دندش ، وكما فاوض زميلاً له من آل الشماط في قرية سرغايا لحماية الخط الحديدي من حدود لبنان الى الزبداني .

لذلك بدأ زين مرعي ثورته بالاستيلاء على سلاح الدركيين وراحلتيهما في قرية « اكروم » ، ثم قام مع عدد من أقربائه بمحاولة لتخريب الخط الحديدي في وادي خالد ، فاصطدم بالجنود الذين اقامتهم فرنسا لحراسة المحطة والجسر الذي يجانبها على طريق حمص – طرابلس ، ولكن هذا الحادث دل على تماديه في الثورة ، وأخذ يعمل علناً ، ويفرض الاتاوات على القرى المجاورة ، فمن أطاع سلم ، ومن عصى قام زين مرعي وجماعته الذين لا يزيد عددهم على ثلاثين مسلحاً بنهب مواشيه حتى يدفع الاتاوة لهم . وهناك أقارب لزين مرعي جعفر يسكنون قرية « الحميرة »، وزعيمهم عبد علي السعدون ، جعافرة شماليون ، غير جعافرة الجنوب قرب بعلبك ، لم يشتركوا في الثورة ، وكانوا على اتصال وتفاهم مع الحكومة الفرنسية ، ولكنهم في العصبية القبلية ينحازون الى ابن عمهم زين مرعي ، فيما اذا تجاوز عليه نصارى قرية « القبيات »، وينحاز هو اليهم فيما اذا تجاوز اهل القبيات عليهم . وكان لا بد لفرنسا ، في محنة الثورة عليها ، من ان تستغل عداء اهل القبيات الموارنة للمتاولة ، فأوفدت ضباطاً لبنانيين موارنة يدربون شبان القبيات على السلاح والقتال ، ووزعت عليهم الاسلحة ، وربما جعلت لهم رواتب لمناوأة زين مرعي جعفر الثائر عليها . ولما احتل الفرنسيون النبك ، وسيطروا على قلمون والجورة غادر نظير النشواتي واربعة من رفاقه الحمصيين الغوطة الى حمص ، واختفوا في حيهم من المدينة اياماً، بلغهم بعدها أنباء ثورة زين مرعي، فتسللوا ليلا من حمص ، ولحقوا بزين مرعي الذي أكرم وفادتهم ، وهم بدورهم قاموا بأتصالات بمدينتهم حمص ، فأخذ يزداد عددهم بمن انضم اليهم حتى أصبحوا عشرة ، اشتركوا في استقبالنا مع زين مرعي جعفر يوم وصولنا الى « اكروم » .

غزو مدينة حمص

-٧٦-

بعد وصولنا الى جبال اكروم درسنا مع الثائرين الحمصيين الذين سبقونا الى الجبال وضعنا ككتلة ثائرين غرباء عن المنطقة ، فتبين لنا انه لا بـــد ، لبقائنا ونجاحنا في المنطقة من ان نتدارك بأنفسنا وسائل عيشنا وتموينا وسلاحنا وذخيرتنا ، فلا نحمل زين مرعي جعفر وجماعته عبئنا، فهم كلهم رعاة فقراء ، قد يكون الفقر من الدوافع لثورتهم على فرنسا . وكان لا بد ، لتدارك لوازمنا ونجاح ثورتنا ، وتسليح العزل الذين رافقونا في رحلتنا من الاتصال بالوطنيين في مدن حمص وحماة وطرابلس ، ثم توزيع نشرات ثورية فيها وفي القرى ، ندعو فيها الشعب الى الثورة وحمل السلاح، وتحرير الوطن من ربقة المستعمر الغاصب. وشجع نظير النشواتي البارز بين الثائرين الحمصيين العشرة العقيد سعيد العاص على ارسال كتب خاصة بتوقيعه الى بعض اغنياء حمص يحثهم فيهـــا على التبرع بمبالغ من المال للثورة، فقد كنا في جبال اكروم بحاجة الى سلاح لرفاقنا العزل، والى عتاد وذخائر لاسلحتنا واسلحتهم ،والى خيام ننصبها لاقامتنا في الجبال، والى مؤن لطعامنا ، والى تبغ للمدخنين منا ، والى ملابس وأحذية لنا جميعاً . وتعهد النشواتي بإيصال الكتب لأصحابها واستيفاء المـــال ، وشراء اللوازم ، فقد عزم كعادته على السفر الى حمص مع بعض إخوانـــه ، اذ كانوا في كل شهر مرة ، يسلكون الطريق اليها ليلاً ، ويتسللون الى منازلهم ، يختفون فيها أياماً ، ثم يعودون الى « اكروم » ، فأخذ سعيد العاص يعد الرسائـل ، ويكتب نص النشرات التي يجب ان يتولى الشباب الوطنيون في المدن الثلاث طبعها وتوزيعها

سراً . واستعد النشواتي للسفر ، وكنا نأمل ، اذا ما تم لنا هذا ، ان ندعو ، بعده، زعماء المتاولة الى اجتماع نوضح لهم فيه أوضاع البلاد ، والثورة واهدافها، ونحثهم على القيام بواجبهم نحو وطنهم ،ثم نقوم بحركات ثورية تؤثر على الفرنسيين، وتشحذ من عزائم الأهلين ، كتعطيل سير القطارات ، ومهاجمة مخافر الجند . ولما عرف رفاقنا عزم النشواتي على السفر الى حمص طلب ستة منهم مرافقته الى جانب ثمانية من رفاقه ، فتوجهوا جميعاً عصر اليوم الاول من شهر ايار عام ١٩٢٦ الى حمص،بطريق قرية « تل النبي مند » وجسرها على العاصي . واذ حل بهم التعب من السير ، واكثرهم مشاة ، لجأوا الى طاحون على الضفة الشمالية لبحيرة حمص اسمها « طاحون السد » واتموا ليلتهم ، وقضوا نهارهم مختبئين فيها ، يساعدهم مستأجروها من الحمصيين . ومساء اليوم الثاني من ايار تابعوا سيرهم الى حمص ، ودخلوها ليلاً ، واختفوا في منزل احد الوطنيين في حي « باب دريب » ، حي نظير النشواتي وعدد من رفاقه . وفي اليوم الثالث من شهر ايار ارسل نظير النشواتي الكتب الى اصحابها مع رسل من أهل حيه الذين يطمئن اليهم ، ويتصل بهم . وما كاد يأتيه اول مبلغ من التبرعات حتى ارسل يشتري السمن والارز والتبغ والملابس والاحذية ، والذخائر بأنواعها .

وتسلل في الليل خمسة من افراد العصابة بقيادة حسين جراد من رفاق النشواتي لغزو الماخور في جانب قلعة حمص ، دون ان يعلموا نظير النشواتي بحركتهم ، وصادفوا في طريقهم اربعة من الجنود المغاربة العزل خارجين من زيارة الماخور، قبضوا عليهم،واستولوا منهم على مسدس ونقود وساعات كانت معهم ، واقترح البعض قتلهم ، ولكن عبد الله المغربي الثائر تعرف اليهم ، وقال انهم ابناء وطنه ، وطلب من رفاقه الثائرين ان لا يساء إليهم ، واظهر الجنود العرب عاطفتهم الصادقة نحو الثورة السورية ، واستعدادهم لتزويدها سراً بالسلاح والعتاد ، فيما اذا اعتمدت من قبلها من يتصل بهم من الاهلين الوطنيين ، فاعاد الثائرون للجنود المغاربة كل ما سلبوه منهم، ولقاء هذا الجميل ، دل الجنود

الثائرين الى منزل في الماخور ، كانوا رأوا فيه ضابطاً فرنسياً طياراً يجالس بغياً فيه ، ومعه مرافق جندي يحرسه ، ثم انطلقوا الى ثكنتهم في المدينة ،يكتمون ما رأوا وما فعلوا ، وتقدمت العصابة الى المنزل الذي فيه الضابط ، فوجدوا بابه مغلقاً ، عندئذ طرقوا الباب حتى فتح لهم ، ودخل ثلاثة منهم البيت ، ومكث اثنان على الباب يحرسانه . واحدث دخول الثلاثة مسلحين لغطاً وذعراً في المنزل المليء بالبغاياوالقوادات والخدموالزبائن، وزعقت واعولت بعضالبغايا، واطلق احد الخدم مسدسه فاصاب ثائراً اسمه عمر بكتفه، مما اضطر رفيقه لنقله الى خارج المنزل ، وعندئذ اقتحم عبد الحميد المرداوي وحسين جراد الدار يبحثان في غرفها عن مطلق الرصاص الذي جرح زميلهم ، وكان فر لحينه ، واختفى عن الانظار ، واندفع الجندي مرافق الضابط يطلق من مسدسه ايضاً الرصاص ، ويتحصن بالنافذة من غرفة آمره الضابط ، فقابلوه بالرصاص ، وهجموا عليه، فالقى بنفسه من احدى النوافذ الى الشارع ، ونجا بنفسه ،ولكن الضابط الطيار كان مخموراً لم يستطع الفرار ،فقتله الثائرون، وخرجوامنالدار، بعد ان اصابوا بعض الغنائم من الزبائن ، ولم يبتعدوا كثيراً عن الماخور حتى وصلت دوريات الشرطة والجيش اليه ، واخذت في اطلاق الرصاص ، ولكن افراد العصابة وصلوا إلى مكمنهم في حي « باب دريب » سالمين .

اضطرب الفرنسيون في حمص لمصرع ضابطهم الطيار ، وامتلأ جو المدينة في الصباح بالاشاعات عن وصول سعيد العاص وجيشه منالثائرين الى بساتين حمص، فوجه الفرنسيون قوة من جيشهم الى البساتين، تحلق فوقها الطائرات ، بحثاً عن الثائرين الذين قتلوا ضابطهم الطيار ، وانتشر جواسيسهم وعيونهم في المدينة ، يتلقون الاخبار عن العصابة التي قتلت الضابط في قلب مدينة حمص ، واحتفل الفرنسيون بجنازة القتيل ، وسار كل ضباطهم وراءها، ورأى نظير النشواتي ان عملية اخوانه كهربت جو المدينة على عصابته ، فاسرع يتم يوم الثلاثاء في الرابع من شهر مايس اعماله ، واستأجر جمالاً لحمل المؤن والعتاد ، اوعز اليه ان يغادر

المدينة قبل الغروب ، ويسلك من حمص طريق قرية « تل النبي مند » ، حتى لا يمنع في الليل من الخروج ، بسبب منع التجول الذي فرض على المدينة ، على ان ينتظر العصابة في مكان حدده له في الطريق . ولما انطلق النشواتي بعصابته من مكمنه في اول الليل ، سار بهم الى مخفر الشرطة في حي « باب السباع » ، ولما دنوا من المخفر راحوا يغنون ، ويترنحون كالسكارى حتى لا ينتبه رجال الشرطة الى انهم ثائرون ، وعندما اصبحوا امام المخفر باغتوا رجاله ، وكانوا اربعة فقط ، واستولوا على اسلحتهم ، وارغموهم على مرافقتهم ، وصادفوا في الطريق دورية مؤلفة من اربعة شرطيين هم بقية مرتب المخفر ،قبضوا عليهم ، واخذوا اسلحتهم ايضاً ، وساقوا الجميع معهم الى خارج المدينة حيث توسل هؤلاء الشرطة الى نظير النشواتي فاطلق سراحهم ، واعادهم الى المدينة ، ولكنه اضاع من الليل حوالي اربع ساعات في حركته هذه ، اخذ بعدها يغذ مع اخوانه السير الى اكروم بطريق تمر شرقي بحيرة حمص ، والمسافة الى اكروم اكثر من اربعين كيلومتراً ، اكثرها في السهل ، يحتاج اجتيازها ، بسير الجمل الذي يحمل المؤن والسلاح الى اكثر من ثماني ساعات . ولما اشرقت شمس الخامس من شهر مارس عليهم ، كانوا يسيرون في الطريق شرقي البحيرة ، في وسط السهل ، وبينهم وبين الجبال مسافة بعيدة ، وصادفوا نزلاً للاعراب ، وقد اضناهم العمل والسير ساعات الليل كلها ، فلجأوا اليه للراحة ، وهناك اختلفوا ،فمنهم من اقترح البقاء عند الأعراب ساعات النهار كلها ، تجنباً للطائرات الفرنسية ، فعارض آخرون بان هذا لا ينجيهم من مطاردة القوات الفرنسية بالسيارات ، خاصة بعد ان عرف الفرنسيون عددهم ، ووجهة سيرهم من رجال الشرطة الذين اطلق نظير النشواتي سراحهم . واقترح البعض الاستمرار بالسير فحذرهم رفاقهم من الطائرات التي قد تلحق بهم ، وتكشفهم في الطريق ، وتلحق بهم القوات الفرنسية ، وتقصفهم الطائرات في السهل . واخيراً اقترح الثائر عقل الدندشي من شبان تلكلخ ان تسلك العصابة طريقاً غربي البحيرة ، في وعرة حمص ، لا تستطيع السيارات ان تسلكها ، وان يتجنبوا فيها دخول القرى ، والمرور بها ، لأن اهلها من النصيرية المعادين

للثورة ، بسبب اعمال كان ارتكبها النفوري وسوسق ضد قرية علوية في اطراف حمص ، استغلها الفرنسيون وزعماؤهم في حينها ، وقدر افراد العصابة هذه الطريق أضمن لوصولهم الى اكروم ، فقبلوا الاقتراح ، وعادوا ادراجهم الى سد البحيرة على مقربة من حمص ، اجتازوه الى الغرب ، وبدأوا طريقهم الجديدة غربي البحيرة ، ، وهي طريق وعرة ، حتى أصبحوا على مقربة من قرية «خربة غازي» ، وهي قرية نصيرية ملك لآ ل أدريس في حمص ، اعترض سبيلهم مستنقع ، لا بد لهم من اجتيازه ، تنفيذاً لخطتهم بعدم المرور بالقرى ، واهلها علويون مسلحون ، زعماؤهم كما قلنا ، موالون للفرنسيين .

التحرش والغدر بالعصابة

- ١٣ -

اوعز نظير النشواتي للجمال بأن يتابع سيره بطريق القرية ، ورافقه بأثنين من المسلحين لحراسة الجمل وما يحمل من سلاح ومؤن ، لأن خف البعير ينزلق في وحول المستنقع ، ويخشى وقوعه وكسر ذراعه أو ساقه ، وشمر المشاة ، وخاضوا المستنقع حتى اجتازوه مع الخيالة منهم . وكان مجموع افراد العصابة ستة عشر مسلحاً ، خمسة منهم فرسان ، لاحظوا بعد اجتياز المستنقع تجمهر أهل القرية حول الجمل والجمال ورفيقيهم ، عندما وصلوا الى جدران القرية ، وسمعوا ضجة وصراخاً ، فأدركوا ان بنادق الشرطه على الجمل ، وما عليه من مؤن اغرت مسلحي القرية ، فاعترضوا سبيل اخوانهم . وكان لا بد من عمل شيء لانقاذ الموقف ، فأخذ نظير النشواتي يطلق من مكانه الرصاص عالياً فوق رؤوس المتجمهرين ، لعلهم يكفون عن تجمعهم حول رفاقه ، وابتدأت المعركة بين العصابة وبين الفلاحين المسلحين ، وكانت قرى العلويين منتشرة على مدى

وعرة حمص وسلسلة الجبال غربيها، وكلها مسلحة بإيعاز من الفرنسيين وتشجيع زعمائها ، للوقوف في وجه الثورة ، منذ ارتكب زعماء قلمون الثائرة جريمة العدوان على احدى قرى العلويين قريباً من حمص ، في احدى غزواتهم من أجل السلب والنهب .

كان المتفق عليه بينهم ان يهبوا لنجدة بعضهم بعضاً اذا ما سمعوا اكثر من خمس طلقات رصاص صادرة من أي مكان في منطقتهم ، فسارع مسلحو القرى القريبة ، ثم الابعد الى نجدة قرية « خربة غازي » ، بعد ان تأكد لهم نشوب معركة في اراضيها ، وكثر صوت الرصاص الصادر من جهتها ، وادرك نظير النشواتي ان موقف عصابته اصبح خطيراً ، فهو ابن حمص ، ويعرف كثرة القرى العلوية ، ويعرف انها سلحت لمقاومة الثورة ، فأعطى فرسه الى احد افراد العصابة ، واسمه « عبده » وأخذ منه بندقيته حتى لا يعرف انه ثائر ، وطلب منه ان يعود ادراجه من الطريق التي سلكوها الى سد البحيرة ، ثم ينتقل منه الى الطريق شرقي البحيرة، ويطلق للفرس العنان حتى يبلغ اكروم ، ويعلم زين مرعي واخوانه الثائرين بالأمر ليهبوا الى نجدته ، وقال له : « ان معنا من العتاد ما نقاتل به من مواقعنا النهار كله ، فلا يثني مرور الوقت ، او بعد المسافة اخواننا عن نجدتنا ، فسنقاتل هنا حتى نموت، اذا لم يدركونا !..» وقفز عبده الى صهوة «الخرساء» ، وهي فرس كريم معروفة في ديار حمص بأصلها العربي ، واندفع بها في المستنقع يجتازه ، وركض عدد من الفلاحين في القرية للحؤول دون مروره ، وهاجمه النسوة بالعصي والاعمدة ، يحاولن منعه ، ورميه عن صهوة فرسه ، واطلق عليه المسلحون الرصاص ، ولكنه نجا منهم ، وغاب عن العيون والانظار ،وتخلص من المنطقة الوعرة التي كان يصعب عليه سلوك طريقها الى اكروم ، لوعورتها ، ولكثرة العلويين المسلحين المبادرين لنجدة إخوانهم من القرى الاخرى .

احتدمت المعركة بين عصابة النشواتي وبين المسلحين العلويين الذين اخذوا يحيطون بها من جميع اطرافها ، ولكنها صمدت في معاقلهـا ، ونازلت قوات تفوقها عشرات الاضعاف ، وادرك المنحرفون عن طريق حب وطنهم انهم لا يستطيعون القضاء على عصابة المجاهدين ، دون ان تصرع منهم العشرات ، وربما المئات ، فلجأوا الى الخديعة والمكر والغدر ، ووجهوا وفداً من النسوةوالشيوخ الطاعنين بالسن ، يلوحون بالمناديل البيضاء ، حتى اذا دنوا من نظير النشواتي ، تضرعوا وبكوا ، وقالوا ان الحادث نجم عن سوء التفاهم ، واعتذروا عما بدر من الجهلة شبان قريتهم الذين تورطوا وجهلوا ان الجمل وما يحمل ومن معه لنظير النشواتي ، وسألوه : « هل اصيب احد منكم في المعركة ؟ » ، ولما قيل لهم «لا !»، تظاهروا بالفرح ، وقالوا : « لم يصب والحمد لله احد منا ايضاً ! » فلنكفر عن غلطتنا أذن !.. فنحن اهل ، ونحن اخوان ، ونظير النشواتي المجاهد مفخرتنا ، فتفضلوا الى القرية ، فهي قريتكم وبيوتها منازلكم ! واهلها اهلكم ! .. » ، فقال لهم نظير :«لا نريد قريتكم، ولا منازلكم ، ولا ضيافتكم!.. وما دام لم يصب احد منا ولا منكم فارسلوا لنا جماعتنا ، كي نسير في طريقنا ، وننسى كل ما حدث !.. »، واصر الفلاحون على دعوة العصابة الى القرية ، واعتذروا بان الجهلة من شبان القرية قتلوا الجمل منذ بدء المعركة ، ولا بد من وقت لتدارك جمل أو دابة غيره تحمل الحمل، فاصر النشواتي على عدم دخول القرية ، وطلب تدارك الدابة وارسال الحمل اليه مع الرفيقين المسلحين والجمال ، وانه ينتظر في مكانه حتى يتم ذلك كله ، وهو يشكر الفلاحين على دعوتهم واريحيتهم !.. وعاد الفلاحون الى الرجاء ، والقول ان الاخوة تقضي بان يكون بين الجانبين خبز وملح ، واصروا على الدعوة ، وانه لا يزيل اثر ما حدث إلا زيارة نظير واخوانه قريتهم . وازاء اصرار النشواتي على الرفض تدخل حسين جراد من البارزين في العصابة ، وقال لنظير : « ان القوم عاهدوا بالله ومحمد وعلي ، وقالوا انهم مسلمون لا يمكن ان يكونوا عوناً للكافرين علينا ، وانهم اخواننا في الوطن ، وانا أعرف هؤلاء الفلاحين، وعشت بينهم يوم كنت وكيلا

لمالكي القرية من آل ادريس ، وهم فلاحون طيبون ، فتفضل يا نظير ! واقبل ضيافتهم ودعوتهم ، وهم اخواننا وجيراننا ، ومواطنـون قبل كل شيء ! » ، فخجل نظير النشواتي امام كلمات رفيقه في السلاح ، وضراعة الفلاحين ، وخدع وقبل الدعوة ،وسار مع عصابته الى القرية ، واستقبله الفلاحون احسن استقبال ، الا ثلاثة من افراد عصابته لم يطمئنوا الى كل ما قاله الفلاحون العلويون ، ولبثوا في معاقلهم ، حتى اذا ابتعد اخوانهم مع الفلاحين ، انتقلوا منها زحفاً الى زروع القمح القريبة منهم ، حيث اختفوا عن العيون الى الليل ، ثم تسللوا في ظلمته عائدين الى حمص ، واختفوا في منازلهم ، او منـــازل اصدقائهم حتى سنحت لهم الفرصة ، وقيضت لهم وسيلة الالتحاق بنا في اكروم . امـــا نظير وسائر رفاقه ، فكانوا كلما تقدموا خرج لهـــم مسلحون علويون من بين الصخور ، وانضموا الى الموكب . ولما دخلوا القرية اصبح حولهـــم حشد من المسلحين طوقوهم ، وامسكوا ببنادقهم ، وقبضوا عليهم ، وانتزعوا منهم اسلحتهم بين زغاريد نساء القرية ، وزجوا في غرفة تحت الحراسة المسلحـة ، وارسل زعماء القرية رسلاً من قبلهم الى محطة « خربة التين » القريبة ، يعلمون السلطة في حمص ان عصابة نظير النشواتي مع رئيسها في قبضة يدهم ، فلترسل قوة من الجند تتسلمهم كلهم .

وأسرعت السلطة الفرنسية ، فوجهت اولاً اسماعيل محمود قائد درك حمص مـع قوة من جنوده بالسيارات الى « خربة غازي » ووجهت وراءهم سرية من الفرسان الصباحيين ، ومعهم القومندان « مترو » ضابط المصالح الخاصة في حمص ، والذي سبق له الاجهاز على الجريح فؤاد رسلان في قارة ، فوصل قائد الدرك ، وتسلم ضحايا الخيانة من فلاحي خربة غازي ، وهم : « نظير النشواتي ، وحسين جراد ، وسعيد الشهلا ، وعبد الكريم عاص ، ومحمد علي الدروبي ، ومحمد الاخرس ، ومرعي التركاوي جميعهم من حمص ، وعلاء الدين الكيلاني من حمـاة ، وعقل الدندشي من تلكلخ ، وعبد الحميد المرداوي من قرية بيت مرين في قضاء نابلس

(فلسطين) ، وحسين النابلسي من نابلس ، والحاج عبدالله المغربي من الجزائر ، وكان هو والمرداوي فرا من الجيش الفرنسي والتحقا بالثورة السورية . اما الجمال فقد اخفاه الفلاحون في القرية لقاء دراهم كانت معه دفعها لهم ، وكيلا تعرف السلطة بالغنيمة التي غنموها من جراء قتل جمله . وقد امر اسماعيل محمود قائد الدرك بوضع الاغلال بيد المجاهدين ، فصاح به نظير النشواتي : « لو كنت انت وجنودك قبضتم علينا لجاز لكم ان تغلوا ايدينا كما تشاؤون ، ولكنكم لم تقبضوا علينا بشجاعتكم ، ولا هؤلاء الخونة الانذال ! وانما خدعونا .. ودعونا الى قريتهم للطعام ، ثم غدروا بنا ، واخذوا سلاحنا ! . والآن سلمنا بنادقنا ، وتعال انت وجنودك وكل مسلحي هذه القرى معكم ، فإن استطعت ان تقبض علينا حتى لك ان تفعل بنا ماتشاء ! » ، عندئذ سمح قائد درك حمص لنظير النشواتي وحده بان يسير بلا أغلال بين الجنود حتى اقبلوا على طريق السيارات حيث يرابط الجنود الصباحيون ، وقبل ان يضعوا القيد في يديه اخرج النشواتي محفظة نقوده من جيبه ، وقال للدرك: من منكم يوصل هذه الامانه الى اهلي ؟.. انها محفظة فيها مئة وكذا ليرة ذهبية ! .. فتناولها قائد الدرك من يده وقال له : « اعتمد علي فساوصلها لاهلك ! » ، ولكنه لم يوصلها الا بعد بضع عشرة سنة ، وبعد ان عاد نظير النشواتي من التشريد ، وكان العهد وطنياً في الحكم ، وكان اسماعيل محمود احيل الى التقاعد ، فارسل نظير النشواتي يطالبه بالمبلغ ، والا قاضاه امام المراجع المختصة ، فرد اليه المبلغ الذي اختلسه منه ، تحت ستار تسليمه لاسرته ! ..

- ٧٨ -

سار الفرنسيون ،بالعصابة الى محطة « خربة التين »،وبعد مكالمة بالهاتف بين فوزي الملكي متصرف حمص ، وبين القومندان « مترو » المستشار الفرنسي ، قرأ له هذا خلالها اسماء افراد العصابة ، عرف منهم المتصرف اربعة من حمص ، واقترح المستشار قتلهم فوراً ، وعدم نقلهم الى حمص ، والادعاء انهم قتلوا في معركة نشبت بين العصابة والجيش الفرنسي ، لان لهم شعبية كبيرة في المدينة ، ومنذ شاع نبأ اعتقالهم ، تجمهر الالوف من ابناء الشعب في جهة المحطة وعلى طريق السيارات الى طرابلس ليروا باعينهم نقلهم الى المدينة ، ويخشى ان تهاجم الجماهير القوة التي تنقلهم ، وان ينقلب الوضع في المدينة الى ثورة محلية لانقاذهم من ايدي الجنود . اما البقية فيمكن ارجاء اعدامهم حتى تعرف هوياتهم ، وتقوم السلطة باجراء التحقيق معهم ، شريطة ان ينقلوا الى حمص في الليل ، وبعد التأكد من انفضاض الجماهير ، وعودتها الى منازلها . اثر هذه المكالمة اصطف الجنود على طريق السيارات الى طرابلس ، بعد ان اوقفوا السير من جهتي حمص ـ طرابلس ، وجيء بالمعتقلين ، مغلولي الايدي الى ظهورهم ، وتقدم القومندان مترو ،وبيده ورقة وقرأ فيها اسماء نظير النشواتي،وحسين جراد ، وسعيد الشهلا ، وعقل الدندشي ، وامرهم ان يتقدموا بضع خطوات عن اخوانهم ، وان يصطفوا على قارعة الطريق ، وجاء من ورائهم ، وركل بقدمه نظير النشواتي من قفاه ، فاندفع الى الامام ، وصوب المسدس الى نقرته ، واطلق عليه رصاصتين سقط بعدهما مضرجاً بدمه . وفعل بالثلاثة

الآخرين مثلما فعل بالنشواتي ، ثم اعاد الكرة فأطلق رصاصة واحدة في رأس كل واحد منهم ، وهى ما تسمى « طلقة الرحمة ! » . للاجهاز على المحتضرين منهم ، ثم أمر الجنود بأن يبعدوا جثث القتلى عن طريق السيارات ، فجروهم من ارجلهم ، ورموهم على كثيب من الحجارة الى جانب الطريق ، وكان الليل بدأ يرخي سدوله على المكان الكئيب ، ونقل سائر المعتقلين الى المحطة ، وراح ينتظر الوقت المناسب ، والاشارة من المتصرف لنقلهم الى حمص . ولما ابلغ المستشار المتصرف نبأ قتل المجاهدين الاربعة ، سار دلالون يعلنون في المدينة ان بلاغاً رسمياً صدر عن قيادة الجيش يقول ان معركه نشبت بين الجيش الفرنسي وبين عصابة نظير النشواتي قرب محطة خربة التين اسفرت عن مصرع النشواتي ، وحسين جراد ، وسعيد الشهلا ، وعقل الدندشى من المتمردين ، فعلى أهل القتلى ان يراجعوا قيادة الجيش في محطة خربة التين لتسلم جثث ابنائهم . » ، وعلق البلاغ الرسمي على الجدران ، فانكفأ اهل حمص الى منازلهم ، وكأن على رؤوسهم الطير من هول الخبر ، وارسل اهل الشهداء سيارة في الليل لنقل الجثث الى حمص .

الحي ليس له قاتل !

ومن غريب الأحداث ان نظير النشواتي لما حاول القومندان مترو قتله من الخلف ، دون ان يدري هو بمصيره ، سمع رفيقه حسين جراد يقول للمستشار: « شلت يدك .. اقتلني قبله ! .. » فادرك انه مقتول لا محالة والتفت بحكم الغريزة الى الخلف ، فجاءت طلقة المسدس الأول في صدغه قرب اذنه اليمنى ، ونفذت من وراء اذنه دون ان تمس الدماغ ، واصابت الثانية قبة ردائه ، ولم تصب جسمه ، فسقط بفعل الرصاصة الاولى منكفئاً على وجهه . ولما عاد المستشار يطلق رصاصات الرحمة للأربعة ، وهو يحسب انه أصاب رأس النشواتي برصاصتين ، اطلق رصاصة الرحمة ، والله أراد لها ان لا تصيب مقتلاً من نظير ، فتحركت انملته ، وهي تضغط على زناد المسدس ، وانطلقت الرصاصة منخفضة قليلاً عن

النقرة ، فأصابت عنقه من الخلف ، ونفذت من جانب عظم الترقوة اليمنى ، فغاب صواب النشواتي هذه المرة ، ولم يصح من اغمائه الا ووجهه يجر على رمل الطريق ، وألم شديد يحزبه ، فأغمض عينيه ، وتظاهر بالموت ، حتى سمع حوافر الجياد تبتعد عن المكان باتجاه المحطة ، ففتح عينيه ، وكان ملقى على ظهره فوق كومة الحجارة ، فوقعت عيناه ، في غبشة الغروب ، على عيني خيال مغربي من الصباحيين ، كان يتأمل الشهداء وهم يلفظون آخر أنفاسهم ، فلكز المغربي حصانه ، ولحق بالسرية في المحطة ، وقد روّعته رهبة الموت ، ونظرة المحتضر اليه.. عندئذ خطر لنظير ، وقد خلا المكان من الجند ، ان يجرب بنفسه النهوض ، فجلس ، ونظر الى رفاقه الثلاثة ، وبعضهم ، في لحظاته الأخيرة ، يصدر عنه شخير ، وناداهم بأسمائهم واحداً واحداً ، ولما لم يجبه أحد منهم ، عرف انهم انتقلوا الى عالم الغيب والشهادة ، فنهض على قدميه وراح يركض في ظلام الليل ، مبتعداً عن طريق السيارات ، يحمل جراحه ووثاق يديه ، متجهاً نحو حمص ، حتى بلغ قرية في الطريق يعرفها ، ويطمئن الى اهلها ، فطرق بقدمه اول باب صادفه ، وطلب من صاحب البيت ان يقطع له وثاقه ، ففعل ، وسقاه ماء ، ثم تابع نظير النشواتي سيره الى حمص ، وتوجه تواً الى منزل حلاق مسيحي في المدينة يعرفه من قبل ، ويعرف انه يتعاطى التطبيب ، ويطمئن الى وفائه ، فبادر هذا فوراً الى غسل جراحه وتضميدها ، وآواه في منزله .

وصلت إلى محطة خربة التين سيارة من حمص تحمل بعض آل الشهداء لتسلم الجثث الاربع ، فرافقها بعض الجنود الى المكان الذي ألقيت فيه الجثث ، وهناك وجدوها ثلاثاً ، سلمت الى من في السيارة الذين تميزوا الوجوه ، فلم يجدوا جثة نظير النشواتي بين الجثث ، وعاد الجنود مع أهل الشهداء إلى المحطة يقولون للقومندان « مترو » ان جثة نظير النشواتي مفقودة ، فخرج بنفسه الى المكان ، ولما لم يجد الجثة عاد ليقول لمن في السيارة ، وهو يضع السوط الذي بيده على المنصة : « اذا نهض هذا السوط بمفرده ، ومن نفسه ، وسار على المنصة يمكن

أن ينهض نظير النشواتي ويسير على الارض ! » ، ثم أضاف : « قد يكون من قبلكم أحد الفلاحين الذين يسمعون باسم نظير ، او يعرفونه ، وحمل الجثة على حماره ، وذهب بها الى اهـل نظير في حمص باعتباره رئيس العصابة ، لذلك اطمئنوا .. وعودوا الى حمص ، ستجدون الجثة سبقتكم ، أو انها في الطريق الى بيت نظير ! .. » ، وصدق الله العظيم في قوله : « ومـا رميت اذ رميت ولكن الله رمى ! » ، وشاء أن يشفى نظير من جراحه ، وشاء ان يعيش بعد هذا الحادث بضع عشرة سنة أخرى ، وان يكون حادث رميـه بالرصاص ونجاته من الموت أعجوبة يتحدث بها الناس ، وتثبت أن الحي ليس له قاتـل ، وان ارادة الله فوق كل ارادة .

وصلت الجثث الثلاث الى حمص ، وتسلمها اهلها ، وأقام آل النشواتي مأتم ابنهم ، دون ان يجدوا جثته ، فقد اسماه البلاغ الحربي الرسمي باسمه ، ودل على انه رئيس العصابة ، واكد القومندان مترو موته ، وان جثته كانت بين الجثث ، ولكن في ساعة متأخرة من الليل ، وبعـد ان انفض المعزون ، جاءهم رسول يهمس في اذن اخيه ، ويؤكد له ان نظير حي ، وانه وصل الى حمص ، وانه في حرز حريز ، وان جراحه غير خطرة ، ولكن عليهم ان يتظاهروا بالحزن ، ويستمروا بمراسم المأتم ، وان يتباكوا عليه حتى لا يعرف الفرنسيون أمره ، ويسعوا للقضاء عليه . وقد امتلأ جو حمص بالاشاعات ، اثر اختفاء جثة نظير النشواتي رئيس العصابة من بين الجثث الأربـع التي أتى البلاغ الرسمي على ذكر أسماء أصحابها ومصرعهم ، ولم يصدق أحد تأويل المستشار لاختفاء الجثة ، بل قالوا ان الفرنسيين نقلوها الى باريس ، دون غيرها ، باعتباره رئيس العصابة ، بعد ان حنطوها ليعرضوها على شعبهم كنصر على الثورة السورية ! .. وقيـل أيضاً أنه يحمل حجاباً مكتوباً ضد الرصاص ، فلم يؤثر رصاص الفرنسيين في جسمه وانزلق عليه ، وطاش ، وبعد ان حسبوا انه مات ، قام يمشي على قدميه لينضم الى جماعته في جبال اكروم !

أما الثمانية بقية المجاهدين المعتقلين ، فقد نقلهم الفرنسيون احياء بالسيارات الى حمص ، في هدأة الليل ، وبعـــد ان انكفأ الاهلون الى منازلهم . وشاع خبر قتلهم ايضاً ، دون ان يعرف أحد اسماءهم ، وسجنوا في ثكنة عسكرية خاصة بالجنود العرب المغاربة ، ليعتبروا بمصيرهم ، فـــلا يفكر أحد منهم بالفرار من الجيش الفرنسي ، والالتحاق بالثورة السورية ، بعد ان كثر فرار بعضهم من الجيش ، واوثقوهم بالاضافـــة الى ايديهم الموثقة الى الخلف ، وثاقاً جديداً ،إذ حزموا كل اثنين وجهاً لوجه بحبال شدت أرجلهم ، وأجسادهم إلى بعضها بعضاً ، بعـــد أن أوهنوهم بالضرب والتعذيب بالعصي والسياط والرفس بالارجـــل ، واللكم بالايدي . وجـــاء الضباط الفرنسيون بنسائهم وصويحباتهم مـــن العاهرات إلى الثكنة ، يعرضون عليهن نماذج من الثائـــرين المتوحشين ! « بدوان » ، فكن يتضاحكن مسرورات مـــن مشهدهم الذي يفتت القلوب التي قدت من صخر . وعبث الضباط بأطراف عصيهم بعورات المعتقلين أمامهن ، وتركوهم بـــلا طعام ولا ماء ، إذا صاح احـــدهم يشكو الظمأ .. أرسلوا احد الجنود ليبول في فمه ووجهه .

في اليوم السادس من شهر ايار عام ١٩٢٦ ، أي في يوم الذكرى العاشرة لشهداء السادس من ايار عام ١٩١٦ ، نقـــل هؤلاء الابطال واحداً واحداً إلى غرفة التعذيب والتحقيق في الثكنة ، وسجلت هوياتهم ، وحقق معهم عـــن التحاقهم بالثورة ، وأدوارهم واعمالهم فيها ، واسماء من عمل معهم من الثائرين، وعن سعيد العاص وقوته في اكروم ، عددهم وسلاحهم واسمائهم ، ولماذا جاءوا الى اكروم ، ومـــا هي خططهم ، وأين يقيمون بالضبط من الجبال ، ومـــن هم عصابة زين مرعي جعفر. وكان أثبتهم جناناً علاءالدين الكيلاني ،وهو من آل فضل الله الكيلاني في حماة ، مثقف ، ومن خريجي دار المعلمين في دمشق ، فقد جابههم برباطة جأش نادرة عن اشتراكه بالثورة ،وعن أهداف الثورة السورية ، وانها ترمي الى تحرير الوطن السوري من استعمارهم البشع ، وبالغ في التحدث عن تنظيماتها ، وعدد رجالها وقادتها واسلحتها وبطولات المجاهدين ، وقال لهم :

« اننا نعرف ان مصيرنا القتل بأيديكم ، بعد أن غدر بنا أبناء وطننا الذين لولاهم لكلفكم قتلنا العشرات ، وربما المئات من جنودكم وضباطكم ، تزجونهم الى قتالنا .. ان بين ايديكم الآن من هم كانوا في عداد العشرين بطلاً الذين أوقفوا حملتكم ساعات في موقع « عيون العلق » ، وهي تعد بالالوف ، وتضج بالاسلحة ، وكبدوها ما كبدوها من الخسائر التي أنتم أدرى مني بها ! .. » ، فكان جوابهم الانهيال عليه بالضرب ، وامر جنودهم بضربه بالسياط وبكعاب البنادق ، واحزمة الجلد ، حتى تمزق لحمه ، وسالت الدماء من جراح رأسه وغطت وجهه. واعيد المعتقلون ، بعد التحقيق والتعذيب إلى سجنهم ، يعذبون فيه الوان العذاب ، وعند الاصيل اخرج الحاج عبد الله المغربي وعبد الحميد المرداوي (النابلسي) الى باحة الثكنة ، واعلن للجنود حامية الثكنة ، وهم صفوف منتظمة ، ان الثائرين هما من الجيش الفرنسي ، كانا فيه جنديين ، خانا واجبهما ، والتحقا بالعصاة المتوحشين ، وتلي القرار بإعدامهما رمياً بالرصاص ، ثم أعيدا الى سجنهما .

اقتلني إن كنت صديقي !

- ٧٩ -

لقد بلغ التعذيب من الوحشية حداً ان محمد علي الدروبي الذي قرن مع مرعي التركاوي بوثاق واحد ، ان قال لصاحبه : « اتحبني يا مرعي ؟ وهل انت حقاً اخي في السلاح ؟ » فأجابه مرعي : « أفديك ، ان استطعت ، بروحي ! فكيف تشك بصدق ودي ومحبتي ؟» قال الدروبي : «اذا كنت تحبني حقاً كأخ ورفيق في الجهاد ، فانقذني مما انا فيه ! من هذا العذاب الذي لا يطاق ولا يحتمل .. انقذني بالتعجيل بموتي !» قال التركاوي : «وكيف استطيع

ذلك ، وانا موثق اليدين والرجلين والجسم مثلك ؟ » ، قـــال : « ان وجهك يقابل وجهي ، وباستطاعتك أن تعض بأسنانك على حنجرتي ، عضة شديدة ، تقتلني ، وتنقذني من هذا العذاب ! .. » ، ورأى التركاوي ما ارتسم على وجه صديقه من صور العذاب الشديد ، وهو يشاطره إياه ، ورأى صدق لهجتـه في تمني الموت وطلبه ، وكان صديقاً عزيزاً على قلبه ، فأراد فعـلاً ان ينقذه مـــن العذاب ، وحاول عض حنجرة صديقه ، ولكنه لم يقو على قتله ، ولم تطاوعـه نفسه ، فبكى .. واعتذر .. وقـــال له : « لنمت على الايمان .. فساعاتنـــا معدودة ! » ، وتحمل الابطال التعذيب إلى الليل ، إذ دخـــل عليهم عدد من الجند ، يحملون أرغفة من الخبز جافة ، أخذوا يقسمونها ويقطعونها لقمات كبيرة ، ويحشونها في أفواه المعتقلين الذين كانت حلوقهم جافة من العطش ، لا يسيل لها لعاب ، فلم يستطيعوا ابتلاع لقمة من الخبز ، وأخـــذ الجنود يرغمونهم بإدخال العصي بافواههم ، والضغط على الخبز بايديهم ، لابتـــلاع اللقمات ، لان اسيادهم قرروا إعدام المعتقلين ، وقانونهم ، يقول بعدم إعدام السجين جائعاً ، فكانت تمثيلية حشو الافواه بالخبز الجاف ، وكانت عذاباً لا يضارعه العذاب الذي نزل بهم من قبـــل .. ثم حلوا الوثاق الذي يقرن المعتقل برفيقه ، وربطوا ساقيها بوثاق ، وجروهم اثنين اثنين الى السيارات في باحة الثكنة حيث ركب جنديان بسلاحيها مع كل اثنين من المعتقلين في سيارة عسكرية صغيرة ، وانطلقت السيارات الاربع تتقدمها سيارة الضابط المكلف بتنفيذ عمليـــة القتل ، دون محاكمة ، تسير رتـــلا الى طريق دمشق ، وأحكام منع التجول مـــا زالت سارية في المدينة .

جندي عربي يفدي ثائرين بروحه !

وكان الحاج عبدالله المغربي وعبد الحميد المرداوي كجنديين فارين من الجيش مقرونين بوثاق واحد من ساقيها ، فشعرا في الظلام ، والسيارة تنطلق بهما ،

ان يد حارس من حارسيهما تقطع وثاقهما بخفة ، وتحرر ساقيهما منه ، وتزيل الكم من فمهما ، وصوتاً يهمس في أذنيهما ، ويؤكد لهما انهما مسوقان مع رفاقهما إلى القتـــل ، وان يهربا عند توقف السيارة في أي مكان . ولم يطل انطـــلاق السيارات إلى خارج المدينة حيث توقفت في جنوبيها على طريق دمشق ، ونزل الجنود يجرون المعتقلين من السيارات ، لقتلهم ، وقفز عبدالله المغربي مـن الباب الايسر ، وقفز المرداوي من الباب الايمن ، وانطلق كل واحد منهما مندفعاً في وجهته ، مبتعداً عن بؤرة الموت ، يركض ، ما استطاع بوثاق يديه ، الركض، وجهة الاول الشرق ، ووجهة الثاني الغرب ، وشعر الجنود ، بعد حين ، ان ستة فقط بـــين ايديهم ، وان اثنين منهم يركضان في الظلام مبتعدين عنهم ، فصوبوا نحوهما بنادقهم ، ورموهما بوابل من الرصاص ، دون ان يجرؤ احد على اللحاق بهما ، مما يـــدل على مبلغ الخوف الذي كان يساورهم ، ثم انقلبوا الى المعتقلين الستة بـــين ايديهم ، يردونهم بالرصاص ، ويلقون بجثثهم الى جـانب الطريق ، وركبوا سياراتهم ، وعادوا بها مسرعـــين إلى ثكنتهم في حمص ، ينقصهم الجندي العربي من المغرب الذي قطع وثاق المرداوي وصاحبه ، فقـد فر من حضيرته ضارباً في الخلاء ، منذ اللحظة التي هبط فيها مـــن السيارة ، ورأى قفز اسيريه من اليمين والشمال ، مقدراً انه سيقبض عليه ، ويعدم لتسهيله فرار الثائرين . ولما وصل إلى المدينة من احد مداخلها الاخرى، متجنباً طريق السيارات ، ومعه بندقيته ، راح يضرب في شوارعها الخاليـة من المارة ، على غير هدى ، يريد أن يصادف إنساناً ، من غير الجيش ، ليلجأ اليه ، لعله يسهل أمر اخفائه ، والتحاقـه بالثورة ، وهو يعرف ان الثائرين غير بعيدين عـــن حمص ! . وقصة هذا الجندي العربي البطل ، تلزمنا بأن نرجع إلى حادث مهاجمة خمسة من الثائرين الماخور في حمص لقتل من يجدون فيه من الضباط الفرنسيين ، فقد كان هو احد الجنود الاربعة المغاربة الذين كانوا خارجين من الماخور، وقبض عليهم الثائرون على مقربة منه ، وسلبوا منهم اشياءهم ، ثم ردوها اليهم ، بعـد ان شفع لهم الحاج عبدالله المغربي ، وقال انهم من الجزائر وطني ، وهم عرب

مسلمون ، وقلوبهم مع الثورة ، ورجا ألا يلحق احد بهم أذى ، واخلي سبيلهم.
ولما قبض على عصابة النشواتي ، وجيء بمعظم أفرادها الى الثكنة التي يقيم فيها هذا الجندي ، وسمع حكم الموت الصادر على مواطنه الذي أنقذه مــن أيدي الثائرين ، قرر أن يعمل بسرعة ، لإنقاذه من الموت ، مهما كلفه ذلك ، وسعى لدى العريف المغربي ، أي ضابط الصف الذي طلب منه الضابط الفرنسي تأليف الحضيرة ، لنقل المعتقلين وقتلهم في العراء ، ورجاه ان يكون في عداد الحضيرة ليشفي غليله من العصاة الذين قبضوا عليه قرب الماخور ، وسلبوا مــا معه ، وحاولوا قتله ، وقتل رفاقه ، فصدقه العريف ، وأدخله في عداد جنود الحضيرة المكلفة بمهمة قتل المعتقلين . استطاع هذا الجندي أن يكون مع زميل آخر في السيارة التي تقل عبد الله المغربي ورفيقه المرداوي ، حيث اعمــل في الظلام سكينه حتى قطع وثاق الساقين ، دون ان يشعر زميــله ، وأدى المهمة على أحسن وجه ، ومكن الثائرين من الهرب ، واطلق ساقيه ، في اتجاه المدينة ، للريح ، متستراً بالظلام ، ثم راح يسير في الازقة على غير هدى لعله يجد مــن يدله إلى أرض الثورة ، ومواقع الثائرين . ولكن سوء طالعــه أوصله الى حارس ليلي ، لم يصادف غيره في الازقــة الخالية ، فدنا منه ، واخذ يحدثــه بلهجته الجزائرية التي لم يفهم الحارس اكثرها ، عن الثورة والثائرين ، وانه يود ان يعرف من يهديه اليهم ، ويوصله ليقاتل معهم أعداء وطنه الفرنسيين ، فحسب الحارس الليلي ان الجندي ثمل أضاع الطريــق إلى ثكنته في الليل ، واخــذ يتغلغل في الأزقة ، فقاده الى مخفر الشرطة ، الذي سرعان مــا اتصل رئيسه بالدرك الفرنسي ، وابلغهم خبر الجندي ، فحضر من تسلمه من المخفر ، وقاده إلى ثكنته حيث حكم عليه بالموت ، ونفذ فيه حكم الاعدام ، وبذلك قدم هذا الجندي المجهول ، روحه فداء لمواطنين ثائرين ، بل فداء للوطن العربي الذي يناضل ابناؤه ، كل منهم في منطقته ، من اجل تحريره ، ويشعر هذا الجندي المسوق قسراً لقتال بني قومه العرب في سورية ، ان هناك رابطة قومية سامية تربطــه بالثائرين ، بل يشعر كل الجنود العرب في الجيش الفرنسي في سورية ،

هذا الشعور ، فيعمل كل منهم جهده لمد يد العون لهم ، فريق يفر من الجيش ليلتحق بالثورة العربية ، ويقدم حياته في سبيل انتصارها ، وفريق ينقل اخطر اسرار الفرنسيين الحربية الى الثائرين ، ليستعدوا للقائهم ، وينتصروا عليهم ، وان كان مكتوباً على هذا الفريق ان يكون في عداد افراد الحملة الموجهة لقتال الثائرين، فهو يطلق رصاص بندقيته أو رشاشه عالياً حتى لا يصيب أخاه في القومية الثائر، وان كان هو معرضاً لرصاص بني قومه الثائرين الذين لايفرقون في القتال بين جندي مغربي وبين جندي فرنسي، فكلهم يرتدون الزي العسكري، وكلهم اعداؤه ، زاحفون لقتاله . وفريق يفكر بالثائرين اخوانه ، يلقي اليهم بصناديق العتاد ، وأمشاطه ، كلما سنحت له الفرصة ، يتركها في أرض المعركة ليجدها اخوانه ، ويستعينوا بها على قتال اعدائهم ، وقد يقتل هو باحدى الرصاصات التي وفرها لأخيه الثائر ، ولكن لهذا عذره ، أما هو فليكفر بدمه عن خدمة الاستعمار . انطلق الحاج عبدالله الى الشرق ، يبتعد ، تحت وابل رصاص الجند عن طريق السيارات ، وهو جندي، في الأصل يعرف كيف يتقي الرصاص ، في مثل هذه المواقف ، وظل في سيره الى الشرق مبتعداً عن المدينة التي لقي فيها الأهوال ، حتى وجد من قطع له وثاقه ، وأمعن في البادية ، وأطلق لحيته ، وتزيا بزي درويش مغربي ، يتسلل بين القرى واحياء البدو ، ثم اتجه نحو الشمال حتى تجاوز الحدود السورية إلى تركية . ويظهر انه خشي ، بعد انتهاء الثورة ، ان يكشف الاتراك امره ، ويسلموه الى الفرنسيين، كجندي فار من الجيش ، لذلك عاد بزي درويش مغربي عبر البادية ، يتنقل من حي الى حي بين الاعراب ، حتى وصل الى عمان في شرقي الاردن ، وعمل فيها ماسح احذية ، وانقطعت ، بعدها ، اخباره عني .

أما عبد الحميد المرداوي ، فقد كان انطلاقه في الهرب الى الغرب ولما شعر بكثرة الرصاص الذي يطلقه عليه الجنود ، دون ان يلحقوا به ، استلقى ، على بعد قليل من السيارات والجنود ، واخذ يزحف مبتعداً أكثر ، حتى اذا ما رأى

السيارات تعود ادراجها الى حمص ، قام يركض حتى بلغ البساتين ، وقد ثقب الرصاص سرواله عدة ثقوب، ولكنه لم يصب منه بأذى في جسمه . وكان التعب والتعذيب انهكا ذلك الجسم، فاستلقى في ساقية جافة من الماء ، يسترها الشجر ، واغفى رغم وثاقه الذي كان يؤلم يديه ، ويشدهما الى ظهره . وفي الصباح، شعر بحرارة الشمس توقظه من نومه ، وكان بأسماله الممزقة ، ووجهه الملىء بالرضوض والجروح والكدمات من الضرب والتعذيب، وبشعره المشعث ،كالوحش الضاري



عدد من خريجي الجامعات والمثقفين في الثورة السورية بينهم خليل الحموي ، وصبري العسلي ، واديب العسلي ، وخيرالدين اللبابيدي ، ونزيه المؤيد

يخيف كل من سيراه من بني الانسان . وتطلع في البستان الذي ساقه القدر اليه ، فوجد البستاني يعمل في مسكبة منه ، مديراً ظهره اليه . وعزم على امر ، وتوكل ، وتقدم بخطوات لا يسمع لها وقع من وراء البستاني حتى داناه ، وقفز أمامه بشكله المخيف، سائلاً: « أمسلم انت أم نصراني ؟ » ، فقد اصبح لكثرة ما سمع

من رفاقه عن موقف المسيحيين من الثورة يحسب ان كل مسيحي عدو طبيعي لها. وذعر البستاني لهذه المفاجأة ، ثم استرد هدوءه ، فقد كان سمع في الصباح ان الفرنسيين اعدموا الثمانية رفاق نظير النشواتي على قارعة طريق دمشق عند مدخل مدينة حمص الجنوبي ، ولكن الاهلين وجدوا جثثهم ستاً ، مما يدل على ان اثنين منهم استطاعا الفرار من الموت !.. لذلك كان جواب البستاني للثائر : الحمدلله على سلامتك يا بني! هل انت من رفاق نظير؟» ، ثم هب يقطع وثاقه بمديته ، وقاده الى منزله في البستان يبدل ثيابه ، ويغسل جراحه ، ويضمدها ، ويخفف من آلامه ، حتى اذا جن الليل نقله بلباس البساتنة الى داره في حمص ، واخفاه فيها بين اسرته واولاده . وفي يوم اشتدت فيه الشائعات بين المواطنين في حمص تؤكد ان نظير النشواتي حي يرزق ، حتى بلغت مسامع البستاني ، فاوفد المرداوي الى أحد اخوة نظير ، يعلمه ان المرداوي في داره. وكان هذا الأخ يعرف المرداوي يوم كان مع عصابة اخيه في حي باب الدريب ، فأبلغ أخاه نظيراً في مخبئه بأمر المرداوي ، وكان ان سمع النشواتي بإشاعة فراره مع المغربي من ايدي جلاديه ليلة تنفيذ الإعدام برفاقه المعتقلين معه ، فأرسل بطلبه ، ونقل المرداوي ليلاً إلى مخبأ النشواتي حيث كان يداوي جراحه .

أما نحن في اكروم فقد وصل الينا عبده الحمصي على الفرس الخرساء ، بعد ظهر اليوم الذي اشتبك فيه نظير وعصابته مع فلاحي « خربة غازي » ، مجتازاً المسافات البعيدة ، فانحدرنا فوراً من جبال اكروم ، وعددنا حوالي عشرة فرسان وعشرين من المشاة ، يتقدمنا سعيد العاص وزين مرعي جعفر ، سالكين الطريق الاقصر في وعرة حمص الى خربة غازي ، مجتازين قرى النصيرية التي نعرف انها مسلحة ضد الثورة ، فوجدناها تكاد تكون خالية من الرجال المسلحين ، لأنهم كانوا كلهم هبوا لنجدة اخوانهم في خربة غازي ، وسبق الفرسان منا المشاة ، لعلهم يصلون قبلنا الى ساحة المعركة ، وينقذون اخوانهم ، ولكنهم عادوا قبيل الغروب ، بعد ان علموا أن المعركة انتهت ، وان اهالي خربة

غازي غدروا بإخوانهم ، وسلموهم الى الفرنسيين ، وان في قريـة خربة غازي اكثر من خمسمئة مسلح مجتمعين اثر الحادث ، فعدنا الى الجبال ، وفي طريقنا مررنا بقرية هيت ، فوجدناها خالية من الرجال ، وعلمنا أن مسلحيها اشتركوا في المعركة ضد إخواننا ، فاستقنا ثمانين رأساً من أبقارها ، وخمس رجال وخمس نساء وجدناهم أمامنا في القرية ، رهائن الى اكروم لعل ذلك ينفع ، فما اذا كان فلاحو خربة غازي لما يسلموا اخواننا الى الفرنسيين. ولما بلغنا نبأقتل اخواننا ، أطلقنا أولاً سراح النسوة ، ثم اتبعناهن بالرجال ، تمشياً مع قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » . وقضينا ليلة في اكروم من أشأم الليالي التي عرفناها لم يغمض لنا فيها جفن حزناً على النخبة الممتازة من شبان ، كانوا في الثورةعدتنا ، وكنا نبني الآمال على عودتهم لنسير في طريق تفجير طاقات المنطقة ، والافادة من امكانياتها ، فقد ذهبت تلك الآمال هباء ، وخسرنا بضعـة عشر بطلاً من أبطالنا ، كنا ندخرهم لأن يكونوا نواة وقدوة لشبان حمص وحماة وطرابلس يلتحقون بهم ، وينازلون المستعمر الغاصب ، ويوسعون شقةالثورة وميادينهاعليه . على ان ما سلبه اهل خربة غازي ، عدا خسارتنا بإخواننـا ، يساوي الوف الدنانير الذهبية ، فقد سلبوا الخيل والسلاح والاعتدة والمؤن ، ولم يبق لسعيد العاص من رجاله غير ثمانية مسلحين ، وبضعـة عشر رجلاً غير مسلحين ، لا ينفعون اذا وقعت الواقعة . وقدر على الجميع أن يبقوا حفاة ، وأكثرهم شبه عراة ، ليس في جيوبهم ما يشترون به نعلاً لثائر من رفاقهم . وزاد الطين بلة أن زين مرعي جعفر أعاد قطيع الابقار الى النصيرية لقاء مبلغ من المال قدموه له ، لم يعترف لنا بحق به ، في حين ان هذه الابقار كانت أقل ما يمكن الاحتفاظ به لقاء رد ما سلبه اهالي خربة غازي من خيل وسلاح ومؤن كانت عدتنا في تلك المنطقة . وكان المنطق يقتضي أن تباع هذه الابقار ، أو تعاد لاصحابها لقاءمبلغ يقارب اثمانها ، ينفق على تسليح غير المسلحين من اخواننا ، وتجهيز عصابتنا بما ينقصها من العتاد ومؤن وحاجات . لقد كان حادث خربة غازي ضربـة مؤلمة لنا ، قضت على آمال بنيناها يوم غامرنا بأربعـة عشر مسلحاً ، وغادرنا

غوطة دمشق مجتازين مئات الكيلومترات في مناطق أخضعها الفرنسيون، نقاتل من اجل كل لقمة نأكلها في الطريق بالرصاص، ونطرد عن القرى كما يطرد السليم الأجرب !..

حتى زين مرعي بدل نظرته الينا !

- ٨٠ -

لقد أكرم زين مرعي وفادتنا في اليوم الاول من وصولنا الى دياره ، ولكنه لم يكتم سعيد العاص استخفافه بعددنا فقد قال له : « انك جئتني بفئة قليلة نصفهم بلا سلاح ، فقال له : « اننا سنسلحهم بهمة رفاقهم المسلحين ، وسيرد الينا من التبرعات ما يكفيك مؤونة اعاشتنا». ومع علمه بالمشقة التي عانيناها في طريقنا اليه، وحاجتنا الى الراحة ، ومرض بعض اخواننا من التعب والإرهاق، فإنه لن يدعنا نركن الى الراحة ، بل كان يوقظنا عند منتصف الليل، ويبعدنا عن مضربه في الجبل ، الى معاقل يطلب منا المرابطة فيها ، والسهر الى الضحى خوفاً من ان تفاجئه الحملة العسكرية التي ترددت الشائعات عن قرب زحفها الى الجبال. وكان ينام هو ورجاله ملء اجفانهم ، رغم قولنا له ان الفرنسيين لم يجرءوا على مهاجمة الثائرين ليلاً في الاماكن المكشوفة من السهل كالغوطة وقلمون والجورة ، فكيف يجرءون على مهاجمة الجبال ، وهي معاقل صعبة يضيع المرء في مسالكها في النهار ؟، فكان لا يقتنع حتى ضجر منه سعيد العاص ، وقال له مرة : « أنا لم آت الى هنا لاحرسك ورجالك ! ، ولا ملتجئاً الى حماك ، فقد كنا في الغوطة بين ألوف المسلحين من اخواننا ، ولكني جئت الى هنا مع إخواني لنوسع شقة الثورة ، وانا أرجوك ان تسهل لي أمر دعوة زعماء عشيرتك وخلافهم من زعماء المتاولة لأتحدث اليهم ، وأسعى لإقناعهم في الانضمام الينا ، ومنازلة الفرنسيين

معنا ، فإذا لم استطع ، ويئست من اقناعهم ، وايقنت ان الثورة ستبقى محدودة ، كما هي عليه الآن ، فإنني سأبحث مع اخواني عن مكان آخر يمكننا فيه ان نقوم بعمل مجيد لبلادنا !. » ، ولكن زين مرعي ما كان ليريد دعوة زعماء المتاولة للاجتماع بسعيد العاص ، فهو يعرف قدره كراع بينهم ، ويعرف انه أوغر صدر عشيرته عليه بسوء معاملة الجوار ، ولحبه للظهور ، والتعالي على من هم أعلى منه قدراً في العشيرة باسم الثورة ، وبسبب شهرته فيها لذلك كان يراوغ ، ويتملص ، ويزعم الا فائدة ترجى من دعوة الزعماء ، فبدأ الخلاف يدب بين الاثنين ، ولما تمضي أيام قليلة على وصولنا ووقوع المأساة ، وفقد عصابة نظير النشواتي . ولما قطع زين مرعي الأمل من وصول التبرعات الى الثورة من الوطنيين في المدن القريبة ، تنكر لنا تماماً ، وابلغ سعيد العاص انه لا يستطيع ان يضمن تأمين اعاشتنا جميعاً ، وخاصة غير المسلحين منا ، وطلب منه الاستغناء عنهم . وكنا فقدنا الأمل ايضاً في تسليحهم ، واخذنا نشعر بضجره منا ، وكأنه خاف من وجودنا عنده ، ومن اهتمام الفرنسيين بالمنطقة بعد وصولنا إليها ، وخاف ضربتهم بسببنا ، فأخذ يعمل لابعادنا عن اكروم ، لعلهم يتركونه يسرح ويمرح ، ويفرض الاتاوات ، ويجمع الاموال من القرى باسم الثورة . وقد اضطررنا في بادىء الامر الى مسايرته في أمر غير المسلحين ، فاستغنينا عن ستة منهم ، قدرنا انهم يستطيعون الوصول الى مناطقهم دون الوقوع بأيدي الفرنسيين ، واحتفظنا بأربعة فقط من غير المسلحين . وجاء زين مرعي في اليوم الثامن من شهر مارس يقول لسعيد العاص أنه لا يأمن علينا شر غير الثائرين من اهل المنطقة ، لأننا غرباء بينهم ، لم نألف حياة الجبال وشظفها ، واسلوب حروبها ، فيما اذا داهمنا الفرنسيون بقواتهم ، لذلك فهو على استعداد لان يوصلنا الى جرود بعلبك حيث عصابة توفيق هولوحيدر ، او الى الغوطة ، فيما إذا لم نشأ الذهاب الى جرود بعلبك . وكان واضحاً انه يطردنا من منطقته ، فقرر سعيد العاص ، ووافقه مصطفى الديب من حماة ، على ان يمما شطر جبل الزاوية في الشمال حيث قيل ان هناك عصابة من الحمويين الذين اشتركوا في ثورة حماة ،

وصدرت عليهم احكام بالموت من محكمة حماة الاستثنائية ، لعلهما يستطيعان معهم ان يقوموا هناك بعمل مثمر للثورة . وقررنا نحن البقية العودة الى الغوطة . أما انا فقد اعلنت انني لا اغادر المنطقة ما لم يتماثل رفيقي جميل العلواني المريض الى الشفاء ، لان في صلبه دملا يسمى « برثن الاسد » ، هو من افظع الدمامل في الجسم ، لا يستطيع المصاب به الحراك ، ويبقى منه مكباً على وجهه ، لا يستطيع مد ساقيه من الالم ، وقلت انني مستعد لان اذهب بصاحبي الى كوخ من اكواخ الرعاة ، نقيم فيه حتى يشفى المريض ، ثم نعود معاً الى الغوطة ، نسافر معاً ، أو نتسلل الى حمص ، ومنها نؤمن سفرنا الى الغوطة . وبلغ خبرنا اخوة زين مرعي وابناء عمومته الثائرين ، فحضروا في اليوم التاسع من شهر مارس ، ونقلونا الى مضاربهم بالقرب من قرية « أكـوم » ، وحالوا دون سفرنا متفرقين كل الى جهة ، وتعللوا بالخطر الذي يتهددنا في الطريق ، واكدوا لنا انهم جميعاً غير راضين عن تصرفات زين مرعي جعفر ، ورجوا ان لا نعير كلامه أذناً ، لان ليس له في بني قومه ما يؤهله للكلام باسمهم ، فأقمنا في مضاربهم حيث اكرمونا غاية الاكرام . وكنا في انتظار خطة فوزي القاوقجي ، فقد بلغنا انه زحف الى قلمون بقوة من الغوطة ، ووفق في ارجاع نفوذ الثورة الى بعض قرى المنطقة التي دخلها . وقد كتب سعيد العاص رسالة الى عديه القنيفد واخوانه الحمويين في الشمال ، وارسلها مع ساع غير مسلح من رفاقنا ، وطلب منه ان يبحث عنهم في حماة وجبل الزاوية ، وفي كل مكان يذكر انهم فيه ، وطلب في الرسالة منهم الحضور الى منطقة اكروم لنصبح بهم قوة يعتمد عليها في اثارة المتاولة الذين كنا نرى منطقتهم اصلح منطقة استراتيجية للثورة . وكان العاص يدعو كل من يجتمع به من اهل المنطقة الى الثورة ، والانضمام اليها ، وارسل نشرات حماسية الى القرى .

وجاءنا وفد من ثلاثة رجال من ابناء شوك في جبال الضنية قرب طرابلس ، فقابلهم سعيد العاص ، ورحبنا بهم ، ودعوناهم الى الثورة ، وعلمهم سعيد العاص

كيف يستطيع أمثالهم بثلاث بنادق معهم ان يسلحوا عصابتهم ، وكل من يود الانضمام الى ثورتهم ، وسألهم هل في منطقتكم مخفر للدرك ؟ فلما قالوا نعم في قرية « سير » مخفر للدرك ، قال : باغتوهم بثلاث بنادق وعدد اكبر من رجالكم في المخفر ، وخذوا بنادقهم وجيادهم ، ان كان لديهم جياد ، يكون ، بعدها ، لديكم عشرة مسلحون او اكثر، تخططون بهم ضرب وغزو مخفر أبعد ، وهكذا حتى يكون لعدد من شبانكم السلاح الذي يحاربون به المستعمر . وتلقينا اخباراً من عكار عن حماسة وغليان شديدين في المنطقة يبشران بقرب انفجار ثورة في تلك الجبال . وهكذا بدأنا نشعر بتأثير وصولنا الى جبال اكروم ، على الرغم من مأساتنا بفقد بضعة عشر شاباً من خيرة اخواننا . وبلغت مسامعنا اشاعة عن نظير النشواتي ، وانه ما يزال على قيد الحياة ، لم نصدقها ، لأنها كانت غير معقولة ، بسبب تأكد وقوعه بيد الفرنسيين ، واعدامه برصاصهم !

يحيى العظام وهي رميم !

- ٨١ -

كنا قبيل ظهر الثالث عشر من شهر ايار في مقرنا قرب قرية « أكوم » ، ننزل في مضارب جعفر مرعي، شقيق زين مرعي ومضارب ابناء عمه علي الحسن، واسعد محمد ، وسعيد محمد ، واذا بأصوات الرصاص تلعلع من جهة « اكروم » ، فبادرنا الى بنادقنا نتنكبها ، واسرعنا نغذ السير إلى اكروم ، وفي الطريق قابلنا قافلة صغيرة من الفلاحين قادمة من تلك الجهة، سألناها : « ما الخبر ؟ » ، فأكدوا لنا ان ليس هناك حملة أو عدو ، وان هناك قادماً يحتفلون بقدمه . ولما بلغنا اكروم ، وجدنا نظير النشواتي مضمد جراح الرأس ، ومعه عبد الحميد المرداوي ، وابن عم لنظير اسمه شكري النشواتي ، ففرحنا بسلامة الاثنين

اللذين حدثانا ايضاً عن نجاة الحاج عبدالله المغربي ، وضربه في مشارق البلاد .

وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس، وصل بعد الظهر الى جبال أكروم، عشرة فرسان من الثائرين الحمويين منهم: عديه القنيفد، ومصطفى عاشور، وحسن العبدة أو العبدي ، ومصطفى البشري، وحسين الكموش ، وعادل الجاجـة ، وخيرو الهزاع ، ومحمود الطفاحة ، ومحمد الديب فاستقبلناهم احسن استقبال ، واشتدت عزائمنا بقدمهم، فقد اصبحنا عصابة مسلحة يربو عددها على العشرين ، اكثرهم من الفرسان ، فزاد تمسك ابناء عم زين مرعي واخوته بنـا ، لا سيما واخبار حشد الفرنسيين قواتهم لغزو جبال اكروم اخذت تتردد شائعاتها وتصل كل يوم الى مسامعهم .

الفصل الرابع عشر

ثورة الضنية

- ٨٢ -

عاد الثلاثة أولاد شوك وشندب الى قريتهم في الضنية، بعد ان اشتروا ثلاث بنادق من منطقة المتاولة ، وحملوها معهم ، وابتدأوا يرغمون اغنياءهم على التبرع لتسليح شبانهم ، فازداد عددهم مع الأيام ، وهبطوا ليلة الى بلدة « سير » مركز الضنية ، وهاجموا مخفرها ، وفيه عريف وأربعة جنود من الدرك، فقتل العريف ، واستولوا على اسلحة الجميع وجيادهم ، وبذلك ادركت الحكومة ان الثورة بدأت في منطقة الضنية على أبواب مدينة طرابلس العربية التي تربض على ساحل البحر الابيض المتوسط ، فاهتمت السلطة الفرنسية للحادث ، وابتدأت بتحصين مدينة طرابلس ضد الثائرين الذين بلغ عددهم في الضنية ، خلال عشرة أيام، اكثر من ستين مسلحاً، واستبشرنا نحن في اكروم خيراً بأنباء ثورة الضنية. وكانت الاتصالات مستمرة بيننا وبينهم ، وعاهدناهم على ان نمدهم بالرجال المسلحين اذا زحف العدو لقتالهم ، وان ينجدونا اذا زحف العدو الى منطقتنا. وكتب سعيد العاص الى الوطنيين في طرابلس يحضهم على مساعدة ثورة الضنية

بكل ما لديهم من وسائل القوة . وكانت الطائرات تروح وتغدو كل يوم تكشف منطقتنا ، وتلقي القنابل عليها ، فأدركنا ان الفرنسيين أخذوا يهتمون بثورة شمال لبنان ، وانهم عقدوا العزم على مقاومتها وسحقها .

زحف الفرنسيين للقضاء على ثورة « اكروم »

لقد أخذنا نلحظ في تردد الطائرات المستمر على منطقتنا أن كشف المنطقة ، وتصويرها من الجو ، والتعرف الى الطرق والمسالك فيها ، هو الهدف الأول من الغارات الجوية ، وان ضباطاً من الاركان يضعون خرائط مفصلة للمنطقة الثائرة من أجل تطويقها ، والقضاء على الثائرين الذين هم في الأصل فئة قليلة ، وجهت اليهم خربة غازي ضربة انقصت عددهم. وكان الفرنسيون حريصين على إخماد الثورة في هذه المنطقة الحساسة بأي ثمن ، لأنها تهدد مراكزهم في لبنان ، ومواصلاتهم ، وتعم وتنتشر في منطقة تدهشهم مناعتها ، وصعوبة مسالكها ، وشموخ ذرى جبالها . وبما ان لهم عملاء واصدقاء من آل حمادة زعماء المنطقة ، فقد استدعوهم من الهرمل الى بيروت ، وراحوا يبحثون معهم طريقة تطويق المنطقة الثائرة ، والقضاء على الثائرين فيها، وخاصة منهم سعيد العاص وجماعته، ويستفسرون منهم عن مواطنها وعدد افرادها ، ومسالك الجبال وطرقها ، واسهل طريقة لتطويقها .

وكانوا عينوا سعدالله حمادة رئيساً ادارياً على منطقة الهرمل. وقد ظل سعيد العاص يسعى حتى زارنا مرة عدد من زعماء الجعافرة في منطقة الحميرة للتعرف ، والاطلاع على احوالنا ، ولديهم في منطقتهم حوالي مئة مسلح غير ثائرين ، فاستطعنا في الاجتماع الذي تم لنا معهم ان نتفق على التعاون ، فهم يريدون أن يبقوا غير ثائرين حتى لا تقصفهم الطائرات، ويتعرضوا لبطش الحملات، وتدمير قريتهم ومنازلهم ، وفيها نساؤهم وأطفالهم ، ولكنهم اظهروا كل الاستعداد

لأن يساعدونا سراً بسلحيهم ، اذا ما زحف الفرنسيون الى الجبال ، فان كان النصر لنا ، كان لهم الفضل فيه ، وان هزمنا صانوا قراهم ومنازلهم ، واطفالهم ونساءهم من بطش الفرنسيين بالتظاهر امامهم بانهم مسالمون غير ثائرين .

بلغنا في اليوم السابع عشر من شهر مارس ان بلدة الهرمل تعج بالجنود ، وخاصة بالقناصة اللبنانيين القادمين بطريق رياق وبعلبك وزحلة، وجرى حشدهم في بيروت من سائر مناطق لبنان ، وان سعدالله حمادة يجند للفرنسيين متطوعة من المتاولة التابعين لزعامة أسرته ، ومنهم من كان يتطوع لثلاثة ايام بأجر مقطوع ، مما يدل على ان الفرنسيين قدروا اياماً ثلاثة للقضاء على الثائرين في جبال اكروم . وبلغنا ايضاً ان قرية « القصر » القريبة من زيتا في السهل امتلأت بالجنود الفرنسيين الزاحفين من الشمال بطريق حمص والقصير ، وان التحشيدات الفرنسية اكتملت للزحف وتطويق الجبال. وقد بولغ في تقدير عدد الحملة الزاحفة من حمص ، فاجتمعنا عند الغروب في قرية « اكوم » ، واتفقنا مع زين مرعي جعفر على ان نتولى نحن الحمويين والحمصيين ابناء الشمال حملة الشمال، وان يتولى هو وابناء عمه ورجاله وعشيرته حملة الهرمل، وقرأنا الفاتحة على هذا العهد. وقيل ان هناك احتمالاً بأن تزحف القوة المعسكرة في « وادي خالد » المحطة بين حمص — طرابلس ، الى اكروم ، وهي سرية فرسان لا يزيد عددها على مئة جندي ، كما ان هناك احتمالاً ان يتعرض مسلحو قرية القبيات ومن معهم من متطوعي القرى المارونية الأخرى ، ويقوموا بدور في عملية التطويق ، وعددهم — على أقل تقدير — مئة وستون مسلحاً ، فقررنا ان يبعث زين مرعي جعفر باثنين اوثلاثة من رجاله يرابطون في عقبة كأداء في الجبل لا بد لقوة وادي خالد ان تسلكها صعداً للوصول الى مكان زين مرعي جعفر المطل على اكروم . وفي هذه العقبة يمكن لمسلح واحد ان يوقف القوة ويشغلها ، ويصدها عن الجبال ، وان نطلب الى الجعافرة غير الثائرين في قرية « الحيرة » وجردها — حسب اتفاق التعاون بيننا — ان يتكفلوا بصد جماعة القبيات من المتطوعة المارونيين . وكانت العادة

ان يتكفل اربعة او خمسة مسلحين من الجعافرة بصد متطوعي القبيات . وفي كل مرة ، كانوا يردونهم الى منازلهم في القرية ، يتحصنون فيها وفي جدران القرية حتى لا يصل الجعافرة الى القبيات. وحلقت قبل الغروب خمس طائرات فرنسية فوق الجبال ، وقصفت بقنابلها عدة مواقع . ولأول مرة قصفت بقنابلها قرية الحميرة ، وفيها الجعافرة وزعماؤهم ، فقتلت امرأة . وكانت غارتها لمصلحة الثورة ، اذ القت في روع آل جعفر كلهم ان الفرنسيين في زحفهم لا يفرقون بين الطائع والعاصي ،واذا انتصروا ، في الغد ، على الثائرين فسيكون نصيب آل جعفر كلهم ، دون استثناء ، كنصيب الثائرين من البطش والتقتيل والحرق والتدمير ، لا يستثنون طفلاً ولا امرأة . وقد عرفنا سبب القصف ، اذ ارسلت السلطة الفرنسية في طلب زعماء آل جعفر الى بلدة الهرمل ، وخافوا ان هم لبوا الطلب ان يعتقلوا ، أو يكلفوا بالمسير مع الحملة الفرنسية الزاحفة الى الجبال ، وان يساعدوا على قتال الثائرين ، ويهدوها الى معاقلهم . لذلك تخلفوا ، ولم يلبوا الدعوة ، وتعللوا بالاعتذار ، فاعتبرت السلطة تخلفهم تمرداً عليها ، وقصفتهم طائراتها ، فأدركوا



القائد العقيد سعيد العاص
نائم واثنان من المجاهدين يحرسانه

انها اعتبرتهم من العصاة ، وصمموا على المقاومة ، وليس غير المقاومة سبيل لصد زحف الفرنسيين الى منطقتهم .

تناولنا عشاءنا في « اكوم »، وانطلقنا من القرية ، وعددنا ستة وعشرون مسلحاً، منهم خمسة من الجعافرة على رأسهم علي الحسن ابن عم زين مرعي، ومعنا شاب درزي من لبنان اسمه سعيد ، كان دركياً ، والتحق بثورة زين مرعي جعفر . أما العشرون الآخرون فهم عصابة سعيد العاص ، من حمويين وحمصيين ودماشقة وردت اسماؤهم من قبل . وكان لا بد لهؤلاء الغرباء عن الارض ان يكون لهم أدلة ورواد من أهل المنطقة . لذلك تقدم علي الحسن مع أربعة من الجعافرة لمرافقتنا، فسرنا في طريق جبلية متجهين الى الشرق لنشرف على السهل الذي تقوم في وسطه قرية « القصر » مقر الحشد الفرنسي للزحف وتطويق الجبال .

كنا في طريقنا نلقى حاصدي الحبوب في السهل من أبناء الجبال يفرون بنسائهم وأطفالهم ودوابهم ، وأكثرها من الحمير ، إلى الجبال خشية بطش الفرنسيين بهم ، أو أن يبقوا بين ناري الفرنسيين والثائرين في معركة الغد . وقد سألنا أول ركب منهم عن اخبار العسكر في السهل ، فتوقفوا ليقولوا لنا أن عددهم يغطي عين الشمس . وسألنا قافلة ثانية منهم التقينا بها بعد حين ، فتوقفوا ليقولوا لنا ان عدد العسكر كالقش والتراب ، فأدركنا ان من الصعب ان نعرف العدد القريب من الحقيقة لجنود الحملة الفرنسية التي نحن ذاهبون للقائها من هؤلاء الحاصدين العمال البسطاء . وكنا كلما التقينا بقوافل النازحين كانوا يؤكدون لنا وجود الحملة الفرنسية في قرية « القصر » ، ويعبرون عن كثرة عددها وجهلهم به، بكلمات لا تختلف عما سمعناه ممن سبقوهم ، فسمعت الحاج مصطفى الديب من مجاهدي حماة يتحدث إلى اخوانه الحمويين الذين انضموا الينا حديثاً ، فيقول : « أسمعتم ما يقول هؤلاء الحاصدون الهاربون من السهل ؟ ان

الحملة الفرنسية كالقش والتراب ، تغطي عين الشمس بكثرة جنودها ، فإلى أين يقودنا سعيد العاص ، والى أين نسير في هـــذا الليل ، ببضعة وعشرين مسلحاً بالبنادق العتيقة لمقابلة حملة مجهزة بأحدث الاسلحة وافتكها ، وبمثل هـــذا العدد الضخم ؟ » . ثم يقول : « إذا كان سعيد العاص لا تهمه روحه ولا أسرته ، فوالله ان لنا نساءً وأطفالاً خلفناهم وراءنا ، لا نريد لهم اليتم والثكل ! .. وقد قال الله تعالى : ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة !.. » . سمعت هـذا فأسرعت الخطى حتى لحقت بسعيد العاص ، وقلت له : « انتبه يا سعيد بك !.. ان الحاج مصطفى الديب يتحدث الى رفاقه الحمويين حديثاً يثبط العزائم ، وقد يخجلنا أمام المتاولة ، ونحن ضيوف في منازلهم منذ اسابيع !..» . فتوقف العـــاص بفرسه عن السير حتى أدركه الحمويون ، وأنصت لحديث مصطفى الديب ، ولما وعاه فاجأه قائلاً : « ماذا تقول يا حاج ؟ .» فبوغت الرجل ، ولكنه قال : « والله يا سعيد بك !.. قلت لإخواني كيف نسير بهذه الشرذمة القليلة للقاء حملة جنودها كالقش والتراب ؟ .» قال العاص :

« إسمع يا حاج مصطفى ! نحن هنـــا منذ بضعة أسابيع ننزل ضيوفاً على الثائرين المتاولة ، وحالهم رقيق . وقد جئنا هنا لنقاتل فرانسة ، ونوسع شقــة الثورة ، وننشرها حتى نوصلها الى بلدنا ، والى أبعد في الشمال . وغــداً تزحف أربع حملات لتطويقنا ، وتطويق اخواننا الثائرين الجعافرة الذين لا يزيدون عنا نحن الغرباء كثيراً في العدد ، وقد تعهدوا ، على قـــلة عددهم ، بلقاء ثلاث حملات ، إحداها تزحف من الهرمل لا تقل عن الحملة التي نسير الليلة للقائها ، فإذا عدنا قبل أن نرى الحملة وننازلها ، وقلنا لهم : والله لا طاقة لنا بلقاء حملة وصفها الفلاحون البسطاء لنا بأنها كالقش والتراب ، فماذا سيكون موقفهم منـــا ؟ انهم سيقولون لنا لماذا أتيتم اذن الى جبلنا ، وسببتم بمجيئكم الينا زحف هذه الحملات علينا ؟. ثم سيسلبوننا بنادقنا ، وربما سلمونا للفرنسيين اتقـــاء لشرهم .. اسمع يا حاج مصطفى ! نحن ثائرون . ولما ثار كل واحد منا كان يعرف أن واجبه

مقاتلة الفرنسيين في أي ارض يستطيع لقاءهم فيها . ونحن ذاهبون الآن الى معقل في الجبال للقاء حملة تزحف الى الجبال من السهل ، فهل نفر منها قبل أن نراها ، ام ان واجبنا يحتم علينا ان نجرب لقاءها وصدهـا ، فإن استطعنا كفانا الله شرها ، وقمنا بواجبنا ، وان عجزنا بعددنا القليل ، ووسائلنا المحدودة ، نعذر إذا ما انسحبنا ، ونازلناها في مكان آخر . نحن ثوار نحارب ، عند الضرورة حرب عصابات ،أي حرب كر وفر ، ولكن كيف نرجع من الطريق قبل أن نرى الحملة ، وقبل أن نجرب قتالها ، لا سيا واخواننا الجعافرة ، بعضهم معنا ، وبعضهم ساروا من « اكوم » للقاء حملة الهرمل التي قد تضاهي الحملة الزاحفة علينا من حمص ؟ انني جئت هنا لأقاتل عدو بلادي ، لا لأقضي الوقت بالتنقل والأكل والراحة والكلام الفارغ !.. فمن جاء منكم ليقاتل ، فليتقدم معي الى القتال!..»ومن يجد أن روحه أغلى من روح سعيد العاص ، ويخاف عليها ، فليرجع من هنا ، وليترك أرض الثورة ، وليبحث عن وسيلة للوصول الى حضن زوجته !.. فرد الحمويون الذين كانوا يستمعون الى كلمة سعيد العاص : « ان ارواحنا يا أبا سعاد ليست أغلى من روحك ، ونحن جنودك دوماً.. سر بنا انى شئت فنحن رهن اشارتك !.. » . بلغنا بعد مسير أكثر من ثلاث ساعات في ليلة حالكة الظلام قمة جبل صغير تطل على السهل ، وقرية «القصر» ، فيها آثار قلعة قديمة أو حصن قديم اسمه « ميدان علي » ، وعلى يمين هذا الجبل واد ضيق تمر به الطريق من قرية القصر الى قلب جبال الهرمل . وفي الجانب الثاني من الممر جبل ثان لو تحصن فيه بعض المسلحين لاستحال مرور الحملة الفرنسية من الوادي ، لان الطريق في الممر تصلح لسير الدواب والمشاة ، ولا تصلح للسيارات والآليات . ولما أبدينا رأينا هذا قال لنا رفاقنا الجعافرة انهم وجهوا خمسة مسلحين كي يرابطوا في العدوة الثانية من الوادي ، او في الجبل الذي اشرنا إليه ، ولكن تبين لنا في الصباح ان احداً لم يرابط فيه !

قلنا ان الفرنسيين في الهرمل استدعوا جميع زعماء المتاولة القاطنين في تلك الجبال ، فلبى الجميع إلا زعماء آل جعفر ، وقدموا للفرنسيين متطوعة من رجالاتهم سلحوا ليسيروا في عداد الحملة ، وهم معروفون كجبليين بأنهم مقاتلة وشجعان ، وتطوع بعض الزعماء لمرافقة حملة الهرمل بأنفسهم ، ومنهم سعدالله حمادة وبعض ابناء عمه في الهرمل ، فكانت حملة الهرمل مؤلفة من الفرقة الثانية للقناصة اللبنانيين ، والقناصة في لبنان اسم للجيش الذي الفه الفرنسيون من اهالي البلاد ، يقابله في سوريا الجيش المختلط او « الجوقة السورية » ، وسار مع الحملة قوات من الدرك اللبناني ، ومن المتطوعين المسيحيين والمتاولة ، ومنهم تطوع بالمياومة لثلاثة ايام ، وبليرة سورية في اليوم الواحد . اما حملة حمص فهي مؤلفة من جنود مشاة ، وفرسان صباحيين ، وفرسان من الحرس السيار فيه متطوعة من الاسماعيليين والشراكسة والارمن والعلويين وحتى من النور . وتقدر حملة الهرمل بستمئة الى ثمانمئة جندي ، وحملة القصر بألف ومئتي جندي . وكان أمل الفرنسيين بالنصر وطيداً ، فقد كلفوا مختاري القرى ان يوافوهم بالبريد الرسمي والرسائل في الساعة الواحدة زوالية من يوم الثامن عشر من شهر مايس الى قرية « اكوم » مقر عصابة سعيد العاص ، وارسلوا مئة فارس من الصباحيين بقيادة ضابط فرنسي الى وادي حنا ، وهي قرية لآل زعيتر المتاولة ليرابطوا في مضيقها ، ويقبضوا على سعيد العاص وعصابته ، فيما اذا فكروا بالفرار والتسلل من الجبال ، واقاموا مدفعية قوية في السهل الجنوبي امامنا على مقربة من الجبال تستطيع ان تساند حملة الهرمل وحملة حمص في حال اشتباك اي منهما مع الثائرين . وكانت الخطة ان تنطلق حملة الهرمل في الساعة الواحدة من صباح الثامن عشر من الهرمل ، وتدخل الجبال الى وادي « فيسان » ، ومنه تتسلق جبل « الشميس » لتصل منه الى الجبل المشرف على قرية « اكروم » مقر زين مرعي جعفر ، فتجذب الثائرين اليها ، وتشغلهم بالقتال ، بينا تتقدم حملة حمص مع الفجر ، وتزحف الى الجبال من الممر بجانب « ميدان علي » ، وتتسلق جبل الشميس الذي يتحصن به الثائرون من طرفه الشمالي ، وتطوقهم وتسحقهم بين ناري الحملتين ، ثم تتقدم الى « اكوم » فاكروم ، وتوافيهم اليها القوات التي

ستزحف من وادي خالد ووادي حنا ومتطوعة الموارنة في قرية القبيات ومـا حولها . قلنا ان الظلمة في تلك الليلة كانت حالكة ، وكنا نرى في السهل أمامنا الى جانب نيران متفرقة هنا وهنالك ، ناراً طويلة تمتد نحو الجنوب الشرقي على مقربة من الجبال ، فتبين لنا في الصباح انهم جند المدفعية الافرنسية ، أقيمت في في هذا الموقع لعدم وجود طرق صالحة لنقلها في الجبال، مهمتها دعم حملتي الهرمل والقصر في حال اشتباك أي منها مع العصابات .

وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة

- ٨٣ -

انبثق فجر الثامن عشر من شهر مايس عـام ١٩٢٦ ، وإذا بطائرة تحلق في غبشة الصبح فوق « القصر » ، وتلقي شارات كالدخان ، ثم تتجه نحونا . وكنا اخفينا جيادنا في مغاور الوادي خلفنا ، فلم تنتبه الطائرة لوجودنا مختبئين وراء حجارة الحصن المهدم ، وتقدمت تبحث عن العصاة في الجبال خلفنا ، وترتاب بقطعان الماعز ، تقصفها بقنابلها ، وتنقض عليها برشاشاتها . ثم رأينا اول كتيبة للفرسان تخرج من قرية « القصر » صفاً طويلاً ، فارسين وراء فارسين ، اخذت تتقدم نحو جبلنا . وما كاد آخرها يغادر القرية حتى خرجت وراءها كتيبـة ثانية فثالثة من الفرسان لحقت بهـا سرية من المشاة تتلوها اخرى ، ثم وراءها كتيبة فرسان أخيرة . ولما اصبحت الكتيبة الاولى قريبة من جبلنا ، ترجـل أفرادها ، وتركوا جيادهم في الارض الحصيد ، والزروع التي لم تحصد ، ترعى ، وتقدمت الكتيبة حتى بلغت مراحاً خرباً في سفح جبلنا اسمه « سهلات المي » ، توارت فيه ، ولحقت بها الكتيبة الثانية فالثالثة فالمشاة ينضمون الى من سبقهم ، ويختفون في الخربة ، والفرسان يتركون جيادهم وراءهم بعيداً عن مرمى الرصاص

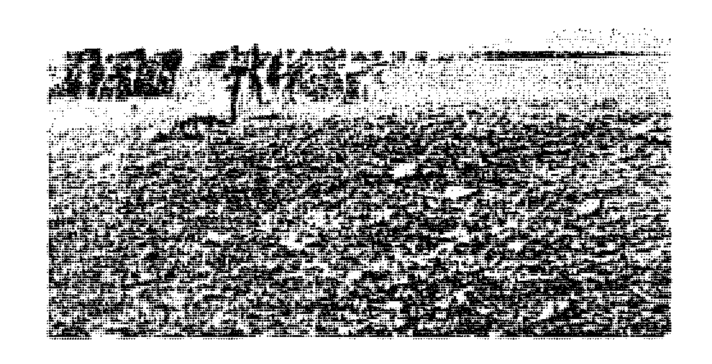
من الجبال . وما كادت غبشة الفجر تنقشع حتى سمعنا ازيز الرصاص يصدر عن وادي فيسان في الجنوب الغربي من موقعنا ، فادركنا ان المعركة بدأت بين اخواننا الجعافرة وبين حملة الهرمل. وكان يتخلل صوت رصاص البنادق والرشاشات تفجر الرمانات تتذفها الايدي ومدافع الهاون . واقبل سرب من الطائرات يكشف مواقع المجاهدين ويقصفها ، وتنقض طائراته بالرشاشات ، فيطلق الجند لها الشارات في الهواء لتتعرف على مواقعنا . وقد مرت الطائرات من فوقنا فلم اتنتبه ايضاً لوجودنا ، لاننا تحصنا وراء جدار منخفض مهدم من جدران الحصن ذي حجارة كبيرة من الصعب ان تميزنا بينه الطائرات .

استمرت معركة وادي فيسان أكثر من ساعة ، كانت كافية ، في نظر القيادة الفرنسية ، لجذب العصاة إلى المعركة ، لذلك تحرك بعدها من خربة « سهلات لمي » ثمانية جنود ، أخذوا يتسلقون جبلنا ، فأدركنا انهم الطليعة لكشف ذروة الجبل الذي نتحصن فيه ، قبل ان تزحف الحملة الى الوادي الذي تمر به الطريق إلى الجبال . لقد كان المنطق يقضي بأن ننتظر حتى يصبح الجنود الثمانية على بعد عشرات الامتار تحت موقعنا المشرف على السفح كله ، وننذرهم فإما أن يستسلموا وإما أن نحصدهم بنار بنادقنا ، ولكن علي الحسن ابن عم زين مرعي ترك مكانه ، وجاء الى القلب حيث يرابط القائد العاص ، واقترح عليه ان نبدأ المعركة قبل أن ينتشر الجند المتجمعون في الخربة ، ويتسلقوا الجبل ، او ينتشروا في الوادي مجتازين المر ، فتصعب مقاومتهم لكثرتهم ، فوافقه سعيد العاص ، والطليعة ما زالت بعيدة ، في منتصف المسافة بين الخربة والذروة ، وامر القائد العاص بإطلاق النار ، مع ان المفروض الا تتحرك الحملة قبل ان تتلقى شارة من الطليعة ، وتتأكد من خلو الجبل من الثائرين . واطلقنا امتثالاً للأمر ، فسقط ثلاثة من جنود الطليعة ، واختفى الباقون بين الصخور ، وحولنا بعدها رصاص بنادقنا إلى الخربة ، نرى فيها سواداً ، ولا نرى أفراداً لكثرة المحتشدين فيها ، ولا تزيد المسافة بيننا وبينهم على الف متر ، فلم نسمع جواباً عن

رصاصنا ، بل رأينا كتيبة الفرسان الاخيرة ، وكانت في الطريق على مقربة من الخربة ، تتوقف ، ثم تتراجع سريعاً ، وتحول سيرها بصفها الطويل الى الشمال ، بمحاذاة سلسلة الجبال ، وتبتعد عن ارض المعركة . خشينا ان تسلك هـــذه الكتيبة التي نجت من الحصار في الخربة ، وادياً بين الجبال ، تلتف منه علينا ، فوجهنا إثنين من مسلحينا ، احدهما سعيد الدرزي ، أخذا يسيران في الجبال محاذيين للكتيبة ، يطلقان عليها الرصاص ، فتوهمت ان الجبل كله من الثائرين ، وفرت مبتعدة عن الجبال ، ضاربة إلى الشرق في ذلك السهل الفسيح ، وكان أفرادها يترجلون احياناً عـــن جيادهم ، ويفترشون الارض ، اتقاءً لرصاص رفيقينا ، ثم يهبون سراعاً الى جيادهم يمعنون في التراجع ثم في الهزيمة . وقد حدثنا بعدئذ حاصدو الحبوب الذين كانوا يعملون في السهل ان ضابط الكتيبة المنهزمة ، لما ترجل مع جنوده مرة ، على مقربة منهم ، ارغمهم على ان يتركوا الحصاد ، ويتوسدوا الارض ، وهو يشير الى الجبال ، ويقول لهم : «بدوان!» ، أي أن فيها عصاة متوحشين ، وهو لا يدري انه ينازل اثنين من المجاهدين ، وانه ينهزم من رصاص بندقيتهما ، والكتيبة لا تقل عدداً عـــن مئتين وخمسين فارساً مسلحين . ولما أمعنت الكتيبة مبتعدة في السهل ، وانفرط عقدها من الهزيمة ، عاد الينا الزميلان ، واشتركا معنا في المعركة .

لقد تكدس الجنود وراء جدران الخربة لا يستطيعون حراكاً ، حتى انهم لم يستخدموا ، في بادىء الامر ، بنادقهم ولا رشاشاتهم ، بل خرجت ، بعد حين زمرة منهم ، قليلة العدد ، تجري ، وتتوسد الارض ، مبتعدة عن الخربة ، حتى بلغت الجياد ، واعتلت ظهورها ، وانطلقت عدواً في السهل نحو الجنوب ، حتى بلغت موضع النار التي كانت مشتعلة في الليل ، وتراءت لنا ، وحسبناها ناراً للحاصدين ، واذا بدوي المدفعية ، والقنابل تتساقط على جبلنا بغزارة ، فبدل بعضنا مواقعه اتقاء لشر القذائف . وكان بعضها من القنابل التي تتفجر في الفضاء « شرابنه ل » ، وتتساقط على من تحتها .

بعد قصف شديد من المدفعية بدأت بعض الرشاشات تنطلق من الخربة إلى مواقعنا التي كانت منيعة، لا تتأثر بقذيفة مدفع ولا برصاص رشاش . صبرنا للمدفعية وللحملة صبر الكرام ، واصلينا الخربة ناراً حامية من رصاص بنادقنا، وقفز ابو علي رشيد الصحناوي من مجاهدي جبل الدروز ، من مكانه ، واعتلى الجدار الاثري الذي كنا نحتمي وراءه ، ودخان المدافع يغطي الجبل ، والقنابل تتفجر على جبلنا ، وفي سمائنا ، يسير من اول الجدار الى آخره مكشوفاً للحملة وللمدفعية ، يمشي مشية العرض ، بخطواتها المتزنة ، هازجاً ، بأعلى صوته ، الاهازيج الدرزية ، وتنشيد : « يا عمامنا ! . يا عمامنا ! لباسة الجوخ الحمر .. دباحة لا يرحمون ! .. » دون أن يلتفت الى قصف المدفعية ونيران الرشاشات ، مما أضعف من عزيمة العدو ، وزاد موقفهم ارتباكاً ، وانتظر الجنود طويلاً ، انتظروا مدفعيتهم أن تجلونا عن قمة الجبل بشتات القذائف التي القتها ، وتساقط اكثرها في الوادي وراءنا . وكان رفاقنا الحمويون يرون تساقط القذائف بكثرة في الوادي خلفنا ، فيزيد قلقهم على جيادهم. وبينما نحن في هذا الموقف المتسلط على العدو ، لا تؤثر بنا مدفعيته الثقيلة ، واذا بامرأة تزغرد في الوادي ، وتركض تحت قذائف المدفعية المتساقطة حولها مصعدة الى جبلنا. ولما أقبلت رأيناها عجوزاً تحمل على كتفها قربة ماء صغيرة، وفي ذيل ثوبها خبز ، وفي الذيل الثاني عتاد ، تقف دون أن تحني قامتها للقذائف والرصاص ، تعطي كل واحد منا رغيف خبز ، وتسقيه جرعة ماء ، ثم تسأله ما نوع العتاد الذي يريد ، تعطيه مما تحمل ، وتملأ جو المعركة حماساً بزغاريدها . ولما دنت من سعيد العاص سألها عن حال اخواننا آل جعفر في وادي فيسان ، فقالت بصوت عال قاطع : « لله درهم من أسود ! انهم مثلكم أوقفوا زحف الحملة الى جبل « الشميس » ، وهزموها ، وهي الآن تتراجع الى أسفل الوادي أمام ضرباتهم ! » ، فسررنا ، وزدنا حماسة ، ولكنها في لحظة همست في أذن علي الحسن كلمات، وعادت أدراجها ،نسمع زغاريدها تملأ الوادي،وهي تنحدر اليه لتجتازه تحت قصف المدافع ، وتساقط قذائفها .



مفرزة مـــن الجيش الفرنسي في ساحة القتال مع مدفعيتها الثقيلة

استمرت المعركة خمس ساعات ، عجزت خلالها مدفعية العدو بمئات قذائفها أن تزحزحنا عن مواقعنا ، ولم يعد الجنود المحاصرون في الخربة يطيقون صبراً ، فاندفعت موجاتهم من الخربـــة منهزمة نحو الشرق ، يمتطي الفرسان متون خيولهم ، ويطلقون لها الاعنة ، لا يلتفتون وراءهم ، يضربون في السهـل الواسع الفسيح ، دون نظام ، ويلحق بهم المشاة متفرقين مشردين ، كل واحـــد منهم يشعر بانه نجا باعجوبة من الموت ، فقد كان كل رف يخرج من الخربة يعدوعشرات الامتار ، ثم يتوسد الارض ، ويتابع العدو والتوسد حتى يصبح في منأى مـــن رصاص بنادقنا ، فيروح يعدو متفرقاً ، دون نظام حتى يطمئن تماماً إلى انه نجا. أما الفرسان فقد كانوا يخرجون بنفس الاسلوب حتى إذا بلغوا جيادهم ، اعتلوا صهواتها وراحوا يضربون في السهل متفرقين مشردين لا يلتفتون وراءهم . ولوان الخمسة المكلفين بعدوة الجبل المقابلة لنا كانوا في موضعهم ، كما كان مقرراً لأبادوا جنود المدفعية ، أو شردوهم شذر مذر في السهل ايضاً ، لأنهم كانوا تحت صائب رصاصهم ، ولكنهم ، كما علمنا ، تركوا موضعهم ، لما سمعوا أزيز الرصاص في وادي فيسان ، وانضموا الى معركة إخوانهم مع حمـــلة الهرمل . تذاكرنا فيما

العمل ، بعد ان رأينا الحملة مبددة مشردة في السهل الفسيح لا يمكن أن يجمع شملها المبعثر احد فيما تبقى من ساعات النهار ، وان جمعت ، لا يمكن ، بعد تلك الهزيمة النكراء ان تعود إلى ساحة القتال ، او تقترب من الجبال ، فاقترح علينا علي الحسن ان نسير لنجدة إخواننا في جبل الشميس ، وصارحنا بأن المرأة التي حملت الينا الماء والغذاء والعتاد همست في اذنه ، وأسرت له بأنهم مضعضعون ، وعددهم قليل ، والحملة تصعد الجبل ، وهم يتراجعون ، وينسحبون الى أعاليه . ولما قلنا له: «ولكن العجوز طمأنتنا عنهم، وقالت انهم منتصرون!..» قال: «انها لم تشأ ان تضعف من عزائمكم ، وانتم في غمرة المعركة ، ولكنها أسرت اليّ بحقيقة الوضع ، وطلبت مني أن نهب الى نجدة اخواننا عندما يتسنى لنا ذلك ، ونحن الآن موقنون بأن هذه الحملة المهزومة أمامنا ، لا يمكن أن يلتئم شملها ، وتنتظم صفوفها في هذا النهار . في والليل هي أعجز من أن تقتحم الجبال ، أو تعود الى المعركة ، ومع ذلك اقترح أن يبقى خمسة مسلحين من الجعافرة في هذه القمة ، يرقبون الوضع ، ويطلقون بين الفينة والفينة رصاص بنادقهم ليشعر المهزومون بأننا ما زلنا في مواقعنا ، واننا لهم بالمرصاد ، ثم نادى عبد الحميد المرداوي ومحمد المغربي من اخواننا ، وانحدر بهما الى الوادي فالعدوة التي كان فيها الخمسة ، لينجد اخواننا في وادي فيسان من أقصر طريق ، بل ليباغت الحملة من جانبها أو من خلفها .

النصر المؤزر على العدو

- ٨٤ -

بعد ان جلا آخر جندي من الحملة الفرنسية عن خربة « سهلات المي » ، انحدرنا نحن ايضاً الى الوادي الذي خلفنا فيه جيادنا، وانطلقنا الى جبل الشميس

لمقابلة الحملة في صف إخواننا الجعافرة في جبل الشميس . ويظهر ان الفرنسيين بعد هزيمتهم من « سهلات المي » ، وتشتتهم في السهل ، جربوا جمع صفوفهم بعيداً ، ثم الاقتراب ثانية من الجبال . وكان الخمسة المسلحون من الجعافرة « في ميدان علي » انحدروا الى الخربة يبحثون عن غنائم بين قتلى الحملة ، فصمدوا للمقتربين ، وأطلقوا الرصاص على تجمعاتهم ، ففروا ثانية ، ولم يتشبثوا بعدها بالدنو من الجبال. وكانت خسائر هذه الحملة واحداً وثلاثين قتيلاً عدا الجرحى. وقتل عدد كبير من الجياد . أما نحن فلم نخسر أحداً ، ولم يخدش احد منا رغم قصفنا بمئات القذائف من مدفعية العدو .

قلنا ان حملة الهرمل زحفت الى الجبال في الليل يتقدمها زعماء المتاولة ورجالهم والمتطوعون الذين يعرفون الطرق ومسالك الجبال خير معرفة ، فهي جبالهم ، وكانت طريقهم من الهرمل الى قلب الجبال سالكة آمنة لم يعترضهم أو يقاومهم فيها احد ، واجتازوا « وادي الشربين » الى وادي فيسان بأمان ، وأدركهم الفجر ، وهم أمام جبل الشميس الذي وضعوا خطة تصعيده ، واجتياحه ليصلوا منه الى جبل اكروم. وكان زين مرعي جعفر أوفد في الليل خمسة من رجاله المسلحين يرابطون في سفح الشميس وراء الصخور وبين شجيراته فشاهدوا كوكبة الفرسان يتقدمهم قائدهم الفرنسي، يقفون على بئر للماء يمتحون منه لسقي جيادهم ، فصوب الجعافرة بنادقهم ، واطلقوها على الجند، فأصابت الرصاصة الثانية قائد الكوكبة بيده ، فأعيد جريحاً الى الهرمل ، وابتدأت المعركة ، وغبشة الفجر لما تنقشع ، وتحصن جنود الحملة الفرنسية في العدوة الثانية من الوادي ، وهي ليست جبلاً شاهقاً ، ولكنها مرتفعات وعرة كثيرة الشجر ، واحتدمت المعركة ، لما اشرق النهار بنوره ، وترجل الفرسان من الجنود ، واقتحموا مع المشاة الوادي ، وأخذوا يصعدون في الجبل ، تحميهم بنادق ورشاشات جنودهم في العدوة الثانية ، وتفرقوا ، وساروا على نسق الحرب ، وأخذ المسلحون الخمسة يتقهقرون ، متسلقين إلى أعالي الجبل .

وصلت على أصوات الرصاص والقنابل المتفجرة النجدات اليهم فرادى وأزواجاً ، ولكن الثائرين ظلوا قلة تتفوق عليهم الحملة عشرات المرات بالعدد ، وبالسلاح القاطع ، ولكنهم استطاعوا بتقاطر النجدات الصغيرة اليهم ان يوقفوا زحف الحملة في أكثر المواضع ، واشتعل وادي فيسان ناراً ، وأعاد الفرنسيون محاولة تسلق الجبل واكتساحه ، ولكن عدداً كبيراً يقدر بمئة مسلح من الجعافرة وصل قرب الظهر إلى ارض المعركة قادمين من قرية الحميرة ، وانحدروا إلى سفوح الجبل يتصيدون الجند المصعدين بين صخورها واشجارها ، وظلت الحرب في هذه الفترة سجالاً ، بين كر وفر ، وتقدم بطيء وتوقف . ولما أحس الثائرون بكثرة عددهم ، تنادوا فيما بينهم للهجوم على العسكر ، وقاموا من معاقلهم ، وانحدروا من عل كالصخر على أعدائهم ، وسقط في هذه اللحظة منهم بعض الشهداء والجرحى ، ولكنهم دحروا أعداءهم ، بعد أن تشابكوا معهم على بعد خطوات ، وأرغموهم على التراجع نحو أسفل الوادي . وكان قتلى الحملة الفرنسية وجرحاها تحمل على الخيل والدواب ، وتنقل الى بلدة الهرمل ، والذخائر والمؤن تصل تباعاً الى الجند بطريق الهرمل ، فتقدم بضعة ثائرين من آل جعفر ، قرب العصر ، من المسالك التي يعرفونها ، وتحصنوا في عقبة وراء الحملة ، وقطعوا كل اتصال بينها وبين بلدة الهرمل مقر الحملة الخلفي ، وشعر الفرنسيون بانهم طوقوا ، وقطع خط رجعتهم ، بل أدركوا فشل خطتهم كلها ، فلم تصل اليهم حملة حمص ، ولم تستطع أن تلف وتطوق الثائرين في جبل شميس ، وازداد ضغط المجاهدين على الحملة ، فقد بلغ عددهم حوالي مئة وخمسين مسلحاً ، كانوا أشداء في مواقع الدفاع ، أبطال في الهجوم ، خبراء في الرمي ، وأخذت خسائر الحملة تزداد ، وأخذ قتلاها يتساقطون في أرض الوادي وعلى السفوح ، وأصبح جرحاهم لا يجدون الملجأ ، وخاف زعماء المتاولة الذين رافقوا الحملة على أنفسهم من رصاص المجاهدين ، ففر سعدالله حمادة ولحقوا به الى مراح في وادي فيسان أقرب الى العدوة التي يتحصن فيها الجنود منذ بدء المعركة ، لجأوا اليه ليصد عنهم عادية الرصاص ، واخذ الجنود ينقلون

الجرحى إلى هذا الملجأ بعد أن تقطعت بهم أسباب الاتصال بالمرمل ، وأدرك قادة الفرنسيين مصيرهم الأسود ، فاستبسلوا ، وحملوا الجنود والضباط اللبنانيين على القتال حتى الموت ، فتساقطوا واحداً بعد الآخر بين قتلى وجرحى ، واشتد البأس على الحملة يوم وصل علي الحسن جعفر والمرداوي ومحمد المغربي من وراء الحملة يتصيدون الجند من ظهورهم ، وهم قابعون وراء الصخور ، وتغلغل الثلاثة بين الحملة ، وغامروا بنفوسهم ، فسقط محمد المغربي شهيداً ، واصابت رصاصة قريبة المرمى من الخلف إلية علي الحسن ابن عم زين مرعي ، فذهبت بلب فخذه من الخلف ، وسقط ينزف الدم من جرحه ، ولكنه ظل يرمي برصاصه من حوله من الجنود ، واستنجد بالمرداوي ، فأخذ يذود عنه ، ويجندل الجنود من حوله ، ويصرعهم . وقد شهد له علي الحسن الجريح بانه صرع ضابطاً وسبعة عشر جندياً بتفرده ، من حول علي الحسن . وأدركنا نحن آخر المعركة في الاصيل ، فوجدنا نسوة آل جعفر يحملن الزاد والماء والعتاد ، ويوصلنها إلى المجاهدين تحت وابل الرصاص ، ويحمسنهم بزغاريدهن ، فيشدون من عزائمهم ، ويضعضعن عزائم جند العدو ، حتى امتلأت ارض وادي فيسان بجثث القتلى ، وجثث الجياد والدواب ، وآذنت الشمس للغروب ، فلم يبق في أرض المعركة من الحملة إلا قتيل وجريح ، والا من لجأ حياً إلى بناء المراح في الوادي ، واحتمى فيه .
ركز المجاهدون عند الغروب نيران أسلحتهم من مواقعهم القريبة الى المراح ، والمنهزمون من الجنود يترامون نحوه للنجاة من الموت الذي كان يتخطفهم ، فلم يدخله في اللحظات الاخيرة إلا مطعون ، وتكدست أجساد القتلى أمام بابه ، حتى لم يبق في الساحة من العدو من يطلق ناراً ، عندئذ تنادى المجاهدون للهجوم على المراح ، فقد كانوا رأوا بأم عينهم الكثير من الجنود والضباط لجأوا اليه ، فاندفع سعيد الدرزي الذي كان معنا في معركة « سهلات المي » وشهر سيفه ، وانقض على المراح ، حتى بلغ بابه ، وإذا بسعدالله حمادة في الباب يعلن عن اسمه ، ويقول ان كل من في المراح بجواره وحماه ، ولما صده سعيد الدرزي ، وضع يديه على عضادتي الباب ، وسده بجسده ، وقال : « اقتلوني ! قبل أن تمسوا

احداً ممن في داخل المراح ! .. » ، ووقف وراءه زعماء المتاولة ، ووصل زين مرعي جعفر إلى الباب ، وعلا الصراخ بينه وبين سعدالله حمادة ، ثم تهامسا ، وكأن الزعيم العشائري قال لزين مرعي : « دع لي سبباً واحداً، احمل به فرانسة على أن تعفو عنك ، بعد أن ذبحت المئات من جنودها وضباطها ، ولا تنس أن فرانسة دولة قوية ، وان حملاتها تتوغل اليوم في جبل الدروز ، فتستسلم بلدانه وقراه الواحدة تلو الاخرى ، بعد ان استسلمت اكثر المناطق الثائرة في سورية ! .. » ، فتحول الينا زين مرعي جعفر ، وأعلن قبوله جوار زعيمه سعدالله حمادة ، وحماية من هم في المراح ، والسماح لهم بالخروج ، والتوجه إلى الهرمل ، بعد أن يلقوا بأسلحتهم ، لا يمسهم أحد بأذى ! .. وخرجوا أمامنا يزيدعددهم عن مئة وخمسين ضابطاً وجندياً أكثرهم من القناصة والمتطوعة اللبنانيين، وبينهم ضابط فرنسي مجروح في ظهره حمله أحد الجنود، كما حمل الجنود جرحاهم غير القادرين على السير، وانطلقوا في ظلام الليل إلى الهرمل بحماية سعدالله حمادة من زعماء المتاولة في تلك المنطقة . وبذلك تعتبر الحملة أبيدت كلها ، عدا جنود المراح، وعدا من نقل من الجرحى، أو فر من المعركة ، قبل ان يقطع المجاهدون خط الرجعة على الحملة ، ويطوقوها في وادي فيسان . وهناك دليل قطعي على إبادة الحملة ، هو أن الفرقة الثانية للقناصة اللبنانيين اعتبرت منحلة ، وظل يوسف السودا صاحب جريدة « الراية » في بيروت ، في اليوم الثامن عشر من شهر مايس من كل عام، أي في يوم ذكرى معركة وادي فيسان يصدر جريدته مجللة بالسواد ، ويكتب مقالاً يملأ به الصفحة الاولى كلها ينعي فيه جنود وضباط الفرقة الثانية للقناصة اللبنانيين الذين ماتوا شهداء في سبيل لبنان ، وهم في الواقع ماتوا في سبيل فرانسة المستعمرة سيدته وأمه الحنون ! . وقد قتل في المعركة ابن عم لسعدالله حمادة ، وجرح آخر منهم . وكان ساق نبأهما في بدء الجدل على حماية من في المراح من جند العدو ، فقيل له هذا جزاء من يمشي مع العدو ضد أهله وعشيرته !

لقد غنم الثائرون المتاولة في معركة وادي فيسان أكثر من اربعمئة بندقية وخمسين جواداً ، وجميع ذخائر الحملة وعتادهـا ورمانات يدوية ، ورمانات للبنادق ، وأدوات صحية ، وثياباً عسكرية ، وشارات بالاسهم النارية . وخسر الثائرون اثني عشر شهيداً من المتاولة ، وخسرنا نحن رفيقنا محمد المغربي، وظل مصرعه مجهولاً لدينا حتى اليوم الثاني ، إذ عثرنا على جثته الطاهرة ، وواريناها الثرى ، رحمه الله فهو من أكرم الشهداء عند الله ، اذ تخلى عن أهله وبني قومه ووطنه في المغرب العربي ، وفر من جيش العدو الذي أرغم على أن يكون جندياً فيه ، وفر الى صفوف المجاهدين السوريين العرب ، وتحمل معهم كل مشاق الثورة ومتاعبها ، ولكنه في هذا اليوم مات في سبيل الوطن العربي ، وأكد بدمه وحدته من المحيط الى الخليج . وقد حق على المسؤولين في عهد الاستقلال والوحدة أن يقيموا عند مثواه ، أو في وادي فيسان ، أو في أي ساحة من ساحات المدن السورية القريبة من أرض المعركة ، نصباً يخلد تلك المعركة العظيمة من معارك الحرية ليكون النصب رمزاً للوحدة التي مات في سبيلها جندي عربي مجهول ، لأننا لا نعرف شيئاً عن اسم عائلته واهله وعشيرته وبلده في المغرب العربي ، مثلما مات له رفاق من الجنود العرب المغاربة في ساحات أخرى ، كانوا أيضاً فروا من الجيش الفرنسي ، والتحقوا بالثورة السورية، واستشهدوا في معاركها، واختلط دمهم العربي بدم اخوانهم السوريين العرب . واستشهد في معركة وادي فيسان امرأتان، وجرح ثلاث نسوة وسبعة رجال . وكان في عداد الشهداء جهجاه نعمة أحد زعماء آل جعفر ومن أقرباء عبد علي السعدون زعيم بيت جعفر . أما القوة الفرنسية المرابطة في وادي حنا لدى آل زعيتر ، فقد فرت ساعة بلغتها هزيمة الحملات الفرنسية . وقابل مسلحو قرية « القبيات » خمسة مسلحين من آل جعفر ردوهم الى منازل قريتهم ، ويعدون بالمئات .

وزحفت قوة وادي خالد الى اكروم قصدها زين مرعي جعفر ورجاله .

وكانت اطول المعارك في ذلك اليوم التـاريخي المشهود معركة وادي فيسان من الهرمل ، فقد دامت بضع عشرة ساعة ، تجمع في ساعاتها الاخيرة ، وفي مختلف جهاتها جميع الثائرين ،واعوانهم من آل جعفر غـير الثائرين من قبل ، استطاعوا دحر الحملة ، وتطويقها ، ثم إبادتها ، رغم أنهـا في مواقعها الاستراتيجية كانت تضاهي مواقع الثائرين ، فقد تحصن جنودها في الجبال ، وافادوا من الصخور والاشجار ، وكان عددهم يفوق عدد الثائرين أضعافاً مضاعفة ، مجهزين بأحدث الاسلحة ، ولكن البطولات التي ابداها الثائرون كانت تفل كل سلاح للعـدو ، وتتفوق على اعداده . ولما حدثني عبد الحميد المرداوي امام علي الحسن الجريح عما فعل في ذلك اليوم ، وشهد بذلك الجريح ، قلت للمرداوي : « ولكن هذا تهور قد كان يودي بحياتك الى جانب صاحبك محمد المغربي الشهيد ، وعلي الحسن الجريح ،قال: « ان من انقذه الله من الموت رمياً بالرصاص ، يوم وقـع اسيراً بقبضة الفرنسيين في حمص ، لا يدنو منه ملك الموت، وهو طليق بيده بندقية» فضحكت لقوله ، وهنأته بالسلامة .

وقد ترأس هذا البطل في ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ عصابة من شباب « بيت مرين » قريته ، والقرى المجاورة لها ، وقاتل الانكليز اروع قتال حتى استشهد ليضرب اروع الامثال على بطولة عرب نابلس ابناء جبل النار ، كما يسمونهم في بلاد الشام . وبيت مرين قرية في منطقة نابلس اثبتت عن جدارة حقها في هذا اللقب . وحدثني فلاح من أهل قرية القصر ، في الايام التي تلت المعركة ، انه كان مع اثنين من ابناء قريته يحصدون زرعاً في السهل قريبـاً من الجبل الذي كنا تحصنا فيه لصد حملة حمص الزاحفة من القصر ، فمرت به كتيبة الفرسان الفرنسيين التي انحرفت في بادىء المعركة عن طريقها ، واتجهت نحو الشمال تحاول ان تجد مدخلاً لها الى الجبـال ، ثم فاجأها رصاص الثائرين اللذين ارسلناهما لمناوشتها ومنعها من دخول الجبال ، قال : «وصلت الكتيبة في هزيمتها الى المكان الذي كنا نحصد فيه ، وترجل جنودها ، وتوسدوا مع ضباطهم الارض اتقـاء

المرصاص ، وكان الضابط قريباً مني ، فصاح بي وبرفيقي ان نتوسد الأرض ايضاً ، ففعلنا ، وأشار الي باننا ان لم نتوسد الأرض فسيصيبنا رصاص الدروز الذي يصدر عن الجبل بتسديد صائب ، وسألني : هل الدروز كثيرون في هذه الجبال؟ ، فقلت له : انهم كثر ! .. فنفخ حنقاً ، وقال : « انتم تؤونهم وتطعمونهم ، ثم تتظاهرون بانكم اصدقاؤنا! .. تباً لكم ! .. » ، وهنا خفت وطأة الرصاص ، فاشار الى جنوده بالانسحاب ، فهبوا الى جيادهم يمتطون متونها ، وفروا الى الشرق ، بعيداً عن الجبال ، لا يلوون على شيء ! ..

وحدثني شاب جريح من آل جعفر غير الثائرين الذين بادروا لنصرتنا ، وكانت نصرتهم سبباً في سحق الحملة وابادتها في وادي فيسان ، واسمه ديب ، قال: دخلت المعركة دون ان يسبق لي خوض معركة حربية من قبل ، وبينما كنت اطلق من وراء صخرة الرصاص على من أراهم يصعدون جبل الشميس من الجنود ، ظهر امامي ، وراء الصخرة التي اتحصن فيها ضابط فرنسي شاب مكشوف الرأس ، أشقر الشعر ، ليس بيده غير المسدس ، فسولت لي نفسي القبض عليه حياً ، واخذه اسيراً ، فوضعت بندقيتي جانباً ، وقفزت كالفهد من الصخرة على الضابط ، فوقع ، ووقعت فوقه ، وتعاركنا ، وكنت أعزل ، فاستطاع ان يدير المسدس الى رأسي ، ويطلق منه ، فأصابني برصاصتين في الصدغ ، وبثالثة وجهها الى صدري ، وفر ، ولكن رفاقي القريبين مني صرعوه برصاصهم الى جانبي ، ثم حملوني الى من ابعدني عن ارض المعركة ! » . وقد توجهت مع رفيقي جميل العلواني الذي كان شفي من الدمل ، وخاض معنا المعارك ، الى مراح قيل لنا ليلة المعركة ان فيه عدداً من الجرحى ، فوجدنا فيه ديباً هذا ، وجريحاً آخر اصابته رمانة قذفتها بندقية ، في العمود الفقري ، قضى منها شهيداً ، بعد آلام مبرحة ، قاسى منها تلك الليلة ، إلا ان ديباً الشاب شفي خلال ايام قليلة ، رغم ان الرصاص خرق صدغه ، وجانب رأسه في موضعين ، وصدره في موضع واحد ، فكانت جراحه في الرأس شبيهة بجراح نظير النشواتي صغيرة المدخل

بثخن المسلة للخياطة، وبحجم الحمصة من المخرج، لذلك لم نجد صعوبة في تضميد جراحه ، وتطهيرها .

وفي اليوم الثاني ركب دابة الى ارض المعركة ، وجاء ببندقيته التي خلفها فوق الصخرة . وهذا يدل على ان الذين خاضوا معنا المعركة من آل جعفر كانوا رماة ماهرين،ومن ذوي الشجاعة التي ساعدت على النصر ، رغم قلة خبرتهم في المعارك ، وأمور الحرب. ونجاة ديب من ثلاث رصاصات في رأسه وصدره تؤكد ان الحي ليس له قاتل ، فقد مر علينا في الثورة تجارب لم ننسها ، وكنا نرى المتخلفين عن المعركة ، والمتسكعين للهرب منها ، يصابون اكثر مما يصاب الذين يقتحمونها ، ويكونون في الصفوف الاولى . واذكر يوماً رافقت فيه ، مع عدد من اخواني السوريين ، سلطان الاطرش ، لأول مرة ، من بلدته القرية — بتشديد الياء — الى السويداء ، ومعه عدد من فرسان الدروز ، فصادفتنا في الطريق طائرة ، كانت على علم ، كما يظهر ، بأن سلطاناً في بلدته ، وسيعود الى السويداء ، لأنها كانت منخفضة تتعقب الطريق غير المعبدة ، لتكتشفه ، فلما سمعنا هدير محركها ، ورأيناها ، ترجل الفرسان ، وتفرقنا في السهل مبتعدين عن الطريق ، وتوسدنا الارض اتقاء القنابل التي اخذت تلقيها علينا، الا سلطان الاطرش فقد ظل على صهوة جواده، يتابع سيره، دون ان ينحرف عن الطريق، حتى افرغت الطائرة حمولتها ست عشرة قنبلة ، لم تصب بها احداً منا ، فعجبت يومئذ لرباطة جأش سلطان ، ولكنني آمنت بعدها ، من التجارب في المعارك ، ان الموت يأتي المرء ولو كان في بروج مشيدة ، وان كتب الله له السلامة لا تصيبه شدة ، وان اصابته لا تقتله . وحكاية الثائر من آل عامر في جبل الدروز الذي اصيب بسبع عشرة طلقة في ساقه وفخذه وبطنه وجسمه ، وظل نهارين وليلتين من شهر آب ١٩٢٥ في الشمس المحرقة ، وفي برد الليل ، ينزف دمه ، حتى وجده في اليوم الثاني لمذبحة المزرعة فلاح حوراني حمله الى بيته ، وعالجه بحمي السمن والدبس وكي الجراح ، حتى شفي ، واشترك في معارك الثورة

الاخرى ، لجديرة بأن يرجع المرء الى مغزاها، وان لا يجبن، وان يقابل احداث الحياة برباطة جأش ، فالآجال بيد الله : « فاذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون .. »

اثر النصر على المناطق المجاورة

- ٨٥ -

لم نكد ننتهي من معركة وادي فيسان حتى حلقت ست طائرات افرنسية في السماء تلقي قنابلها على مواقع المجاهدين ، واستمرت الطائرات الست تزور جبال اكروم مرتين ، واحياناً ثلاث مرات في النهار الواحد ، تقصف المواقع ، وتلقي مئات القنابل ، حتى لم يبق واد، ولم يبق جبل في المنطقة لم يقصف أو لم تصبه النار ، وانتثرت فيه شظايا الحديد ، فتكبد الاهلون الخسائر، وخاصة فيقطعان ماعزهم ، تقصفها ، وتنقض عليها بالرشاشات ، كأنها سرايا من الثائرين ، وتقتل منها في كل غارة العشرات . وقد اقام الفرنسيون بعد مذبحة وادي فيسان ، وهزيمة حملاتهم الاخرى، حامية من اربعمئة جندي في قرية « زيتا » ، واقاموا حاميات اخرى في قرى « القاع » ، و« بلة » ، و« رأس بعلبك » و«الهرمل» ، و « وادى خالد » ، واقاموا مخافر من الجند على جسور نهر العاصي القريبة من المنطقة ، ومنها جسر « تل النبي مند »، وبذلك ضربوا نطاقاً حول الجبال ، مما يدل على ان فرانسة كانت تخشى ان يقوم الثائرون ،بعدانتصارهم على حملاتها، بهجمات من الجبال على الخطوط الحديدية والمواصلات ، وعلى مراكزها الحساسة الاخرى القريبة من الجبال ، ولاسيما قد جرت محاولات جدية لاثارة منطقة قلمون ثانية عليها، بزحف القاوقجي من الغوطة ،وقيام توفيق هولو حيدر ببعض

النشاط في جبال بعلبك ، حتى اضطرت إلى فتح باب التطوع في جيشها ، واحداث مراكز له في حمص وحماة وحلب ، فتجمع لديها بضعة آلاف من المرتزقة والجنود ، عينت الجنرال « بيوت » قائداً عليهم ، لاخضاع مناطق الثورة الجديدة واحدة بعد الاخرى ، ، على أن تبتدىء باخضاع منطقة بعلبك ، فقلمون ، فالضنية ، فجبال اكروم . وقد قيل بمناسبة بعلبك ان توفيق هولو حيدر استطاع بنفوذ ثورة الجعافرة في جبال أكروم وانتصاراتها أن يجد ثائرين في قرى اللبوة ، والنبي عثمان ، ويونين ، ونحلة وسواها ، وان يهاجم بهم بعلبك ، ويحرق دار حكومتها ، وان يهاجم محطة اللبوة ويحرقها مما أثار قلق الفرنسيين ، وجدد الإيمان بقوة الثورة ، فزحفت حملتهم إلى منطقة بعلبك ، تحرق وتهدم القرى التي ثارت أو دخلتها العصابات بالمدفعية والطائرات ، ويرتكب جنودها من الفظائع ما يندى له جبين الانسانية ، ثم انتقلت الحملة إلى قامون تطهرها من العصابات .

لم يفرح آل جعفر للنصر الذي حققه الثائرون بمساعدتهم ، إذ كانوا لا يذكرون زين مرعي جعفر الذي ورطهم إلا بالشتائم ، ويحملونه مسؤولية مصرع اثني عشر شاباً من خيرة شبابهم ، ومسؤولية تعريض قراهم للغارات الجوية المتوالية مما سبب القلق والاذى لهم . وزاد في الطين بلة عملاء فرانسة الذين كانوا يروجون بين المتاولة أن الفرنسيين يجهزون حملة بعشرة آلاف جندي تثأر لهزيمتهم في جبال اكروم ، مما زاد في هلع غير الثائرين من آل جعفر ، واعتقادهم الا قبل لهم بصد مثل هذه الحملة الكبيرة ، فأرسلوا يدعون زعماء العشائر الأخرى كآل علاو ، وآل شمس ، وآل زعيتر ، وآل دندش يستشيرونهم ويستنجدون بهم ، ويتداولون معهم في الطريقة الواجب اتباعها ! فعقدوا اجتماعاً في قرية « مرجحين » استمر يومي الثلاثين والواحد والثلاثين من شهر مايس ، حضره جميع زعماء عشائر المتاولة الحمادية ، حتى ان حسن طعان دندش حارس الخط الحديدي حضر الاجتماع ، وحضره أيضاً باسمنا العقيد سعيد العاص الذي

وجد فيه فرصة للحديث عن أهداف الثورة ، وحث المجتمعين على توحيد الكلمة ، والاتحاد ضد الفرنسيين الغاصبين ، وإلا أضاعوا الانتصارات التي حققوها إلى اليوم ، وباءوا بخسران مبين ، وكتب لهم العاص عهداً وقعه جميع الزعماء ، وأقسموا الايمان على تنفيذه بإعلان الثورة في جميع مناطقهم ، وانتخاب حسن طعان دندش زعيماً وقائداً لها لقاء راتب شهري يعادل ما يتقاضاه من الفرنسيين لقاء حراسة الخط الحديدي ، وتعهد آل جعفر بتزويد شباب العشائر الأخرى بجزء من السلاح الذي غنموه من الحملة الفرنسية ، ثم حددوا اليوم الثاني من شهر حزيران موعداً لاجتماع الزعماء ورجالهم المسلحين في قرية القصر ، للانطلاق منها إلى تخريب الخط الحديدي ، ومهاجمة المراكز التي ترى القيادة ضرورة لمهاجمتها. وقد علم الفرنسيون بهذا الاجتماع ، فأرسلوا طائراتهم تقصف قرية « مرجحين » ، وأرسلوا بواسطة عملائهم من آل حمادة في الهرمل يدعون زعماء العشائر إلى اجتماع عقد في قرية « حباب » بلدة حسن طعان دندش ، حضره جميع الزعماء بما فيهم آل حمادة ، والكابتن «ماميه» ضابط المصالح الخاصة في زحلة وبعلبك، حيث عرض عليهم المستشار استعداد فرانسة لتلبية كل مطلب يطلبونه لقاء الرجوع عن قرارات مؤتمر « مرجحين» وخدر أعصابهم بالوعد والوعيد ،وقطع لهم عهداً بالعفو عن زين مرعي جعفر وجميع الثائرين من آل جعفر ، وعدم مطالبتهم بأي غرامة أو تعويض عن كل ما خسرته فرنسا من جراء الثورة ، وأقنع حسن طعان دندش بالبقاء على ولائه لفرانسة ، وزاد راتبه الشهري عن حراسة الخط الحديدي زيادة أرضته .

وهكذا غلبت الديبلوماسية الفرنسية سعيد العاص وإخوانه الذين وقعوا القرارات ، في مرجحين ، لو نفذت لكانت ثورة المتاولة اعظم خطراً على فرنسا من ثورة جبل الدروز ، فهي ثورة في أمنع جبال في بلاد الشام تسيطر على جميع المواصلات بين المدن الكبرى في سورية ولبنان ، وتهدد مدن طرابلس ، وحمص وحماة ، عدا بلدان بعلبك والبقاع ، بل تهدد مدينة بيروت مقر المفوض السامي

الفرنسي نفسه . أدرك زين مرعي جعفر أن الفرصة السانحة اليوم قد لا تعوض، فأرسل وسطاء من آل حمادة يعرض استسلامه على الفرنسيين ، ورغم تكتمه في قضية الاستسلام، فان ابناء عمه المخلصين للثورة، ومنهم علي الحسن الذي أبدى بطولة تسجل له في معركة وادي فيسان ، نقلوا الينا أنباءها ، فأصبح موقفنا ، نحن الغرباء ، حرجاً، بعد ان تم للفرنسيين اخضاع المنطقة بالدسائس والمغريات ، وأصبحنا نشعر ان المفاوضات بين زين مرعي والفرنسيين لا تدور على غرامة أو تعويض يدفعه زين مرعي تكفيراً عما أنزلته الثورة بهم من خسائر ، ولكنها تدور حول القضاء على سعيد العاص وزمرته . وكنا نحن الغرباء عن ابناء الجبال لا نخشى فرنسا ان تهاجمنا ، ولا نخشى ان يخامر علينا آل جعفر الذين لمنافيهم من الخلال العربية ما ينزههم عن ارتكاب مثل هذا الغدر ، ولكننا بتنا نخشى غدر زين مرعي جعفر نفسه ، بعد ان عرفناه مجرماً بالفطرة ، ليس لمقاييس الاخلاق والمبادىء عنده وزن . وزاد في قلقنا أن إخوة زين مرعي وأبناء عمومته الثائرين اهملونا ، بعد بدء المفاوضات ، الاهمال الكلي ، فقد عهدوا الينا بحراسة مضيق في الجبال يشرف على السهل الشرقي، وحملونا ، بسبب تلك الحراسة ، على الاقامة سبعة عشر يوماً متوالية في مراح شتوي يدعى « قنيفد » ، هو عبارة عن مجموعة من المنازل البدائية التي ليس لها ابواب ولا نوافذ تغلق وتفتح ، مهجورة في الصيف . وكان هذا المراح يشرف من المضيق المرتفع على قريتي « القصر » و « زيتا » ، وما يحيط بهما من السهل ، وليس في المراح ماء ، وليس هناك ماء قريب من موقعه ، لان سكانه في الشتاء يستقون عادة من ماء المطر الذي يملأ الحفر، أو ما يسمونه « القليب » في الصخور. وكانت مهمتنا ، حسب قولهم ، ان نحول دون دخول الفرنسيين الجبال فجأة ، وان نشغلهم حتى ينجدونا من أماكنهم البعيدة في اعالي الجبال والجرود . وكان عددنا زاد بعد المعركة ، فقد التحق بنظير النشواتي عشرة من الشبان الحمصيين الذين بلغتهم انباء الظفر في معركتي « ميدان علي » و « وادي فيسان » ، وفي

عدادهم الثلاثة الذين نجوا من الموت في حادث خربة غـــازي ، واختفوا في الزروع خارج القرية ، الى الليل ، وفي عدادهم ايضاً الثائر الذي جرح بكتفه في حادث الماخور ، في حمص . وانضم الينا ايضاً حسن رعد زعيم القصير رغماً عن أهلها ، مع ستة من اولاده الشبان ، فروا من منطقتي الغوطة وقلمـــون ومعاركها ، وجاءوا الينا بعد ان ملأت انباء انتصاراتنا اجـواء سوريا كلها ، لعلهم يجدون في المنطقة القريبة من القصير الراحة بعيداً عن المعارك ، وقريباًمن بلدتهم « القصير » التي يريدون تأديب أهلها الخارجين على زعامـــة « حسونة رعد » ، فأصبح عددنا نحن الغرباء عن المنطقة يناهز الاربعين مسلحاً، يحتاجون الى تموين ، والثـــائرون من آل جعفر رعاة رقيقو الحال ، فقد كانوا يأتوننا إلى هذا المكان النائي المنعزل الخالي من السكان والجيران ، برغيفين من الذرة لكل واحد منا في اليوم كله ، دون إدام ، وتارة ينسوننا اليوم كله دون طعـــام ، وتارة يأتوننا بعزاة أو تيس حي بلا خبز ولا ملح ولا قدر نطبخ فيـه الطعام . وكان الثائرون المتاولة يرسلون رجالهم الى القرى في السهل يطلبون منها باسمنـا المؤن من ماشية ودقيق وسمن ، أي يطلبون إعاشة منها باسم الغرباء فيجبلهم ، ولا ندري ماذا كان يجبى ، وماذا يصل الينا منه ، ونحن نتحمل الجوع والعطش والحرمان في هذا المكان الذي لا يصلح إلا حظيرة للماشية في الشتاء . وقد نضبت الماء من القلايب ، وانتنت بعد انأسنت ، لأنها مياه تجمعت من الامطار ، فيحفر الصخور ، واصبحنا في اواخر شهر حزيران . لقد تمزقت ثيابي وثياب صاحبي جميل العلواني ، ولم يبق لدينـــا قميص داخلي نبدل به ملابسنا ، لنغسلها ، وألهب أجسادنا لذع القمـــل والبراغيث ، فقررنا نحن الاثنـــين السفر الى حمص مشياً على الاقدام ، لعلنا ، إن سلمنا ، ان نتدارك فيهـــا لوازمنا ، ونحصل على راحلتين ، فقد أصبح الاستمرار بالثورة على من هم في وضعنا يبدو كالمستحيل .

جاسوس يدل الفرنسيين على موقعنا

جاءنا في مكمننا في « قنيفد » بعد ظهر احد الايام حلاق قال انه قادم من السهل ، فأقبل عليه الرفاق يزينون لحاهم وشعورهم ، واكرموه بما اعطوه أجراً. ولكن في اليوم الثاني اقبلت طائرة تقصف موقعنا . وصادف قصفها اليوم الذي وصل فيه حسن رعد واولاده الى مقرنا ، فقتلت جوادين من جيادهم ، وجرحت بعض رفاقنا بشظايا قنابلها جراحاً خفيفة ، فكفرحسن رعد بربه ، وسب ولعن حنقاً ، واتهم خالقه بأنه يلاحقه بالمصائب والنكبات أنى سار واينما حل !... ثم ركب مع اولاده وغادروا المكان . وكنا نقيم فوق ذروة مشرفة على السهل ديدباناً نتناوب كلنا مهمته في الليل والنهار، حتى لا نفاجأ بضربة من الفرنسيين الذين نعرف انهم يعتبروننا سبب كل ما نزل بهم من هزائم وخسائر في هذه المنطقة. وفي صباح الرابع من شهر حزيران عام ١٩٢٦ الباكر استيقظنا على تساقط قذائف المدافع فوق المنازل التي يتألف منها المراح ، والتي نسكنها ، فخرجنا منها مسرعين الى سفح الجبل المطل على السهل حيث يقف الديدبان ، وتفرقنا بين الصخور ، وفريق منا تسلق أمكنة أعلى ابتعاداً عن القذائف التي كانت تتساقط تباعاً وتتفجر ، وكادت تقتل بعض اخواننا ، فقد كان القصف مباغتة ، واكثرنا نيام ، فارتبك امرهم من هول المفاجأة ، وتلكأ بعضهم في الابتعاد عن المباني التي كانت الهدف للتصويب والتسديد . شاهدنا من المواقع التي اتخذناها في الجبل ، مبتعدين عن المراح ، سرية من الجند تقف في وسط السهل حول اربعة مدافع تفغر أفواهها ، وتمطرنا بنيرانها ، ورأينا رشاشين وسرية أخرى من المشاة توسد افرادها الارض على جانبي جنود المدفعية ، فأخذنا ننتقل بين الصخور ، ونهبط بحذر الى سفح الجبل ، حتى اصبحنا من المدفعية على مسافة قد تصل اليها نيران بنادقنا ، ولبثنا ننتظر النتيجة ، وهل سيتبع القصف زحف الى معقلنا في الجبل ؟. لقد دام القصف ثلاث ساعات متوالية ، حتى تهدم منه

بعض منازل المراح ، وزاد عدد القذائف على المثنة ، ثم رأينا الجنود يحملون المدافع على ظهور البغال ، ويعودون نحو قرية زيتا ، ففاجأناهم



فريق من المجاهدين البارزين بينهم ابو عمر ديبو ، وحسن رعد ، والأمير احمد الشهابي .

بنار بنادقنا من وراء الصخور ، مما اضطرهم الى التشتت والركض ابتعاداً عن الجبال ، وبذلك ثأرنا منهم بقدر سلاحنا ، وزرعنا الرعب في قلوبهم .

الفصل الخامس عشر

النزوح والتعرض للوقوع بيد الفرنسيين !

-٨٦-

تحقق لنا ان الفرنسيين مشغولون بتجهيز حملة للزحف الى قلمون ، فقدرنا ان ليس بوسعهم الزحف في هذه الفترة الى جبالنا ، وأعلمنا إخواننا الجعافرة بذلك ، وطلبنا منهم ان ننتقل الى مكان نجد فيه ماء للشرب والغسيل على الأقل ، فلم يزدادوا إلا إهمالاً على إهمالهم إيانا ، فقررنا الرحيل عن منطقة المتاولة كلها تخلصاً مما نحن فيه من الجوع والحرمان وشظف العيش ، والشعور بالإهمال المتعمد ، لا سيا وبعضهم كان جاهر في حديثه الى سعيد العاص عن عدم رغبتهم في بقائه مع جماعته ، وطلب منه الرحيل عن المنطقة ، وبعضهم كان نصحه بالرحيل وحذره من غدر زين مرعي جعفر ، ونبهه الى أن مفاوضات الاستسلام لفرنسا تدور شروطها حوله مع جماعته ، لذلك غادر سعيد العاص بمن معه من الخيالة الحمويين المنطقة الى الضنية ، وتخلف المشاة من رفاقنا الحمصيين للاستئذان من نظير النشواتي بالعودة سراً الى حمص . أما أنا وجميل العلواني ورفيق ثالث حموي اسمه محمد ديبو ، تصغيراً لاسم ديب ، فقد انحدرنا قبيل غروب السابع من شهر حزيران من موقعنا في الجبال الى نزل للاعراب من قبيلة « العتيق » ، وتناولنا العشاء في مضاربهم ، وسألناهم عن جسر العاصي في قرية « تل النبي مند » ،

فعلمنا ان الفرنسيين سحبوا مخفرهم على الجسر، فقررنا عبور العاصي، بطريقنا إلى حمص، من هذا الجسر، بعد ان كنا مضطرين لعبوره سباحة من مكان آخر.
وبعد ان أرخى الليل سدوله، سرنا على أقدامنا باتجاه الشمال الشرقي في السهل، دون ان نسلك طريقاً، فضللنا الاتجاه، واضطررنا لأن نهتدي بنار في مضارب لحي من عشيرة « الفواعرة »، سار معنا احد أبناء الحي دليلاً، وكان رائدنا على الجسر، وبعد ان تأكد أن ليس عليه حراسة فرنسية، ودعنا وعاد الى حيه، فقضينا عشر دقائق للراحة في طاحون بجانب الجسر، ثم سلكنا الطريق الى حمص، ولبثنا في قرية « كفر عبده » بعض الوقت ريثما تسلم رفيقنا ديبو الحموي جواده الذي كان مريضاً، واودعه في هذه القرية، يوم جاء مع رفاقه الحمويين العشرة الى جبال اكروم، ثم تابعنا السير الى قرية « تل الشور » على مقربة من قرية « قطينة » المسيحية، وتخلينا بعدها عن الطريق، نتعقب مجرى ساقية حمص خشية ان نصادف في الليل نقليات عسكرية، أو دوريات على مقربة من مدينة حمص، فتداركنا فجر الثامن من حزيران، ونحن في موقع يسمى « المشرع »، وكان بودنا ان نبلغ بساتين حمص قبل ان يدركنا النهار لنختفي فيها عن العيون إلى الليل، ثم نسير بطريق البساتين الى « زور الجديدة » في حمص، حيث هناك بستان لآل السباعي أخوال رفيقنا جميل العلواني، في ضواحي المدينة، يمكن ان نختفي فيها ريثما نضع الخطة لتدارك لوازمنا من حمص أو من حماة بلدتنا، واضطررنا عند المشرع لأن نلجأ الى مضرب لعشيرة « النعيم » نسأل ربه الطريق الأمينة الى البساتين، فسار معنا خطوات، وأدرك وضعنا، وحذرنا من السير الى البساتين، بعد أن انجلى الظلام، لاننا أصبحنا على بعد عشرة كيلومترات من حمص، والجنود الفرنسيون يخرجون كل يوم للتدريب في ضواحي المدينة، كما ان قوافلهم تسير في النهار تنقل الجنود والمؤن الى جبهات اكروم، على نفس الطريق التي نسلكها الآن، ولهم في البساتين التي امامنا مخفر على جسر للخط الحديدي، في طريق حمص – طرابلس. وإزاء هذه الاخطار التي عددها الاعرابي، وهو يهرول معنا، توقفت فجأة وقلت له: « هل اخونا العربي النشمي، وهو يعرف

الأخطار المحيطة بنا ، مستعد لتحمل مسؤولية إخفائنا في بيته ؟.. » ، فتردد قليلاً ، ثم قال : « هلموا .. عودوا سريعاً الى البيت !» وفي المضرب المنصوب بجانب القناة (الساقية) بادر فوراً الى سلاحنا وعتادنا ، ولفه بقطعة مضرب عتيق من مضارب الجيش الالماني في الحرب الكونية ، وحفر حفرة في الارض الرخوة القريبة من الساقية وطمر اللفافة ، ثم عاد الى الخيمة يتميز لباسنا ، فقال لي وللعلواني : « اخلعا هذه الثياب عنكما فهي لا تتناسب مع بيئتنا البدوية ، وبادر الى ثيابه المستعملة في البيت ، فأعطانا منها ثوبين ، واعطاني عباءة عتيقة ، وقال لرفيقنا ديبو : « ابعد بحصانك عن هذا المكان فانه درب للغادين والرائحين ، واعتقد انه جـــواد عسكري ! » ، فصادق ديبو على قوله ، فقد كان استولى عليه من مخفر « مورك » شمالي مدينة حماة ، وسلبه من رجال الدرك ، يوم هاجم مع رفاقه ثائري حماه المخفر ، واستولوا على ما فيـه من سلاح وجياد ، ثم أضـــاف الاعرابي : « اذهب بجوادك الى الحي الذي تراه امامك ، فأهله من عشيرتنا ، وانزل ضيفاً عليهم ، دون أن تتحــدث اليهم بشيء عن هويتك ووضعك !.. » ، فامتطى محمد ديب جواده ، وسار مبتعــداً عنا .
والتفت الاعرابي الى جميل العلواني وقال له : « ابق انت في البيت ، وربتـه ستعنى بك » ، ثم قال لي : « امش أنت يا ولد معي ! .. اركب هذا المطي ، وامسك هذه العصا بيدك ، واهتف للقطيـع ، وسر في مقدمته !.. » وهكذا سرت وصاحبي يهش على الغنم بعصاه ، حتى بلغنا ارضاً حصيداً في العراء ، أطلق أغنامه فيها ، وتواردت بعدنا قطعان الماشية مع رعاتها الى هذه الارض الواسعة ، واجتمع الرعاة للفطور ، وجاء كل منهم بزاده ، وأكلنا مجتمعين حول سماط ، والرعاة ينظرون الى وجهي ، ويـــدركون أنني لست بدوياً مثلهم ، ولكنهم حسب تقاليدهم لا يسألون صاحبي عني ، حتى تكلم هو ، وقال : « أتعلمون هذا الولد الذي معكم من أين ؟.. » ، قالوا بلسان واحد : « لا والله !.. » ، قال : « انه من النشامى الذين نسمع من هنا أصوات المدافع تتفجر بينهم .. هناك .. في الجبال ! » ، قال هذا وسكت ، وهتف جميـع الرعاة : « يا هلا ! » ، وقلت:

« بكم .. ! » ، ثم ارتفعت الشمس ، ، واشتد الهجير ، فحاولت أن اغفو قليلا ، والليل كله قضيته في المسير ، كي استجم ، وأقوى على السير في الليل ، ولكن أنّى لي النوم في حر الشمس ، وأحس صاحبي بتقلبي تحت العباءة ، فناداني ، وقال . « عليك بمضارب الحي الذي تراه أمامك ، فهناك صاحبك الخيال ، حيث تأخذ لنفسك قسطاً من الراحة ، وتنام في ظل البيت ! » . فسرت الى الحي حتى بلغته ، وقصدت المضرب الكبير فيه حيث وجدت ديبو نائماً فيه ، فحييت ، وجلست قليلا ، ثم توسدت اللبد قريباً من صاحبي ، ورحت في سبات عميق لم يوقظني منه إلا صوت صاحب البيت يدعونا الى الطعام ، ويده تهزني ، فجلست مع ديبو أتناول الغداء ، ثم تمددنا ثانية ، ورحنا في سبات طويل لم استيقظ منه إلا على قدم ترفسني ، وصوت ديبو يقول لي مذعوراً :

« انهض ! عسكر !.. » وتلفت حولي فرأيت ضابطاً وجنديين من الدرك يترجلون عن جيادهم أمام البيت ، وينادون أصحابه ليتسلموا منهم الجياد ، فأدركت لأول وهلة ، من ملاحظة وضعهم ، انهم قادمون الى الحي مصادفة ، وليس للقبض علينا بناء على اخبار وصل اليهم ، وإلا لأعدوا للأمر عدته . وانتظرت ان يدخلوا مضرباً آخر ، لذلك سحبت العباءة اغطي بها وجهي ، وتظاهرت بالنوم ، وقام ديبو ينسل بهدوء من البيت ، ثم سمعت صوتاً يسأل : « من النائم هنا ؟ » ، فأدركت انهم يقصدون البيت نفسه . ونهضت متظاهراً بالخشية والاحترام لرجال الدولة ، دون ان اجعل أنظارهم تقع على وجهي ، وخرجت من البيت ولكن احد الدركيين فطن الى انه لم ير وجه رفيقي الذي رآه خارجاً قبلي بملابس فلاحين تختلف عن لباس البدو ، فناداه ، ولما رآه دعاه اليه ، ثم فطن الى انه لم ير وجهي ايضاً ، فصاح بي أن أقف ، ولما وقع نظره علي قال : « وانت تعال الى هنا ! » ، وقبض على معصمينا بيديه ، وأعادنا الى المضرب حيث يقف الضابط وزميله الدركي ، وقال : « انهما ليسا من أبناء الحي .. لا بد من التحقيق معهما ، ومعرفة سبب وجودهما هنا في مثل هذه الظروف ! » ، وراح بدوره

يفتش جيوبنا ، ولم يكن معي غير علبة للفافات التبغ ، عثر عليها ، ثم عثر على بندقة رصاص في جيب صـــاحبي ، من النوع الانـكليزي ، اذ كان ديبو فتح مزلاج بندقيته اثناء سيرنا في الليل ، فلفظهـا ظفر المزلاج ، وسقطت ، وأسرع ديبو الى التقاطها من الارض ، وألقاها في جيبه ، ولم يعدها الى مكانها في البندقية ، فسأله الدركي: « ومن أين لك هذه ؟ » قال ديبو : « وجدتها في الارض ، وأنا أمشي ، فالتقطتها ! » ، قال : « ومن أي بلد أنت ؟ » قال : « من السخنة » ! وهي قرية كبيرة بين تدمر ودير الزور ، ونظر الضابط الملازم الينـــا ، وقال للجندي : « احتفظ بها ، فإن هيئتها تدل على أنها غريبان عن هذا الحي !» ، وجلس الضابط ، وجلس الى جانبه الجنديان ، بعد أن أسندا بندقيتيها أمامها الى جانب المضرب ، فأصبح سلاحها أقرب الينا ، ونحن نجلس في عتبة البيت ، منه اليها . وكان هذا الوضع سبباً لاطمئناني ، لأنني عزمت ، عنـد اليأس من الخلاص ، ان اقفز الى احدى البندقيتين ، فأطلق أول رصاصة في خزانهـا على الضابط ، لئلا يكون معه مسدس يخفيه تحت ردائه من الخلف ، ثم اباشر الجنديين بالرصاصات الاخرى . ولا ريب ان صاحبي ديبو سينهض للاستيلاء على البندقية الثانية ، ثم نهدد الاعراب بسلاحنا ، ونستولي على خيل الجنود ، ونسير بها الى المضرب الذي تركنا فيه جميل العلواني ، ندعوه بعد ان نأخذ سلاحنا لمرافقتنا الى جبال حسية نجتازها الى قلمون ، فقد أصبحنا خبراء في طرقها والطرق التي توصلنا إلى الغوطة . هذه هي الخطـة التي رسمتها ، وأنا أستمع إلى الاستجواب الدقيق الذي كان يقوم به الدركي مع زميلي ديبو ، وكان وجـه إليَّ سؤالاً في بادىء الأمر عن اسمي وإلى أي بلد انتمي ،فقلت له اسماً من أسماء الفلاحين التي تتركب من اسمين ، احدهما اسم الوالد ، وقلت له إنني من قرية السخنة أيضاً ، وهذا خالي ، أرافقه لأول مرة الى هذه « الديرة » ، ليشتري جمالاً كما اخبركم . وصل الاستجواب إلى حد زعم فيه الدركي انه يعرف السخنة ، وأنه أقام سنين في مخفرها ، وانه يعرف أهلها كلهم ، وأخذ يسأل محمد الديب عمن يعرف من أهل السخنة ، وهذا يعدد له محمد الخالد ، وصالح الحسين ، وعلي العمر ،

وعبـــد الله الصطوف والدركي يسأل : « من تعرف غيرهم ؟ » . وأخيراً سأله الدركي ان يصف له علي العمر الذي زعم الدركي انــه يعرفه حق المعرفة ، فأخذ صاحبي يصفه اليه بأنه اسمر الوجه طويله ملتح لحيته سوداء وخطهـــا الشيب قليلاً ، ربع القامة ، في العقد الخامس من عمره . وطال هـــذا الجدل والخلط ، وكلاهما كان كاذباً فيه ، فلا صاحبي من السخنة ، ولا الدركي يعرف احداً من اهلها ، وتجدد السؤال عن السبب الذي جئنا من أجله الى هذا الحي ، وهل نعرف مدينة حمص ، ومن نعرف من أهل حمص؟ واين الجمال التي اشتريناها ؟ ومن اين المال لشرائها ، وليس في جيبنا شروى نقير ؟ وأين هويتكما ، أو ورقة تسجيل نفوسنا ؟ فأجابه رفيقي باننا جئنا لأول مرة الى هذه الجهات ، مـــع قافلة من اهل السخنة ، ذهب افرادها الى حمص ، وتخلفنا في قرية « شنشار » نستفسر عن اسعار الجمال ، لاننا نشتغل في بلدنا جمالة ، ونتجر بالجمال ، ولما لم نجد فيها كل مطلوبنا جئنا الى هذا الحي نسأل اهله عن جمـــال للبيع ، واننا لا نعرف أحداً في حمص ، ، ولم نأتها من قبل ، والجمال التى ارتبطنا بصفقتها في شنشار ، والتي سنرتبط بها هنا لا ندفع ثمنها الآن , لأننا لا نحمل نقوداً في البرية ، وخاصة في هــذه الظروف ، ولكننا سنلحق بقافلتنا في حمص ، فلنــا بينهم شريك غني له عميل في حمص يتدارك منه كل ما نحتاج اليه من نقود ، ولم تجر العادة ان نحمل معنا اوراق نفوسنا ، ولم نجيء قبل هذه المرة الى هذه المنطقة لنعرف ان النظام يحتم علينا حمل اوراق نفوسنا ، والتفت الدركي فجأة الى اهل البيت ومن معهم من رجال الحي ، وسألهم : « يا معشر النعيم ! هل من عادتكم بيع الجمال ؟ وهل لكم سابق معرفة بهذين الرجلين ؟ » ، فرد عليه صاحب البيت بهدوء الاعراب واتزانهم : « والله يا بيك ! ليس لنا معرفة بالرجلين ، وهمـــا ضيفان حلا في بيتنا ظهر اليوم ، وسألا عن جمال للبيع في حينا ، فأخبرناهما بان ليس لدينا اباعر غير ما يحمـــل منها بيوتنا ! وتغديا ، وناما ، وليس من عادة الاعراب ان يحققوا عن هوية الضيف ، او يسألوه ، فقـــد يكون في

السؤال ما يزعجه او يضره ! والتفت الدركي الى ديبو ليفحمه بان عشيرة النعيم لا تبيع الاباعر ، فقال له هذا : « اننا نعرف في بلدنا ان الجمل يباع لدى عشيرة النعيم بزيادة ليرة او ليرتين ذهباً عن سائر الجمال الاخرى ، لأن العشيرة تحسن تربية الابل »، و لم يقتنع الدركي بكل ما قلنا ، واصر على اننا كاذبان ، ولسنا من أهل السخنة ، وهدد بأنهم سيقودوننا معهم الى حمص للتحقيق عن هويتنا ، وقال ان الشبهات والريب تحيط بوجودنا في هذا الحي بالذات ، وجلس الضابط في قعدته موجهاً كلامه الى من في البيت ، وقال : « نحن الثلاثة وجهنا من حمص للتحقيق في أسباب قطع اسلاك الهاتف العسكري بين حمص والنبك في مكان لا يبعد كثيراً عن هذا الحي . وقد جئنا ، وكشفنا في محل السلك المقطوع ، فوجدنا بالقرب منه مدية هذه هي » .
واخرج من جيبه موسى ذات نصاب اسود ربطت بخيط ازرق، عرضها على الحاضرين وقال : « وهذه المدية يحملها عادة الرعاة والأعراب، فلما جئنا الى هذا الحي الذي هو أقرب الاحياء والقرى الى مكان السلك المقطوع ، ووجدنا عندكم شخصين مجهولي الهوية ، مشتبه في أسباب وجودهما هنا ، لذلك عزمنا على ان نقودهما ، ونقود وجوه هذا الحي معنا الى حمص، ونسلمكم جميعاً الى السلطة العسكرية الفرنسية مع الادلة المثبتة والوسائل الاجرامية ، وانتم أدرى مني بما سيصيبكم من العقاب لقطع اسلاك الهاتف العسكري بالقرب من حيكم ، في وقت تشتبك فيه السلطة بمعارك دامية مع الثائرين في قلمون ، وفي الوقت الذي تقبلون في منازلكم اشخاصاً مشبوهين ، تخفون عن الحكومة هويتهم ! .. » فبدا الخوف على وجه الأعراب ، وتكلم صاحب البيت ، وهو كبير القوم ، واقسم الا علم لهم ولا خبر بقطع سلك الهاتف ، ولا يعرفون عن الشخصين إلا أنهما ضيفان نزلا قبيل سويعات للسؤال عن الجمال ، وفجأة سأل الدركي الضابط بالتركية ، وكنت اتقنها في الدراسة زمن الدولة العثمانية : « ما رأيك في الموضوع ؟ » فأجابه الضابط : « انني اشتبه بهذين الرجلين ! .. » ثم

نظر إلي بامعان ، وقال له بالتركية : « لا أدري ! أين رأيت هذا الوجه ؟.. »، وقدرت ان لي اخوة موظفين تنقلوا ، بحكم وظائفهم ، في عدة مناطق سورية ، وانه قد يكون عرف احدهم في تنقله هو ايضـــاً ، وكلهم يشبهونني في السمنة ، فناداني الدركي الثاني ، واجلسني أمامه ، وقال : « ان مظهرك يدل على انك غير سخني، فاصدقني الخبر ! من اين انت ؟ .. »، فأكدت له انني من السخنة ، وان رفيقي خالي، فقال: « كنتما كذباً وبهتاناً.. ان اهل السخنة يلفظون الجيم جيماً مفخمة ،ويقولون عن الجمل جملاً ، وانتما من ساعات تقولان جملاً وجمالاً..وانا ساكت ، ولهجتكما لا تدل ابداً على انكما من السخنة ، فقلت له : « انت صادق يا سيدي ، ولكن الجيم هذه يلفظها الطاعنون في السن.. وهي لهجة قديمة بطلت في قريتنا ، خاصة بين الشباب ! » ، قال : « ها .. اذن انتم تدنتم ! » ، قلت: « لا ادري ان كان هذا مدنية ! .. » ، فالتفت الدركي الأول الى الضـابط ، وقال له بالتركية : « سابتعد بهذا عن البيت ، واسأله عن اسم رفيقه ، واسم ابيه وجده .. وانت بدورك اسأل الثاني هنا عن اسم صاحبه وجده لنرى ان كان هناك خلاف في اجوبتهما ! .. ونتأكد من كذبهما ! .. » ، وامسك بمعصمي ، وقادني الى خارج الخيمة ،وكنت حينها استحث الذاكرة لافطن بالاسماء المزعومة ، واسعفتني الذاكرة بالاسم الأول عبد الرحمن ، واسم ابيه محمد ، ونسيت اسم الجد ، فقد عدد صاحبي امامي عشرات الاسماء ، ولم استحث ذاكرتي لاحفظ منها اسماً واحداً ، واجلسني الجندي على اديم الأرض ، وجلس بدوره امامي ، ووضع يده على رأسي ، يستحلفني بالايمان المغلظة عن حقيقة هويتي ، وهوية رفيقي ، وعاهدني ان قلت الصدق ، على ان يخلي سبيلنا ، فاقسمت له محرجـاً باننا من السخنة ، واننا لم نقل له الا الصدق ، فسألني : « ألا تعرف مدينـــة حمص ؟ ، ألم تدخلها من قبل ، وهـــل سافرت الى مدينة غيرها قبل هذه المرة ؟ » ، فقلت له : « لم اخرج قبل هذه المرة من السخنة ! » ، لئلا يسألني من تعرف من اهلها ، فاقع من جديد بالحرج ، فقال : « واين صنعت هـــذه السن الذهبية ؟ .. » ، فقلت له : « ان هناك طبيباً أرمنياً اسمه آغوب ، كان جاء

الى السخنة وأنا يافع ، فصنع لي والدي هذه السن عنده ! » قــال : « كذبت والله ! » ، ثم سألني عن اسم خالي،واسم ابيه وجده، فذكرت لهالاسمين الاولين، واخطأت في الثالث ، فقلت ان اسم جده عمر ، قال « ارأيت كيف تكذب؟ لقد قال خالك ان اسم جده كريم ، فاستدركت خطأي ، وقلت : « ان اسم جده عمر .. ولكن لقبه كريم ، فغلب اللقب الاسم ! .. » ، فلطمني عــلى خدي لطمة برءوس أصابعه جاءت خفيفة ، وشتمني ، وقال : « انتظر إذن ما سيحل بكما ! .. فأنتما والله ثائران .. ولا بد من تسليمكما للسلطة الفرنسية ، فتعطينا عن كل منكما مكافأة خمسين لـيرة سورية ! .. » ، فقلت له : « ان الله موجود .. وهو يعرف حقيقتنا ، ومطلع على دخيلتنا .. وعلى صدق أقوالنا ، وسيجزي الظالمين ! .. » ، ونهض ، ونهضت ، وعاد بي الى المضرب ، وقـال للضابط : « لا بد لنا من أخذهما معنا الى حمص للتحقيق عــن هويتهما ! .. » ، وجلس يجادل الاعراب الثلاثة في البيت عن قضية قطع خط الهاتف العسكري، وهم يبرءون الى الله منها ! ..

لا بد لي من الاعتراف هنا بان سيمانا ، وتلكؤ رفيقي ديبو بالأجوبة ، والخطأ الذي وقع مني في اسم جده المزعوم ، والخلاف بين مظهري ولهجتي ، وبــين مظهر رفيقي ولهجته ، كلها أمور تخلق الشبهة والريبة حول حقيقة حالنــا ، وتوحي للدركي النبيه الذي تولى اكثر التحقيق والاستجواب بمهارة ، اننا نكتم عنهم هويتنا . ولا بد لي ان اعترف بان الخوف ساور قلبي حيناً ، وايقنت ، ان لحقنا بحمص معهم ، فإننا هالكان لا محالة ، ولكنني تجــلدت ، ولم اظهر اي خوف، ولا بدا علي ولا على رفيقي اي اضطراب ، ولا تغيرت ملامح وجهينا، حتى ان اهل الحي الذين قدروا ولا ريب اننا ثائران، ابــدوا بعدئذ اعجابهم برباطة جأشنا في هذا الموقف الرهيب ، وما علموا انني حزمت امري على ان لا ادع الضابط وجنديه يتخطون مكانهم عنداصرارهم على تنفيذ فكرة مسيرنا الى حمص . وكان اهل البيت يعدون الطعام لهم ، وهم يستعجلونه . وكنت

انكث التراب بعود كان بيدي ، واتكىء احياناً الى جانبي ، كأنني ادقق في خطوط العود على التراب ، في حين كنت ابحث ان كان الضابط يحمل مسدساً ام لا ، وهو نصف مضطجع ، على الوسائـــد بجانبه . وكان يحز في نفسي ، في حال قتل الضابط والجنديين ، اننا سننزل بهذا الحي الذي اضافنا ، وسعى اهله جهدهم لتأييـــد مزاعمنا ، نكبة لا تضارعها نكبة ، لأن السلطة الافرنسية ستبيد الحي ، وتقتل كل من تقبض عليه من رجاله ، لأنهم آووا ثائرين ، ومكنوهما من قتل ضابط وجنديين في منازلهم . بعد دقائق طلب الدركي الثاني صاحب قصة الجيم والحيم المفخمة إبريقاً للوضوء ، وسجادة للصلاة ، فجاءوه بماء وجلد شاة ، وبعد ان صلى صلاة العصر نادى الاعرابي صاحب البيت إلى جانبـــه ، خارج المضرب ، وتحدث معه طويلاً بصوت خافت لم نسمع من الحديث شيئاً ، ثم عاد إلى مقامه في جانب الضابط ، وهمس في أذنه بكلمات ، رأيت الضابط يوافق عليها بهز الرأس ، ثم يلتفت الدركي الينا ، ويسألنا بغتة امام الاعراب : « الا قولا لي ! اين جمالكما الآن ؟ .. » ، فقلنـــا له بصوت واحد : « في شنشاز يا سيدي ! » قال هيا والحقا بجمالكما ، ولا تعودا الى هذا المكان واشكر سعادة الضابط على تلطفه بأخلاء سبيلكما ! » . كدنا لا نصدق آذاننا فيما سمعنا ، وبادرت وصاحبي إلى يد الضابط ، كأننا نكب عليها نقبلها شكراً وتقديراً ، فسحب يده منا ، وقال : « مع السلامة ! .. » ، وشكرنا الجنديين ، وصافحناهـــا ، وخرجنا من البيت بهدوء ، حتى اصبحنا بين اطناب البيت نودع صاحبه الذي شعرنا بان له الفضل في إنقاذنا ، وإذا بالدركي الذي اتعبنا باستجوابه ، واسمه خالد ، وفي وجهه اثر للجدري ، يلحق بنا ، ويضع ذراعيه على عاتقينا ، ويقول همساً : « نحن كلنا مسلمون ، لا نريـــد الاضرار ببعضنا ! .. ولا تقولا اننا لم نعرف من انتما ! .. لذلك اخلينا سبيلكما ، فاذهبا الآن بسلام .. ولكن اذا وقعتما بيد غيرنا ، وسألكما عن هويتكما ، فلا تقولا له انكما من السخنة ، لان مظهركما ، ولهجتكما لا يدلان على انكما منها ، بل قولا اننا من هـــذه الديرة ، فلهجتكما لها اقرب ! .. » ، فشكرناه دون تعليق على كلامه ، وابتعدنا عـــن البيت ، وعندئذ لحق بنا مضيفنا صاحبه ، وقال : « .. والله دفعنا اربع ليرات ذهبية للضابط والجنديين حتى تمكنا من اخلاء سبيلكما ، دون ان نعرفكما .

وهذا المبلغ لا يضيع في طريق خلاصكما .. لذلك ابتعدا قليلاً الآن عن الحي ، وعودا الينا بعد ركوب العسكر ، فهم سيأكلون ثم يرحلون ! »، فشكرناه شكراً جزيلاً ، وحز في نفسي ان تكون عاطفة الجندي التي ابداها لنا وهو يودعنا مأجورة .. وان كانت الرشوة التي استوفوها من صاحب البيت الشهم الكريم الذي اضافنا ، دون ان يعرف قصتنا ، لا تساوي شيئاً بالنسبة لما قد ينالونه من الفرنسيين لو أنهم سلمونا اليهم باعتبارنا من العصاة . وقد عرفت بعد الثورة ان الضابط الذي الذي اعتقلني في منازل عشيرة النعيم أيام الثورة هو الملازم يوسف ضيا من ضباط الدرك في حمص . ولمعرفتي اياه قصة ، فقد مرت السنون، وصدر عفو عن الحكم الصادر عليَّ من المجلس العدلي بالموت،وعدت لأعمل مع ابن عمي نجيب الريس في دمشق في اصدار جريدة « القبس » اليومية بعد المقتبس ؛ وقمت بجولة صحفية إلى منطقة الفرات في سورية ، عدة مرات ، التقيت في احداها ، وفي بلدة الميادين ، بينما كنت في زيارة قائم مقام القضاء في مكتبه ، بقائد الدرك ، وهو برتبة ملازم أول أو نقيب ، لاحظت انني اعرفه من قبل ، وبدأت أستحث الذاكرة حتى تيقنت أنه هو الضابط بطل قصة القبض علي ، وعلى رفيقي ديبو في نزل عشيرة النعيم ، وفاجأته : « من أين نعرف بعضنا من قبل يا حضرة القائد ؟ .. » فقال : « من المؤكد اننا نعرف بعضنا بعضاً من قبل ، ولكن أين تلاقينا ؟ تذكر أنت !.. » ، قلت : « هل كنت يايوسف ضيا بك في حمص عام ١٩٢٦؟» قال : « نعم ! لقد كنت ضابط درك في حمص !. فأين التقينا في ذلك الحين !» قلت : « إذا رجعت بالذاكرة إلى تلك السنة ، تجد اننا لم نلتق في مدينة حمص، بل خارج المدينة في بيت من الشعر .. في حي لعشيرة النعيم غير بعيد عن مدينة حمص !.. » ، قال : « لقد تذكرت .. لقد تذكرت.. أرجوك ألا تفصح بأكثر من هذا !. »، وسكت هو ، وسكت أيضاً ، وظل القائم مقام وبعض الموظفين الجالسين معنا لا يعرفون من القصة ، الا اننا نعرف بعضنا من قبل ! .. وكنت على الرغم من نقمتي على هذا الضابط لأخذه الرشوة من الاعراب لقاء إطلاق

سراحنا ، ما زلت اؤمن بأنني ورفيقي مدينان له بإنقاذنا من ورطة كانت ستسبب ابادة اهل الحي الذي أضافنا واكرمنا ، وعطف علينا العطف كله، دون ان نعرف الى اليوم أسماء رجاله في عشيرة النعيم الذين بدلوا كل نظرتي للاعراب وأبناء العشائر البدوية في الوطن العربي ، وانهم لا يعرفون غير السلب والنهب ، وان المال معبودهم ، لا يحللون في سبيل الوصول اليه ولا يحرمون !.

النجاة والوصول الى حمص

- ٨٧ -

انطلقت ورفيقي « ديبو » غير مصدقين بالخلاص من هذا المأزق بالسهولة التي فوجئنا بها ، وحمدنا الله ، وشكرناه على انه قيض لنا هؤلاء الاعراب ذوي المروءة ، وحدثت رفيقي بما كنت عازماً عليه ، لأن البندقيتين كانتا أقرب الينا من الدركيين وضابطهما ، واذا بصاحبي ينبئني بأنه كان مصمماً نفس التصميم ، لولا أن تداركنا الله بلطفه ، وأطلق الضابط سراحنا ، وابتعدنا عن الحي ، ولذنا وراء تل ، نتوارى عن أنظار الدرك ، حتى رأيناهم يمتطون جيادهم ، ويسلكون الطريق الى حمص ، ثم أتانا رسول من الحي ينبئنا برحيل الدرك ، ويدعونا الى الحي ، فعدنا نجدد لمضيفنا الشكر ، ونتسلم جوادنا ، ونسير الى بيت صاحب الفضل الاول في ايوائنا في المشرع. ولما وصلنا لم نجد جميل العلواني رفيقنا في البيت ، فقد بادر اعرابي من الحي الذي قبض فيه علينا ينذره ، ويقص عليه خبر اعتقالنا ، فأسرع العلواني الى خوض الساقية ، وعبرها منهزماً الى البساتين حيث تغلغل فيها . وقال لنا مضيفه الاعرابي انه ارسل الى البساتين يبحث عنه ، بعد رحيل الدرك وخلاصنا منهم ، ولكن رسوله لما يرجع ، فرجوناه ان يعيد الينا سلاحنا المطمور ، ولما تقلدناه عادت الينا طمأنينتنا ،

وتناولنا عشاء خفيفاً عنده ، ولما اشتدت الظلمة ، حملنا بندقية العلواني ، وقلنا لمضيفنا أن يبلغه ، فيما اذا عاد لأخذ سلاحه ، ان موعدنا معه نفس المكان الذي كنا ذاهبين اليـــه معه في بساتين حمص ، وانطلقنا نحو قرية « بابا عمرو » ، وكلانا لا يعرف الطريق الى زور الجديدة ، فقـــد كان اعتمادنا على العلواني في الوصول اليه ، ولكننا لم نتردد ، بل دخلنا القرية لنهتدي من أحد سكانها الى طريق في البساتين تجنبنا مخفر الفرنسيين على الجسر الذي كان نبهنا اليه مضيفنا الاعرابي ، وفي القرية صادفنا فلاحاً طلبنا منه أن يهدينا السبيل ، فسار معنا شوطاً ، ودلنا الى طريق يوصل الى البساتين القريبة من القرية ، وعاد أدراجه ، فقد كان ، على ما يظهر ، غير مطمئن الى السير ليلاً في العراء مع رجلين مسلحين لا يعرفهما من قبل . ودخلنا البساتين ، وسرنا في طريقها ، وتفرعت أمامنـا الطرق ، وحرنا في أيها نسلك ، واخترنا طريقاً منها ، ثم تسللنا الى بستان على يمين الطريق لعلنا نجد فيه من يهدينـــا سواء السبيل ؛ وعثرنا أخيراً على بستاني نائم قرب كوخه ، أيقظناه فذعر لمرآنا ، ثم اطمأن بعد أن عرف اننا من جماعة نظير النشواتي ، وأكرمنا من جني بستانه ، ثم ســار معنا شوطاً ، وهدانا الى طريق قال انها توصلنا إلى زور الجديـدة ، ولكن الطريق عادت وتشعبت أمامنا ، فاضطررنا لأن نعيد الكرة ، وندخل بستاناً نتسلق جـداره العالي ، ونحمل صاحبه إلى أن يرافقنا ، فأرفقنـا بأجير من بستانه أوصلنا إلى بستان آل السباعي في زور الجديدة حيث وجدنا رفيقنا العلواني سبقنا اليه ، وأخذ مع خاليه ينتظرون وصولنا بفارغ صبر . وقـــد حدثنا أنه تلقى نبأ اعتقالنا من قبل الجند ، وقيل له أن عددهم كبير ، وأنه طلب سلاحه من ربة البيت ، فحثته على أن ينجو بروحه أولاً ، إذ لم يبق من الوقت لوصول العسكر اليه ما يساعد على النبش عن السلاح ، واندفع يعبر الساقية يعدو إلى البساتين ، حتى بلغ بستاناً بالقرب من قرية « بابا عمرو » ، لا تبعد كثيراً عن مخفر الفرنسيين على جسر نهر العاصي ، فخاف أن يراه الجند ، واختفى تحت سياج أول بستان دخله ، ولكن صبية من البدو كانوا يلعبون بالقرب من البستان كشفوا مخبأه ،

وحسبوا أنه من لصوص البساتين ، وجاءوا من منازلهم بعصي انهالوا بها عليه ، ولكنه استطاع أخيراً أن يتفاهم مع كبيرهم اليافع محمد الذي أبعد الصبية عنه ، وجاءه بخبز وماء ، بينما هو كان يبكي رفيقيه اللذين قدر أن مصيرهما سيكون كمصير عصابة نظير النشواتي في حادثة «خربة غازي » . وفي أول الليل خرج من مخبئه ، ورافقه محمد من عشيرة الفواعرة إلى مضيفه من عرب النعيم الذي بشره بخلاصنا من يد الدرك ، وأبلغه رسالتنا ، فشكره ، ورافقه محمد الفاعوري إلى بستان اخواله ، فقد كان محمد خبيراً في طرق البساتين .

قضينا يومي التاسع والعاشر من شهر حزيران عام ١٩٢٦ في بستان آل السباعي ، نختفي فيها نهاراً عن عيون الناس ،وعن عيون الجنود والضباط الذين يرتادون بساتين الجديدة للسباحة وصيد الأسماك والنزهة . وقد غادرنا في ليل اليوم التاسع من حزيران رفيقنا محمد ديب إلى بلدته حماة ، ليجد لنفسه فيها ملجأ يختفي فيه . وأكرمنا أخوال جميل العلواني ، وتداركوا بعض حاجاتنا الضرورية من الملبس . واستقصينا خبر نظير النشواتي ورفاقه فعلمنا انهم وصلوا الى حمص ، وأنهم مختفون في منازل حي « باب دريب » ، فأرسلنا من أخوال جميل من أخبرهم بأننا نريد الانضمام اليهم ، فرتبوا أمر وصولنا ليلاً الى المنزل الذي يقيمون فيه ، ولكننا ساعة وصولنا ليلاً الى المنزل وجدناهم خرجوا لطرق منازل بعض الأغنياء الحمصيين ، وإرغامهم على دفع الأتاوات اليهم كثائرين ، وعادوا قبل منتصف الليل ، وعددهم خمسة عشر مسلحاً ، عرفنا منهم أنهم طرقوا منزل الحاج عاطف الأتاسي ، واستاقوه من مضافته مع أربعة من أغنياء حمص إلى خارج المدينة ، وهددوهم بالاعتقال ، ثم القتل اذا لم يتبرعوا من أموالهم للثورة ، يشترون به السلاح للشبان الذين يريدون الاشتراك بالثورة ، ولا يجدون ثمن السلاح ، فاعتذر الأغنياء بأنهم لا يحملون في جيوبهم نقوداً ، وطلبوا امهالهم ، فأجيبوا إلى طلبهم ، لكنهم لم يرسلوا المال ، وأعلموا السلطة الفرنسية بما حدث لهم ، فاتخذت تدابير مشددة للأمن في المدينة ، ومنعت

التجول من بعـــد صلاة العشاء الى الصبح ، وسيرت الدوريات في الشوارع ، وحصنت المخافر بالاسلاك الشائكة وأكياس الرمل، والرشاشات، وسدت منافذ الأزقة ، ولم تترك للزقاق الواحد أكثر من منفذ واحد . ولا أطيل الحـديث ، فقد لبثت ورفيقي اثني عشر يوماً مع عصابة النشواتي ، لا نأتي عملاً غير تبديل المنازل ، ننتقل كل ليلة من منزل إلى آخر خشية واش أو عين رقيب . وفي النهار كانت رسل العصابة من أهل الحي والأقرباء يحملون الرسائل الخطية والشفوية إلى أغنياء حمص يستحثونهم على التبرع، ودفع الأتاوات إلى نظير النشواتي رئيس العصابة، فوصل إلى أيديهم أكثر من مئتي ليرة ذهبية ابتاعوا بجزء منها مايلزمهم من لباس وسلاح وعتاد ، فلم أقبل أنا وجميل العلواني أن يصيبنا شيء منهـا ، لأننا كنا من حيث المبدأ ، لا نقر هذا الاسلوب في أعمال الثورة ، وقاومناه مع إخواننا ، وأصابنا بسبب موقفنا السلبي منه ، العنت والأذى، وفشلت بعض خططنا الثورية المهمة بسبب لجوء بعض رؤساء العصـــابات إلى أسلوب فرض الأتاوات بالقوة على الناس .

كدنا نقع بالفخ !

- ٨٨ -

سعيت خلال اقامتي في حمص، وكتبت الى اهلي في حماة اطلب ثياباً ونقوداً، فحضرت والدتي الى حمص ، وسعت لدى آل النشواتي الذين كانت والدة جميل تعرفهم ، وتحضر لزيارة ابنها بواسطتهم في حمص ، حتى تمكنت من زيارتي في مخبأ العصابة ، وحملت الي بعض الملابس ، وخمس ليرات ذهبية ، وجدت انها لا تكفي لشراء راحلة استعين بها في الوصول الى الغوطـة ، لذلك قررت ، بعد سفر والدتي الى حماة ، ان أسافر مع جميل العلواني سراً الى حماة ، لعلنا نستطيع

بواسطة اهلنا واقاربنا ، ان نتدارك راحلتين لركوبنا ، وقدرنا ان بقاءنا في حمص لا يجدي ، ويحملنا تبعة ما تقوم به عصابة نظير النشواتي من فرض الأتاوات على الأغنياء بالقوة . لقد تعاهدت مع جميل العلواني على ألا نعود إلى أي منطقة من مناطق الثورة ما لم نحصل على راحلتين لركوبنا ، اذ أن الثائر الطماح مثلنا الى توسيع شقة الثورة لا يستطيع ان يقوم بعمل يفيد الثورة ما لم يكن فارساً يتنقل ، ويقطع المسافات الشاسعة ، ولا سيما بعد ان تم للفرنسيين إخضاع منطقة بعلبك ، وإرغام فوزي القاوقجي على الانسحاب من قلمون ، وحشد قواتهم من جديد لضرب ثورة المتاولة في اكروم ، وثورة الضنية في جبال طرابلس ، بعد زحف حملاتهم الكبرى الى جبل الدروز ، واستيلائهم على عدة مناطق فيه . اتفقنا على السفر الى حماة ، وكلفنا والدة العلواني بأن تستأجر لنا سيارة سائقها حموي يعرفه جميل العلواني من قبل ، على ان يخرج بالسيارة من حمص ، قبل موعد منع التجول ، وينتظرنا في مكان حددناه له خارج المدينة على طريق حماة ، حتى نوافيه اليه في أول الليل ، وارسلنا له في النهار صرتين فيهما حاجاتنا ليضعهما في السيارة ، حتى لا نضطر الى حملهما في اثناء خروجنا مسلحين من حمص ، وتوجهنا بعد غروب الثاني والعشرين من شهر حزيران من المنزل الذي كنا نختفي فيه مع عصابة حمص في حي باب دريب ، الى خارج المدينة ، نتجاوز سداً أقامه الفرنسيون في احد منافذ الحي ، وسرنا بين الحقول والكروم نلف حول المدينة ، والقمر بدراً ، حتى بلغنا السيارة التي كانت بانتظارنا ، وفيها السائق الحموي وقريب له ، فانطلقت بنا مجتازة قرية « تلبيسة » الى قرية « الرستن » وجسرها على العاصي ، فاجتزناه بسرعة ، ومع الاستعداد للمفاجآت ، بسبب وجود مخفر للدرك في الرستن ، حتى اشرفنا من مرتفع بعد الرستن على مدينة حماة وانوارها ، فطلبنا من السائق ان يطفىء مصابيح السيارة ، ويسير بضوء القمر متمهلاً ، وبالسرعة التي توافقه ، ولما اشرفنا على المدافن الجنوبية ، ولم يبق بيننا وبين المنحنى الذي يوصل الى مدخل المدينة بجانب حي آل البرازي ، إلا بضعة عشر متراً ، طلبت من السائق ان يقف ، وهبطت من السيارة مع جميل ،

ورجونا السائق ان يحتفظ لنا معه بالصرتين متاعنا الى الصباح في المرآب ، حتى نبعث اليه من يأتينا بهما ، ويتسلمها منه بإشارة منا ، وودعنا السائق وقريبه ، وانطلقت السيارة لتلف المنحنى الى اليسار ، واذا برجال عديدين يخرجون من مكمن نصبوه للسيارة عند المنحنى ، إذ اتخذوا من المدافن ، ومن مصنع للماء ستراً لهم ، وتمكنوا من وقف السيارة ، والانقضاض عليها ، فأدركنا أننا وقعنا في كمين نصب لنا ، وبادرنا الى ترك طريق السيارات ، والفرار باتجاه الشرق ، والشمال الشرقي ، والقى جميل العلواني بعباءته على قارعـــة الطريق ، والقيت ايضاً بمعطفي الذي كنت حملته لاستر به سلاحي عند دخولنا حي العليليات في الجنوب الشرقي من المدينة ، وفيه اقرباء لي واقرباء لجميل ، كنا قد قررنا ان يلجأ كل منا الى منزل من منازلهم ، والاختفاء فيه ، على ان نبقى على صلة في تدابير أمر الراحلتين لركوبنا . لم نستطع ان نقدر عدد الجنود في الكمين ، اذ ان ضوء القمر ، والاصح نور البدر ، كشف لنا عن اشباح كثيرة تتحرك ، وتخرج من مخابئها ، ثم تركض ، وتتكأكأ على السيارة ، ثم ينفرط عقدها لتلحق بنا ، فلم نجد أمامنا غير الركض نجري بشدة نحو الشرق مبتعدين عن المكان ، والرصاص يئز من حولنا ، ويجانب آذاننا ، والخطى المسرعة تسعى وراءنا ، وتلاحقنا بشدة اكثر ، واصوات قوية تنذرنا بالوقوف ، وتدنو منا ، حتى لم يبق بيننا وبين المتقدمين من مطاردينا إلا عشرات الخطوات ، فقلت لجميل علينا ان نطلق النار والا قبض علينا ، وفعلاً أدرنا ، نصف اجسامنا الى الوراء ، وانطلقت من بندقيتينـــا رصاصتان ، هلعت لهما ، على ما يظهر ، قلوب مطاردينا ، فتوسدوا الأرض ، وسددوا بنادقهم لقتلنا ، ونحن على مرأى منهم في ضوء القمر ، فخرقت رصاصتان كفية العلواني التي كانت تلوح اطرافها في الهواء ، وتابعنا اطـــلاق الرصاص ، فبعدت عن مسامعنا اصوات : « امسكوهم !.. اذبحوهم !.. » ، ولكن تسديد الرصاص من القوم كان مركزاً علينا ، وكنت أمعن في الركض شرقــاً ، والى الجنوب الشرقي احياناً مبتعداً عن مدينة حماة ، وحي العليليات الذي كنا ننوي اللجوء اليه ، لأنني فكرت في عدم دخول المدينة بعد الوف الطلقات التي كهربت

الجو ، والتي تجعل ، في مثل هذا الوضع ، كل داخل الى المدينة عرضة للاعتقال ، لا سيما وفي الصرة التي خلفتها في السيارة جميع أوراقي وجواز سفري الى جانب مفكرتي التي دونت فيها خلاصات عن احداث الثورة ، الى كتاب من سلطان الاطرش الى فؤاد سليم احتفظت به ، بعد استشهاده ، للذكرى ، وكلها تدل على هويتي ، ودوري في الثورة . وكنت رأيت بأم عيني السيارة وقفت ، والتف حولها رجال الكمين ، ولا بد انهم صادروا كل ما فيها ، وقبضوا على السائق وابن عمه من آل عاجوقة الحمويين ، وستساعدهم تلك الاوراق وافادة السائق وقريبه على معرفة هويتنا ، فلا يترك الفرنسيون ، تحت جنح الظلام داراً من دور آل الريس وآل العلواني في حماة ، إلا ويتحرونها بحثاً عنا . لقد كنت وانا أعدو ، استعرض هذا في مخيلتي ، وامعن في الركض شرقاً ، وانحرف قليلاً نحو الجنوب ، بينما كان صاحبي العلواني يجهل ما في صرتي من أوراق خطيرة ، ولا يفطن الى الخطر الذي يتهددنا من دخول المدينة واللجوء الى منازل الأقارب ، فهو كان يعدو شرقاً. ولما ارغمنا المطاردين على التراجع بدأ ينحرف نحو حي العليليات في المدينة ليلجأ اليه ، ولم ينفع ندائي إياه في تنبيهه ، حتى افترقنا في النهاية ، واصبح بيننا فاصل ، ظل يتسع حتى اضاع كل منا الآخر ، وبدأت اصوات الرصاص تصدر عن عمق وبعد ، فأخذت اخفف من سرعة ركضي ، ثم اخذت اسير متمهلاً لاتدارك انفاسي التي تلاحقت من التعب والاعياء ، واعترضت سبيلي حفرة القيت بنفسي فيها ، والصقت اذني بالارض لأتبين ان كان ورائي وقع اقدام ، ولما اطمأننت للسكون ، وهدأ روعي ، وانتظمت انفاسي ، خرجت من الحفرة ، وتابعت سيري بهدوء نحو الشرق ، حتى وصلت الى البساتين على ضفة العاصي قرب منزل ريفي لنجيب آغا البرازي ، ووجدت من باب الحذر التغلغل في البساتين فهي اضمن لسلامتي من السير في السهل المكشوف ، في حال انطلاق قوة للاحقتي وملاحقة زميلي العلواني ، لذلك ولجت بستاناً صادفت فيه ساقية ماء ترفدها النواعير القريبة التي تدور وراء بناية البرازي على ضفة العاصي ، فشربت منها وغسلت وجهي ، وقمت أتردد بين متابعة السير الى المدينة بطريق البساتين ،

أو البقاء في البساتين والبحث عن مخبأ أمين فيها .

ولما أشرفت على ضفة العاصي بجانب الناعورة خطر لي عبور النهر الى الشرق ليصبح فاصلاً بيني وبين المطاردين في حال خروجهم لملاحقتنا ، وخلعت ثيابي فوراً ، وحزمتها في كفية الرأس مع بندقيتي القصيرة وعتادي ، وجربت أن أسبح بالصرة الى الضفة الأخرى ، ولكنني أدركت انني سأفقدها لثقلها ، وأبقى دون سلاح وثياب ، وعدت الى جانب الناعورة ، واخفيت بندقيتي وعتادي في غابة القصب ، بعد ان سترتها بقصبات قطعتها ، ثم ربطت صرة الثياب برأسي وسبحت الى الضفة الثانية حيث لبست ، وسرت أعزل من السلاح ، ادخل من بستان الى آخر ، حتى ابتعدت وتغلغلت في بساتين حي الحاضر ، الشطر الشرقي من مدينة حماة ، ولم يبق أمامي إلا ان أجد الملجأ الأمين في احد البساتين ، وقررت ان أطلع بستانياً على أمري ، واعتمد عليه في ايصال خبري الى أهلي في الصباح ، ويسر الله لي ذلك ، فقد وجدت اصحاب بستان على جانب كبير من المروءة والوطنية ، تلقوني بترحاب ، وهنئوني بالسلامة من سيل الطلقات التي دوت قبل سويعات في الليل ، بعد ان عرفوا انها كانت مسددة الي والى رفيقي ، ونهض احدهم يقودني الى عريشة منخفضة للعنب تواريت تحتها ، واحضر لي حصيراً ووسادة ولحافاً ، وغفوت من التعب ، بعد ان رجوته ان يوقظني في الصباح قبل ذهابه الى المدينة لبيع الخضار .

بعد فجر الثالث والعشرين من شهر حزيران انطلق البستاني بخضاره الى المدينة يحمل معه عنواناً يهتدي به الى اخوتي ، وبعد الضحى استيقظت على بكاء فوق رأسي ، فوجدت والدتي تبكي لحالي ، وكانت اول من وافاني الى البستان من اهلي ، ولما كفكفت مدامعها سألتني : « إلى متى يا بني ستظل ملاحقاً مشرداً تصبح وتمسي والموت منك قيد شعرة ؟ .. » ، قلت : « انت مؤمنة بالله يا أماه ، والآجال محتومة ، فمن جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون ، وأنا

أشقى ليسعد وطني ، فادعي لي بالتوفيق ، وباركي خطواتي ! » . قالت : « سلمتك الى من لا تضيع عنده الأمانات ! » ، وكفكفت دموعها ، وجلسنا نتحدث ، وإذا باخوتي سعيد وعثمان يصلان الى البستان ، وينقلان إلي أن صاحب السيارة الذي نقلنا من حمص فر بسيارته أثناء صدامنا مع قوات الامن ، ولما تعقبوه إلى المرآب لم يجدوه ، فقد اختفى هو وابن عمه ، ووجدوا السيارة فارغة ليس فيها شيء !.. فاطمأننت لهذا النبأ ، وأيقنت أن أمرنا بقي مكتوماً على الفرنسيين ، وقدرت أن صاحب السيارة وقريبه لن يسلما نفسيهما للسلطة لان عقابهما على نقل ثائرين مسلحين في سيارتهما سيكون صارماً ، وقررت دخول المدينة في النهار ، ودخلتها ، بعد أن سلمت بندقيتي وعتادي الى صاحب البستان الذي تكرم في اليوم الثاني ونقلهما إلى بيت خالي علي الريس تحت حمل من خضار بستانه . وهكذا كنت محظوظاً بلقائي بصاحب البستان الشهم الذي آواني رغم الخطر الذي يتهدده من إيواء ثائر ملاحق ، ونقل رسالتي إلى أهلي ، وحمل والدتي على دوابه الى البستان ، بعد أن ترك خضاره لجاره يتصرف بها ، ثم حمل سلاحي من مخبئه بجانب نهر العاصي إلى بستانه ، ومن بستانه الى المنزل الذي لجأت اليه ، فله في قلبي منزلة لا تقدر لأنها تعبر عن طيب أرومة شعبنا العربي وطبقاته الكادحة ، وتضحياته في سبيل حرية وطنه .

قبيل غروب اليوم الذي دخلت فيه مدينة حماة ، جاءني اخوتي يخبرونني بأن الحاج حمدو عاجوقة سائق السيارة الذي حملنا من حمص إلى حماة سلم نفسه الى عبد الله الشركس قائد الدرك في حماة الذي يعرفه السائق من قبل ، وكان كثيراً ما يقدم له سيارته يستخدمها في نزهة أسرته وأولاده دون أجر ، فقد استدعى القائد اليه ، صبيحة يوم الحادث ، شقيق السائق ، وسأله عن سبب اختفاء أخيه ، وعدم استسلامه لرجال الامن ؟ وسأله عن الحادث ، فقال له ان أخاه كان قادماً في الليل من حمص بسيارته متأخراً ، بسبب عطل طرأ عليها في الطريق ، فاعترض سبيلها بعد هضبة الرستن المطلة على حماة رجلان مسلحان ببندقيتين ، وضعا الحجارة لسد الطريق ، فاضطر للوقوف ، وركبا معه ، بعد أن أرغماه

على اطفاء مصابيح السيارة . ولما بلغ المقابر في مدخل المدينة، طلبا منه الوقوف، ونزلا من السيارة ، وذهبا في حال سبيلهما ، دون أن يعرف هويتهما ، ولما اعترض رجال الامن سيارته ، وقف لهم ، وقد فتشوا السيارة ، ولم يجدوا فيها شيئاً ، ولكن عندما وقع الصدام بينهم وبين المسلحين خاف أن يصاب برصاص الفريقين، وخاف مسؤولية ركوبهما معــه ، لذلك فر الى المرآب حيث وضع السيارة ، واختفى ، ولا أعرف مكانه ! .. فقال له عبد الله الشركس : « انت تعرف أن أخاك صديقي وعزيز علي ، ومن حديثك تبين ألا غبار على تصرفـه ، ما دام المسلحان أرغماه على الوقوف، وركبا سيارته قسراً ، فليأت إليَّ استجوبه ، ثم أطلق سراحه !.. » ، ومد يده الى شاربه ، وأمسك به ، وأقسم بشرفه أن أخاه لن يمس بأذى ، ولا يعتقل اذا جاء وسلم نفسه اليوم ، فتوجه الأخ وروى لأخيه حديث قائد الدرك ، فخدع هذا بعهد مجرم ولاه الفرنسيون قيادة درك حماة ليخدم مصالحهم، وسلم نفسه لعبد الله الشركس الذي سأله عن هوية الثائرين اللذين جاء بهما في سيارته إلى حماة ، ولما كرر حكاية المسلحين، واعتراض سبيل السيارة، صفعه ، ثم وسده الارض لتأخـذ السياط نصيبها من جسمه ، فاضطر المسكين لان يعترف بهوية جميل العلواني الذي يعرفه من قبل ، وأقسم بالايمان المغلظة انه لا يعرف هوية رفيق العلواني، فضبطت إفادته ،وسجن ، وسيق إلى سجن حلب العسكري المسمى « خان استانبول » حيث ظل ستة أشهر سجيناً قيد التحقيق والمحاكمة ، ووكل أمره في حلب الى محام مسيحي قدير استوفى منه حوالي مئة ليرة ذهبية ، ولكنه أنقذه من السجن الطويل ، فقد برأه من تهمة نقل الثائرين ، واخلي سبيله ، وعاد الى العمل في السيارات ، فرزقه الله ، ووسع عليه من الرزق أكثر مما خسر . وكان كلما زارني في دمشق يحدثني بنعمة الله عليه ، وما در عليه من رزق ، بعد السجن بسببنا ، ويحمد الله على نعمائه . وقد حفظ هــذا الرجل الشهم أيضاً أغراضنا وأوراقي ، ولولاه لضاع عليَّ الكثير من مذكراتي التي استطعت ان أدونها بأيامها ، وأوقاتها ، وتفاصيلها .

لم يترك الفرنسيون منزلاً من منازل آل العلواني في حماة الا وتحروه بحثاً عن

جميل العلواني ، فاضطر الى العودة خفية الى حمص ، وشدد الجواسيس وعيون الفرنسيين الرقابة على إخوتي وأقاربي ، فتقدم الصديق الشهم مصطفى الباكير البرازي الى أخي ناظم باقتراح عرض عليَّ فيه أن أغادر حماة الى قرية «طلف» القريبة من قرية « حر بنفسه » ومحطتها على الخط الحديدي بين حمص وحماة ، وأهل « طلف » من التركمان ، وأبقى فيها باسم مستعار ، وبوصفي وكيلاً لمالكي القرية ، إذ كان نصفها لمنير البرازي واخوته الدكتور محسن البرازي ، وعبد الكريم البرازي ، ومصباح البرازي ، وشقيقاتهم ، والنصف الثاني لباكير آغا البرازي والد مصطفى الباكير البرازي ، فقبلت الاقتراح تفريجاً لكرب الاقارب ونسائهم الذين اضطرني الوضع إلى أن أختفي في منـــازلهم ، وما يصيبهم من خوف وهلع لوجود ثائر حكم عليه غياباً بالموت مختف في منزلهم ، مهدد كل لحظة بأن يقع بأيدي السلطة ، وينفذ فيه حكم الاعدام .

الفصل السادس عشر

تطويق الغوطة

- ٨٩ -

كنت في الأسابيع الاولى التي قضيتها في قرية «طلف» من موسم الصيف علمت باستيلاء الفرنسيين على مناطق أخرى في جبل الدروز ، وعلى زحفهم الى الضنية وقضائهم على ثورتها ، واستسلام الثائرين في المنطقة ، وزحفهم الى جبال اكروم واخماد ثورتها بعد استسلام زين مرعي جعفر وإخوته وأبناء عمومته ، وزحفهم في التاسع عشر ، والعشرين ، والواحد والعشرين من شهر تموز ١٩٢٦ الى الغوطة ، وتطويقها من الخارج ، وفشل التطويق في بعض المناطق ، ومصرع الكولونيل « فان » قائد إحدى الحملات برصاص الثائرين ، وحصر حملة اخرى في قرية كفر بطنا ، ومصرع عدد كبير من ضباطها وجنودها برصاص المجاهدين ، وان الثائرين بعد هذه المعارك اضطروا إلى الجلاء عن الغوطة ، وعادوا يدخلونها بغزوات لا يكادون يستقرون فيها ، حتى تزحف من دمشق عشرات الالوف من الجند لمطاردتهم . وبلغني استشهاد الدكتور عادل النكدي ، وفائق العسلي ، وحكمت العسلي ، واحمد مريود ، ومظهر السباعي ، وشوكت العائدي ، وزكي الحلبي ،

والأمير عزالدين الجزائري، وعبد القادر مليشو وغيره من الضباط وقادة الثورة ومثقفيها، ولم يحل الشتاء حتى استولى الفرنسيون على السويداء، وصلخد، وشهباء، وتنقلت حملاتهم في مقارن الجبل الثلاثة ، واضطر سلطان الاطرش ومن بقي معه من الثائرين الدروز لأن يلجئوا الى مياه الأزرق من ممتلكات الدروز في شرقي الأردن ، وحتى جلا جميع الثائرين الآخرين الى عمان في شرقي الاردن ، وإلى فلسطين ومصر .

وقد حاول فوزي القاوقجي في شهر آذار عام ١٩٢٧ أن يظهر لعصبة الأمم التي صرح الفرنسيون أمامها انهم قضوا نهائياً على الثورة في سوريا ، إن سوريا ما زالت ثائرة ، فقام بعصابة صغيرة من المجاهدين انطلقت من الازرق في شرقي الاردن الى الصفاة في سوريا ، ومنها ضرب في عرض البادية حتى شارف سلمية وحماة ، وارسل لي بتاريخ ١٩٢٧/٣/٢٦ كتاباً وصلني الى مخبئي في حماة ، وهذا نصه :

عزيزي السيد منير !

تعلم كم أنا مشتاق اليك، فها قربت منك، واني بانتظارك، ومن معك، أو من يود الخروج معك . آلمتني جداً مسألة إخواننا المستسلمين ، إنما عسى ان تكون عبرة للباقين . إن الاحوال جيدة جداً ، وحاملها يفهمكم قسماً من البرنامج . ولربما نحن نتقرب اليكم قريباً، إن تم العمل سريعاً، وان لم نسرع فاحضر انت أيها العزيز . الأخوان الدكتور امين ، وعادل ، وعبد الرحمن وغيرهم ، كلهم يقدمون تحياتهم واشواقهم ، سلامي لكافة الاخوان عموماً وللأخ خصوصاً ، ودم لأخيك .

التوقيع :
فوزي القاوقجي

وقد علمت من الرسول أن عصابة نظير النشواتي تسللت من حمص، والتحقت بعصابة القاوقجي التي فيها من إخواننا الدكتور امين رويحة ، وعادل الحامدي، وعبد الرحمن الحلبي ، وشاكر السباعي ، وهزاع ايوب ، وثائرون من الدروز والدماشقة والحمويين وغيرهم . ولما تلقيت الكتاب بادرت استعد للحاق بالقاوقجي ، فجاءتني أنباء عن وصوله إلى جبل الزاوية في قضاء ادلب ، وان قوات الجيش والحرس السيار في ادلب وجسر الشغور ، وحارم ، ومعرة النعمان ، ولواء الاسكندرونة ، وحلب حشدت كلها لمطاردة عصابة القاوقجي التي كانت لا تتجاوز الثمانين مسلحاً ، وبعد التحاق عصابة حمص بها ناهز عددها المئة ، وان الفرنسيين اعتقلوا قبل وصولها الى الجبال كل زعماء المنطقة الذين لا يطمئنون إلى ولائهم ، وحشدوا في كل قرية من قرى الزاوية قوات من المتطوعة والحرس السيار حتى تقاوم العصابة في كل أرض تطؤها ، ولا تجد من يطعمها . ولما بلغت الجبال ، وجاءتهم أنباؤها سيروا حملاتهم لتطويقها ، واشتبكوا معها في معركة ضارية خسر فيها القاوقجي بضعة شهداء ، وأصيب عشرات من أفراد عصابته بجراح منهم : الدكتور امين رويحة ، وشاكر السباعي ، وأحكم الفرنسيون تطويق العصابة ، ولكن فوزي القاوقجي استطاع بمعجزة ان يخرق الحصار في الليل ، وان يحمل جرحاه ، ويمر بعصابته من بين الحملات ، حتى حتى بلغ مع الفجر جبل الأربعين الذي تغفو على سفحه بلدة أريحا ، ويطل على سهل ادلب الأخضر، لما فيه من أشجار الزيتون. وما كاد النهار يطلع على العصابة التي نفد عتادها، واكثر افرادها جرحى، حتى رأوا حملة فرنسية كبرى تزحف إلى جبل الاربعين الذي لجأوا اليه ، وكان الاشتباك معها معناه القضاء المبرم على كل من فيها ، فتقدم فوزي القاوقجي بمن معه من الفرسان ، وانحدر من جانب الجبل الى السهل منهزماً نحو الجنوب الشرقي ، فلحقت به الحملة ، وتركت جبل الاربعين حيث سلم بقية أفراد العصابة من المشاة ومن معهم من الجرحى . وفي الليل انسحبوا من الجبل يوزعون الجرحى على القرى ، ويتفرقون هم فيها مختبئين عن عيون الفرنسيين .

ولما بلغ القاوقجي وعصابة النشواتي ضواحي حماة في الليل ، كمنوا في جبل صغير شمـــالي مدينة حماة ، يعرف بجبـــل زين العابدين . وكان بعض أفراد العصابة بحاجة الى جياد، لنقل الجرحى ، وللنجاة من مطاردة الجيش الافرنسي الذي استنفر كله للقضاء على العصابة ، فهبط منهم إثنان من الجبل الى طريق السيارات (طريق حماة — حلب) ، ورابطا، بعد العصر ، قريباً من الطريق ، بينما كان بدوي على فرس أصيل يقترب منهما ، طلبا منه الوقوف ، ففربفرسه ، واطلق رصاص بندقيته عليهما ، ولكنهما ردا عليه واصاباه بفخـــذه ، وسلبا فرسه ، وقبل ان يبتعدا اقبل خيالان دركيان إلى مـــكان الحادث على صوت الرصاص ، ووجدا البدوي جريحاً ملقى في الارض ، واثنين يقودان فرسه نحو الجبل ، فحاولا اللحاق بهما ، واطلقا الرصاص عليهما ، ولكن الثائرين ركعا على ركبتيهما ، وصوبا النار الى الدركيين ، فصرعا واحداً ، وسلبا جواده ، والثاني فر الى حماة يخبر السلطة الفرنسية بالأمر ، فقدرت ان فوزي القاوقجي أصبح على ابواب حماة ، وسرعان ما حاصرت القوات الفرنسية في ثكناتها ، واخذت رشاشاتها تطلق النار ، منذ اقبل الليل ، ورغم ذلك دخـــل فوزي القاوقجي واخوانه حي الحاضر في حماة ، واودعوا من معهم من الجرحى في منازل الوطنيين من اهله، ثم انطلقوا الى حمص ، حيث عادت عصابة النشواتي الى قاعدتها ، وظل فوزي القاوقجي والدكتور امين رويحة يتسللان في منطقة حسية وقلمون حتى اجتازا قرية « البريج » ليـــلاً ، وسلكا طريقاً يتجه الى الشرق ، وقد اعياهما التعب ، فعرجا الى خربة او مراح لا يبعد كثيراً عـــن الطريق ، وناما ، ولكنهما استيقظا على ضجة صادرة عن حملة افرنسية مـــن الفرسان قادمة من البريج تسير على الطريق التي سلكاها ، وفي نفس اتجاههما ، فخافا ان يصهل حصان فوزي كعادته عند اقتراب الجياد منه ، فينبه الحملة الى وجودهما في الخربة ، ونهضا يشدان على فم الحصان بقبضتيهما حتى ابتعدت الحملة عن المكان ، واقترح القاوقجي السير في الساعات الباقية من الليل وراء الحملة ، وعلى نفس طريقها ، فكان سيرهم وراء الحملة آمناً ، يشاهدان البخار

من روث الجياد في الحملة الخارجة لمطاردتهم والقضاء عليهم ، حتى دنا الفجر ،



المجاهد شفيق الركابي
وقد كان مع المجاهد زكي الركابي من اول الملتحقين بالثورة

فانحرفوا عن الطريق الى الجنوب، وتعلقوا بالمرتفعات، وظلوا يتنقلون ويكمنون

حتى بلغوا وعرة الصفاة، ومنها الى شرقي الأردن . وكانت هذه الحركة الجريئة التي استطاعت فيها عصابة صغيرة ان تجتازسورية من اقصى الجنوب الى مشارف حلب في الشمال، وتعود بعد معركة دامية خاضتها في جبال الزاوية، والفرنسيون لديهم في سورية اكثر من مئة وخمسين ألف جندي ومتطوع استنفرت كلها للقضاء على العصابة ، دون ان يستطيعوا القضاء عليها ، وعلى قائدها والبارزين من رجالها - كانت هذه الحركة الجريئة من مفاخر الحركات في الثورة السورية .

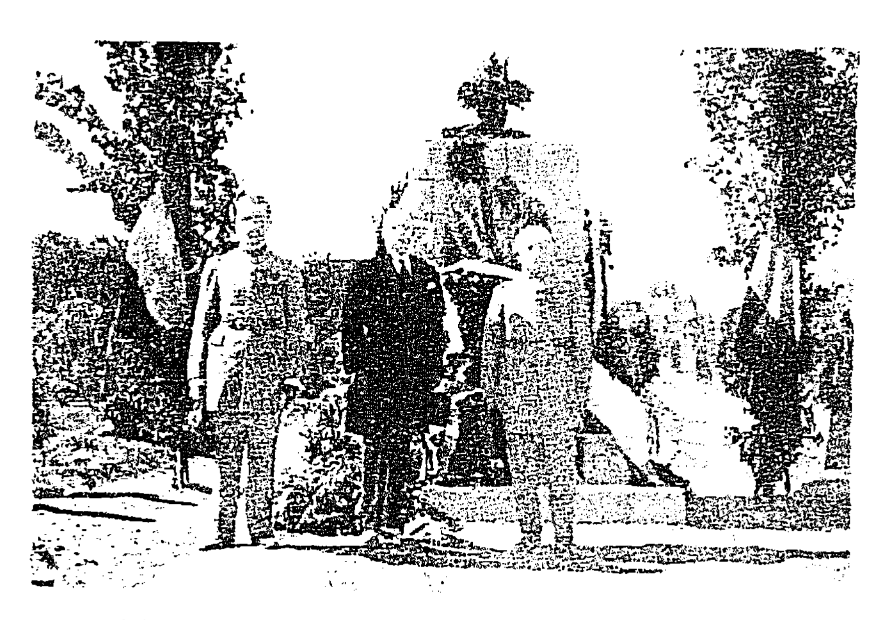
التطويق كما وصفه الفرنسيون

لقد كتب الفرنسيون في صدد تطويق الغوطة ، خلال شهر تموز عام ١٩٢٦ ، فصلاً في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ننقله فيما يلي :

« شطرت التجريدة «ب» الى فئتين : الفئة ب . ١ بقيادة الليوتنان كولونيل « فان » التي كانت تشمل كوكبة ممتازة ، والكوكبة الثالثة من فيلق الصباحيين الجزائريين السادس بقيادة الكابتين « دي سرو » ، وكوكبة الشرق الثالثة بقيادة الليوتنان « غيبار » ، والكوكبة ٢١ من الحرس السيار الشركسية بقيادة الليوتنان « آغار لتلر » ، والفئة ب ٢ بقيادة الكولونيل ماسيه التي تشمل الكوكبات الشركسية الخمس بقيادة الكابتين « كوله » ، وكتيبة فيلق المراكشيين الخامس والستين .

اصبحت كوكبة « دي سرو » في مقر مجهول . ودخل الجيش « كفر بطنا » في منتصف الساعة الحادية عشرة . وقتل الليوتنان « دي كورسيه » ، وتقدم الليوتنان « اغار لتلر » لبرفعه فأصابته ثلاث رصاصات . وكانت احدى فصائل الارتباط قد وجهت بقيادة معاون الضابط الخيال « كوسكه » صوب الكولونيل ماسيه فأختفت آثارها . وبينا كانت قافلة الذخيرة وخفراؤها

يدخلون كفر بطنا حوصرُوا ، فتجمعوا في إحدى الساحات ، وتولى الكابتن « رولسزيه » قيادة الكوكبة الممتازة وفلول كوكبة « اغار لتلر » ، واقبل فارس من كوكبة « دي سرو » الى كوكبتـه يحمل إليها الأمر بأن تقبل على كفر بطنا لإنقاذها ، فأتصل بها في « سقبا » ، فانطلقت مع الكوكبة السورية (غيار) ، فأضطرت هذه الاخيرة ان تنحرف الى الشمال من كفر بطنا ، فطوقها العدو ، وعزلها عن سائر الفصيلة . بيد أن كوكبة « دي سرو » تمكنت بعد عراك عنيف من موافاة الكولونيل « فان » عند الساعة ١٢ وربع . وفي الساعة ١٣ بينما كان الليوتنان كولونيل « فان » يقوم بطواف في صفوف الرماة الذين يقودهم الكابتن « دي رولسزيه » صرعته رصاصة قاتلة ، فوليه في القيادة القومانداد « باليانكو » ، وزادت الحال حراجة . وكان رجال الارتباط



ضباط فرنسيون يزورون قبور قتلاهم التي بلغت عشرات الالوف في الثورة السورية

يقعون في قبضة العدو فيهلكهم، وأصبح الاتصال بكوكبة (غيار) ، متعذراً. واعتصم المحصورون في المنازل . وكان الصباحيون والخيالة السوريون معزولين في الناحية الشمالية ، ولكنهم صمدوا طول الليل أمام غارات العصابات التي يقودها فوزي القاوقجي بنفسه. وكانت شرذمة من الجيش احتلت المأذنة، فأشعل العصاة فيها النار ، ونفروا حماتها ، وقفز الليوتنان « روفيلوا » ورجاله من إحدى النوافذ ، واستطاعوا ان يفتحوا ممراً أمامهم ، ثم انسل الثوار الى السطوح فهاجموا الصباحيين في البيوت التي استقروا فيها، وجرحوا الليوتنان « بيغان » وعدداً من رجاله. ثم انقذ المحصورون في اليوم التالي من قبل الرماة المراكشيين والشراكسة بقيادة « كوله » . كلفت الاعمال من ٢٠ الى ٢٥ تموز ١٩٢٦ من القتلى أربعة ضباط و٦٨ رجلاً ، من الجرحى اربعة ضباط و ١٢٢ جريحاً » .

مصرع الشهيدين احمد مريود وفائق العسلي

- ٩٠ -

وجاء عن مصرع الشهيد احمد مريود ، والشهيدين فائق وحكمة العسلي في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ما يأتي :

« في الايام الاخيرة من ايار ١٩٢٦ جمع كوله كوكبات دمشق الاربع في سعسع ، في ٣٠ ايار ، فضم اليه في « خان أرنبه » كوكبتي القنيطرة . وفي الليلة التالية ، وكانت احدى الكوكبتين منشأة حديثاً ، انطلق بقواته عدواً صوب « جباتا الخشب » وهي على ثمانية اميال من هنالك ، وطوق البلدة ، ودهمها ، وتخلى الثوار عن ٤١ جثة بينها رئيس العصابة واخوه، و ٤٢ بارودة ،ورشاشة،

وكمية كبيرة من الذخائر ، في حين ان الشركس لم يخسروا الا قتيلين وثلاثة جرحى » .



ثلاثة من الشباب المثقف في الثورة السورية
الى اليمين الشهيد فائق العسلي

دور الشراكسة في الجيش الفرنسي

- ٩١ -

وجاء في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق عن متطوعة الشركس في الجيش الافرنسي ما يلي :

« ثلاثمئة الف شركسي هاجروا الى تركية بين سني ١٨٦٤ و ١٨٧٨ ، فأحلهم الباب العالي في مواقع السلطنة الغنية بأقليات نزاعة الى الفتن ، حيث حلوا في « طراقية » ، والروملي الشرقية ، وفي شمال كردستان ، وفي ناحية ازمير ، وفي سورية أخيراً .

وصل الليوتنان كوله الى الشرق سنة ١٩١٩ ، وبدأ عمله في كيليكية . وفي سنة ١٩٢١ عين ضابطاً للاستخبارات في سورية الشمالية (مصياف) حيث اشترك بحملة العلويين على رأس متطوعة الاسماعيليين والعلويين ، وجند بعض الشركس، ومنهم عثمان بك وتوفيق بك . وفي سنة ١٩٢٥ عند بدء الثورة الدرزية طلب أن يسوق في وجه الثوار كوكبته الأولى من الدرك السيار (الحرس) ، فأجيب الى طلبه . ومنذ ذلك الوقت لم يفترق عن الشركس فأصبح روحهم الوثابة . وقد جمع كوكباته من مستعمرة شركس سورية التي يقطنها ثلاثون الفاً من السكان الذين انزلهم الاتراك تلك البقعة بجوار الصحراء لصد غزوات البدو والدروز . ومن الشركس جماعات نازلة بين الفرات وحوران وفي ولاية حلب ، وفي سنجقي حمص ودمشق ، على أن مركزهم الرئيسي منطقة القنيطرة .

اشترك عثمان بك وتوفيق بك الضابطان بحملة الكولونيل « دبيوفر » سنه ١٩١٩ . وفي اخريات عام ١٩٢١ قامت الكوكبة الشركسية في جيش «دبيوفر» على الفرات بما لفت النظر اليها ، فاقترح الكولونيل « بيشو ديكلو » انشاء كوكبات أخرى مماثلة لها فلم يفلح . واستقرت الكوكبة الاولى من الدرك السيار في ناحية أدلب حيث كانت تطارد العصابات بشدة تحت قيادة الليوتنان كوله ، خلال سنة ١٩٢٢ — ١٩٢٣ . وحسبنا التنويه بحادثة جسر الشغور في ٢١ آب ١٩٢٢ ، وموقعة جبل سمعان حيث فرقت شمل العصابة التي أبادت في دركوش مواكبي قافلة البريد المنطلقة من انطاكية ، وتولت نزع السلاح من أقضية جبل سمعان وأدلب وجسر الشغور ، فجمعت (٣٦٠٠) بندقية في اخريات سنة ١٩٢٢ ، ثم استأصلت شأفة الشقاوة خلال سنتي ٩٢٢ — ٩٢٤ .

كان الليوتنان كوله ضابط الاستخبارات في مدينة حلب خلال شهر آب سنة ١٩٢٥ عندما اتصلت به بوادر النجاح الذي أصابه ثوار الدروز ، فسعى ، ورفع كوكبته الى (١٥٠) رجلاً ، وساعده عثمان بك على استكمال هذا العدد من القنيطرة . اشتركت الكوكبة الأولى بحملة الجنرال غاملان على السويداء . في ٢٤

ايلول ١٩٢٥ توغلوا أمام الجيش ، واجتازوا السويداء ، ودخلوا القلعة ساعتين قبل الجيش ، وخسروا اربعة جرحى . وفي اثناء حملة رساس بذلوا فوق ما في وسعهم ، فأتى هذا الاختبار ثماره الناجعة في تشرين الثاني ١٩٢٥ ، وانبثقت كوكبات جديدة من الكوكبة الأولى . على أن هـــذه الاخيرة اشتبكت قبل حلول هذا الميعاد بأشد المعارك وأكثرها مشقة ، فقد أعيدت الى دمشق حيث لم يتسن لها الالمام براحة أو قرار من ١٣–١٦ تشرين الاول إبان اشتعال الثورة في تلك المدينة ، فكانت تتوغل في الغوطة لمواقعة عصاباتهـا ، وتعمل على نزع السلاح من القرى . وفي ليل ٢ — ٣ تشرين الثاني وقعت حادثة قلعـــة جندل فخسرت الكوكبة عشرة قتلى ، وثلاثة عشر جريحاً . وعلى أثر ذلك لم يبق من رجال الكوكبة إلاّ مئة فارس اتخذوا نواة للكوكبات الثلاث التي قررت القيادة أحداثها ، خلا الكوكبات التي يتألف منها حرس « كوله » الخاص . وخصص شهر تشرين الثاني بتجنيد أربعمئة رجـــل ، والعمل على تدريبهم وتجهيزهم ، فنظموا في الوحدات ، ووزعوا على ثلاث كوكبات تتألف كل واحدة منها من (١٥٠) رجلاً . وقد جند نصف هؤلاء الرجال من ناحيتي القنيطرة وحمص ، والحق بالفريق الشركسي الجديد ثلاثة ضباط فرنسيين هم الملازمون « بوتري » و « روتشي » و « هرشان » . أما الضباط الجركس فقـــد اختير بعضهم من الزعماء الحربيين بالوراثة ، وانتقي البعض الآخر من معاوني الضباط في الكوكبة الاولى . وفي أواخر تشرين الثاني اشترك الفريق الشركسي برمته بحملة الجنرال « مارتان » على مجـــدل شمس . وفي أول كانون الأول اكتسح قريتي « بقعاتا » و « مسعدة » ، بعد معركة خاضها فرسانه مترجلين ، فخسروا ثمانية قتلى فيهم الملازم سالم افندي ، واحد عشر جريحاً فيهم ضابط . وفي اليوم التالي تمكنوا من توطيد القدم في تخوم مجدل شمس ، بعد أن خسروا خمسة قتلى وعشرة جرحى ، ثم اعيدت الكوكبات الشركسية الى دمشق حيث اشتركت بتجريدة « فرن » التي أحدثت مخفرين في « اوتايا » ، وفي « حوش خرابو » من ١٤ الى ١٦ كانون الاول . وفي اليوم الرابع عشر هزمت فريقاً من الثوار على مقربة من « حرستا »

وقتلت منهم (١٥) رجلاً ، وغنمت بارودة رشاشة . وفي ١٨ كانون الأول اثناء عمليات تطهير في الزور استولت كتيبة عثمان بك على قرية« حمورية »، حيث تخلى العدو عن عشرين جثة . وفي ٢٩ كانون الأول طوقت « داريا » ، وجردت سكانها من السلاح . وفي ٣١ كانون الأول عام ١٩٢٥ اشتبكت مع العدو بقتال شديد في جنوبي « يلدا » وخسرت قتيلاً وسبعة جرحى. وفي خلال كانون الثاني عام ١٩٢٦ وشباط ١٩٢٦ انشئت كوكبة شركسية رابعة ، وأنيطت بالفريق الشركسي حراسة الأمن على الطريق والخط الحـــديدي اللذين يصلان بيروت بدمشق في قسمها الذي يخترق لبنان الشرقي ، واشترك في الوقت نفسه بحملة « فرن » على « بردى » و « ينطا » و «دير العشائر » . وفي ١٤ كانون الثاني انتزع من عصابة عكاشة في الاشرفية مدفعاً من عيــار (٣٧) ، وكمية من الذخائر . وفي ٩ شباط استدعي كوله مع كوكبتين من فرسانه الى دمشق ، على أن يتولوا الإمــداد الى مخفر احمد باشا (الاحمدية) ، فاشتبكوا مع الأعداء في مزرعة « الخيــارة » ، وخسروا قتيلاً وثلاثة جرحى . وفي اليوم الثـــاني اشتبكوا في الحلوة بعصابة شكيب وهاب فخسر الشركس (٢١) قتيلاً بينهم الادجودان اسكندر بك ، و (١٦) جريحاً ، ثم انحدر الفريق جنوب دمشق ، وقاتل الثوار مرات حول المدينة ، واشترك مع تجريدة « فرن » باعمال التطهير في منطقة «ينطا» ،و«الهامة» وخسر قتيلاً وجريحين . وتُركت في الديماس كتيبتان بقيادة الليوتنان«هرشان»، فتمكنتا من إقرار النظام في تلك المنطقة .ووجهت كوكبتان الى دمشق (الملازمان كوله والساندري) فساهمتا في الحركات على الغوطة حيث وقعت حوادث دوما — اوتايا في ٣ — ٥ آذار ١٩٢٦ التي خسر فيها الشركس ثلاثة قتلى و١٢ جريحاً، وحين إخلاء مخفر احمد باشا (الاحمدية) في ٨ آذار خسروا اربعة عشر جريحاً. وفي خلال ذلك انشئت كوكبة خاصة ، فرأى الليوتنان كوله عندئذ ان يدفع في الفريق الشركسي بعض العناصر من الاسماعيليين والاكراد والدروز والبدو فجاء هذا المزيج بالنتائج الباهرة . زد الى ذلك انه وسع المجال أمام هذه الوحدة من الجيش لاستقصاء ما يفيدها من المعلومات ، وتحري الأخبــار من مصادرها

الراهنة ، وحتمت القيادة الا يكون ارتباط الكوكبات الشركسية بالقوى النظامية ارتباطاً تقييدياً ، بل أن تكون مهمتهم الرئيسية مطاردة العصابات وإبادتها ، وتركت لهم أوسع الحريات من هذا القبيل . كان بدء الحملة الربيعية شاقاً على الفريق الشركسي . واذ كان العصاة يزعجون السكان الشركس في القنيطرة ، وجهت عليها اربع كوكبات (الملازمان هرشان والساندري) ، بيد أن عصابة كثيفة تناهز (٢٢٠٠) رجل هاجمت فرسان الشركس ، بينما كانوا يجتازون قطنا ليلاً . وكانت مفاجأة تعيد الى الذهن مثيلها في قلعة جندل ، واستشرى القتال ، فروع المهاجمون ، وانهزموا تاركين على الحضيض (٤٢) جثة ، وخسر الشركس ٧ قتلى و١٥ جريحاً ، واشترك الفريق بعد القنيطرة بحملة « مارتان » على مجدل شمس ، وكانت كوكباته أول من دخلها في ٣ نيسان ١٩٢٦ ، بعد ان قامت بغارات عديدة شاقة فقدت خلالها سبعة قتلى وخمسة عشر جريحاً ، منهم ضابطان . وانطلق الفريق بعد هذه الموقعة الى دمشق ، ما خلا كوكبة ابراهيم بك التي استقرت في قطنا حيث كان يخرج مراراً على العصابات المرابطة في الغوطة . وفي ذلك الوقت الحق الملازمان « رولان » و « فاليه » بالكوكبات الشركسية .

وفي ١٥ — ١٦ من حزيران اشترك الفريق بحملة التجريدة الثانية على النبك ، وارتبط في مضيق « رنكوس . بتجريدة « ارنو » ، وتراجعت عصابات فوزي في « رنكوس » ، و« عقوبر » امام الغارة التي اغارها صباحيو الكولونيل « فان » وكوكبات الشرق والشركس على الهضاب التي كانت تنهال منها نيران الثوار . وبعد ان قام الفريق بجولة في حرمون يمم دمشق ، وأنشئت عندئذ كوكبتان جديدتان (الليوتنان كوتين وديفاري) فاصبحت الكوكبات الشركسية ثمانياً ، وبوشرت في اواخر حزيران أعمال التطهير في الغوطة ، فتم الزحف المركزي على الغوطة من ١٩ — ٢١ تموز ، اشتركت فيه ست كوكبات شركسية ، خمس منها بقيادة كوله في جيش « ماسيه » ، والتحقت السادسة بقيادة هرشان في

جيش كوكاناس ، وفي اليوم التاسع عشر تقدمت الجيش كوكبة الملازمين هرشان وفاليه ، وانطلقت عدواً الى برزة ، فسقط منها أربعة قتلى وسبعة جرحى ، وفي اليوم العشرين استولى فريق كوله على مزرعة « بالا » مقر العصاة العام ، بعد أن اشتبك بعراك عنيف خسر اثناءه (٢٨) قتيلاً فيها الملازمان قاسم بك ، ومصطفى بك ، و (٣٥) جريحاً بينهم ضابطان . وفي صباح الغد انطلق الملازم كوله على رأس فريقه ، واستوى بهم في مقدمة المراكشيين فاغار على كفربطنا حيث كانت فصيلة الكولونيل « فان » ما برحت محاصرة من الأمس ، فاستولى عليها . وفي الأيام التالية قامت كوكبتان شركسيتان بنزع السلاح من منطقة المرج ، فتحرت اثنتي عشرة قرية ، وجمعت (١٢٠٠) بارودة ، وقتلت (٢٤) شقياً ، وفي خلال آب زحف الجيش على حرمون الذي كانت الفتن تغلي في أرجائه . وفي ٢١ آب انتحى كوله جبل بربر على رأس ست كوكبات ، قطع مسافة عشرين ميلاً في الليل ، واحتل قمته قبل الفجر ، ثم انحدروا على الدروز بالقذائف ففاجأهم ، وأزاحوهم عن مراكزهم فوراً ، ودفعوا بنيران البنادق جماعات العصاة الذين كانوا يقبلون لاحتلال مراكز القتال ، والتوى الفريق الى دمشق في مبدأ أيلول ١٩٢٦ ، ثم انطلق منها في الثامن من أيلول الى لبنان الشرقي ليتولى تطهير تلك المنطقة ، فخرج الليوتنان هرشان بكوكبتين من الشمال ، وسار كوله بثلاث كوكبات من شرقي دمشق ، وتقدم جيشه على سيارة « فورد » كعادته ، فلما وصل الى مسرابا وقع أحد الاشقياء جريحاً في قبضة رجاله ، فأنبأه أن عصابة عز الدين (الأمير عز الدين الجزائري) التي انضم اليها فريق من عصابة عكاشة ، اصبحت


الشهيد الامير عز الدين الجزائري

تشتمل على ١٨٠ رجلاً ، وهي ما تزال في تلك الضواحي ، ثم وافت الكوكبات قائدها ، فأحل ديفاري في الميسرة ، وكوكبة توفيق بك في الميمنة ، وانطلق بكوكبة كوتين مواجهة للعدو ، فلم يشعر العصاة الا والفرسان شدت عليهم ، فبعثرت جموعهم ، وطوردوا بنشاط ، فخسروا خمسين رجلاً ، ومدفعاً رشاشاً ، و ٢٤ بارودة ، و ٣ بنادق رشاشة ، وخسر الشركس قتيلين و ٣ جرحى . وفي ١١ - ١٢ أيلول اشتبك الشركس بمعارك شاقة على ذرى بير جبة الصخرية (شمالي بيررجب) ، واستولوا على بارودتين رشاشتين ، ولكنهم خسروا خمسة قتلى فيهم ضابطان هما الملازم اسلام ، والملازم مصطفى زكريا ، ثم رجع كوله بفريقه الى دمشق . وفي ٢١ أيلول خرج في ثلاث كوكبات ، وتمكن من الأحداق بفلول عصابة عكاشة في جبل قاسيون ، وقطع اوصالها . وانتظمت الكوكبات الشركسية بعد ذلك في تخوم اللجاة الشرقية على نمط تستطيع معه مراقبة العصابات الأخيرة التي لاذت بتلك البقاع ، بعد ان نفرت من الغوطة وحرمون ولبنان الشرقي ، ورابط الليوتنان ديفاري مع كوكبتين في «بويضان» من أجل هذه الغاية . وفي ليل ١٩ تشرين الأول حلت عصابة مؤلفة من (١٥٠) رجلاً انتحت « دير علي » على طريق « براق » ، فتعقبتها على الفور كوكبتا ديفاري واشتبكتا معها عصر يوم ٢٠ منه في « مزار زغبر » فتمكنت من الانفلات ، وطافتا وراءها زهاء يومين ٢٠ و ٢١ تشرين في الناحية الشرقية من الكسوة ، ورجعتا الى دمشق في ٢٢ منه . وفي صباح ٢٣ تشرين الأول جاء ان العصابة في الزور حيال كفر بطنا ، وعلى رأسها فوزي القاوقجي ، والامير عز الدين سليل عبد القادر الجزائري ، وهما أشد خصومنا خطراً ، فخرج اليها كوله في أربع كوكبات زحفت الى المنطقة المعينة ، واذا بنار الرشاشات تنصب على ميمنتها من الزور ، فأغارت كوكبة اليمين على العدو ، وأصابت رصاصة رأس الكابتن رفيق بك عندما كان منطلقاً صوب إحدى الرشاشات ، فاستولى رجاله عليها ، واندفع الفريق برمته الى المعترك فوراً فدار رحى القتال بين الجنائن ، وأخذت كوكبة « رولان » تحت نار من الاسلحة الاوتوماتيكية فسقط من رجالها (١٥)

قتيلاً في بضع دقائق ، وجرح اليوتنان « رولان » والكابتن فــؤاد بك ، واستولت كوكبة فاليه على ثلاث رشاشات ، واستولى معاون الضابط الخيال الحاج بي ذو البأس المشهور على رشاشة واحدة ، بعد أن صرع سبعة أشقياء ، ثم قتل ستة آخرين اثناء الطراد ، فأنهزم العصاة عنـد الظهيرة ، وابتدأ الطراد ، وقتل إبانه الكابيتان عثمان بك من رصاصة تناولته عن بضعة امتار ، بينما كان المـدس في قبضته ، فصرع قاتله اليوتنان هرشان .

وفي منتصف الساعة الرابعة عشرة تمكنت فلول العصابـــة من الانسحاب والتوغل . إن هذه الواقعة الرئيسية (المعروفة في الثورة بمعركة عين ترما) في تاريخ إبادة العصابات قـــد أزالت اشدهن خطراً من حيث البأس والعدد والتسلح ، فقد خسرت في ٢٣ تشرين الاول (٦١) قتيـــلاً بقيت جثثهم على الحضيض ، بينهم سبعة من قدماء ضباط الاتراك او الفيصليـــين ، او رؤساء العصابات ذوي الشهرة ، ونزعت منهـــم اربعة مدافع رشاشة ، وبارودتـين رشاشتين ، وستين بندقية ، وصناديق ذخيرة ، واجهزت في الرابع والعشرين كوكبة هولو الشركسية في منطقة سعسع على العصابة حيث قتلت ثلاثين رجلا بينهم شوكت بك العائدي معاون فوزي. وفي اليوم الخامس والعشرين صرعت كوكبة « ديفاري » في دير الحجر عشرة رجال من عصابة جاءت لنجدة الاولى ، بيد أن الشركس قد أدوا عن هذا النصر ثمناً غالياً فقد فقدوا (٣٥) قتيـــلا و (١٤) جريحاً فيهم رهط من أنصع وجوه ذلـــك الفريق ، فهنالك الكابتن عثمان بك اقدمهم عهداً ومن أشدهم بأساً الذي كان له من النفـــوذ في قومه ما مكن كوله من انشاء كوكباته ، والكابتن رفيق بك الذي انخرط في صفوف النار من بضعة شهور ليحل محل شقيقه صالح بك المقتول في ٢ كانون الاول ١٩٢٥ ، وسبق له فقد ثلاثة من أنسبائـــه في الصفوف الشركسية حيث ما برح منهم عـــدد وافر ، فلما قتل افرزوا رجلـــين من لفيفهم ، فانطلقا ليعودا بجثمانه تحت رشاش الرصاص ، واستمروا على القتال للثـأر له ، واخـيراً قتل الفتى الدرزي سعيد ، وله من العمر ١٨ سنة ، فقـــد كان سائق سيارة

كوله ، واشتهر بين رجال الفريق بعدم الاكتراث والمبالاة، وبإخلاصه لرئيسه، وهو لكثرة ما خرق سيارته من الرصاص أصبح يعتقد أنه معصوم من الجراح .

وساهم الفريق الشركسي بأعمال وادي اللواء من ١٨ — ١٩ تشرين الثاني ، إذ قام في ٢٧ تشرين الثاني مع الكوكبة الدرزية بغارة على قريتي لهيث ودكير . كذلك الكوكبات الشركسية المرقومة من ١٢ — ١٩ ضربت فلول العصابات خلال ايار ١٩٢٧ ، وكان الكابتين كوله مرابطاً على رأس خمس منها عند تخوم اللجاة ، بينما ثلاث ترابط في جنبات دمشق . وفي ١٧ أيار ترك الأمير عزالدين الصفا حيث كان لاجئاً ، ودخل الغوطة على رأس عصابة مؤلفة من خمسين فارساً ومئة راجل، ومر بالنشابية، وانطلق الى بيت نعيم ومزرعة بالا فوجهت الكوكبة الثالثة عشرة تؤازها مفرزتان من السيارات الرشاشة، وهاجمته عند الساعة ١٦ على مقربة من بالا ، وفي الساعة ١٧ وصلت الكوكبة التاسعة عشرة فالكابتين كوله ورجاله . ودار قتال عنيف ، والتوى العدو نحو الشرق ، وتوغل في ادغال الزور ، يحميه ستار من الليل . وتفككت العصابة لما حل بها من الويل ، وتجزأت اقساماً ، فتأثرتها الكوكبات في نهاري ١٨ و ١٩ ، وطاردتها بنشاط. وفي التاسع عشر من ايار ادركت الكوكبات عند « ديريج » في الجنوب الغربي من منين عصبة كبيرة من العصاة يقودها عزالدين نفسه ، فثارت الوقيعة، وطوق الاشقياء ، فاعتصموا في مغارة دافعوا في اكنافها دفاع الحبيس ، وانتهى الامر بصرعهم ، إذ فرقتهم القذائف بعد صدام بالاجساد سقط خلاله حامل العلم الحاج بي بطل الفريق الشركسي ، ذو الشجاعة النادرة المثال. ودمرت عصابة عزالدين (الامير عزالدين الجزائري) تدميراً ، فقد سقط من رجالها (٤٠) قتيلاً ، ووقع في الاسر (٢١) رجلاً فيهم عشرون جريحاً . وقتل رئيسها ومعاوناه . أما الناجون من الموت ، وهم اربعون رجلاً ، فقد طرحوا السلاح ، واستسلموا ، وخسر الشركس في هذه الحادثة اربعة قتلى و١٧ جريحاً .

لقد سقط ثلاثمئة شركسي في ساحات الشرف خلال السنوات ١٩٢٥و١٩٢٦ و ١٩٢٧ » .



ضباط وجنود من الكوكبات الشركسية في خدمة الاستعمار

عصابة تستقر سنتين في مدينة حمص

- ٩٤ -

لم تهدأ عصابة نظير النشواتي التي استوطنت حمص ، واختفت سنتـــين في منازل أحيائها الشرقية ، بل ظلت تنشط لفرض الأتاوات على الاغنياء ، وتتلقى تبرعات الوطنيين، والإفرنسيون على علم بوجودها في المدينة ،عاجزون عن القبض عليها، لأن آل حي باب دريب وما يجاوره من الأحياء الشرقية فتحوا منازلهم للعصابة، يخلون المنزل من النساء والأطفال لتقيم فيه العصابة يوماً او بضعة ايام،ثم ينقلونها في الليل الى منزل آخر ، حتى لا يكون المنزل كشف أو حامت حوله عيون الجواسيس . وقد احاط الوطنيون في الحي واقرباء البارزين فيه العصابة بحماية دقيقة ، فكانت ثكنات الجيش ، ومقر قوات الدرك والشرطة في المدينة تحت رقابة شبكة من شبان تلك الأحياء في النهار . كذلك الطرق المؤدية إلى مكمن العصابة ، كان يجلس، او يحوم حولها النهار كله مراقبون منهم ، فإذا ما خرجت من إحدى الثكنات او دار الحكومة ، او مخافرها قوة في أي ساعة من ساعات النهار ، أو اول الليل ، يخشى جانبها ، قام المراقب من أهل تلك الأحياء بلفت نظر المراقب الثاني القريب منه ، وهكذا تنتقل الاشارة نفسها الى المراقب الثالث ، فالرابع .. وهكذا دواليك حتى يصل الإنذار بلمح البصر الى العصابة ، قبل أن يمضي وقت على حركة القوة الحكومية من ثكنتهـــا او مقرها ، فتعلم العصابة أن قوة تحركت من مقرها قد تكون وجهتها مكمنها ،

فتنتقل العصابة فوراً من المنزل الذي كانت فيه الى منزل جديد حذر أن تكون السلطة ، عرفت بشكل او آخر ، مقر العصابة ، وتستعد العصابة للدفاع .
وقد انتقلت مرة يوم كنت في حمص مع العصابة ، في رابعة النهار ، من منزل في حي باب دريب الى منزل آخر ، واضطررنا ، ونحن بضعة عشر مسلحاً ، ان نمر بسوق الحي ، على مرأى ومشهد من جميع الناس الذين كانوا يروننا ، فنسمع منهم الدعوات والابتهال الى الله أن يحفظنا ، ويعمي عنا عيون العدو ، وينصرنا عليه . وقد كدت أجن مرة من هذا الانتقال في رابعة النهار على مرأى من مئات العيون التي رأتنا في الطريق ، فقيل لي يومئذ : « لا تخش هذه العيون ! إنها عيون أهل الحي ، ليس بينها عينا غريب ! إننا نخشى ان تكون السلطة كشفت بوسائل مخابراتها مقرنا ، لذلك يجب ان ننتقل الى منزل آخر لنفوت عليها فرصة تطويقنا فيه . أما المنزل الجديد فلا نخشى عليه عيون الناس في سوقنا وازقتنا ، فهي عيون اهل الحي ليس بينهم خائن ولا جاسوس ، بل هي عيون تحرسنا ، وتحذرنا من كل حركة أو سكنة ترتاب فيها !.. » . وكنا يوماً في أحد المنازل وصادف عيد لدى الطوائف المسيحية ، واذا بأحد اخواننا غير الثائرين يدخل علينا البيت ، ويخطرنا مضطرباً أن فوزي الملكي متصرف حمص وصل الآن الى حي الحميدية لزيارة احد وجهاء المسيحيين مهنئاً بالعيد ، فبادر بضعة مسلحين من العصابة نهاراً الى الحي لقتل المتصرف ثأراً لتسعة شهداء الذين كان اقترح المتصرف قتل أربعة منهم فوراً في محطة «خربة التين » ، وإذاعة خبر مصرعهم في معركة لم تقع ، ثم نقل الباقين الى حمص ، في ساعة متأخرة من الليل ، للتحقيق عن هوياتهم ، ثم قتلهم . وقد أعتبر شريكاً في حمل مسؤولية القتل التي ارتكبها الفرنسيون ، ولكنهم وصلوا الى المكان بعد ان غادره المتصرف .

بعد سفري مع جميل العلواني الى حماة ببضعة أشهر تقدم خيرو الشهلا شقيق الشهيد سعيد الشهلا ، الى عصابة النشواتي في حمص ، وعاهد افرادها على قتل متصرف حمص ثأراً لدم أخيه الشهيد ، ثم اخذ يترقب الفرصة ، وقد أعد مدية ،

والاصح حربة بثلاثة حدود قاطعة كان يحملها معه دوماً لقتل غريمه . وفي مساء يوم بينما كان المتصرف يسير مطمئناً الى بيته، وقد اصبح على بعد بضعة عشر متراً منه،هاجمه خيرو الشهلا ملثماً بلباس أعرابي، وطعنه طعنة نجلاء بمديته خرقت الظهر الى الأحشاء ، وقطعت كليتيه ، وسحب المدية بسرعة ، فظن المحافظ (المتصرف) إن الرجل الملثم ضربه بقبضة يده على ظهره للتحقير، حتى إنه حاول نزع اللثام عن وجه خيرو الشهلا الذي ابتعد عنه وسارع المتصرف يضغط جرس منزله بشدة ، اضطرت معها زوجته لان تفتح الباب بنفسها ، فوجدت زوجها منفعلاً يسب ويشتم ، فسألته ما خطبه ، ولما اخذ يروي لها ان بدوياً ملثماً ضربه بقبضة يده على ظهره ، لاحظت الدم يسيل من فرجة بنطاله ، ويغطي الارض ، فصاحت الدم !. الدم !. وما وقعت عيناه على الدم حتى سقط مغمى عليه ، فحمل من الباب الى المنزل ، واخبرت السلطة الفرنسية والاطباء بالامر، ورغم جميع الجهود التي بذلت ، والطائرات الخاصة التي حملته من حمص الى حلب ليكون تحت اشراف أمهر جراحيها ، فانه فارق الحياة . وقد فرضت السلطة الفرنسية إثر موته بضعة آلاف ليرة ذهبية غرامة على مدينة حمص ، ثمناً لدم فوزي الملكي، دفعتها المدينة ، وكأنها في فرحة عيد لخلاصها من متصرفها العميل .

مصرع عبدالله الشركس بعد الملكي

ووصل نبأ مصرع متصرف حمص إلى ثائري حماة الذين كانوا رافقوا سعيد العاص الى الضنية ، ثم بعد أخماد ثورتها انسحبوا من الضنية ، وتسللوا ، دون سعيد العاص ، الى مدينة حماة ، وأختفى أكثرهم في حي الحاضر الشطر شرقي العاصي من المدينة . فرأوا أن يقتدوا بعصابة حمص، ويلحقوا عبدالله الشركس قائد درك حماة بمتصرف حمص، فتقدم اليهم رزوق نصر احد شبان حي الحاضر متطوعاً لأغتياله ، فقد كان هذا الشاب اعتقل إثر فشل ثورة حماة ، بتهمة علاقته

بالثورة، وضرب ضربا مبرحاً، وعذب من قبل عبدالله الشركس المجرم المحكوم عليه في سجن حمص ، والذي اخرجه مستشار حماة من السجن بعفو من المفوض السامي الفرنسي ، وولاه قيادة درك حماة . وكان رزوق نصر يتحمل التعذيب اليومي برجولة ، حتى اذا انتهى قائد الدرك من تعذيبه في كل مرة ، كان يقول له : « عذب يا عبد الله ! واضرب بسوطك اليوم ما شئت ان تضرب.. سأخرج يوماً من هذا السجن، وسيكون لي موقف معك !.. » ، فيعود عبدالله الشركس لضربه وتعذيبه حتى تهن يداه . وكانت مدة السجن التي حكم بها رزوق من قبل المحكمة الأستئنائية انقضت، وخرج من السجن يتردد على ثائري حماة في مكامنهم، ويجتمع اليهم ،فاظهروا له استعدادهم لمساعدته ، عند اقدامه على اغتيال عبدالله الشركس ، فأخذ يترقبه حتى علم يوماً انه مدعو للافطار في رمضان على مائدة آل السفاف، في حي الحاضر. وقبيل موعد الأفطار، تقلد رزوق نصر بندقيته تحت عباءته ، حسب الخطة التي رسمها مع عصابة حماة ، وجلس على كرسي بجانب دكان في سوق الحي يترصد منه وصول المدعوين ، واكثرهم من الموظفين، الى بيت السفاف .

وصل عبدالله الشركس قائد الدرك وحارث آمر جباة المالية ، وهو شركسي ايضاً، يسيران متمهلين ، حتى يصلا قبيل اطلاق مدفع الافطار بدقائق قليلة . ولما وقعت عينا رزوق على غريمه ، نهض من كرسيه ، وتمشى حتى اصبح وراءه ، ومد بندقيته من مسافة لا تزيد عن المتر مصوباً فوهتها الى رأسه ، وصاح به : « خذها يا عبدالله من يد رزوق نصر ! .. » ، والتفت عبدالله الشركس . ولكن الطلقة اصابته بالدماغ ، وشالته عن الارض ، ثم انطرح لا حراك به ، وخطا رزوق مبتعداً عن المكان ، ولكنه خشي ان تكون طلقته غير مميتة ،فرجع، ونظر الى وجه غريمه فوجد العين لا أثر لها ، والجمجمة محطمة ، عندئذ أسرع متغلغلاً في الازقة التي كان يحرس مداخلها الثائرون رفاقه ، موزعين هنا وهناك ، وانتقل الجميع من حي الحاضر الى حي السوق

من جسر على العاصي، بعيد عن مراكز الحكومة ، وفي غبشة المساء تسللوا الى منزل وجيه مسيحي في حي المدينة معروف عنه انه من اصدقاء فرنسا، وهناك جلسوا الى مائدة اعدت لضيافتهم، بينما كان الجيش الفرنسي يطوق حي الحاضر، ويتحراه منزلاً منزلاً ، بحثاً عن القاتل الذي لم يخف نفسه ، فقد رآه الكثيرون وهو يصرع عبدالله الشركس الذي جاءت به فرنسا لإرهاب اهل حماة . ولما يئسوا من القبض عليه ، فرضوا على حي الحاضر الفي ليرة ذهبية غرامة دفعها الأهلون في الموعد المحدد لها ، وكأنهم في عيد لخلاصهم من هذا العميل المجرم .

أشتد الفرنسيون بعد هذين الحادثين في البحث عن الثائرين الذين اتخذوا مدينتي حمص وحماة مقراً لهم ، يغتالون اخلص العملاء ، واستطاعوا مرة ان يهتدوا الى مقر عصابة حمص في منزل كانت تكمن فيه ، وطوقوا المكان ، وجاء النذير للعصابة بعد فوات الوقت ، فخرج من المنزل سعد الدين (سعدو) شقيق نظير النشواتي الشاب ، وهو غير ثائر ، وكان في زيارة اخيه وعصابته، واستقبله الجند عند خروجه من الباب برصاص بنادقهم ، وصرعوه ، وانطلق الثائرون الى سطح المنزل ، ونازلوا الجند، واصابوا منهم ، والقوا عليهم رمانات يدوية بعثرتهم ، وقفزوا من الأسطحة الى الازقة خارج التطويق ، ونجوا بأنفسهم .

ولما استعصى امرهم على الفرنسيين جلبوا أمهر جواسيسهم الى حمص لعلهم يهتدون يوماً الى مخبئهم، ووظفوا نساء في دوائر مخابراتهم يطفن محجبات في حي باب دريب وغيره من الأحياء الشرقية ، وحول منازل أسر الثائرين يلجنها اذا ما وجدن باب احدها مفتوحاً . وينتحلن شتى الأعذار لرؤية ما في الدار ، والعثور على أثر للعصابة . فأضطر افرادها لأن يكلفوا اناساً من اقربائهم ومساعديهم غير الثائرين لاقتفاء أثر كل امرأة غريبة يشتبهون بأمرها حتى اذا رأوها تدخل دوائر المخابرات ، وتأكدوا من انها عين للفرنسيين اغتالوها في دارها او في الطريق ، وبذلك انقطع دابر هؤلاء النسوة العاملات في الجاسوسية

الافرنسية ، واغتالوا مرة جاسوساً اسمه رشيد اصله من المغرب ، كان والده معلم اللغة الافرنسية في تجهيز حماة ، جاء به الفرنسيون من حماة ليكشف لهم مقر العصابة في حمص ، وحمل الجاسوس إثر اصابته بالرصاص الى حلب بالطائرة حيث أجريت له عملية جراحية سريعة نجحت ، ولكنه فقد احدى عينيه ، فلما أعاده الفرنسيون الى حمص ليستأنف نشاطه أرسل الى الثائرين يطمئنهم بأنه لن يعمل ضدهم ، وانه سيخدمهم ، وسينقل اليهم كل ما يتصل به من نشاط الفرنسيين ضدهم ، لقاء وعد منهم بألا يغتالوه ، ولا يؤذوه ، وتوطدت صلاته بهم ، حتى أصبح يسهر احياناً معهم ، ويزورهم في بعض المنازل التي كانوا يلجأون اليها ، وبذلك نجا من رصاصهم ، ونجوا هم من تجسسه عليهم ، وأفادوا من عمله في المخابرات . وكان عبد الفتاح النشواتي شقيق نظير النشواتي الاكبر، ويعرف بالحاج دلال ، ترأس العصابة إثر عودتها من جبال اكروم ، وكان بنفسه يدير عمليات فرض الأتاوات على الأغنياء بأعتباره خبيراً بثروات اغنياء المدينة التي لم يفارقها الى ميادين الثورة ، ويستخدم اسم أخيه نظير الذي ذاع صيته اثر نجاته من الموت في حادث رميه بالرصاص .

ولما اعيى أمر العصابة الفرنسيين شجعوا ابن عم نظير النشواتي ، واسمه جميل ، على اغتيال الحاج دلال ، فاغتاله ، ولجأ الى الفرنسيين لعلهم يحموه ، ولكنهم لم يستطيعوا حمايته طويلاً ، فقد تمكن عمر المجرص من أصدقاء الثائرين أن يقتله ،ويلجأ اليهم ويصبح في عدادهم. وقد ظلت عصابة حمص من أول صيف عام ١٩٢٦ الى ربيع عام ١٩٢٨ تخل بأمن المدينة ، وتستهتر بالفرنسيين وجيشهم ومخابراتهم ،حتى دعا «مسيو بونسو» المفوض السامي الفرنسي في عام ١٩٢٨ الشعب السوري الى انتخاب مجلس تأسيسي يضع للبلاد دستورها ، وأقام لهذا الغرض حكومة جديدة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني نجل المحدث الاكبر الشيخ بدر الدين الحسني ، وحدد موعداً للانتخابات ، عندئذ توجه القوماندان « كوله » من كبار ضباط المخابرات في دار المندوب في دمشق مع الكوكبات

التي أحدثها في الثورة من متطوعة الشركس وغيرهم الى مدينة حمص ، وفرض الأحكام العرفية فيها ، ومنع التجول على أهلها ، واخذ يطوق الأحياء واحداً بعد آخر ، ويتحرى المنازل بيتاً بيتاً ، فاضطر نظير النشواتي وخيرو الشهلا وعمر الجرص لأن ينتقلوا من المدينة الى البساتين يختفون فيها .

الجندي المجهول

- ٩٥ -

لما انتهى « كوله » من تفتيش الأحياء المشتبه بها ، وفاجأها مرة بعد مرة ، حول جهوده الى البساتين . وكان الثلاثة يختفون في طاحون الجديدة على مقربة من المدينة . وقد عطل صاحب الطاحون من أجلهم العمل فيها بحجة عطل طرأ عليها يحتاج إصلاحه الى وقت طويل . وبينما كان الثلاثة جالسين للغداء يأكلون من سمك اصطاده صاحب الطاحون ، واذا بباب الطاحون يقرع ، ويدخل فلاح يسأل عن شربة ماء ، فقال له نظير النشواتي : « أكل ماء العاصي الذي امامك لم يرق لك فجئت الى هنا تبحث عن شربة ماء ؟ .. » ومد يده الى بندقيته يريد قتله ، مؤكداً أنه جاسوس ، ولكن خيرو الشهلا قال له : « دع الفلاح الفقير ، فقد يكون غريباً لا يعرف العاصي من قبل ! .. » ، وأعطاه ماء ، ومـــا كاد الفلاح يبتعد عن الطاحون حتى طوقها جيش كوله ، ففزع الثائرون الثلاثة الى مخبئهم في قلب الجغل الذي يدير الطاحون بقوة شلال الماء ، وقبعوا في فجوة منه لا يأتيها الماء ، ولا يمكن لأحد ان يخطر له على بال أن هناك انساناً يستطيع ان يختبىء فيه ، والماء يتدفق من الشلال ، والجغل يدور بقوة هائلة . وكان صاحب الطاحون أوقف تدفق الماء ، ولما استقر الثائرون الثلاثة في مخبئهم ، عاد فاطلق الماء ، ودارت ناعورة الجغل بشدتها المعهودة . ولما طرق الجند باب الطاحون

فتحه صاحبها ، واذا بالقومندان كوله وجنده والفلاح الجاسوس يدخلون بحثاً عن نظير النشواتي ورفيقيه ، والسماط ما يزال ممدوداً في باحة الطاحون ، فلم يستطع صاحب الطاحون انكار وجودهم قبل وصول الجند ، وانما ادعى انهم فروا من الطاحون عندما شعروا باقتراب الجيش منها ، واوغلوا في البساتين ، و كوله يؤكد ان الطاحون مطوقة قبل دخول الفلاح الجاسوس اليها ، ولا يمكن لإنسان ان ينفذ من التطويق ، وان نظير ورفيقيه في مخبأ في الطاحون ، وبدأ التعذيب ، وضرب صاحب الطاحون ضرباً مبرحاً ، ولم يدع الجنود مكاناً في الطاحون الا وتحروه ، وهو يصر على ان ضيوفه رغماً عنه غادروا الطاحون قبل دقائق ، ولا يعرف أين ذهبوا .. واستمر التعذيب المميت ساعات من الظهر الى بعد العصر ، يغمى على الرجل فيصب على وجهه الماء فيصحو ، ثم يعودون الى تعذيبه حتى يغمى عليه ، وحتى لم يبق لجسم بشر ، مهما اعطي من قوة ، ان يحتمل ، فصاح صاحب الطاحون بجلاديه ان اوقفوا التعذيب فسأهديكم الى مخبأ الثلاثة .. وتوقف الجند عن تعذيبه بأمر القومندان « كوله » ، وتحامل على قدميه ، وسار امامهم الى مكان يطل على النهر ، والقى بنفسه في الماء محاولاً الهرب ، ولكن رصاص الجند صرعه ، فمات شهيداً ، وبذل روحه فداء لضيوفه الثائرين الثلاثة ، وانسحب كوله بقواته يبحث في اماكن اخرى عن نظير النشواتي ورفيقيه . ومكث هؤلاء في مخبئهم الأمين الى الليل ، وانتقلوا منه الى مخبأ آخر . وظل كوله يتحرى منازل المدينة حيناً ، ويفاجىء البساتين حيناً ، وهو يعرف ان مخبأ العصابة فيها ، حتى واتاه الحظ مرة ، وفاجأ الثلاثة مختبئين في غابة من القصب بجانب ساقية ماء في البساتين ، فالقى نظير النشواتي وخيرو الشهلا نفسيهما في القناة عندما شعرا باقتراب الجند ، وصاحا برفيقهما عمر المجرص ينبهانه ، ولكنه كان ثقيل السمع لم ينبهه صوتهما ، وهو مضطجع في مخبئه ، فلما أصبح الجند حوله حاول الهرب ، ولكن الرصاص كان أسرع اليه فقضى شهيداً ، ونجا الاثنان من التطويق ، بطريق قناة الماء . وفي الليل غادرا حمص وبساتينها الى قرية قريبة ، ومنها استطاعا السفر بسيارة اعدت لهما ، الى الشمال ، واجتازا

الحدود التركية ، واقاما في تركية لاجئين سياسيين الى عام ١٩٣٧ ، اذ صدر فيه عفو عام عن جميع المحكومين والملاحقين في الثورة السورية ، لم يستثن منهم غير فوزي القاوقجي ، لانه خان بثورته في حماة الجيش الفرنسي ، وخان وسام جوقة الشرف الذي انعمت عليه به فرنسه !..

لقد فضل صاحب الطاحون في زور الجديدة ان يقتل هو لينجو من عذاب لا يحتمل ، خشية ان يعترف لجلاديه بمخبأ ضيوفه ، فكان في عمله ومروءته واخلاصه وتفانيه الدليل القاطع على ان الجنود المجهولين في الثورة السورية ليسوا الثائرين الذين قضوا بالألوف شهداء في سبيل حرية وطنهم ، دون ان يعرفوا كلهم ، أو تذكر اسماؤهم في عداد الشهداء ، او تكتب اسماؤهم في سجل الشرف ولكن الجنود المجهولين اولئك الذين وهبوا حياتهم للوطن ، وهم غير منتظمين في صفوف الثورة ، امثال صاحب طاحون الجديدة الذي أجهل اسمه ، ويعرفه بعض الحمصيين أبناء بلده ، وهب حياته لانقاذ حياة ثلاثة مجاهدين لجأوا اليه في أيام عصيبة ، تطاردهم القوات الفرنسية ليل نهار ، فكتب في تاريخ كفاح سورية أروع صفحة للتضحية والبذل والشهامة والفداء . ولعل الأجيال الصاعدة من أبناء سوريه تخلد اسم هذا الجندي المجهول بنصب يقام له في احدى ساحات مدينة حمص المجاهدة . ومن أحق من هذه المدينة بالنصب وتخليد بطل من ابطالها ، وهي المدينة التي احتضنت في منازلها عشرات الثائرين حوالي عامين ، تخفيهم ، وتقدم لهم العون ، وتسهر على سلامتهم ، وهم يخلون بالأمن ، ويقلقون راحة فرنسة ، ويقتلون متصرفها العميل ، ويغتالون جواسيسها ، ولا يخلص من اتاواتهم اغنياؤها وثراتها .

الفصل السابع عشر

إنتهاء الثورة

- ٩٦ -

اما ثائرو حي الحاضر في حماة ، وعددهم حوالي عشرة ، فقد استسلموا ، بعد مفاوضات ، للسلطة الافرنسية ، في الاشهر الاولى من عام ١٩٢٧ ، وسلموا بنادقهم ، ونقلوا بالقطار الى دمشق ، فلما وصلوا الى محطة البرامكة ، وجدوا قوة من الدرك الفرنسي تنتظرهم ، نقلتهم الى السجن حيث ظلوا فيه بضعة أشهر ، ثم صدر قرار من المفوض السامي بالعفو عنهم ، فأطلق سراحهم ، وعادوا الى حماة. وكانت الثورة في هذه الفترة اخمدت في جميع مناطقها ، واستسلم اكثرية الثائرين للسلطة الافرنسية ، واضطر سلطان الاطرش وبضع مئات من الدروز الثائرين الى الجلاء مع عائلاتهم الى شرقي الأردن حيث نزلوا في مكان قريب من الحدود فيه ماء اسمه «الأزرق» ، يعتبر من أملاك الدروز قبل ان تجزأ سورية الى دويلات ، وتقام بينها الحدود المصطنعة . ولكن السلطة الفرنسية لم ترض عن بقائهم في هذا الموقع على مقربة من حدود سوريا ، وجبل الدروز ، يهددون أمن سوريا ، كلما عن لهم غزوها ومهاجمة مراكز الحكومة فيها ، لذلك كتبت الى حليفتها بريطانيا صاحبة الانتداب على فلسطين وشرقي الاردن ، تطلب منها

اجلاء الثائرين النازحين عن الأزرق، بل عن شرقي الاردن كلها ، فقامت القوات البريطانية بتطويق الدروز اللاجئين ، وانذارهم اما بالجلاء عن اراضي الاردن جلاء تاماً خلال ثمان واربعين ساعة ، واما تسليم اسلحتهم كلها ، والقبول بالمكان الذي تحدده السلطة البريطانية لإقامتهم ، فأختاروا الجلاء ، وأرسلوا مندوباً عنهم الى حيفا يطلب من السيد شكري القوتلي السفر العاجل الى المملكة العربية السعودية ، ومقابلة الملك عبد العزيز آل سعود ، والسعي لديه لإصدار أمر الى عامله على قريات الملح ، كي يسمح لهم بدخول اراضي نجد لاجئين ، والاقامة في القريات . وعند انتهاء أجل الانــذار ضرب الثائرون الدروز في صحراء الاردن متجهين الى حدود نجد حيث وجدوا عند وصولهم اليها الامر صادراً من الملك بقبولهم لاجئين . وقد ظلوا عشر سنوات في منفاهم ، يعمل رجالهـم في تجارة الملح ، ينقلونه الى شرقي الاردن على الجمـال ، ويبيعونه في اسواقها ، ويعتاشون من أثمانه ، ومن الإعانات الضئيلة التي كانت تصل اليهم من الجاليات الدرزية في المهجر ، حتى صدر العفو عنهم في عام ١٩٣٧ ، وعادوا الى الوطن .

الخاتمـــة

قبل ان اختم حديثي عن معارك الثورة السورية الكبرى التي نشبت في عام ١٩٢٥ أود ان اسجل هنا انه نشبت في موقع «عين السويس» في قرية عين ترما ظهر يوم الواحد والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٩٢٦ معركة ضارية بين المجاهدين الذين كان عددهم ١٣٥ مجاهداً ، بينهم حوالي خمسين فارساً ، والبقية من المشاة — نشبت معركة بينهم وبين القوات الفرنسية التي كان أكثرها من متطوعـة الشركس منظمين بكوكباتهم المعلومة ، استشهد فيها من المجاهدين: مظهر السباعي ضابط برتبة نقيب في الجيش العثماني ثم في جيش الحجاز ، والضابط عبد القادر

مليشو من حماة ، حسن وطفة من النبك ، خليل خباز وولده من قرية حرستا. وغيرهم. وقد بلغ عدد قتلى المجاهدين خمسة وأربعين شهيداً . وخاض المعركة فوزي القاوقجي ، والأمير عز الدين الجزائري ، وزكي الحلبي ، وشوكت العائدي ، واحمد شعبان ابو محي الدين من برزة ، وواصف عمر باشا من دمشق ، والدكتور أمين رويحة من اللاذقية ، وسعيد الاظن من دمشق ، وعبد الرحمن حمزة (الحلبي) ، وخليل بصلة من الغوطة وغيرهم . وقد فاقت خسائر الفرنسيين خسائر المجاهدين ، وقتل كبار ضباط الشركس ، منهم عثمان بك قائد متطوعة الشركس برتبة كابتن ، ورفيق بك بمثل رتبته ، وابن الجنرال فلان الفرنسي وغيرهم كثيرون .

وقد اوردت تفاصيل هذه المعركة ، كما وردت في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ، في مكان آخر من هذا الكتاب . قضيت نحو سنة في المخبأ ، واخيراً وسط ابن عمي نجيب الريس رئيس تحرير جريدة المقتبس في دمشق بعض زملائه الصحافيين لدى السلطة الفرنسية لاصدار عفو عني دون ان اسجن او اسلم بندقيتي للسلطة ، فنجحت الوساطة ، وصدر قرار من المفوض السامي بالعفو عني وانا في دمشق اعمل في الصحافة مع ابن عمي نجيب الريس .

فهرست



صدر حديثاً :

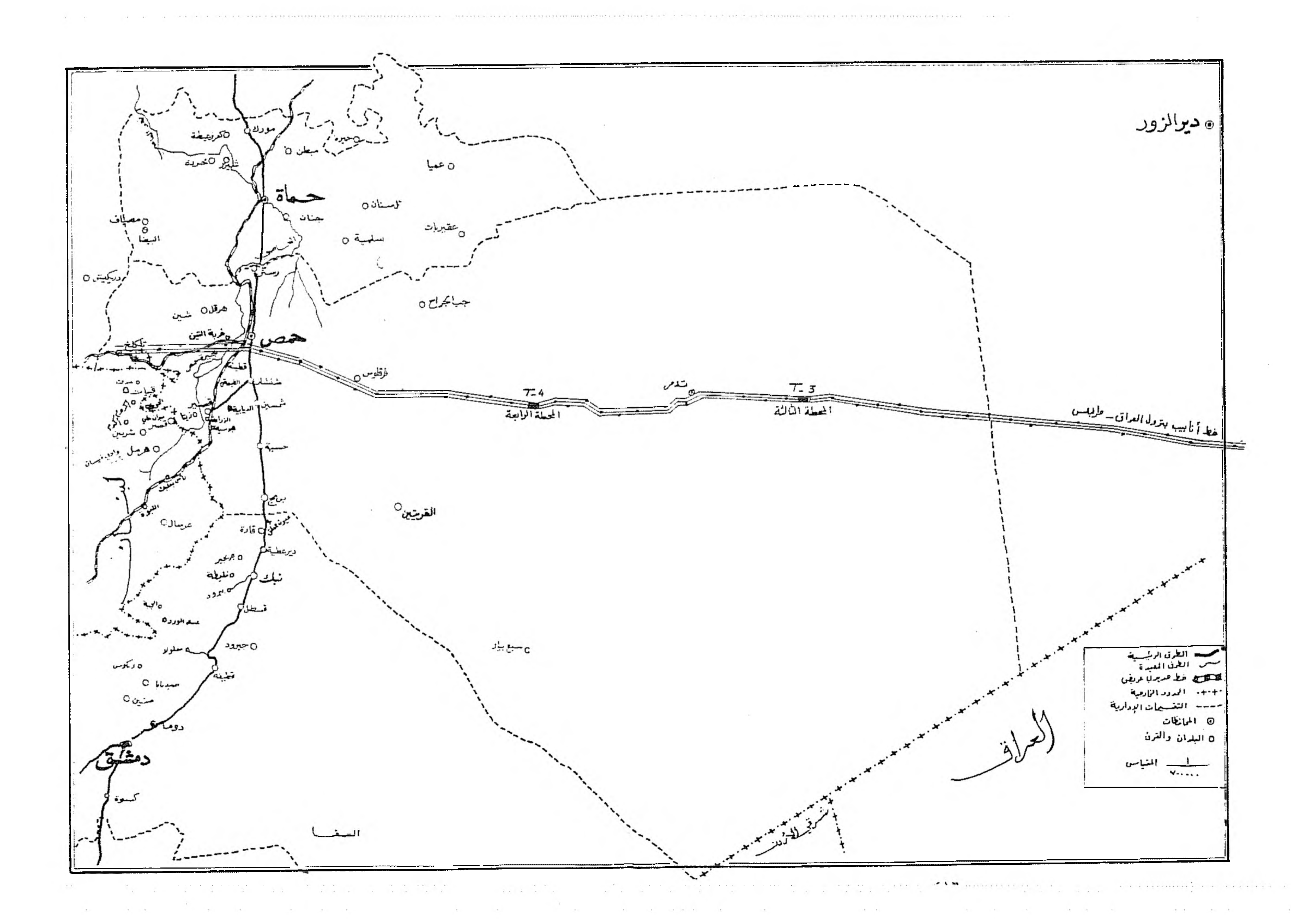
مذكرات وسير ذاتية

سيرة ذاتية	الامير شكيب ارسلان
اوراق ايامي	طالب مشتاق
مذكرات ساطع الحصري الجزء الأول ١٩٢١ — ١٩٢٧ الجزء الثاني ١٩٢٧ — ١٩٤١	ساطع الحصري
مذكرات طه الهاشمي ١٩٢٠ — ١٩٤٣	طه الهاشمي
مذكراتي في صميم الاحداث ١٩١٨ — ١٩٥٨	محمد مهدي كبة
العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨—١٩٢٢	محمد جميل بيهم
قصة ثورة ١٤ تموز والضباط الاحرار	صبيح علي غالب

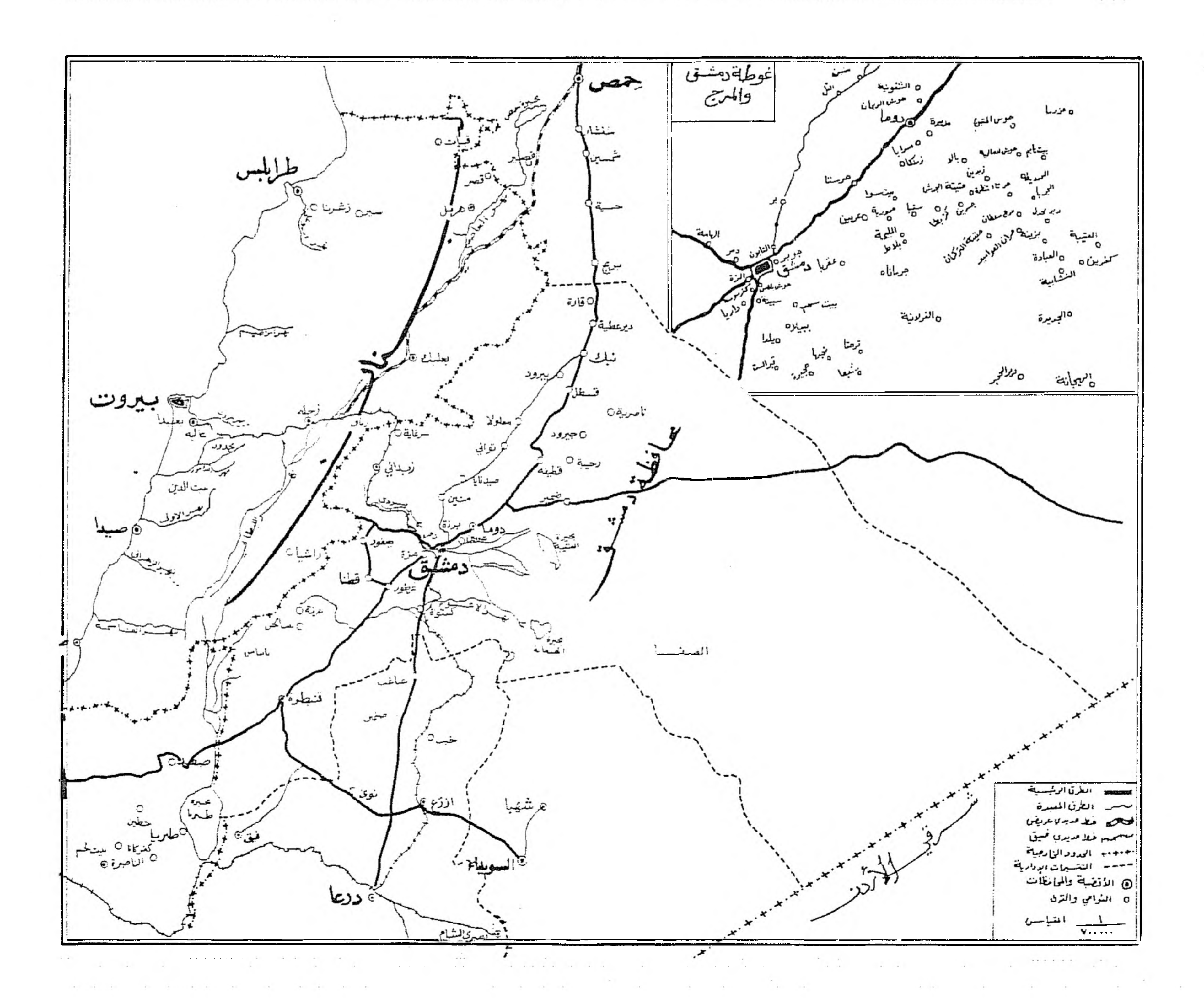
طبع في

دار غندور

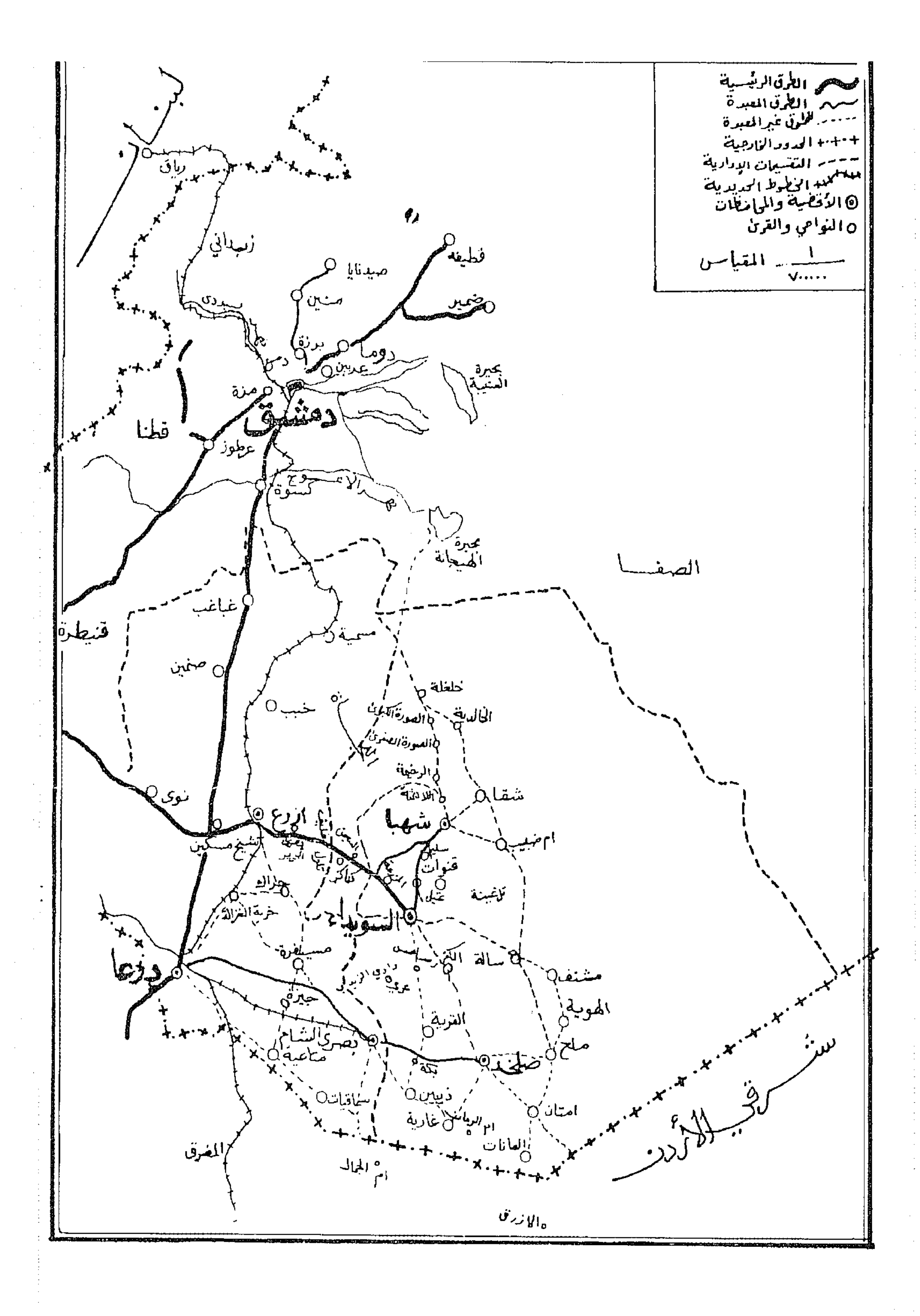
٢٣١ / ٢٠٠٠



دير الزور
حماة
حمص
دمشق
مورك
عميا
سلمية
عقيربات
مصياف
جبا الجراح
فرقلس
تدمر
T-4
المحطة الرابعة
T-3
المحطة الثالثة
خط أنابيب بترول العراق – طرابلس
حسية
القريتين
قارة
دير عطية
نبك
يبرود
قسطل
جيرود
سبع بيار
قطيفة
دوما
كسوة
الصفا
العراق
الطرق الرئيسية
الطرق المعبدة
الحدود الخارجية
التقسيمات الإدارية
المحافظات
البلدان والقرى
المقياس ١/٧٠٠٠٠٠



غوطة دمشق والمرج
حمص
طرابلس
بيروت
صيدا
دمشق
دوما
قطنا
قنيطرة
درعا
السويداء
ازرع
نوى
فيق
صيدنايا
معلولا
يبرود
نبك
قارة
ضمير
قطيفة
الزبداني
بعلبك
زحلة
شهبا
الصفا
محافظة دمشق
شرقي الأردن
حرستا
داريا
كفرسوسة
المزة
جرمانا
الطرق الرئيسية
الطرق المعبدة
خط حديدي عريض
خط حديدي ضيق
الحدود الخارجية
التقسيمات الإدارية
الأقضية والمحافظات
النواحي والقرى
المقياس ١/٧٠٠٠٠٠



الطرق الرئيسية
الطرق المعبدة
الطرق غير المعبدة
الحدود الخارجية
التقسيمات الإدارية
الخطوط الحديدية
الأقضية والمحافظات
النواحي والقرى
المقياس
لبنان
رياق
زبداني
قطيفة
صيدنايا
منين
ضمير
برزة
دوما
دمر
عدرا
بحيرة العتيبة
مزة
دمشق
قطنا
عرطوز
كسوة
بحيرة الهيجانة
الصفا
غباغب
قنيطرة
مسمية
صنمين
خلخلة
خبب
الخالدية
الصورة الكبرى
الصورة الصغرى
شقا
نوى
ازرع
شهبا
ام ضبيب
الشيخ مسكين
قنوات
عتيل
السويداء
مسيفرة
درعا
سالة
مشنف
الهوية
القريا
بصرى الشام
ملح
صلخد
ذيبين
امتان
غارية
العانات
ام الجمال
المفرق
الازرق
شرق الاردن

هذا الكتاب

مذكرات ذاتية كتبها المجاهد الاستاذ منير الريس صاحب جريدة « بردى » في دمشق عن الاحداث التي رافقت حياته ، وتعتبر نضالاً مستمراً : بالسيف في ثلاث ثورات مسلحة اشترك بنفسه فيها ؛ وبالقلم اذ عمل بضع وثلاثين سنة في ميدان الصحافة العربية .

تأتي هذه المذكرات في « الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي » ،بعدة اجزاء يعتبر كل جزء منها مستقلاً عن الآخر باحداثه ومواضيعه ، وهي في جملتها تاريخ صادق للثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ، وثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، وثورة العراق عام ١٩٤١ ، وللقضية السورية خاصة ، والعربية عامة منذ مطلع القرن العشرين الى يومنا هذا .

ويسر دار الطليعة ان تقدم للمكتبة العربية وللقراء الكتاب الاول عن الثورة السورية الكبرى وملاحمها ومعاركها .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ١٢٠ ل . ل .
١٥٠ ل . س .